

تأليف :

أحمد بن أحمد محمد عبد الله الطويل

عضو اللجنة العلمية لمراجعة مصحف المدينة النبوية
ولجنة الإشراف على التسجيلات القرآنية
بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف

قدم له : معالي الدكتور / عبد الله بن عبد المحسن التركي
والأستاذ الدكتور / صالح بن غانم السدلان
ونخبة من العلماء المتخصصين

المجلد الأول

الفاتحة والبقرة إلى الآية ٢٠٣

الطبعة الأولى ١٤٣٨ هـ -٢٠١٦م


بسم الله الرحمن الرحيم

إني قد رأيت أنه لا يكتب إنسانا
كتابا في يومه إلا قال في غده:
لو غير هذا لكان أحسن،
ولو زيد كذا لكان يستحسن
ولو قدم هذا لكان أفضل
ولو ترك هذا لكان أجمل
وهذا من أعظم العبر
وهو دليل على استيلاء
النقص على جملة البشر

العماد الأصفهاني

وقال الشاطبي إمام القراء:

وَإِنْ كَانَ خَرْقٌ فَادَّرِكْهُ بِفَضْلَةٍ   مِنَ الْحِلْمِ وَلْيُصْلِحْهُ مَنْ جَادَ مِقْوَلَا

هذا: ورحم الله من أهدى إلينا عيوبنا.

للتواصل: هاتف متحرك ٠٠٩٦٦٥٦٣٨٩١٩٣٥

أحمد بن أحمد الطويل

١/ ٨٥٢/م
٢٨/ ١١/ ١٤٣٠هـ
المرفقات: كتاب

تصدير

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فقد اطلعت على جزء من كتاب (واحة التفسير) من تصنيف الأخ الشيخ أحمد بن أحمد الطويل، وفقه الله، فألفيته سالكًا مسلك أهل العلم بالتأويل، ألمَّ بجوانب كثيرة من فنونه، كالتقديم بين يدي السورة بما ورد فيها من فضائل، ومناسبة ترتيبها مع ما قبلها، وتلخيص ما اشتملت عليه من موضوعات، وعُني ببيان ما في الألفاظ من وجوه القراءات، معزوةً إلى رواتها من مشاهير القراء، مع توجيهها في اللغة والنحو.

ونسج على منوال أهل التفسير بالمأثور، فيستهل إيضاح الآية بما ورد فيها من أسباب النزول، ثم ما يبينها من غيرها من آي القرآن، ثم من السنة، ثم مما أُثر عن مفسري الصحابة رضوان الله عليهم، ثم مما أُثر عن مفسري التابعين رحمهم الله.

ويُوثِّق ما يذكر من خبر أو أثر، بعزوه لمصدره الذي أخرجه من الصحاح والسنن والمسانيد والمعاجم، وكتب التفسير المسندة، ويتمم الإفادة ببيان حال المرويات من الصحة والضعف، معتمدًا في ذلك على أئمة هذا الشأن من الحفاظ النقاد.

حتى إذا استوفى ما في الآية من تفسير مأثور، عمَدَ إلى ما فيها من مفردات أو جمل، تحتاج إلى إيضاح وبيان، فعطف عليها بما يجلي معناها ويقربه للقاريء المستفيد، في كلمات فصيحة وعبارات جزلة، وأسلوب سهل متقارب.

وذيل تفسير الآيات المحكمات بالكلام على ما يتصل بمعناها من واقع الناس، دون تكلف ولا تعسف، مع استنباط فوائد في التربية والسلوك الاجتماعي، وإيضاح بعض الأحكام التي اشتملت عليها الجمل القرآنية.

أسأل الله تعالى أن يُعم النفع بتفسيره هذا، ويثيبه على ما أودع فيه من علم، حصله من طول بحث اقتضاه جهدًا كبيرًا وصبرًا كثيرًا، والحمد لله رب العالمين.

د. عبد الله بن عبدالمحسن التركي

الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي

٢٨/ ١١/ ١٤٣٠هـ

الرقم ٣٥٨/ ٣١/ش
التاريخ ٢٦/ ٤/ ١٤٣١هـ

تقريظ

الحمد لله، والصلاة والسلام على خير خلق الله، محمد بن عبدالله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه **أما بعد:**

فقد اطلعت على أجزاء من التفسير الموسوم باسم (واحة التفسير) لمؤلفه/ الشيخ أحمد بن أحمد محمد عبدالله الطويل، فألفيته قد اتبع فيه النحو التالي:

أولًا: يكتب مقدمة لكل سورة يبين فيها فضائلها ومحتوياتها وأغراضها في وحدة موضوعية للسورة.

ثانيًا: يضع عناوين مناسبة للآيات، يشرح تحتها المعنى الإجمالي باستفاضة، ويذكر أسباب النزول ومعاني المفردات، ويوضح الجوانب المتعلقة بها من الناحية الفقهية والاجتماعية والأخلاقية وغيرها.

ثالثًا: يعتمد على تفسير القرآن بالقرآن وبالسنة وأقوال الصحابة والتابعين، ويُخرِّج الآيات والأحاديث والآثار من مصادرها الأصلية، وينهج منهج السلف فيما يتعلق بالأسماء الصفات.

رابعًا: يربط الآيات بالواقع المعاصر وغير المعاصر، ويبين ما فيها من عبر وهدايات، وينبه على البدع والخرافات.

خامسًا: يذكر القراءات العشر في الحاشية ويوجهها، ويذكر المتفق عليه والمختلف فيه من عد آي القرآن الكريم.

وبالجملة فهو تفسير نافع مفيد، فيه إضافة جديدة للمكتبة الإسلامية.

أسأل الله تعالى أن ييسر طبعه ونشره، ويعم نفعه ويثيب كاتبه ويأجره خيرًا.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أ.د. صالح بن غانم السدلان

أستاذ الفقه المقارن بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

تقريظ

الحمد لله الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على من كلّفه ربُّه ببيان القرآن الكريم وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقد أنعم الله عليَّ بحضور بعض دروس **(واحة التفسير)** لفضيلة شيخنا العلّامة المقرىء المفسر الشيخ أحمد بن أحمد بن عبد الله الطويل، أثناء إلقائه لها بجامع أبي هريرة رضي الله عنه بحي العريجا الأوسط بالرياض، والذي أتشرف بإمامته، كما أنني اطلعت على جزء منه مصورًا فألفيته نهج بتفسيره أسلوبًا فريدًا حيث اختار موضوعًا للآيات التي يفسرها وجعله عنوانًا لها وحشد لتفسيرها آيات من مختلف السور وأحاديث وآثارًا حرص - قدر الإمكان - على المقبول منها، ثم نزّلها على الواقع من خلال ضرب أمثلة معاصرة ليحقق أحد أهدافه من تأليف التفسير، ألا وهو التيسير على الدعاة بل والعلماء بجمع أطراف الموضوع الذي يحتاجونه.

وسلك شيخنا الفاضل في تفسيره لآيات الصفات منهج سلف الأمة، وهو إثبات المعاني الصحيحة للصفات بعيدًا عن التكييف والتأويل والتمثيل على منهاج قول الله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشُّورى: ١١] كما عُني المؤلف بأسباب النزول وبالمعنى الإجمالي للسورة عمومًا والآيات خصوصًا، وفي الآيات الخاصة بالسيرة، أطنب في ذكر مواقفها الجهادية والتربوية وكذلك فعل في قصص النبيين عليهم الصلاة والسلام، واهتم فضيلته بمناقشة أقوال الفقهاء في آيات الأحكام، وحتى لا يقطع على القارىء حبل أفكاره جعل القراءات في الحاشية، وفي العموم يُعَدُّ هذا الكتاب إضافة مفيدة للمكتبة الإسلامية فيما يتعلق بالتفسير بالمأثور يحتاج إليه كل مسلم، ولذا فهو ضرورة لكل بيت من بيوت المسلمين لا سيما الدعاة والوعاظ والعلماء المتخصصين.

والله أسأل أن يجعل ذلك في موازين حسنات شيخنا الفاضل، وأن يضيفه إلى رصيده مع ما بذله ويبذله من تعليم كتاب الله عز وجل، كما أساله أن يجعل هذه الشهادة خالصة لوجهه الكريم، وأن لا يحرمنا مثل أجره، وأن ينفعني وإخواني به، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

قاله وكتبه

الدكتور/ محمد جاد بن أحمد صالح المصري

المستشار الشرعي

إمام وخطيب جامع أبي هريرة بحي العريجاء الأوسط بالرياض

تقريظ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فقد اطلعت على كتاب (**واحة التفسير**) لمؤلفه فضيلة الشيخ العلامة المقريء أحمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله الطويل، ويقع في خمسة عشر مجلدًا يزيد المجلد عن ست مئة وخمسين صفحة، في نهاية كل مجلد فهرس لموضوعات السورة، فوجدته قد نهج فيه منهجًا فريدًا، حيث قام بجعل عناوين للآيات وتحت هذا العنوان يشرح الآية شرحًا إجماليًا مستفيضًا، ويورد ما يخدم هذه الآية من الآيات الأخرى الممثالة أو المشابهة، مع تخريج كل آية، ثم يضع الأحاديث التي تخدم هذا المعنى مع تخريجها والحكم عليها من مصادرها الأصلية، وإن كان هناك أحكامًا فقهية ذكرها وعزاها للقائلين بها من الآئمة الأربعة، ثم يورد الآثار وأقوال السلف التي توضح المعنى، وقد عُني باسباب النزول لتوضيح المعاني وشرح المعنى الإجمالي للآيات ويبسط القول فيما يتعلق بالسيرة النبوية فيتحدث عن الغزوات وما فيها من مواقف جهادية وتربوية، ولم يُضمِّن تفسيره الإسرائيليات وما في معناها، ومع ذلك فقد عُني ببيان منهج الرسل في الدعوة إلى الله، وأبدع بسرد قصصهم أيَّما إبداع، ويربط ذلك بالواقع كلما أمكن ذلك، ويضرب عليه أمثلة معاصرة، بحيث يمكن للداعية أن يجد موضوعًا متكاملًا عند تفسير الآية أو الآيات يتناوله بالحديث، ولا يتكلف عناء البحث في المراجع.

وقد بدأ كل سورة بتفسير موضوعي يُجمل ما فيها ويستغرق صفحات عدة قبل البدء في التفسير بما يجعل القاريء يلم بمحتويات السورة وما فيها من موضوعات.

وأسلوب التفسير سهل سلس، بحيث يستفيد منه العامة والخاصة فهو يخلو غالبًا من اللغويات والتحليل اللفظي إلا ما لا بد منه لفهم المعنى.

ورأيته فيما قرأت متبعًا منهج أهل السنة وأقوال السلف فيما يتعلق بالعقيدة والاسماء

والصفات وأنواع الشرك والبدع، كما أنه ذكر القراءات العشر الكبرى في حاشية الكتاب حتى لا يقطع المعنى على القاريء العادي مع توجيه القراءات وعزوها ومصادرها، وكذا عدّ آي القرآن المتفق عليها والمختلف فيها.

وقد عُني المؤلف كذلك عناية خاصة بتفسير سورة الفاتحة فتناول جميع جوانبها من معانٍ وأحكام وقراءات وإعراب وتجويد وغير ذلك، كما اعتنى بتفسير آيات الصيام والحج عناية فيها إلمام بكل ما يتعلق بهما من أحكام واتجاهات ومعانٍ ومناسك وما إلى ذلك، وهو يعمد إلى الآيات التي في تفسيرها أقوال واتجاهات فيرجح أقواها سندًا وأدلة ثابتة صحيحة.

وهذا الكتاب إضافة جديدة للمكتبة الإسلامية فيما يتعلق بتفسير القرآن الكريم.

والله أسأل أن يبارك في هذا التفسير، وأن ينفع به مؤلفه، وأن يجعله في موازين حسناته، وأن ينفع به قُراءه والمطلّعين عليه، وينصر به دينه ويعلي به كلمته، وصلى الله وسلم على نبينا وحبيبنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

قاله وكتبه

الدكتور/ نمر بن محمد الحميداني

محاماة - استشارات

مدير عام الشؤون الدينية بالأمن العام سابقًا

تقريظ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وآله وصحبه ومن والاه. **أما بعد:**

فقد اطلعت على أجزاء من هذا السفْر النفيس، والذي دبجته يراعة الشيخ المقرئ أحمد بن أحمد الطويل، وفقه الله ونفع به وبعلمه، فوجدته محررًا ميسرًا جامعًا نافعًا، سهل العبارة قريب المأخذ، يُعنى بالمعاني والمضامين، ويعالج المشكلات من خلال الآيات، ويجعل من القرآن منهاج حياة ودستور عمل.

أسأل الله الذي وفّق الشيخ أحمد لإتمام هذا التفسير الواضح أن ينفع به، ويجعله خالصًا لوجهه الكريم، وفي ميزان حسناته، وأن يقيض الله له القبول والانتشار.

د/ محمد بن عبدالعزيز الخضيري

أستاذ التفسير بكلية المعلمين بجامعة الملك سعود. ٩/ ١/ ١٤٣١هـ

تقريظ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على رسوله الأمين نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين أما بعد: فقد اطلعت على كتاب (**واحة التفسير**) للشيخ المقرىء أحمد بن أحمد الطويل، حفظه الله، فألفيته تفسيرًا جامعًا شاملًا بذل فيه مؤلفه جهدًا كبيرًا، وساق فيه الكثير من النصوص عن العلماء المتقدمين والمتأخرين، وأفاد من كتب المفسرين واعتنى بتخريج الأحاديث والقراءات وعدّ الآى من مصادرها.

وأشرت عليه بالحيطة عند تفسير الآيات بالنظريات الحديثة وإن نقلها بعض المسلمين فإنها تضعف مع تقادم زمنها وربما يثبت بطلانها تمامًا.

واقترحت على الشيخ أن يخرج من تفسيره المبسوط مختصرًا في مجلد واحد ليكون أسهل حملًا وأكثر انتشارًا ومن أراد التوسع عاد للأصل.

أسأل الله أن يجعله عملًا صالحا نافعًا متقبلًا.

كتبه العبد الفقير إلى الله

الدكتورا عبدالعزيز بن عبدالرحمن المقحم

٣/ ٨/ ١٤٣٠

تـقـديـم

الحمد لله الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا، والصلاة والسلام على من أرسله الله هاديًا ومبشرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا، أما بعد:

فلقد اطلعت على جزء من كتاب الشيخ الجليل/ أحمد بن أحمد الطويل، المسمى **(واحة التفسير)** فوجدت مؤلفه قد سار فيه على نهج المفسرين الذين عُنوا بالتفسير بالمأثور، حيث عني بتفسير القرآن بالقرآن ثم بما صح من تفسير القرآن بالسنة النبوية، مع تخريج الأحاديث والآثار وبيان الحكم عليها من أقوال أهل العلم بالحديث، ثم بعد ذلك ينقل شيئًا مما ورد عن الصحابة والتابعين في الآية، كما عني بأسباب النزول، وقرّب بعض معاني المفردات والجمل القرآنية للقارىء المطالع لتفسيره ذلك، كما أوضح الأحكام التي تحتاج إلى توضيح، مع العناية بالقراءات القرآنية.

وقدّم ذلك كله بأسلوب سهل قريب يفهمه القارىء؛ بيد أنه أسلوب عربي فصيح، بعيد عن التعقيد، مرتفع عن الكلام المبتذل.

نسأل الله أن ينفع به الإسلام والمسلمين، ويثيب مؤلفه على ما بذل خيراً، وأن يجعل عمله في سجل حسناته، فهو بحق إضافة قيمة لمكتبة التفسير.

وكتبه

د. أحمد بن محمد عمر الأنصاري

دكتوراة في التفسير وعلوم القرآن، والمشرف العلمي بدار الفرقان الخيرية.
وإمام جامع الأمير مساعد بن سعود بن عبدالعزيز آل سعود بالرياض.

تقديم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا ، أما بعد:

فقد طالعت جزءًا من كتاب: **(واحة التفسير)** تأليف الشيخ/ أحمد بن أحمد الطويل، فوجدته كتابًا اتبع فيه مؤلفه منهجًا علميًّا صحيحًا حيث يذكر تفسير السورة ويقدم لها بتقدمة يوضح فيها فضلها ومناسبتها لما قبلها ذاكرًا أهم الموضوعات التي اشتملت عليها السورة، واهتم بالقراءات القرآنية عَزْوًا وتوجيهًا ثم يفسر القرآن بالقرآن وبالسنة والآثار، ويعزو ذلك إلى المصادر الأصلية التي استقى منها الأحاديث أو الآثار، ذاكرًا درجتها صحة وضعفًا معتمدًا على أقوال أهل الحديث المتقدمين والمتأخرين في الحكم، كما ربط الآيات المفسرة بالواقع كلما وجد لذلك سبيلًا ، مع بعض الوقفات التربوية، مما يجعل عمله هذا قيِّمًا مفيدًا للمكتبة القرآنية.

نسأل الله أن ينفع به كاتبه وقارئه والأمة الإسلامية جمعاء، وأن يجزي الله المؤلف خير الجزاء، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

كتبه

د. نبيل بن محمد إبراهيم آل إسماعيل

عضو هيئة التدريس بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

١٦/ ٤/ ١٤٣٠هـ

خُطْبَةُ الْحَاجَةِ

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شُرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[1] [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

والصلاة والسلام على خَاتم الأنبياء وأشرف المرسلين، ورحمة الله للعالمين سيدنا محمدٍ، وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

((أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وإن أفضل الهدْي هدْيُ محمد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ محدثة بدعةٌ، وكل بدعة ضلالة.[2]

---

(١) تسمى هذه الخطبة (خطبة الحاجة) كما أطلق عليها العلماء، وكان النبي ﷺ يعلمها أصحابه ويستفتح بها خطبة النكاح وغيرها، وكان السلف الصالح رضوان الله عليهم يفتتحون بها كتبهم، ثم يذكر صاحب الخطبة أو الحاجة خطبته أو حاجته بعد هذه المقدمة، وقد وردت هذه الخطبة المباركة عن ستة من الصحابة ﷺ، انظر: تحقيقها للشيخ محمد ناصر الدين الألباني في رسالة بعنوان (خطبة الحاجة) المكتب الإسلامي طبعة سنة ١٤٠٠هـ، وقد استقصى بعض طرقها، ومنها: رواية أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود ﷺ، قال: علَّمنا رسول الله ﷺ وذكرها، وقد أخرجها أبو داود ٢١١٨ في باب خطبة النكاح بإسناد صحيح، كما في «صحيح سنن أبي داود» باختصار السند للشيخ الألباني برقم (١٨٦٠)، وهي في «مسند الإمام أحمد» برقم ٤١١٦ و أبي يعلى ٥٢٣٤ وعبدالرزاق ١٠٤٤٩ والترمذي ١١٠٥، وفي «سنن النسائي الكبرى» ١٠٣٢٧، وابن ماجة ١٨٩٢ وغيرهم، وكلهم عن ابن مسعود ﷺ. وهو حديث صحيح، و إسناده صحيح على شرط مسلم، ورجاله ثقات رجال الشيخين غير أبي الأحوص فمن رجال مسلم، وللحديث طرق أخرى.

(٢) من حديث طويل عن جابر في مسند أحمد (١٤٣٣٤) بهذا اللفظ، قال محققوه: حديث صحيح، وهذا إسناد حسن من أجل مصعب بن سلّام وقد تُوبع. وعند البيهقي في الأسماء والصفات ص ١٨٩ واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد: زيادة (وكل ضلالة في النار) موقوفًا على ابن مسعود بإسناد ضعيف، ينظر: تحقيق المسند (٢٢/ ٢٣٨و ٢٣/ ٢٣٥)

سَبَبُ كِتَابَةِ التَّفْسِيرِ

ثم إني قد عملتُ إمامًا وخطيبًا في وزارة الأوقاف المصرية مدة عشر سنوات، وعملتُ إمامًا وخطيبًا للمسجد الجامع بمستشفى القوات المسلحة في الرياض مدة اثنين وثلاثين عامًا، وتعلمتُ أن الخطيب الجيد هو الذي يُحضِّر الخُطبة تحضيرًا جيدًا، ويأتي لمستمعيه في كل جمعة بموضوع جديد، يشتغل بإعداده طُوال الأسبوع، ويُلقيه ارتجالًا لا تحريرًا.

وفي المناسبات المتكررة كالصيام والحج والعيدين وعرفة وعاشوراء... إلخ، يتكلم في الموضوع نفسه ولكن بأسلوب مختلف وأدلة أخرى من زاوية جديدة، مع الربط بالأحداث المحلية والدولية، فجمهور المسجد الواحد ثابتٌ غالبًا مع بعض الزيادة والنقص.

وفي مقتبل حياتي الدعَوية جلستُ مع أحد الوعاظ في مصر، فقال لي: إنه عمل إمامًا وخطيبًا، ثم كرر خُطبة جمعة سبق له أن ألقاها من ثمانية أشهر، فقال له بعض المصلِّين: لقد سمعنا هذه الخطبة يا شيخ، قال: فقلت في نفسي: من أين آتي لكم في كل أسبوع بجديد؟ قال: فتركتُ الأوقاف، والتحقتُ بالوعظ في الأزهر، وها أنا الآن أتجوَّل في ثلاثين مسجدًا، لمدة شهر كامل بخُطبة واحدة، أُلقيها كل يوم في مكان، للنساء صباحًا و للرجال مساءً، كما هو متّبع عندهم.

قلتُ في نفسي: هذا عجزٌ وتقصيرٌ، وعزمتُ على عدم تكرار شيء سبق أن قلتُه قبل ذلك.

وبناءً عليه فقد ألزمت نفسي باختيار خُطبة جديدة لكل أسبوع تُناسب الظرف ومقتضى الحال، ثم عمدتُ إلى الموضوعات الطويلة المسلسلة، مثل: قصص الأنبياء، الكبائر، الأخلاق، الأسرة، الغزوات، العبادات، اليوم الآخر، المعاملات، آيات الأحكام، آفات اللسان... وكل سلسلة منها تأخذ شهورًا، وربما أعوامًا.

ثم رأيتُ أن أربطَ الناسَ بكتاب الله تعالى، فهو جامعٌ لكل العلوم، وبدأتُ من أول سورة الفاتحة حتى وصلتُ إلى سورة السجدة، حيث تركتُ المسجد لبلوغي سن التقاعد بعد أن شرحت على المنبر أكثر من عشرين جزءًا من القرآن، دون كتابة ولا تسجيل، وقد استغرق هذا اثنى عشر عامًا تقريبًا، ثم طَلَبَ مني كثيرٌ من الإخوة كتابة هذا التفسير؛ ليعم النفع.

ووجدتُ أن بعضَهم قد سجَّله لنفسه ولمن يُحب على أشرطة كاسيت، فحصُلْت على

نسخة منه، وفرَّغها لي بعض الإخوة في الحاسب الآلي -جزاهم الله خيرًا- ووجدت صعوبة في تحقيقها وإعدادها للطبع؛ لسوء التسجيل وبُعد الصوت، وانقطاع الكلام في التفريغ، واختلاف أسلوب الكلام عن الكتابة، وحاجته إلى التوثيق، فاستعنت بالله تعالى على نية بدء الكتابة من أول القرآن .

هذا: وإن القرآن الكريم زادُ المسلم، وقُوته الأساس، لاسيما كل مَن يتصدى للدعوة والإرشاد، فالقرآن زادٌ لا يَنْفَدُ، ومَعينٌ لا يَنْضَبُ، جَمَعَ العلوم كلها من عقيدة وعبادة وتشريع وهداية، وأخلاق وآداب وعَلاقات، وفَلَك وعلوم وتاريخ، وحِكَم وأحكام وطب وحساب وسياسة واقتصاد. . .

وكُتب التفسير كثيرة، ولها توجُّهات شتى، وكل قارئ يجد ما يبتغيه في كتاب مِن كتبه، ولكن المسلم العادي غير المتخصص في العلوم الشرعية يصعُب عليه أن يَخْرج بعبْرة عامة، أو فائدة سريعة من هذه الكتب غالبًا، وكذا مَن يريد تحضير موعظة يلقيها على الناس على ضوء بعض الآيات، فإنه يصعب عليه غالبًا أن يخرج بموعظة عامة من هذه الكتب وحدها.

وقد ذكر لي بعض الإخوة من العرب المسلمين المقيمين في كندا وأمريكا وبريطانيا أنهم يجتمعون بصفة دورية في المساجد والمراكز الإسلامية، ويُوكلُ إلى كل منهم تحضير درس في التوحيد أو التفسير أو الحديث أو السيرة أو التاريخ؛ ليلقيَه على إخوانه، وإنَّ أشَقَّ درسٍ عليهم في التحضير هو درس التفسير.

قال: فبعض التفاسير يكتفي بذكر معنى الألفاظ، وبعضها يستطرد في ذكر الأسانيد والأقوال المأثورة المترادفة، وبعضها أسلوبه أدبي طويل، وبعضها يَجْنَحُ إلى الناحية الفقهية أو العلمية أو اللغوية والبلاغية، وبعضها يشتمل على الآثار الضعيفة والإسرائيليات. . . إلخ.

قال: ولا يكاد أحدُنا يجد تفسيرًا للمعاني سهلًا يسيرًا يستطيع أن يفهم منه الآيات فَهمًا مباشرًا.

قلت: وكذلك الأمر بالنسبة لخطيب الجمعة أو الداعية والمرشد، فهو بحاجة إلى تفسير يعمد إلى آية أو آيات من القرآن ، والأحاديث صحيحة المتن والسند المتصلة بها ، والقصة المرقِّقَةُ للقلب، وسبب النزول، ومراعاة واقع المسلمين،

والاستفادة من الأقوال المأثورة في التفاسير القديمة، ومن الأسلوب الوعظي والأدبي في التفاسير الحديثة، والاعتماد على المصادر الأصلية في الحديث والسيرة والفقه والدعوة والثقافة الإسلامية ذات العَلاقة، مع تقريب المعاني بأسلوب يتلاءم مع شرائح المجتمع، وتوثيق المادة العلمية التي يتوخَّاها، و ربط ذلك كله بالأحداث الجارية محليا وعالميًا، كأن القرآن يتنزل على واقع الناس وأحوالهم اليومية.

فعقدت العزم على ذلك، وقد شجعني عليه الأخ الدكتور (محمد حجاج) حيث موّل تخزين ما أكتبه في الحاسب، جزاه الله خيرًا.

مَنْهَجِي فِي التَّفْسِيرِ

١- المادة العلمية: تقوم على تفسير القرآن بالقرآن، وتفسيره بالسنة الصحيحة وأقوال السلف، وأسباب النزول، والقول السديد لأئمة التفسير المعتبرَين قديمًا وحديثًا، وما تجُود به القريحة من ربط المعاني بالواقع، وربط الآيات ببعضها، وكون الإسلام يُصْلح كل زمان ومكان.

٢- خرَّجتُ الآياتِ والأحاديثَ وحكمتُ عليها، واستفدتُ ممن سبقوني في تخريجي لكثير من الأحاديث، لا سيما تخريج مسند الإمام أحمد، بإشراف الدكتور/ عبدالله التركي، وكذا سنن النسائي الكبرى، والدر المنثور للسيوطي (المحقق)

وما ورد من الأحاديث في فضائل الأعمال بسند فيه كلام، وكان متنه صحيحًا، وله شواهد أخرى، وفيه موعظة وحكمة وفائدة، فقد أوردتُه -مع التنبيه عليه- على أنه كلام مأثور، حسن بليغ، فيه حكمة وموعظة، وليس على أنه حديث نبوي، وهو قليل نادر.

٣- أثبتُّ وجوه القراءات العشر الكبرى المتواترة من طريق طية النشر في القراءات العشر، في كلمات الفرش وبعض الأصول لأنها تتكرر، وجعلت ذلك في الحاشية لمن يهمه الاطلاع عليها، وحتى لا تنقطع متابعة القارىء العادي للتفسير، بوجوه القراءات، وقد لا يستوعبها، فالقراءات هي اختلاف ألفاظ الوحي، ورواية حفص كغيرها من الروايات العشرين لأئمة القراءات العشر، وكلها قرآن موحى به من عند الله لا فرق بينها، ولكن الهمم قاصرة، اكتفت برواية واحدة في الغالب.

وقد نبّهتُ على بعض أحكام التجويد، والوقف والابتداء، كما نبهت على بعض كلمات الرسم العثماني ومخالفتها للرسم الإملائي.

وقد أخذت المادة العلمية في قراءات القرآن، من أُمَّات كتب القراءات كالنشر في القراءات العشر لابن الجزري، وإتحاف فضلاء البشر، لأحمد الدمياطي البنا، والمهذب في القراءات العشر للدكتور محمد سالم محيسن، والبدور الزاهرة لأبي حفص النشار وغيرها.

٤- ذكرتُ مجمل عدد آي كل سورة في أول مقدمتها عند علماء العدد، ثم ذكرت الخلاف

عند رأس كل آية مختلف في عدّها بين مصاحف الأمصار الستة، وهي: مصحف: المدني الأول، والمدني الأخير، والمكي، والبصري، والشامي، والكوفي، فعزوْتها إليه في الحاشية، وقد أخذت ذلك من أُمَّات كتب الفواصل (عد الآى) مثل (البيان في عدآى القرآن) لأبي عمرو الداني، مخطوطة، و (بشير اليسر) شرح ناظمة الزهر للشاطبي، و(المحرر الوجيز في عدآى الكتاب العزيز) شرح أرجوزة العلامة محمد المتولى.

وهكذا أثبتُّ مجمل عدد آيات كل سُورة في أولها، عند مختلف المصاحف العثمانية، التي أرسلها عثمان بن عفان ﷺ إلى الأمصار الإسلامية، وأثبتُّ الآيات المختلف في عدها في مواطنها، وقد أخذت ذلك من أُمَّات كتب الفواصل (عد الآى).

ومن باب حفز الهمم، والترغيب في الإقبال على تلاوة كتاب الله عزوجل، ذكرتُ عدد كلمات وحروف كل سورة؛ لتُعلمَ التجارة الرابحة مع الله تعالى في تلاوة كل سورة من القرآن، الحرف بحسنة، والحسنة بعشر أمثالها، وقد أخذت ذلك من الإتقان للسيوطي، ومن مقدمتان في علوم القرآن، آرثر جفري، ومن تفسير الخازن.

٥- أخبار بني إسرائيل مسكوتٌ عنها شرعًا، لا تُصدق ولا تُكذَّب، وما كان منها لا يتعارض مع الكتاب والسنة فلا مانع من إيراده، إذا كان فيه عِبرة أو موعظة أو فائدة أو موافقة تاريخية تتفق مع ثوابت الإسلام.

٦- كل سورة من القرآن الكريم وحدةٌ واحدة متكاملة، وقد جعلتُ كل مجلد من هذا التفسير يبدأ بسورة وينتهي بسورة، عدا المجلد الأول، فإن سورة البقرة طويلة لا يتحملها مع الفاتحة مجلد واحد، ولذا قسمتها مع المجلد الثاني، فالأصل هو تقسيم القرآن إلى سُور، أما الأجزاء والأحزاب والأرباع فإنها كثيرًا ما تقْطع السياق، وتفْصِل المعنى، وهو تقسيم غير توقيفي.

وعلامات هذه التجزئة عُثر عليها في القرن الرابع الهجري؛ ولذا لم أعتمد عليه في التقسيم واعتمدت تقسيم السور(١).

(١) قام بتقسيم القرآن إلى أجزاء وأرباع نصر بن عاصم تلميذ أبي الأسود الدُّؤلي بأمر الحجاج بن يوسف الثقفي، ووجد مصحف في أواسط القرن الرابع الهجري فيه علامات هذه الأجزاء والأحزاب والأرباع، ولم تُعرف قبل ذلك. ينظر: الجزء الأول ص٦٥ وما بعدها، من (فن الترتيل وعلومه) للمؤلف.

٧- وضعتُ رقم كل آية يُراد تفسيرها في أولها، ثم أثبتُّ الآية كاملة غالبًا بين قوسين، بعد وضع عناوين لموضوعات الآيات، وكتبتُ ما فيها من قراءات بالحاشية، وقد أضم آيتين أو أكثر في الآيات القصيرة؛ لضرورة اتصال المعنى، وأجعل الآيةَ غنيةً بما يخدمها من الآيات المشابهة أو المماثلة، والأحاديث الموضِّحَة لها، مع تخريجها والحكم عليها، وذكر كثير من مصادرها ومراجعها، وذكرت أسباب النزول، والأحكام الفقهية إن وُجدت، والآثار صحيحة المعنى، والمعنى الإجمالي لها، مع التركيز على الجانب الوعظي والرقائق، بما يفيد القارئ والواعظ، ويربط العبد بربه.

٨- هذا التفسير سهل العبارة، واضح المعنى، غزير المعنى الإجمالي، ليس فيه اشتغال بأوجه البلاغة أو النحو، ولا التحليل اللفظي للكلمات إلا ما لا يُفهَمُ المعنى إلا به.

٩- سورة الفاتحة وآيات الصيام والحج خصصتُها بمزيدٍ من البحث فضلًا عن التفسير لأهمية سورة الفاتحة وعدم تكرارها في المصحف، ولأن أحكام الصيام والحج ذُكرا غالباً مرة واحدة في سورة واحدة هي سورة البقرة، بخلاف الصلاة والزكاة والأخلاق ونحو ذلك، فقد جاء ذكرها في سور متعددة ومناسبات كثيرة، وهذه الثلاث: الفاتحة والصيام والحج، جاءت كلها في المجلد الأول فحسب من هذا التفسير، وليس لها نظير في التفسير كله، عدا الكلام عن البيت الحرام في سورتي آل عمران والحج.

١٠- استخدمتُ لبعض المراجع أكثر من طبعة، بعضها مُحقَّق وبعضها غير مُحقَّق، مثل: تفسير الطبري، ومسند الإمام أحمد، وسنن النسائي الكبرى، وفتح الباري، وتفسير ابن كثير، والدر المنثور وغيرها، وذلك بسبب السفر والتنقُّل، وقد استعنت بكثير من كتب التفسير القديمة والحديثة، وهي كتب معروفة، كتفسير ابن عطيه والطبري والقرطبي، وابن كثير والبغوي وابن الجوزي، والشوكاني والخازن وابن عاشور والشنقيطي والسعدي وغيرها، واستعنت بالمراجع الأصلية في الحديث والفقه والقراءات وعلوم القرآن وغيرها.

١١- المذكور أوّلًا من كتب الحديث في الحاشية هو صاحب اللفظ الموجود في المتن، سواء أكان مسند الإمام أحمد، أم صحيح مسلم أم البخاري، أم غيرهم، ثم أُتبعه ببقية المراجع، فلا يؤخذ علينا تقديم صحيح مسلم - مثلا - على صحيح البخاري

مثلًا، أو تقديم مسند أحمد عليهما ونحو ذلك.

١٢- ومن المعلوم أن حوادث الدهر تتغير، ومن الأحداث التي صاحبت كتابة هذا التفسير: أطفال الحجارة في فلسطين، ومفاوضات قيام دولتين في فلسطين، وحرب غزة عام ١٤٣٠هـ، ومن ذلك احتلال العراق، وأحداث أفغانستان والشيشان والبوسنة والهرسك وكشمير والصومال وغير ذلك، وكثُر تناول مصطلح الإرهاب والتطرف حتى أطلقه بعض الناس على كل متمسك بدينه ملتزم به، فكان لهذه الحوادث لمسات في هذا التفسير.

هذا: وأرجو أن أكون قد وُفقت إلى تفسير وعظي للقرآن الكريم، يستفيد منه العامة والدعاة والوعاظ على النحو المطلوب.

وأسأل الله تعالى أن ينفع به كل مَن اطَّلع عليه، وأن يجعله صدقة جارية لي بعد مماتي، وأن يكون خالصًا لوجهه الكريم، وألا يحرمني الأجر والمثوبة، وأن يغفر لي عجزي وتقصيري ويعفو عن هفواتي وزلاتي، ورحم الله من أهدى إلينا عيوبنا، ومنه ﷻ العون والتوفيق والسداد.

الفقير إلى عفو ربه

أحمد بن أحمد محمد عبد الله الطويل

مدينة الرياض

غرة شهر شعبان ١٤٣١هـ



تَفسير سُورَةِ الفَاتِحَةِ (١)

مَبَاحِثُ سُورَةِ الفَاتِحَةِ

المبحث الأول: نزول السورة وأسماؤها.

المبحث الثاني: فضل سورة الفاتحة ومشروعية الرقية بها.

المبحث الثالث: مقاصد سورة الفاتحة خمسة.

المبحث الرابع: الاستعاذة.

المبحث الخامس: البسملة. **وفيه مطلبان:**

المطلب الأول: الافتتاح بالبسملة في الصلاة وغيرها.

والمطلب الثاني: التحليل اللفظي للبسملة.

المبحث السادس: البسملة بين القُرَّاء والفقهاء وعلماء عدِّ الآي. وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: البسملة عند القُرَّاء.

المطلب الثاني: البسملة عند علماء العدد.

المطلب الثالث: البسملة عند الفقهاء والمحدِّثين.

المبحث السابع: الحمْدَ لَهْ.

المبحث الثامن: صفة الرحمة.

المبحث التاسع: يوم الدين.

المبحث العاشر: العبادة والاستعانة.

المبحث الحادي عشر: طلب الهداية.

المبحث الثاني عشر: أصناف الناس.

المبحث الثالث عشر: حكم قراءة الفاتحة في الصلاة.

المبحث الرابع عشر: التجويد والقراءات والإعراب في سورة الفاتحة.

المبحث الخامس عشر: في رحاب الصلاة من التكبير إلى التسليم.

المَبْحَثُ الأَوَّلُ: نُزُولُ السُّورَةِ وَأَسْمَاؤُهَا

أولًا: نزول سورة الفاتحة : الفاتحة أول سورة نزلت كاملة، دفعة واحدة، على النبي ﷺ بمكة المكرمة، على ما عليه جمهور العلماء، وقيل: إنها نزلت مرة أخرى بالمدينة المنورة حين حُولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، ونزل قبلها مطلعُ سورة العلق والمزمل والمدثر والقلم، فهي خامس سورة في ترتيب النزول، وفيها براعة الاستهلال لافتتاح القرآن الكريم.

ويؤكِّد كونها نزلت بمكة، أن الصلاة فُرضت بها، وليس هناك صلاة بدون الفاتحة.

وقد جاءت الإشارة إليها في سورة مكية هي سورة الحِجر في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧] والسبعُ المثاني هي سورة الفاتحة على الأرجح؛ لأنها تُثنَّى في الصلاة، فتقرأ في كل ركعة.

وجمهورُ العلماء على أن أول ما نزل من القرآن قولُه تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١] الآيات الخمس الأُول من سورة العلق.

والفاتحة أول سورة في ترتيب المصحف؛ لأنها تشبه ديباجة الخُطبة، وتتضمن مقاصد القرآن، وهذا الترتيب للسور في المصحف، ترتيب توقيفي على الراجح؛ لأنه بأمر النبي ﷺ، وهو يختلف عن ترتيب نزول القرآن، حسب الوقائع والأحداث.

عدد كلماتها: سبع وعشرون كلمة.

وعدد حروفها: مئة وأربعون حرفًا، وقد بيَّن النبي ﷺ أن مَن يقرأ القرآن، له بكل حرف حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، والله يضاعف لمن يشاء.

وعدد آياتها: سبع آيات باتفاق، فمن عدَّ البسملة آية من علماء عدِّ آي القرآن الكريم أسقط من العدد قولَه تعالى: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، ومن أسقط البسملة من العدد عدَّ قولَه تعالى: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ آية، وقد عَدَّ المصحف المكي والكوفي «**البسملة**» آية، وأسقط ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ من العدد، وأسقط بقيةُ علماء العدد «**البسملة**» وعَدُّوا ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ آية.

والمصحف الذي بأيدينا هو المصحف الكوفي؛ لأنه برواية حفص عن عاصم الكوفي، وهو أحد المصاحف التي أرسلها عثمان ﷺ إلى الأمصار الإسلامية.

ثانيًا: أسماؤها: وقد ذكر المفسرون لسورة الفاتحة أكثرَ من عشرين اسمًا، ذكر القرطبي منها اثني عشر اسمًا، وعَدَّد الزمخشرى في الكشَّاف عشرةً منها، وذكر الألوسيُّ في روح المعاني والسيوطي في الإتقان أنها نَيِّفٌ وعشرون اسمًا، ومن هذه الأسماء:

١- **الفاتحة**: أو فاتحة الكتاب، أي: بدايتُه.

٢- **وتُسمَّى أم الكتاب**: أو **أم القرآن**؛ لأن القرآن يتبعُها، كما يتبع الجيش أُمَّه، أي: رايته.

٣- **وتُسمى سورة الحمد**: أي السورة التي ذُكر فيها الحمد، كما يُقَالُ سورة الأنفال؛ لأن السورة تُسمَّى باسم بعضها.

٤- **وتُسمّى السبع المثاني**: لأنها سبع آيات تُثَنَّى، أي: تكرر وتُعاد في الصلاة.

٥- **ومن أسمائها**: **القرآن العظيم**؛ لاشتمالها على مقاصده الأساسية.

٦- **وتُسمّى سورة الرُّقية**: لمشروعية قراءتها في الرقية.

٧- **وتسمّى**: **الشفاء والشافية والواقية**؛ وكلها بمعنى الرقية.

٨- **ومن أسمائها**: **سورة الصلاة**؛ لحديث: «**قسمْتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي نصفين**. . . » الحديث.[1] والمراد بالصلاة: الفاتحة، وسُمِّيت سورة الصلاة؛ لأنها ركنٌ وشرطٌ فيها.

٩- **وتسمَّى الأساس**: لأنها أساس القرآن وأصله، وأول سورة منه.

١٠- **وتسمَّى الكافية**: أي التي تكفي عما عداها، ولا يكفي عنها ما سواها.

١١- **وتُسمَّى أيضًا**؛ سورة: الكنز، والنور، والتفويض، والمناجاة، وتعليم المسألة، وغير ذلك.

عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الحمد لله» أمُّ القرآن، وأمُّ الكتاب، والسبعُ المثاني**»[2].

وعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**هي أمُّ القرآن، وهي فاتحة الكتاب، وهي السبع المثاني، وهي القرآن العظيم**»[3].

---

(١) يأتي ذكره وتخريجه في المبحث الثاني.

(٢) «صحيح سنن الترمذي» باختصار السند للشيخ الألباني (٣/ ٦٦) ورقم (٢٤٩٨)، وصحيح سنن أبي داود (١٣١) وهو في «المسند» (٩٧٩٠)، والبخاري (٤٧٠٤).

(٣) «المسند» (٩٧٨٨، ٩٧٩٠) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه الطبري (١/ ١٠٥) وابن أبي حاتم.

المَبْحَثُ الثَّانِي: فَضْلُ الْفَاتِحَةِ وَمَشْرُوعِيَّةُ الرُّقْيَةِ بِهَا

أولًا: فضل سورة الفاتحة

١- إنها أعظم سور القرآن الكريم:

عن أبى سعيد بن المعلى ﷺ قال: كنت أصلي في المسجد، فدعاني رسولُ الله ﷺ فلم أُجب حتى صليتُ، ثم أتيتهُ، فقال: **«ما منعك أن تأتي؟»** فقلت: يا رسول الله، إني كنت أصلي، فقال: **«ألم يقل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾»** [سورة الأنفال: ٢٤] ثم قال: **«لأعلمنَّك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرُج من المسجد»** ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج، قلت: يارسول الله، ألم تقل: **«لأعلمنَّك سورة هي أعظم سورة في القرآن»**، قال: **«﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هي السبعُ المثاني والقرآنُ العظيمُ الذي أوتيتُه»**[١].

٢- وسورة الفاتحة فُتح لها باب خاص، ونَزل بها مَلَك خاص، غير جبريل ﷺ

عن ابن عباس ﷺ قال: بينما جبريل ﷺ قاعدٌ عند النبي ﷺ سمع نقيضًا من فوقه، فرفع جبريل رأسَه فقال: هذا باب من السماء فُتح اليوم، لم يُفتح قطُّ إلا اليوم، فنزل منْهُ مَلك، فقال: هذا ملَك نزل إلى الأرض، لم ينزل قطُّ إلا اليوم، فسلَّمَ وقال: أَبْشر بنُوريْن قد أُوتيتَهما، لم يُؤتَهما نبيٌّ قبلك: فاتحةُ الكتاب، وخواتيمُ سورةِ البقرة، لم تَقْرَأْ بحرف إلا أوتيتَه[٢].

فسورةُ الفاتحة نورٌ، نزل بها ملك خاص، وفُتح لها باب خاص، وحين نزلت سُمع

---

(١) أخرجه البخاري بأرقام: (٤٤٧٤، ٥٠٠٦) وأبو داود (١٤٥٨) والنسائي (٢/ ١٣٩) برقم (٩١٢) وفي «الكبرى» (٨٠١٠، ١١٢٧٥) وهو في «جامع الأصول» (٨/ ٤٦٥) رقم (٦٢٣٤) و«المسند» (٣/ ٤٥٠، ٤/ ٢١٢) برقم (١٥٧٣٠، ١٧٨٥١) باسناد صحيح على شرط الشيخين وابن ماجة (٣٧٨٥) والدارمي (٢/ ٤٤٥) وابن حبان (٧٧٧) والبيهقي (٢/ ٣٦٨) وغيرهم.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٨٠٦) والنسائي (٢/ ٦٣٨) برقم (٩١١) وفي «الكبرى» (٨٠١٤، ٨٠٢١، ١٠٥٥٨) وابن حبان (٧٧٨) والطبراني (١٢٢٥٥) والحاكم (١/ ٥٥٨) وانظر: «جامع الأصول» حديث رقم (٦٢٣٩) والترمذي: (٢٨٧٥) و«المسند» (٢/ ٤١٣) عن أبي بن كعب ﷺ.

لإبليس رنّة[١] أي: صيحة حزينة.

٣- وسورة الفاتحة لا يوجد مثلها في الكتب السماوية

عن أبى هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال لأبيٍّ بن كعب ﷺ: .**«أتحب أن أُعلِّمك سورةً لم يُنَزَّلْ في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلُها؟»** قال: نعم، قال: **«كيف تقرأُ في الصلاة؟»** قال: فقرأ أمَّ القرآن، فقال رسول الله ﷺ: **«والذي نفسي بيده، ما أُنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن مثلها، وإنها سبعٌ من المثاني والقرآنُ العظيمُ الذي أُعْطيتُه»**[٢].

٤- وفي حديث أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله ﷻ: **«قسمتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قال الله ﷻ: أثنى عليَّ عبدي، فإذا قال: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ قال: مجّدني عبدي»**، وقال مرة: **«فوض إليَّ عبدي، فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل، فإذا قال: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل»**[٣].

٥- وعن أنس ﷺ قال: كان النبي ﷺ في مسير فنزل، ونزل رجل إلى جانبه، قال:

---

(١) جاء هذا عن أبي هريرة عند ابن أبي شيبة (١٠/ ٥٢٢) والطبراني في «الكبير» (٤٧٨٨) قال الهيثمي: شبيه بالمرفوع، ورجاله رجال الصحيح: «مجمع الزوائد» (٦/ ٣١١).

(٢) قال الترمذي (٢٨٧٥): هذا حديث صحيح، وهو في «صحيح سنن الترمذي» (٢٣٠٧) وفي «جامع الأصول» رقم (٦٢٦٣) ورواه أيضًا الإمام أحمد في مسنده برقم (٨٦٨٢، ٩٣٤٥) باسناد صحيح ورجال ثقات وبنحوه النسائي في «الكبرى» (١١٢٠٥) ومالك في «الموطأ» حديث رقم (٦٢٣٥، ٦٢٣٧) «جامع الأصول»، وعند ابن خزيمة (٨٦١) وصححه البغوي في «شرح السنة» (١١٨٦) وهو في صحيح الترغيب والترهيب برقم ١٤٥٣.

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٣٩٥) ومصنف عبد الرزاق (٢٧٦٧) و«سنن النسائي الكبرى» برقم (٨٠١٣) و«المسند» (٧٨٣٦) وأبو داود (٨٢١) وصحيح أبي داود (٧٣٤) والترمذي (٢٩٥٣) والنسائي (٩٠٨) وفي صحيح سنن النسائي (٢٧٢) وابن ماجة (٣٧٨٤) وصحيح سنن ابن ماجة (٣٠٥١) وابن حبان (٧٧٦).

فالْتفَت النبي ﷺ فقال: (**ألا أخبرك بأفضل القرآن؟**) قال: بلى. فتلا ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [(١)]

وجاء في الأثر: أُنزلتْ عليَّ آية لم تنزل على نبيٍّ غيرَ سليمان بن داود وغيري، وهي: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[(٢)]

ومن أجل هذا الفضل الذي اختُصَّتْ به سورة الفاتحة شرع الله لنا قراءتها في كل صلاة من بين سور القرآن كلها، وتوقَّفَ قبولُ الصلاة على قراءتها، ومن لم يقرأها في الصلاة فصلاته باطلة، فضلًا عن مشروعية قراءتها في الصباح والمساء، والاستشفاء بها، ونحو ذلك.

ثانيًا: الرُّقية بالفاتحة: وسورة الفاتحة يُرقى بها، ويُستشفى بها من المرض، ومن العيْن والحمَّى، ولدغ الحيَّة والعقرب، ومن كل داء وسُمٍّ.

ولذا فإن من أسمائها: الشفاء والشافية والرقية والواقية والكافية.

أخرج الإمام مسلم وغيره عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: نزلْنا منزلا، فأتتْنا امرأة، فقالت: إن سيد الحيِّ سَلِيمٌ (لُدغ) فهل فيكم من راقٍ؟ فقام معها رجل منا، ما كنا نظنُّه يُحسن رُقية، فرقاه بفاتحة الكتاب، فبرَأ، فأعطَوْه غنمًا، وسَقَوْنا لبنًا، فقلنا: أكنتَ تُحسن رُقية؟ فقال: ما رقيته إلا بفاتحة الكتاب، قال: قلت: لا تُحرِّكوها (أي: الغنم) حتى نأتي النبي ﷺ فأتينا النبي ﷺ فذكرْنا ذلك له، فقال: «**ما كان يُدْريه أنها رُقية؟! اقسموا، واضربوا لي بسهم معكم**»[(٣)].

وفي رواية البخاري: أن الرجل أُمِرَ لَهُ بثلاثين شاة، وأن النبي ﷺ قال: «**خذوها واضربوا لي بسهم**»[(٤)].

وفي البخاري وغيره عن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إن أحقَّ ما أخذتم عليه أجرًا**

---

(١) صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم ١٤٥٤ ورواه ابن حبان في صحيحه والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم.

(٢) البيهقي في «الشعب» (٢٣٢٨) وأبوعبيد في «الفضائل» ص١١٥ وابن مردويه، ورواه الدار قطني برقم (٢٩) وفي سنده عبدالكريم ويزيد بن أبي خالد، متكلم فيهما.

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٢٠١) وفي البخاري برقم (٥٧٣٦، ٥٧٤٩).

(٤) البخاري (٢٢٧٦، ٥٠٠٧) ومسلم (٢٢٠١).

كتابُ الله»[1] أي: على قراءته في الرقية، على ألا يَمتهن الإنسان ذلك ويتخذها وسيلة للتكسُّب، ومعاودة الرقية وبيع الماء والزيت والعسل وغير ذلك، وعلى ألا يختليَ بمن يرقيها من النساء، ولا ينظر إلى ما لا يحل له النظر إليه.

وفي رواية أبى داود في حديث الرقية أن الراقي: أخذ يتْفُلُ على سيد الحي، ويقرأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي: سورة الفاتحة، قال: فكأنما أُنْشِطَ من عِقَالٍ.

وفي رواية الترمذي: أن أبا سعيد هو الذي رقاه، وأنه قرأ سورة ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ سبع مرات.

وكان أبو سعيد ضِمْنَ نَفَرٍ من الصحابة في سفر، وقد نزلوا هذا الحيَّ، فأبى أهلُه أن يضيِّفوهم، فلُدغ سيد هذا الحي، وبحثُوا له عن راقٍ أو علاجٍ، فأبى أبو سعيد أن يَرقيَه إلا بأجر؛ جزاء بُخْلهم وعدم استضافتهم لهم[2].

قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

والمراد بالظالم: الكافر، فهو الذي لا ينتفع بالقرآن ولا يستفيد منه؛ لأن الله تعالى جعل هذا القرآن شفاءً ورحمة للمؤمنين لا لغيرهم، كما قال تعالى: ﴿فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

وقال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

وقال جل شأنه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

ثالثًا: الرقية بالتسمية وحدها:

وكما تشرع الرقية بالفاتحة، فإنها تُشرع أيضًا بالبسملة وحدها.

عن عثمان بن أبي العاص الثقفي ﷺ أنه شكا إلى رسول الله ﷺ وجعًا يجده في جسده منذ أَسْلَم، فقال له رسول الله ﷺ: **«ضَعْ يَدَكَ على الذي تألَّمَ من جسدك، وقل: بسم الله**

(١) البخاري (٥٧٣٧) والبيهقي (٦/ ١٢٤).

(٢) ينظر: طرق الحديث وروايته في «جامع الأصول» (٧/ ٥٦٦) حديث رقم (٥٧٢٠).

ثلاثًا، وقل سبعَ مرات: أعوذ بالله وقُدْرَتِه، من شر ما أجِدُ وأُحاذِر»، وفي رواية «أعوذ بعزة الله وقدرته. . .»[(١)].

وفي حديث ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «**مَن عاد مريضًا لم يحضر أجله، فقال عنده سبع مرات: أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيَك إلا عافاه الله ﷻ من ذلك المرض**»[(٢)].

رقيا جبريل للنبي ﷺ

١- عن أبي سعيد ﷺ: أن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ فقال: «**يا محمد اشتكيتَ؟ قال: نعم، قال: بسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس أو عين حاسدٍ، الله يشفيك، بسم الله أرقيك**»[(٣)].

٢- وعن عائشة ﵂ قالت: كان إذا اشتكى رسول الله ﷺ رقاه جبريلُ ﵇، قال: «**بسم الله يُبريك، ومن كل داءٍ يَشفيك، ومن شر حاسد إذا حسد، وشر كل ذي عين**»[(٤)].

٣- وعنها ﵂: أن النبي ﷺ كان يقول للمريض: «**بسم الله، تُرْبَةُ أرضِنا، بِرِيقةِ بعضِنا، يُشفَى به سَقِيمُنا بإذن ربنا**»[(٥)]و في كلام النووي الآتى شرح لهذا المعنى.

قال الحافظ ابن حجر في الفتح: يدل على أنه ﷺ كان يتفل عند كل رُقية.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٢٠٢) وابن ماجة (٣٥٢٣) ومالك في «الموطأ» (٢/ ٩٤٢) والترمذي (٢٠٨١) وأبو داود (٣٩١) وهو في «جامع الأصول» (٧/ ٥٦٤) حديث رقم (٥٧١٨) وفي «المسند» (١٧٩٠٧)، إسناده صحيح ورجاله ثقات، وأخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة ١٠٠٠.

(٢) حديث صحيح أخرجه أبو داود (٣١٠٦) والنسائي في عمل اليوم والليلة ١٠٤٨ والطبراني في الدعاء (١١١٤) والحاكم (١/ ٤٣٢)، والمسند (٢١٣٧، ٢١٨٢) وهو حديث صحيح. كما قال محققوه، والترمذي (٢٠٨٣).

(٣) أخرجه مسلم (٢١٨٦) والترمذي (٩٧٢) وهو في «جامع الأصول» (٧/ ٥٦٣) حديث رقم (٥٧١٥) وأخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (١٠٠٥) وابن ماجة (٣٥٢٣) بأسانيد صحيحة.

(٤) في صحيح مسلم، برقم ٢١٨٥ وانظر مسند أحمد (٢٥٢٧٢) وابن سعد (٢/ ٢١٣) وعن أبي سعيد الخدري في مسلم (٢١٨٦ وأبي هريرة في المسند (٩٧٥٧)، وهو برقم (١٤٤٣) في "مختصر صحيح مسلم» للمنذري بتحقيق الألباني.

(٥) أخرجه البخاري (٥٧٤٥) ومسلم (٢١٩٤) وأبو داود (٣٨٩٥) و المسند (٢٤٦١٧).

ونُقل عن النووي: أنه أخذ من ريق نفسه على إصبعه السَّبابة، ثم وضعها على التراب فَعَلِقَ به شيء منه، ثم مسح به الموضع العليل، أو الجريح.

قيل: إن التراب ينفع في تجفيف الجروح، وإيقاف الدم، **قلْتُ**: والمواد الطبيَّة تُؤدي الغرض نفسَه، أما النفْثُ أو الريق: فلبركة أسماء الله الحسنى، وبركة الرسول ﷺ وما يُتلى من القرآن، والأدعية من الراقي، **والمراد بأرضنا**: أرض المدينة، والصحيح أنه يشمل كل أرض، قال القرطبي: فيه دلالة على جواز الرقى من كل الآلام[1].

رابعًا: تَلازُمٌ وعلاج:

تشتمل سورة الفاتحة على العبادة والاستعانة، وبالعبادة والاستعانة تتحقق السعادة الأبدية للعبد، وينجو من الأمراض المهلكة.

فأعظم أمراض القلب: الرياء والكبر، ودواء الرياء: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ودواء الكبر ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

يقول ابن تيمية: و﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تدفع الرياء ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تدفع الكبرياء، فإذا عُوفي العبد من مرض الرياء بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ومن مرض الكبر بـ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ عُوفي من أمراضه وأسقامه، ورفل في ثوب العافية، وتمت عليه النعمة، وكان من الْمُنْعَم عليهم، غير المغضوب عليهم: وهم أهل الفساد في القصد، الذين عرفوا الحق وعَدَلوا عنه، ولا الضالين: وهم أهل فساد العلم الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه، وحُقَّ لسورة تشتمل على هذا أن يُستشفى بها من كل مرض، وصدق الله العظيم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧، ٥٨].



(١) «فتح الباري» (١٠/ ١٧٠) ط دار إحياء التراث العربي، بيروت.

الْمَبْحَثُ الثَّالِثُ: مَقَاصِدُ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ الْخَمْسَةِ

اشتملت سورةُ الفاتحةِ على أهم مقاصد القرآن الكريم على وجه الإجمال، ثم فُصِّل ما أجملته في القرآن كله؛ فقد اشتملت سورة الفاتحة على التوحيد والإيمان باليوم الآخر والعبادة وطلب الهداية، والثبات على الإيمان، وفيها أخبارٌ وقصصُ الأممِ السابقة، وفيها معارجُ السعداء ومنازل الأشقياء.

وقد نزل القرآن لبيان حقوق الخالق على خلقه، وحاجة الخلق إلى خالقهم، وتنظيم الصلة بين الخالق والمخلوق.

وقبل الإشارة إلى حقوق الخَلق والخالق، وتنظيم الصلة بين العباد ورب العباد قررت السورة توحيدَ الله تعالى وتنزيهه عما لا يليق بجلاله، واستحقاقه لهذه العبادة وحده دون سواه.

وبينَّت آيات سورة الفاتحة أن الناس محاسبون ومُجْزَوْن على أعمالهم، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

ففي ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بيان لحقوق الله تعالى على خلقه.

وفي ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ تنظيم للصلة بين المخلوقين والخالق.

وفيها طلب الهداية بمناجاة العبد ربه وبيانٌ لحاجة الخلق إلى خالقهم.

وفي ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ إشارة إلى جميع طوائفِ المُبطِلِين الخارجين عن الصراط المستقيم، وبيانُ أسبابِ هذا الخروج، وهي لا تتعدى الغضب عليهم، أو وقوع الضلال منهم.

وبهذا استحقتْ الفاتحةُ أن يطلق عليها **«أم القرآن»** بل **«القرآن العظيم»**.

اشتمالها على جميع ما جاء في القرآن الكريم:

والفاتحة مُتَضَمِّنَةٌ لمُجْمل ما فُصِّل في القرآن الكريم:

١- فالإشارة إلى توحيد الألوهية جاءت في اسم الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾.

من ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ و ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾

٢- والإشارة إلى توحيد الربوبية جاءت في قوله تعالى ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٣-والإشارة إلى توحيد الأسماء والصفات وجميع صفات الجلال و الكمال جاءت في قوله تعالى ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. ولفظ (الحمد)

٤- والإشارة إلى اليوم الآخر، وما فيه من عدل وفضل، وما فيه من بعث وحشر ونشر، وحساب وجزاء، جاءت في قوله تعالى ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

٥- والإشارة إلى كافة أنواع العبادات والإخلاص فيها جاءت في قوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

٦- والإشارة إلى إثبات النبوات، وإلى قصص الأنبياء والمرسلين والصالحين، وإلى إثبات صفة القدر، وأن العبد حرّ مختار، والرد على أهل البدع والضلال، جاء ذلك في قوله سبحانه: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

٧- وجاء الحثُّ على السيْر على نهج الأنبياء والصالحين والاهتداء بهديهم في قوله جل شأنه: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

٨- والحديث عن أهل الكتاب وأهل الزيغ والضلال، جاء في نهاية السورة: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

وهذه جملة المقاصد التي جاء بها القرآن الكريم، بل التي جاءت بها الكتب السماوية والشرائع الإلهية جميعا:

وعلى هذا ففي سورة الفاتحة خمسة مقاصد:

المقصد الأول: تَوحِيدُ الله سبحانه: اشتملتِ السورة على التعريف بالمعبود جَلَّ في عُلاه، وعلى توحيد الخالق سبحانه، وتَضَمَّنتْ سورة الفاتحة خلاصة وجيزة لعقائد الإسلام، واجتثاث جذور الشرك التي كانت فاشية في الأمم، ومقتضى ذلك توحيد العبادة، والتوجه بها إلى الله سبحانه، فهو جَلَّ شأنه المعبود بحق دون سواه، يرشد إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ففيها تعليم وإرشاد إلى كيفية التمجيد والثناء والحمد لله تعالى، ولا يكون ذلك إلا عن نعمة، وأهمها نعمة الخَلق والإيجاد، ومَنْ كان كذلك فهو جدير بالعبادة وحده؛ ولذلك فقد اشتملت السورة على ثلاثة أسماء لله تعالى، هي مرجع الأسماء الحسنى والصفات العليا، وعليها مدارها، وهي: (الله، الرب، الرحمن).

والحمد يتضمن الاعتراف بالألوهية والربوبية والأسماء والصفات وتوحيدَها . . . إلخ.

وربوبيتُه سبحانه لخلقه ليستْ مبنية على القهر والجبروت، بل مبنية على الرحمة، فهو سبحانه الرحمن الرحيم، وهذا بيان لحقيقة العَلاقة بين الله تعالى وبين خلقه، وأنها مبنية على الرحمة التي تَغْمُرُ الخلائق كلهم، وبخاصة العبد المؤمن.

وقد فصَّل القرآن الكريم جانب التوحيد، ونهى عن الشرك في عشرات السور منه، واعتنى بذلك أيما عناية، حيث كان التوحيد هو المهمة الأساس في الفترة المكية، وهي أطول مُدَّتي الرسالة.

المقصد الثاني: الإيمان باليوم الآخر: واشتملت السورة على أهم أركان الإيمان، بعد الإيمان بالله تعالى؛ وهو إثبات المعاد والجزاء على الأعمال، والإيمانُ باليوم الآخر وما فيه من بعث وسؤال وحشر ونشر وحساب وجنة ونار، وغير ذلك مما فصَّله القرآن الكريم في العديد من السور والآيات، لا سيما القرآن المكي، الذي يُعنى بغرْس العقيدة في النفوس أوَّلًا، في مثل جُزْأَيْ (عمَّ وتبارك).

وإذا كان في الدنيا نوع من التقاضي بين الناس، وألوانٌ من الجزاء على الأعمال، فإن الله سبحانه هو الْمُتفرد بالحكْم العادل يوم القيامة، وهو سبحانه مَلِكُ هذا اليوم ومالكُه.

ومَن يملك مصير العباد، ومآلَهم الدائم يوم الآخرة، فهو المالك الحقيقي لما قبله في الدنيا من باب أولى، وإذا كان في الدنيا نوعُ مُلْكٍ لبعض ملوك الأرض، فإن الْمُلْكَ كلَّه لله تعالى في الدنيا والآخرة، وهو ملك حقيقي لا يحول ولا يزول وإلى هذا يشير قوله تعالى ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

ويوم الدين هو يوم الحساب والجزاء، الذي يُدان فيه العباد إلى رَبِّ الأرض والسماء.

وقد أشار القرآن الكريم إلى الإيمان بالله تعالى والإيمانِ باليوم الآخر، إلى جوار العمل الصالح في كثير من آياته، وبيَّن أن ذلك هو أساس الفوز بالسعادة الأخروية، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

والمراد: إيمانُ كلِّ أمة برسولها قبل أن تُنسخ رسالتُه، ولا يقبلُ الله تعالى إيمانَ أيٍّ من

أرباب الشرائع السابقة بعد مجيء الرسالة الخاتمة، إلا بالإيمان بمحمد ﷺ والعملِ بشريعته.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وما من أحد يسمع برسالة محمد ﷺ ثم لا يؤمن بها إلا مات كافرًا والعياذ بالله.

المقصد الثالث: التكاليف الشرعية: أما جانب العبادات: مما يتعلق بالصلاة والزكاة والصيام والحج والأذان والذبح والنذر والدعاء والاستغاثة والاستعاذة والرجاء والخوف والتوكل والاستعانة وما إلى ذلك، وتوجيه هذه العباداتِ إلى الله تعالى وحده، فقد أشار إليه قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وقد تَضَمَّنتْ هذه الآية عهدًا وثيقًا بين الناس وربهم، يُحقِّقُ رسالتَهم في الوجود، فلا عبادة إلا لله، ولا توكل إلا على الله، ولا استعانة إلا بالله، وقد فصّل القرآن الكريم أنواع العبادة في أكثر سُوَرِهِ، في حديثه عن أركان الإسلام الأربعة، وفصَّل القرآن الاستعانة بالله تعالى في آيات التوكل والإنابة ونحوها.

المقصد الرابع: قصص الأنبياء والمرسلين: أما جانب النبوات والرسالات في سورة الفاتحة، فيشير إليه قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

فالقرآن الكريم كتابُ هداية وإرشاد، يهدي للتي هي أقوم، ويدعو إلى الطريق المستقيم، ويأمر بالعدل والقسط والوسَطية والاستقامة، والسعادةُ في الدارين لا تتم إلا بترك الانحراف والضلال وسُبُلِ الغواية والاعوجاج، ولا يكون ذلك إلا عن طريق الرسل والكتب المنزلة، والرسل هم أَوَّلُ الذين أنعم الله عليهم، ولا سبيل إلى هداية البشر، ولا إلى معرفة الحق من الضلال، والخيرِ من الشر، إلا عن طريق الرسل.

وقد فصَّل القرآن الكريم ما أجملتْهُ سورةُ الفاتحة من الحديث عن أنبياء الله ورُسُلِهِ في عشرات السور، إلى جانب الحديث عن الصِّدِّيقين والشهداء والصالحين، مما يأخذ بيد المسلم إلى طريق الهداية وسبيل الرشاد، وطريق الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقًا.

وهذا الجانب من قصص الأنبياء والمرسلين تناولتْهُ السور المكية، فالهداية هي التطبيق العملي لدعوة الأنبياء، وهي طريق الإنسان إلى معرفة ربه سبحانه.

ولعل هذا هو السر في اختيار هذه السورة؛ ليقرأها المسلم في صلاته وجوبًا في اليوم الواحد سبع عشرة مرَّة، ثم يُكثر منها في النوافل وغيرها ما شاء الله له.

المقصد الخامس: أهل الكتاب:

أما أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين فصَّل القرآن الكريم الحديثَ عنهم في سُوَره المدنيَّة، وأوضح زيْغَهُم وضلالهم، وأسباب غضب الله تعالى عليهم، فقد أجْملت سورة الفاتحة هذه المعاني في قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

ومعلوم أن مقاصد القرآن الكريم تتناول جانب العقيدة والنبوة والرسالة والعبادة والهداية، التي هي الهدف من القصص والأخبار القرآنية، وهذا ما أجملتْه سورةُ الفاتحة، وَفَصَّلَهُ القرآنُ الكريمُ.

❀ ❀ ❀

المَبْحَثُ الرَّابِعُ: الاسْتِعَاذَةُ: (أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)

١- **الحكمة في التعوذ:** يستعيذ المسلم بالله سبحانه من الشيطان الرجيم، في جميع أقواله وأفعاله المشروعة، وفي ذلك اعتصام بِجَنَابِ الله تعالى من كيد الشيطان ومكره، واستجارة بالله سبحانه من همزه ونفخه ونفثه، كأنه يقول: أستجير بالله تعالى من الشيطان الرجيم أن يَضُرَّني في ديني أو دُنْياي، أو يَصُدَّني عن فعل ما أُمرت به، أو يَحُثَّني على فعل ما نُهيت عنه؛ فإنَّ الشيطان لا يكُفُّهُ عن الإنسان إلا الله تعالى.

وأعتصم بحول الله تعالى وقوته أن يقطع هذا الشيطان -الملعون المذموم- العلاقة بيني وبين ربي، وألجأ إلى الله تعالى وألوذ بحماه، وآوي إلى رُكْنِهِ الشديد أن يغويَني الشيطان أو يُضِلَّني أو يُفْسِدَ عليَّ صلاتي، وفي هذه الاستعاذة إقرارٌ بأن الشيطان عدوٌّ مبينٌ للإنسان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

والمسلم باستعاذته بالله من الشيطان الرجيم، يعترف بعجزه وضعفه أمام حِيَلِ الشيطان ووساوسه، وأنه لا يَقْوَى على مقاومة الشيطان وحده.

ويعترف أيضًا بقوة الله تعالى وقدرته، وأنه وحده القادر على دفع جميع الثغرات، ومنها كيد الشيطان؛ إذ لا يقدر على دفعها عن العبد إلَّا الله سبحانه، فالمسلم إذن يستعين بالله تعالى ويلجأ إليه ويسأله أن يدفع عنه كيدَ عدوه؛ حيث لا يقدر على ذلك إلا الله سبحانه.

ولفظ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ مشتق من (شَطَنَ) بمعنى (بَعُد) أي: أنه بعيد عن الخير وبعيد عن طباع البشر.

و﴿ٱلرَّجِيمِ﴾ بمعنى المرجوم، أي: المطرود من رحمة الله تعالى، والمطرود عن الخير كله، و(الاستعاذة) طلب العوذ بمعنى اللجوء إلى الله تعالى، واللياذ بحماه من هذا الشيطان، وقد أمرنا أن نستعيذ بالله من الشيطان الرجيم عند بَدْءِ القراءة فقال: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨] والأمر في الآية للوجوب.

قال جعفر الصادق: إنه لا بُدَّ قبل القراءة من التعوذ، وأما سائر الطاعات فإنه لا يتعوذ منها، والحكمة في ذلك أن العبد قد يَنْجُسُ لِسانُهُ بالكذب، أو الغيبة، والنميمة ونحو ذلك، فأمره الله تعالى بالتعوذ؛ ليعودَ لسانُه طاهرًا، فيقرأ بلسان طاهر كلامًا أُنزل من رب طيب طاهر[1].

إن بعض أجهزة التحليل الصوتي أو التحليل الضوئي قد تتمكن من الوصول إلى معرفة شيء من المهام العلمية، سواء رُكبت هذه الأجهزة في أقمار صناعية، أم في محطات فضائية، أم في أطباق طائرة، لكنها حين تحاول التجسس في نطاق الملأ الأعلى فإنها تكون قد سَعَتْ إلى حتفها ودحرها، ومن ثم فإن الوحي الإلهي في مأمن تامٍّ من استراق الإنس أو الجن، سواء أكان ذلك التجسس على الكوكب الأرضي أم على غيره من الكواكب ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ۝٨ دُحُورٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ﴾ [الصافات: ٨، ٩].

(١) تفسير الفخر الرازي.

٢- ضعف الشيطان أمام قوة الإيمان:

وقد حمل الشيطان على عاتقه إغواء بني آدم، وإتيانهم من جميع الجهات، والقعود لهم بكل مَرْصَدٍ، إلا عباد الله المخلصين، الذين قويت إرادتهم، وأصبح إيمانهم أقوى من كيد الشيطان، فإنه لا سلطان له عليهم، فقد أعان الله تعالى رسولَه ﷺ على شيطانه حتى أسلمَ، وأصبح زِمَامُه بيد رسول الله ﷺ بحيث لا يقوى على كيده، وكذلك عمر ﷺ كان أقوى من الشيطان بقوة إيمانه، فما سلك عمر فجًا إلا وسلك الشيطان فجًا غيره.

وهكذا كل مسلم قويُّ الإيمان، يتحصن بالله تعالى من كيد الشيطان، فيستعيذ به سبحانه، ويَلُوذُ بحماه في صباحه ومسائه، وغُدُوِّه ورواحه، وأقوالِه وأفعاله، ولذا: أُمرنا بقراءة المعوذات (الإخلاص والفلق والناس) في صباحنا ومسائنا، وعند النوم، وفي أدبار الصلوات، لا سيما المغرب والفجر، أي: في أول النهار وآخره، وعند النوم، وكذا قراءة آية الكرسي، وآخر سورة البقرة؛ دُبُرَ كل صلاة طلبًا للتحصن من الشيطان، فضلًا عن أن ذلك عبادة، وفيه أجر من الله تعالى.

ومن فضل الله تعالى علينا، أن الشيطان يضعف ويخنس ويبطل عمله بتلاوة آيات التحصن، نعوذ بالله تعالى من شره، قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

وقال سبحانه: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

وقال جل شأنه: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧، ٩٨].

٣- الوسوسة في الصلاة: والاستعاذة بالله تعالى من الشيطان، تطهِّر القلب من كل ما يشغل العبد عن ربه، لا سيما إذا وقف بين يدي الله تبارك وتعالى يناجيه في صلاته، فهي تطرد عنه وسوسة الشيطان وهواجسه التي تُنقِص من أجر الصلاة أو تذهب بها.

عن أبى علاء: أن عثمان بن أبى العاص رضي الله عنه أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي، يُلبِّسها عليَّ، فقال الرسول ﷺ: «**ذاك شيطان يقال له: خنزب، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه، واتفل عن يسارك ثلاثًا، قال:**

ففعلت ذلك فأذهبه الله عني»(١).

وقد ورد عن أبي سعيد الخدري، وعائشة ﵄ أن النبي ﷺ إذا قام من الليل فاستفتح صلاته وكَبَّر قال: **«سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جَدُّكَ ولا إله غيرك»**(٢) ثم يقول: «لا إله إلا الله» ثلاثًا ثم يقول: **«أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من هَمْزِهِ ونَفْخِهِ وَنَفْثِهِ»**(٣).

وهمز الشيطان: الجنون، **ونفخه**: الكبر؛ لأن المتكبر ينتفخ في نفسه، **ونفثه**: أي الشعر المذموم؛ لأن الشعر يخرج من الفم، ويلفظه اللسان، وينفثه شياطين الإنس والجن.

٤- كل مُتَمَرِّدٍ من الإنس أو الجن فهو شيطان:

فهناك شيطان الإنس وشيطان الجن، وهو المتمرد من كل منهما، وكلاهما يؤذي ويَضُرّ ويُغوي، فالمتمرد بعُدتْ أخلاقُه عن الخير، وابتعد عن بني جنسه، فناسب إطلاق الشيطان عليه، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢].

ودليل إطلاق مسمى الشيطان على المتمرد من الدواب، قول عمر ﵁ وقد رَكِبَ بِرْذَوْنًا فتبخْتَر به فقال: (لقد حملتموني على شيطان، والله لقد أنكرت نفسي) فناسب إطلاق الشيطان عليه.

وكل من شيطان الإنس والجن يضل ويغوي، ويتسبب في جلب الشر ودفع الخير، لكن

---

(١) أخرجه مسلم كما في «جامع الأصول» ج٦ رقم (٤٣٧٦) وهو في «صحيح مسلم» برقم (٢٢٠٣).

(٢) أبو داود (٧٧٦) والترمذي (٢٤٢) والمسند (١١٤٧٣، ١١٦٥٧) بإسناد ضعيف لِتفرُّد (الضُّبَعي) به -جعفر بن سليمان - وهو مختلف فيه، قال محققو المسند: قال الترمذي: وقد تُكلّم في إسناد حديث أبي سعيد، وقال ابن خزيمة: لا نعلم في هذا خبرًا ثابتًا عن النبي ﷺ، وضعّفه النووي في المجموع (٢٧٨/٣) وهو عند ابن ماجة (٨٠٦) والحاكم (١/ ٢٣٥) والبيهقي (٢/ ٣٣) وعبدالرزاق (٢٥٥٤) والدار قطني (١/ ٢٩٩) وانظر الألباني في «الإرواء» (٣٤١).

(٣) ينظر: أبو داود (٢٤٢) باب ما يقوله عند افتتاح الصلاة، وصحيح سنن أبي داود (٧٠١).

الشيطان يكون خفيًّا، يوسوس من الداخل، والإنسان يكون ظاهرًا ماثلًا أمام العينين يُحسِّن ويُزيِّن العمل السيئ للمرء فيراه حسنًا، ويَقْلِبُ الخير شرًّا والمعروف منكرًا، وشيطان الإنسان يمكن مصانعتُه ومداراته وكف شره، بإسداء الجميل إليه وبذل المعروف له، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤] وقال: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

أما شيطان الجن فلا يقدر عليه إلا قويُّ الإيمان، ولا يكف أذاه إلا الله سبحانه؛ لأنه شرير بطبعه، ولا يكف عن أذى خلقه، وشيطان الدواب يؤذي كذلك، من غير تعرُّضٍ له بالأذى.

فكل متمرد من شياطين الإنس والجن والحيوان يؤذي، ولا يردُّ أذاهم إلا الله سبحانه.

وقد أمرنا سبحانه أن نستعيذ بالله، ونستعين به على كفِّ شرورهم، فهو وحده القادر على ذلك، وفي الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم تَحصُّنٌ وكفٌّ لذلك كله.

عن سليمان بن صُرَد قال: استبَّ رجلان عند النبي ﷺ فغضب أحدهما، فاشتد غضبه حتى انتفخ وجهه وتغير، فقال النبي ﷺ: «**إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه الذي يجد**»، فانطلق إليه الرجل فأخبره بقول النبي ﷺ وقال: تعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فقال: أترى بي بأسٌ؟ أمجنونٌ أنا؟ اذهب[(١)].

٥- **موضع الاستعاذة في الصلاة وخارجها**: وتكون الاستعاذة في الركعة الأولى فقط قبل البسملة، أي: في افتتاح الصلاة فحسب، ويُؤتى بها سرًّا، سواء أكانت الصلاة سرية أم جهرية، ولا تشرع الاستعاذة في غير الركعة الأولى، أما خارج الصلاة فيُسَرُّ بها حال كون القراءة سرًّا، ويُجهر بها حال الجهر بالقراءة، سواء أكان ذلك في بدء السورة أم في أوسطها، فإن كانت التلاوة من أول السورة خارج الصلاة فعلى القارئ أن يستعيذ ويُبَسمِلَ، سواء أَوَقَف على كل من الاستعاذة والبسملة أم وصلهما ببعضهما في نَفَس واحد، وسواء أَوَصَلَهما معًا بأول السورة أم قطعهما عنها.

---

(١) «المسند» (٢٧٢٠٥) قال محققوه: وإسناده صحيح على شرط الشيخين، والحديث في البخاري (٦٠٤٨) ومسلم (٢٦١٠) و«الكبرى» للنسائي (١٠٢٢٤) والطبراني في «الكبير» (٦٤٨٩) وابن أبي عاصم (٢٣٥١) وابن حبان (٥٦٩٢) وشرح السنة للبغوي (١٣٣٣).

والأولى الوقف على كل من الاستعاذة والبسملة، ثم البدء بأول السورة، فكل منهما آية، والوقف على رؤوس الآي سنة، ولا يصح للقارئ في بدء السورة أن يستعيذ ولا يبسمل؛ لأن البسملة لا بد من الإتيان بها في أول السورة، سواء أكان ذلك على اعتبار أنها آية من السورة، أم على أنها للفصل بين السور، أو للتيمُّن والتبرك، فَيُؤتى بها على كل حال.

أما إذا كانت التلاوة في وسط السورة، فللقارئ أن يأتي بالبسملة بعد الاستعاذة، وله أن يستعيذ ولا يبسمل، وينبغي ألا يقتصر على الحالة الثانية حتى لا يظن الناشئة أن الإتيان بالبسملة بعد الاستعاذة في وسط السورة غير جائز، وهذا غير صحيح، وسواء أكان هذا في سورة التوبة أم في غيرها، إلا أنه لا يجوز له أن يبسمل في أول سورة براءة، وله البسملة وعدمها في أثنائها.

٦- أحكام الاستعاذة:

وفيما يأتي بيان لتعريفها وحكمها وصيغتها، والإسرار بها أو الجهر، وأوجهها مع البسملة:

أ- التعريف: الاستعاذة هي: اللجوء إلى الله تعالى، والاعتصام بجنابه، والتحصن به سبحانه من الشيطان الرجيم.

ب- موضعها: وإذا أراد المسلم أن يشرع في القراءة، فإنه ينبغي له أن يبدأها بالاستعاذة، بدليل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨] أي: إذا أردت قراءة القرآن فاستعذ بالله، سواء أكانت القراءة من أول السورة أم في أثنائها.

جـ - صيغتها: واللفظ الوارد في سورة النحل: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) هو المختار عند الجمهور في الصلاة وغيرها، وإذا زاد المسلم عليه مثل: (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم) كما قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦] أو قال بعد الشيطان الرجيم: (من همزه ونفخه ونفثه) فهو جائز لحديث أبي سعيد عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا قام إلى الصلاة استفتح، ثم يقول: **«أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه»**[1].

(١) قال الترمذي برقم (٢٤٢): هذا أشهر حديث في هذا الباب، وانظر: الألباني في «إرواء الغليل» ج٢ رقم (٣٤٢) وانظر: ابن قدامة في «المغني» ج١ ص٤٥٧ والحديث في «صحيح سنن أبي داود» (٧٠١) وفي سنن أبي داود (٧٧٦) والبيهقي (٢/ ٣٥).

قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾ [المؤمنون: ٩٧].

وهي ليست آية من القرآن بالاتفاق.

د- حكمها: جمهور العلماء على حمل الأمر بالاستعاذة الوارد في آية سورة النحل على الندب والاستحباب، وحمله بعضهم على الوجوب بحيث لو تركها يكون آثمًا، وهو ظاهر الأمر بها ولا صارف عنه إلى الندب، سواء أكانت القراءة سرًّا أم جهرًا، في الصلاة أم في غيرها، والجمهور على أن الاستعاذة سُنَّةٌ في الصلاة فلا تَبطل بتركها.

هـ- الجهر بها: يُجهر بالاستعاذة إذا كانت قراءة القارئ جهرًا لنفسه، أو كان هناك من يستمع إليه؛ إشعارًا ببدء القراءة، وذلك في غير الصلاة، أما في الصلاة فيؤتى بها سرًّا قبل البسملة في الركعة الأولى فقط سواء أكانت الصلاة سِريَّة أم جَهْرية.

وإذا كان هناك مَقْرأة، أو درس قرآني، فإن الذي يبدأ الحلقة أو الدرس يستعيذ جهرًا، ولا يلزم إعادتها من بقية مَن يقرؤون في الحلقة، ويرى ابن الجزري أن استعاذة كل واحد جهرًا أولى.

أقول: وكذا إن كان كل واحد منهم يقرأ من مكان مختلف، وليست القراءة متتابعة.

وإذا قُطعت القراءة لأمر يتعلق بها، أو لأمر خارج عن الإرادة، كالعُطَاس أو الكُحَة، فلا تُعاد الاستعاذة، أما إذا قُطعتْ لأمر لا يتعلق بالقراءة فإنها تعاد.

و- الإسرار بالتعوذ: ويُسِرُّ القارئ بها إذا كانت القراءة سرًّا، أو كانت في الصلاة، أو كان القارئ يقرأ مع جماعة ولم يكن هو البادئ بالتلاوة، بأن كانت القراءة موصولة في حلقة أو مجلس قرآن أو طلاب يقرءون، كل واحد يقرأ بعدِ الآخر، فإنه يكتفي بالاستعاذة جهرًا عند البدء بالقراءة، دون قراءتها من كل واحد فيهم.

ز- أوجه أول السورة

١- قطع الجميع: أي قطع الاستعاذة عن البسملة عن أول السورة.

٢- قطع الاستعاذة عن البسملة، ووصل البسملة بأول السورة.

٣- وصل الأول بالثاني وقطع الثالث (الأول: الاستعاذة، والثاني: البسملة، والثالث: أول السورة).

٤- وصل الجميع: أي وصل الاستعاذة بالبسملة بأول السورة.

حـ - أول براءة: أما الابتداء بأول سورة براءة، فليس فيها إلا وجهان:

- الوقف على الاستعاذة والبدء بأول السورة دون البسملة.

- وصل الاستعاذة بأول السورة من غير بسملة كذلك.

- أما إذا أوصل القارىء آخر الأنفال بأول براءة ، فهو مخير بين ثلاثة أوجه هي: وصل السورتين ببعضهما دون استعاذة ولا بسملة. أو الوقف على آخر الأنفال مع التنفس ثم يبدأ أول براءة أو يسكت بين السورتين سكتة خفيفة دون تنفس ثم يبدأ أول براءة.

ط- أوجه الاستعاذة أثناء السورة: ولاقتران الاستعاذة بغير أول السورة وجهان:

- الوقف على الاستعاذة، والابتداء بأول الآية.

- وصل الاستعاذة بأول الآية.

ى- أما إذا استعاذ القارئ وبسمل، وقرأ من أثناء السورة فله الأوجه الأربعة السابقة

ومن المعلوم أن القارئ مخير في وسط السورة بين الإتيان بالبسملة أو تركها، بما في ذلك (براءة) والإتيان بها أفضل، والقطع في كل الوجوه أفضل؛ لأن فيه الوقف على رؤوس الآي وهو سُنَّةٌ.

الإتيان بالبسملة بعد الاستعاذة في أثناء السورة:

وإذا بدأ القارىء في أثناء السورة بآية تتعلق بالله تعالى، أو تتعلق برسوله ﷺ، أو تتعلق بالمؤمنين، أو بالجنة ونعيمها، ونحو ذلك، فإن المقام يقضي أن يؤتى بالبسملة بعد الاستعاذة، حتى لا يعود الضمير على الشيطان في مثل ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ غافر ٦٨ ومثل ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ البقرة ٢٥٥ ومثل ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾ الأحزاب: ٤٣ ومثل﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ﴾ الأحزاب ٣٠، ٣٢ وهكذا.

أما إذا بدأ القارئ بكلام عن النار أو عن الشيطان، أو عن غير المسلمين ونحو ذلك، جاز له أن يبسمل بعد الاستعاذة، أو يكتفي بالاستعاذة.

المَبْحَثُ الْخَامِسُ: الْبَسْمَلَةُ، ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ وفيه مطلبان:

المَطْلَبُ الأَوَّلُ : الافْتِتَاحُ بِالبَسْمَلَةِ في الصَّلَاة وَغيرِهَا

(أ) يبدأ المسلم قراءته أو صلاته مفتتحًا ومتيمنًا ومتبركًا بـ (بسم الله)

وقد افتتح الله سبحانه القرآن الكريم بالبسملة، وافتتح كل سورة منه بها، والمسلم يبدأ جميع شؤونه الدينية والدنيوية باسم الله تعالى وحده، لا باسم ملك من الملوك، ولا باسم شعب من الشعوب، ولا أمة من الأمم، ولا عظيم من العظماء، ولا باسم مبدأ من المبادئ، أو تنظيم أو حزب، أو مذهب أو فكر.

وحينما نزل الوحي على رسول الله ﷺ، كان اللفظ الأول يتضمن الأمر بالبسملة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، وفيه الإشارة إلى بدء الأمور ذات الشأن باسم الله تعالى وحده، والنبي ﷺ كان يقرأ البسملة في أول كل سورة، وفي ذلك إرشادٌ لنا أن نستفتح بالبسملة جميع شؤوننا، وكل أقوالنا وأفعالنا.

والمعنى: باسم الله أبدأ، باسم الله أفعل، باسم الله أقول، باسم الله أتحرك، باسم الله أنام، باسم الله أستيقظ، باسم الله أعمل، باسم الله أصلي، باسم الله أجامع أهلي، باسم الله آكل، باسم الله أشرب، وهكذا، ولفظ (اسم) يعم جميع الأسماء الحسنى.

فالمسلم يتبرأ من أن يكون هذا الشيء الذي يقوله أو يفعله باسمه أو باسم غيره، وإنما هو باسم الله الذي يُستَمدُ منه العون والقوة والعناية، فلا استعانة له إلا به سبحانه، عليه توكلت، وبه أقدمت، وبه أحجمت، وقد عَلَّمنا القرآن أن نضع التوحيد مكان التثليث الذي يبدأ به النصارى شئونهم: باسم الأب والابن والروح القدس.

فاسم الجلالة ﴿اللَّهِ﴾ هو الاسم العلم على الذات الإلهية، وهو المألوه، أي المعبود، المستحق لإفراده بالعبادة، لما اتصف به من صفات الألوهية، وهي من صفات الكمال.

و﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ صِفتَانِ لموصوف واحد هو الله سبحانه، بخلاف الأب والابن والروح القدس، فكل من الثلاثة عندهم علَم على ذات مستقلة عن الأخرى: الله، وعيسى، وجبريل، أو مريم، والله سبحانه هو ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء، وعمّت كل حيّ، وكتبها للمتقين المتبعين لأنبيائه ورسله، فهؤلاء لهم الرحمة المطلقة، ومن عداهم فلهم نصيب منها، ونعم الله كلها أثر من آثار رحمته.

(ب) نتائج الافتتاح بالبسملة: والاستفتاح بالبسملة في كل شيء ذي بال يُرجى منه **ثلاث نتائج:**

النتيجة الأولى: الاعتقاد بأن الله تعالى سيحفظ المسلم بالبسملة من كل شر؛ لأن مجرد ذكر اسم الله تعالى فيه تَيمُّن وتَبرُّك، وإحالة دون وقوع الشرور، وفيه حفظ وبُعد عن نزغات الشيطان ومضلاته ومغرياته.

النتيجة الثانية: أنَّ بدءَ الأعمال والأقوال الصحيحة باسم الله تعالى سوف يوجه الإنسان الوِجْهةَ القويمة منذ البداية، ويأخذ بيده إلى الطريق الصحيح.

النتيجة الثالثة: أن المسلم بالبسملة سيلقى عون الله تعالى وبركته؛ لأن الله تعالى يتوجه إلى العبد إذا يمّم وجهه شَطْرَهُ، ويأخذ بيده.

ففي البسملة تبرك واستعانة بالله تعالى وحده، وإلا كان الأمر الذي يُقْدمُ عليه خاليًا من الخير والبركة.

(ج) ومن الأمور التي يُسْتَحبُّ ذكر البسملة في أولها

١- أول الحديث أو المحاضرة أو الندوة أو الاجتماع أو الخطبة، ما عدا خطبتي الجمعة والعيدين والاستسقاء والكُسُوف لورود الأمر ببدئها بالحمد.

والبدء بالبسملة أول الكلام الهام مأخوذ من افتتاح القرآن باسم الله تبارك وتعالى، ويُسْتأنَسُ له بالأثر: **«كُلُّ أمرٍ ذي بال لا يُبدأ فيه ببسم الله، فهو أقطع»**.

وفي رواية: «**أبتر**» وفي رواية: «**أجزم**»[١].

وفي رواية: «**لا يبدأ فيه بحمد الله**» بدل «**بسم الله**»[٢].

وفيما يلي ذكر للدعاء المقرون بالبسملة أو البسملة وحدها، **في كثير من حالات** المسلم اليومية:

٢- عند دخول الخلاء؛ لحديث أنس ﷺ: «**بسم الله، اللهم إني أعوذ بك من الخبُث والخبائث**»[٣].

٣- وعند الوضوء؛ لحديث أبي هريرة ﷺ: «**لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه**»[٤].

٤- وعند الأكل؛ لقول النبي ﷺ لِعُمر بن أبي سلمة ﷺ: «**سمِّ الله، وكُلْ بيمينك، وكل مما يليك**»[٥].

ولحديث عائشة رضي الله عنها: «**إذا أكل أحدكم طعامًا فليقل: بسم الله، فإن نسي في**

---

(١) ضعيف، يُنظَر في تخريجه والحكم عليه: «إرواء الغليل» للشيخ الألباني حديث رقم ١ وقال السيوطي: أخرجه الحافظ عبد القادر الرُّهاوِي في الأربعين بسند حسن عن أبي هريرة مرفوعًا، «الدر المنثور» (١/ ٤٥) وقد روى هذا الحديث بلفظ (بسم الله) موصولًا ومرسلًا، وأخرجه الخطيب في كتابه (الجامع لآداب السامع) قال فيه السخاوي: غريب، وقال الحافظ: في سنده ضعف.

(٢) وهذه رواية أبي هريرة في «سنن النسائي الكبرى» (١٠٢٥٥) والتحفة (١٥٢٣٢) وأبي داود (٤٨٤٠) وابن ماجة (١٨٩٤) و«مسند أحمد» (٨٧١٢) وصحيح ابن حبان (١،٢) وفي الموارد (٥٧٨) والنسائي في «عمل «اليوم والليلة»» (٤٩٤) وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود» (١٠٣١)، ولفظ أحمد (لا يفتتح بذكر الله).

(٣) ينظر: الأذكار، الإمام النووي ص٢١ وزيادة (بسم الله) أخرجها سعيد بن منصور وابن السني (٢٠) وبدونها جاء في الصحيحين وغيرهما في «جامع الأصول» (٤/ ٣١٢) والحديث عن أنس ﷺ في البخاري (١٤٢) ومسلم (٣٧٥) وأبو داود (٤،٥) والترمذي (٥) والنسائي (١٩).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٥، ٢٦) وأحمد وغيرهما بإسناد صحيح عن أبى هريرة، «صحيح الجامع الصغير» ج١ حديث رقم (٤٤٤) وهو في «المسند» برقم (٩٤١٨) وعن أبي سعيد (١١٣٧٠، ١١٣٧١) ورواه أبو داود (١٠١) عن أبي هريرة وابن ماجة (٣٩٩) والطبراني في «الدعاء» (٣٧٩) قال العلامة أحمد شاكر: إسناده جيد حسن.

(٥) أخرجه الشيخان عن عمر بن أبى سلمة، «الأذكار» ص١٩٩ وهو في البخاري (٥٣٧٦) ومسلم (٢٠٢٢).

أوله فليقل: باسم الله في أوله وآخره»[١].

٥- وعند دخول المسجد؛ لحديث أبي حُميْد وأبي أسَيْد: **«بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله، اللهم اغفر لي ذُنوبي وافتح لي أبواب رحمتك»**[٢].

٦- وعند الخروج من المسجد: **«بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله، اللهم إني أسألك من فضلك»**[٣].

٧- وعند دخول المنزل: لحديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه. **«بسم الله ولِجْنا وبسم الله خَرجْنَا وعلى الله ربنا توكلنا»**[٤].

٨- وعند الخروج من المنزل؛ لحديث أنس رضي الله عنه: **«بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله»**[٥].

٩- وعند ركوب السيارة وغيرها؛ لحديث علي بن أبي طالب ﷺ: **«بسم الله والحمد لله، سُبْحان الذي سَخَّر لنا هذا وما كنا له مُقْرِنِينَ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون»**[٦].

١٠- وعند وضع الثياب لحديث أنس رضي الله عنه: **«بسم الله الذي لا إله إلا هو»**[٧].

١١- وعند تَعطُّلُ السيارة أو الدابة ونحوهما: **«بسم الله»**[٨].

---

(١) «صحيح سنن الترمذي» باختصار السند للشيخ الألباني (٣/ ١٥٨) وهو في «سنن الترمذي» (١٨٥٨) وأبي داود (٣٧٦٧).

(٢) يُنظَر الروايات الواردة في ذلك في الأذكار للنووي ص٢٥ وقد رواه مسلم (٧١٣) والترمذي (٣١٤) وابن ماجة (٧٢٢) وأبو داود (٤٦٥) والنسائي (٣/ ٥٣) وفي «عمل اليوم والليلة» (١٧٧) وابن السني (١٥٦).

(٣) المراجع السابقة.

(٤) حسن إسناده الشيخ ابن باز في «تحفة الأخيار» ص٢٨ وأخرجه أبو داود، كما في «مشكاة المصابيح» حديث رقم (٢٤٤٤، ٢/ ٧٥٥) وهو في سنن أبي داود برقم: (٥٠٩٦).

(٥) أخرجه أبو داود (٥٠٩٥) والترمذي (٣٤٢٦) والنسائي في «عمل «اليوم والليلة»» (٨٩) وهو في «مشكاة المصابيح» حديث رقم (٢٤٤٣، ٢/ ٧٥٤) وصحيح الترمذي (٣/ ١٥١).

(٦) صحيح الترمذي (٣/ ١٥٦) و«سنن الترمذي» (٣٤٤٦) وأبو داود (٢٦٠٢) والنسائي في «اليوم والليلة» (٥٠٢) وسنده صحيح.

(٧) «صحيح الجامع الصغير» (٣/ ٢٠٣) برقم (٣٦١٠). وابن السُّنِّي (٢٧٤٠).

(٨) سنن أبي داود (٤/ ٢٩٦) برقم (٤٩٨٢) عن أبي المليح عن رجل.

١٢- وعند القيام من النوم؛ لحديث حذيفة رضي الله عنه أنه قال: وإذا استيقظ من منامه (أي: النبي ﷺ) قال: «**الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النُّشُور**»[(١)].

١٣- وعند الجماع؛ لما جاء في الصحيحين وغيرهما عن ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله، قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنِّب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إنْ يُقدَّرْ بينهما ولد لم يَضُرّه الشيطان أبدًا**»[(٢)].

١٤- وعند النوم؛ لحديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**باسمك ربي وضعتُ جنبي وبك أرفعه فإن أمسكْتَ نفسي فارحمْها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين**»[(٣)].

وفي حديث حذيفة ﷺ قال: كان النبي ﷺ إذا أراد أن ينام قال: «**باسمك اللهم أموتُ وأحيا**»[(٤)].

١٥- وفي الصباح والمساء كما في حديث عثمان بن عفان ﷺ أن النبي ﷺ كان يقول: «**بسم الله الذي لا يَضُرُّ مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم**»[(٥)].

١٦- وعند الرقية كما في حديث عثمان بن أبي العاص ﷺ أنه شكا إلى رسول الله ﷺ وجعًا يجده في جسده، فقال له رسول الله ﷺ: «**ضع يدك على الذي تألم من جسدك وقل: بسم الله ثلاثًا، وقل سبع مرات: أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر**»، وفي لفظ: «**أعوذ بعزة الله وقدرته**»[(٦)].

---

(١) البخاري من حديث حذيفة (٦٣١٤) ومسلم من حديث البراء (٢٧١١) وابن السُّنّي: (٢٧٤).

(٢) أخرجه الشيخان في البخاري (١٤١، ٣٢٧١، ٥١٦٥) ومسلم (١٤٣٤) وأحمد برقم (١٨٦٧، ٢١٧٨، ٢٥٥٥، ٢٥٩٧) عن ابن عباس، ينظر «صحيح الجامع الصغير» ج٢ حديث رقم (٥١١٧) و«المشكاة» (٢/٧٤٨) وأبو داود (٥٠٤٩) وابن ماجة (٣٨٨٠) والترمذي (٣٤١٧) و«المسند» (٢٣٢٧١) وابن حبان (٥٥٣٢) والسنن «الكبرى» للنسائي (١٠٥١٥).

(٣) أخرجه الشيخان عن أبي هريرة، «المشكاة» (٢/٧٣٦) وهو في «صحيح مسلم» برقم (٢٧١٤) و«صحيح البخاري» (٦٣٢٠، ٧٣٩٣) والترمذي (٣٣٩٨).

(٤) البخاري (٦٣١٢، ٦٣١٤، ٦٣٢٤) وفي الأدب المفرد له (١٢٠٥) يُنظَر: «مشكاة المصابيح» الحديث رقم (٢٣٨٢) «ومختصر صحيح مسلم» حديث رقم (١٨٩٧) وهو بلفظ (اللهم باسمك).

(٥) أخرجه أبو داود برقم: (٥٠٨٨) والترمذي برقم: (٣٣٨٨) وقال حسن صحيح غريب، وابن ماجه (٣٨٦٩) والطيالسي (٧٩) وانظر «المسند» برقم (٤٤٦، ٤٧٤، ٥٢٨). قال محققوه: إسناده حسن، وله طرق وألفاظ متقاربة.

(٦) «صحيح مسلم» (١٧٢٨/٤) برقم (٢٢٠٢) وأبو داود (٣٨٩١) وابن ماجة (٣٥٢٢) والترمذي (٢٠٨٠) و«المسند» (١٦٢٦٨) وابن حبان (٢٩٦٤) و«الكبرى» للنسائي (٧٥٠٤) وفي التحفة (٩٧٧٤).

١٧- وعند الذبح كما جاء عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «**بسم الله، الله أكبر، اللهم صلِّ على محمد وعلى آله وسلم**»(١).

١٨- وعند إدخال الميت القبر كما جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**إذا وضعتم موتاكم في القبر فقولوا: بسم الله، وعلى سنة رسول الله**»(٢).

هذا: والأذكار الواردة فيما ذكرت وغيرها كثيرة، منها ما هو بلفظ (الحمد) أو لفظ (اللهم) مما لم نتعرض له هنا، وغير ذلك من مختلف الصيغ الواردة في هذا المقام مما هو في الكتب الخاصة بذلك كالأذكار للنووي، والوابل الصيب لابن تيمية، وعمل اليوم والليلة لابن السني والنسائي وغير ذلك.



الْمَطْلَبُ الثَّانِي: التَّحْلِيلُ اللَّفْظِيُّ لِلْبَسْمَلَةِ

اشتملتْ البسملةُ على الألفاظ التالية: **الباء، اسم، لفظ الجلالة، الرحمن، الرحيم**.

أولًا: **الباء** من لفظ ﴿بِسْمِ﴾ تدل على البدء، وهي متعلقةٌ بفعل محذوف يناسب المقام، فالقارئ يبدأ قراءته باسم الله، والكاتب يبدأ كتابته بسم الله، وهكذا.

وقد حذفت الألف التي بعد الباء تخفيفًا؛ لكثرة استعمالها.

ثانيًا: **لفظ** ﴿بِسْمِ﴾ يدل على ذات من الذوات، أو معنى من المعاني، فيذكر بعده هذا الاسم أوهذا المعنى؛ كي يوضحَه ويفسره، وهو مشتق من السُّمُوِّ، وهو العلو والرفعة، أو هو مشتق من السِّمَة، أي: العلامة.

(١) «الأذكار» ص١٧٢ وهو في «صحيح مسلم» (١٩٦٦) وأبي داود (٢٧٩٥) والترمذي (١٤٩٤) وابن ماجة (٣١٢٠).

(٢) سنن أبي داود (٣/ ٣١٤) برقم (٣٢١٣) و«المسند» (٤٨١٢) قال محققوه: رجاله ثقات رجال الشيخين، وأخرجه ابن حبان (٣١٠٩، ٣١١٠) والنسائي في «الكبرى» (١٠٨٦٠، ١٠٨٦١). وأبو يعلى (٥٧٥٥) وابن حبان (٣١١٠) قال الحاكم (١/ ٣٦٦): هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

ثالثًا: اسم الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ وهو علم على الذات الإلهية، سبحانه وتعالى، لا يشاركه فيه غيره.

قيل: إنه اسم الله الأعظم؛ لأنه يُوصفُ بكل الصفات، وهذا اللفظ وحده ﴿ٱللَّهِ﴾ هو العلم، وما عداه صفات له سبحانه، ويطلق عليها كلها (الأسماء الحسنى) وكل اسم منها صفة في المعنى، بخلاف لفظ الجلالة فهو الاسم الوحيد الخالي من الصفة، وجميع الصفات (الأسماء الحسنى) تدل على ذات الله تعالى وعلى الصفة أيضًا، ولفظ الجلالة يدل عليها كلها.

وصفات الجلال والكمال والجمال أخص باسم ﴿ٱللَّهِ﴾ تعالى.

وصفات الفعل والقدرة والتدبير والتفرد بالضر والنفع ونفوذ المشيئة وكمال القوة أخص باسم **(الرب)**.

وصفات الإحسان والبر والحنان والمنة والرأفة واللطف أخص باسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾.

(الله) و(الإله)

الصحيح أن لفظ الجلالة (الله) غير مشتق، وأنه علم لا يطلق إلا على الذات العلية، وقيل: هو اسم مشتق من الإله، وهو المألوه المعبود، أي: المستحق لإفراده بالعبادة، لا يشاركه فيه غيره، ومعناه: المعبود بحق.

وأما الثاني (الإله): فهو يطلق على كل معبود بحق أو لا، فالأصنام تسمى آلهة، وكل ما يُعبد من دون الله يقال له: (إله) بالنسبة لمن عبده، ثم غلب لفظ (الإله) على ما يعبد بحق، وهو الله تعالى.

ولفظ (الله) لا يطلق إلا على المعبود بحق، وهو خالق هذا الكون سبحانه.

ولفظ (الإله) يطلق عليه سبحانه وعلى غيره، أي: المعبود بحق أو باطل، فهو اسم جنس لكل ما عُبِدَ.



المَبْحَثُ السَادِسُ: الْبَسْمَلَةُ لَدَى الْقُرَّاءِ وَالْفُقَهَاءِ وَالْمُحَدِّثِينَ وَعُلَمَاءِ عَدِّ الآي وَفِيهِ ثَلَاثَةُ مَطَالِبَ:

الْمَطْلَبُ الأَوَّلُ: الْبَسْمَلَةُ عِنْدَ الْقُرَّاءِ

أولًا: أول السورة: أجمع القراء العشرة على الإتيان بالبسملة عند الابتداء بأول كل سورة عدا براءة، بأن كان القارئ قد تنفس في نهاية السورة التي قبلها، وابتدأ بالسورة التي بعدها، أو كان مبتدئًا للقراءة أصلًا، وهذا حكم عام في جميع السور ولا سيما الفاتحة.

ثانيًا: في وسط السورة: وأما الابتداء بأواسط السور فيجوز لكل القراء الإتيان بالبسملة أو تركها، لا فرق بين براءة وغيرها.

ثالثًا: بين السورتين: وأما حكم ما بين كل سورتين، فاختلف القراء فيه على النحو التالي:

١- قرأ قالون وابن كثير وعاصم والكسائى وأبو جعفر بالفصل بالبسملة بين كل سورتين.

٢- وقرأ حمزة وخلف بوصل السورتين من غير بسملة.

٣- وورد عن ورش وأبي عمرو وابن عامر ويعقوب ثلاثة أوجه وهي:

(أ) البسملة. (ب) السكت من غير تنفس ولا بسملة. (ج) وصل السورتين بدون بسملة.

ولا خلاف في أن البسملة جزءُ آيةٍ في سورة النمل، ولا خلاف في تركها من أول براءة لجميع القراء.

رابعًا: أوجه ما بين السورتين

إذا وصل القارئ آخر السورة بالتي بعدها أو غيرها سوى براءة فله ثلاثة أوجه:

١- قطع الجميع: أي قطع السورة عن البسملة عن أول السورة التالية.

٢- قطع آخر السورة، ووصل البسملة بأول السورة الأخرى، سواء التي تليها أم لا.

٣- وصل الجميع: أي وصل آخر السورة بالبسملة بأول السورة التي تليها.

ويمتنع وصل آخر السورة بالبسملة والوقف عليها، ثم الابتداء بأول السورة؛ لأن البسملة لأول السور لا لأواخرها.

خامسًا: أوجه ما بين الأنفال وبراءة: إذا وَصَل القارئ آخر الأنفال بأول براءة فله ثلاثة أوجه:

١- وَصْلُ آخر الأنفال بأول التوبة بدون بسملة.

٢- الوقف مع التنفس على آخر الأنفال ثم بدء براءة بدون بسملة.

٣- قطع الصوت بدون تنفس على آخر الأنفال لمدة يسيرة، ثم الإتيان بأول براءة بدون بسملة.

أما إذا وصل القارئ أول سورة براءة بآخر سورة مما بعدها على غير ترتيب المصحف (كآخر الكهف مع أول براءة) فليس له إلا القطع، ويمتنع الوصل والسكت؛ لعكس ترتيب المصحف، وكذلك لو كرر السورة نفسها[1].

وهذه الأوجه جائزة بين آخر أيّة سورة قبل براءة وبينها.

وترك البسملة في أول سورة براءة، لعدم تواتر الرواية بها عن رسول الله ﷺ، ولترك كتابتها في المصحف، فقد حذفت لحذفها منه، وتقرأ في سائر السور لثبوتها فيها.

أما علة الحذف؛ فقيل: لأن البسملة آية أمان، وبراءة نزلت لنقض عهد المشركين، وإعلان الحرب عليهم، وهذا لا يتناسب مع الأمان، فالبسملة رحمة وبراءة عذاب[2].

وعدم وجود البسملة في أولها أمر توقيفي بتعليم الله لرسوله، وترتيبها بعد سورة الأنفال ثابت من العرضتين الأخيرتين للقرآن بين جبريل والرسول ﷺ، إذ عارضه القرآن كله في شهر رمضان الذي كان قبل موته ﷺ وفق ترتيب آيات سور المصحف كما هي عليه الآن، والأثر الوارد عن عثمان في ذلك وهو أن الرسول ﷺ مات دون أن يبين موضع سورة براءة من القرآن أثر غير صحيح.

المَطْلَبُ الثَّانِي: الْبَسْمَلَةُ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْعَدَدِ

أجمع علماء عَدِّ الآي (علم الفواصل) على عدم عد البسملة آية من أوائل السور، وإن رسمت في المصحف، ومِن علماء العدد مَن عد البسملة آية في أول الفاتحة، ومنهم من أسقطها.

وأجمع علماء العدد على أن عدد آي سورة الفاتحة إجمالًا سبع آيات باتفاق:

---

(١) الشيخ عبد الفتاح المرصفي، «هداية القارئ» ص٥٧٦. والتجويد الواضح للمؤلف ص٦٣.

(٢) ورد هذا عن ابن عباس وأنه سأل عليًّا فأجابه بذلك، انظر: الشيخ عبد الفتاح القاضي «الوافي بشرح الشاطبية» ص٤٨، وانظر: «الكشف عن وجوه القراءات السبع» ج١ ص١٩.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « (**الحمد لله رب العالمين) سبع آيات (بسم الله الرحمن الرحيم) إحداهن، وهي السبع المثاني، والقرآن العظيم، وهي أم القرآن، وفاتحة الكتاب**»[1].

فهي سبع آيات على أي حال عند جميع علماء عدِّ آي القرآن الكريم، وإن اختلفوا في تفصيل ذلك، فمن عد (البسملة) أسقط ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، ومن عد ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أسقط (البسملة).

وقد عَدَّ المصحف المكي والكوفي (البسملة) آية وأسقط ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، من العدد، وعد المصحف المدني الأول والأخير والبصري والشامي ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ آية، وأسقط (البسملة) من العدد.

والمصحف الذي بين أيدينا برواية (حفص عن عاصم) الكوفي، وهو يعدّ (البسملة) آية من الفاتحة، ولا يعد ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وموافقة الرسم العثماني شرط في صحة القراءة.

واختلاف علماء العدد في عد (البسملة) آية أو تركها من سورة الفاتحة هو سبب اختلاف الفقهاء في قراءتها أو عدم قراءتها، وفي الإسرار أو الجهر بها في الصلاة.

واختلاف علماء العدد مبني على اختلاف القراءات المتواترة الواردة في البسملة بين إثباتها وعدمه، وكلها صحيحة قطعية؛ لثبوتها عن رسول الله ﷺ.

واختلاف علماء الفواصل في عَدِّ آي سور القرآن بالزيادة أو النقصان يرجع إلى عدِّ بعض الألفاظ واعتبارها آية عند بعضهم، وعدم عدها آية عند الآخرين دون نقص أو زيادة في الآيات نفسها.

مثاله: أن المصحف الكوفي يعتبر ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ الأولى آية، وغير المصحف الكوفي لا يعتبرها آية، ويسقطها من العدد، فيزيد المصحف الكوفي بذلك آية في سورة القارعة عن غيره، وليس هناك زيادة حرف ولا نقص حرف من السورة.

ومثل: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ في سورة البينة، يعدها المصحف البصري والشامي آية، ويسقطها غيرهما ويضمها للآية التي بعدها.

(١) الطبراني في «الأوسط» (٥١٠٢) والبيهقي (٢/ ٤٥) واللفظ له، وقال الهيثمي: رجاله ثقات «مجمع الزوائد» (٢/ ١٠٩).

وسبب ذلك، أن النبي ﷺ وقف عليها مرة وتركها أخرى، أما ما وقف عليه دائمًا، أو وصله دائمًا فلا خلاف فيه.

❀ ❀ ❀

المَطْلَبُ الثَّالِثُ: البَسْمَلَةُ عِنْدَ الفُقَهَاءِ وَالمُحَدِّثِينَ

أولًا: هل البسملة آية من القرآن أم لا؟

اختلف الفقهاء في عد البسملة آية من سورة الفاتحة، ومن أول كل سورة في القرآن، على **أقوال أربعة**:

الأول: مذهب مالك[١] أنها ليست آية من القرآن، لا من الفاتحة ولا من غيرها، وإنما هي للتبرك.

الثاني: مذهب أبى حنيفة أنها آية من القرآن، أُنزلت للفصل بين السور[٢].

الثالث: مذهب أحمد أنها آية من أول الفاتحة دون غيرها من السور[٣].

الرابع: مذهب الشافعي[٤] أنها آية في القرآن كله، من الفاتحة ومن غيرها في بدايات السور.

ولا خلاف في عدم وجود البسملة في أول سورة براءة، وأنها جزء من آية في سورة النمل.

---

(١) والأوزاعي وابن جرير والطبري وداود، وحكاه الطحاوي عن أبى حنيفة وصاحبيه (أبى يوسف ومحمد).

(٢) انظر: «بدائع الصنائع للكسائي» نشر دار العربي، بيروت، سنة ١٣٩٤هـ ج١ ص٦٣، وكتاب «الاختيار لتعليل المختار» لأبى عبد الله بن محمود بن مودود الموصلي الحنفي، دار الموفق، بيروت ط ثالثة سنة (١٣٩٥)هـ، ج١ ص٥٠ .

(٣) وذلك في إحدى الروايتين عنه، وقال به إسحاق وأبو عبيدة وأهل مكة والعراق، ومحمد بن كعب وغيرهم، راجع: «المغني» لابن قدامه نشر مكتبة الرياض، ج١ ص٤٧٧، ص٤٨٠، والرواية الثانية لأبي حنيفة.

(٤) ورواية عن أحمد، وحكاه ابن عبد البر عن ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وعطاء وطاوس ومكحول، وحكاه ابن كثير عن أبى هريرة وعلي وسعيد بن جبير والزهري وابن المبارك، وبعض فقهاء مكة وقرائها.

ثانيًا: حكم قراءة البسملة في الصلاة سرًّا وجهرًا

للفقهاء في قراءة البسملة في الصلاة والإسرار بها أو الجهر **ثلاثة مذاهب**:

الأول: مذهب مالك أنها لا تُقرأ في الصلاة المفروضة، لا سرًّا ولا جهرًا، لا في الفاتحة ولا في غيرها، ويجوز قراءتها في النوافل(١).

الثاني: مذهب أبي حنيفة وأحمد(٢) أنها تقرأ سرًّا في الصلاة ولا يجهر بها، وقد يجْهر بها عند أحمد لمصلحة راجحة(٣).

الثالث: مذهب الشافعي أنه يُجهر بها في الصلاة الجهرية، ويُسر بها في الصلاة السرية(٤).

وسبب الخلاف في ذلك هو: هل البسملة آية من الفاتحة ومن كل سور القرآن أم لا؟

فمن ذهب إلى أنها آية أوجب قراءتها، ومن ذهب إلى أنها ليست آية، منع قراءتها، وإليك دليل كل منهم.

ثالثًا: أدلة الجهر بالبسملة في الصلاة، وكونها آية.

(أ) **دليل الشافعية**: استدل الشافعية على أن البسملة آية من الفاتحة وغيرها، ويجهر بها في الصلاة الجهرية بأحاديث منها:

١- حديث أم سلمة ﵂ أن النبي ﷺ قرأ في الصلاة: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

---

(١) انظر: «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» لابن رشد، نشر دار الكتب الحديثة بالقاهرة ج١ ص١٢٤، ١٣٣، وكتاب «الكافي في فقه أهل المدينة» لابن عبد البر، يوسف بن عبد الله القرطبي، ط أولى سنة ١٣٩٨هـ مكتبة الرياض الحديثة ج١ ص٢٠١، وفيه: أن من جهر بالبسملة في الفريضة فلا حرج، ومن أهل المدينة من يقول: لا بد من البسملة في الصلاة كابن عمر، وابن شهاب.

(٢) وجمهور أهل الحديث والرأي وفقهاء الأمصار.

(٣) كجهر الإمام أحمد بها عندما صلى في المدينة للتعليم وإحياء السنة؛ نظرًا لقول بعض أهل المدينة بعدم قراءتها، انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية، باب صفة الصلاة ج٢٢ ص٢٧٤ .

(٤) انظر: «المجموع شرح المهذب للنووي» ط دار الفكر، ج٣ ص٣٣٢، و«فقه السنة» لسيد سابق، ط دار الفكر بيروت، ج١ ص١١٥ وغيرهما.

وعدها آية، وفي رواية: كان يقطع قراءته آية آية: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾[(١)].

وعدُّ البسملة آية وقَطْعها عما بعدها لا يُعلم إلا من الجهر بها، وقد نص الحديث على أن ذلك كان في الصلاة، ولفظ (في الصلاة) نَص عليه مَن سَمعتِ البسملة من الرسول ﷺ، وهى أم سلمة ﵂ راوية الحديث.

٢- حديث أبى هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إذا قرأتم** ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فاقرؤوا ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ إنها أم القرأن، وأم الكتاب، والسبع المثاني، وبسم الله الرحمن الرحيم إحدى آياتها»[(٢)].

وفي لفظ له: «﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ سبع آيات، إحداهن ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾»[(٣)].

ويُفهم من الحديث إطلاق لفظ ﴿الْحَمْدُ﴾ على سورة الفاتحة، وأن البسملة آية منها.

٣- حديث أنس ﵁ أنه سئل عن قراءة النبي ﷺ فقال: «**كانت قراءته مدًّا، ثم قرأ** ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾»[(٤)].

ففي الحديث أن النبي ﷺ كان يعطي المدود الطبيعية حقها، وضرب المثل على

(١) أخرجه أبو داود والترمذي والبيهقي والدارقطني وأحمد والحاكم وابن خزيمة وغيرهم، انظر: تصحيحه وتخريجه للشيخ الألباني في «إرواء الغليل» ج٢، حديث رقم (٣٤٣) قال الدارقطني: إسناد صحيح ورواته كلهم ثقات، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، وصححه ابن خزيمة والنووي وغيرهما، والحديث في «المسند» (٢٦٥٨٣) قال محققوه: صحيح لغيره، وهذا سند رجاله ثقات، رجال الشيخين، وهو عند أبي داود (٤٠٠١) والترمذي (٢٩٢٧) وأبي يعلى (٧٠٢٢) والطبراني في «الكبير» (٢٣/ ٦٠٣) والدارقطني في «السنن» (١/ ٣١٢) والحاكم (٢/ ٢٣١) والبيهقي في «السنن» (٢/ ٤٤) وابن خزيمة (٤٩٣).

(٢) رواه الدارقطنى برقم (١١٩٠) والبيهقى بإسناد صحيح، انظر: «صحيح الجامع الصغير» ج١ حديث (٧٤٢) و«سلسلة الأحاديث الصحيحة» حديث رقم (١١٨٣) وقال ابن حجر: أخرجه الدارقطني ورجح في العلل أنه موقوف.

(٣) عن عبد الحميد بن جعفر، عن نوح بن أبى بلال، عن سعيد المقبري عن أبى هريرة عن الدارقطني برقم (١١٩٠) وانظر: (١١٩٤).

(٤) أخرجه البخاري كما في «جامع الأصول» ج٢، رقم (٩١٨) والدارقطني: برقم (١١٧٧) وفي «المسند» (١٢١٩٨، ١٣٠٥٠، ١٤٠٧٦)، وابن حبان (٦٣١٦).

ذلك بسورة الفاتحة، وأن النبي ﷺ كان يمد ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ مدًّا طبيعيًّا بمقدار حركتين.

ولا يُعلم كون البسملة آية إلا من الجهر بها، وقد نص الحديث على أن النبي ﷺ قرأ البسملة في أول الفاتحة.

٤- أخرج الحاكم وغيره بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يجهر بـ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾[١].

٥- حديث أنس أيضًا قال: بينما رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفي إغفاءة، ثم رفع رأسه مبتسمًا، فقلنا: ما أضحكك يارسول الله؟ قال: نزلت عليَّ آنفًا سورة، فقرأ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾[٢].

فأثبت النبي ﷺ البسملة في أول سورة الكوثر، وهو دليل ثبوتها آية في أول السور، وغير ذلك من الأحاديث.

ومن الآثار الواردة في ذلك ما رواه الدارقطني عن علي ﷺ أنه سئل عن السبع المثاني فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فقيل: إنما هي ست، فقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ أي: أن البسملة هي الآية السابعة[٣]..

فهذه الأحاديث تدل على أن البسملة آية من أول كل سورة، وأنه يُجهر بها في القراءة الجهرية في الصلاة وغيرها؛ لأن النبي ﷺ قرأها جهرًا ونقلها عنه الصحابة كما سبق بيانه.

---

(١) قال الحاكم: رواته عن آخرهم ثقات، وأقره الذهبي، ينظر: «المستدرك على الصحيحين» ج١ ص٢٣٣، ورواه أيضًا الدارقطني والخطيب من طريق آخر، ينظر: «تدريب الراوي» (١/ ٢١٥).

(٢) أخرجه الستة، «جامع الأصول» ج٢ حديث رقم (٧٨٧) ورقم (٩١٩) وانظر: «صحيح الجامع» رقم (١٥١٠) وهو في مسلم (٤٠٠) وأبي داود (٧٨٤، ٤٧٤٧) والنسائي في «السنن الكبرى» (٩٧٩) و«المسند» (١١٩٩٦).

(٣) «سنن الدارقطني» برقم (١١٩٤).

وقد أثبت الجهر بالبسملة أحاديث أخرى جاءت من طرق كثيرة لم أذكرها؛ لأن معظمها لا يخلو من مقال، وهي أكثر من طرق الإسرار بالبسملة في الصلاة.

هذا: وقد كُتبتِ البسملة في المصاحف التي بعث بها عثمان رضي الله عنه إلى الأمصار الإسلامية، في أول كل سورة من القرآن، ما عدا براءة، وتواتر ذلك وثبت بالإجماع، ولم يُكتب في المصحف ما ليس منه مع تشدد الصحابة في ذلك، بمنع كتابة الأعشار، وأسماء السور، ونقط الإعجام، وما وُجد من ذلك أخيرًا كتب بمداد مختلف، والجهر بالبسملة أخذ به الشافعي ومن وافقه، وهو الطريق الثابت في الرسم بين دفتي المصحف.

(ب) أدلة الجمهور (الأحناف والحنابلة والمالكية): في الإسرار بالبسملة

حجة المالكية في عدم قراءة البسملة أصلًا في الفريضة، وحجة الأحناف والحنابلة في قراءتها سرًّا في الصلاة الجهرية أو السرية، أحاديث؛ جاء منها: أن النبي ﷺ كان يفتتح صلاته بالحمد؛ من ذلك:

١- حديث أنس قال: صليت خلف النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان، فكانوا يستفتحون بـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وفي رواية مسلم: لا يذكرون ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[١].

٢- حديث عائشة ﵂ قالت: كان رسول الله ﷺ يفتتح الصلاة بالتكبير، والقراءة بـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٢].

---

(١) أخرجه الشيخان البخاري (٧٤٣) ومن (١١٧-١٢٧) ومسلم (٣٩٩) ومن (٥٠-٥٢) و«المسند» (١١٩٩١) ومالك وأبو داود (٧٨٢) والنسائي في «الكبرى» (٩٨١) والترمذي (٢٤٦) وابن ماجة (٨١٣) وابن حبان (١٧٩٩) انظر: طرق الحديث في «جامع الأصول» ج٥ حديث رقم (٣٤١٩)، وقد ذكر ابن رشد في «بداية المجتهد» ج١ ص١٣٣ أن أهل الحديث قالوا: إن النقل فيه مضطرب اضطرابًا لا تقوم به حجة، فرُويَ مرفوعًا وموقوفًا، وذكر فيه الجهر والإسرار، وأنه رُوي من عشرة طرق فيها بُعد واضطراب، وانظر: «طريق الرشد إلى تخريج أحاديث ابن رشد» للشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم ج١، رقم (٢٥٣) فقد قال: وروي بألفاظ متعددة لكنها متقاربة المعنى، ويصدق بعضها بعضًا، وقال الحافظ ابن حجر: إنه يصعب أن يصحب أنس النبي ﷺ عشر سنين ثم يصحب أبا بكر وعمر وعثمان خمسًا وعشرين سنة، فلم يسمع منهم البسملة جهرًا مرة واحدة، بل لكون أنس لا يحفظ هذا الحكم؛ لبعد عهده به، انظر: «فتح الباري» ج٢ ص١٢، ٢١٢، وصح أن أبا سلمة سأله: أكان رسول الله يقرأ البسملة أم الحمد؟ فقال للسائل: إنك تسألني عن شيء ما أحفظه، انظر: «الراية» لابن حجر (١/ ١٣٦). أما حديث عبد الله بن مغفل عن الترمذي والنسائي فمعروف بضعفه كما في تحقيق عبد القادر الأرناؤوط علي جامع الأصول و«تدريب الراوي» (١/ ٢١٥) و«جامع الأصول» ج٥ حديث رقم (٤٣٢٠)، وإن كان الزيلعي في «نصب الراية» قد رفع الجهالة عن ابن مغفل بسبب رواية ثلاثة من أهل الحديث عنه، فعلم من هذا أن الحديث لا يخلو من مقال، وأنه معلول المتن، قال ابن عبد البر: اختلف في ألفاظ هذا الحديث اختلافٌ كثيرٌ متدافعٌ مضطربٌ، منهم من يقول: صليت خلف رسول الله وأبي بكر وعمر، ومنهم مَن يذكر عثمان، ومنهم من يقتصر على أبي بكر وعثمان، ومنهم من لا يذكر، فكانوا يقرؤون بسم الله الرحمن الرحيم، ومنهم من قال: فكانوا يفتتحون القراءة بالحمد لله رب العالمين، ومنهم من قال: فكانوا يقرؤون بسم الله الرحمن الرحيم، قال: وهذا اضطراب لا تقوم معه صحة لأحد، عن «تدريب الراوي» (٢١٤) في شرح تقريب النووى للسيوطي، تحقيق د/أحمد عمر هاشم.

(٢) أخرجه مسلم وأبو داود «جامع الأصول» ج٥ حديث رقم (٣٥٨٢) وهو في مسلم (٤٩٨) وأبي داود (٧٨٣) وابن ماجة (٧٨٣) وابن حبان (١٧٦٨) والطيالسي (١٥٤٧) و«المسند» (٢٤٠٣٠) وعبد الرزاق في «المصنف» (٣٠٥٠)، (٢٥٤٠) وأبو يعلى (٤٦٦٧).

٣- حديث أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله ﷻ: قسمتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله تعالى: حمدني عبدي**»[١] ولم يذكر البسملة.

وقال الأحناف: إن كتابة البسملة في المصحف يدل على أنها قرآن، ولا يدل على أنها آية من كل سورة.

ورأى مالك أن أهل المدينة لا يقرؤون البسملة في صلاتهم في مسجد المدينة، فلو كانت آية من الفاتحة لوجب قراءتها معها في الصلاة، ولكنها كُتبت للتبرك وليست بقرآن.

والأحاديث المذكورة تدل على عدم قراءتها في الصلاة، وأنها ليست من الفاتحة، وإنما نزلت للفصل بين السور[٢].

٤- وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إن سورة في القرآن ثلاثين آية شفعت لصاحبها حتى غُفِر له ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾**»[٣].

والبسملة ليست منها، وكذلك سورة الكوثر ثلاث آيات، ليست منها البسملة.

قلت: لعل الأرجح أن البسملة آية معدودة من سورة الفاتحة، وأنها نزلت للفصل بين كل سورتين كما قال الأحناف، ويؤيده حديث ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ كان لا يعرف فصل السورة حتىٰ ينزل: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فإذا نزلت عرف أن السورة قد ختمت[٤].

---

(١) أخرجه مسلم ومالك وأبو داود والترمذي والنسائي، انظر: الحديث في «جامع الأصول» ج٥ حديث رقم (٣٤٢٤) وينظر تخريجه في المبحث الثاني والسادس السابقيْن .

(٢) نقلًا عن الشيخ محمد علي الصابوني في «تفسير آيات الأحكام» ط ثالثة سنة ١٤٠٠هـ، ج١ ص٥١ بتصرف.

(٣) أخرجه النسائي في «الكبرى» (١٠٤٧٨، ١١٥٤٨) وأبو داود (١٤٠٠) والترمذي (٢٨٩١) وابن ماجة (٣٧٨٦) و«المسند» (٧٩٧٥) وابن حبان (٧٨٨، ٧٨٧).

(٤) أخرجه أبو داود بإسناد صحيح (٧٨٨) انظر: «صحيح سنن أبي داود» للشيخ الألباني ج١ ص١٤٩، حديث رقم (٧٨٨) والبزار (٢١٨٧) «كشف الأستار» والطبراني (١٢٥٤٤) والحاكم (١/ ٢٣١) والبيهقي في «السنن» (١/ ٥١٣).

وعن سعيد بن جبير أنهم كانوا لا يعرفون انقضاء السورة حتى تنزل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ فإذا نزلت علموا أن السورة قد انقضت ونزلت أخرى[1].

وعليه: فإنه يجوز الجهر بالبسملة في أول سورة الفاتحة في الصلاة وغيرها في القراءة الجهرية لعدها آية منها، وللأدلة الواردة في ذلك، وهي أحاديث صحيحة وصريحة في الحكم.

وتُقرأ جهرًا كذلك للفصل بها بين السورتين كما هي في المصحف؛ ولحديث ابن عباس السابق؛ وللتيمن والتبرك؛ ومعرفة أول السورة من آخرها، وذلك حال وصل السورة بالسورة في الصلاة وغيرها.

ويُجهر بها كذلك عند البدء بالسورة في الصلاة وغيرها لإجماع القراء على ذلك، ولأحاديث الجهر بها.

ويمكن تلخيص حالات الجهر فيما يأتي:

١- عند البدء بأول السورة في القراءة الجهرية.

٢- عند وصل السورة بالسورة للفصل بينهما؛ حتى لا يكون القرآن كله سورة واحدة، وللتيمن والتبرك، كما في صلاة التراويح وغيرها.

٣- في أول سورة الفاتحة على سبيل الجواز في القراءة الجهرية، في الصلاة المكتوبة والمسنونة، وفي غير الصلاة.

رابعًا: الجمع بين أدلة الجهر والإسرار:

أي: الجمع بين أدلة الجهر بالبسملة وأدلة الإسرار بها في الصلاة.

يبدو من مجموع الأدلة أن النبي ﷺ كان يجهر بالبسملة في أول الدعوة، ثم أسر بها بسبب استهزاء المشركين؛ فقد كانوا إذا سمعوه يقرأ بالبسملة في الصلاة وفيها: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ قالوا: لا نعرف إلا رحمَن اليمامة، يعنون (مسيلمة الكذاب) فكانوا يسمونه (رحمن اليمامة).

فأُمر النبي ﷺ أن يخفض صوته بالقراءة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ

---

(١) أبو عبيد في «فضائل القرآن» ص١١٤ .

بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا﴾[1] [الإسراء: ١١٠] ونص الحديث على أن النبي ﷺ كان إذا قرأ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ يستهزئ منه المشركون، ويقولون: (محمد يذكر إله اليمامة)[2]؛ فيكون المراد بـ (صلاتك) في الآية (البسملة).

وهذا لا يتعارض مع عموم الأمر بخفض الصوت في الصلاة بالقراءة كما في الروايات الأخرى لأسباب النزول[3]، فإن البسملة من القراءة في الصلاة.

قال الحكيم الترمذي[4]: وقد استمر العمل على ذلك بخفض الصوت بالبسملة إلى يومنا، مع عدم النسخ وزوال العلة، فبقي ذلك إلى يومنا هذا على ذكر الرسم، وإن زالت العلة[5].

ويستفاد من ذلك: أن النبي ﷺ كان يجهر بالبسملة في أول الدعوة، ولما استهزأ المشركون منه أسرَّ بها، ولما هاجر إلى المدينة كان يجهر بها تارة ويسرُّ أخرى، واختلفت الروايات بناء على ذلك، وحمل أحاديث الإسرار بها على ما بعد ذلك مع زوال العلة وعدم النسخ، وهو من باب الاختلاف المباح.

---

(١) والحديث أخرجه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط» عن سعيد بن جبير، قال: الهيثمي في «مجمع الزوائد» ج٢ ص١٠٨: رجاله موثقون، وأخرجه أيضًا ابن أبي شيبة في «المصنف» والبيهقي وغيرهما عن ابن عباس كما قال السيوطي في «الدر المنثور» ج٤ ص٢٠٧، وحكاه الحافظ ابن حجر عن أبي داود من طريق سعيد بن جبير، وقد أعله بالإرسال في «الدراية» (١/ ١٣٦) وقال في ص١٣٣: وأصله مرسل بإسناد رجال ثقات.

(٢) أخرجه الدارقطني والطبراني في «الأوسط» من طريق يحيى بن طلحة اليربوعي عن عباد بن العوام عن شريك موصولًا، وقد أخرجه البخاري من طريق أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا﴾ ورسول الله مختف بمكة، كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمعه المشركون سبوا القرآن... الحديث في «المسند» (١٥٥، ١٨٥٣) وانظر: «الدراية في تخريج أحاديث الهداية» لابن حجر (١/ ١٣٤) و«فتح الباري» (٨/ ٣٢٩).

(٣) انظرها في «الدر المنثور» ٤/ ٢٠٧ الطبعة القديمة.

(٤) محمد بن على بن حسن بن بشير، أبو عبد الله، المؤذن، الحكيم، الترمذي، محدث، حافظ، صوفي، صاحب «نوادر الأصول في معرفة أخبار الرسول»، عاش إلى حدود سنة ٣٢٠ نحوًا من تسعين سنة (معجم المؤلفين ١/ ٣١٥).

(٥) نقلًا من «الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد» بتصرف ج٣ ص١٩٠ .

ويمكن حمل أحاديث الإسرار بها أيضًا على أن النبي ﷺ يفتتح صلاته بسورة الحمد لا بلفظ ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ وفيه تمسك بظاهر الحديث، ويقال لسورة الفاتحة: سورة الحمد، ولا يقال لها: سورة البسملة.

قلت: والمتأمل في أحاديث أنس في الباب يجد أنها نقلت الإسرار والجهر، وكلاهما صح من طرق، فدل هذا على جوازهما معًا، وقد تمسَّك أهل كل بلد بما جاء في مذهبهم، وربما تعصَّبوا له، وهذه هي مذاهبهم في الجهر بالبسملة في الصلاة وغيرها:

١- قيل: يُسن الجهر بالبسملة، كقول الشافعي ومَن وافقه.

٢- وقيل: لا يسن الجهر بها، كما هو قول الجمهور من أهل الحديث والرأي وفقهاء الأمصار.

٣- وقيل: يُخيَّر بين الجهر والإسرار، كما يُروى عن إسحاق، وهو قول ابن حزم وغيره[1].

وقال ابن القيم: وكان النبي ﷺ يَجهر بـ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ تارة، ويخفيها أكثر مما يجهر بها[2].

وقد أجمع العلماء على صحة صلاة من أسر ومن جهر بالبسملة[3] على أن الجهر الدائم بالبسملة، يوحي بأن الإسرار بها لا يجوز، والإسرار الدائم بالبسملة يوحي بأن الجهر بها بدعة، فالأَوْلى أن يُسَرَّ بها تارة ويُجهَر بها أخرى جمعًا بين الأدلة.

خامسًا: بين القراء والفقهاء

١- لم يُرْوَ عن أحد من أئمة القراءة جوازُ ابتداء القراءة في أول السورة بدون البسملة سوى براءة، واختلافهم في ذلك إنما هو في حالة وصل السورتين معًا، فمنهم من أثبتها، ومنهم من حذفها.

واتفقوا جميعًا على قراءة البسملة في أول الفاتحة وإن وصلت بغيرها.

٢- ولا خلاف في أن البسملة كتبت في أول كل سورة في المصحف سوى براءة، وأن

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» ج٣ ص٤٣٦ .

(٢) «زاد المعاد» بتحقيق شعيب وعبد القادر الأرناءوط ج١ ص٢٠٦ .

(٣) «تفسير ابن كثير» (١/ ١١٨) الطبعة الثانية دار طيبة.

الصحابة رضوان الله عليهم أجمعوا على ذلك، ولم يكتبوا في المصحف مثلًا (آمين) أو (صدق الله العظيم).

٣- وموافقة رسم المصحف شرط في صحة القراءة، وقد كُتِبت البسملة في ثلاث عشرة ومئة سورة، وهؤلاء الأئمة الأعلام أئمة القراءات هم أهل الرواية المنقولة بالسماع والتلقي، شيوخًا عن شيوخ، في التلاوة والأداء، حتى وصل إلينا السند بالتواتر القطعي عن رسول الله ﷺ.

٤- وعلى ذلك فإن مذهب الإمام مالك ومن معه في أن البسملة ليست آية أصلًا لا من الفاتحة ولا من غيرها لا يوافق قاعدة أصولية، ولا قراءة صحيحة، والقول بأنها ليست قرآنًا لا يتفق مع أمر النبي ﷺ لكُتَّاب الوحي قائلًا لهم: **«اجعلوها في أول كل سورة»**، ويخالف رسم المصحف، وهو شرط في صحة القراءة، كما يخالف إجماع الصحابة وأئمة القراءة، وهم الناقلون للبسملة بالتواتر عن رسول الله ﷺ، ووجوه القراءات مقدمةٌ على أقوال الفقهاء؛ لأن الفقه يُستنبط منها، والقراءات قرآن منزل من عند الله تعالى.

سادسًا: بين قراءة حمزة ومذهب مالك:

١- من الثابت أن (حمزة الكوفي) وهو من القراء السبعة و(خلف العاشر) وهو آخر القراء العشرة، كل منهما يبتدئ القراءة بالبسملة كسائر القراء في أول السورة، لا سيما الفاتحة، ولكنهما يسقطان البسملة حالة وصل السورة بالسورة؛ لأن البسملة عندهما ليست آية معدودة من أول كل سورة، وإنما هي للتبرك والفصل، أما الإتيان بالبسملة في أول السورة فليعلم انتهاء السورة السابقة وابتداء السورة الآتية.

٢- **وعلى هذا**: فلا مطعن في قراءة حمزة وخلف بالموازنة مع مذهب مالك، للفرق بينهما وبين مذهبه، ومالك لا يعدُّ البسملة آية مطلقًا لا من الفاتحة ولا من غيرها.

٣- وجميع القراء بما فيهم (حمزة وخلف) اتفقوا على الإتيان بالبسملة في أول الفاتحة، وإن وُصلت بغيرها، والرواية المذكورة عن (حمزة وخلف) بوصل السورتين بدون البسملة بينهما، إنما تتناول جميع سور القرآن عدا الفاتحة.

٤- قال الإمام ابن الجزري: ولذلك لم يكن بينهم- أي القراء- خلاف في إثبات

البسملة أول الفاتحة سواء وُصلت بسورة قبلها أم ابتدئ بها[١].

الخلاصة

١- تقرأ البسملة في القراءة السرية، ومنها الصلاة بإجماع القراء والفقهاء، إلا مالكًا.

٢- وتقرأ جهرًا بإجماع القراء واختلاف الفقهاء عند ابتداء السور، ولا سيما الفاتحة، في الصلاة الجهرية وخارج الصلاة.

٣- يفصل بين السورتين بالبسملة؛ لصحة الدليل في ذلك؛ ولكون البسملة نزلت للفصل والتبرك؛ ولكتابتها في المصحف.

٤- البسملة آية من الفاتحة، ويؤتى بها للفصل بين السورتين بعدها.

٥- يؤتى بالبسملة جهرًا في الصلاة حال وصل السورة بالسورة للإشعار بانتهاء سورة وبدء سورة أخرى.

٦- يؤتى بالبسملة في أول السورة اتفاقًا، ووسطها اختيارًا، وبين السورتين للفصل بينهما، وأثناء سورة التوبة.

٧- الأوجه التي بين الأنفال وبراءة ليس فيها بسملة؛ لعدم تواتر الرواية بنزول البسملة في أولها؛ ولعدم كتابتها في المصحف.

٨- بعض الفقهاء يعد البسملة آية في القرآن كله، وبعضهم يعدُّها آية في الفاتحة فقط، وبعضهم يجعلها آية للفصل غير معدودة في القرآن كله، وبعضهم لا يجعلها آية لا في العدِّ ولا للفصل، وهو يجانب الصواب.

٩- من القراء من بسمل بين السورتين حال وصلهما، ومنهم من سكت بينهما بدون تنفس، ومنهم من وصلهما بدون البسملة.

١٠- عدم الإتيان بالبسملة جهرًا في أول الفاتحة أحيانًا، وحال وصل السورة بالسورة في الصلاة وغيرها، يشعر بأن قراءتها جهرًا بدعة، وهو مجانب للصواب، وفيه تعصب للمذهب، وترك للأخذ بالأدلة.

---

(١) «النشر في القراءات العشر» ص٢٦٢ .

الْمَبْحَثُ السَّابِعُ: الْحَمْدَلَةُ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

القرآن كتاب قَيِّمٌ: يُنْذِرُ ويُبَشِّرُ، وفيه عِلْمُ الأولين والآخرين

١- الحمد لله: ثناءٌ أثنى الله تعالى به على نفسه ليعلمنا كيف نُثْني عليه سبحانه، وكيف نشكره على نعمه التي لا تعد ولا تحصى.

ومن أعظم نعم الله تعالى علينا أن مكَّن أجسادنا من عبادته وأداء فرائضه، وبسط لنا في الرزق ونعيم العيش، ويَسَّر لنا الأسباب التي تؤدي إلى الخلود في دار النعيم، فالله تعالى خلَق الخلْق، ورزقهم، وسخر لهم ما في السموات وما في الأرض، وقبل نزول هذه الآية: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لم يكن الإنسان يعرف كيف يحمد الله تعالى ويشكره على نعمه التي لا تعد ولا تحصى.

يقول الطبري: الحمد لله: الشكر خالصًا لله تعالى بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها العدد، ولا يحيط بها غيره أحد؛ في توفيقنا لطاعته، وتمكُّن أجسامنا لأداء فرائضه مع ما قَسَّمَ لهم في دنياهم من الرزق، وغذَّاهم به من نعيم العيش، فلربنا الحمد على ذلك كله أولًا وآخرًا[١].

٢- الحمد حق لله وحده: لفظ ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ مقرونًا بالألف واللام، يستغرق جميع أنواع المحامد، فالحمد كله حق واجب لله تعالى، وهو وحده المستحق للحمد دون سواه، والحمد هو الثناء الحسن على الله تعالى بصفات الكمال، وبأفعاله الدائرة بين الفضل والعدل، فله سبحانه الحمد بكل الوجوه، وإذا كان الإنسان لا يُحصي نعم الله تعالى عليه فكيف يستطيع أن يقوم بما يجب عليه إزاءها من شُكر الله تعالى والثناء عليه وحمْده؟! ومع ذلك فإن الله تعالى يعلمنا كيف نحمده.

وقد أجمع القُراءُ العشرةُ على رفع الدال من لفظ ﴿ٱلْحَمْدُ﴾؛ لأنها تدل على ثبوت الحمد واستقراره لله تعالى.

واللام من لفظ ﴿لِلَّهِ﴾ للاستحقاق، أي: أن الحمد كله مستحَقٌّ ومُسْتقِر وثابت لله

(١) من تفسير الآية في سورة الفاتحة للطبري بتصرف.

تعالى على نعمه.

ومن هذه النعم ما ليس للمخلوق فيها يدٌ: كالخلق والرزق والإحياء والإماتة..، فالجائع يحمد الله تعالى عند الشبع، والمريض يحمده سبحانه عند الشفاء، والفقير يحمده عند الغنى، والمحروم يحمده عند العطاء، وهكذا، وهذا هو سر الجمع بين لفظ ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ ولفظ ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ومن المحامد ما يُحمد عليها المخلوق، كَشُكرِ من صنع لك معروفًا، والحقيقة أن الله تعالى هو الذي أجرى الخير على يد العبد، وجعله سببًا مباشرًا لهذه النعمة، وذلك كحمد من أسدى إليك معروفًا، وما يُثْنَى به على الأنبياء والصالحين، باعتبار أن الله تعالى هو الذي خلق الفاعل، وأعطاه ما فعل، وحبَّبه إليه وقوَّاه عليه، والعبد كان الأداة المنفِّذة لذلك.

ومن ذلك شكر الوالدين؛ لأنهما كانا السبب المباشر في إيجاد العبد، مع أن الله تعالى هو الذي خلق الوالد والولد، ومثْلُ شكر المعلم، والمُتصدِّقِ، وكذا مَن شفع لك شفاعة حسنة، أو تسبب لك في جلب خير أو دفع ضر، فهو يُحْمَد ويُشْكَر على معروفه؛ لأن الله تعالى أجراه على يديه، وهو سبحانه مصدر النعم.

٣- حمْد الله تعالى نوعان:

(أ) حمد مُسْتَحَقٌ واجب لذات الله ﷻ؛ لأنه متصف بصفات الكمال، وهو المانع المعطي، وهو مصدر النعم، فهو أحق بالحمد من كل محمود.

(ب) وحمد على إحسانه تعالى إلى عباده، وتفضله عليهم بالنعم، وهو نوع من الشكر.

٤- حمد الناس وشكرهم: وحمد الناس وشكرهم على ما قدموه للإنسان من معروف جرى على أيديهم بفضل الله تعالى، أمر مطلوب شرعًا.

- في الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يشكُرُ الله مَنْ لا يشكر الناس**»[١].

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذي وغيرهما بإسناد صحيح، «جامع الأصول» حديث رقم (١٠٣٣) وفي «المسند» برقم (٧٩٣٩، ٩٩٤٤) وعن الأشعث بن قيس برقم (٢١٨٣٨، ٢١٨٤٧) والحديث في «صحيح سنن الترمذي» (٢٠٣٧) و«صحيح سنن أبي داود» (٤٠٢٦) وفي «صحيح الجامع الصغير» (٤٥٤١) و«مشكاة المصابيح» (٣٠٢٥).

- وفي الحديث أيضًا عن عبد الله بن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «. . . **ومن صنع إليكم معروفًا فَكَافِئُوه، فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له حتى تروْا أنكم قد كافأتُموه**»[(١)].

وعدم مكافأة الناس على ما أسدوه من معروف جَحْدٌ لهم، وكُفْرٌ لمعروفهم عليه.

- وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أُعطِيَ عطاءً فلْيَجْزِ به إن وَجَد، وإن لم يجدْ فليُثْنِ به، فإن مَن أثنى به فقد شكره، ومَن كتمه فقد كفر. . .**»[(٢)].

فإن لم يجد العبد ما يكافئ به، فلا أقل من شكر اللسان والاعتراف بالجميل والدعاء.

روى أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن صُنِعَ إليه معروفٌ فقال لفاعله: جزاك الله خيرًا، فقد أبلغ في الثناء**»[(٣)].

وحمد الناس قد يكون على الصفات اللازمة التي لا تنفع غير صاحبها، كما يقال: حمدته لفروسيته وبطولته، وقد يكون على الصفات المتعدية التي يكون نفعها لغير فاعلها، كما يقال: حمدته لكرمه وإحسانه.

ولا يتحقق الحمد إلا بحب المحمود سبحانه، والحب يقتضي إخلاص العبادة، وامتثال الأوامر واجتناب النواهي، وتقديم ذلك على هوى النفس، فالحمد والتوحيد أصلان متلازمان.

لذا: فإن الداعي ينبغي له أولًا أن يحمد الله تعالى ويثني عليه؛ ليكون ذلك أدعى إلى الإجابة.

ولهذا: فإن خطب الجُمَع والأعياد وغيرها افتُتحت بالحمد؛ لأن الحمد هو أفضل الدعاء، وبه افتتح الله سبحانه سور: (الفاتحة والأنعام والكهف وسبأ وفاطر) وحمده تعالى على النعم السابقة يَغْلق على الحامد أبواب النيران.

---

(١) «سلسلة الأحاديث الصحيحة» حديث رقم (٢٥٤) و انظر: المسند (٥٧٠٣) بنحوه، صحيح لغيره كما قال محققوه، وأخرجه ابن أبي شيبه (٣/ ٢٢٨) وهو في المسند أيضًا (٥٣٦٥) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وفي الطيالسي (١٨٩٥) والنسائي الكبرى (٢٣٤٨).

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي، وهو حديث صحيح، انظر: «جامع الأصول» حديث رقم (١٠٣٢) وهو في «صحيح سنن أبي داود» (٤٠٢٨) و«صحيح سنن الترمذي» (٢١٢٠).

(٣) أخرجه الترمذي بإسناد حسن، يُنظَر: «جامع الأصول» حديث رقم (١٠٣١) ورقم (١٠٣٧) وهو في «صحيح سنن الترمذي» (١٦٥٧) و«مشكاة المصابيح» (٣٠٢٤) والروض النضير برقم (٨).

وحمده تعالى على النعم المتجددة في المستقبل يفتح أبواب الجنات، فتأثيره في الماضي ستر أبواب الحجاب، وتأثيره في المستقبل يفتح أبواب معرفة الله تعالى.

٥- **الفرق بين الحمد والشكر**: الحمد يكون باللسان، والشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح، أي: بالقول والفعل والنية، والحمد نقيض الذم، والشكر نقيض الكفر، والحمد أعم من الشكر؛ لأن الشكر يكون مقابل النعمة، بخلاف الحمد، فإنه يكون مستحقًا لذات الله تعالى.

ويجب أن يُترجم الشكر باللسان، إلى العمل الذي يمتد إلى العقيدة والعبادة والسلوك والمعاملة، ولكي يكون المرء حامدًا لله تعالى، فلا بد أن تكون أقواله وأفعاله وأحاسيسه ومشاعره وانفعالاته كلها لوجه الله تعالى، ففي ذلك دليل يشهد على صحة القول والفَهم.

وحمد الله تعالى بالقلب يكون باعتقاد أنه سبحانه موصوف بصفات الكمال والجلال.

وحمد الجوارح يكون بفعل ما أمره الله به، وترك ما نهى عنه.

وحمد اللسان يكون بذكر الله تعالى وشكره.

٦- **العموم والخصوص بين الحمد والشكر**: وفي بيان العموم والخصوص بين الحمد والشكر والفرق بينهما يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب: والفرق بين الحمد والشكر: أن الحمد يتضمن المدح والثناء على المحمود بذكر محاسنه، سواء أكان إحسانًا إلى الحامد أم لم يكن، والشكر لا يكون إلا على (إحسان المشكور).

فمن هذه الوجوه: الحمد أعم من الشكر؛
والله تعالى يُحمد على ما لَهُ من الأسماء الحسنى، وما خلَقَهُ في الآخرة والأولى.

وأما الشكر: فإنه لا يكون إلا على الإنعام، فهو أخص من الحمد من هذه الوجهة، لكنه يكون بالقلب واللسان واليد، فمن هذا الوجه: الشكر أعم من جهة أنواعه، والحمد أعم من جهة أسبابه[١].

فدل هذا على أن الحمد أعم من الشكر، وأن العبد إذا قال: الحمد لله والشكر لله،

(١) من «تفسير سورة الفاتحة» للشيخ محمد بن عبد الوهاب، تحقيق د/ فهد بن عبد الرحمن الرومي.

فإن ذلك يكون شاملًا لقِمَّتَي الثناء على الله تعالى إذا ترجم حمد اللسان وشكره إلى العمل، ومن أعظم نعم الله تعالى على العبد أن يلهمه شُكْره وحمده، فثواب الحمد لا يفنى، ونعيم الدنيا لا يبقى.

قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

٧- **الحمد في السُّنَّة**: وهناك كثير من الأحاديث التي تُبين فضل الحمد وعظيم الأجر عليه، منها:

١- أنَّ حمد الله تعالى يسبب رضاه:

عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله تعالى ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها»**[1].

٢- وحمد الله تعالى كلمة ثقيلة تملأ ميزان العبد بالحسنات:

عن أبي مالك الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض...»**[2].

٣- والله تعالى يصدق عبده إذا حمده:

عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«إذا قال العبد: لا إله إلا الله، له الملك وله الحمد، قال الله: صدق عبدي لا إله إلا أنا، لي الملك ولي الحمد»**[3].

٤- وحينما يحمد العبد ربه في صلاته فإن الله تعالى يجيبه ويردُّ عليه:

---

(١) أخرجه أحمد ومسلم والترمذي والنسائي، «صحيح الجامع الصغير» ج٢ حديث رقم (١٨١٢) ورقمه في «المسند» (١١٩٧٣، ١٢١٦٨) بإسناد صحيح على شرط الشيخين وفي مسلم (٢٧٣٤)، والترمذي (١٨١٦) وفي «الشمائل» له (١٩٤) وابن أبي شيبة (١٠/ ٣٤٤) و«سنن النسائي الكبرى» (٦٨٧٢).

(٢) أخرجه أحمد ومسلم والترمذي، «صحيح الجامع الصغير» ج٤ حديث (٣٨٥٢) ورقمه في «المسند» (٢٢٩٠٢، ٢٢٩٠٨) حديث صحيح، ومسلم (٢٢٣) والترمذي (٣٥١٧) والطبراني (٣٤٢٣) وابن ماجة (٢٨٠) وابن حبان (٨٤٤) وابن أبي شيبة (١/ ٦).

(٣) يُنظَر الحديث بتمامه في صحيح «سنن ابن ماجة» باختصار السند للألباني (٢/ ٣١٧) حديث رقم (٣٠٦١) وهوفي السلسلة الصحيحة (١٣٩٠) والتعليق الرغيب (٤/ ١٦٥)

وفي الحديث القدسي عن أبي هريرة: «**قسمت الصلاة بيني وبين عبدي... إذا قال عبدي: الحمد لله رب العالمين، قال الله تعالى: حمدني عبدي...**»[١].

٥- **والحمد أفضل الدعاء**، عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أفضل الذكر: لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء: الحمد لله**»[٢].

٦- **وحمد الله تعالى يَزيد النعم والعطاء، ويُعوض العبد أفضل مما أُخذ منه**:

قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما أنعم الله على عبد نعمة، فقال: الحمد لله، إلا كان الذي أُعطِيَ أفضل مما أَخذ**»[٣].

٧- وعن ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ حدثهم: «**أن عبدًا من عباد الله قال: يارب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، فَعَضَلَتْ على الملكين، فلم يدْريا كيف يكتبانها، فصعدا إلى الله تعالى، وقالا: ياربنا إن عبدًا قد قال مقالة لا ندري كيف نكتبها، قال: وهو أعلم بما قال عبده، ماذا قال عبدي؟ قالا: يارب، إنه قال: لك الحمد يارب كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، فقال الله لهما: اكتباها كما قال عبدي حتى يلقاني فأجزيه بها**»[٤].

٨- **والملائكة تتسابق إلى كتابة أجر الحمد حين الرفع من الركوع**:

عن رفاعة ابن رافع ﷺ قال: كنا نصلي وراء النبي ﷺ فلمَّا رفع رأسه من الركعة قال:

---

(١) أخرجه مسلم ومالك وأبو داود والترمذي والنسائي، «جامع الأصول» ج٥ حديث رقم (٣٤٢٤) وهو في مسلم (٣٩٥) وأبي داود (٨٢١) والترمذي (٢٩٥٣) وابن ماجة (٨٣٨) و«المسند» (٧٨٣٦) وابن حبان (١٧٨٤، ١٧٨٩) والنسائي في «الكبرى» (٩٨٣، ٧٩٥٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٨٣) والنسائي في «الكبرى» (١٠٦٦٧) وابن ماجة (٣٨٠٠) وابن حبان (٨٤٦) والبيهقي في الشعب (٤٣٧١) وحسنه الألباني في صحيح «سنن ابن ماجة» (٣٠٦٥) والحاكم بإسناد حسن، وانظر: «صحيح الجامع» ج١ رقم (١١١٥) والسلسلة الصحيحة (١٤٩٧) والمشكاة (٤٣٠٦).

(٣) أخرجه ابن ماجة بإسناد صحيح (٣٨٠٥) كما في «صحيح الجامع الصغير» ج٥ رقم (٥٤٣٩) وهو في صحيح «سنن ابن ماجة» (٣٠٦٧) والبيهقي (٣٠٦٧).

(٤) أخرجه أحمد وابن ماجة وإسناده متصل ورواته ثقات، ينظر «الترغيب والترهيب» (٢/ ٤٤٠) تعليق مصطفى عمارة، وأخرجه النسائي (٢/ ٢٢٠) باب فضل الحامدين، و انظر حديث أنس في المسند (١٢٦١٢) بنحوه، وإسناده قوي كما قال محققوه.

«سمع الله لمن حمده» وقال رجل وراءه: ربنا ولك الحمد حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، فلما انصرف قال: **«من المتكلم آنفًا؟»** قال: أنا، قال: **«رأيت بضعة وثلاثين ملَكًا يبتدرونها أيُّهم يكتبها أول»**[١].

وكما يحمد العبد ربه في الرفع من الركوع فإنه يدعوه بين السجدتين.

عن عبد الله بن عباس ﷺ قال: إن النبي ﷺ كان يقول بين السجدتين: **«اللهم اغفر لي وارحمني واجبرني واهدني وارزقني»**[٢].

٩- والحمد من الأدعية التي تقال في الركوع والسجود إلى جوار غيره من الأدعية، عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: **«سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي»** يتأوَّل القرآن[٣].

يعنى يتأول قول الله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ [النصر: ٣].

وعنها ﷺ قالت: افتقدتُ النبي ﷺ ذات ليلة، فظننت أنه ذهب إلى بعض نسائه، فتحسستُ، ثم رجعت، فإذا هو راكع -أو ساجد- يقول: **«سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت»** فقلت: بأبي أنت وأمي، إني لفي شأن، وإنك لفي آخر[٤].

وعن ابن أبي أوفى ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ إذا رفع ظهره من الركوع قال: **«سمع الله لمن**

---

(١) هذه رواية البخاري برقم (٧٩٩) و«الموطأ» وأخرجه أيضًا أبو داود برقم (٧٧٠) والنسائي في «الكبرى» (٦٥٣) وهو في «جامع الأصول» (٤/ ٢٠١) حديث رقم (٢١٧٣) وفي «المسند» (١٨٩٩٦) وابن حبان (١٩١٠).

(٢) أخرجه الترمذي في صحيح سننه (٢٣٣) بهذا اللفظ وصحيح «سنن ابن ماجة» (٨٩٨) وفي «صحيح سنن أبي داود» (٧٥٦) بلفظ: (وعافني) بدل (واجبرني) بإسناد حسن وصححه الحاكم، يُنظَر: «جامع الأصول» حديث رقم (٢١٧٤).

(٣) أخرجه الجماعة إلا «الموطأ» والترمذي، «جامع الأصول» برقم (٢١٥٧) وهو في «سنن النسائي الكبرى» (٧١٣) بهذا اللفظ وفي البخاري (٧٩٤، ٤٢٩٣) ومسلم (٢١٩)، (٤٨٤)، وأبو داود (٨٧٧) وابن ماجة (٨٨٩) و«المسند» (٢٤١٦٣) وابن حبان (١٩٢٩، ١٩٣٠).

(٤) هذه رواية مسلم برقم (٤٨٥) والنسائي، أخرجه أيضًا «الموطأ» والترمذي وأبو داود، «جامع الأصول» برقم (٢١٥٩) وهو في «المسند» (٢٥١٧٨) وفي «سنن النسائي الكبرى» (٧٢١، ١٠١٥٩).

حمده، اللهم ربنا لك الحمد، ملء السموات وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد»[١].

١٠- والحمد لله، أحب شيء إلى الله تعالى:

ففي حديث أنس أن النبي ﷺ قال: **«التأنِّي من الله، والعَجَلةُ من الشيطان، وما شيء أكثر معاذيرَ من الله، وما شيء أحب إلى الله من الحمد»**[٢].

وهكذا الكثير من صيغ ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ التي جاءت مفردة ومضمومة مع غيرها، في كثير من مواطن الدعاء والعبادة.

رب العالمين: أما قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فإن هذه الجملة **تتألف من جزأين:**

﴿رَبِّ﴾ وهي تشير إلى وحدة الربوبية، فالرب سبحانه هو الذي خلق الخلْق، ورباهم وحباهم بنعمه، لم يُنكر ذلك مؤمن ولا كافر ولا منافق، فالكل مقرٌّ بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر.

ولفظ ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تشير إلى وَحدة البشر؛ لأنها تنتظم الخلق جميعًا، ومنهم البشر، ومرجعهم إلى رب واحد وأم واحدة ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٤] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

ولفظ **«الرب»** في اللغة يطلق على: المالك، والسيد المطاع، والمصلِح، والمربي، والحاكم، والعاهل، والكفيل، والرئيس، والرقيب، والمؤسس... وغير ذلك، والله وحده هو ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بكل هذه المعاني جملة وتفصيلًا، فهو سيد العوالم كلها من العرش إلى الفرش، وهو المربي لجميع العالمين، بخلقه لهم، وإنعامه عليهم، وتربيته لهم، ورزقه لهم، وهدايته لهم، ومن ذلك تربيته لأوليائه تربية خاصة فيوفقهم للإيمان الكامل، ويدفع عنهم الصوارف والعوائق، ويعصمهم من الشرور والآثام.

---

(١) أخرجه مسلم عن ابن عباس برقم (١٩٠٦) مختصرًا وعن أبي سعيد الخدري (٤٧٧) مطولًا وأخرجه الترمذي وأبو داود، ينظر روايات الحديث في «جامع الأصول» (٤/١٩٩) حديث رقم (٢١٦٨) وفي «سنن النسائي الكبرى» برقم (٦٥٧، ٦٥٩).

(٢) البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٣٦٧) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٧٩٥).

ولا يُطلق لفظ «**الرب**» معرَّفًا غير مضاف إلا على الله تعالى، فإذا أضيف بأن قيل: رب الدار، أو رب الناقة، فإنه قد يراد به غير الله تعالى.

فالرب: هو المعبود، الخالق الرازق المالك المتصرف، المربي جميع العوالم بأصناف النعم، فقد خلقهم ورزقهم ورباهم بنعمه، وهداهم لما يحفظ حياتهم ونسلهم، وسخَّر بعضهم لبعض؛ لتستقيم شؤون الحياة ومصالح العباد، كما سخر لهم ما في الأرض جميعًا من شمس وحيوان ونبات وغذاء...

فهو السيد المطاع، الذي لا يُطاع سواه، وهو مالك الدنيا ويوم الدين، وهو المصلح شؤون خلقه، وكما هداهم الله تعالى لما يُصلح حياتهم، ويحفظ بقاءهم، هداهم أيضًا لما فيه سعادتهم في الدار الآخرة.

وقيل: إن لفظ «**الربِّ**» مشتقٌّ من التربية، بمعنى أن الله تعالى هو مربي العباد، والمدبر لأمورهم، والمصلح لشؤونهم، **وهذه التربية نوعان**:

١- تربية عامة لجميع خلقه: فالإنسان والحيوان والنبات والجماد والطير... إلخ، كل ذلك مخلوق ومربوب لله تعالى.

٢- تربية خاصة: وهي إعداد فئة من البشر إعدادًا خاصًا؛ كتربية الأنبياء والصالحين تربية روحية مسلَّمة من كل شر، مع وجود الصوارف والعوائق والشهوات والشبهات، وإخلاصهم له سبحانه.

٧- التوحيد في آخر القرآن وأوله

(أ) اشتملتْ سورة الناس على توحيد الألوهية في قوله تعالى: ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ كما اشتملت عليه سورة الفاتحة في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

(ب) واشتملت سورة الناس على توحيد الربوبية في قوله: ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ كما اشتملت عليه سورة الفاتحة في قوله سبحانه: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

(ج) وكلتا السورتين اشتملتا على إثبات «**الملك**» لله تعالى في الدنيا والآخرة في قوله تعالى: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ بسورة الناس، وقوله: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ بالفاتحة، وهما آخر

وأول سورة في القرآن.

والتوحيدُ هو أول مأمور به في القرآن الكريم، ويناقضه الشرك وهو أول منهي عنه.

والتوحيد هو أول فاتحة القرآن الكريم وهو خاتمته.

فاسم الجلالة من ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إشارة إلى توحيد الألوهية:

ولفظ ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إشارة إلى توحيد الربوبية.

ولفظ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إشارة إلى توحيد الأسماء والصفات.

وهذه هي أنواع التوحيد التي قامت دلالة استقراء نصوص الشرع عليها، وفي خاتمة القرآن العظيم ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ① مَلِكِ ٱلنَّاسِ ② إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ فأشار سبحانه إلى توحيده في ربوبيته، وفي ألوهيته، وهما تستلزمان توحيده تعالى في أسمائه وصفاته.

والتوحيد هو الغاية من خلق الله تعالى لخلقه، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] أي: يوحدوني، والتوحيد هو الغاية من بعثة الرسل والأنبياء، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

فالتوحيد هو البداية، وهو النهاية، وهو الغاية من خلق الجن والإنس، وهو الغاية من بعثة الأنبياء والرسل، وهو مفتتح القرآن، وخاتمته، وهو أول أمر فيه، ومن أجله أُسست الملة، ونُصبت القِبلة، وجُردت سيوف الجهاد، وخُلِقَت الجنة والنار.

والمراد بـ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ في الآية كل موجود ما عدا الله سبحانه، وهو شامل لأصناف المخلوقات في السموات والأرض، والبر والبحر، في كل زمان ومكان، وهو جَمع عالَم، وهو جمع لا واحد له من لفظه، وهو اسم لكل أصناف الأمم؛ فالإنس عالم، والملائكة عالم، والجن عالم، والطير عالم، والنبات عالم، والجماد عالم، والدواب عالم... إلخ، وجميعُ العوالم مُفْتقِرةٌ إلى الله تعالى ومربوبة له.

قيل: وأهل كل قرن وزمان، عالم، يدل على عالم زمانه، وخَصَّه بعضهم بمن يعقل (الإنس والجن والملائكة والشياطين).

قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨].

المَبْحَثُ الثَّامِنُ: صِفَةُ الرَّحْمَةِ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

صفتان مشتقتان من الرحمة، و «رحمن» أشد مبالغة من «رحيم» وزيادة المبنى تدل على كثرة المعنى، فهما صفتان لمعنى واحد هو «الرحمة» وهى تعني: الرقة والعطف والحنوّ والمغفرة، والرحمة من الله تعالى نِعَمٌ وفضل، ومن الآدميين رقة وعطف ولين جانب.

قال أبو الأعلى المودودي في تفسيره لسورة الفاتحة:

«رحمن» صيغة مبالغة، وهي تُعبِّر عن صفات الإحسان والرحمة، وتُظهِرُها في أعلى وأرقى مراتبها، إلا أنها تَعْجزُ عن التعبير عن كمال صفات الله تعالى غير المحدودة، ولهذا أضيفت لها كلمة أخرى من نفس الأصل، وهي ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾؛ ليُسدَّ هذا النقص.

و ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ اسمان دالان على أن الله سبحانه ذو الرحمة الواسعة العظيمة المطلقة الشاملة التي وسعت كل شيء، رحمة عامة بجميع خلقه، ورحمة خاصة بعباده المؤمنين.

قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧].

و ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ صفة قائمة بذات الله ﷻ (وصفٌ ذاتي ثابت له سبحانه).

أما ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾: فهي صفة تتعلق بالمرحوم، وهو (فعل الرحمة) الذي يرحم الله به عباده، ويخص به منهم المؤمنين، وهو يدل على تجدد واستمرار رحمة الله تعالى بخلقه.

و ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ هو المنعِم بنعم عامة تشمل الكافر والمؤمن.

و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ أي: المنعِم بنعم خاصة بالمؤمنين فقط، فهو تخصيص بعد تعميم.

والله سبحانه هو المنعِم بجلائل النعم، وهو المنعِم بدقائقها.

وقد اشتملت البسملة على ثلاثة من أسماء الله الحسنى وصفاته العليا وهي: ﴿ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ولفظ الجلالة منها هو العَلَم على الذات الإلهية، و ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ صفتان للفظ الجلالة، فالله تعالى هو نفسه الرحمن الرحيم، وفيها تدرُّج معنويٌّ، وتحوُّل منطقيٌّ، من أخص الأسماء، وهو الاسم الأعظم للذات الإلهية ﴿ٱللَّهِ﴾ إلى أخص الصفات وهي ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ إلى رحمة خاصة وهي ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾.

وقد علّمنا القرآن أن نضع التوحيد مكان التثليث الذي يبدأ به النصارى شؤونهم باسم الأب والابن والروح القدس، وهذه ثلاثة مختلفة، فالأب غير الابن، والابن غير الروح القدس (جبريل)، وكل واحد منهما يدل على ذات غير الذات الأخرى، فهي آلهة ثلاثة.

أما ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فهما صفتان لذات واحدة هو الله سبحانه، كما يقال: فلان كريم شجاع عفيف. . .

فالأول ذات، وما بعده صفات، ويُضاف إليهما وصف رابع في الآية التي بعدها هي ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، فهذه صفات ثلاث لموصوف واحد وهو الاسم الوحيد ﴿ٱللَّهِ﴾ المذكور أولًا.

ولفظ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ يُضَارِعُ لفظ الجلالة، فلا يطلق إلا على الله سبحانه، ولا يتصف به غيره، ولا يتسمَّى به مخلوق.

ومن أسمائه الحسنى ما يسمى بها غيره، ومنها ما لا يسمى بها غيره، لا سيما ما كان مُعرَّفًا منها، بالألف واللام، ولفظ الجلالة هو أعظم الأسماء الحسنى، ولفظ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ هو أعظم صفات الله سبحانه، وقد جمعتهما آية الإسراء: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [آية: ١١٠]

فما أحرى بالمؤمنين أن يحمدوا ربهم ويشكروه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه!

وهكذا وَصَفَ الله ﷻ نفسه بأنه رحمن رحيم في (البسملة)، ثم جاء هذا الوصف نفسه في آية مستقلة بعد ذلك؛ لتأكيد هذا المعنى وتقويته، ولتثبيت الصلة بين الخالق والمخلوق، وبيان طبيعتها، وأنها تقوم على الرحمة العامة والخاصة.

وليس هذا تكرار لما جاء في (البسملة) وإنما لمَّا ذكر سبحانه أنه رب العالمين، وكأنَّ لفظ ﴿رَبِّ﴾ يُنبئ عن معنى الكبرياء والسيادة والغلبة والقهر، فربما توهم السامع أن هذا «الرب» قهار جبار، لا يرحم العباد، فيدخل في نفسه الفزع واليأس والخوف والقنوط؛ لذلك جاءت هذه الآية.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ بعد ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ لتؤكد أن الرب -جلَّ وعلا- رحمن رحيم، وأن رحمته وسعت كل شيء، وأن ربوبيته ربوبية رحمة، وليست ربوبية قهر وجبروت.

قال القرطبي في تفسيره: وصف نفسه تعالى بعد ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بأنه «رحمن رحيم»؛ لأنه لمَّا كان في اتصافه برب العالمين ترهيب، قَرَنَهُ بالرحمن الرحيم لما تضمن من الترغيب؛ ليجمع في صفاته بين الرهبة منه والرغبة إليه، فيكون أعون على طاعته وأمتع.

كما قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠].

وقال سبحانه: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر: ٣].

وقال جل شأنه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧].

وقال ﷻ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦].

وقال أيضًا: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨].

وفي صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد**»[١].

فهذه الآية ليست تكرارًا لما سبق، وإنما لها مناسبتها وضرورتها بالنسبة للآية قبلها، والآية بعدها.

فقد تَدرَّجتِ السورة تدرجًا معنويًا ومنطقيًا؛ حيث بدأت بتوحيد الألوهية، ممثلًا في لفظ الجلالة ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ وهو أخص الأسماء الحسنى، والعَلَم الوحيد على الذات، ثم أتبعته بأخص الصفات، وهي الرحمة العامة الشاملة للمؤمن والكافر، ثم الرحمة الخاصة بالمؤمنين، من باب الخصوص بعد العموم، أو من باب تقوية وتمام الرحمة غير المحدودة.

ثم ثنت بتوحيد الربوبية الممثل في ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فهي صفات ثلاث: «**رحمن، رحيم، رب**» لمسمى واحد هو «**الله**»، وأعقبت ذلك بالرحمة ثانيًا؛ لأنه سبحانه رحمن رحيم في ألوهيته وربوبيته، فالرحمة من صفات الله تعالى، وهى قريبة من المحسنين المهتدين التائبين.

قال سبحانه: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٧٥٥) و«صحيح البخاري» برقم (٦٤٦٩) بنحوه.

فمن تباعد عن اللهِ بإحسانه، تباعد اللهُ عنه برحمته.

قال سبحانه: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

فالمهتدون يطمعون في رحمة الله تعالى بمقتضى هدايتهم.

قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨، والأنعام: ١٣٣].

وقال أيضًا: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٤].

وقال جل شأنه: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقال ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧] وغير ذلك من عشرات الآيات.

وللرحمة جوانب للخير وجوانب للشر في حياة الناس، كالرحمة التي تستدعي كف العقاب عن الظالمين، وكرحمة الأم الرعناء التي تهمل تأديب ولدها مهما أساء؛ لأن الرحمة لا تتنافى مع التأديب والعقاب المناسب، أما الله سبحانه، فإنه لا يرحم إلا في الخير، قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٨]، وقد وَسِعَ ربنا كل شيء رحمة وعلمًا ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

فبرحمته يهدي عباده إلى سبيل السعادة، وبرحمته يغفر للمسيئين، وبرحمته يُدخل المؤمنين الجنة، وبرحمته يجيب المضطر إذا دعاه، وقد كتب الله على نفسه الرحمة، ووصف نفسه بأنه أرحم الراحمين، وخير الراحمين، وأنه سبحانه ذو رحمة واسعة، وأن رحمته وسعت كل شيء.

في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن لله مئة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحوش على ولدها، وأخَّر الله تسعًا وتسعين رحمة، يرحم بها عباده يوم القيامة حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشيةَ أن تصيبه»**[1].

---

(١) لفظ مسلم برقم (٢٧٥٢) وانظر: «صحيح البخاري» برقم (٦٠٠٠، ٦٤٦٩).

وفي رواية البخاري: «**جعل الله الرحمة مئة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلائق، حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه**»(١).

وفي الصحيحين وغيرهما عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: قدم على النبي ﷺ سبْيٌ، فإذا امرأة من السبي قد تَحلَّبَ ثديها، تسعى، إذا وجدت صبيًّا في السبي أخذته فألصقتْه ببطنها وأرضعتْه، فقال لنا النبي ﷺ: «**أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار، وهي تقدر أن تطرحه؟ قلنا: لا، فقال: الله أرحم بعباده من هذه بولدها**»(٢).

فرحمة الله تعالى وسعت كل شيء، ولكن رحمته تعالى مقرونة بحكمته، وقد كتبها سبحانه للذين يتقون ويؤتون الزكاة، ويؤمنون بآيات الله جل وعلا، ويتبعون الرسول النبي الأمي: ﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧].

ومن رحمة الله تعالى بعباده أن رحمته سبقت غضبه، وأن مَن تقرب إلى الله شبرًا تقرب منه ذراعًا، ومن تقرب منه ذراعًا تقرب منه باعًا، ومَن أتى ربَّه يمشي أتاه هرولة.

ومن لقي ربه بقُراب الأرض خطايا وهو لا يشرك به شيئًا لقيه بقرابها مغفرة.



(١) «اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان» حديث رقم (١٧٥١) وهو في البخاري برقم (٦٠٠٠) ومسلم برقم (٢٧٥٢).

(٢) «اللؤلؤ والمرجان» حديث رقم (١٧٥٠) وهو في البخاري (٥٩٩٩) وفي مسلم (٢٧٥٤).

المَبْحَثُ التَّاسِعُ: يَوْمُ الدِّينِ ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾

كلمة «مالك» مأخوذة من **«المِلْك»** بكسر الميم، أو من **«المُلك»** بضم الميم، وبضمها أخص؛ لأن **«المَلِك»** بكسر اللام يكون نافذ الأمر في ملكه، وهى تدل على ذات وصفه. . ؛ حيث لا يوجد **«مِلك»** بكسر اللام بدون **«مُلك»** بضم الميم.

أما **«المُلك»** بضم الميم، فهو يدل على الصفة والعرَض، ولا يدل على الذات و**«مالك»** اسم فاعل تدل على الذات والصفة، أي: تدل على وجود **«مُلك»** بضم الميم، وتدل على وجود **«مَلِك»** بكسر اللام، يملك هذا المُلك.

والمَلِك في الحقيقة هو الله تعالى؛ إذ لا مالك إلا هو، وإطلاق **«مَلِك»** على غير الله تعالى إنما هو على سبيل المجاز.

فالمالك هو من اتصف بصفة الملك، ومن آثارها أنه يأمر وينهي، ويثيب ويعاقب، ويتصرف في ملكه كما يشاء.

وقد أفاد القرطبي: أن **«مِلك»** بكسر الميم صفة ذاتية لله تعالى، وأن **«مالك»** اسم فاعل، وهي صفة فِعْلِه سبحانه، وبضم الميم جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم، منها قوله تعالى:

١- ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

٢- وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٥، ٢٦].

٣- وقوله أيضًا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ٧٣].

وكلها تشير إلى صفة المُلك، وصاحب الذات الذي يملك هذا الملك يشار إليه في الآية الأولى بقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ وفي الثانية بقوله: ﴿لِلرَّحْمَٰنِ﴾ وفي الثالثة: بضمير الإشارة في ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ﴾.

١- وفي الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة مرفوعًا: «**أخنع الأسماء عند الله يوم القيامة: رجل تَسمَّى بملك الأملاك (أي: ملك الملوك) لا مالك إلا الله، وَلَهُ الْمُلْكُ**»[1].

وفيه إشارة إلى عدم جواز التسمية بـ«**ملك الملوك**» أو بمعناها «**شاهِ شاه**» إذ إن هذا من خصائص الله تعالى وحده، ولا يطلق على غيره سبحانه.

٢- وعن ابن أُنيس أن رسول الله ﷺ قال: «**يحشُر الله العباد، فيناديهم بصوت يسمعه من بعُد كما يسمعه من قرُب: أنا الملك أنا الديان**»[2].

٣- وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**يقبض الله تبارك وتعالى الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟**»[3].

مناسبة الآية لما قبلها: لما وصف الله تعالى نفسه بالرحمة العامة والخاصة، وأدى ذلك إلى تغليب جانب الرجاء عند العباد أتبعه ببيان أنه سبحانه هو المالك ليوم الفصل والجزاء، وأن رحمته السابق ذكرها في الآية قبلها، والعدل يوم الحساب المذكور في هذه الآية قرينان؛ ليكون المرء على وَجَلٍ من عمله، ويدرك أن لعمله يومًا تظهر له فيه ثمرته من خير أو شر، فيجمع بذلك بين الرغبة والرهبة، والخوف والرجاء، حتى لا يغترَّ أحد في رحمة الله تعالى وشفقته، فيأمن مكر الله ﷻ، ويُهمِلُ العمل لذلك اليوم، وحتى يعلم أنه محاسب على ما كسبت يداه، وأن الدنيا مزرعة للآخرة، وعليه أن يتزوَّد فيها بالعمل الصالح، ويُحسن اختيار الزاد ليوم المعاد.

وهذه الآية: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ تتحدث عن الدار الآخرة عقب الآيتين: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وهما يتحدثان غالبًا عن الحياة الدنيا، وكلا الحياتين متصل، والموت بينهما فاصل برزخي حتى يتكامل فناء العالم، والحياة الأولى هي دار

---

(١) أخرجه الشيخان وأبو داود والترمذي، «صحيح الجامع الصغير» ج١ حديث رقم (٢٣٥) وهو في البخاري (٦٢٠٥، ٦٢٠٦) ومسلم (٢١٤٣) وفي «صحيح سنن الترمذي» (٢٢٨٣) وفي «صحيح سنن أبي داود» (٤١٥٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد عن جابر بن عبد الله عن ابن أنيس قبل الحديث رقم (٧٤٨١) ك (٩٧) ب (٣٢).

(٣) أخرجه البخاري برقم (٤٨١٢، ٦٥١٩، ٧٣٨٢) ومسلم (٢٧٨٧).

العمل، والحياة الآخرة هي دار الجزاء والخلود، ولا بُدَّ أن يكون الجزاء من جنس العمل، فمن وجد خيرًا فليحمد الله تعالى، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه.

والْخَلْق في يوم القيامة أحوج ما يكونون إلى رحمة الله تعالى في ذلك اليوم المجموع له الناس، وذلك اليوم المشهود.

ولهذا: جاءت هذه الآية ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ بعد الآية قبلها ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

ولم يرد لفظ ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ في القرآن الكريم إلا مصاحبًا للمواقف العصيبة، كقوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَـٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦].

مناسبة الآية لما بعدها: ولعل في تقديم ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ وهو الجانب الأخروي، على العبادة لله تعالى والاستعانة به في الدنيا الواردتين في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يفيد أن جانب الدين مقدم على جانب الدنيا.

لماذا خص يوم الدين بالذكر؟

ويوم الدين: هو يوم الحساب والجزاء على الأعمال، اليوم الذي يدان فيه الناس بأعمالهم خيرها وشرها، وفي ذلك اليوم يظهر للخلق تمام الملك، وكمال العدل، الذي يعلو كل شيء، فيغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء؛ لأنه سبحانه صاحب السلطان المطلق بقوته غير المحدودة.

وتظهر الحكمة في تخصيص يوم الدين بالذكر، في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩].

حيث تنقطع أملاك الخلائق كلهم، فيستوي الملوك والرعايا، والأغنياء والفقراء، الكل خاضع خاشع لله تعالى ينتظر الحساب والجزاء ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨].

وقد خُص يوم الدين بالمُلك حيث لا يدَّعي فيه أحد مُلكًا، ولا يتكلم أحد إلا بإذنه ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨] وإلا فهو سبحانه رب العالمين، مالك للدين والدنيا؛ لأن مَن ملك الآخرة فهو مالك للدنيا من

باب أولى، وهو سبحانه مالك الأزمنة والأمكنة جميعًا، وخَصَّ التنبيه على يوم الدين لما فيه من الأمور العظام والأهوال الجسام، والناس في أيامنا لا يكادون يذكرون الحياة الآخرة، فقد طغت عليهم الحضارة المادية؛ فأنستهم لقاء الله.

وفي الأثر: **«الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت»**(١).

(ومعنى دان نفسه أي: حاسبها).

ويوم القيامة هو أهم قضايا المؤمن التي يجب أن يهتم بها ويحاسب نفسه عليها، ويعمل في الدنيا من أجلها؛ إذ يترتب عليها السعادة الأبدية، أو الشقاء الأبدي، والعياذ بالله تعالى.

والْمَلِكُ الحق تام المُلْك، له دار عذاب هي النار، يُعذب بها من يشاء، ممن هم من أهلها، وعملوا لها في الدنيا، وله دار نعيم، أعدها لمن عمل لها في الدنيا.

وإذا قرأ العبد: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ فإنه يقف هُنيهة عند نهاية كل آية منها، ينتظر جواب الله تعالى له ورده عليه وهو يقول سبحانه: **«حمدني عبدي» «أثنى عليَّ عبدي» «مجَّدني عبدي»** وعينه تَقِرُّ بمناجاته لربه، وذِكْر العبد أصول أسماء الله الحسنى، وصفاته العليا (الله، الرحمن، الرحيم) يجعله يطير فرحًا وسرورًا بإجابة الله تعالى له.

الْمَبْحَثُ الْعَاشِرُ: الْعِبَادَةُ والاسْتِعَانَةُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

أولًا: العبادة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾

١- نَقْلُ الكلام من أسلوب الغيبة في ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ إلى أسلوب الخطاب في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ من أساليب البلاغة؛ لما فيه من الالتفات، وتنوع العبارة، وتفنن القول، وفي هذا تنشيط للسامع، وإيقاظ له، وتحريك همته للاستماع.

وهذا الأسلوب مناسب بعد الثناء على الله تعالى، كأن العبد بعد أن أثنى على ربه أقبل

---

(١) أخرجه أحمد برقم (١٧١٢٣) بإسناد ضعيف، كما قال محققوا المسند، لضعف أبي بكر بن أبي مريم، وبقية رجال الإسناد ثقات عن شداد، وأخرجه الترمذي (٢٤٥٩) وابن ماجة (٤٢٦٠) والحاكم (١/٥٧) وغيرهم عن شداد بن أوس، وانظر: «ضعيف الجامع الصغير» برقم (٤٣١٠).

عليه، فاقترب منه سبحانه، وحضر بين يديه، وخاطبه بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

٢- وقدَّم المفعول وهو ﴿إِيَّاكَ﴾ على الفعل وهو ﴿نَعْبُدُ﴾ لإفادة التعظيم والاهتمام، وقَصْر العبادة على الله ﷻ، واختصاصها به جل شأنه دون سواه.

٣- والتعبير بالنون في ﴿نَعْبُدُ﴾ بدل الهمزة في «أعبد» للإشعار بأن المسلم يناجي ربه باسم الجماعة التي انتظم بين يدي ربه في صفوفها، فهو لا يعبد الله تعالى بمفرده، ولا يناجيه ويدعوه منفردًا، وإنما يعبد ربه ويناجيه ويدعوه مع إخوانه المسلمين أن يحقق لهم خيري الدنيا والآخرة، وهو وإن صلى منفردًا إلا أنه مع إخوانه المسلمين بمشاعره وأحاسيسه وعقله وقلبه، مما يُفهم منه قيمة الجماعة وأهميتها في الإسلام، والعمل على تقويتها، ودعم الروابط والأخوة الإسلامية، والوحدة الإيمانية، والتعاون على البر والتقوى، وأنهم جميعًا كالجسد الواحد، والبنيان المرصوص.

ومن هنا فُضِّلت صلاة الجماعة على صلاة الفرد بسبع أو بخمس وعشرين درجة، فضلًا عما يتبع ذلك من أنه وهو في طريقه إلى المسجد كلما رفع قدمًا ووضع قدمًا رُفعت له درجة، وحُطت عنه خطيئة، ويتجلى هذا المظهر في صلاة الجمعة والعيدين ويبلغ قِمَّته في وقفة عرفات.

٤- **تعريف العبادة**: والعبادة في اللغة لها **ثلاثة معانٍ**:

(أ) العبادة. (ب) الطاعة والتسليم. (جـ) الخضوع والعبودية.

وكلها مرادة من العبد، فهو يعبد الله تعالى ويطيعه ويخضع له، ويُسْلم وجهه إليه.

والعبادة شرعًا: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

٥- **العبد**: والعبد هو الإنسان، حرًّا كان أم رقيقًا، ذكرًا كان أم أنثى؛ لأن الجميع مربوب لله تعالى.

٦- **العبادة والعبودية**: والعبادة أبلغ من العبودية؛ لأن العبادة غاية التذلل والخضوع والحبِّ للمعبود، والعبودية: تمام الانقياد والطاعة لله تعالى.

فالعبادة تعني: غاية الذل والخضوع لله تعالى مع المحبة والتفاني والإخلاص للمعبود

سبحانه، وهي الغاية والهدف الذي خُلق الإنسان من أجله، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وهي نوع من شكر الخالق سبحانه على نعمه التي لا تُعدُّ ولا تُحصى.

قال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٦] فقرن العبادة بالشكر، وكان النبي ﷺ يصلي حتى تتفطر قدماه، ولما سئل عن السبب، مع أن الله تعالى قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال: **«أفلا أكون عبدًا شكورًا»**[١].

وقُدمت العبادة على الاستعانة من باب تقديم العام على الخاص، ولأن العبد يحتاج في جميع عبادته إلى الاستعانة بالله، فإن لم يُعنه الله لم يحصل له ما يريد من فعل الأوامر وترك النواهي.

والعبادة مطلوبة من العبد حتى يوافيه الأجل ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] واليقين هو الموت، والعبادة أعلى مراتب الدين، وأرقى درجات الطاعة حين تكون على أكمل وجه وأحسن صورة، جاء في الحديث عن معنى الإحسان: **«أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**[٢] و لا بد فيها من الإخلاص الخالي من الرياء ومن الشرك، وأن تكون موافقة لهدْى النبي ﷺ كي تكون سبيلًا إلى النجاة.

والعبودية هي أشرف ما ينتسب به العبد إلى ربه، وأعظم ما يتقرب به إلى الله تعالى.

ولأمرٍ ما: كان وَصفُ النبي ﷺ بالعبودية، وشَرَفُ الإضافة والانتساب إليه سبحانه، وقد تحقق هذا الوصف للنبي ﷺ بعد شق صدره وصفاء روحه، وإعداده للالتقاء بالملائكة الكرام، وإخوانه من الرسل والأنبياء عليهم السلام، وفرضية الصلاة عليه وعلى أمته، وكان ذلك في ليلة الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١] وحين عُرِجَ به ﷺ إلى السموات العلا: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠].

---

(١) من حديث المغيرة بن شعبة في البخاري (١١٣٠) ومسلم (٢٨١٩) والترمذي (٤١٢) وابن ماجة (١٤١٩) و«سنن النسائي الكبرى» (١٣٢٧) و«المسند» (١٨٩٨) وابن ماجة (٣١١).

(٢) من حديث الإسلام والإيمان والإحسان عن عمر ﷺ في «صحيح مسلم» (٨) والبخاري (٥٠) عن أبي هريرة.

وجاء الوصف بالعبودية للنبي ﷺ في تشريفه بالرسالة، وهي أشرف الفضائل وأعلى المنازل ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣].

وهي أشرف وصف للأنبياء والمرسلين: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [ص: ٤٥].

وأشرف وصف للأبرار من عباد الله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

٧- **شمول العبادة:** وأُطلِقت العبادة لتشمل كل عبادة؛ كالصلاة والزكاة والصيام والحج والنذر والدعاء والاستعانة والاستغاثة والمحبة... إلخ.

والتعبد المطلق هو شغل كل وقت بما يناسبه من طاعة.

فإن رأى المجاهدين فهو معهم، وإن رأى الذاكرين فهو معهم، وإن رأى المتصدقين فهو معهم، وإن رأى المحسنين فهو معهم، وإن رأى الضيف قام بواجبه، وإن رأى الملهوف أغاثه، وإن كان مع الزوجة والأولاد أحسن معاملتهم، وإن رأى الجاهل أقبل على تعليمه، وإن سمع الأذان أظهر الاستجابة والتلبية، وعند تلاوة القرآن يُقبِل بتدبر وخشوع، وإن وجد متخاصمين أسرع إلى الصلح بينهما، وإن قصده صاحبُ حاجةٍ أو شفاعة حسنة لدى مسؤول انبرى لقضائها، فهو دائمًا مسارعٌ في سبيل الله، خادمٌ لعباد الله.

والنية تفرق العادة من العبادة في الأكل والشرب والنوم والعمل وإتيان الرجل أهله، وغير ذلك من سائر الأقوال والأفعال، فإذا أكلت لإشباع بطنك فهو عادة، وإذا أكلت بنية التقوّي على طاعة الله وعلى أداء العمل المشروع فهو عبادة، وهكذا سائر الأمور.

٨- نوعا العبادة:

(أ) عبودية عامة لأهل السموات والأرض جميعًا: وهي عبودية لا خيار للعبد في تركها، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

فجميع الكائنات تُسبّح بحمد الله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

وجميع الكائنات تسجد وتصلي لله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨].

وهذه العبادة تقع من جميع الخلائق دون تسويف ولا عصيان ولا مخالفة، عدا الإنس والجن، فبعضهم يؤمن وبعضهم يكفر.

وهذه العبادة هي مقتضى أداء الأمانة التي عرضها الله على السماوات والأرض والجبال، فأبيْن أن يحملنها، وأشفقْن منها، وعدم حمل الكائنات للأمانة، معناه أداؤها فورًا دون تأخير ولا تأجيل، كما هو شأن الإنسان الذي قَبِل ذلك.

(ب) وعبودية خاصة بالإنسان:

وهي عبادة المطيعين لربهم، المحبين له عن طواعية واختيار، وهو مقتضى حمل الأمانة والقيام بها، ولأن مِن الناس مَن يعصي الله ويخالف الغرض الذي خُلق من أجله، فقد استثنى الله سبحانه من جميع الكائنات (الإنسان) وفي حكمه (الجن) فقال سبحانه: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ أي: لا يسجد ولا يطيع ثم قال: ﴿وَكَثِيرٌ﴾أي من الناس ﴿حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾، أما سائر الكائنات فإنها تطيع بلا استثناء ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١].

ومن قام بواجب الطاعة فهو المحب المتبع لله والرسول، ومن زعم أنه وَصَل إلى مقام يسقط عنه فيه العبادة فهو كافر زنديق؛ كمن يدّعي أن الصلاة تسقط عنه لأمرٍ مَّا؛ كادعاء نسب، أو منزلة عالية، أو أنه يُصلّي في الحرم وهو في بلده، يُلبِّس على الناس دينهم، أو أنه ليس بحاجة إلى التكاليف الشرعية؛ لأنه منتهٍ عن الفحشاء والمنكر، أو لأنه من نسل الرسول ﷺ، أو من سلالة فلان أو علان، أو أن الله تعالى أسقط صلاة الجماعة عن ذرية فاطمة ﵂، أو غير ذلك.

٩- **تحقيق العبودية**: ولا تتحقق العبادة إلا بأصلين عظيمين:

أحدهما: إخلاص العبادة لله تعالى دون شرك ولا رياء.

ثانيهما: متابعة الرسول ﷺ وعدم الابتداع في الدين.

قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

والعمل الصالح هو الذي لا يشوبه شرك ولا بدعة، بأن يكون عملًا خالصًا لوجه الله تعالى، صوابًا موافقًا لهدي محمد ﷺ.

والناس -بحسب هذين الأصلين- منقسمون إلى **أربعة أقسام**:

الأول: المخلص في عبادته، المتبع لما جاء به محمد ﷺ، وهم أهل الإخلاص والمتابعة.

الثاني: مَن لا إخلاص عنده ولا متابعة، فعمله ليس خالصًا لله تعالى ولا موافقًا للشرع.

الثالث: مَن هو مخلص لله تعالى في عبادته، ولكن على غير متابعة للرسول ﷺ عن جهل منه أو عمد.

الرابع: مَنْ كانت أعمالُه على المتابعة، لكنها لغير الله تعالى، كطاعة المرائين.

ولا تصح العبادة إلا إذا كانت خالصة لله تعالى، موافقة لهدْي محمد ﷺ، ولا سبيل إلى النجاة إلا بذلك.

١٠- عبادة القلب واللسان والجوارح

وتكون العبادة بقول اللسان، واعتقاد القلب، وعمل الجوارح.

فالعبادة تنتظم الجسم والروح والعقل والقلب، وهي اسم جامع لهذه المراتب الأربع:

١- **فعبادة القلب**: اعتقاد ما أخبر الله به عن نفسه على لسان رسله، وعن أسمائه وصفاته وأفعاله، وملائكته، ولقائه، وجنته وناره.

٢- **وعمل القلب**: كمحبته لله تعالى، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والخوف منه، والرجاء فيه، والإخلاص له، والرضى بقضائه وقدره... إلخ.

٣- **وقول اللسان**: تبليغ أوامر الله سبحانه، والقيام بذكره، والدعوة إليه، وبيان الحق وبطلان البدع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... إلخ.

٤- **وأعمال الجوارح**: كالصلاة، والجهاد، وأنواع الذكر؛ كالتسبيح والتكبير والتهليل، ومساعدة العاجز، وكثرة الخطى إلى المساجد، وإصلاح ذات البيْن... إلخ.

والأعمال الصادرة من القلب واللسان والجوارح إما أن تكون واجبة، أو محرمة، أو مستحبة، أو مكروهة، **وإليك الأمثلة**:

١- **واجب القلب**: كالإخلاص والمحبة، والتوكل.

ومحرمات القلب: كالعُجْب والرياء والكبر.

٢- **واجب اللسان**: كالنطق بالشهادتين، ورد السلام، وتلاوة ما يلزم من القرآن.

والمستحب: كالذكر، ومطلق التلاوة. والمكروه: كالكلام بما لا فائدة فيه.

والحرام: كالغيبة والنميمة والكذب والبهتان والسب والفحش.

وعبودية الجوارح مقسمة على الحواس الخمس:

كوجوب الإنصات لخطبة الجمعة، وتلاوة القرآن عند قصد السماع... وتحريم سماع الكفر والبدعة والمعازف... واستحباب سماع العلم... وتحريم النظر بشهوة إلى الأجنبيات... واستحباب النظر في كتب العلم... وكراهية فضول النظر... وذوق الطعام واجب عند الاضطرار، وحرام إن كان مسكرًا، ومكروه إن كان مشتبهًا فيه. وكذلك الشم واللمس... إلخ.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

١١- السعادة في العبادة:

والعبادة الحقة تُترجم إلى أعمال صالحة يؤديها القلب واللسان والجوارح، وهي تحقق للعبد السعادة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وهذه العبادة الصحيحة من شأنها أنها ترفع أسباب الشقاء التي تعاني منها الإنسانية اليوم، ومن أهمها:

اتخاذ الهوى والشيطان معبودين من دون الله باتباع إشارته، وتنفيذ مطلوبه، والافتتان بمظاهر الحياة، وتقليد المجتمع في الصغيرة والكبيرة من فتنة الشهادات الدراسية،

والمناصب الرفيعة، وتحصيل الأموال، والمساكن الفاخرة، والفرش الوثيرة، ونظر النساء إلى غيرهن في الذهب والفضة والضرورات والكماليات.

ولا بأس بكل ذلك إن صحبه الخلُق والدين وجاء من حله، ولم يكن سببًا للتطاول على الآخرين، وكان في مقدور الإنسان، أما أن يستدين الناس ويتحملوا ما لا يطيقون، أو تمتد أيديهم إلى الحرام في سبيل المظاهر الخادعة، ومواكبة المجتمع، وتقليد الناس، فسبب ذلك هو الفراغ الديني.

لقد أصبح الناس يُقاسون بما يَركبون من سيارات ونحوها، وما يسكنون من قصور وغيرها، وما يُخدمون من خدم وحشم، وما يلبسون من ثياب، وهكذا، فترتفع النظرة إليهم بارتفاع القيمة المادية، وتنخفض بانخفاضها، وينصرف الناس عن المقياس الحقيقي مقياس الدين والخلُق والتقوى والعمل الصالح، وهو ميزان التفاضل عند رب العالمين، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣] ولقد عرف السلف هذه الحقيقة، ولم تفتنهم مظاهر الحياة، فكانت لهم شخصيتهم المستقلة، فسادوا في الدنيا، وسعدوا في الآخرة.

ثانيًا: الاستعانة ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

والاستعانة هي الاعتماد على الله تعالى في جلب المنافع ودفع المضار، ففيها طلب المعونة من الله تعالى؛ لدفع العجز، وللمساعدة على ما يَعْجَز المستعين عن أدائه، وفيها اعتراف بتقصير العبد حال وقوفه بين يدي الله تبارك وتعالى، وطلبه منه سبحانه الاستعانة والهداية.

فكأن العبد يقول: نحن ننشد عونك يا رب، ونطلب مساعدتك، ونتوجه إليك، ونسألك قضاء حاجاتنا وأداء متطلباتنا، وفي ذلك عهد بين العبد وربه ألا يستعين إلا به سبحانه، وفيه تبرؤ من الحول والطَّوْل والقوة، وفيه تفويض الأمر لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] أي: استعن به واعتمد عليه سبحانه.

وقد جَمعتْ هذه الآية بين العبادة والاستعانة، وهي الوسيلة للقيام بعبادته جل شأنه، فإياك نستعين على طاعتك وعلى أمورنا كلها، وفي ذلك طلب العون من الله تعالى، فإن مما يدعو به المسلم عقب الصلاة كما جاء في حديث معاذ ﷺ: «**اللهم أعني على ذكرك**

وشكرك وحسن عبادتك»[1].

والاستعانة هي الوسيلة التي يتم بها الحصول على خيْري الدنيا والآخرة، وأُطلقت الاستعانة لتشمل كل استعانة مشروعة؛ كالاعتماد على الله تعالى، والتوكل عليه، والدعاء والرجاء، وطلب المدد، وقضاء الحاجات.

وطلب الاستعانة لا يقتصر على التوفيق في العبادة، بل يشملها ويشمل غيرها، وكل ذلك مختص بالله تعالى.

والاستعانة نوعان:

١- **نوع خاص بالله تعالى**: لا يُطلب إلا منه ﷻ، ولا يُقصد غيره فيه، ويكون ذلك في الأمور التي لا يَقْدِرُ عليها إلا الله سبحانه؛ كالاستعاذة، والمدد، وجلب الخير، ودفع الضر، وإجابة الدعاء، والاستغاثة، وطلب النجاح والشفاء، وطلب الولد والرزق.

ومن استعان بولي أو نبي فيما لا يقدر عليه إلا الله، أو اتخذه واسطة بينه وبين ربه؛ فقد أشرك بالله تعالى.

٢- **ونَوعٌ هو في مقدور الناس**: كالاستعانة بشخص في حمل شيء لا يستطيع حمله، أو الاستعانة به في إنهاء معاملة أو مصلحة مشروعة، أو الاستعانة به في أن يشفع له شفاعة حسنة لدى مسؤول للتوصل إلى حقه، أو لدفع الضرر عنه، كذلك كل ما يَعجَزُ عنه الإنسان من أمور الدنيا ويحتاج إلى مساعدة غيره فيه، ويكون ذلك في الأمور التي تدخل في قُدرة الإنسان وتصرُّفه، فهي استعانة جائزة مشروعة.

الأخذ بالأسباب: وكلمة الاستعانة تُشعر بوجوب العمل، والأخذ بالأسباب؛ لأن الاستعانة طلب العون من الله تعالى على أداء عمل أو إتمامه، وذلك في كل ما للإنسان فيه كسب؛ كطلب الشفاء من الله تعالى مع بذل سبب العلاج وأخذ الدواء، وطلب الرزق مع بذل السبب، وطلب النصر على العدو مع مجاهدته وإعداد العُدة، وطلب النجاح في

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (١٥٢٢) والنسائي في «الكبرى» (١٢٢٧، ٩٨٥٧) عن معاذ، انظر: «جامع الأصول» حديث رقم (٤/٢٠٩١) وهو في «المسند» (٢٢١١٩، ٢٢١٢٦) بإسناد صحيح ورجال ثقات كما قال محققوه، وابن حبان (٢٠٢٠) و البزار في مسنده (٢٦٦١) وابن خزيمة (٧٥١).

الامتحان من الله تعالى مع الجِد والاجتهاد في تحصيل الدروس، وهكذا.

وكل مَن ترك الأخذ بالأسباب يكون قد جانب الصواب، وكل من اعتمد على الله تعالى دون أن يبذل الأسباب فقد أخطأ الاعتقاد، فإن العبد لا يستغني عن العون الإلهي مهما أوتي من قوة وحصافة، ولا بد له من العمل والتوكل، ولا ينفع التوكل بدون عمل، ولا ينفع عمل بدون توكل واستعانة.

وقد اشتملت هذه الآية ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على توحيد الربوبية والاستعانة به ﷻ، وهي أفضل الوسائل للإعانة على العبادة، والتعبد يكون باسم الله، واسم الرحمن، واسم الرب، والمسلم يعبد الله تعالى بألوهيته، ويستعين بربوبيته.

عن الحسن: أن الله تعالى أنزل مئة وأربعة كتب جمع معانيها في أربعة هن: التوراة، والإنجيل، والقرآن، والزبور، وجمع معانيها في القرآن، وجمع معاني القرآن في الفاتحة، وجمع معاني الفاتحة في: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1].

وإذا قرأ العبد ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ وعند التلفظ بـ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تَغْمُره السكينة والطمأنينة؛ لأنه قد توكل على الله، وألقى إليه مقاليد أموره في الدنيا والآخرة؛ ليعينه سبحانه على الوصول إليها.

❁ ❁ ❁

المَبْحَثُ الحَادِي عَشَرَ: طَلَبُ الهِدَايَةِ ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾

(أ) الهداية في الآية بمعنى: طلب التوفيق والإرشاد إلى الحق، والدلالة عليه، والثبات على الصِّراط إلى الممات.

والمعنى: أَلْهِمْنا يا ربنا ووفقنا وأَرْشِدْنا ودُلَّنا على طريق الخير والهُدى والفلاح. وهو الطريق الموصل إلى الله تعالى وإلى جنته بمعرفة الحق والعمل به ولزوم دين الإسلام وترك ما سواه.

(ب) المناسبة: ولما كان الجانب الديني في الاستعانة المذكورة في الآية قبلها هو

---

(1) «كتاب الصلاة» لابن القيم ص٢٤٢ وأخرجه البيهقي عن الحسن في «شعب الإيمان» (٢٣٧١).

الأهم، كان طلب المسلم للهداية أهم ما ينبغي على العبد أن يُلحَّ في دعائه لله تعالى بشأنه؛ لأن طلب الهداية من الله تعالى، والاستعانة به سبحانه على تحقيقها، أهم ما يشغل المسلم، وأول أمر يَعْنيه هو الحاجة إلى الهداية، والعبد وإن كان من المهتدين إلا أنه محتاج ليل نهار إلى سؤال الهداية من ربه، وتَثْبيته عليها، وازدياده منها، واستمراره عليها، وهو مُفْتقِرٌ في كل ساعة إلى إجابة الدعاء.

ومن هنا فإن المسلم يُردِّدُ طلب الهداية من الله تعالى، وهو يناجيه في صلاته كلها، فريضة أو نافلة، آناء الليل وأطراف النهار وما بين ذلك، عشرات المرات في اليوم الواحد.

قال ابن القيم: ولما كان سؤال الله الهداية إلى الصِّراط المستقيم، أَجَلَّ المطالب لنيل أشرف المواهب، علَّم الله عباده كيفيةَ سؤاله، وأَمَرهم أن يقدِّموا بين يدي الدعاء حْمدَهُ سبحانه، والثناءَ عليه، وتمجيدَه، ثم ذكَّرهم عبوديته وتوحيده، فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم:

١- توسُّلٌ إليه سبحانه بأسمائه وصفاته.

٢- توسُّلٌ إليه بعبوديته والاستعانة به سبحانه.

وهاتان الوسيلتان لا يكاد يُرَدُّ معهما الدعاء.

وقد اشتملت سورة الفاتحة في نصفها الأول على هذين النوعين من التوسُّل، ثم كان الدعاء بعدهما في النصف الثاني، بطلب الهداية من الله تعالى، وسلوك طريق الذين أنعم الله عليهم بالاستقامة والسعادة في الدارين.

وقد جَمعتْ سورة الفاتحة بين التوسُّل بالحمد والثناء، والتوسُّل بالتوحيد والعبودية، ثم جاء سؤال أهم المطالب، وهو طلب الهداية بعد هاتين الوسيلتين، فالداعي حينئذ حقيق بالإجابة بمحض فضل الله تعالى عليه.

فنصف سورة الفاتحة الأول يشتمل على نوعي التوسُّلْ المشروع؛ وهما: التوسُّل إلى الله تعالى بأسمائه وصفاته، والتوسُّل إليه سبحانه بالعبادة والعمل الصالح.

وقد جاء النوع الأول في حمد الله تعالى والثناء عليه وتمجيده.

وجاء النوع الثاني في توجُّه العبد بعبادته إلى الله وحده واستعانته به سبحانه.

وبعد ذلك يكون العبد حَرِيًّا بإجابة الدعاء، وقد طلب من ربه أن يهديَه إلى أعدل الطرق وأقومها، ويُبعده عن طريق أهل الغضب والضلال، بعد أن قدَّم بين يدي ربه دواعي الإجابة، فيكون جديرًا بالهداية.

١- فالتوسل المشروع يكون بأسماء الله تعالى الحسنى وصفاته العليا، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] أي: ادعوا الله تعالى متوسلين إليه بأسمائه الحسنى.

كأن يقول العبد: اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن ترحمني وتغفر لي، وكما في حديث الرجل الذي سأل ربه الجنة في تشهده بأسمائه الحسنى وصفاته العليا.

وهو حديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ سمع رجلًا يقول في تشهده: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، المنان، يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم، إني أسألك الجنة، وأعوذ بك من النار، فقال ﷺ: **«لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا دُعِي به أجاب، وإذا سُئِل به أعطى»**[١].

فهذا توسل إليه سبحانه بأسمائه وصفاته.

٢- ويكون التوسُّل المشروع أيضًا بالعبادة والعمل الصالح الذي قَدَّمه العبد بنفسه، كما في قصة الثلاثة الذين آواهم الغار وانطبقتْ عليهم الصخرة، فدعا كل منهم ربه بعمل صالح عمله، حيث دعا الأول ربه ببره لوالده، ودعا الثاني بحفظ الأمانة وتنميتها لصاحبها، ودعا الثالث بترك شهوته خوفًا من الله تعالى، بعد أن تمكن من المرأة، وقعد بين شعبها الأربع، فرفع الله عنهم الصخرة، والحديث في الصحيحين.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٦] وقوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣].

ومن ذلك حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: سمع النبي ﷺ رجلًا يدعو ويقول:

---

(١) رواه أبو داود برقم (١٤٩٥) والنسائي وأحمد في «المسند» برقم (١٢٦١١) قال محققوه: حديث صحيح وإسناد قوي، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٠٥) وابن حبان (٨٩٣) وغيرهم بإسناد صحيح.

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، الْأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، فَقَالَ: «**لَقَدْ سَأَلْتَ اللَّهَ بِالِاسْمِ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ**»(١).

فهذا توسُّل إلى الله تعالى بعمل صالح هو الشهادة والتوحيد.

(ج) والهداية تتعدى بنفسها وبغيرها:

١- والهداية قد تتعدى بنفسها، كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠] أي: طريق الخير والشر.

٢- وقد تتعدى الهداية باللام، كما قال تعالى على لسان أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]

أي: الحمد لله الذي وفقنا لهذا وجَعلَنا له أهلًا.

٣- وقد تتعدى الهداية بإلى، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

وقد فرَّق بعضهم بين الفعل المتعدي بنفسه؛ فقالوا: معناه الدلالة على الخير، وبين المتعدي بغيره؛ فقالوا: معناه إيصال الخير إلى العبد.

(د) طلب الزيادة من الهداية: والمهتدي يطلب من الله تعالى زيادة الهدى، كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ١٧]

وكما قال جل شأنه: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣].

(هـ) أنواع الهداية؛ الهداية نوعان:

النوع الأول: خلق الهداية وإيجادها في نفس العبد.

وهذه الهداية خاصة بالله تعالى لا يملكها غيره، وعلى هذا المعنى يُحمل مثل:

---

(١) رواه أحمد (٥/٣٤٩) برقم (٢٢٩٥٢، ٢٢٩٦٥) بإسناد صحيح ورجال ثقات رجال الشيخين، والترمذي (٣٤٧٥) والنسائي في «الكبرى» (٨٠٥٨) وابن حبان (٨٩٢) وأبو داود (١٤٩٣) وغيرهم.

١- قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

٢- وقوله سبحانه: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [النحل: ٣٧].

٣- وقوله جل شأنه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

والله تعالى لا يهدي مَن سبق في علمه أنه لا يهتدي من أهل الضلال والزَيْغ والظلم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]

وكما قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الصف: ٧] وقال أيضًا: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] فِفِسْقُهم وظُلمهم وزَيغهم وكُفرهم هو السبب.

النوع الثاني: الهداية بمعنى الدعوة إلى الله تعالى، والدلالة على الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا النوع من الهداية، هو وظيفة الرسل والأنبياء والدعاة والمصلحين، وهي المرادة في قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

(و) ومن الهدايات التي يطلبها العبد من ربه، أن يطلب منه:

١- الهداية بالتوبة عن المعاصي مما أَلَمَّ به من ذنوب وآثام اقترفها وهو على غير هدى.

٢- ويطلب منه أن يهديَه؛ بمعنى يُوفقه إلى الثبات والاستمرار على الاستقامة إن كان مهتديًا في حاضره.

٣- ويطلب من الله تعالى أن يهديه في المستقبل كما حصل له من الهداية في الماضي.

٤- ويطلب أن يزيده الله هداية فوق هدايته، وتقوى على تقواه.

٥- ويطلب منه أن يوفقه إلى تمام الهداية في الأمور التي هُدي فيها من وجه دون وجه.

فالمسلم يطلب من ربه أن يهديَه في جميع أنواع هذه الهدايات إلى أفضل الأحوال.

أ - وأهل هذه الهداية المختصون بنعمته سبحانه هم مَن عرفوا الحق وعملوا به.

ب - دون مَن عرفوا الحق ولم يعملوا به، ممن غضب الله عليهم؛ بسبب النكوص بعد الاهتداء.

جـ - ودون مَن فقدوا طريق الهداية، فعبدوا الله بغير علم، فضَلُّوا وأضلوا، ولم يُوفَّقوا إلى الوصول إليه.

وقد كان النبي ﷺ يطلب من ربه وهو متوجه إليه في صلاته، أن يهديه إلى أعدل الطرق وأقومها، ويعلمنا ذلك، فكان يقول في دعاء استفتاح الصلاة:

١- **«واهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت»**[١].

٢- وكان عليه الصلاة والسلام أيضًا يستفتح صلاته بطلب الهداية من ربه بقوله:

«اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»[٢].

٣- وبعد الفراغ من الصلاة كان عليه الصلاة والسلام يحرص أيضًا على طلب الهداية من ربه فيقول: **« اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي، وتجمع بها أمري، وَتلُمُّ بها شعثي، وتردُّ بها غائبي، وترفع بها شاهدي، وتزكي بها عملي، وتُلْهمني بها رشدي، وتردُّ بها أُلْفتي، وتعصمني من كل سوء »** ثم يقول: **«اللهم اجعلنا هادين مهتدين، غير ضالين ولا مضلين، سِلْمًا لأوليائك، وحربًا على أعدائك، نُحِبُّ بحبك مَن أحبك، ونعادي بعداوتك مَن خالفك، اللهم هذا الدعاء وعليك الإجابة، اللهم هذا**

(١) من حديث طويل أخرجه مسلم والترمذي وأبو داود والنسائي عن علي بن أبي طالب ﷺ، «جامع الأصول» حديث رقم (٢١٨١) (٤/٢٠٦).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٧٧٠) عن عائشة، والترمذي (٣٤٢٠) وأبو داود (٧٦٧) والنسائي في «الكبرى» (١٣٢٤) عن عائشة ﷺ، ويُنظَر: «جامع الأصول» (٤/٢٣٥) حديث رقم (٢٢١٣) وهو في «المسند» (٢٥٢٢٥) وابن حبان (٢٦٠٠).

الجهد وعليك التكلان»[١].

وإذا كان رسول الله ﷺ هذا حاله في الحرص على طلب الهداية من ربه لا سيما في افتتاح الصلاة وبعد الفراغ منها، وهو النبي المصطفى المختار، فإننا أحوج ما نكون إلى الإكثار من طلب الهداية، والأخذ بأسباب تحصيلها.

(ز) مراتب الهداية: وقد بيَّن ابن القيم[٢] أن الهداية على **عشرة مراتب**:

١- تكليم الله تعالى يقظةً بلا واسطة، كتكليم موسى عليه السلام، وفي ذلك هداية خاصة له.

٢- مرتبة الوحي المختصة بالأنبياء، وفيها هدايتهم للاقتداء بهم.

٣- مرتبة إرسال الرسل لهداية البشر بعد اجتبائهم واصطفائهم.

وهذه المراتب الثلاث، هداية خاصة بالأنبياء؛ بتكليمهم، والوحي إليهم، وإرسالهم.

٤- مرتبة التحديث، أي: الإلهام والتوفيق والسداد، وهى هداية من الله تعالى كحديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«لقد كان في الأمم قبلكم محدَّثون، فإن يكن في هذه الأمة، فعمر بن الخطاب»**[٣].

٥- مرتبة الإفهام، كقوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَۚ﴾ [الأنبياء: ٧٩] وهي نوع هداية.

٦- مرتبة بيان الحق وتمييزه من الباطل، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٥].

٧- مرتبة البيان الخاص المستلزم للهداية الخاصة، كقوله تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [النحل: ٣٧].

٨- مرتبة الإسماع، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْۖ﴾ [الأنفال: ٢٣].

٩- مرتبة الإلهام، كقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧، ٨].

---

(١) من حديث أخرجه الترمذي عن ابن عباس بسند ضعيف، يُنظَر: «جامع الأصول» حديث رقم (٢١٨٩) وهو دعاء حسن، ومعناه صحيح.

(٢) من تفسير سورة الفاتحة له بتصرف.

(٣) أخرجه البخاري عن أبي هريرة (٣٤٦٩، ٣٦٨٩) وينظر: «جامع الأصول» حديث رقم (٦٤٣٤) و (٦٤٣٥) (٨/٦٠٩).

١٠- مرتبة الهداية: بالرؤيا الصادقة، وهي جزء من أجزاء النبوة.

(ح) وللهداية طرق أربعة:

١- **الإلهام الفطري**: وهو يكون مع الطفل حين ولادته، فهو يلتقم ثدي أمه، ويمتصه بإلهام فطري.

٢- **حواس الإنسان**: السمع والبصر والذوق والشم والحس، وهي تنمو مع الإنسان، ولكنها تخطئ كثيرًا.

٣- **الإرشاد الإلهي** عن طريق الرسالات السماوية والكتب المنزلة.

٤- **العقل**: وهو مناطُ التكليف، وبه تدرك الحقائق، وتصحح أخطاء الحواس، وهو مُختلِف في الناس.

وقد لا ينتفع الإنسان بهذه الحواس، فتقصُر أو تضعُف، ويضل العقل أو ينصرف، وقد يجهل المرء دينه أو يُعرِضُ عنه.

لهذا وغيره، شرع لنا سبحانه أن نسأله الهداية إلى الصراط المستقيم؛ فلا تقصر الحواس، ولا تضعف العقول، ولا تحيد عن الدين الحنيف، وفي هذا الإيجاز منتهى الإعجاز.

فاللهم ثبتنا على الإيمان، ووفقنا لصالح الأعمال، واجعلنا ممن سلك طريق الإسلام الموصل إلى جناتك جنات النعيم.

(ط) الصراط المستقيم هو دعوة الرسل: الصراط المستقيم، هو الطريق الواضح الذي لا عوج فيه، وهو الدين الحق الذي لا يقبل الله من العباد غيره، والقرآن الكريم متضمن لهذا الصراط، وهو عين ما جاء به الإسلام في دعوة الرسل، فهو الطريق الذي نَصَبَهُ الله تعالى لعباده على ألسنة الرسل، وجَعَلَهُ موصِّلًا إليه سبحانه، وهو مضمونُ الشهادتين.

وقد وصف الله تعالى الصراط، بأنه مستقيم، ثم وضَّح وبيَّن هذا الصراط، بأنه صراط الذين أنعم الله عليهم، ويُنسب الصراط إلى الله تعالى؛ لأنه شرَعَهُ ونَصَبهُ، ويضاف إلى العباد؛ لأنهم أهلُ سلوكه.

(ي) صراط الدنيا وصراط الآخرة: ومَنْ هُدِيَ إلى الصراط المستقيم في الدنيا، هُدِيَ إلى الصراط الموصِّل إلى الجنة، وعلى قدْر استقامة العبد على الصراط في الدنيا، على

قدر ثبوت قدمه على الصراط الحسي، وهو الجسر المنصوب على متن جهنم يوم القيامة، فعلى قدر سير العبد على الصراط في الدنيا يكون سيره على ذاك الصراط في الآخرة.

والهداية إلى الصراط الأخروي وطلب الثبات عليه، والنجاة منه، هدايةٌ خاصة بالطريق إلى الجنة يوم القيامة، فهي نوع من الهداية بالمؤمنين، وهو داخل ضمن مراد الآية.

(ك) المرور على الصراط: ويوم القيامة ينصب الصراط على متن جهنم فتختلف أحوال الناس وهم يمرون عليه، فالمؤمنون يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، والكافرون يكونون في ظلمات لا يبصرون، والمنافقون يكونون في بَصيصٍ من نور، ثم يسلب منهم فيتخبطون.

وهكذا فإن الناس في المرور على الصراط يوم القيامة **أصناف**:

فمنهم من يمرُّ عليه كالبرق الخاطف، ومنهم من يمر كالريح المُرْسَلة، ومنهم من يمرُّ كالفرس الجواد، ومنهم من يمر كرُكَّاب الإبل، ومنهم من يعْدُو عدْوًا، ومنهم من يمشى مشيًا، ومنهم من يزحف زحفًا، ومنهم من يُخطفُ خطفًا ويُلْقى في جهنم ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢].

(ل) العوائق: فلينظر العبد في الصوارف والشواغل والعوائق، التي تعوقه عن السير على الصراط يوم القيامة، من الشهوات والشبهات وهو في الدنيا؛ فإنَّ الكلاليب التي بجنَبِي الصراط على متن جهنم تخطفه وتعوقه عن المرور عليه يوم القيامة، فإنْ قَوِيتْ هذه الشهوات وكَثُرتْ في الدنيا، فإنَّ الأمر يكون كذلك هناك.

وعلى قدر سير العبد على طريق الهدى في الدنيا، فإنه سيكون كذلك في الآخرة حذْوَ القِذَّة بالقِذَّة، جزاءً وفاقًا، وقد ضرب النبي ﷺ المثل لأصحابه لتقريب هذا المعنى إلى الأمة.

عن النواس بن سمعان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تبارك وتعالى ضرب مثلًا صراطًا مستقيمًا على كنفيَ الصراط داران (وفي رواية: سوران) لهما أبواب مفتحة، على الأبواب ستور، وداع يدعو إلى دار السلام، ويهدي مَن يشاء إلى صراط مستقيم**»[1].

(١) ينظر الحديث في «صحيح سنن الترمذي» (٢٢٩٥) ورقمه في السنن ٨٥٩ وهو في «المسند» (١٧٦٣٤، ١٧٦٣٦) حديث صحيح بأطول من هذا، وفي «السنن الكبرى» للنسائي (١١٢٣٣) والحاكم (١/ ٧٣) والبيهقي في «الشعب» (٧٢١٦).

فالأبواب التي على كنَفي الصراط، حدود الله تعالى، فلا يقع أحد في حدود الله تعالى حتى يكشف الستر، والذي يدعو من فوقه واعظ ربه.

ويقول ابن مسعود ﷺ: خَطَّ لنا رسول الله ﷺ خطًّا، وقال: «**هذا سبيل الله**» ثم خط خطوطًا عن يمينه وعن يساره، وقال: «**هذه سُبُلٌ، وعلى كل سبيل منها شيطان يدعو إليه**» ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[١] [الأنعام: ١٥٣].

وفسره رزين عن ابن مسعود رضى الله عنه: أن الصراط هو الإسلام، وأن الأبواب هي محارم الله تعالى في قلب كل مؤمن[٢].

❁ ❁ ❁

المَبْحَثُ الثَّانِي عَشَرَ: أَصْنَافُ النَّاسِ ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾

الناس في هذه الآية **ثلاث طوائف**:

١- **المؤمنون** من أمة محمد ﷺ أو من غيرهم من الأمم السابقة في زمن رسلهم.

٢- **المغضوب عليهم**؛ وهم اليهود الذين لم يعملوا بالتوراة في زمن نبيهم، ولم يؤمنوا بعيسى ولا بمحمد عليهما السلام، وكذا كُل مَنْ شاكلهم.

٣- **الضالون**؛ وهم النصارى الذين لم يتمسكوا بتعاليم الإنجيل الصحيح في زمن نبيهم، ولم يؤمنوا بمحمد ﷺ بعد بعثته، وكذا كل من كان مِثلَهم.

وقد أرشدنا الله سبحانه إلى أن نسأله الهداية إلى طريق الصِّنف الأول: (الذين أنعم

---

(١) حديث صحيح أخرجه أحمد ورزين عن ابن مسعود برقم (٤١٤٢، ٤٤٣٧) بإسناد حسن من أجل عاصم بن أبي النجود، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين غير ابن عياش فمن رجال البخاري كما قال محققو المسند، وأخرجه الطيالسي (٢٤٤) والدارمي (٢٠٨) وابن أبي عاصم (١٧) والبزار في «الزوائد» (٢٢١٠) والحاكم (٢/ ٣١٨) وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٦٣) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١١٠٩) والبيهقي في «شعب الإيمان»، والترمذي مختصرًا عن النواس، ينظر: «مشكاة المصابيح» (١/ ٦٧) رقم (١٩١).

(٢) ينظر: «مسند الأمام أحمد» (٤/ ١٨٢، ١٨٣).

عليهم)، وأن نبرأ من الصنفين الآخرين، فكلاهما هالك.

الصنف الأول: المنعَم عليهم: هذا تفسيرٌ للصراط المستقيم المذكور في الآية السابقة، فالمسلم يطلب من ربه ليل نهار أن يهديَه إلى طريق الذين أنعم عليهم، وهم الذين أطاعوا الله والرسول وليس في قلوبهم ذرة إلا وهي معمُورة بحب الله تعالى، والذين أنعم الله عليهم، هم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون.

فهؤلاء قد أنعم الله عليهم بالسعادة في الدنيا والآخرة؛ لأنهم أهل الهداية والاستقامة والطاعة وامتثال الأوامر واجتناب النواهي، وهذه النعمة، نعمة مطلقة، شاملة، موجِبة للفلاح الدائم، وإلا فكل الخلق يعيش في نعمة الله تعالى، ومنهم الكافر، فالنعمة المطلقة لأهل الإيمان، ومطلق النعمة للمؤمن والكافر، وفيه نسبة النعمة إلى الله تعالى دون غيره، حتى لا يُنْسَب الشر إلى الله تعالى، من باب الأدب مع الله تعالى.

والذين أسبغ الله عليهم نعَمَهُ ليسوا من الذين ينحرفون عن صراطه المستقيم، أو يجلبون على أنفسهم نيران غضبه ولعنته، وإنما يستجلِبون رضى الله تعالى، ويبتعدون عن أسباب غضبه وتنكُّب الصراط.

والمُنعَم عليهم هم صفوة البشر المطيعون لله والرسول، يبدأ وصفهم بالنبوة وينتهي بالصلاح، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠].

وقال سبحانه بعد أن ذكر عددًا من الأنبياء والمرسلين، ممن أنعم الله عليهم من ذرية آدم، وممن حُمِلوا مع نوح، وممن هدى الله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

ومن هؤلاء الذين عنتْهم الآية: أنبياء وصديقون وشهداء وصالحون.

وصراط الذين أنعم الله عليهم، هو الصراط المستقيم، الذي لا اعوجاج فيه.

وعلى كل مسلم ألا يغفل عن طلب العون من الله تعالى، ونعمة الهداية هي أكبر النعم

التي امتنَّ الله بها على عباده، إذ إن الهداية لا ينالها إلا المطيعون الموفَّقون الصالحون، والمُنعَم عليهم هم المؤمنون المتقون، الذين عرفوا الحق، فاتبعوه وعملوا به في مقابلة مَن يأتي ذكرهم، وهم الذين عرفوا الحق ولم يعملوا به وأنكروه، والذين ضلوا عن الصراط وأخطؤوا الطريق الصحيح.

الصنف الثاني: اليهود ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾

عن عبد الله بن شقيق العُقَيْليّ قال: أخبرني مَن سمع النبي ﷺ وهو بوادي القُرى على فرس له، وسأله رجل من بني القين فقال: مَنِ المغضوب عليهم يا رسول الله؟ قال: «**اليهود**» قال: فمَن الضالون؟ قال: «**النصارى**»(١).

وعن الشريد بن سُوَيد قال: مَرَّ رسول الله ﷺ وأنا جالس هكذا، وقد وضعتُ يدي اليسرى خلف ظهري، واتّكأتُ على إلْيَةِ يدي، فقال: «**أتقعُد قِعْدة المغضوب عليهم**»(٢).

وقد غضب الله عليهم؛ لأنهم عرفوا الحق ولم يعملوا به، ومن ذلك معرفتهم بأوصاف محمد ﷺ وعدم الإيمان به.

فغير **المُنعَم عليهم صنفان**: صنف خرج عن الحق بعد علمه به، وأعرض عنه بعد أن استبان له، وهم المغضوب عليهم.

وصنف لم يعرفوا الحق أبدًا أو عرفوه على وجه غير صحيح، فهم في عماية وضلال، وكِلا المسلكين فاسد؛ لأنه حادَ عن صراط الإسلام، فكل من اليهود والنصارى وأمثالهم، ضال مغضوب عليه، لكن أخص أوصاف اليهود الغضب، كما قال تعالى فيهم: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٦٠] وقال تعالى عنهم: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ﴾ [البقرة: ٩٠].

---

(١) «المسند» (٢٠٣٥١) (٢٠٧٣٦) بنحوه والبيهقي (٦/ ٣٣٦) وعبدالرزاق في تفسيره (١/ ٣٧) قال محققو المسند: إسناده صحيح ورجاله ثقات، وأخرجه أيضًا الطبري (١/ ١٨٧).

(٢) «المسند» (١٩٤٥٤) قال محققوه: فيه ابن جريج مدلس وقد عنعن، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين، وهو في «صحيح سنن أبي داود» (٤٠٥٨) وفي سنن أبي داود برقم (٤٨٤٨) وابن حبان (٥٦٧٤) والحاكم (٤/ ٢٦٩) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، والطبراني في الكبير (٧٢٤٢).

الصنف الثالث: النصارى ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾

الضال هو الذي حادَ عن السبيل وسلك غير المنهج القويم.

والضالون: هم النصارى ومَن على شاكلتهم، ممن فقَد العلم وأخطأ الطريق الصحيح، فهام على وجهه ولم يهتدِ إلى الحق.

وأخصُّ أوصاف النصارى الضلال، فهم قد ضلوا عن طريق التوحيد؛ فنسبوا لله تعالى الشريك والولد، فضلوا في أنفسهم وأضلوا غيرهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

والضلال سلوك الطريق غير السوي، وهو ضد الهدى والرشاد.

وفي حديث عدي بن حاتم، أن النبي ﷺ قال: «**إن المغضوب عليهم اليهود، وإن الضالين النصارى**»[١].

وعن أبي ذر ﷺ قال: سألت رسول الله ﷺ عن المغضوب عليهم: قال: «**اليهود**» قلت: الضالين؟ قال: «**النصارى**»[٢].

وهذا من باب التمثيل باليهود والنصارى وليس من باب الحصر، وإلا فإن الآية تشمل كل مَن انطبق عليه الوصف.

وفي السيرة عن زيْد بن عَمْرو بن نُفيْل، أنه لمَّا خرج مع جماعة من أصحابه إلى الشام يطلبون الدين الحنيف، قال له اليهود: إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ نصيبك من غضب الله، فقال: أنا من غضب الله أفرُّ، وقالت له النصارى: إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ نصيبك من سخط الله، فقال: لا أستطيعه، فاستمر على فطرته مجانبًا دين المشركين وعبادة الأوثان، ولم يدخل في اليهودية ولا النصرانية.

---

(١) أخرجه الترمذي بإسناد حسن، ينظر: «جامع الأصول» حديث رقم (٤٧١) (٢/٧)، وهو في صحيح سنن الترمذي (٢٢٥٤) وفي «المسند» (١٩٣٨١) من حديث طويل فيه عبّاد بن حُبيش، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين وابن أبي حاتم (٤٠، ٤١) وابن حبان (٦٢٤٦، ٧٢٠٦).

(٢) ينظر هذا وغيره في «الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد» (١٨/٦٨)، وقد أورد الهيثمي نحوه بسند صحيح والأثر عند ابن مردويه كما في «تفسير ابن كثير» (١/٤٦) و«الدر المنثور» (١/٨٥).

والآية عامة في كل مَن غضب الله عليه، وكل من ضل وحاد عن الصواب، ومَن عرف حقيقة اليهود والنصارى حاليًا أيقن بانطباق وصف الغضب والضلال عليهم واستحقاقهم له، فاللهم اجعلنا ممن أنعمت عليهم وأبعدنا عن طريق المغضوب عليهم والضالين.

مع الفاتحة آيةً آية:

ثم يبدأ - المسلم - قراءة الفاتحة متيمنًا ومتبركًا باسم الله تعالى، الذي يبدأ باسمه جميع شؤونه، فباسمه تعالى قامتِ السمواتُ والأرض، وآثارُ صُنعه تعالى في الكون دالَّةٌ عليه سبحانه، وبيده الحول والطول، وهو جل شأنه الموصوف بالرحمة التي شَملتْ المؤمنَ والكافر، فرحمته وسعتْ كل شيء، ونعمته وسعت كل حي، وهو سبحانه الموصوف بالرحمة الخاصة بالمؤمنين، وبالرحمة العامة للخلق أجمعين، وكأنَّ المسلم يشاهد ربه وهو يُحسن إلى جميع خلقه، ويُغدِق عليهم نعمه، ومنها هذه العبادة، وهذه الرحمة هي التي تصل بين العبد وخالقه، فمنه الرحمة ومنهم العبادة، وكأنَّ المسلم يشاهد نصيبه من الرحمة، وهو قائم بين يدي ربه يدعوه ويعبده ويناجيه ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

ثم يحمد المسلم ربه على عظيم نعمه، وكريم فضله أنْ هداهُ للإسلام، ووفقَّه للإيمان، وتَفضَّل عليه بالتربية والإنعام، وهو يستشعر نعمة الله عليه، وفضله وإحسانه بقلبه وعقله، وهو وحده المستحق لكل الحمد؛ لأن نِعَمَهُ تعمُّ جميع المخلوقات ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وهذه النعم تفضُّلٌ من الله تعالى وإحسانٌ إلى خلقه، فهو سبحانه ليس إلهًا ظالمًا؛ لأنه رب العالمين وخالقهم ورازقهم، بل تقوم العلاقة بينه سبحانه وبين خلقه على الرحمة فهو جل شأنه: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

وهذه الرحمة مقرونةٌ بالعدل، فهناك الحساب والجزاء بعد الفضل والإنعام.

والمسلم يضع نُصب عينيه ما يحصل في اليوم الآخر من الأحوال والأهوال، من جزاء المحسنين، وعقاب المسيئين، فيستحضِرُ هذا المُلك القاهر، وهذا المجد العظيم الذي لا يليق إلا بالله تعالى، لا سيما يومَ يُدان الخلائق، وتعْنُو الوجوهُ لعظمته سبحانه، وتخشع الأصواتُ لجبرُوته، فلا تسمع إلا همسًا، ولا يتكلم أحدٌ إلا بإذنه، فهو سبحانه: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

فإذا قرأ العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ فإنه يقف

عند نهاية كل آية منها هُنَيْهة، وينتظر جواب الله تعالى له حين يرد عليه قائلًا: **«حمدني عبدي»** **«أثنى عليَّ عبدي»** **«مجَّدني عبدي»** وقلبُه يطير فرحًا وسرورًا بإجابة الله تعالى له، وتقرُّ عينه بمناجاته لربه، وذكر أصول أسماء الله الحسنى وصفاته العليا (الله، الرب، الرحمن).

وهذا الجزاء الأخروي يحتاج إلى بحث عن وسائل النجاة وطرقها، فيلجأ العبد إلى ربه بالعبادة، ويُقبل عليه، ويَسْتَغرِقُ في مُشاهدةِ أنواره بمناجاته لربه، وضَراعته إليه، ووقوفه بين يديه، فكأنه يرى ربَّه سبحانه، فإن لم يكن قد وصل إلى هذه الدرجة، فلْيعلمْ أن الله تعالى يراه ويطَّلِع عليه، وهى مرتبة الإحسان التي قال عنها النبي ﷺ: **«أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»** وكأنَّ الحجاب الذي بين العبد وبين ربه قد انكشف له وهو يخاطبه بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

ثم يستحضر المسلم فاقته وحاجته إلى الهداية، فهو محتاج إليها في كل طرفة عين، وهو أشد ما يكون حاجة إلى مَن يهديه سواء السبيل، فليسأل ربه الهداية من فضله، وكأنه قد أبصر طريق الإسلام الذي اشتمل على سعادة الدارين، وعليه أن يحرص على التمسك به والتزامه ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

وكأن المسلم حين يقرأ: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ يرى بعينه درجات أهل السعادة، وأصحاب الكرامة في الجنة؛ من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحين يقرأ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ كأنه ينظر إلى دركات الفاسقين والكفار في النار، ويرى بعينه عواقبهم الوخيمة ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

التأمين (آمين): وحين يفرغ المسلم من هذا الدعاء والثناء يُشرَعُ له أن يَطْبَعَهُ بالتأمين، كالخاتم عليه، موافقًا بذلك تأمين إمامه، وتأمين الملائكة الكرام؛ لِيحظى بالقبول والإجابة، فاللهم استجب (آمين).

ولفظ آمين من أسماء الأفعال، معناها: اللهم استجب، وليست من الفاتحة بالإجماع، ويستحب الإتيان بها مع رفع الصوت للإمام في الصلاة الجهرية ويندب قولها للمنفرد، ويقولها المأموم فرضًا.

(أ) في الصحيحين عن أبى هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إذا أمَّن**

الإمام فأمنوا، فإنه من وافق تأمينُه تأمينَ الملائكة غُفر له ما تقدم من ذنبه»[١].

وفيه دليل على تأمين الملائكة، وغفران الذنوب، وأن ذلك من أشد المواطن على غيظ الشيطان ودحره.

(ب) وكان النبي ﷺ يرفع صوته ويمده بها، ويُسمع مَن يليه، وكان المسجد يرتج بها[٢].

والتأمين مستحبٌّ بعد كل دعاء، فهو كالطابع على الصحيفة، وبه يُختم الدعاء، ويكون مظنة للإجابة.

(ج) وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ كان إذا تلا: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قال: آمين حتى يَسمع مَن يليه مِن الصف الأول[٣].

وقد أمنَّ ابن الزبير ومَن وراءه حتى إن للمسجد للجة[٤].

وقال عطاء: أدركت مئتين من الصحابة في هذا المسجد، إذا قال الإمام: ولا الضالين، سمعت لهم رجة آمين[٥].

(د) وعن عائشة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«ما حسدَتْكم اليهودُ على شيء ما حسدَتْكم على السلام والتأمين خلف الإمام»**[٦].

ويستحب للمأموم أن يوافق الإمام في التأمين، فلا يسبقه ولا يتأخر عنه، وينبغي على الإمام أن يرفع بها صوته حتى يُسمِع مَنْ خلفه.

---

(١) رواه الجماعة ينظر «صحيح الجامع الصغير» ج١ حديث رقم (٣٨٨) وهو في البخاري (٧٨٠، ٦٤٠٢) ومسلم (٤١٠) وأبو داود (٩٣٦) والترمذي (٢٥٠) والنسائي (٩٢٤) وابن ماجة (٨٥١) و«المسند» (٩٩٢١) ومالك (١/ ٨٧) والشافعي في «الأم» (١/ ١٠٩).

(٢) من حديث أبي هريرة في سنن ابن ماجة برقم (٨٥٣) وينظر نص الحديث الذي أخرجه الترمذي في «جامع الأصول» ج٢ حديث رقم (٤٢٨) وانظر: «المسند» (١٨٨٤٢) وأبو داود (٩٣٢) والنسائي (٩٣١).

(٣) أخرجه أبو داود بإسناد حسن، «جامع الأصول» ج٥ حديث رقم (٣٤٢٧) وأخرجه أيضًا ابن ماجة (٨٥٥).

(٤) ينظر صحته في الأحاديث الضعيفة برقم (٩٥٢).

(٥) أخرجه البيهقي بسند ضعيف، ينظر: «تمام المنة» للشيخ الألباني (١/ ١٧٩).

(٦) أخرجه أحمد وابن ماجة بإسناد صحيح، «صحيح الجامع» ج٥ رقم (٥٤٨٩) وهو في «المسند» برقم (٢٥٠٢٩) و«صحيح سنن ابن ماجة» (٨٥٦) والبيهقي في «السنن» (٢/ ٥٦) و«سنن ابن ماجة» (٩٩٧).

الْمَبْحَثُ الثَّالِثَ عَشَرَ: حُكْمُ قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ فِي الصَّلَاةِ

١- يرى جمهور العلماء أن قراءة الفاتحة في كل ركعة من ركعات الصلاة ركن من أركانها، سواء أكانت الصلاة فرضًا أم نفلًا، سرًّا أم جهرًا، وسواء أكان المصلي إمامًا أم مأمومًا أم منفردًا، فلا تصح الصلاة بدونها مع القدرة عليها؛ لأن ذلك شرط في صحتها، وإليه ذهب مالك والشافعي وأحمد.

٢- وذهب الثوري والكوفيون وأبو حنيفة إلى أن الصلاة تُجزئ بقراءة ما تيسر من القرآن؛ آية طويلة، أو ثلاث آيات قصار، أو سورة قصيرة.

٣- وذهب الحسن البصري وغيره إلى أن قراءة الفاتحة واجبة مرة واحدة في كل صلاة.

أدلة المخالفين لقول الجمهور والرد عليها:

وقد استدل أبو حنيفة ومن معه بقوله تعالى: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠] وبحديث المسيء في صلاته، وفيه أن النبي ﷺ قال له: **«ثم اقرأ ما تيسر من القرآن»**[(١)].

قالوا: وهذا يدل على أن المصلِّي يقرأ أيَّ شيء يتيسر له من القرآن، وهو مردود بأن المراد بالقراءة في الآية: هو تلاوة القرآن بعد الفاتحة بما يتيسر منه، وذلك في صلاة التهجد، كما يدل عليه أول الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ [المزمل: ٢٠]، وليس المراد قراءة الفاتحة نفسها.

أما حديث المسيئ في صلاته، فهو يشير أيضًا إلى القراءة بعد الفاتحة بما يتيسَّر من القرآن، ويوضحه ويفسره الرواية الأخرى للحديث: **«ثم اقرأ بأم القرآن»**[(٢)].

وقالوا في حديث: **«لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»** أي: لا صلاة كاملة، فهو نفيٌ للكمال، لا لحقيقة الصلاة وصحتها.

---

(١) ينظر الحديث بتمامه للشيخين وغيرهما في «جامع الأصول» ج٥ بحديث رقم (٣٥٧٨).

(٢) ينظر الحديث الذي قبله في «جامع الأصول» برقم (٣٥٧٧).

من أدلة الجمهور:

واستدل الجمهور على وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة من الصلاة بأحاديث؛ منها:

١- ما رواه الجماعة عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال: **«لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»**(١).

٢- وما رواه أحمد وابن ماجة وغيرهما عن عائشة ﵂ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج»**(٢).

٣- وعن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تُجزئ صلاة لا يُقرأ فيها بفاتحة الكتاب»**(٣).

٤- وفي الحديث عن أبى سعيد رضي الله عنه: **«أُمرنا أن نقرأ بفاتحة الكتاب وما تيسر»**(٤).

٥- وروى أبو هريرة ﵁ أن النبي ﷺ قال: **«من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج، يقولها ثلاثًا»**(٥).

٦- وعن أبي هريرة أيضًا أن النبي ﷺ أمره أن يخرج فينادي: **«لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب، فما زاد»**(٦).

---

(١) أخرجه الجماعة إلا مالكًا، ينظر: «جامع الأصول» ج٥ حديث رقم (٣٤٢٤) وهو في «المسند» برقم (٢٢٦٧٧) وفي البخاري (٢٩٩، ٧٥٦) ومسلم (٣٩٤) ومن (٣٤-٣٨) وأبو داود (٨٢٢) وابن ماجة (٨٣٧) والترمذي (٢٤٧) وابن حبان (١٧٨٢).

(٢) صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن كما في «المسند» (٢٥٠٩٩، ٢٦٣٥٦) وهو عند ابن أبي شيبة (١/ ٣٦٠) والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (١٠٨٧) وابن ماجة (٨٤٠) والطبراني في «الأوسط» (٧٤٢٢).

(٣) رواه ابن خزيمة وابن حبان وأبو حاتم، ينظر: «صحيح ابن خزيمة» (١/ ٢٤٨) بحديث رقم (٤٩٠) صحيح الإسناد.

(٤) ينظر: «جامع الأصول» ج٥ حديث رقم (٣٤٢٥) وقد أخرجه أبو داود بإسناد صحيح، ولفظ الحديث لمسلم (٣٩٥) وهو في البخاري (٧٢٢١٨-٧٥) وعند أبي داود (٨٢١) وابن ماجة (٨٣٨، ٣٧٨٤٠) والترمذي (٢٩٥٣) و«المسند» (٧٨٣٦) وابن حبان (٧٧٦).

(٥) أخرجه مسلم ومالك والترمذي والنسائي، «جامع الأصول» ج٥ حديث رقم (٣٤٢٤) وهو في «المسند» برقم (٧٤٠٦، ٩٩٣٢، ١٠٣٢١٩).

(٦) هذا لفظ أبي داود برقم (٢١٩، ٢٢٠) وعن عبادة بن الصامت (٨٢٢) بلفظ (فصاعدًا) وعن أبي سعيد (٨١٨) بلفظ (وما تيسر) وهو في «المسند» برقم (٩٥٢٩) و«صحيح سنن ابن ماجة» (٦٨٥) وابن أبي شيبة (١/ ٣٦٠) والبيهقي (٢/ ٣٧) وانظر: «جامع الأصول» حديث (٣٤٢٤).

والمراد في الأحاديث السابقة نفي حقيقة الصلاة؛ أي: أن صلاة العبد بدون قراءة سورة الفاتحة لا تصح.

٧- ويؤيد قول الجمهور حديث مسلم وغيره عن أبي قتادة أنه قال: كان رسول الله ﷺ يصلي بنا فيقرأ في الظهر والعصر في الركعتين الأُوليين بفاتحة الكتاب وسورتين، ويُسمعنا الآية أحيانًا، وكان يُطوِّل في الركعة الأولى من الظهر، ويُقصِّر في الثانية، وكذلك الصبح، وفي رواية: ويقرأ في الركعتين الأخيرتين بفاتحة الكتاب[1].

٨- ولم يثبت أن النبي ﷺ صلى ركعة واحدة، أو أيَّ صلاة بدون الفاتحة، ولا أحدًا من خلفائه، أو أصحابه وأتباعه بإحسان، رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وما دامت الأحاديث قد صحت في قراءة الفاتحة في الصلاة في كل ركعة منها، فلا مجال للخلاف في ذلك، وقد ثبت أن النبي ﷺ كان يقرأ الفاتحة في كل ركعة من ركعات الفرض والنفل، ولم يثبت خلاف ذلك، وقد قال ﷺ في حديث مالك ابن الحويرث: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»[2].

حكم من لم يحفظ الفاتحة

الأصل أن الصلاة لا تجزئ إلا بقراءة الفاتحة، فإن كان المصلي لا يحسنها، ويحسن سبع آيات غيرها من القرآن كان عليه أن يقرأها، وإن كان غيرَ عربي ولم يحفظ شيئًا من القرآن كان له أن يذكر الله تعالى قدْر الفاتحة بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير.

عن رفاعة بن رافع ﷺ: أن النبي ﷺ علَّم رجلًا الصلاة، فقال: «**إن كان معك قرآن فاقْرأ، وإلا فاحْمده وكبِّره وهلله ثم اركع**»[3].

---

(١) هذه رواية أبي داود والنسائي، انظر: رواية الشيخين وغيرهما في «جامع الأصول» ج٥ حديث رقم (٣٤٤٦) والحديث في «صحيح مسلم» برقم (٤٥١) بهذا اللفظ وفي البخاري (٧٥٩، ٧٧٦، ٧٧٩) وأبي داود (٧٩٨، ٨٠٠) وابن ماجة (٨٢٩) و«المسند» (٢٢٥٢٠) وابن حبان (١٨٢٩) و«السنن الكبرى» للنسائي (١٠٤٩).

(٢) «المسند» (٢٠٥٣١) والبخاري برقم (٦٢٨، ٦٣١، ٦٠٠٨) ومسلم برقم (٦٧٤).

(٣) ينظر الحديث بتمامه في «جامع الأصول» ج٥ برقم (٣٥٧٧).

هل يقرأ المأموم الفاتحة؟

أجمع العلماء على أن قراءة الفاتحة تسقُطُ عن المأموم إذا أدرك الإمام حال ركوعه.

أما إذا أدركه قائمًا قبل الركوع، فهل تكفيه قراءة الإمام للفاتحة أم لا بد له من قراءتها؟

(أ) ذهب الشافعي وأحمد إلى وجوب قراءة الفاتحة خلف الإمام، سواء أكانت الصلاة سرية أم جهرية، وأن صلاته لا تصح بدونها، مستدلًا بحديث عبادة بن الصامت السابق: **«لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»**.

(ب) وذهب مالك إلى أن المأموم يقرأ الفاتحة خلف الإمام في الصلاة السرية دون الجهرية، وإن تركها في الصلاة السرية فقد أساء ولا شيء عليه، واستدل بالحديث السابق، ويمنع القراءة في الصلاة الجهرية؛ لوجوب الاستماع إلى الإمام وهو يقرأ، لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

(ج) وذهب أبو حنيفة إلى أن المأموم لا يقرأ شيئًا في الصلاة السرية، ولا في الصلاة الجهرية أخذًا من الآية السابقة، ولحديث جابر: **«من كان له إمام فقراءة الإمام قراءة له»**(١).

ولحديث أبي هريرة: **«إنما جُعِلَ الإمام لِيؤْتم به؛ فإذا كبَّر فكبِّروا، وإذا قرأ فأنصتوا»**(٢).

وما عليه الجمهور مِن أن على المأموم أن يقرأ الفاتحة في الصلاة السرية والجهرية معًا هو الذي يُجمع به بين الأدلة خروجًا من الخلاف.

---

(١) حديث حسن أخرجه أحمد برقم (١٤٦٤٣) وابن ماجة عن جابر برقم (٨٥٠) وانظر: «صحيح الجامع» حديث رقم (٥٦٣٦٣/ ٣٤٤).

(٢) حديث صحيح أخرجه البخاري (٧٣٤) ومسلم (٤١٤) وأبو داود (٦٠٣) وابن ماجة (٨٤٦، ١٢٣٩) و«المسند» (٩٤٣٨) وابن حبان (٢١٠٧، ٢١١٥) والنسائي في «الكبرى» (٩٩٥، ٩٩٦) عن أبى هريرة «صحيح الجامع» رقم (١٠٤٦) (٢/ ٢٨٧).

الْمَبْحَثُ الرَّابِعَ عَشَرَ: التَّجْوِيدُ وَالْقِرَاءَاتُ وَالإِعْرَابُ فِي سُورَةِ الْفَاتِحَةِ

أولًا: من أحكام التجويد في سورة الفاتحة

١- الوقف في سورة الفاتحة: يسن للقارئ أن يقف عند رأس كل آية منها؛ لحديث أم سلمة رضي الله تعالى عنها أنها سُئلت عن قراءة رسول الله ﷺ قالت: كان يقطِّع قراءته، يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ثم يقف ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ثم يقف... الحديث.
وفي رواية أخرى قالت: «**يقطِّع قراءته آية آية**»[1].

والفاتحة سبع آيات باتفاق، فإذا عدَّ القارئ البسملة آية؛ فالآية السابعة من ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ﴾ إلى ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ وإذا لم يعد القارئ البسملة آية؛ فإن الآية السابعة هي ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، والمصحف الذي بأيدينا برواية حفص عن عاصم وِفْقَ خط المصحف الكوفي أحد المصاحف العثمانية التي أرسلها عثمان ﷺ إلى الأمصار، وهو يعدُّ البسملة آية، ويعدّ من ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ﴾ إلى آخر السورة آية.

٢- المدود في سورة الفاتحة:

(أ) في قوله تعالى ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ مدان:

المد الأول: مد لازم يُمد ست حركات، بقدْر تكرار الحرف - وهو الضاد - ست مرات، ويقال: يمدّ بقدر حركة الإصبع قبضًا أو بسطًا، ست مرات، قولًا واحدًا لجميع القراء، وهذا المد موجود في الألف التي بعد الضاد وقبل اللام المشددة، وهكذا كل مدّ لازم في القرآن.

والمد الثاني: موجود في الياء من ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ وهو مد عارض للسكون؛ لوجود (النون بعدها ساكنة للوقف) ويُمدُّ قدْر حركتين أو أربع أو ست، وكذا بقية المد العارض للسكون في القرآن.

---

(١) ينظر طرق الحديث في «جامع الأصول» ج٢ حديث رقم (٩١٩) وهو في «صحيح سنن الترمذي» من رواية ابن أبي مليكة (٢٣٣٦) وعند أبي داود والنسائي من رواية أم سلمة وفي «إرواء الغليل» (٣٤٣) و«مشكاة المصابيح» (٢٢٠٥) و«المسند» (٢٦٥٨٣) وشرح «مشكل الآثار للطحاوي» (٥٤٠٥) والدارقطني (١١٧٥).

(ب) وفي سورة الفاتحة مدود عارضة للسكون، نظرًا للوقوف عليها، وهي: نهاية كل آية في السورة، آية البسملة و﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ونهاية الآية الثالثة وما بعدها: ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ و﴿ٱلدِّينِ﴾ و﴿نَسْتَعِينُ﴾ و﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ والياء مع النون من ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، فيقف القارئ على كل رأس آية، من هذه الآيات السبع، ويمدُّها كلها بمقدار واحد، يلتزم به في قراءته كلها، حركتين أو أربعًا أو ستًا، ولا يجوز أن يَمُدَّ آية، حركتين، والثانية أربعًا، وإنما يوحِّد المدودَ في جميع الآيات، وكذلك الشأن في القرآن كله.

(ج) مدود طبيعية في سورة الفاتحة تمدُّ حركتين فقط، وهي كلمات: (الله، الرحمن، لله، إياك، وإياك، الصراط، صراط، الذين، المغضوب).

ثانيًا: ملحوظات من باب اللحن الجلي

وهناك ملحوظات مستقرأة مِن تتبع بعض مَنْ سمعناهم يقرؤون الفاتحة، منها ما يتعلق بالإعراب في الألفاظ التالية يخطئ فيها بعض العامة وهي:

١- ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ بضم الدال، فلا يكسرها القارئ ولا يفتحها.

٢- ﴿رَبِّ﴾ بكسر الباء مشددة، فلا تُفتح ولا تُضم.

٣- ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بفتح اللام الثانية، فلا تُكسر.

٤- ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بكسر النون، فلا تُضم ولا تفتح.

٥- ﴿مَٰلِكِ﴾ بكسر الكاف، فلا تفتح ولا تضم.

٦- ينبغي تشديد الياء من ﴿إِيَّاكَ﴾ ﴿وَإِيَّاكَ﴾ دون غنٍ ولا مدٍ للهمز قبلها.

٧- ﴿نَعْبُدُ﴾ بضم الباء، فلا تُفتح ولا تُكسر.

٨- ويلاحظ عدم إشباع ضمة الدال من ﴿نَعْبُدُ﴾ حتى لا يتولد منها واو في النطق، ولا تفتح الباء ولا تكسر كما يفعل بعض الناس.

٩- ﴿نَسْتَعِينُ﴾ بفتح النون الأولى، فلا تُكسر كما يفعل بعض العامة.

١٠- ﴿ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ بعض العامة يقف عليها بالنون.

١١- ويراعى فتح همزة الوصل عند البدء بها من لفظ ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ وكسرُها مِن لفظ ﴿ٱهْدِنَا﴾ مع مراعاة الشدة والجهر في الدال حتى لا تشبه التاء في النطق، وما عدا ذلك فهو لحن.

١٢- وينبغي عدم ترقيق الصاد من لفظ ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ و﴿صِرَٰطَ﴾ حتى لا تُنطق سينًا، وحفص يقرؤها بالصاد، مع مراعاة تفخيم الطاء حتى لا تختلط بالتاء.

١٣- ﴿أَنْعَمْتَ﴾ التاء مفتوحة فلا تُضم ولا تُكسر.

١٤- ويراعى عدم مد السكون الذي على الياء من ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وصلًا ولا وقفًا، وإنما تُسكَّنُ سكونًا جازمًا حال الوصل أو الوقف عليها.

١٥- والياء من لفظ ﴿غَيْرِ﴾ ساكنة والراء مكسورة، فلا يمدُّ السكون الذي في الياء، ولا يحرَّف كسر الراء.

١٦- والضاد من لفظ ﴿ٱلْمَغْضُوبِ﴾ ولفظ ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ حرف مستطيل، يمتد الصوت عند النطق به فيشمل حافة اللسان كلِّها، ويرتفع اللسان إلى سقف الحلق، ثم يُضغط عليه فينحبس الصوت، ويستغرق مُدة تُقدَّر بنصف حركة؛ للتمكن من نطقها، مع عدم الفصل بينها وبين الحرف الذي يليها، وعدم القلقلة فيها، ومراعاة الإطباق والاستعلاء فيها حتى لا تُشبه الدال أو التاء، ولا ينبغي إخراج اللسان فيها حتى لا تلتبس بالظاء، فهي من الضلال وليست من الظل ونحوه، وتُشدَّد ضاد ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ من غير غنة، ولا ركنة عليها، كما تُشدد اللام التي بعدها من غير وقف عليها ولا غنة لها.

ثالثًا: القراءات المتواترة في سورة الفاتحة: وقد وردت هذه القراءات في أربع كلمات:

الكلمة الأولى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ مَٰلِكِ..﴾

قرأ السوسي عن أبي عمرو من طريق الشاطبية، ويعقوب البصري من طريق المصباح بإدغام الميم الأولى في الثانية حال وصل الآية الثانية بالثالثة، وهي ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ويجوز المد والقصر والتوسط في الياء التي قبل الميم الأولى عند الإدغام حال الوصل، وعند الوقف عليها لجميع القراء باعتبارها رأس آية، والوقف على رؤوس الآي سُنَّة.

وقرأ بقية القرَّاء بعدم الإدغام بين الميمين وصلًا، والإظهار هو الأصل، والإدغام فرعٌ عنه طلبًا للخفة في النطق، وهما لغتان للعرب.

الكلمة الثانية: ﴿مَٰلِكِ﴾ من قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾.

قرأ عاصم والكسائي ويعقوب وخلف العاشر بإثبات ألف بعد الميم لفظًا.

وقرأ بقية القراء العشرة وهم: نافع وابن كثير وأبو عمر وابن عامر وحمزة وأبو جعفر بحذف الألف، وقد رسمت في المصحف بدون ألف لاحتمال القراءتين هكذا ﴿مَٰلِكِ﴾ والألف الصغيرة التي فوق الميم من علامات الضبط إشارة إلى قراءة الإثبات، ﴿مَٰلِكِ﴾ بإثبات الألف، صفة مشبهة؛ معناها: الرب والسيد؛ أي: قاضي يوم الدين، و﴿مَٰلِكِ﴾ بحذف الألف، أعم من ﴿مَٰلِكِ﴾ بإثبات الألف؛ لأنه قد يكون المالك غير ملك، ولا يكون الملك إلا مالكًا.

الكلمة الثالثة: ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ من ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ﴾ و﴿صِرَٰطَ﴾ من ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ﴾

قرأ قنبل عن ابن كثير ورويس عن يعقوب، بالسين فيهما، وقرأ خلف عن حمزة بإشمام الصاد صوت الزاي، بحيث يتولد منهما حرف مزدوج ليس بصاد ولا زاي؛ وهو حرف فرعي عن حروف الهجاء، وذلك في الكلمتين معًا، ووافقه (خلاد عن حمزة) في الكلمة الأولى دون الثانية، وهي لغة العرب، وقرأ بقية القرَّاء بالصاد الخالصة.

والأصل في الكلمة السين، وإنما أبدلت صادًا لأجل الطاء التي بعدها، والإشمام الذي في الصاد نظرًا للجهر والإطباق الذي في الطاء.

فقراءة السين على الأصل، وقراءة الصاد لموافقة رسم المصحف، وقراءة الإشمام لمجاورة الطاء وخفته على اللسان، والقراءات الثلاث سبعية متواترة.

الكلمة الرابعة: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ من ﴿أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ بالنسبة للهاء التي فيها قرأ بضمها وصلًا ووقفًا حمزة ويعقوب، إتباعًا لضم الميم، فالأصل فيها الضم، وقرأ بقية القرَّاء بكسر الهاء وصلًا ووقفًا؛ لمجانسة الكسرة للياء، والضم لغة قُريش والحجازيين، والكسر لغة قيس وتميم وبني سعد.

وأما بالنسبة إلى الميم: فقد قرأ ابن كثير وأبو جعفر وقالون عن نافع بخلف عنه بضم ميم الجمع حالة الوصل مع وصلها بواو لفظًا؛ لأن الأصل في الميم الضم، وقرأ بقية القرَّاء بإسكان الميم طلبًا للخفة.

وهذه القراءات يُقرأ بها تعبُّدًا وتعلُّمًا وفي الصلاة، وأن تكون القراءة لكل السورة برواية واحدة كرواية قالون أو ورش عن نافع مثلًا.

ولا يوجد في سورة الفاتحة قراءات أخرى متواترة غير ما ذكرتُ، سوى قراءات شاذة تُعْلم، ويؤخذ منها الأحكام، ووجوه اللغة، ولا يقرأ بها، وينبغي التنبيه على عدم تواترها.

رابعًا: القراءات الشاذة في سورة الفاتحة في تسع كلمات:

القراءة الشاذة هي التي لم تثبت بطريق التواتر، وإنما انفرد بنقلها أئمة القراءات الشاذة الأربعة أو أحدهم، وهم: (ابن محيص، ويحيى اليزيدي، والحسن البصري، والأعمش) وهم من أهل المئة الهجرية الثانية، كانوا أئمة في القراءات بمكة والعراق.

والشذوذ فيها ليس من جهة عدم صحتها، وإنما من جهة ثبوتها بطريق الآحاد وعدم التواتر فيها؛ ولهذا فهي تُدون في الكتب وتُعْلم، ويُحتج بها في وجوه الإعراب، ويُعمل بمعناها، ويُستنبط منها الأحكام الشرعية، وقواعد اللغة، وغير ذلك.

ولا يجوز القراءة بها تعبُّدًا، ولا في الصلاة، ويُنْكَرُ على مَن قرأ بها في الصلاة أو غيرها، وسوف نذكر القراءات الشاذة الواردة في سورة الفاتحة لمجرد العلم بها دون العمل، وقد جاءت هذه القراءات في **تسع كلمات** هي:

١-**الاستعاذة**: اختار الحسن البصري في التعوذ هذه الصيغة: (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، إن الله هو السميع العليم) مع إدغام هاء لفظ الجلالة الأخير في هاء (هو) بعدها.

واختار الأعمش هذه الصيغة: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، إن الله هو السميع العليم) وورد عنه الإدغام والإظهار في الهاءين السابق ذكرهما (إن الله هو) وقد جاءت الصيغتان في الأحاديث النبوية الصحيحة.

٢-**البسملة**: ويثبِت الحسن البصري البسملة في أول الفاتحة فقط، ويتركها في غيرها، لا فرق عنده بين أوائل السور وأواسطها، فهي عنده آية من الفاتحة فقط، وللتبرك وُضِعت في أول بقية السور، وهذا موافق لبعض القراءات المتواترة.

٣- ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ قرأ الحسن بكسر الدال حيث وقع في القرآن على الإتباع؛ أي: أن الحرف الأول وهو الدال تابع للحرف الثاني وهو اللام الأولى من لفظ الجلالة، على الإتباع؛ للتجانس بينهما، وهي لغة، وجمهور القرَّاء برفع الدال على الابتداء والخبر.

٤- ﴿مَٰلِكِ﴾ قرأ الأعمش بإثبات الألف ونصب الكاف، على أنه نعت مقطوع، أو منادى حُذف منه حرفُ النداء، كأنه قال: أمدح مالك، أو يا مالك.

٥- ﴿نَعْبُدُ﴾ قرأ الحسن (يُعبَد) بياء مضمومة بدل النون وباء مفتوحة على البناء للمجهول، والأصل: أنت تُعبد، على الالتفات.

٦- ﴿نَسْتَعِينُ﴾ قرأ المطوعي عن الأعمش بكسر النون، وهو لغة تميم وهذيل وأسد وربيعة.

٧- ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ قرأ الحسن (صراطا) بالتنكير.

٨- ﴿غَيْرِ﴾ قرأ ابن محيصن بنصب الراء، على أن (غيرَ) حال من الضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أو معمول لمحذوف تقديره (أعني) أو نحوه.

٩- ﴿عَلَيْهِمْ﴾ قرأ الحسن بصلة ميم الجمع بياء؛ لمناسبة الكسر الذي قبلها، وكذا في كل القرآن عنده، وهو يصل الميم بواو إن كان قبلها ضم للمناسبة أيضًا نحو (أنفسهمُ)، فهو يتبع الميم لما قبلها كسرًا أو ضمًا[1]

خَامِسًا: إِعْرَابُ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ

﴿بِسْمِ﴾ الباء حرف جر زائد، وقال الكسائي: لا موضع لها من الإعراب.

(اسم) مجرور بالباء، عند القرَّاء والكوفيين، والجار والمجرور من ﴿بِسْمِ﴾ في موضع نصب بالفعل المحذوف، على معنى: ابتدأتُ باسم الله، أو: أبدأ بسم الله، وعند البصريين أن الباء وما بعدها من ﴿بِسْمِ﴾ في موضع رفع بالمبتدأ المحذوف، والجار والمجرور خبره، والتقدير: ابتدائي كائن باسم الله، فالباء متعلقة بالكون والاستقرار؛

---

(١) ينظر فيما سبق البنا الدمياطي «إتحاف فضلاء البشر» سورة الفاتحة، والقراءات الشاذة للشيخ عبد الفتاح القاضي، وهناك قراءات شاذة أخرى ذكرها أبو البقاء العكبري في كتابه «تعليل القراءات الشاذة» وهو مخطوط عرف به الدكتور على حسين البواب في مجلة كلية اللغة العربية في العدد الثاني عشر سنة ١٤١٢هـ.

أي: متعلقة بمحذوف عندهما.

وقد حذفت الألف التي بين الباء والسين من اللفظ؛ لأنها ألف وصل، وأصلها هكذا (باسم) وحذفت من الخط لكثرة استعمالها؛ لأن الباء لا تنفصل عن الحرف الذي بعدها، أو لأنها ليست من اللفظ، أو لأن الأصل (سِم) بكسر السين، أو (سُم) بضم السين، ثم جيء بالباء، وحذفت الكسرة، فصارت ﴿بِسْمِ﴾ وهو لغةٌ فيها، وعلى هذا القول الأخير؛ فإن ﴿بِسْمِ﴾ ليس فيها ألف أصلًا، وتثبت الألف في غير هذا اللفظ بالذات، كقولك (باسم ربك) أو (لاسم الله بركة).

﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ ﴿بِسْمِ﴾ مضاف، ولفظ الجلالة ﴿اللَّهِ﴾ مضاف إليه.

ولفظ (اسم) من التسمية، والتسمية معناها: التلفظ بالاسم، الذي هو لفظ الجلالة، والألف من ﴿اللَّهِ﴾ ألف وصل، ومن العرب مَن يقطعها للزومها.

وأصلها (الإله) مصدر في موضع المفعول، أي: المألُوه، وهو المعبود؛ لأنه من أَلِه يأْلَهُ، إذا عُبدَ، وقيل: أصل الهمزة واو؛ لأن الإله تتولَّه له القلوب؛ أي: تتحير.

﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ صفة للفظ الجلالة، لا يُثنَّى ولا يُجمع، فأدغمت اللام في الراء؛ لأنهما حرفان متقاربان في المخرج، ولكثرة دوران لام التعريف.

﴿الرَّحِيمِ﴾ نعت أيضًا، وجمعه (رحماء) فهما صفتان مشتقتان من الرحمة، إلا أن الأول أبلغ من الثاني، وهما مجروران على الصفة، وحذفت الألف التي بعد الميم؛ لكثرة استعمالها. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ﴿الْحَمْدُ﴾ مرفوع على الابتداء.

﴿لِلَّهِ﴾ جار ومجرور، متعلق بمحذوف تقديره: الحمد واجب أو ثابت لله، وهو في محل رفع خبر للمبتدأ، الذي هو ﴿الْحَمْدُ﴾.

﴿رَبِّ﴾ مجرور على أنها صفة، أو بدل مع لفظ الجلالةِ، والرب مصدر، ثم جعل صفة.

﴿الْعَالَمِينَ﴾ مخفوض بالإضافة، والياء علامة على الخفض، وهو جمع عالَم، بفتح اللام، مشتق من العلامة عند مَن جعله لجميع الخلائق، أو هو جمع عالِم بكسر اللام مشتق من العلم عند من جعله لمن يعقل.

﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ صفتان للفظ ﴿رَبِّ﴾ وصفة المجرور مجرور.

﴿مَلِكِ﴾ بدون ألف، مجرور على أنه صفة أو بدل من لفظ الجلالة ﴿اللَّهِ﴾ وهو مضاف و ﴿يَوْمِ﴾ مضاف إليه، وقرئ ﴿مَٰلِكِ﴾ بألف بعد الميم، اسم فاعل؛ فيكون مجرورًا على البدل لا على الصفة؛ لأن المعرفة لا توصف بالنكرة، ولفظ ﴿مَٰلِكِ﴾ نكرة، وفي الكلام مفعول محذوف، تقديره: مالك أمر يوم الدين، أو مالك يوم الدين الأمر.

و﴿مَٰلِكِ﴾ مضاف وليس ظرفًا؛ لأنه لا يصح فيه تقدير (في). و﴿ٱلدِّينِ﴾ مضاف إليه.

و ﴿إِيَّاكَ﴾ مفعول مقدم على الفعل والفاعل، وهو منصوب بـ ﴿نَعْبُدُ﴾ بعدها.

و (إيا) عند الخليل وسيبويه اسم مضمر، و(الكاف) حرف خطاب عند سيبويه لا موضعَ لها، ولا تكون اسمًا، وعند الخليل اسم مضمر أُضيفت (إيا) إليه.

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الواو حرف عطف، وما بعدها معطوف على ما قبلها.

﴿ٱهْدِنَا﴾ فعل بلفظ الأمر، و (نا) في محل نصب ومعناه: الدعاء والطلب؛ لأنه صادرٌ مِن أدنى إلى أعلى، وهو مجزوم، وفعل الأمر مبنى على السكون عند البصريين، ومعرب عند الكوفيين مجزوم بحذف الياء، فأصله هدى، والنون والألف مفعول أول لهدى.

﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ مفعول ثانٍ لهدى. ﴿صِرَٰطَ﴾ بدل من الصراط.

﴿ٱلَّذِينَ﴾ في موضع خفض بالإضافة، وهو اسم موصول مبني، صلته ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ والعائد الهاء والميم. ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ داخل في الصلة، فهو صلة الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ والهاء والميم يعودان على ﴿ٱلَّذِينَ﴾، ﴿غَيْرِ﴾ مجرور على أنه بدل من ﴿ٱلَّذِينَ﴾ أو نعت له، أو بدل من الهاء والميم في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ و﴿غَيْرِ﴾ مضاف، و ﴿ٱلْمَغْضُوبِ﴾ مضاف إليه.

﴿عَلَيْهِمْ﴾ في موضع رفع؛ لأنه اسم ما لم يُسم فاعلُه، والواو بعدها حرف عطف، و﴿لَا﴾ زائدة للتوكيد عند البصريين، أو بمعنى غير عند الكوفيين.

﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ عطف على ما قبله.

(آمين) اسم فعل بمعنى: اللهم استجب، وهو مبني، وحُرك بالفتح لوقوع الياء قبل آخره، كما فتحت أين[1]

---

(١) الإعراب مقتبس من كتاب: «إملاء ما مَنَّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن» على هامش حاشية الجمل، لأبى البقاء بن الحسن العكبري ج١ سورة الفاتحة.

الْمَبْحَثُ الْخَامِسَ عَشَرَ: فِي رِحَابِ الصَّلاةِ مِنَ التَّكْبِيرِ إِلَى التَّسْلِيمِ

١- **تمهيد**: الصلاة عماد الدين، وركنه المتين، والمسلم مطالَبٌ بتدبُّر سورة الفاتحة في تلاوته بصفة عامة، وفي صلاته بصفة خاصة، فلا يليق بالمسلم أن يقف بين يدي الله تعالى ويأتي بأفعال وأقوال لا يحاول فَهْم معناها، ولا يليق به أن يناجيَ ربه في صلاته بكلام لا يدرك معناه، وقد أمر سبحانه بتدبُّر القرآن وحضَّ عليه في قوله تعالى:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

ولو وقف الإنسان بين يدي مسؤول من الخلق، وشرد عنه بذهنه وهو يحادثه؛ لكان ذلك جُرمًا كبيرًا يُعاقَبُ عليه، فكيف به وهو واقف بين يدي رب العباد، وملك الملوك، وهو سبحانه يُجيب عبْدَه حال قراءته للفاتحة: **«حمدني عبدي» «أثنى عليَّ عبدي» «مجَّدني عبدي»، «هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل»**.

وعدم تدبر القرآن نوعٌ مِن هَجْرِهِ، وقد شكا الرسول ﷺ إلى ربه عدم تدبر أمته للقرآن، وهجرهم له، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

ولا ينبغي للقارئ أن يصرفه عن التأمل والتدبر؛ انشغالُه بتحسين القراءة، والحرص على أداء الحروف والألفاظ، والمبالغة في ذلك.

وتحسين الصوت بالقراءة أمرٌ مطلوب، رغَّب الإسلام فيه، وحث عليه، وهو يُعينُ على الخشوع والخضوع، ولكن الذي لا ينبغي هو صرف الهمة إلى الألفاظ، والمبالغة فيها، وانشغال القلب بها أكثر من انشغاله بالمعنى، فيصرفه هذا التكلف عن تدبر المعاني، وفِقه الآيات، وفَهم مقاصدها وأهدافها.

وقد مدح - سبحانه - الخاشعين في صلاتهم، وبيَّن أن الخشوع في الصلاة من صفات المؤمنين الذين فازوا بالفلاح يوم القيامة، فقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ﴾ [المؤمنين: ١، ٢] فكان الخشوع في الصلاة هو أول صفاتهم وأخصها.

ومما يعين على الخشوع في الصلاة، تدبر قراءة سورة الفاتحة، وما يقرأه المسلم

أو يستمع إليه في الصلاة من القرآن الكريم، وتأمله له بوعي وإدراك وإقبال على الله تعالى، والتأمل أيضًا في أفعال الصلاة من قيام وركوع وسجود واعتدال، وكذا ما يقرؤه المسلم بعد ذلك من أذكار.

إنَّ فَهْمَ سورة الفاتحة، وتحليل ألفاظها، ومعرفة مقاصدها وأهدافها يُعينُ على الخشوع في الصلاة، وعلى دعم الصلة بين العبد وربه، وصدق العروج إليه سبحانه بالقلب والروح آناء الليل وأطراف النهار في الصلوات الخمس.

٢- الله أكبر: يقف المسلم بين يدي الله تبارك وتعالى متطهِرًا، مستقبلًا القِبلة مستحضرًا عظمة الله تعالى، كأنه يستقبل وجهه الكريم، ناويًا في قلبه أداء فرضه أو نافلته، بادئًا صلاته بالتكبير، مستشعِرًا بأن الله تعالى أكبرُ من كل شيء في الوجود، أكبر من الدنيا وما فيها وما عليها، أكبر من المال والبنين، أكبر من المنصب والجاه، يقف بين يدي ربه يدعوه ويناجيه ويخاطبه، فلا يليق أن يُشغَل عنه بغيره، ولا أن يفكر فيما سواه.

والتكبير من العبد إقرار لله تعالى بالكبرياء والعظمة، وبراءة للمصلي من صفة الكبر، حتى لا ينازع ربه صفة من صفاته، وحتى يتحلى بصفة التواضع، وإذا تواضع العبد لله رفعه؛ لأنه صار في مقام العبودية، وهو سبحانه يحب المتواضعين، ولا يحب المستكبرين.

٣- دعاء الاستفتاح: يستفتح المؤمن صلاته بالثناء على الله تعالى، وتوجيه وجهه إليه سبحانه، متبرئًا من الشرك وأهله، سائلًا ربه التوبة وغفران الذنوب، ومقرًّا بأن حياته ومماته وصلاته ونُسُكَه لله وحده لا شريك له، متوجهًا بجسمه وعقله وقلبه إلى خالق هذا الكون ومبدِعِه، فاطر السموات والأرض، فهو وحده المستحق للعبادة دون سواه، وكأنَّ المسلم حين يقرأ دعاء الاستفتاح، يشاهد ربه بقلبه، وينزِّهه عن جميع النقائص، ويقر باستحقاقه للحمد والثناء كله، فهو الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء، تعالى جَدُّه، وارتفعت عظمته فوق كل شيء، سبحانه أن يكون له شريك في ملكه، أو في إلهيته وربوبيته، أو أفعاله وصفاته، فإليه وجهتُ وجهي، ومنه وحده أطلب غفران ذنبي.

ومن أدعية استفتاح الصلاة:

(أ) اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدتَ بين المشرق والمغرب، اللهم نقِّني من خطاياي

كما يُنقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسلني من خطاياي بالثلج والماء والبَرَد[١].

(ب) وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمتُ نفسي، واعترفتُ بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعًا، إنه لا يغفر الذنوبَ إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنِها إلا أنت، واصرف عني سيئَها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك، وأنا بك وإليك، تباركتَ وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك[٢].

(ج) سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جَدُّك، ولا إله غيرك[٣].

٤- الاستعاذة: ثم يَعتصِمُ المسلم بجانب الله تعالى من كيد الشيطان ومكره، ويستجيرُ به من همزه ونفخه ونفثه، مُقرًّا ومعترفًا بعداوته له، وبعجزه وضعفه أمام حِيَله ووساوسه، ويُعلن أنه باستعاذته بالله تعالى يأوي إلى ركن شديد، ويعتصم بحول الله تعالى وقوته من عَدُوِّه اللدود الذي يريد أن يقطع الصلة بينه وبين ربه (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم).

٥- التسبيح في الصلاة: وفي التسبيح أثناء الركوع والسجود إقبالٌ على الله تعالى، وتنزيهٌ له سبحانه، وتقديسٌ لعظمته، واقترابٌ من ساحة رضوانه ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩] ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤] ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١].

وفي الدعاء بين السجدتين وبعد الركوع تعبدٌ وتضرع وخشية وإنابة، وقد خُصَّ القيام

(١) أخرجه البخاري (٧٤٤) ومسلم (٥٩٨) وأبو داود (٧٨١) والنسائي في «الكبرى» (٩٧٠، ٧١، ٦٠) وابن ماجة (٨٠٥) و«المسند» (٧١٦٤) وابن حبان (١٧٧٦) كلهم عن أبى هريرة، وانظر: «جامع الأصول» حديث رقم (٢١٤٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٠١، ٧٧١) والنسائي في «الكبرى» (٩٧٣) وأبو داود (٧٤٤) والترمذي (٢٦٦) عن علي بن أبي طالب ومحمد بن سلمة، وانظر: «جامع الأصول» حديث رقم (٢١٥١) وهو في ابن ماجة (٨٦٤) و«المسند» (٨٠٢) وابن حبان (١٧٧١) والبخاري في جزء رفع اليدين (١، ٩).

(٣) من حديث أبي سعيد الخدري أخرجه الترمذي (٢٤٢) وأبو داود (٧٧٥) وابن ماجة (٨٠٤) و«المسند» (١١٤٧٢) وهو حديث ضعيف كما سبق بيانه في المبحث الرابع وانظر: «جامع الأصول» ج٤ حديث رقم (٢١٥٢) وينظر حديث رقم (٢١٨٨).

بالقراءة، والركوع والسجود بالذكر والتسبيح، حال انخفاض المسلم وخضوعه وخشوعه مع وصف الله تبارك وتعالى بالعظمة والعلُوِّ، وهو يضاد الكبر ويعالجه.

٦- **التشهد**: كان الناس في الجاهلية يُحيُّون ملوكهم وأكابرهم بأنواع من التحيات المختلفة من تقبيل للأرض، أو سجود، أو قيام، أو ركوع، أو انحناء، أو تسليم مع تعظيم، كما نرى ذلك بين يدي بعض الملوك والرؤساء؛ وكان بعضهم يقول: أنعِم صباحًا، أو لك البقاء والنعمة، أو أطال الله بقاءك، أو تعش ألف عام.

قال الحسن: كان أهل الجاهلية يتمسحون بأصنامهم ويقولون: لك الحياة الطيبة، فلما جاء الإسلام أمر أن يجعلوا أطيب التحيات وأزكاها وأفضلها لله تعالى، فقد ألغى الإسلام جميع أنواع التحيات التي كانت تُحَيَّا بها ملوك الأرض وأصنامها، وجمع الإسلام كل هذه التحيات ونحوها لله تعالى خاصة، وأمر أبناءه أن يتوجهوا بها إلى الحي القيوم، فهو وحده المستحق لجميع التحيات والتعظيمات، ولجميع ما يُحيِّي به البشر عظماءهم وملوكهم، ومن عجب أن يبقى شيء من رواسب الجاهلية يُعظَّم به بعض الملوك والحكام إلى وقتنا هذا..!!

وهذه التحيات هي التي حيَّا بها الرسول ربه ليلة الإسراء والعروج حيث قال: «**التحيات لله والصلوات والطيبات**»، وقد أُمر المسلم أن يقرأ هذه التحيات حين يَعرُجُ إلى ربه في صلاته، أي: أن التحيات بجميع ألوانها مستحَقَّةٌ لله وحده، فهو الحي الدائم الذي لا يزول ملكُه، خالق الخلق وموجدهم من العدم.

والصلوات: بأقوالها وأفعالها وأذكارها ودعائها يُراد بها تعظيم الله تعالى، فهو وحده المستحق لها، والصلاة لغيره كفر وشرك.

والطيبات: من الأقوال والأفعال والصفات والأسماء، وكل ما يُثنَى به على الله تعالى، وكل ما طاب من الكلمات والأعمال، لا يليق إلا بجلال الله سبحانه، حيث لا يُعبد إلا الله، ولا يُثنَى إلا على الله، فهو سبحانه طيب، لا يقبل إلا طيبًا، ولا يَصدر منه إلا الطيب، ولا يَصعد إليه إلا طيب.

كل ذلك مستحَق لله وحده، ولا يليق بغيره سبحانه، والمصلي يجلس بين يدي ربه جِلسة الراغب الراهب، يسأل ربه ما لا غنى له عنه، ويقدِّم التحيات بين يدي سؤاله،

ويتوسل إلى الله بعبادته والثناء عليه، والشهادة له وحده بالوحدانية، ولرسوله بالرسالة، ثم يُتبع ذلك بالصلاة على مَن نالت أمته هذه النعمة على يديه، ثم الصلاة على آله تكميلًا لقرة عينه، وهي أفضل صيغ الصلاة على الرسول، ثم يثنّي فيصلي على أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام وآله.

٧- **السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته**: السلام من أنواع التحيات، وقد شُرع للمسلم أن يبدأ بالسلام على أشرف خلق الله وأحبهم إليه، وأقربهم منه منزلة، وهو تنزيهٌ للنبي ﷺ حيًّا وميتًا من جميع النقائص، ودعاءٌ له بالرحمة، وثناءٌ عليه، وتعظيمٌ له.

والمسلم يستحضر في قلبه وهو يتشهد، عظمة الله عز وجل وهو يقف بين يديه، كأنه يراه، وهو الذي أرسل إليه نبيه محمدًا الذي يسلم عليه في صلاته ويقول: (السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته)، وفي ذلك استحضار وترديد ومحاكاة لما حيَّا الله تعالى به رسوله ليلة العروج، والعبدُ وهو يصلي يعرج إلى ربه في صلاته ويخاطبه ويناجيه، ويقوم في حضرته بين يديه صباحًا ومساءً، وهو يردد هذه الصيغة التي حيَّا الله تعالى بها رسوله.

وقد رد النبي ﷺ تحية ربه بقوله: (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين)، وهو دعاء بالوقاية والسلامة من جميع الآفات والنقائص، ودعاء يصيب كلَّ عبدٍ صالحٍ في السموات والأرض إلى يوم القيامة.

وكان الناس في الجاهلية يقولون: السلام على الله من عباده، فنهُوا عن ذلك، قال ابن مسعود: كنا نقول في الصلاة خلف رسول الله ﷺ: السلام على الله، السلام على فلان، فقال لنا رسول الله ﷺ ذات يوم: «**إن الله هو السلام، فإذا قعد أحدكم في الصلاة فليقل: التحيات لله، والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله**»[1].

وأمر أن يستبدلوا ذلك بهذه العبارة: (السلام علينا وعلى عباده الصالحين) وكأننا لَمَّا بدأنا بالتحيات لله أراد سبحانه أن يرد علينا بالتحية، ولَمَّا لم يكن في مقدورنا أن نسمع كلام الله تعالى، فقد أجرى رد التحية على لساننا: (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين).

---

(١) مسلم (١/٣٠١) برقم (٤٠٢) والبخاري برقم (٨٣١، ١٢٠٢، ٦٣٢٨) وأبو داود (٩٦٨،٩٦٩) وابن ماجة (٨٩٩) و«المسند» (٣٦٢٢) وابن حبان (١٩٤٨، ١٩٤٩).

وفي النطق بالشهادتين في التشهد أثناء الصلاة إقرارٌ بالتوحيد والرسالة، وتجديدٌ للعهد مع الله تعالى على الإيمان به، والاستمرار على العمل بشريعته، واتباع هدي رسوله، وفيه تعظيم للنبي ﷺ، وإظهار دينه، كما عظم إبراهيم أبو الأنبياء ورسالته، فالمصلي يطلب من ربه أن يكون محمودًا محبوبًا مباركًا كما هو الشأن في أبيه إبراهيم.

٨- **الدعاء في نهاية التشهد**: ثم يذكر العبد ربه في نهاية الصلاة بما شرعه له من الأدعية في نهاية التشهد؛ كما قال ﷺ: «**اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من عذاب جهنم، ومن فتنة المحيا والممات، وفتنة المسيح الدجال**»(١).

وبعد الاستعاذة بالله تعالى من أسباب الفتن ومجامع الشر يتخير العبد من أحب الدعاء له ولوالديه وجميع المؤمنين، ثم يُسلِّم على الملائكة ومن معه من المؤمنين، ويلتفت يمينًا وشمالًا.

٩- **الذكر بعد الصلاة**: ثم يُقبل العبد على الدنيا من جديد، بعد الفراغ من صلاته ذاكرًا ربه بما شرعه له من الاستغفار والثناء، وأنه وحده المعطي المانع، وأن الإنسان لا ينفعه نسبه وحسبه أو غناه وجاهه، ثم يسبِّح الله ثلاثًا وثلاثين، ويحمده ثلاثًا وثلاثين، ويكبِّره ثلاثًا وثلاثين ويقول تمام المائة: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، ويقرأ آية الكرسي والمعوذات

وفي صلاتي الفجر والمغرب يزيد المسلم على هذه الأذكار: (لا إله الا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد يحي ويميت وهو على كل شيء قدير) عشر مرات.

وبعد: فهذه مباحثُ خمسة عشر، خُصت بها سورة الفاتحة، وتناولتْ جميع ما يتعلق بجوانبها المختلفة، أسأل الله تعالى أن ينفع بها، وأن يغفر لي ما كان من نقص أو خلل، وألا يحرمني الأجر والمثوبة على ما بذلْتُه من جهد المقل، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تمت مباحث سورة الفاتحة وملحقاتها ولله الحمد والمنة.

---

(١) من حديث أبي هريرة في مسلم (٥٨٨) وأبي داود (٩٨٣) وابن ماجة (٩٠٩).

تَفْسِيرُ سُورَةِ البَقَرَةِ (٢)

أ- فِي فَضْلِ سُورَة البَقَرَةِ

١- وسورة البقرة هي سَنام القرآن، ومن الأحاديث الواردة في فضلها، ما جاء في صحيح مسلم وغيره من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«اقرؤوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه، اقرؤوا الزهْراويْن: البقرة وسورة آل عمران؛ فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فِرْقان من طير صَوَافّ، تُحاجَّان عن أصحابهما، اقرؤوا سورة البقرة؛ فإنّ أخْذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البَطلة»**[1].

والغياية: كل شيء أظلك فوق رأسك كالسحابة، **والزهراء**: النيِّرة المضيئة، **والغمامة**: السحابة **والفِرْقانِ**: بكسر الفاء، القطيعان أو الجماعتان **والبطلة**: هم السحرة، سُمُّوا بطلة: لأن ما يأتون به باطل، فسمُّوا بطلة باسم عملهم، **وصواف**: أي مصطفة متضامنة.

وسورة البقرة فيها إبطالٌ للسحر، وفيها بيان أن تعليمه وتعلُّمه كُفر، وفيها إبطالٌ للعين أيضًا، ولا يستطيع السحرة أن يفعلوا شيئًا في البيت الذي يُداوَم فيه على تلاوة سورة البقرة، كل ثلاثة أيام.

٢- وفي حديث بريدة رضي الله عنه مرفوعًا قال: كنت جالسًا عند النبي ﷺ فسمعته يقول: **«تعلَّموا سورة البقرة وآل عمران فإنهما الزهراوان، تُظلان صاحبهما يوم القيامة، كأنهما غمامتان»**[2].

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٨٠٤) و«المسند» برقم (٢٢١٤٦) وابن حبان (١١٦) والطبراني (٧٥٤٢) والحاكم (١/ ٥٦٤) والبيهقي (٣٩٥١٢).

(٢) أحمد (٥/ ٣٥٢) برقم (٢٢٩٥٠) بإسناد حسن، من حديث طويل، والدارمي في «فضائل القرآن» (٢/ ٤٥٠) وصححه الحاكم (١/ ٥٦٠) على شرط مسلم ووافقه الذهبي من حديث بريدة، ولفظه بزيادة (أوغيايتان، أو فِرقان من طير صواف) وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٤٦٦) حسن صحيح، وأخرجه البغوي في شرح السنة (١١٩٠٠) والتفسير (١/ ٣٣).

ففي الحديث بيان أنهما يُظلان قارئهما يوم تدنوا الشمس من الرؤوس، ويوم لا ظل إلا ظل الله تبارك وتعالى، كما في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظلة.

٣- وفي الحديث عن النواس بن سمعان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«يُؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهلِه الذين كانوا يعملون به، تَقْدُمُهُ سورة البقرة وآل عمران كأنهما غمامتان، أو ظُلَّتان سوْداوان تُحاجَّان عن صاحبهما»**[١].

ومن فضل سورة البقرة أنها تطرد الشياطين من البيت الذي تُقْرَأ فيه، وحدَّدتْ بعض الأحاديث طردْ الشياطين، بثلاثة أيام تُقْرَأ فيها سورة البقرة في البيت، كما في الحديث الآتي، كي يعاود المسلم قراءتها في بيته بين الحين والآخر، كل ثلاثة أيام.

٤- ففي صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة ﷺ أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: **«لا تجعلوا بيوتكم مقابر؛ فإن الشيطان ينفر من البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة»**.

ولفظ الترمذي **«وإن البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله شيطان»**[٢].

وجَعْلُ البيوت كالقبور، يكون أيضًا بترك صلاة النوافل فيها، وبترك قراءة القرآن فيها، وتعميرُها يكون بقراءة القرآن وبالصلاة فيها، إن الشيطان لا يدخل البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة.

ومن يحفظ سورة البقرة فهو أمير القوم ولو كان أصغرهم، وقد أمّر النبي ﷺ صغير السن الذي يحفظ سورة البقرة، على كبار القوم، وكان ﷺ يُقَدِّمه على غيره في صلاة الجنازة، والقرآن يشفع لقارئه يوم القيامة.

والملائكة تشارك المسلم في الاستماع للقرآن، والدواب تخشع وتهتز حين تُقرأ سورة البقرة:

٥- فقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما ما معناه: أن (أُسَيد بنَ حُضيْر) كان يقرأ سورة

---

(١) ينظر الحديث في «صحيح مسلم» (٨٠٥) والترمذي (٢٨٨٣) وأحمد (٤/ ١٨٣) برقم (١٧٦٣٧) والترمذي (٢٨٨٣).

(٢) أخرجه مسلم عن أبى هريرة برقم (٧٨٠) في صلاة المسافرين والترمذي في «فضائل القرآن» برقم (٢٨٧٧) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (٨٠١٥) وأحمد (٧٨٢١) وغيرهم، وهو في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٤٥٨).

البقرة في الليل، وكانت عنده فرسٌ مربوطة، كلما قرأ جالت الفرس وتحركت، فإذا سكتَ سكنتْ، وكان ابنه (يحيى) قريبًا منها، فخاف على نفسه أن تطأه الفرس، فابتعد عنها، فرفع (أُسيْدٌ) رأسه إلى السماء، فإذا مثل الظُلَّة فوق رأسه، فيها أمثال المصابيح، وعرجت الفرس في الجوِّ ولم يرها، فلما أصبح (أسيدٌ) حدَّث النبي ﷺ بما حصل، فقال له النبي ﷺ **«أوتدْري ما ذاك؟»** قال: لا، قال: **«تلك الملائكة دنتْ لصوتك، ولو قرأتَ لأصبحتْ ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم»**[(١)].

فهؤلاء هم الملائكة المكرمون يقتربون من (أُسيد) يستمعون لسورة البقرة.

وهذه هي الحيوانات تخشعُ وتتأثر وتهتزُّ لسماع القرآن، كما أن الجبال تتصدَّعُ من خشية الله تعالى، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر ٢١] فما بالكم بالإنسان وما أودع الله فيه من عقل وفكر؟!

٦- وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ **«إن لكل شيء سنامًا وإن سنام القرآن سورة البقرة»**[(٢)]

٧- وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: **«إن الله كتب كتابًا قبل أن يخلق السموات والأرض بألفيْ عام، أنزل منه آيتين خَتم بهما سورة (البقرة) لا يُقرآن في دار ثلاث ليال فيقربُها شيطان»**[(٣)]

---

(١) ينظر النص في «صحيح البخاري» معلَّقا برقم (٥٠١٨) و«المسند» (٣/ ٨١) و«صحيح مسلم» (٧٩٥، ٧٩٦) والنسائي في «فضائل الصحابة» برقم (١٤٠) وفي «الكبرى» (٨٠١٦، ٨٢٤٤) والطبراني في «المعجم الكبير» برقم (٥٦١) وما بعده، وابن حبان (٧٧٦) و«المستدرك» (١/ ٥٥٤) ولهذا الحديث ألفاظ وهو في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٤٦٤).

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه، ورواه الترمذي عن حكيم بن جبير عن أبي صالح عن أبي هريرة وقال: حديث غريب، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٤٦١- ١٤٦٢) حسن لغيره.

(٣) رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب والنسائي وابن حبان والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٤٦٧).

ب - مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة البقرة هي السورة الثانية في ترتيب المصحف، والسابعة والثمانون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة المطففين وقبل سورة آل عمران.

وسورة البقرة أطول سورة في كتاب الله عز وجل، فهي جزءان ونصف الجزء وهي أول ما نزل بالمدينة.

ابتدأ نزولها بعد الهجرة، وظل مفتوحًا حتى نزلت آخر آية في القرآن، وفيها أطول آية في القرآن الكريم، وهي آية المداينة، وفيها أفضل آية في كتاب الله جلَّ شأنه، هي آية الكرسي، وسورة البقرة ست وثمانون ومئتا آية في المصحف الكوفي الذي بين أيدينا، وَفق رواية حفص عن عاصم[١].

وكلماتها: ستة آلاف ومئة وإحدى وعشرون كلمة، وحروفها: خمسة وعشرون ألفا، وخمس مئة حرف.

وسُمِّيت (سورة البقرة) لذكر قصة البقرة فيها.

وفي حديث عبد الرحمن بن زيد أن ناسًا كانوا يكرهون أن يقولوا: سورة البقرة، وآل عمران، حتى يقولوا: السورة التي يُذكر فيها البقرة، والسورة التي يذكر فيها آل عمران، فسمعوا عبد الله بن مسعود وهو يرمي الجمرات مستقبل الكعبة يقول: والذي لا إله غيره، رمى الذي أُنزِلتْ عليه سورة البقرة[٢].

وما ورد في ذلك عن أنس رضي الله عنه: لا تقولوا سورة البقرة، ولكن قولوا: السورة

---

(١) وسبع وثمانون ومئتا آية في المصحف البصري، وخمس وثمانون ومئتا آية في بقية المصاحف وهي: المدني الأول، والمدني الأخير، والمكي، والشامي، وهي المصاحف التي أرسلها عثمان ﷺ إلى الأمصار، وسبب هذا الاختلاف: أن النبي ﷺ وقف على آيات دائمًا، ووصل كلمات دائمًا، فلم يختلف في الوقف على الأول ووصل الثاني، وهناك آيات وقف عليها النبي ﷺ مرة ووصلها مرة، فأخذ بعضهم بالأول، وأخذ الآخرون بالثاني.

(٢) الحديث أخرجه أحمد في «المسند» (٤٠٨٩، ٤١١٧) والبخاري (١٧٤٧، ١٧٥٠) ومسلم (١٢٩٦) وأبو داود (١٩٧٤) والترمذي (٩٠١) والنسائي (٣٠٧١) وابن ماجه (٣٠٣٠).

التي يُذكر فيها البقرة، فهو أثر ضعيف[١].

وقد صحَّ ذكر اسم السورة مباشرةً في كثير من الأحاديث، منها حديث عوف بن مالك الأشجعي، قال: قمت مع رسول الله ﷺ ليلةً فقام، فقرأ سورة البقرة؛ لا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوَّذ، ثم ركع بقدر قيامه، يقول في ركوعه: **«سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة»** ثم سجد بقدر قيامه، ثم قال في سجوده مثل ذلك، ثم قام فقرأ بـ (آل عمران) ثم قرأ سورة سورة[٢].

وهي سورة مدنية بالإجماع، ابتدأ نزولها على رسول الله ﷺ بعد الهجرة النبوية، بعدما أُقيمت الدولة الإسلامية في المدينة النبوية واجتُثَّت جذور الوثنية في مكة، وأصبحت الدولة بحاجة إلى منهج إلهي يرسم لها الطريق والشريعة التي تسير عليها، فكانت سورة البقرة، حيث قَسَّمت الناس في أولها إلى مؤمنين وكافرين ومنافقين، ثم دعت الجميع إلى عبادة الله الواحد، **فقد ذكر الله سبحانه أن أصناف الخلق ثلاثةٌ:**

١- المؤمنون المستجيبون لله والرسول، وهم المتقون المقرَّبون الأبرار.

٢- والكفار الذين جحدوا واستكبروا عن الإيمان بالله ورسوله.

٣- والمنافقون في عقيدتهم وفي سلوكهم وأعمالهم.

وبيَّن سبحانه أن هذا القرآن يستفيد منه ويهتدي به أهل التقوى فقط، فقال تعالى: ﴿فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

وقد أنزله الله تعالى لهداية الناس كافة فهو ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

أما الكفار فإنهم لن يهتدوا به أبدًا ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

ومنافقو العقيدة كفارٌ أيضًا، قال تعالى ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

وبعد هذا التقسيم، دعاهم جميعًا إلى عبادة الله وتوحيده، فهي الغاية التي خُلِقوا من

---

(١) وقد أخرجه الطبراني (٥٧٥٥) والبيهقي، «مجمع الزوائد» (٢٥٨٢) قال الهيثمي: وفيه عيسى بن ميمون وهو متروك، (٧/ ١٥٧).

(٢) «صحيحه الألباني، سنن أبي داود» (٧٧٦) وهو في سنن الترمذي (٢٩٨) والنسائي (١٠٤٨، ١١٣١).

أجلها ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٦٥]

وقد خاطب الله المؤمنين المتقين في أربع آيات، وخاطب الكفار في آيتين اثنتين، ، وخاطب المنافقين في ثلاث عشرة آية، وضرب لهم الأمثال الموضّحة؛ لأن المنافق مُحَيِّر، له ظاهرٌ وباطنٌ، غير معلوم الحقيقة لعامَّة الناس، كالمؤمن والكافر، فكلاهما معروفٌ، لا يحتاج إلى عناء بحث كالمنافق.

وخُتم هذا المقطع ببيان مصير كل من المتقين والكافرين يوم لقاء رب العالمين.

وذكرت السورة بعد ذلك قصة خلق آدم، وبيان فضله بالعلم والمعرفة، وامتناع إبليس من السجود له حسدًا وكبْرًا وعلُوًّا.

ج - بدء الحديث عن بني إسرائيل (اليهود):

وتحدثت سورة البقرة في نصفها الأول عن بني إسرائيل، وهم أول شعب ذو رسالة كبرى، بعد الحديث عن بدء الخلق وقصة آدم وإبليس، ومن ثَمَّ إلى الحديث عن القبلة وتحويلها، فخصَّتْهم بأول حديث يُوجَّه من القرآن إلى اليهود المجاورين للنبي ﷺ في المدينة وما حولها، تخاطبهم وتحدثهم وتدعوهم إلى الإيمان بالله وحده، وتشير في أول آية منها إلى أنهم ليسوا على شيء بما زيّفوه، وأن هذا القرآن هو كتاب الهداية للبشر جميعًا.

د - اثنتا عشرة وصية لليهود بعد النداء الأول لهم في القرآن:

وفي أول نداء لبني إسرائيل أوصاهم الله تعالى باثنتيْ عشرة وصية، وهي:

١- وجوب الوفاء بالعهود والمواثيق ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾. [الآية: ٤٠]

٢- وجوب الخوف من الله تعالى: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾. [الآية: ٤٠].

٣- وجوب الإيمان بخاتم الرسل ﷺ ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾. [الآية: ٤١]

٤- عدم الكفر بخاتم النبيين ﴿وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾. [الآية: ٤١].

٥- عدم بيع الآخرة بالدنيا ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾. [الآية: ٤١]

٦- الأمر بتقوى الله تعالى ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾. [الآية: ٤١]

٧- عدم خلط الباطل بالحق ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾. [الآية: ٤٢]

٨- عدم كتمان أوصاف النبي ﷺ الموجودة لديهم في التوراة الأصلية ﴿وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. [الآية: ٤٢]

٩- الأمر بإقامة أصول الإسلام وفروعه كالصلاة والزكاة ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [الآية: ٤٣]

١٠- الركوع مع الراكعين من أمة محمد ﷺ ﴿وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [الآية: ٤٣]

١١- عدم مخالفة الأقوال للأفعال ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾. [الآية ٤٤]

١٢- الاستعانة بالصبر والصلاة على أمور الدنيا والآخرة ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾. [الآية: ٤٥]

هـ - عشر من نعم الله تعالى على اليهود: وتحدثت السورة في الربع الثالث منها عقب النداء الثاني لبني إسرائيل عن عشر من النعم التي أنعم الله تعالى بها عليهم، وهي:

١ - نجاتهم من ظلم فرعون وبطشه ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الآية: ٤٩].

٢- فَرْقُ البحر وجَعْلهُ طرقًا يابسة بعدد أسباط بني إسرائيل ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ [الآية: ٥٠].

٣- عفو الله عنهم بعد عبادتهم للعجل ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ [الآية: ٥٢].

٤- نزول التوراة على موسى عليه السلام ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الآية: ٥٣].

٥- قبول توبتهم من عبادة العجل ﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [الآية: ٥٤].

٦- بَعْث من مات منهم بالصاعقة حين طلبوا رؤية الله تعالى جهرة ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الآية: ٥٦].

٧- تظليل الغمام لهم وهم في صحراء سيناء ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ..﴾ [البقرة: ٥٧]

٨- نزول المن والسلوى عليهم: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ. .﴾ [البقرة:٥٧].

٩- دخول أريحا أو بيت المقدس ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٨]

١٠- تفجير الحجر وخروج الماء منه بعدد الأسباط:
﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: ٦٠]

و - اثنتان وثلاثون مخالفة من اليهود في أوائل سورة البقرة:

وتناولت السورة اثنتان وثلاثون مخالفة من مخالفات اليهود ذُكرت في الجزء الأول منها، ومجمل هذه المخالفات هي:

١- عدم إيمانهم بالتوراة إلا تحت وطأة التهديد برفع الجبل فوقهم قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ البقرة: ٦٣]

وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا. .﴾ [البقرة: ٩٣]

وقال جل شأنه: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا﴾ [الأعراف: ١٧١].

٢- صيد السمك في يوم العبادة وقد نُهوا عنه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٥]

وقال سبحانه: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

٣- التشدّد والتعنُّت في ذبح البقرة، مع قسوة القلب وعدم الاعتبار بإحياء الموتى:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا

كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [البقرة].

٤- تحريفهم لكلام الله تعالى في التوراة، كتغيير عقوبة الزاني المحصن من الرجم إلى الجلد والتشهير به، قال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة].

وقال سبحانه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة].

٥- رؤساء اليهود يغيِّرون أوصاف النبي ﷺ في التوراة، والجُهّال يتبعونهم:
قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [البقرة]

٦- دعواهم أن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودة هي التي عبدوا فيها العجل:

قال تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [البقرة].

وقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [آل عمران].

٧- عدم التزامهم بمواثيق الخلق والخالق على حد سواء
قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

٨- أربعة أمثلة لنقض اليهود عهودهم، ومن ذلك قتل اليهودي لليهودي المتحالف مع قبيلة أخرى، وإخراج اليهودي المتحالف مع غيره من داره، وكل ذلك مخالفة لما ورد في التوراة:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ

بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة].

٩- تكذيبهم لرسل الله وقتلهم لهم، كقتل زكريا ويحيى عليهما السلام:

قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ...﴾ إلى قوله تعالى ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [البقرة].

وقال جل شأنه: ﴿.. قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾ [البقرة]

١٠- كفرهم بمحمد ﷺ وعدم الإيمان به بعد بعثته، مع اعترافهم به قبل بعثته:

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة]

وقال سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [البقرة]

١١- التعصُّب الديني عند اليهود قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٩١]

١٢- عبادتهم للعجل الذهبي قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [البقرة]

وقال سبحانه: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأعراف]

وقال جل شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الأعراف]

وقال تعالى حكاية عنهم: ﴿قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ [طه]

١٣- ترك العمل بما في التوراة وإعلان العصيان:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [البقرة]

وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [البقرة].

١٤- دعواهم حق الامتياز على البشر، وأنهم شعب الله المختار:

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [البقرة]

وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾﴾ [الجمعة]

١٥- شدة حرصهم على الدنيا: قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [البقرة]

١٦- عداوتهم لرسول الوحي جبريل - عليه السلام - لأنه ينزل على الأنبياء بالعذاب:

قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة]

١٧- نقض اليهود الدائم للعهود والمواثيق، فكلما عاهدوا عهدًا نبذة فريق منهم:

قال تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [البقرة]

١٨- تعلم السحر وتعليمه والعمل به: قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ

هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ . . ﴾ [البقرة: ١٠٢]

١٩- إساءتهم ومغالطتهم للرسول ﷺ وتلاعبهم بالمصطلحات: قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ [البقرة]

٢٠- حسدهم للنبي الخاتم ﷺ لأن الرسالة قد انتقلت منهم إلى العرب:

قال تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ [البقرة]

وقُرِن اليهود والنصارى بالمشركين الوثنيين في حسدهم للمسلمين ولصاحب الرسالة ﷺ

٢١- تشكيكهم في الإسلام والطعن فيه بسبب قضية النسخ في القرآن:

قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [البقرة]

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [النحل].

٢٢- الكشف عن نوايا اليهود تجاه المسلمين بتمنيهم كفرهم: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ . . . ﴾ [البقرة: ١٠٩]

وقال سبحانه: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ﴾ [النساء: ٨٩]

وقال جل شأنه: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الممتحنة]

٢٣- زعمهم أن الجنة خلقت لهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾[البقرة:]

٢٤- تكذيب كل من اليهود والنصارى للآخر ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ﴾ [البقرة: ١١٣]

وأثارت السورة الخلاف بين اليهود والنصارى وادعاء كل فريق منهم أنه المُحِق.

٢٥- تخريب مساجد الله، وعلى رأسها المسجد الأقصى:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [البقرة]

٢٦- قولهم عزيز ابن الله كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ﴾ [البقرة: ١١٦]

وقال جل شأنه: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]

٢٧- مشابهة اليهود للوثنيين في جرأتهم على الله تعالى وطلبهم رؤيته عيانًا:

وقال جل شأنه: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [البقرة]

وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [البقرة]

٢٨- محاولتهم إخراج المسلمين من دينهم:

قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ﴾ [البقرة: ١٢]

وقال جل شأنه: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ﴾ [النساء: ٨٩]

٢٩- إعراضهم عن الإيمان بمحمد ﷺ وهو دعوة إبراهيم عليه السلام ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [البقرة]

٣٠- دعواهم أن دينهم أفضل الأديان، ونبيهم أفضل الأنبياء، وكتابهم أفضل الكتب: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ [البقرة]

٣١- التشكيك في الإسلام بسبب تحويل القبلة: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ [البقرة]

٣٢- كفرهم بمحمد ﷺ مع شدة معرفتهم له ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة]

وتحدثت السورة عن فضائل المسجد الحرام، وعن إبراهيم الخليل الذي رفع قواعد البيت، وبينت أن الإسلام هو دين التوحيد الذي جاء به إبراهيم عليه السلام، وأن اليهود والنصارى ليستا على ملة إبراهيم، كما تحدثت عن تحويل القبلة وطعْنهم فيها.

وبعد الحديث عن اليهود بإسهاب رسمت السورة المنهج الرباني للبشرية جميعًا.

وبينتْ ما يتعلق بجانب العقيدة، وتحدثت عن أركان الإسلام الخمسة، وعن أركان الإيمان الستة، وبينت ما يتعلق بجانب العبادة: من صلاة وصيام وزكاة وصدقة وحج وغير ذلك، كما بينت أحكام المعاملات بين الناس: من بيع وشراء وربا ورهن وغير ذلك، وبينت أحكام الأسرة المسلمة: من زواج وطلاق ومُتعة وخُلع وخطبة وعدة ورضاع وغير ذلك، وتناولتْ حكم الجهاد في سبيل الله بالنفس والمال.

وتكررت مادة التقوى في هذه السورة بضعًا وثلاثين مرة، ولا تشبهها سورة أخرى.

ز- وأقامت سورة البقرة خمسة أدلة محسوسة على البعث بعد الموت:

١- في توبة عبدة العجل القائلين لموسى ﷺ ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة] فكانت عقوبتهم أن أخذتهم الصاعقة وهم ينظرون، فماتوا عن آخرهم ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [البقرة: ٥٦]

٢- وفي قصة البقرة، في شأن القتيل الذي أحياه الله تعالى حين ضُرب ببعضها: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٧٣]

٣- وفي قصة: ﴿ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣]

٤- وفي قصة الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها، فاستعظم عودة الحياة إليها ﴿فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٥٩]

٥- وفي قصة طيور إبراهيم الأربعة، وقد قطّعها وخلطها ونثرها على رؤوس الجبال، وقال الله له: ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ [البقرة: ٢٦٠] فأراه كيفية إحياء الموتى بعينيه.

وذكرت السورة أربعة توجيهات لتربية النفس المؤمنة لمواجهة الأحداث الجسام.

وهي: (ذكر الله تعالى، وشكره، والاستعانة بالصبر والصلاة، وحب الشهادة في سبيل الله). وأرستْ قواعد الإيمان الصحيح في السعي بين الصفا والمروة، ووجوب بذل العلم، والنظر في هذا الكون، للاستدلال به على وحدانية الخالق سبحانه، وبينت أن محبة المؤمن لربه تفوق كل محبة، وأن المسؤولية يوم القيامة فردية، وأن التحليل والتحريم حق الله وحده.

حـ - أربعون حُكْمًا تشريعيًّا للمسلمين في سورة البقرة:

وقد ذكرتْ سورة البقرة في النصف الثاني منها أربعون حُكمًا تشريعيًّا يجب العمل بها إلى قيام الساعة، لأن السورة بدأ نزولها بعد الهجرة إلى المدينة مبشارة، وبقيت مفتوحة نحو عشر سنوات حتى نزل فيها آخر آية من القرآن ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الآية: ٢٨١]، فَشَرَعَتْ للناس جُلّ أحكام دينهم ودنياهم، **ومنها أحكام:**

١ - القصاص وحكمته ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى﴾ [الآية: ١٧٨]

وجاءت الحكمة منه في قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [الآية: ١٧٩]

٢- الوصية عند الموت ﴿لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ وقد نُسخت الوصية للوالدين بآية المواريث، وبَقيتِ الوصية لغير الورثة من الأقارب في [الآية: ١٨٠]

٣- الصيام وأحكامه ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [الآيات: ١٨٣-١٨٥ وآية ١٨٧]

٤- الدعاء وآدابه ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [الآية: ١٨٦]

٥- الاعتكاف وأحكامه ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ [الآية: ١٨٧]

٦- الصيام المستمر عن أكل الحرام، بعد الصيام عن الحلال مدَّةً مُعَيّنة:

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [الآية: ١٨٨]

٧- مراحل تشريع الجهاد في سبيل الله بالنفس: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الآية: ١٨٨].

٨- مقابلة الاعتداء بمثله، قال تعالى: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [الآية: ١٩٥]

٩- عدم الجهاد في سبيل الله بالمال لدفع الصائل ومقاومة المحتلّ: إلقاء بالنفس إلى التهلكة [الآية : ١٩٥].

١٠ - تفصيل أحكام الحج والعمرة ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [الآيات: ١٩٦ -٢٠٠]

١١- القتال في سبيل الله فرض على الأمة ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [الآية: ٢١٦]

١٢- جواز القتال في الأشهر الحرم، لإزالة العوائق من طريق الدعوة، وردّ العدوان عن الإسلام وأهله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [الآية: ٢١٧]

١٣- التدرج في تحريم الخمر: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الآية: ٢١٩]

١٤- إصلاح مال اليتيم بالمحافظة عليه وتنميته ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [الآية: ٢٢٠]

١٥- النهي عن زواج الوثنيات ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ [الآية: ٢٢١]

١٦- النهي عن إتيان النساء في الحيض ﴿فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ [الآية: ٢٢٢]

١٧- بيان موضع الحرث من المرأة وتحريم إتيانها في الدبر:
﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [الآية: ٢٢٣]

١٨- أحكام الأيمان ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الآيتان: ٢٢٤- ٢٢٥]

١٩- حكم الإيلاء: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾[الآية: ٢٢٦]

٢٠- عدة المطلقة، وبيان حقوق المرأة وواجباتها ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [الآية: ٢٢٨]

٢١- الطلاق الرجعي: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ الآية: ٢٢٩]

٢٢- الطلاق على عوض: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ [الآية: ٢٢٩]

٢٣- طلاق البائن بينونة كبرى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ [الآية: ٢٣٠]

٢٤- عضل الزوج للمرأة: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟﴾ [الآية: ٢٣١]

٢٥- عضل الأولياء للمرأة: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [الآية: ٢٣٢]

٢٦- الرضاعة والحضانة: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [الآية: ٢٣٣]

٢٧- **عدة المتوفي عنها زوجها:** ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [الآية: ٢٣٤]

٢٨- **عدم التعرض الصريح للمتوفي عنها زوجها بالخِطْبة أثناء العدة:** ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ﴾ [الآية: ٢٣٥]

٢٩- **متعة المطلقة قبل تسمية المهر وقبل الدخول بها:** ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾ [الآية: ٢٣٦]

٣٠- **المطلقة بعد تحديد المهر وقبل الدخول بها لها نصف المهر، ولا متعة لها:** ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ [الآية: ٢٣٧]

٣١- **متعة المتوفى عنها زوجها، على القول بعدم النسخ:** ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [الآية: ٢٤٠]

٣٢- **متعة المطلقة المدخول بها:** ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [الآية: ٢٤١]

٣٣- **التمسك بالعروة الوثقى:** ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [الآية: ٢٥٦]

٣٤- **النفقة في سبيل الله: أجرها ومبطلاتها** [الآيات ٢٦١-٢٦٨] وغيرها.

٣٥- **أحكام النذر:** ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ [الآية: ٢٧٠]

٣٦- **أحكام الربا:** ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ..﴾ الآيات: ٢٧٥- ٢٨٠]

٣٧- **أحكام الدين:** ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ [الآية: ٢٨٢]

٣٨- **حِلُّ التجارة الحاضرة:** ﴿إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ [الآية: ٢٨٢]

٣٩- **الرهن عند تعسر كتابة الدين:** ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ [الآية: ٢٨٣]

٤٠- **النهي عن كتمان الشهادة:** ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ [الآية: ٢٨٣]

هذا: وقد تحدثت سورة البقرة عن قصة طالوت وجالوت في حديث الملأ من بني إسرائيل الذين تمنّوا القتال ثم تخاذلوا عنه، وذكرت السورة مبطلات أجر الصدقة : الرياء والمن والأذى.

وفي موازنة بين النفقة في سبيل الله، وآكل الربا، ضربت لهما السورة الأمثلة، ورغّبتْ في الصدقة، وبينت أنها تضاعف إلى سبع مئة ضعف فأكثر، وأن الربا يمحقه الله ويُرْبى الصدقات، وشنَّت آيات السورة على آكل الربا حرب من الله ورسوله إن لم يتب، ورغبت في النفقة، وحرمت الربا، وذكرت أحكام الدين والتجارة الحاضرة والرهن.

ط- دعائم الاقتصاد الإسلامي: أرست سورة البقرة في ست آيات منها معالم الاقتصاد الإسلامي، وبينت أنه يتمثل في الزكاة والصدقة والتكافل الاجتماعي، ولا يقوم على الربا الذي يسود العالم، وقد جاء ذلك في أربعة عشر آية تتحدث عن آداب إنفاق المال في وجوه الخير، وتبع ذلك ست آيات تحدثت عن الربا، وهو الوجه المقابل للصدقة والتكافل الاجتماعي، وقد خُتمت هذه الجولة بربط العبد بربه وحثّه على تقوى الله تعالى، والحذر من عقابه يوم العودة إليه بعد البعث والنشر ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ ولا يكتمل قيام كيان اقتصاديٍّ عالميٍّ إلا بعد وجود البديل عن الربا، وهو يتمثل في أحكام الدَّيْن وكتابته والإشهاد عليه، ووجود التجارة الحاضرة يدًا بيد، والإشهاد على البيع والشراء وجواز الرهن عند تعسُّر الكتابة.

وبهذه الدعائم الثلاث: علاج مشكلة الفقر، ووجود البديل عن الرباء، وحلول المضاربة والمشاركة والمرابحة ونحوها محلّ الربا، يقوم الاقتصاد الإسلامي، وهو لا يحتاج إلى تغيير مباني البنوك ولا إلى تغيير أثاثها، ولا تغيير السجلات أو الحاسوب الذي يُدوَّن فيه المضاربات، وإنما يحتاج إلى معرفة الآلية الإسلامية، وصدق التوجّه، وعدم التعامل فيما حرّمه الإسلام، كالخمر والميسر ونحوهما، وصياغة هذه التعاملات بالصبغة الإسلامية، كالمشاركة والمرابحة والمضاربة والقرض الحسن والزكاة والصدقة، وقد ظهرت بوادر الحرب على أكلة الربا في عصرنا، في الانهيار الاقتصادي العالمي وتأثيره على أكبر البنوك في العالم، وعلى أقوى دول العالم اقتصاديا وسياسيّا وعسكريّا، نسأل الله السلامة والعافية.

وخُتمت السورة بآيتين نزلتا من كنز تحت العرش، بعد دعاء شامل يتضمن الخصائص الإسلامية.

تَفْسِيرُ السُّورَةِ

مَعْنَى حُرُوفِ الهِجَاءِ مِنْ فَوَاتِحِ السُّوَرِ

١- ﴿الٓمٓ ۝١﴾[١]

ابتدأ الله سبحانه سورة البقرة بالألف واللام والميم، ثلاثة حروف هجائية مقطّعة، والسور المفتتحة بحروف الهجاء تسعٌ وعشرون سورة، تبدأ بحرف واحد إلى خمسة أحرف، وهي خمسة أقسام:

أولًا: منها ما بُدئ بحرف واحد، وعددها ثلاث سور، هي سورة (ص)، و(ق)، و(ن).

ثانيًا: ومنها ما بدئ بحرفين اثنين، وعددها تسع سور، هي (طه، و طس النمل، ويس، وحم في سور ست هي: غافر وفصلت والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف).

ثالثًا: ومنها ما بُدئ بثلاثة أحرف، وقد وقع ذلك في ثلاث عشرة سورة، هي:

(الم) في ست سور، هي: (البقرة وآل عمران والعنكبوت والروم ولقمان والسجدة).

و(الر) في خمس سور، هي: (يونس وهود ويوسف وإبراهيم والحجر).

و(طسم) في سورتين هما: (الشعراء والقصص).

رابعًا: ومنها ما بُدئ بأربعة أحرف وذلك في سورتين اثنتين، هما: الأعراف (المص) والرعد (المر).

---

(١) قرأ أبو جعفر بالسكت عل كل حرف من هذه الحروف الثلاثة هكذا: (ألف، لام، ميم) من غير تنفس، ويلزم منه إظهار اللام وعدم إدغامها في الميم بعدها، على أن كلا منها حرف هجائي مستقل منفصل عما بعده وإن اتصل رسمًا، وقرأ بقية القرّاء العشرة بعدم السكت، وهم نافع وابن كثير وأبو عمر وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف، وفي اللام والميم مدَّان لازمان الأول مثقل والثاني مخفف، يمد كل منهما مدًّا لازمًا ست حركات، وبين ميم (لام) والميم بعدها إدغام مثلين صغير، لسكون الميم الأولى وتحرك الثانية، ويصحب ذلك غنة بمقدار حركتين. وهذه الكلمة (الم) عدّها المصحف الكوفي آية، وهي غير معدودة آية في بقية المصاحف العثمانية: المدني الأول والمدني الأخير والبصري والمكي والشامي.

خامسا: ومنها ما بدئ بخمسة أحرف، وهو سورتان، هما: مريم (كهيعص) والشورى (حم عسق).

وهذه الحروف لا يعلم حقيقة معناها إلا رب العالمين.

وافتتاح بعض السور بهذه الحروف الهجائية له ثلاث فوائد عظيمة:

الفائدة الأولى: أن المشركين كانوا يمتنعون من سماع القرآن الكريم، حتى لا يصيب قلوبهم، ويؤثِّر في نفوسهم، فكانوا يتفقون ويتعاهدون -فيما بينهم- أن لا يستمعوا إلى القرآن حتى لا يتأثروا به، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت: ٢٦].

وقد كان زعماء المشركين مع عنادهم، يسارق بعضهم بعضًا، فيخرج في جنح الليل المظلم ليستمع إلى القرآن خُفية من الناس؛ لما له من تأثير على القلوب والاسماع.

فهذا أبوسفيان وأبوجهل والأخنس، خرج كلٌّ منهم ليلًا من وراء الآخرين ليستمع إلى الرسول ﷺ وهو يصلي في بيته ويقرأ القرآن، وجلس كلٌّ منهم في مكان بحيث لا يراه الآخر، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فتلاوموا، وتعاهدوا على عدم العودة.

وعاد كل منهم من وراء الآخَرين في الليلة التالية، وتكرر ما حدث ثلاث ليالٍ.

فذهب الأخنسُ إلى أبى جهل يسأله عن رأيه فيما سمع من محمد ﷺ، قال أبوجهل: تنازعْنا وبنو عبد مناف الشرف، أطْعَمُوا فأطْعَمْنا، وَحمَلُوا فحَملْنا، وأعْطَوْا فأعْطَينا، حتى كُنا كفَرسيْ رِهان، فقالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء.

قال أبوجهل: فمتى ندرك مثل هذه؟! فوالله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه[1].

فكان المشركون يخشون من تأثير القرآن على قلوب سامعيه، وكانوا يستقبلون الوافدين إلى مكة يحذِّرونهم من مجالسة محمد ﷺ والاستماع إليه.

وكان النبي ﷺ يأتي قومه، وهم في أسواقهم ومنتدياتهم ليقرأ عليهم القرآن، وهم في حالة هرج ومرج، بحاجة إلى ما ينبههم إلى الإصغاء والاستماع بغير ما ألفوه من أدوات

---

(١) «سيرة ابن هشام» باختصار (١/ ٣٣٧).

التنبيه: كالهاء والباء وأدوات الاستفتاح.

فأنزل الله سبحانه مثل هذه الحروف (الم. الر. طس. طسم) ليشدهم إلى ما يتلى عليهم؛ كي يجذب انتباههم، ويؤثر في نفوسهم، فيتساءلون: ما معنى هذه الحروف؟ فيؤدي ذلك إلى حب سماعهم للقرآن الكريم، وكفى بهذا فائدة، وهي من وسائل الدعوة إلى الله عز وجل.

الفائدة الثانية: أن المشركين قد أنكروا أن يكون القرآن وحيًا نزل على رسول الله ﷺ، فتحداهم الله تعالى أن يأتوا بمثله، أو بمثل عشر سور منه، أو بمثل أقصر سورة منه، فعجزوا في الحالات الثلاث، وهم أرباب الفصاحة والبلاغة، فكأنه تعالى يقول لهم: إن هذا القرآن الذي عجزتم عن الإتيان بمثل سطر واحد منه مكوَّن من هذه الحروف الهجائية التي تنطقونها، مكوَّن من الألف واللام والميم والطاء والسين، فدل هذا على إعجاز القرآن الكريم.

الفائدة الثالثة: أننا نتعلم من هذه الحروف امتثال ما أمرنا الله به، واجتناب ما نهانا عنه، وإن لم ندرك للأمر أو النهي حكمة، فإذا كنا لا ندرك معنى هذه الحروف فحريٌّ بنا ألا ندرك العلة والحكمة في كل أمر ونهي، فالمسلمُ ينقاد ويستسلم لله تعالى في جميع أوامره ونواهيه، وإن لم يدرك لها حكمة أو علة.

والمؤمنُ مثابٌ على تلاوة كل حرف هجائي من كتاب الله تعالى، سواءٌ فهم المعنى أم لا، كما جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: (الم) حرف، ولكن: ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»[1].

---

(١) صححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٣٢٧) وهو في السنن (٣٠٨٧) وفي مشكاة المصابيح (٢١٣٧ وفي تخريج الطحاوية ١٣٩) والحاكم (١/ ٥٥٥) والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٩٣٣، ١٩٨٣) وغيرهم.

أَصْنَافُ النَّاسِ فِي تَلَقِّي هَذَا الكِتَاب

٢- ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا[(١)] رَيْبَ فِيهِ[(٢)] هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾

وهذا القرآن العظيم المشار إليه بهذه الحروف، لاشك أنه من عند الله، فلا ترتابوا فيه؛ فهو الكتاب العظيم على الحقيقة، المشتمل على ما لم تشتمل عليه كتب المتقدمين والمتأخرين من العلوم والحقائق فهو الكتاب الحق، الناسخ للتوراة والإنجيل وغيرهما، لاشك فيه بوجه من الوجوه، إذ كيف يُشك فيه وهو الكتاب المتضمن علم اليقين، المزيل للشك والريب، ونفي الريب عن هذا الكتاب يستلزم نفي التهمة والطعن فيه على وجه القطع، والريب أبلغ من الشك، لأنه شك مع تهمة وظن، بخلاف الشك فهو مجرد تردد في الشيء.

وهذا الكتاب ينتفع بما فيه ويهتدي بهديه من هو مستعدٌّ للهداية بفطرته ومحضِ اختياره، ممن يخافون الله تعالى ويتبعون أحكامه.

والهدي: ما تحصل به الهداية من الضلالة والشبهة، ومابه الهداية إلى طريق الاستقامة، وما فيه سعادة الدنيا والآخرة، فهو مرشد للعباد في بيان الحق من الباطل، والخير من الشر، وجميع الأصول والفروع.

وقد حذف معمول (هدى) لإرادة العموم، فهدايته عامة وليست خاصة، والمنتفعون بهذه الهداية هم المتقون من عباد الله، فهو ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ لأنهم الذين ينتفعون بهديه، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤]

وقال سبحانه في وصف القرآن: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ [النمل].

وغيرُهم لا يتأثر ولا ينتفع، فهو عليهم عمى، ولا يزيدهم إلا خَسارًا، مع أن القرآن

---

(١) قرأ حمزة بخلف عنه بمد (لا) مدًّا متوسطًا، مبالغة في النفي، وقرأ بقية القراء ومعهم حمزة في وجهه الآخر بالقصر، على أنها لمجرد النفي.

(٢) قرأ ابن كثير بصلة هاء الضمير بياء لفظية، وقرأ الباقون بترك الصلة، وأدغم أبو عمرو ويعقوب بخلف عنهما هاء (فيه) في هاء (هدى) والباقون بالإظهار.

نزل لهداية الناس جميعا كما قال تعالى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]

وقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة]

وقال أيضًا: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [لقمان]

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [النمل]

وهو كتاب يخرج الناس من الظلمات إلى النور:
﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ [إبراهيم: ١]

والهداية نوعان: هداية البيان والإرشاد، وهداية التوفيق، والمتقون حصلت لهم الهدايتان، وغيرهم لم تحصل لهم هداية التوفيق، أما هداية الإرشاد دون توفيق للعمل بها، فليست هداية تامة، ولا يحصل بها فائدة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس]

وغير المؤمن لا ينتفع بهذا النور بل يزداد خسرانا وهلاكا ولا يهتدي، كما قال تعالى:
﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء]

وقال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤]

فالقرآن هدى لجميع الخلق في حد ذاته، ولكن الأشقياء لم يقبلوا هدى الله، ولم يرفعوا به رأسا فقامت عليهم به الحجة.

والمتقون هم الصنف الأول من البشر، ويأتي وصفهم في آيتين اثنتين، وهم عباد الله المتقون المهتدون إلى ما فيه صلاح عاجلهم وآجلهم.

فالتقوى هي امتثال الأوامر واجتناب النواهي، وعدم الاسترسال في الصغائر ظاهرًا وباطنًا، خوفًا من عقابه تعالى واتقاءً لغضبه سبحانه.

قال الحسنُ في وصف المتقين: إنهم (اتقوا ما حُرِّم عليهم، وأدَّوْا ما افتُرِض عليهم).

وقال ابن عباس ﷺ: هم (الذين يحذَرون من الله عقوبته في تَرْك ما يعرفون من الهدى، ويرجون رحمته بالتصديق بما جاء به، وهم الذين يتقون الشرك، ويعملون بالطاعات)[١].

والتقوى أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وهي أن يطاع الله فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر.

وسُئِل معاذ بن جبل رضي الله عنه: من المتقون؟ فقال: (قومٌ اتقوا الشرك وعبادة الأوثان، وأخلصوا لله العبادة)[٢].

وقال أبوهريرة رضي الله عنه لمن سأله عن التقوى: (هل وجدت طريقًا ذا شوك؟ قال: نعم، قال: فكيف صنعت؟ قال: إذا رأيتُ الشوك عدلتُ عنه، أو جاوزْته، أو قصرت عنه، قال: ذاك التقوى)[٣].

والتقوى: ألا يراك الله حيث نهاك، وألا يفقدك حيث أمرك.

وتمام التقوى أن يجعل العبد بينه وبين الحرام حجابًا؛ فيترك ما فيه شبهة خشية أن يكون من الحرام:
«فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام»[٤].

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة]

وقال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنفال]

---

(١) «تفسير الطبري» بتحقيق الأخوين الفاضلين: محمود وأحمد محمد شاكر (١/ ٢٣٢).
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم.
(٣) «تفسير القرطبي» (١/ ١٤١).
(٤) جزء من حديث النعمان بن بشير في البخاري ٥٢ ومسلم: ١٥٩٩، ١٠٧.

وقال جل شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وقال سبحانه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ [النساء: ١] وقال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

خَمْسَةُ أَوْصَافٍ لِلصِنْفِ الأَوَّلِ مِنَ البَشَرِ وَهُم المُتَّقُونَ

٣- ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ(١) بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ(٢) وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ(٣) يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾

وقد وصف الله سبحانه المتقين في صدر سورة البقرة بخمس صفات هي جماع العقائد والعبادات والأعمال الظاهرة والباطنة، لأن التقوى تجمعها وتشملها وهذه الأوصاف هي:

الوصف الأول: الإيمان بالغيب: فالمتقون هم الذين يصدقون بالغيب الذي جاء في كتاب الله تعالى، لا يقفون عند المحسوس، ولا يؤمنون بالمادة وحدها، وإنما يؤمنون بما أخبر الله به، وبما أخبر به رسوله ﷺ، يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والجنة والنار، وبالقدر خيره وشرّه، وكل ذلك غيبٌ لم يروه، فهم يؤمنون به كما أخبر الله تعالى، وهذا معنى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾.

فحقيقة الإيمان: التصديق اليقيني التام بما أخبرت به الرسل، فانقادت له الجوارح وعملت به، وهذا الإيمان يميزّ بين المسلم والكافر، لأن المؤمن يؤمن بكل ما أخبر الله به، أو أخبر به رسوله، سواء شاهده أو لم يشاهده، وسواء فهمه و عقله، أو لم يهتد إليه عقله وفهمه، وبهذا يخرج الزنادقة الذين كذبوا بما لم يحيطوا بعلْمه.

والإيمان في لغة العرب هو التصديق، أي: تصديق القول بالعمل، قال تعالى على لسان إخوة يوسف عليه السلام: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧].

والإيمان: كلمةٌ جامعةٌ تشمل الإقرار بأركانه الستة التي هي: الإيمان بالله وملائكته

---

(١) قرأ ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال همزة (يؤمنون) واوًا في حالتي الوصل والوقف، وأثبت الهمزة ساكنة بقية القراء.

(٢) فَخَّم الأزرق عن ورش لام (الصلاة) ورقَّقها الباقون، وهما لغتان، والترقيق أشهر.

(٣) وَصَلَ ميمَ (رزقناهم) بواو مع المد الطبيعي ابن كثير وأبو جعفر وقالون بخلف عنه، وسكَّنها الباقون.

وكتبه ورسله واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشرِّه.

والغيب: هو كل ما غاب عن العباد معرفته، مثل البعث والقيامة والجنة والنار، وكل ما أخبر الله به من الغيوب الماضية والمستقبلية، ومنها الإيمان بصفات الله تعالى وأنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

والمؤمن يصدِّق بالغيب قولًا وعملًا واعتقادًا، وكل ما لا يدرك بالحواس ولا بالعقل فهو غيبٌ، فإذا آمن به المرء تَصدَّى للاستماع له، وعلى رأس ذلك ما أخبرتْ به الرسل، من وجود الله تعالى، ومن وجود العالم العلوي، والثواب والعقاب.

عن تُوَيْلَةَ بنت أسلم قالت: صليتُ الظهر أو العصر في مسجد بني حارثة، فاستقبلنا مسجد إيلياء فصلينا سجدتين، ثم جاءنا من يُخبرنا أن رسول الله ﷺ قد استقبل البيت الحرام، فتحوَّل الرجال مكان النساء، والنساء مكان الرجال، فصلينا السجدتين الباقيتين ونحن مستقبلو البيت الحرام، فبلغ رسول الله ﷺ ذلك فقال: **«أولئك قومٌ آمنوا بالغيب»**(١).

وعن أبي جمعة الأنصاري قال: كنا مع رسول الله ﷺ ومعنا معاذ بن جبل عاشر عشرة، فقلنا: يا رسول الله، هل من أحد أعظم منا أجرًا؟ آمنا بك واتبعناك، قال: **«ما يمنعكم من ذلك ورسول الله بين أظهركم، يأتيكم بالوحي من السماء، بل قومٌ يأتون من بعدكم، يأتيهم كتابٌ بين لَوْحيْن، فيؤمنون به، ويعملون بما فيه، أولئك أعظم منكم أجرًا»**(٢).

الوصف الثاني: إقامة الصلاة: فالمتقون: هم الذين يقيمون الصلاة، ويحافظون على أدائها ومواقيتها وركوعها وسجودها ووضوئها، والخشوع فيها، والصبر عليها، وهذا معنى ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. اي يؤدونها ظاهرا بأركانها وشروطها وواجباتها وسننها وهيأتها، ويؤدونها باطنًا بحضور القلب وتدبر القول والفعل، وخشوع الجوارح والأعضاء، وهذه الصلاة هي التي تنهي فاعلها عن الفحشاء والمنكر، إذ ليس للعبد من

---

(١) ابن أبي حاتم (٧٣) واللفظ له، والطبراني (٥٣٠) قال الهيثمي: ورجاله موثّقون، «مجمع الزوائد» (٢/ ١٤).

(٢) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد (٨) والذهبي في ميزان الاعتدال (٢/ ٢٩١) والطبراني (٣٥٣٧، ٣٥٤١) وصححه الحاكم والذهبي (٤/ ٨٥) وحسَّنه وقوّى إسناده ابن حجر في «فتح الباري» (٧/ ٦). وانظر: «المسند» (١٦٩٧٦، ١٦٩٧٧) بإرسناد صحيح ورجال ثقات، كما قال محققوه.

صلاته إلا ما عقل.

والصلاة: تشمل الدعاء بخشوع وخضوع لله تعالى، وقد عرف العرب الصلاة بركوعها وسجودها، كما جاء على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

الوصف الثالث: الإنفاق في سبيل الله: فهم الذين ينفقون أموالهم التي رزقهم الله إياها، وهي نفقة عامة تشمل إخراج الزكاة والنذر والكفارة، وتشمل الصدقة في سبيل الله، والنفقة المستحبة، وتشمل النفقة الواجبة على الأهل، وعلى من يعولهم الإنسان ويلزمه نفقتهم، وهذا معنى ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ و هذه النفقة يخرجها العبد من رزق الله الذي ملكه الله إياه، فهي من باب شكر النعمة ومواساة المحتاجين، وكثيرا ما يجمع القرآن بين الصلاة والزكاة، لأن الصلاة فيها إخلاص للمعبود سبحانه، والزكاة فيها إحسان ونفع لعباد الله.

وكانت الصدقات في صدر الإسلام قُرُبات إلى الله تعالى قدْر الطاقة، حتى نزلت آيات سورة براءة بفرض الزكاة وبيان أنصبتها في سبع آيات منها..

الْوَصْفُ الرَّابِعُ: الْإِيمَانُ بِكُتُبِ اللَّهِ جَمِيعًا

٤- ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ[(١)] إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ[(٢)] هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾.

وقد تضمنت الآية الرابعة الوصفين الأخيرين من أوصاف المتقين، وهما الوصف الرابع والخامس، فهم قد آمنوا بقلوبهم، ونطقوا بألسنتهم، وعملوا بجوارحهم، وهم الذين يؤمنون بالقرآن الذي نزل على محمد ﷺ، ويؤمنون بالسنة التي جاء بها، وهذا معنى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ وهو القرآن والسنة، والخطاب للرسول ﷺ المكلَّف بتبليغ القرآن إلى الناس، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ

---

(١) قرأ بقصر المد المنفصل في (بما أنزل) ونظائرها في القرآن ابن كثير وأبو جعفر وقرأ بالإشباع فيه الأزرق عن ورش وحمزة، ولهشام القصر والتوسط، ولابن ذكوان التوسط والإشباع، ولشعبة التوسط وفويق التوسط، أي: مده خمس حركات، ولحفص القصر والتوسط وفويق التوسط، وللكسائي وخلف العاشر التوسط فقط، ولقالون والأصبهاني وأبي عمرو ويعقوب: القصر، وفويق القصر، والتوسط.

(٢) قرأ ورش بنقل حركة الهمزة من (الآخرة) إلى الساكن قبلها وهو اللام والباقون بعدم النقل.

تَكُن تَعۡلَمُۚ﴾ [النساء١١٣] فالمتقون يؤمنون بجميع ما جاء به محمد ﷺ، فلا يؤمنون ببعضه دون بعض، ولا يجحدونه أو يؤولونه على غير مراد الله ورسوله.

والمتقون يؤمنون أيضًا بالرسل السابقين، وبالكتب التي نزلت عليهم، وهي التوراة التي نزلت على موسى، والإنجيل الذي نزل على عيسى، والزبور الذي نزل على داود، وصحف إبراهيم وموسى وغيرهما، وهذا معنى ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾ أي: من الكتب المنزلة على الرسل السابقين، ولا يفرقون بين أحد منهم: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ﴾ [النساء: ١٥٢].

على أن هذه الرسالات وهذه الكتب كانت لأزمنة معيَّنة، ولأوقات محدَّدة، وأمكنة إقليمية، لا تتجاوزها إلى أرجاء الدنيا، وكلها كانت تُمهد للرسالة الخاتمة، وكل رسالة منها أنهتْ صلاحية الرسالة التي قبلها، حتى خُتمت بالرسالة القائمة إلى يوم الساعة، وهي رسالة محمد ﷺ.

قال تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ﴾ [آل عمران: ٢، ٣].

وقال أيضًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ﴾ [النساء: ١٢٦].

وفي حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«ثلاثة يُؤتَون أجرهم مرتين يوم القيامة: رجلٌ من أهل الكتاب آمن بنبيه وأمن بي، ورجلٌ مملوك أدى حق الله وحق مواليه، ورجلٌ أدب جاريته فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها»**[(١)].

والوصف الخامس: الإيمان باليوم الآخر ﴿وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾

وسُمِّي اليوم الآخر؛ لأنه لا يوم بعده، فهو اسم لما يكون بعد الموت، والإيمان به أحد أركان الإيمان، وهو أعظم باعث على الرغبة والرهبة، والكفار لا يؤمنون به، كما

---

(١) البخاري (٩٧، ٢٥٤٧، ٢٥٥١، ٣٠١١) ومسلم (١٥٤) وأبو داود (٢٠٥٣) والترمذي (١١١٦) وابن ماجه (١٩٥٦). و«المسند» (١٩٥٣٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وابن حبان (٢٢٧، ٤٠٥٣) والنسائي في «السنن الكبرى» (٥٤٧٧) وعبدالرزاق ١٣١١٢ وغيرهم.

قال تعالى ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾ [الحج].

والآخرة: وصفٌ للدار الباقية التي لا تفْنى، كما قال تعالى ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، ووصفت بذلك؛ لأنها آخرة بالنسبة للأولى التي كانت قبلها، فهي آخرة لتقدم الأولى عليها، أو لتأخرها عن الخلق، كما سميت الدنيا دنيا؛ لدنوها من الخلق.

فالمتقون هم الذين يؤمنون باليوم الآخر على وجه الخصوص، ويؤمنون بما فيه من بعث وحشر وحساب وميزان وثواب وعقاب وجنة ونار ﴿وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

واليقين هو العلم التام الموجب للعمل الذي ليس فيه أدنى شك.

المُتَّقُونَ هُم أَهْلُ الهُدَى وَالفَلَاحِ

٥- ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ[1] عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾

وهؤلاء المتقون هم أولياء الله، الذين جعلوا بينهم وبين عذاب الله وقاية، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، فأطاعوا ربهم، وذكروه وشكروه، ورضوا بالقليل، وعملوا بالتنزيل واستعدوا ليوم الرحيل، فخافوا لقاء الله وابتعدوا عن معاصيه، وأصحاب هذه الصفات على نور وبصيرة في الدنيا، وهم المفلحون الفائزون بجنة النعيم يوم لقاء رب العالمين، وهم الذين علم الله عنهم في الأزل أنهم ينتفعون بهذا القرآن، ويهتدون به هداية توفيق وإرشاد ودلالة، وهذه الهداية تضمنت صحة العقيدة واستقامة الأعمال.

وفي هذا تعريض بذم الكفار لعدم تصديقهم بخاتم الرسل ﷺ، وما أنزل عليه من ربه، وعدم الاهتداء بهديه.

---

(١) (أولئك) مدٌّ متصل، أشبع المد فيه الأزرق وحمزة وابن ذكوان من طريق الأخفش، وقرأ قالون والأصبهاني عن ورش وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب بالتوسط والإشباع وفويق القصر، وقرأ ابن عامر بخلْف ابن ذكوان والكسائي وخلَف العاشر بالتوسط والإشباع، وقرأ عاصم بالتوسط والإشباع وفويق التوسط، وذهب آخرون إلى أن المد المتصل له مرتبتان: طولى لحمزة والأزرق وابن ذكوان من طريق الأخفش، ووسطى للباقين (انظر اتحاف فضلاء البشر لأحمد البنا ص٣٧ والمهذب للدكتور محمد سالم محيسن، والبدور الزاهرة للنشار (١/ ١٢٤)، والنشر لابن الجزري.

وأصحاب هذه الصفات هم الفائزون الموفقون الناجون من النار لاستقامتهم على منهج الله تعالى، وقد حصر الله الفلاح فيهم، لأنه لا سبيل إلى الفلاح إلا بسلوك طريقهم، وماعداه فهو من سبل الشقاء والهلاك، نسأل الله السلامة والعافية.

وإلى هنا ينتهي الكلام عن المتقين.

وَصْفَانِ لِلصِّنْفِ الثَّانِي مِنَ الْبَشَرِ، وَهُمُ الْكُفَّارُ

الْوَصْفُ الْأَوَّلُ: قَطْعُ الطَّمَعِ فِي إِسْلَامِهِمْ:

٦- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ(١) ءَأَنذَرْتَهُمْ(٢) أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾

ويأتي وصف الكفار في آيتين اثنتين؛ فأمرهم معروف لا يحتاج إلى تفصيل، وهم لن يؤمنوا لأن حواسهم معطلة وقلوبهم مقفلة: وذلك لأن الكفار الجاحدون المستكبرون، الذين صار الكفر وصفًا لازمًا لهم، لا يردعهم عنه رادع، ولا ينجع فيهم تذكير، فهم مستمرون على كفرهم سواء أنذرتهم أم لم تنذرهم، فلا فائدة في وعظهم، ولا فائدة في إنذارهم بإعلامهم وتخويفهم، ولا فائدة في الحديث إليهم؛ لإصرارهم على الباطل وعدم إيمانهم، وهذا إخبارٌ بعلْم الله تعالى عن الكفار، لإقامة الحجة عليهم ، وقطع طمع الرسول ﷺ في إيمانهم حتى لا يأسى عليهم ولا يُذهب نفسه عليهم حسرات.

لقد علم الله منهم الكفر أزلًا فكتبه عليهم، وسجلتْه الملائكة عليهم في اللوح المحفوظ، وطبع الله على قلوبهم بمقتضى كفرهم وزيغ قلوبهم وفساد فطرتهم وانحرافهم ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [البقرة].

وأصلُ الكفر عند العرب: تغطية الشيء وستره، فكأنَّ الكفر يغطي الإيمان ويستره، ويسمَّى الليل كافرًا؛ لأنه يغطي النور بظلمته، ويسمى المزارع كافرًا؛ لأنه يسترُ الحَبَّ في الأرض ويغطيه.

---

(١) ضَمَّ الهاء من (عليهم) حمزة ويعقوب، وكسرها الباقون.

(٢) قرأ قالون وأبو عمرو وأبو جعفر بتسهيل الهمزة الثانية من (أأنذرتهم) مع إدخال ألف بين الهمزتين، وقرأ الأصبهاني عن ورش وابن كثير ورويس بتسهيل الهمزة الثانية من غير إدخال، وللأزرق تسهيل الهمزة الثانية مع عدم الإدخال وإبدالها حرف مد مع الإشباع، ولهشام ثلاثة أوجه: تسهيل الثانية، وتحقيقها مع الإدخال، وتحقيقها من غير إدخال، وقرأ الباقون وهم الكوفيون وابن ذكوان بتحقيق الهمزتين.

ويُراد به في الآية: تغطية الإيمان ونكرانُه وكِتمانه وستره؛ لأن الإيمان موجودٌ في أصل الفطرة، والذي تنحرف فطرته عن الحق، يغطي هذا الإيمان الذي في داخله ويستره.

هذا هو معنى الكفر: ستر الحق وتغطيته، والقطع بعدم إيمان الكفار بمقتضى ما علمه الله تعالى منهم قبل أن يخلقهم.

وقد جاءت آيات كثيرة في هذا المعنى، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس].

وبالنسبة لأهل الكتاب الذين علم الله أنهم لن يؤمنوا، قال تعالى فيهم:

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ﴾ [البقرة: ١٤٥].

وقد كان النبي ﷺ شديد الحرص على إيمان الناس وهدايتهم وسعادتهم، فأخبر الله رسوله بأهل السعادة وأهل الشقاء، وأبلغه بأن مهمته البلاغ والإنذار، حتى لا يهلك نفسه حُزنًا على عدم إيمانهم: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٨] ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ [الكهف].

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾﴾ [الشعراء].

الْوَصْفُ الثَّانِي: أَنَّ أَجْهِزَةَ الاِسْتِقْبَالِ فِيهِمْ مُعَطَّلة

٧- ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ[1] غِشَٰوَةٌ ۖ[2] وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾

الطبع أو الختم على القلب: أخبر عنه النبي ﷺ بأنَّ الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها، وإذا أغلقتها أتاها الختم من قِبَل الله تعالى، فلا يخرج منها كفرٌ، ولا يدخلها إيمانٌ. وقد جاء هذا بالنسبة للمؤمن الذي بلغت به المعاصي حد انغلاق القلب عليها، كما في

(١) أمال ألف (أبصارهم) أبو عمرو ودوري الكسائي وابن ذكوان بخلف عنه وقلَّلها الأزرق.

(٢) وقف الكسائي على (غشاوة) بالإمالة.

حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: **«إن المؤمن إذا أذنب ذنبًا كانت نكتة سوداء في قلبه، فإنْ تابَ ونزع واستعتب صُقل قلبه، وإنْ زاد زادت؛ حتى تعلو قلبه»** فذلك الرانُ الذي قال الله فيه: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(١) [المطففين]

قال تعالى في إحاطة علمه بأحوالهم: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وطبع القلوب سببُه إصرارهم على الكفرواختيارهم له، كما قال تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥].

والفتن تُعْرَض على القلوب، فإذا أُشرِبها القلب تركت فيه نكتةً سوداء، وإذا أنكرها تركت فيه نكتةً بيضاء، فالقلب الأبيض لا تضرُّه فتنةٌ، والقلب الأسود لا يعرِف معروفًا ولا يُنكر منكرًا.

ثم ذكر الله سبحانه الموانع المانعة للكفار من الإيمان، فذكر أنها الختم على القلوب والأسماع، فلا ينفذ إليها الإيمان، وأنها غطاء الأبصار، التي تمنعها من النظر إلى ما ينفع.

أي: ولمَّا علم الله تعالى اختيار الكفار لطريق الضلال، ختم على قلوبهم وعلى سمعهم؛ فطُمست، ولم تؤدِّ وظائفها المنوطة بها، ولم تنتفع بما خُلقت لأجله، وهي عبادة الله عز وجل.

وقد جعل الله على أبصارهم أغطية، فلا تُبصر طريق الحق والهداية، بعدما تبيَّن لهم الهدى من الضلال، والنعيم من العذاب، الذي أعده الله لهم في الآخرة جزاء عنادهم وكفرهم، واختيارهم طريق الضلال بسبب فسقهم وزَيغِهم وفساد فطرتهم، فهذه طرق الخير قد سُدت عليهم، فلا مطمع في إيمانهم، ولا خير يرجى فيهم.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦] ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥] ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الصف: ٧].

ذلكم قول الله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾.

---

(١) «سنن الترمذي» برقم (٣٣٣٤) و«سنن النسائي الكبرى» برقم (١١٦٥٨) و«سنن ابن ماجه» برقم (٤٢٤٤)، والمسند (٧٩٥٢) بإسناد قوي كما قال محققوه، والحاكم (٢/٥١٧) والبيهقي في السنن ١٠/١٨٨) وفي الشعب (٧٢٠٣).

على البصر، والختم يكون على القلب والسمع، كما قال تعالى: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية : ٢٣]

والغشاوة هي الغطاء، وقد أُفرِدَ السمع؛ لأن المسموع واحدٌ لكل الناس، وجُمع القلب والبصر: لأن مفهوم العقل ورؤية البصر يتعددان بتعدد الناس.

فيدخل تحت جنس الكفار: كل مَن لم يعترف بوجود الله تعالى؛ كالشيوعيين والوثنيين والملاحدة.

ويدخل تحته كل من لم يؤمن باليوم الآخر وما فيه من بعثٍ وحسابٍ وجزاءٍ.

وكل من عبدَ وثنًا أو صنمًا من دون الله؛ كالبوذية وعُبَّاد البقر والهندوس والسيخ، وعبدة الشيطان، وعبدة إله الخير وإله الشر، فهو كافر.

وكل من جحد رسالة محمد ﷺ أو اعتقد أنه رسولٌ إلى العرب خاصة؛ كاليهود والنصارى وغيرهم، فهو كافر.

وكذا أهل الشرك الأكبر الذين ينسِبون لله تعالى الزوجة والشريك والولد، وسائر الملل والنحل من المشركين والكفار، كل هذا داخل تحت ملة الكفر.

هذا: والكفر نوعان:

أ- كفر أكبر، مخرج من الملة، يحبط الأعمال ويُبطل ثوابها، ويخلد صاحبه في النار، وهو كفر اعتقادي، **وهذا الكفر خمسة أنواع:**

١- كفر التكذيب. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [العنكبوت]

٢ - كفر الإباء والاستكبار مع التصديق قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة].

٣- كفر الشك والظن، قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ [الكهف]

٤- كفر الإعراض، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأحقاف]

٥- كفر النفاق، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون: ٣]

ب- وكفر **أصغر** لا يخرج من الملة، ولا يحبط الأعمال، لكن ينقصها بحسبه، ولا يخلد صاحبه في النار وقد يتوب الله عليه، وهو كفر عملي، يشمل جميع الذنوب التي سماها الكتاب أو السنة كفرا وهو لا يَصِلُ إلى حد الكفر الأكبر مثل كفر النعمة: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١١٢] ومثل حديث «**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**».

ومثل الحلف بغير الله، ومنه الرياء والشرك الخفي.

عَشْرَةُ أَوْصَافٍ لِلصِنْفِ الثَّالِثِ مِنْ أَصْنَافِ البَشَرِ وَهُم المُنَافِقُونَ

٨- ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ[1] مَن[2] يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾

وقد جاء وصفهم في ثلاث عشرة آية؛ وكما وصف جل شأنه المتقين بخمس صفات ووصف الكفار بأنهم لا يؤمنون وأن الله قد ختم على قلوبهم؛ وصف المنافقين أيضًا بعشر صفات، ولم تصرح الآية بذكر صفتهم، مطابقة لحالهم في إخفاء نفاقهم:

وأصل كلمة النفاق: من نافقاء اليربوع، وهو حيوانٌ له نفق في جوف الأرض، وله منفذ من أمام ومنفذ من خلف، فإذا أتيته من هنا ظهر من هناك، وهم فريق من الناس يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، فيظهرون الإيمان ويبطنون الكفر حقنًا لدمائهم أو تحقيقًا لغرض دنيوي.

قال ابن عباس ﷺ: نزلت هذه الآيات في منافقي أهل الكتاب، كانوا إذا لقوا المؤمنين يظهرون الإيمان والتصديق ويقولون: إنا لنجد في كتابنا نعته ووصفه[3].

والنفاق على نوعين:

النوع الأول: نفاق في العقيدة: وهو الذي ظهر في المدينة وانتشر أمره بعد أن صار

(١) للدوري عن أبي عمرو الفتح والإمالة في لفظ (الناس) المجرور حيث وقع في القرآن.

(٢) قرأ خلف عن حمزة بإدغام النون في الياء من (من يقول) من غير غُنة، وكذا إذا وقع بعد النون واوًا مثل: (غشاوة ولهم) في الآية السابقة ونظائرهما في القرآن كله، والباقون بالغنة مع الإدغام.

(٣) «تفسير الفخر الرازي» (٢/ ٦١).

للإسلام قوة ودولة، حيث أعزّهم الله وأذلّ غيرهم، فعادوا الإسلام سِرًّا، وأظهروا الإيمان بألسنتهم خوفًا ومخادعة، وهذا النفاق يخرج من الملة، وهو الذي يخلّد صاحبه في النار ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ [النساء]. وهذا النفاق هو الذي جاء وصفه في هذه الآيات.

النوع الثاني: نفاق في السلوك والعمل:

كما قال النبي ﷺ: **«أربعٌ من كنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها؛ من إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان**[1] -وفي رواية:- **وإذا خاصم فجر وإذا عاهد غدر»**[2].

وهذا النفاق العملي من أكبر الذنوب ولكنه أدنى من نفاق العقيدة.

وقد ظهر النفاق في المدينة بعد انتصار المسلمين في غزوة بدر، وكان على رأسهم (عبد الله بن أبي بن سلول) فقد كان سيد الأوس والخزرج، وكانوا قد عزموا على أن يملّكوه عليهم، فلما جاء النبي ﷺ حقد عليه وأبطن في قلبه عداوته والكيد له وللإسلام وأهله، وظهر النفاق في أهل المدينة وفي اليهود، وكان منهم: الجد بن قيس، ومتعب بن قشير، والجلاس بن سويد، وعبد الله بن سبأ، ولبيد بن الأعصم، والأخنس بن شريق، وزيد القينقاعي، ووديعة بن ثابت، ومخشن بن حمير، وأبو عفك، وعصماء بنت مروان، وبشير بن أبيرق، وثعلبة بن حاطب، وبِشْر المنافق.

قال ابن عباس ﷺ المنافقون على عهد رسول الله ﷺ كانوا ثلاث مئة من الرجال ومئة وسبعين من النساء، والذين تخلفوا في غزوة تبوك كانوا بضعة وثمانين.

الوصف الأول من صفات المنافقين: أنهم كَذَبَةٌ:

لأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، اعتقادًا منهم -لجهلهم- أنهم يخدعون الله

---

(١) ينظر «صحيح البخاري» برقم (٣٤، ٣١٧٨، ٢٤٥٩)، ومسلم (٥٨) وأبوداود (٤٦٨٨) والترمذي (٢٦٣٢).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٢٣٢٧) والنسائي في السنن الكبرى: (٨٦٨١) والمسند (٦٧٦٨) وابن حبان: (٢٥٤) والحديث عن عبدالله بن عمرو بن العاص.

تعالى والذين آمنوا، فالمنافق يخالف قوله فِعْلَه، وسِرَّه علانِيتَه، ومَدْخَلَه مخرجَه، ومخبرُه مظهرَه، فهو يظهر الخير ويبطن الشر، يُظهر المودّة وحُسن الصحبة، ويبطن الغل والحسد، يظهر الحرص على المصلحة، ويبطن إفسادها وتقويض أركانها.

فأول صفة من صفات المنافقين في عقيدتهم أنهم كذبة، يظهرون ما لا يبطنون، أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، يظهر للمؤمن المحبة ويُبطن له العداوة، يقول كلامًا معسولًا ويُكِنُّ في قلبه بغضاءً وكراهيةً، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ الناسُ: جمعٌ لا واحد له من لفظه، وواحده (إنسان وإنسانة) أو أصله (أناس) أُسقطت الهمزة وأُدغمت اللام في اللام.

وأجمع المفسرون على أن المراد بالناس في الآية: المنافقون، وهم ﴿مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ والله تعالى يكذِّبهم في دعواهم بقوله: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ في الحقيقة، ولكنهم كذَّابون منافقون، لأن الإيمان الحقيقي هو ما تواطأ عليه القلب واللسان.

الْوَصْفُ الثَّانِي لِلْمُنَافِقِينَ: أَنَّهُمْ مُخَادِعُونَ:

٩- ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ[1] إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾

المخادعة: أن يُظهر المخادِع لمن يُخادعه شيئًا ويُبطن خلافهُ كي يظفر بمقصوده ممّن يخادع، والمنافقون يحتالون على الله تعالى وعلى عباده الصالحين، فيسلكون هذا المسلك في أمور الدنيا والدين، ولكنهم لا يضرون إلا أنفسهم، فيفضحهم الله في الدنيا ويخزيهم، ولهم في الآخرة عذاب مؤلم بسبب كذبهم وفجورهم.

والمنافقون يظنون أنهم أذكياء يخدعون الله تعالى، ويخدعون الناس بإخفاء بواطنهم، فهم ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ حين أسرُّوا الكفر وأظهروا الإيمان، وهم في الحقيقة يخدعون أنفسهم ولا يخدعون رب العالمين ومخادعته لهم جاء من باب المشاكلة اللفظية، ومعناها: معاقبتهم على سوء صنيعهم، فهو وحده يعلم حقيقة أمرهم، يعلم بواطنهم وظواهرهم، وسوف يعاقبهم على أفعالهم وأقوالهم، ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾؛ لأن

---

(١) وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو (وَمَا يُخَادِعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم) لمناسبة اللفظ الأول (يُخَادِعُونَ اللّهَ) ويجوز أن تكون المفاعلة من الجانبين، ويجوز أن تكون من جانب واحد، فخداعهم لأنفسهم ضررُهم لها بتمنيهم الباطل، وخداع الله لهم عقوبتهم على مكرهم، وقرأ الباقون (يَخْدعون) من خدَع الثلاثي.

الضرر يعود عليهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] فهم يضرون أنفسهم دون أن يشعروا، والله تعالى لا يتضرر من خداعهم، والمؤمنون لا يضرهم كيدهم شيئا، فعاد خداعهم على أنفسهم، وإن حققوا بعض المكاسب من وراء هذا المكر، فسلمت أموالهم وحقنت دماءهم، ولكن عاقبتهم وخيمة، فيها ذل وهلاك وخزي وندامة.

الْوَصْفُ الثَّالِثُ: الْمَكْرُ وَمَرَضُ الْقُلُوبِ:

١٠- ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ[١] بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ[٢] ﴿١٠﴾﴾

أي: أن السبب في نفاق المنافقين أنَّ قلوبهم فيها مرض، مرض الشهوات والشبهات ليس مرضًا جسديًا ولا حسيًا إنما هو مرضٌ في الدِّين؛ مرضٌ معنويٌّ، شكٌّ ونفاقٌ وشبهات، وكفر في العقيدة ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ومن مرض الشهوات: حب الزنى والفواحش وسائر المعاصي كما قال تعالى ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾[الأحزاب: ٣٢]. قال تعالى مبينا ما يترتب على حب المعاصي: ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ أي زادهم ريبة وشكًّا، ابتلاء من الله سبحانه، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة]. فالمنافق مولع بحب الشهوات والشبهات، وبسبب مكره وخداعه يزداد حبًّا للمعاصي والفواحش، فيغرق في الربا ويغرق في الزنى وغيرهما، ويكره أهل الطاعة والإيمان.

وكما يزداد المنافق نفاقًا والكافر كفرًا فإن المؤمن يزداد إيمانًا، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤] والمهتدي يزداد هدى ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧]. والمعافَى من حصل له اليقين وصدق الإيمان، فصبر على أداء الطاعات، وصبر على ترك الشهوات والشبهات، ورفل في ثوب العافية والهداية.

---

(١) عد هذه الكلمة (أليم) آية المصحف الشامي، وأسقطها غيره من العدد.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر ويعقوب (بِمَا كَانُوا يُكَذِّبُونَ) بضم الياء وفتح الكاف وتشديد الذال مضارع كذَّب المضعف المعدَّى من التكذيب لله والرسول، والمفعول محذوف تقديره (يكذبونه) والباقون وهم عاصم وحمزة والكسائي وخلف بفتح الياء وسكون الكاف وتخفيف الذال من كذَب اللازم هكذا (يَكْذِبونَ) وهو من الكذب الذي اتصفوا به، كما أخبر الله عنهم.

ثم توعَّد الله سبحانه المنافقين بالعذاب الموجِع يوم لقائه؛ جزاءَ نفاقهم وتكذيبهم فقال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾.

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾ [المجادلة].

والنفاق ينشأ عنه صفات ذميمة كثيرة منها: الكذب والخوف والخداع والجهل والسفه واللؤم والعزلة والجبن وعداوة الناس والعجز والغرور وجفاء الطبع وفساد الرأي، فهؤلاء المنافقون لم يخدعوا الله تعالى؛ لعلمه بما يُسِرُّون، ولم يخادعوا المؤمنين؛ لأن الله تعالى يدفع عنهم الضرر الذي يلحق بهم من مكرهم وخداعهم، وإنما يخدعون أنفسهم؛ لأن الضرر يعود عليهم، والمريض إذا لم يُعالج يزداد مرضه، وينشأ عنه أمراضٌ أخرى، فإن الانحراف يبدأ يسيرا ثم تنفرج الزاوية وتزداد، وكان المنافقون يدْعُون في السر إلى تكذيب الرسول ﷺ وإلقاء الشُّبَه في طريق دعوته، والتحالف مع المشركين ضد المسلمين كلما وجدوا إلى ذلك سبيلًا.

الْوَصْفُ الرَّابِعُ: دَعْوَى أَنَّهُمْ مُصْلِحُونَ:

١١- ﴿وَإِذَا قِيلَ[١] لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ[٢] ﴿١١﴾﴾

وإذا نُهِي المنافقون عن الإفساد في الأرض بالكفر والمعاصي وإيذاء العباد وموالاة غير المسلمين ونحو ذلك، قلبوا الحقائق، وادَّعَوْا أنهم مصلحون، ففعلوا الباطل وجعلوه حقًّا.

أي: أنهم يدَّعون الصلاح وهم المفسدون في الحقيقة، فهم يزعمون أنهم يفعلون الأصلح، والواقع أنهم مفسدون ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بالمعاصي وبالكفر والشكِّ في دين الله وبإثارة الفتن والقلاقل في المجتمعات، وبموالاة الكفار، وإفشاء أسرار المؤمنين، والكذب عليهم، وتضييع فرائض الله، وارتكاب ما حرم الله؛ يكون

---

(١) قرأ هشام والكسائي ورويس بإشمام كسرة القاف حركة الضم من (قيل) فينطق القارىء بجزء من الضمة أوَّلًا يليه جزء من الكسرة وهو الأكثر، وهذه لغة قيس وعقيل، وقرأ بقية القراء بالكسر الخالص وهي لغة عامة العرب، وكذا جميع نظائرها في القرآن.

(٢) لم يَعُد هذه الكلمة (مصلحون) آية، المصحف الشامي وعدّها غيره.

جوابهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾، وقد أفسدوا أنفسهم، وأفسدوا أبناءهم، ومن يقتدي بهم، وأفسدوا المجتمع بإلقاء العداوة وإثارة الفتن بين أبنائه، وإلقاء العقبات في طريق المُصلِحين، والمُفسِدُ لا يكون مصلِحًا؛ لأنه ليس لديه دِين ولا خُلق يمنعه من الإفساد في الأرض، والأرض تعمر بالطاعة والإيمان واستغلال ثرواتها في نفع العباد والبلاد، وتفسد بالمعاصي والكفر والنفاق.

الْوَصْفُ الْخَامِسُ: الْإِفْسَادُ فِي الْأَرْضِ:

١٢- ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ (١٢)﴾

ثم رد الله تعالى عليهم مُبيِّنًا لهم أن الفساد ديدنهم وشأنهم، وأن ما هم عليه من النفاق هو عين الفساد، فالسَّفه مقصورٌ عليهم، وهم لا يعلمون ما هم فيه من ضلال وخُسران، ومن ذلك أن أحدهم إذا نُهي عن الفساد في الأرض بالكفر والمعاصي وإهلاك الحرث والنسل، أظهر أنه من أهل الصلاح والإصلاح، قلبًا للحقائق، وجمعًا بين فعل الباطل واعتقاده حقًّا، وفي الآية ردّ الله عليهم دعواهُم، فلا أعظم فسادًا ممن صد عن سبيل الله، وخادع أولياء الله، ووالَى أعداءه.

ومن الإفساد في الأرض: قتل البُرَآء، وإحراق الممتلكات، والتعدي على منشآت الدولة، وفساد الأنظمة، والجَور في الحُكم، والجهر بالمنكرات، والغش والرشوة، واستغلال النفوذ، وأكل أموال الناس بالباطل، وترويع الآمنين، وإتلاف ما على وجه الأرض من ثروات ومتاع وحبوب وثمار وأشجار ونبات، وطير وحيوان، ومنشآت وممتلكات عامة أو خاصة ونحو ذلك.

الْوَصْفُ السَّادِسُ: أَنَّهُمْ سُفَهَاءُ:

١٣- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾

والمنافقون فيهم صفة الكبرياء والعلو، فهم يصفون الذين دخلوا في الإسلام -من أهل الكتاب- بأنهم سفهاء، كعبد الله بن سلام وغيره، من أكابر أحبار اليهود، كما يصفون كذلك ضعفاء المسلمين بالسَّفه ممن دخلوا في الإسلام: كبلال وصُهيب وعمَّار.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي: قيل لهؤلاء المنافقين وأمثالهم إلى قيام الساعة: ﴿ءَامِنُوا۟﴾ إيمانًا حقيقيًا يتواطأ فيه القلب واللسان، بلا نفاق ولا خداع ولا كذب، ﴿كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ أي كما آمن غيركم ممن دخلوا في الإسلام؛ يكون جوابهم: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ فهم يرمونهم بالسفه وضعف العقل والرأي، وسوء التصرف في تدبير الأمور.

والمنافقون في عصر التنزيل يطلقون لفظ (السفهاء) على أصحاب النبي ﷺ، زعمًا منهم أن إيمانهم جعلهم يتركون أوطانهم، ويُعادون غير المؤمنين، ويُلقون بأنفسهم في ساحات الحرب والقتال، ويبذلون أموالهم على الآخرين، فيجعلون ذلك سفهًا، ويَصفون أنفسهم برجاحة العقل وسداد الرأي!!

الْوَصْفُ السَّابِعُ: أَنَّهُمْ جُهَلَاءُ

﴿...[1]أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ۝١٣﴾

ومن جهلهم أنهم اختاروا طريق الضلال، وأعرضوا عن النظر في الأدلة الصحيحة؛ ولذلك يقول سبحانه ردًّا عليهم: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ على الحقيقة ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾، والسفيه: هو الجاهل الضعيف، قليل المعرفة بالمنافع والمضار، فهو لا يعلم مصالح نفسه، ويسعى فيما يضرها، وهؤلاء قد فوّتوا على أنفسهم أعظم المصالح، وخسروا أجلّ المطالب، حين استبدلوا الإيمان بالكفر والنفاق، فوقعوا في أودية الحسرات، وباؤوا بالخسران والهلاك، وهم لا يعلمون سوء ما فعلوه ولا قُبح ما ارتكبوه، فقد أَوْبقُوا دنياهم وأخراهم، وهذا هو السفه الحقيقي.

وقد سمَّى الله من لا يُحسن التَّصرف في الأموال من النساء والصبيان سفهاء، فقال: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ [النساء: ٥] والمنافقون يريدون بهذا الوصف المؤمنين وأصحاب النبي ﷺ، فوصف الله المنافقين بأنهم هم الجُهَّال في اعتقادهم واختيارهم طريق الضلال؛ لأنهم أعرضوا عن النظر في الدليل، وباعوا أُخراهم بدنياهم، وهذا غاية السفه.

---

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بتحقيق همزة (السفهاء) وإبدال همزة (ألا) واوًا خالصة حالة وصل الهمزة الأولى بالثانية في كلمتي (السفهاء ألا)، وقرأ الباقون بتحقيق الهمزتين على الأصل.

الْوَصْفُ الثَّامِنُ: التَّذَبْذُبُ وَالسُّخْرِيَةُ:

١٤- ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ(١)﴾

إنهم يتآمرون على المسلمين في الظلام مع رؤسائهم من اليهود وغيرهم -من شياطين الإنس- على تمزيق الصف الإسلامي، والقضاء على الإسلام وأهله، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾[الأنعام: ١١٢]، فهم إذا خالطوا المؤمنين أظهروا لهم الإيمان والحب بألسنتهم ليحصلوا على مقصودهم منهم، فإذا رجعوا إلى أتباعهم ومن هم على شاكلتهم، قالوا: نحن معكم فيما تعتقدون، وإنما خدعْنا هؤلاء القوم، فاظهرْنا لهم حُبّنا وأننا على طريقتهم، وإلا فنحن لسْنا معهم، ولسنا على دينهم، وهم بهذا أرادوا أن يجمعوا بين عشرة الكافرين وصحبة المؤمنين، فلم يستقم لهم هذا ولا ذاك ، لأن الضدّيْن لا يجتمعان.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: قابلوهم والتقوْا بهم ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ صدَّقنا بالإسلام قبلكم، ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ أي: انصرفوا إلى زعمائهم الكفرة ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ على ملة الكفر، ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: نحن نسخر من المسلمين ونستهزئ بهم، ونستخف بهم، فنُظهر لهم الصلاح؛ لنأمن شرهم ونقف على أسراره.

الْوَصْفُ التَّاسِعُ: أَنَّهُمْ طُغَاةٌ:

١٥- ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ(٢) يَعْمَهُونَ (١٥)﴾

قال سبحانه في الرد عليهم: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أي يمهلهم ويزيدهم حيرة وضلالًا؛ ليظلوا ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يترددون ويتخبطون، وهو سبحانه سيجازيهم ويعاقبهم على استهزائهم، بعد أن يُمهلهم ويتركهم في ضلالهم حيارى مترددين، عقوبة لهم، ثمَّ لا يهملهم بل يجازيهم على سوء صنيعهم يوم القيامة، فإذا كان استهزاؤهم قد راج بين الناس

---

(١) قرأ أبو جعفر بحذف الهمزة وصلا ووقفا من (مستهزءون) مع ضم الزاي، ولورش ثلاثة مد البدل وكذا حمزة وقفًا، وله أيضًا: تسهيلها بين الهمزة والواو، وإبدالها ياء خالصة وحذف الهمزة مع ضم الزاي.

(٢) أمال الألف من (طغيانهم) دوري الكسائي وفتحها الباقون.

وصدَّقوه فإنه لا يخفى على الله سبحانه، وهو الذي سيتولى جزاءهم.

وهذا هو معنى استهزاء الله بهم، ومن عقابه لهم أنه يستدرجهم ويزيدهم من النعم، فيزعمون أن هذا من رضي الله عنهم.

قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [المؤمنون]،

وقال جل شأنه: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨].

ومن عقاب الله تعالى لهم أيضا أنه يعطيهم يوم القيامة مع المؤمنين نورا ظاهرا يمشون به على الصراط ثم يقطعه عنهم، فيبقوا في الظلمة بعد النور متحيرين، وهذا جزاء موافق لصنيعهم في الدنيا من إظهار الإيمان وإبطان الكفر:

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ [الحديد: ١٣]

وعندما ينقطع عنهم النور يستنجدون بالمؤمنين ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝١٤﴾ [الحديد]

الْوَصْفُ الْعَاشِرُ: أَنَّهُمْ عَلَى ضَلَالٍ

١٦- ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ[1] فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ۝١٦﴾

ثم بيَّن سبحانه مصيرهم في الآخرة، وذكر أن تجارتهم في النفاق غير رابحة، وأنهم قد باعوا الهُدى واشتروا الضلالة، بمعنى: أنهم أخذوا الضلالة، ورغبوا فيها رغبة المشتري في السلعة، ببلذل الثمن النفيس فيها، فالضلالة كالسلعة، والهدى كالثمن، فبئست التجارة وبئست الصفقة، باختيار الشقاء على السعادة، إنهم تركوا الهدى، فما ربحوا في تجارتهم، وما كانوا على هدى في ضلالتهم؛ لأنهم فقدوا رأس المال وهو الإيمان، وفقدوا ربحه وهو العمل الصالح، وباعوا أنفسهم في صفقة خاسرة ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ بل خسروا فيها أعظم خسارة ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾، بل تحقق ظلالهم وعدم هدايتهم.

---

(١) أمال الألف من (بالهدى) حمزة والكسائي وخلف، وقلَّلها الأزرق بخلفه.

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٨] إنهم لم يكسبوا شيئًا؛ بل خسروا الربح ورأس المال، وهذا هو الخسران المبين؛ ولذا نفى الله عنهم الهداية وشبههم بمن يريد الربح فيفقد رأس ماله.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر]

والسبب أن المنافقين عدلوا عن الهدى إلى الضلال، وبذلوا الهدى ثمنًا للضلالة فخسرت تجارتهم، وخاب بيعهم، ومن كان هذا منهجه فلن يهتدى أبدًا.

ولأن حال المنافق يخفى على الناس، كان بحاجة إلى ضرب الأمثال:

المَثَلُ الأَوَّلُ لِلْمُنَافِقِينَ: مَثَلٌ نَارِيٌّ:

١٧- ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾

ثم ضرب سبحانه للمنافقين مثلين عظيمي يكشف عن حالهما غاية الكشف؛ ليتضح شأنهما: مثلًا ناريًا ومثلًا مائيًا، وبالمثال يتضح المقال:

أما المثل الأول فهو المثل الناري، هذا المثل يصف رجلًا كان في ظلمة شديدة، وبرد قارس، فأَوْقَدَ نارًا ليستضيء ويستدفئ بها، فلما أضاءت هذه النار ما حولها؛ أبصر الرجل ورأى ما حوله، فأمن على نفسه من المخاوف واستدفأ بها وقتًا يسيرًا من الزمن، فبينما هو كذلك وإذ بهذه النار تنطفئ، فذهب عنه النور وعاد إلى الظلمة، فهو لم ينتفع منها بشيء في الحقيقة، وهذا يُشبه المنافق الذي يُظهر إسلامه؛ ويظهرا الخير للناس كي ينتفع به في الدنيا في ظاهر الأمر؛ فيحقن دمه وماله بذلك، وينتفع انتفاعًا مؤقتًا لا يفيده في الآخرة.

﴿مَثَلُهُمْ﴾ أي مثل المنافقين الذين آمنوا ظاهرًا برسالة محمد ﷺ ولم يؤمنوا باطنًا، ثم كفروا فصاروا يتخبَّطون في ظُلمات ضلالهم ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ في الصحراء في ليلة مظلمة ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ﴾ وانتفع بها بعض الوقت ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ انطفأت النار وأعْتَمت، ثم لم يلبثوا أن ذهب الله بنورهم وأزاله عنهم ﴿وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾، فهم لا يهتدون إلى طريق ولا مخرج، وهذه الظلمات التي تُركوا فيها، منها: ظلمة

الليل، وظلمة الصحراء الموحشة، والظلمة الحاصلة بعد النور، فهم (في ظلمات) يقابلها: ظلمة القبر، وظلمة الكفر، وظلمة النفاق، وظلمة المعاصي، وظلمة عذاب النار يوم القيامة.

فإضاءة النار كإضاءة الإيمان الذي أظهروه، ومجيء الظلمة كحقيقة الكفر الذي في قلوبهم، وفي سورة الحديد شرحٌ وبيانٌ لهذا المثل ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴿١٣﴾﴾ [سورة الحديد: ١٣] وسواء أكان هؤلاء القوم قد دخلوا في الإسلام نفاقًا من أول الأمر، أم أنهم كفروا بعد إيمانٍ؛ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴿٣﴾﴾ [المنافقون: ٣].

وفي الآية توحيدُ النور وجمعُ الظُّلمات؛ لأن الحق واحد، والباطل متعدِّد، وقد دخلوا في الإسلام أوّلًا، ثم تحولوا عنه إلى الكفر أو النفاق، فهم لم ينتفعوا بإيمانهم في كلتا الحالتين لأنهم:

١٨- ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴿١٨﴾﴾

والسبب في ذلك أن المنافق قد عطَّل سمعه وبصره ولسانه؛ فلم ينتفع بها ويستعملها فيما خُلقت من أجله، فهُم صمٌّ عن سماع الحق والخير والهدى، فكأنهم لا يسمعون، وبُكْمٌ عن النطق بالحق، فكأنهم لا يتكلمون، وعميٌ عن رؤية الحق وإبصار نور الهداية، فكأنهم لا يبصرون، فهم لا يرجعون عن ضلالهم ونفاقهم ويعودون للإسلام، لأنهم تركوا الحق بعد ما عرفوه فلا يرجعون إليه، بخلاف من ترك الحق عن جهل وضلال، فهو أقرب رجوعًا منهم.

المَثَلُ الثَّانِي لِلْمُنَافِقِينَ: مَثَلٌ مَائِيٌّ:

١٩- ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ[(١)] ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ[(٢)] يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم[(٣)] مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾

هذا المثلُ يصفُ حيرةَ المنافقين وقلقهم وخوفهم بمطرٍ نزل من السماء بغزارة، على

(١) وصل ابن كثير الهاء من (فيه) بحرف مد وقصرها الباقون.

(٢) قرأ خلف عن حمزة بترك الغنة في هذه الألفاظ الثلاثة: (ظلمات ورعد وبرق يجعلون) مع الإدغام.

(٣) أمال الألف بعد الذال من (آذانهم) دوري الكسائي.

جماعة في صحراء موحشة، وهذا المطر فيه ظُلمات ورعدٌ وبرق، ظلمة الليل وظلمة السحاب وظلمة المطر، وفيه صوت يُسمع من السحاب، وضوء يشاهد مع السحاب، فإذا ظهر البرق في تلك الظلمات، فإنه يترك وميضًا من النور يمكن للمنافق أن يرى من خلاله، ويسير في ضوئه وقتًا يسيرًا من الزمن، وإذا أظلم عليهم وقفوا، وبينما هم كذلك وإذْ بهذا البرق يتوقف فجأة، فينقطع هذا الضوء، ويصبح المرءُ حائرًا مترددًا بين ظلمات الجوِّ، وقصف الرعد، ولمعان البرق، والصواعق المحرقة. وهكذا حال المنافقين إذا سمعوا أوامر القرآن ونواهيه ووعده ووعيده، جعلوا أصابعهم في آذانهم وأعرضوا عنه، كما يضع من يسمع الرعد أصبعه في أذنيه خشية الموت، وطمعًا في السلامة عنه.

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ أي: مطر غزير نزل من السماء، وذلك حين يسوق الملَك السحابَ بسيف من حديد في يده؛ فينزل الماء، ويُسمع الصوت، ويظهر لمعان البرق، كما ورد في الآثار:

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: أقبلت يهودٌ إلى رسول الله ﷺ يسألونه عن خمسة أشياء، منها أنهم قالوا: يا أبا القاسم، أخبرنا ما هذا الرعد؟ قال: «**ملَك من ملائكة الله موكَّل بالسحاب، بيده أو في يده مخاريق من نار، يزجر به السحاب ويسوقه حيث أمره الله تعالى**» قالوا: فما هذا الصوت الذي يُسمع؟ قال: «**صوته**» قالوا: صدقت[1].

وفي هذا المطر ظُلماتٌ ورعدٌ وبرقٌ يبعث على الفزع والرعب؛ ولذا فهو خائفٌ قلِقٌ من شدة الهول، ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾ خوفًا من الهلاك، ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فهم لا يفوتونه ولا يُعجِزونه، وهو سبحانه يُحصِي أعمالهم ويحفظها وسيُجازيهم عليها ويعاقبهم. والآية التالية تستكمل صورة هذا المثل المائي:

---

(١) من حديث طويل في «المسند» بتصحيح أحمد شاكر رقم (٢٤٨٣) وأفاد محققو المسند بإشراف د/ التركي أنه حديث حسن دون قصة الرعد، فقد تفرّد بها بُكَيْر بن شهاب، وقد أثنى عليه الذهبي وأبو حاتم، كما في المسند (٢٥١٤) دون قصة الرعد، وأنكروا القصة. وهو في «سنن الترمذي» (٣١١٧) «وصحيح سنن الترمذي» برقم (٢٤٩٢) بتصحيح الألباني له، وكذا في السلسلة الصحيحة (١٨٧٢) وأخرجه النسائي في «السنن الكبرى» برقم (٩٠٢٤) وهو في «تحفة الأشراف» (٤/ ٣٩٤) ونسبه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٤٢) إلى أحمد والطبراني وقال: رجالهما ثقات.

هذا: ولا أرى فيما قيل عن بُكَيْر، ما يستوجب إنكار القصة، أو تجريحه، والله أعلم.

٢٠- ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ[(١)] كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ[(٢)] اللَّهُ لَذَهَبَ[(٣)] بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: يوشك هذا البرق -من شدة لمعانه- أن يسلب أبصارهم: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾، فكلما ظهر لهم وَميضٌ من البرق وشعاعٌ من النور مشوا فيه: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ﴾، فإذا انطفأ عليهم وقفوا في أماكنهم حيارى مترددين لا يبصرون الطريق ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾، والله سبحانه قادرٌ -في كل وقت- على أن يسلبهم أسماعهم وأبصارهم ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾، وفي هذا تحذير وتخويف لهم بالعقوبة الدنيوية ليحذروا فيرتدعوا عن نفاقهم والله قادرٌ على كل شيء في كل وقت: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. لا يعجزه شيء.

وهكذا غير المؤمن بدين الإسلام، وبرسول الإسلام، فإن عمله الصالح لا يفيده شيئًا.

والأدلة في هذا متضافرةٌ؛ كقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾ [النور: ٣٩].

﴿مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨].

وهكذا وصف الله المنافقين في هذه الآيات بعشرة أوصاف قبيحة، تدل على رسوخهم في الضلال؛ وهي: الكذب والخداع والمكر والسَّفه والاستهزاء والإفساد في الأرض والجهل والضلال والتذبذب والسخرية بالمؤمنين.

عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**القلوب أربعة: قلبٌ أجرد، فيه مثل السراج يُزْهر، وقلبٌ أغلف مربوطٌ على غلافه، وقلبٌ منكوسٌ، وقلبٌ مُصْفَح، فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن، سراجه فيه نوره، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق الخالص، عَرَف ثم أنكر، وأما القلب المصفح فقلبٌ فيه إيمان ونفاق، ومَثَل الإيمان فيه كمثل البقْلَة، يمُدُّها الماء الطيِّب، ومثل النفاق فيه كمثل**

(١) أمال ألف (أبصارهم) أبو عمرو ودوري الكسائي والصوري عن ابن ذكوان بخلف عنه، وقلّلها الأزرق.

(٢) أمال الألف من (شاء) ابن ذكوان وحمزة وخلف العاشر والداجوني بخلف عن هشام.

(٣) أدغم باء (لذهب) في الباء بعدها أبو عمرو ويعقوب بخلف عنهما.

القُرَحة، يمُدُّها القيح والدم، فأي المدَّتيْن غلبت على الأخرى غلبت عليه»(١).

والمصفح هو الذي له وجهان، والأجرد: الخالي من الغلاف والنفاق. والأغلف: الذي له غلاف يمنع دخول الحق فيه، والمنكوس: المقلوب.

وعن عبد الله بن عمرو ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«ثلاثٌ من كُنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه واحدة منهنَّ كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدَعَها؛ من إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتُمن خان»**(٢).

وفي لفظ مسلم: **«أربع من كنَّ فيه... والرابعةُ: وإذا خاصم فجر»**(٣).

دَعْوَةُ النَّاسِ جَمِيعًا إِلَى أَصْلَيْنِ: هُمَا الإِيمَانُ بِالله تَعَالَى وَبِخَاتَمِ رُسُلِهِ

٢١- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴿٢١﴾﴾

ثم وجَّه الله سبحانه وتعالى النداء إلى البشر جميعًا بمختلف فرقهم وطوائفهم؛ المؤمنين والكفار والمنافقين، فأمرهم أن يعبدوا الله وحده، الذي أوجدهم من العدم وربَّاهم بنعمه، وأن يدينوا له بالإسلام دون غيره، فهو كلمة الله الأخيرة إلى جميع خلقه. وهذا الإسلام يقوم على **أصلين عظيمين**:

الأصل الأول: الإيمان بالله وحده، وهو مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله، وكلمة التوحيد هذه تعني إخلاص العبادة والتوجه بها إلى الله وحده.

والأصل الثاني: هو الإيمان بمحمد ﷺ وبما جاء به من عند الله؛ باتباع أمره واجتناب نهيه، وتقديم طاعته ومحبته على هوى النفس وطاعتها، وهو مقتضى أشهد أن محمدًا رسول الله.

وقد دلَّت سورة البقرة في صدرها على هذين الأصلين العظيمين، وبيَّنت عاقبة المكذِّبين

---

(١) «المسند» (٣/ ١٧) برقم (١١١٢٩) قال محققوه: بإسناد ضعيف، لضعف ليث، وانقطاع أبو البختري، لأنه لم يدرك أبا سعيد الخدري، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين، وأخرجه الطبراني في الصغير (١٠٧٥) وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٣٨٥) وقال ابن كثير (١/ ١٩٣): وهذا إسناد جيد حسن، ط دار طيبة.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣٤) و«صحيح مسلم» برقم (٥٨).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٥٨) و«صحيح البخاري» (٣٤، ٢٤٥٩، ٣١٧٨).

والكافرين بهما، كما بيَّنت النعيم الذي أعده الله سبحانه للمتقين المصدِّقين؛ المؤمنين بهذين الأصلين.

وإلى الأصل الأول يشير قول الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، وإلى الأصل الثاني يشير قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾.

أما الأصل الأول: وهو توحيد الله سبحانه، فإن مقتضى هذا التوحيد أن الذي تفرَّد بالخَلق -سبحانه- هو وحده الذي يتفرَّد بالعبادة؛ لأنه قد خلق الخلق وحده، فهو إذن مستحقٌّ للعبادة دون سواه، فلا يُتخذ معه أندادٌ ولا شركاء، لا شركٌ أكبر، ولا شركٌ أصغر، ولا شركٌ خفي، فلا يُرجى غير الله، ولا يُعتقد النفع والضُّر إلا من عند الله، ولا يُخاف إلا من الله سبحانه، ولا يُدْعى غير الله، ولا يُذبح أو يُنذر لغير الله، ولا يُتوسط إليه بأحد من خلقه، ولا يُشرك معه غيره في جميع أموره.

ولا يجوز أن يقول العبد لأحد من خلق الله - قضى له مصلحة أو قدَّم له معروفًا: (لولا الله وأنت ما كان كذا).

ولا أن يقول له: (ما شاء الله وفلان) فإنه من باب الشرك، وقد خاطب الله في الآية الناس جميعًا، من لدُن نزول القرآن إلى قيام الساعة، فأمرهم جميعًا بإخلاص العبادة لله وحده والإيمان بخاتم النبيين ﷺ، فربُّهم هو الذي أوجدهم من العدم، ورباهم بنعمه، وقد أمرهم بعبادته؛ لعلهم يتقون الله تعالى، فالتقوى هي الغاية من العبادة.

والعبادة تعني: امتثال أوامر الله تعالى واجتناب نهيه، وتصديق خبره.

الْأَصْلُ الْأَوَّلُ: التَّوحِيدُ وَأَدِلَّتُهُ الْأَرْبَعَة

ثم أقام الله سبحانه أربعة أدلة على وحدانيته سبحانه، وتفرده بالخَلق والرزق والإحياء والإماتة. . . واستحقاقه للعبادة دون سواه؛ لأنه سبحانه لا يرضى لهم الضلال ولا عذاب النار:

الدليل الأول: نعمة خلق الإنسان:

أي: أن الله سبحانه هو الذي خلق هذا الكون بما فيه، وخلق الناس على مختلف ألسنتهم

وألوانهم، وخلق الأمم السابقة واللاحقة، وأوجدهم من العدم، ورباهم بنعمه الظاهرة والباطنة، وهو سبحانه مستحق للعبادة بمقتضى هذا الخلق؛ لأنه من خصائص الألوهية، فاعبدوه لذاته، واعبدوه؛ لأنه خلقكم وخلق الذين من قبلكم من الأمم السابقة، وأوجدهم من العدم، خلقهم من تُراب، بخلق أبيهم آدم منه، وخلق ذريته من نطفة، والغرض من خلْق الخلق هو تقوى الله وعبادته ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، فقد خلقكم سبحانه لهدفٍ وغاية:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات].

هذا الهدف: هو أن يعرفوا الله سبحانه، ويعمِّروا الأرض التي يسكنوها، ويكونوا خلفاء لمن سبقهم فيها، من عالم الجن ونحوه؛ ليقيموا منهج الله فيها، **وهذه الغاية**: هي تقوى الله سبحانه وطاعته عز وجل، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي لعلكم تتصفون بالتقوى وتكونون من أهلها، فإنكم إن عبدتم الله تعالى، اتقيتم سخطه وعذابه وحصلت لكم النجاة وصرتم من المتقين.

الدَّلِيلُ الثَّانِي: نِعْمَةُ الْأَرْضِ الَّتِي نَعِيشُ فَوْقَهَا

٢٢- ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾

قد يغفل الإنسان عن بعض نعم الله تعالى؛ لأنه يتقلَّب فيها صباح مساء، ومنها هذه الأرض التي نعيش فوقها بما فيها من نعم لا تحصى؛ لأنه يألفها وقد يغيب عنه أن الله سبحانه قد فرشها وبسطها ومهَّدها، وجعلها كالفراش أو البساط الذي يُفرش للإنسان ليمشي فوقه، وهو مظنة الراحة وسهولة الحركة فوق هذه الأرض التي جعلها الله سبحانه مستقرة؛ وأمسكها بالجبال لكي لا تميد بالناس في وسط المحيطات والبحار والأنهار، ليستقروا فوقها، وأمدَّها الله سبحانه بالعناصر التي تُصلح حياة الإنسان، ولو فُقد منها عنصرٌ واحدٌ ما استقامت حياة الناس، فمثلًا: لو فقد الإنسان عنصر الهواء -من فوق الأرض- ما استطاع أن يلتقط أنفاسه، ولو فقد عنصر الماء ما عاش إلا زمنا يسراً.

وهكذا، فالله سبحانه قد أمدَّ هذه الأرض بالعناصر المكتملة المعروفة، والمقررة في مختلف العلوم التجريبية؛ لكي يحيا الإنسان عليها ويعيش فوقها، وهي مع ذلك مُسخَّرة مذلَّلة للإنسان كي يمشي في مناكبها ويأكل من رزقه سبحانه، ذلكم قول الله سبحانه

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾. تستقرون عليها، وتنتفعون بالأبنية والزراعة والحراثة، وتنتقلون من مكان إلى مكان، وغير ذلك من وجوه الانتفاع.

وهذا كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [غافر].

الدَّلِيلُ الثَّالِثُ: نِعمةُ جَعْلِ السَّمَاءِ بِنَاءً:

وهل تستفيد أنت أيها المخلوق من هذه السماء؟ ربما لا يستشعر الإنسان هذه النعمة العظيمة، وبشيء من التأمل والفكر يُدرَكُ أن حياة الإنسان فوق هذه الأرض مرتبطة بالسماء، وأن صلة السماء بالأرض وثيقة، وأنه لا يمكن للإنسان أن يعيش على وجه هذه الأرض بدون السماء، فالسماء سقفٌ للأرض، أودع الله فيها ما هو ضروري لكم كالشمس والقمر والنجوم، وهي مرفوعةٌ كالسقف فوق البيت، والأرض مفروشةٌ كالبساط، والإنسان كمالك البيت، وفيه أنواع النبات وأصناف الحيوان وغيرهما، خلقها الله لصالح الإنسان، فيجب عليه أن يشكر من سخَّر له هذه الكائنات.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء] السماء سقفٌ للأرض، فهي تمدُّها بالطاقة، تمدُّها بالحرارة، وتمدُّها بالضوء، وتمدُّها بالماء والمطر وغير ذلك، وبغير هذه العناصر لا يمكن للإنسان أن يعيش فوق هذه الأرض، ذلكم قول الله سبحانه ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾، و كل ما علا الإنسان فهو سماء والمراد بالسماء هنا السحاب.

الدَّلِيلُ الرَّابِعُ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: نِعْمَةُ الْمَاءِ:

وهو المادة الأساس لكل كائن حي ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] فلا يمكن لأي كائن في الأرض -من شجر أو نبات أو إنسان أو حيوان أو طير- أن يعيش بغير نعمة الماء.

عن ابن عباس ﷺ قال: يرسل الله الريح، فتحمل الماء من السحاب فيمر به السحاب، فَتُدِرُّ كما تدر الناقة، وتحاج مثل العزالى، غير أنه متفرق[(١)].

(١) ورجاله ثقات، «تهذيب الكمال» (٧/ ١١٤) وقد أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (٧١٣) وابن أبي حاتم.

والعزالى: جمع عزلاء، والمراد: مصب الماء، كما قال تعالى:

﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾ [النحل: ١١].

وهذا الماء يُخرج الثمرات التي يأكل منها الإنسان ويتغذَّى بها؛ ولذا فإن الله سبحانه اقتصر على ذكر الثمرات: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقًا لَّكُمۡۖ﴾.

به ترزقون فتقتاتون وتعيشون.

قال سبحانه مرتبًا على خصائص الألوهية وأدلة التوحيد: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي: أن الله الذي خلقكم ورزقكم وأمدَّكم بوسائل الحياة، هو وحده المستحق للعبادة، فلا تجعلوا له نظراء في العبادة، ولا تجعلوا له شركاء تعبدونهم وتحبونهم ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ تفرُّده بالخلق والرزق، واستحقاقه للعبادة دون سواه، لا تجعلوا له شريكًا أكبر، ولا شريكًا أصغر، ولا شريكًا خفيًّا.

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قلت: يا رسول الله: أي الذنب أعظم؟ قال: **«أن تجعل لله نِدًّا وهو خلقك»**[1].

وفي حديث معاذ رضي الله عنه عن النبي : **«أتدرون ما حق الله على عباده؟ أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا»**[2].

وفي حديث حذيفة ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«لا يقولن أحدُكم: ماشاء الله وشاء فلان؛ ولكن ليقل: ماشاء الله، ثم شاء فلان»**[3].

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٤٧٧، ٤٧٦١، ٦٠٠١) و«صحيح مسلم» برقم (٨٦) وأبو داود (٢٣١٠) والترمذي (٣١٢٨) و«المسند» (٣٦١٢).

(٢) البخاري برقم (٢٨٥٦، ٥٩٦٧، ٦٢٦٧، ٦٥٠٠، ٧٣٧٣) ومسلم برقم (٣٠).

(٣) رواه أبو داود في السنن برقم (٤٩٨٠) و«المسند» (٢٣٢٦٥، ٢٣٣٤٧، ٢٣٣٨١) قال محققوه: حديث صحيح، وإسناد رجاله ثقات، و«السلسلة الصحيحة» (١٣٨) والنسائي في «الكبرى» (١٠٨٢١) وفي عمل اليوم والليلة (٩٨٥) وابن ماجه (٢١١٨) وابن أبي شيبة (٩/ ١١٧) والطيالسي ٤٣٠.

وقال رجلٌ للنبي ﷺ: ماشاء الله وشئت، فقال: **«أجعلتني لله ندًا، قل: ماشاء الله وحده»**[(١)].

قال ابن عباس ﷺ: (الأنداد هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمات الليل) وهو أن يقول: والله، وحياتك يا فلانة، وحياتي، ويقول: لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البطُّ في الدار لأتى اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ماشاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان... لا تجعل فيها فلانًا؛ فإن هذا كله به شرك[(٢)].

هذا: وقد جمعت هذه الآية بين الأمر بعبادة الله وحده في قوله ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ والنهي عن عبادة غيره في قوله ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾ وذَكَرتِ الدليل على وجوب عبادة الله تعالى وبطلان عبادة من سواه في قوله ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ وقوله ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا﴾ الآية واستهل ذلك بذكر الرب ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ وفيه توحيد الربوبية المتضمن للخلق والرزق والتدبير، وفي هذا إقرار بوحدانية الله تعالى.

إنَّ وجود الله تعالى وآثار قدرته ووحدانيته أمرٌ فطريٌّ لا يحتاج إلى دليل:

١- سُئل أعرابيٌّ عن الدليل على وحدانية الله عز وجل، فقال الأعرابي بفطرته وسجيته: يا سبحان الله! البعرةُ تدل على البعير، وأثر الأقدام يدل على المسير، فسماءٌ ذات أبراج، وأرضٌ ذات فجاج، وبحارٌ ذات أمواج، كيف لا تدل على اللطيف الخبير؟!

٢- وسأل بعضُ الزنادقة الإمام أبا حنيفة عن الدليل على وحدانية الله سبحانه وتعالى، فقال لهم: أمهلوني بعض الوقت، فإني مشغولٌ بأمر هام، قالوا: وما ذاك؟ قال: يقولون: إن بالبحر سفينةٌ مليئةٌ بالتجارة، ومليئةٌ بالناس، ومع ذلك فهي تذهب وتجيء وتخوض غمار البحر، وتُلاطِم الأمواج بنفسها، دون أن يكون لها سائقٌ، أو قائدٌ يقودها، أو حارسٌ يحرسها، قالوا: لا يقول هذا عاقلٌ، هذا كلامٌ غير معقول، سفينةٌ موقرة بالتجارة والناس وهي تذهب وتجيء في عرض البحر منتظمة، دون وجود قائد يقودها؟! هذا كلام

---

(١) عن يزيد بن الأصم عن ابن عباس، «سنن النسائي الكبرى» برقم (١٠٨٢٥) و«سنن ابن ماجه» برقم (٢١١٧) وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» برقم (١٧٢٠) وأحمد شاكر في «المسند» برقم (١٨٣٩، ١٩٦٤، ٢٥٦١) وهو حديث صحيح لغيره وصحيح «الأدب المفرد» (٦٠١) و«السلسلة الصحيحة» (١٣٩) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢٩٣).

(٢) رواه ابن أبي حاتم بإسناد حسن، وقال ابن حجر: سنده قوي «العجاب في بيان الأسباب» (ص٥١).

غير معقول! قال أبو حنيفة: وهل يُعقل أن يكون هذا الكون بعلْويه وسفْليه، وهو يسير وَفق هذا النظام المحكم الدقيق، دون وجود صانع صَنَعه؟! فأقبل عليه الزنادقة، وأسلموا وحسُن إسلامُهم.

٣- وسئل الإمام الشافعي دليلًا عن وحدانية الله سبحانه، فقال: هذه ورقة التوت، شكلها واحدٌ، وطعمُها واحدٌ، يأكلها الدود فتصبح حريرًا، ويأكلها النحل فتخرج عسلًا، وتأكلها البهائم فتخرج رَوْثًا وبعرًا، وتأكلها الظباء فتخرج مِسْكًا، فسبحان الخلاق العظيم!!

٤- وسئل الإمام أحمد عن وحدانية الله تعالى، فقال: ههنا حصنٌ حصينٌ أملس، ليس له بابٌ ولا منفذ، ظاهره كالفضة البيضاء، وباطنه كالذهب الإبريز، فبينما هو كذلك إذ انصدع جداره، فخرج منه حيوانٌ سميعٌ بصيرٌ، وصوتٌ مليحٌ، فمن يستبعد هذا، كيف يتصور أن يوجد هذا الكون بدون موجد؟![1]

٥- قال يحيى بن زكريا عليهما السلام: «**إنَّ الله أمرني بخمس كلماتٍ أن أعملَ بهن، وآمركم أن تعملوا بهن، وأُولهن: أن تعبدوا الله، لا تشركوا به شيئًا، فإنَّ مثَلَ ذلك مثَل رجل اشترى عبدًا من خالص ماله، بورِق أو ذهب فجعل يعمل ويؤدي غلّته -أي عمله- إلى غير سيده، فأيُّكم يَسُرَّه أن يكون عبده كذلك؟ وإنَّ الله خلقكم ورزقكم، فاعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأمركم بالصلاة، فإنَّ الله ينصِب وجهَهُ لوجه عبده ما لم يلتفت، فإنْ صليتم فلا تلتفتوا**»[2] الحديث.

الأَصْلُ الثَّانِي الَّذِي يَقُومُ عَلَيْهِ هَذَا الدِّينُ: الإِيمَانُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ

٢٣- ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾

والإيمانُ بمحمد ﷺ يقتضي بالضرورة الإيمانَ بالوحي الذي نزل عليه من عند الله

---

(١) ينظر فيما سبق «تفسير ابن كثير» (١/ ١٩٧).

(٢) من حديث طويل عن الحارث الأشعري في «المسند» (٤/ ١٣٠) برقم (١٧١٧٠) قال محققوه: وهو حديث صحيح. وقال ابن كثير: هذا حديث حسن، وأخرجه الطبراني في الكبير (٣٤٢٧) والطيالسي (١١٦١) والترمذي (٢٨٦٣) وابن خزيمة (١٨٩٥) وابن حبان (٢٢٣٣) وغيرهم.

تعالى وهو هذا القرآن الكريم، الذي يتحدَّى البشر إلى يوم القيامة، بإعجازه وبلاغته وعلومه وأخباره.

١- لقد تحدَّى الله تعالى الكفار والمشركين في مكة أن يأتوا بمثل هذا القرآن فعجزوا، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور] أي: فليأتوا بقرآنٍ مثل هذا القرآن.

وقد نفى الله سبحانه وتعالى إمكانية ذلك فقال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء].

٢- ثم تحدَّاهم أن يأتوا بمثل عشر سور منه فعجزوا، كما في قوله تعالى:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [هود].

قال تعالى في الرد عليهم: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [يونس].

٣- ثم تحدَّاهم أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه فعجزوا، وقد جاء هذا التحدي في السور المكيَّة في سورة الطور (٣٤) وسورة يونس (٣٨) وهود (١٣) والإسراء (٨٨)، وهي سور مكية، ومع عجزهم فقد شهدوا له بالاعجاز، واعترفوا أنه ليس من كلام البشر، حتى قال الوليد بن المغيرة في وصف القرآن: والله إن له لحلاوة، وإنَّ عليه لطلاوة، وإنَّ أسفله لمغدق، وإنَّ أعلاه لمثمر، وإنه ليعلو وما يعلى.

وتحدَّاهم أيضًا في السور التي نزلت في المدينة أن يأتوا بكلام يُشبه القرآن في نظمه وبلاغته ومعانيه كما في هذه السورة ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ وهذا من أعظم أوصاف النبي ﷺ لقيامه بالعبودية الحقّة لله تعالى ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾.

أي: إن كنتم - أيها المعاندون للرسول، الزاعمون أنه غير صادق - في شك من صدق محمد ﷺ ومن القرآن الذي نزل عليه من عند الله فأتوا بسورة من مثله؛ أي: ما يشبهه ﴿وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم﴾ ورؤساءكم، واستعينوا بمن تريدون من الإنس والجن لتحقيق غرضكم، ﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ في دعواكم، فأنتم تعلمون أنه بشر مثلكم، وأنه أمي من العرب لا

يكتب، وقد أتاكم بهذا الكتاب وأخبركم أنه من عند الله، وقلتم: إنه تقوّله وافتراه، فإن كان الأمر كذلك فأنتم أرباب الفصاحة والبلاغة، فعارضوا هذا القرآن.

والتحدِّي بالقرآن موجَّه إلى جميع الخلق، وهو قائمٌ إلى قيام الساعة، فالقرآن لا يُؤتى بمثله، ولا يُعارض كلام الخالق بكلام المخلوق أبدًا.

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«ما من نبي من الأنبياء إلا قد أُعطي من الآيات ما مثلُه آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة»**[١]، **فهذا القرآن:**

(أ) **معجزٌ بأسلوبه ونظمه:** قال عنه أعداؤه: لقد سمعت قولًا، والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة... والله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ[٢].

فإن شئت أن تُشعِر سمعك وذوقك الفرق بينه وبين كلام البشر -نثْره ونظمه- فأتِ بقارئٍ حسن الصوت يتلو بعض الآيات، وقارنها بخُطَب وشِعْر المصاقِع المفوَّهين.

(ب) **والقرآن معجزٌ في بلاغته:** ولا يعرِفُ ذلك إلا من أُوتي حظًّا عظيمًا من مختار كلام البلغاء المنظوم والمنثور، والمرسل والمسجوع، فالقرآن ببلاغته يبلغُ وجدان السامع، ويصيب موضع الإقناع من عقله وتأثيره المجرَّد دون شرح ولا توضيح، بل يباشر العقول والقلوب.

(ت) **والقرآن معجزٌ في أحكامه وتشريعاته:** فهو يشتمل على أصول العقائد وأحكام العبادات، وقوانين الفضائل والآداب، والتشريع المدني والسياسي والجنائي والاجتماعي والاقتصادي والعسكري، التي تُصلح كل زمان ومكان.

(ث) **والقرآن معجزٌ بعلومه في كل شيء:** بما في ذلك الإنسان والحيوان والجماد والنبات، والشمس والقمر، والليل والنهار، والنجوم والأفلاك، والهواء والسحاب، والماء والدخان، وفيه أصول العُمران، وسُنن الاجتماع، وهو في هذا وغيره يَسْلَم من

---

(١) هذا لفظ مسلم برقم (١٥٢) وهو في «صحيح البخاري» برقم (٤٩٨١، ٧٢٧٤) و«المسند» (٨٤٩١، ٩٨٢٨) والنسائي في «السنن الكبرى» (٧٩٧٧) والبيهقي في «الدلائل» (٧/ ١٢٩).

(٢) من كلام عتبة، كما في تفسير ابن كثير (٧/ ١٦٣).

التعارض والاختلاف في الماضي والحاضر والمستقبل، وكل ما يرد على ذلك فهو من التحريف والتضليل والحقد والجحود من أعداء الإسلام.

(ج) **والقرآن معجزٌ في كل ما هو مجهولٌ للبشر**: من المسائل العلميَّة والتاريخيَّة التي لم تكن معروفة في عصر نزوله، ولا يزال العلم الحديث يكشف عن أسرارها في العلوم الكونيَّة، والفنون الطبيعيَّة، وفي كل عصرٍ ومِصرٍ ولا يسع جهابذة العلم التجريبي إلا الإذعان والتصديق بما جاء به محمد ﷺ.

(ح) **والقرآن معجزٌ باشتماله على أخبار الغيب**: كقصص الرسل مع أقوامهم، وأخبار المستقبل، كيوم القيامة وما فيه، وكل ما غاب عنَّا ولم نره، أو أخبر به القرآن، كحرب الروم والفُرس، وقتال أولي البأس الشديد.

(خ) **والقرآن معجزٌ بسلامته من الاختلاف**: والتناقض والتعارض والأخطاء اللفظيَّة والمعنويَّة، مع طول الزمن وكثرة الأمم وتقدُّم المعارف والعلوم، وإذا ثبت أن القرآن معجزٌ ثبت أن محمدًا ﷺ صادقٌ فيما جاء به من عند الله.

التَّحدِّي بِالقُرْآنِ قَائِمٌ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ

٢٤- ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾

وقد نفى الله سبحانه بأن معارضة القرآن لا تكون في الحاضر، ولا فيما مضى ولا فيما هو آتٍ، ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ أي: إن لم تفعلوا في الماضي، ولن تفعلوا في المستقبل، وعجزتم غاية العجز، وكنتم من المكذِّبين للقرآن، المعارِضين له، الجاحدين لرسالة محمد ﷺ؛ فاعلموا أن هذا دليل نواضح على صدقة وصدق ما جاء به، فيجب عليكم اتباعه، وإلا فإنَّ النار مصيركم ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ﴾ أعدها الله للكافرين وجعل حطبها الناسَ والحجارة، واتقاء هذه النار ليس قاصرًا على عجزهم عن الإتيان بمثل هذا القرآن أو معارضته، بل يكون بتصديق النبي ﷺ والإيمان بما جاء به من عند الله تعالى، وهذا من لوازم الإيمان بالقرآن، وفي هذه الآية **معجزتان**:

الأولى: أنهم لم ولن يعارضوا هذا القرآن.

الثانية: أنهم لا يأتون بمثله في المستقبل، وهذا من الإخبار بالغيب.

وشأنُ القرآن دائمًا إذا ذَكر الجنة أنْ يذكر النار إلى جوارها، وإذا ذكَر الترغيب أن يذكر الترهيب، وإذا ذكر الوعد أن يذكر الوعيد، وإذا ذكر الرجاء أن يذكر الخوف، وهكذا؛ للحثّ على العمل وللعِبرة والاتعاظ؛ ولذا فإن هذه الآيات قسَّمت الناس -بعد دعوتهم إلى عبادة الواحد القهار- إلى صِنفين: المكذِّبين والمؤمنين، وبيَّنت عاقبة كل منهما، وقد ذكرت هذه الآية الصِّنف الأول، الذين تحدَّاهم القرآن أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه، وهم المكذِّبون بما جاء به محمد ﷺ.

والقرآن يخوِّفهم عذاب النار في الآخرة، التي أعدها الله للكفار، وهي تختلف عن نار الدنيا؛ فإن وقودها ليس الحطب، وليس الغاز، وليس الكهرباء؛ بل وقودها الناس والحجارة، كما قال تعالى:

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨﴾ [الأنبياء]

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

وفي الآية دلالة على أن الجنة والنار مخلوقتان، وعلى أن الموحدين العصاة المرتكبين لبعض الكبائر لا يخلدون في النار، لأن الخلود يكون للكافر والمشرك الذي مات على شركه وكفره، أما غيرهما فهو إلى مشيئة الله تعالى.

والمراد بالناس: الكفار.. والناس والحجارة، هم الحطب الذي توقد به نار جهنم والعياذ بالله، ﴿أُعِدَّتْ﴾ هذه النار ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾.

١- وفي الموطأ عن عطاء بن يسار عن زيد بن أسلم: إنَّ شدة الحر من فيح جهنم، فإذا اتصل بها الآدمي اشتعل ونضج جلده، وإذا اتصلت بها الحجارة صُهرت[١].

٢- وعن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**ناركم هذه التي توقدون جزءٌ من سبعين جزءًا من نار جهنم**»، قالوا: يا رسول الله، إنْ كانت لكافية، قال: «**فإنها فُضِّلت عليهن بتسعة وستين جزءًا، كلهن مثل حرها**»[٢].

---

(١) حديث مرسل في «الموطأ» من رواية أبي مصعب برقم (٣٨) ومن رواية يحيى برقم (١٥٤).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣٢٦٥) و«صحيح مسلم» برقم (٢٨٤٣) و«المسند» (٧٣٢٧) ومالك في «الموطأ» (٢/ ٩٩٤) والبيهقي في «البعث» (٥٤٧).

٣- وعنه ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«تحاجَّت الجنة والنار، فقالت النار: أُوثرتُ بالمتكبِّرين والمتجبِّرين، وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم، قال الله تبارك وتعالى للجنة: أنت رحمتي أرحمُ بكِ من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي، أعذِّبُ بكِ من أشاء من عبادي، ولكل واحد منهما ملؤها، فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله، فتقول: قط، قط، قط، فهناك تمتلئ، ويُزوي بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله عز وجل من خلقه أحدًا، وأما الجنة فإن الله عز وجل يُنشئ لها خلقًا»**[1].

٤- وأخرج مسلمٌ عن أبي هريرة أيضًا قال: كنا مع رسول الله ﷺ، إذ سمع وجْبة، فقال النبي ﷺ: **«تدرون ما هذا؟»** قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: **«هذا حجرٌ رُمي به في النار منذ سبعين خريفًا، فهو يهوي في النار إلى الآن، حتى انتهى إلى قعرها»**[2].

نَعِيمُ أَهْلِ الإِيمَانِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ

٢٥- ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ[3] كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

وبعد ذكر جزاء الكافرين، يأتي في هذه الآية ذكر جزاء الصنف الأول من البشر، وهم من آمن بالله تعالى ربًّا وإلهًا واحدًا معبودًا، وآمن بمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا، وعمل صالحا بجوارحه كي يصلح دنياه وأخراه، فكان من الصالحين الذين يصلحون لمجاورة الرحمٰن في جنته فلهم جنات من حدائق عجيبة وبساتين في الآخرة تجري من تحت قصورها وأشجارها وبساتينها الأنهارُ، هذه الأنهار ليس لها جداولُ ولا حُفرٌ تجري فيها، وإنما تجري بقدرة الله عز وجل ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، التي تفجرّ فيها، من أنهار اللبن والعسل والماء والخمر، يُصرِّفونها كيف شاؤوا.

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٥٣٣، ٧٤٤٩) و«صحيح مسلم» برقم (٢٨٤٦).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٤٤) والوجبة هي صوت السقوط.

(٣) قرأ ورش بنقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها، وقرأ حمزة بخلف عن خلاد بالسكت على (ال) وصلًا وله وقفًا السكت والنقل، ولابن ذكوان وحفص وإدريس عن خلف العاشر السكت على (ال) بخلْف عنهم.

ففي الجنة ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشرٍ، قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة]

وقال سبحانه: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ١٥].

وقال عز وجل: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١]

ففيها كل ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، على وجه لا ينقطع ولا يفني.

والله سبحانه وتعالى في الآية التي معنا ذكر **نَعيمَيْن اثنين** من نعيم الجنة:

النعيم الأول: هو ثمر الجنة:

الذي يطعمه المؤمن فيها، وقد وصفه الله سبحانه، بأنه يأتي لأهل الجنة في صورة الثمر الذي أَلِفوه وعرفوه في الدنيا، كي لا يستنكروا شكله، فإذا أكلوه وجدوا الطعم مختلفًا والمذاق مختلفًا، تقول الملائكة للعبد حين يرى هذا الثمر مطابقًا لثمر الدنيا في لونه وشكله: كُلْ يا عبد الله، فاللون واحدٌ، والطعم مختلفٌ، ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ﴾ هذا شكل الفاكهة التي كانت في الدنيا، في المظهر والهيئة، قال تعالى: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ﴾ اللون واحد، والطعم مختلف، أي: أنَّ ثمر الجنة يتفق في شكله مع ثمر الدنيا ويختلف في طعمه ومذاقه.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «**إن الله لما أخرج آدم من الجنة زوَّده من ثمار الجنة وعلمه صنعة كل شيء، فثماركم هذه من ثمار الجنة، غير أن هذه تغير وتلك لا تغير**»[١].

النعيم الثاني: نعيم الزوجات من الحور العين

وقد وصفهن ربُّنا بصفات: فَهُنَّ أزواج مُطهَّرات من الحيض والنفاس والمني والولد والحمل والإنجاب، ومن البول والغائط، ومن النخامة والبزاق والقذارة، والرائحة الكريهة، وغير ذلك مما هو شأن الإنسان في الدنيا، أزواجٌ مطهَّرات من كل هذا،

---

(١) إسناده صحيح، وهو موقوف لفظًا، مرفوع حكمًا، ينظر تحقيق الشيخ: أحمد شاكر على «تفسير الطبري» (١/ ٣٩٣).

ومطهَّرات من الغِلّ والغِيرة والحقد والحسد والكذب وسوء الخُلُق، كما قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأعراف].

وهُنَّ قاصراتُ الطرف على أزواجهن لا يرَيْن غيرهم، وهم في الجنة دائمون لا يموتون ولا يخرجون منها، وهن متحببات لأزواجهن بالخلق الحسن ، وحُسْن التَّبعُّل والأدب القولي والفعلي، وهن خيرات حسان.

وهذه جملة من الأحاديث في هذا المعنى:

١- في صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أهل الجنة يأكلون ويشربون، ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوَّطون ولا يتمخطون**»، قالوا: فما بال الطعام؟ قال: «**جشاءٌ ورشحٌ كرشح المسك، يلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النفس**»[1] إنهم في الجنة يُلْهَمون الحمد والتسبيح كما يُلْهَمون النفَس، طعامهم جُشاء، ورشحهم كرشح المسك. فالتسبيح يجري على ألسنتهم كما يجري النفَس في الإنسان، لا يشغلهم عنه شاغلٌ، وفضول طعامهم يخرج جشاء وتنفسًا ورشحًا.

٢- وفي الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دُرِّيٍّ في السماء إضاءة، لا يبولون، ولا يتغوَّطون ولا يتْفُلون، ولا يتمخَّطون، أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك، ومجامرهم الألوة وأزواجهم الحور العين على خَلْق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم، ستون ذراعًا في السماء**»[2]

٣- وفي لفظ البخاري أيضًا: «**ولكل واحد منهم زوجتان يُرى مخ سوقهما من وراء اللحم الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم قلب واحد، يسبِّحون الله بكرة وعشيًا**»[3].

٤- وعن أبي هريرة ﷺ قال: قلنا: يا رسول الله، حدِّثْنا عن الجنة، ما بناؤها؟ قال: «**لبنة من**

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٣٥).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٣٤) و«صحيح البخاري» برقم (٣٣٢٧) وهذا لفظه وانظر (٣٢٤٥، ٣٢٤٦).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٣٢٤٥، ٣٢٤٦، ٣٢٥٤، ٣٣٢٧) وينظر مسلم برقم (٢٨٣٤) و«المسند» (٧١٦٥، ٧٤٨٦).

ذهب، ولبنة من فضة، وحَصباؤها اللؤلؤ والياقوت، ومِلاطُها المسك، وتُربتُها الزعفران، مَن يدخلُها ينْعمُ لا ييأس، ويخلُد لا يموت، لا تبلى ثيابُه، ولا يَفْنى شبابُه»[(١)].

٥- وأقل نعيم في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها، كما جاء عن سهل بن سعد الساعدي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ **«موضع سوط أحدكم في الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها»**[(٢)].

٦- وعن أبي هريرة أيضًا أن النبي ﷺ قال: **«القاب قوس أحدكم من الجنة خيرٌ مما طلعت عليه الشمس أو تغرب»**[(٣)].

٧- ومن أراد نعيم الجنة والفوز برضوان الله تعالى فعليه أن يسرع ويبادر بالطاعات:

عن أُبي بن كعب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من خاف أدْلج، ومن أدْلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة، جاءت الراجفة، تتبعُها الرادفة، جاء الموت بما فيه»**[(٤)].

٨- ونعيم الجنة فوق الوصف والخيال:

جاء عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«أول زمرة تدخل الجنة وجوههم كالقمر ليلة البدر، والزمرة الثانية كأحسن كوكب دري في السماء، لكل امرئ منهم زوجتان، على كل زوجة سبعون حُلة، يُرى مُخ ساقهن من وراء الْحُلَلْ»**[(٥)].

---

(١) «صحيح سنن الترمذي» (٢٠٥٠) وفي «المسند» حديث طويل برقم (٨٠٤٣، ٩٧٤٤) قال محققوه: وهو حديث صحيح بطرقه وشواهده، وابن حبان (٧٣٨٧) والبيهقي في «البعث» (٢٨٤)، و عبد بن حميد ١٤٢٠ وهو في سنن الترمذي (٢٥٢٦).

(٢) البخاري (٢٨٩٢، ٣٢٥٠) وانظر: «صحيح مسلم» (١٨٨١) وهو في الترمذي (١٦٤٨، ١٦٦٤) وابن ماجه (٤٣٣٠) والتحفة (٤٧١٦).

(٣) البخاري (٢٧٩٣، ٣٢٥٣) و«المسند» (١٠٢٦٠) وينظر: «صحيح مسلم» (١٨٨٢).

(٤) أخرجه الحاكم (٤/ ٣٠٨) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٩٥٤) ونصفه الأول في «سنن الترمذي» عن أبي هريرة (٢٤٥٠) والحاكم (٤/ ٣٠٧) و«السلسلة الصحيحة» (٢٣٣٥).

(٥) «المسند» (١١١٢٦) وهو حديث صحيح لغيره و«صحيح سنن الترمذي» (٢٠٥٨) والبيهقي في «البعث» (٣٢٨) وابن أبي شيبة (١٣/ ١٠٩)، و الترمذي ٢٥٣٥ وقال: حديث حسن، والطبراني في الأوسط (٩١٩) والبغوي في شرح السنة (٤٣٧٤).

٩- وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجتُه من الحور العين: قاتلكِ الله، فإنما هو عندك دخيل، يوشك أن يفارقكِ إلينا»**[١].

١٠- ونعيم الجنة لا يحول ولا يزول، كما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ثم يقوم مؤذن بينهم: يا أهل النار لا موت، ويا أهل الجنة لا موت، كل خالد فيما هو فيه»**[٢] ويكون ذلك بعد أن يؤتى بالموت في صورة كبش أملح فيذبح على الصراط ثم يقال للفريقين: خلود دائم، لا موت فيها أبدًا[٣].

ضَرْبُ الأَمثَالِ الضَّعِيفَةِ فِي القُرْآنِ لَيسَت مَنفذًا للتَّشْكِيكِ فِيهِ

٢٦- ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾

لمَّا ضرب الله سبحانه وتعالى مثلا للمنافقين بالنار في قوله:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ وضرب لهم المثل الثاني بالماء الغزير، كمطر شديد نزل من السماء، فيه ظلمات ورعد وبرق، قال المنافقون: الله أعلى وأجل من أن يضرب المثل بمثل هذا، وكان هذا مَنفَذًا للتشكيك في القرآن، فهم يشككون الناس في كلام الله تعالى حتى ينكروه، ولا يعترفوا به، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾. . كان هذا شأن المنافقين واليهود بالمدينة.

وفي العهد المكي لما ضرب الله سبحانه المثل بالعنكبوت في قوله:

---

(١) ابن ماجه (٢٠١٤) وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (١٦٣٧) وفي آداب الزفاف (١٧٨)، و«السلسلة الصحيحة» (١٧٣).

(٢) البخاري (٦٥٤٤) ومسلم (٢٨٥٠) وعبد بن حميد (٧٦١).

(٣) انظر الحديث بنحوه عن أبي هريرة في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٤٩٣) وفي سنن ابن ماجه ٤٣٢٧ وفي التعليق الرغيب (٤/ ٢٧٨) وتخريج شرح العقيدة الطحاوية (٥٧٦) والحاكم (١/ ٨٣).

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ [العنكبوت: ٤١].

و ضرب المثل بالذباب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

و ذكر سبحانه النملة و النحل وغيرهما في الكائنات، قال المشركون لا يشبه هذا الكلام الذي فيه العنكبوت والبعوض والذباب أن يكون كلام الله، لماذا يضرب الله المثل بالأشياء الخسيسة؟! أما يستحي أن يضرب المثل بِمثْل ذلك.

فأنزل الله سبحانه يبين أنه جل شأنه كما خلق البعوض خلق الجمل والفيل، وخلق الصغير والكبير، والقوي والضعيف والجليل والحقير، لبيان أن للهِ حكمة في خلقه للشيء الكبير كما أن له حكمة من خلَق الشيء الصغير، وأن هذه الأمثال يضربها الله سبحانه ليوضِّح للناس بالمثل الشيء المضروب له، كي يفهموه ويدركوا حقيقته، والله لا يستحي من الحق، وكأن في هذا جوابًا لمن أنكر ضرب الأمثال بالأشياء الصغيرة، واعترض على الله تعالى في ذلك.

فإذا كان المثل المضروب لهم شيئًا عظيمًا، صوَّره لهم ومثَّله بالشيء العظيم، كما ضرب المثل له سبحانه بالنور والضياء فقال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ [النور: ٣٥]

فهذا مثل لله تعالى مضروب بالنور؛ لأن المضروب له شيء عظيم هو نور الله سبحانه، وإذا كان المضروب له المثل شيئًا حقيرًا، فالله سبحانه يضرب له المثل بما يناسبه، وهذا من تعليم الله تعالى لعباده ورحمته بهم، فيجب أن تتلقى بالقبول والشكر، وليس بالاعتراض عليها:

عن الربيع بن أنس قال: هذا مثلٌ ضربه الله للأنبياء؛ إن البعوضة تحيا ما جاعت، فإذا سمنت ماتت، وهؤلاء الذين ضرب الله لهم المثل إذا امتلؤوا من الدنيا ريًّا أخذهم الله عند ذلك، ثم تلا: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ

بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴿٤٤﴾[1] [الأنعام] وهكذا.

والله سبحانه يتحدَّى البشر أن يخلقوا أوْهن شيء؛ كالذباب مثلًا لإثبات العجز لكل ما يعبد من دون الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ أي: وإن تعاونوا جميعًا على خلقه.

﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا﴾ من أعينهم أو غيرها لا يمكنهم أن يستردوه من الذباب، أو أن يعيدوه مرة ثانية، وهذه حقيقة علميَّة ثابتة، يقول سبحانه: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣]

والطالب هو ا لمعبود من دون الله، والمطلوب هو الذباب، فكلاهما ضعيف.

ويقول جل شأنه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت].

وهذه الأمثلة المضروبة للناس ابتلاءٌ وامتحانٌ، فالمؤمن بالله وبمحمد وبالقرآن يقول: هذا كلام الله، وهذا وحي الله؛ فيزداد إيمانًا ويزداد هدى، بفهمه وتفكيره، معتقدًا أنه الحق الثابت الذي لا يجوز إنكاره؛ وإن خفي عليه وجه الحق فيه، لعلمه بأن الله تعالى لم يضربه عبثًا، بل ضربه لحكمة بالغة ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ فيكون ذلك سببًا لهدايته، كما قال تعالى: ﴿وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾.

وضَرْبُ المثل من الأمور المستحسنة عقلًا، الشائعةِ عند العرب، والكافر هو الذي يَضِل، فيفسق ويخرج عن طاعة الله سبحانه.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ فيعترضون ويتحيرون، ويزدادون كفرا إلى كفرهم، كما ازداد المؤمنون إيمانًا على إيمانهم، فالله جل شأنه لا يستحي أن يضرب أيَّ مثلٍ مهما كان، قلَّ أو كثر، صغُر أو كبُر، جلَّ أو حقُر ﴿بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ أي: ما هو أقل منها وأدنى درجة، وقد ضرب النبي ﷺ المثل بجناح البعوضة.

ومن أمثلة العرب: هو أحقر من ذرة، وأجمع من نملة، وألح من ذبابة.

وهذا المثل يكون سببًا في هداية سليم الفطرة ويكون سببًا في ضلال من انحرف عن الفطرة الصحيحة، فهو لقوم محنة وضلالة وزيادة شر إلى شرهم، ولقوم منحة ورحمة

---

(١) «تفسير الطبري» (١/ ٣٩٨) بتصرف، وأخرج ابن أبي حاتم مثله بسند جيد عن أبي العالية.

وزيادة خير إلى خيرهم ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ وإضلال الضّالين عدل من الله سبحانه، فالله تعالى لا يظلم أحدًا؛ لأنه لا يُصرَف عن الحق إلا الخارجون عن طاعته، فالمؤمن يزداد به إيمانًا، والكافر يزداد به ضلالًا.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ **والفاسق**: هو الخارج عن طاعة الله التارك لاتباع أمره، الناكث لعهده، والفسقُ كلمة تشمل الكفر والنفاق والعصيان، والمراد بالفاسق في الآية هو الكافر بدليل الآية التي بعدها، فإنها فسرت أهل الضلال بأوصاف أهل الكفر.

والفسق نوعان: فسق مخرج من الملة كالمذكور في هذه الآية، وفسق غير مخرج من الملة كقوله تعالى ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [الحجرات: ٦].

ثَلاثَةُ أَوْصَافٍ لأَهْلِ الفِسْقِ

٢٧- ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

ثم وصف الله تعالى الفاسقين بثلاثة أوصاف:

الوصف الأول: أنهم ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ﴾

فهم يخالفون دينه، وينقضون المواثيق والعهود التي بينهم وبين الله، والتي بينهم وبين الخلق، فلا يبالون بها، ولا يقيمون لها وزنًا، فيتركون الأوامر، ويرتكبون النواهي، ولا يوفون بالتزاماتهم، والعهد هو وصية الله إلى خلقه فيما أمر به أو نهى عنه على ألسنة الرسل، وما جاءت به الكتب.

وأعظم عهدٍ هو التوحيد والإيمان الذي أخذه الله على الناس جميعًا حين أخرجهم من صلب آدم، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ﴾ [الأعراف: ١٧٢] فقد شهدوا واعترفوا وأقروا بالتوحيد، وهم نطفٌ في أصلاب آبائهم، وهذه هي الفطرة، ومقتضى التوحيد،

وهو العهد الذي أخذه الله عليهم.

ويدخل في ذلك، العهدُ المأخوذ على بني إسرائيل في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣].

وألا يكتموا ما في التوراة؛ بل ليبينوه للناس كما في قوله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧]

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة: ١٢]

وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا﴾ [المائدة: ٧٠].

ويدخل فيه أيضًا العهدُ الذي أخذه الله على جميع الأنبياء؛ من الإيمان بمحمد ﷺ عند بعثته في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [البقرة: ٨١].

وأكَّد سبحانه هذه العهود والمواثيق وقوَّاها بإرسال الرسل وإنزال الكتب، ولكن الكفَّار الذين انحرفوا عن الفطرة ينقضون هذا العهد الذي بينهم وبين رب العالمين، وينقضون أيضًا عهد الإيمان بمحمد ﷺ.

الوصف الثاني: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾

أي: يقطعون كل ما أمر الله بوصله، كالأرحام، والأخوَّة الإيمانية، والموالاة، والمحبة في الله، وأُخوة العقيدة. وفي الحديث «**حُسْن العهد من الإيمان**»[(١)].

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**ألا لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له**»[(٢)].

---

(١) من حديث عائشة عند الحاكم (١/ ١٦) والبخاري في «التاريخ» (١/ ٣١٩) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢١٦).

(٢) حديث حسن ورجال إسناده ثقات أخرجه أحمد (١٢٣٨٣) والبزار في «الكشف» (١٠٠) وأبو يعلي (٢٨٦٣) وابن حبان (١٩٤) والطبراني في «الأوسط» (٢٦٠٦) والبيهقي في «الشعب» (٤٣٥٤)، وابن أبي شيبة (١١/ ١١)

ويدخل في ذلك ما أمر الله بوصله من ا لإيمان به والقيام بحق العبادة والطاعة له، ويدخل فيه ما أمر الله بوصله من الإيمان بمحمد ﷺ ومحبته وتعزيزه وطاعته فيما أمر ونهي.

ويدخل فيه صلة الأرحام والأقارب لا سيما الوالدين، والقيام بحقوق سائر الخلق.

الوصف الثالث: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بالفتن والمعاصي والذنوب.

قال أبوالعالية: ستُّ خصال من المنافقين: إذا حدَّثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتمنوا خانوا، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا في الأرض)[١].

أما المؤمنون فقاموا بهذه الحقوق ووصلوها، وأما الفاسقون فقطعوها ونبذوها.

ثم بيَّن سبحانه الجزاء المرتب على ذلك فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ والخسران قد يكون كفرا، وقد يكون معصية، وقد يكون تفريطا في ترك مستحب، وهذا مذكور في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ﴾ وهو عام في كل مخلوق، إلا من اتصف بالإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر.

و الخاسرون في الآية هذه ، هم الذين خسروا الدنيا والآخرة ، كما يخسر الرجل في تجارته ربحه ورأس ماله؛ وذلك لأنهم خسروا رحمة الله التي خلقها لعباده يوم القيامة، وحُرِموا منها وهم أحوج الخلق إليها، وهم الهالكون يوم القيامة بسبب كفرهم ومعاصيهم، أما في الدنيا فقد خسروا حظوظهم الدنيوية فذهبت عنهم ولم يبقَ منها شيء، وكل عمل صالح لا بد لقبوله من الإيمان، فمن لا إيمان له، لا يقبل منه عمل صالح .

وقد وصف الله سبحانه المؤمنين بضد هذه الصفات في سور الرعد فقال: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾ [الرعد].

ثم ذكر ما يقابلهم في قوله ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ [الرعد].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ٢١١).

الإِحْيَاءُ وَالإِمَاتَةُ مِنْ دَلَائِلِ وَحْدَانِيَّةِ الله تَعَالَى

٢٨- ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(١)﴾

ثم يقيم الله سبحانه الأدلة على وحدانيته ووجوب الإيمان به مرة أخرى، فيقول سبحانه متعجبًا ومنكرًا وموبخًا: ﴿كَيْفَ﴾ أيها الفسقة ﴿تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ وتنكرون وحدانيته وتشركون معه غيره ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا﴾ أي عدمًا لا وجود لكم ﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾ و نفخ فيكم من روحه، وأوجدكم في الدنيا وأسبغ عليكم نعمه ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ إذا انتهت آجالكم المحددة ويجازيكم في قبوركم، ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ يوم القيامة للحساب والنشور ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ في الآخرة فيجازيكم على ما قدمت أيديكم، الجزء الأوفى.

فلا ينبغي للإنسان أن يكفر بالله ما دام تحت تصرفه وتدبيره في الدنيا، و سيعود إليه في الآخرة فيحاسبه ويجازيه، كما قال تعالى ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١].

قال قتادة في معنى الآية: كانوا أمواتًا في أصلاب آبائهم، فأحياهم الله، فأخرجهم، ثم أماتهم الموتة التي لا بد منها، ثم أحياهم للبعث يوم القيامة، فهما حياتان وموتتان(٢).

قال ابن عباس رضي الله عنه: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا﴾ أموات الذكر، في أصلاب آبائكم نُطَفًا، لا تُعرفون ولا تُذكرون ﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾ بإنشائكم بشرًا سويًا، حتى ذُكرتم وعُرفتم وحَييتم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ بقبض أرواحكم، وإعادتكم أمواتا، لا تُعرفون ولا تُذكرون في البرزخ إلى يوم تبعثون ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بنفخ الأرواح فيكم يوم البعث(٣).

والمعنى: كيف تكفرون بالله وكنتم نطفًا في أصلاب آبائكم، فجعلكم بشرًا أحياء ثم يميتكم ثم هو محييكم بعد ذلك، وباعثكم يوم الحشر للثواب والعقاب، وهو المنعِم عليكم بما خلق لكم في الأرض من معايش ودلكم على وحدانية ربكم(٤).

---

(١) قرأ أبو يعقوب (وإليه تَرْجِعُونَ) بفتح التاء وكسر الجيم من (رجع) اللازم وقرأ الباقون (تُرْجَعُونَ) بضم التاء وفتح الجيم من (أرجع) المتعدي.

(٢) الطبري (١/ ٤٤٦).

(٣) ابن جرير (١/ ٤٢٤) وابن أبي حاتم (٣٠١).

(٤) ابن جرير الطبري (١/ ٤٢٧).

فلا يليق بكم أن تكفروا به، بل يجب عليكم أن تؤمنوا به وتتقوه وتشكروه وتخافوا عذابه وترجوا ثوابه.

فهذه أدلة قاطعة وبراهين ساطعة على وحدانية الله تعالى، فكيف تنكرون ذلك أيها المشركون؟

الْعَالَمُ السُّفْلِي وَالعُلْوِي فِي خِدْمَةِ الإنْسَانِ

خَلْقُ السموات والأرض:

٢٩- ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ وَهُوَ[1] بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾

والله سبحانه قد خلق لكم هذه الأرض وخلق جميع ما فيها للانتفاع والاستمتاع والاعتبار، وهي اسم للعالم الكروي السفلي المشتمل على البر والبحر، ويعمره الإنسان والحيوان و فيه المعادن والنبات، وخلق لكم كل ما فيها من النعم، وسخرها لكم لتنتفعوا بها، وتُصلحوها، وتعيشوا فوقها، وتَسْعَدُوا بكل ما فيها من الحلال الطيب، فهو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعًا، فالآية تبين أن الله تعالى خلق كل ما في الأرض من نعم لأجل الإنسان، ولكن هذا الخلق لا يستلزم إباحة كل ما فيها، فقد قيد الشرع ذلك بالحلال الطيب .

وفي الآية دليل على أن الأصل في الأشياء الإباحة، لأنها سيقت في معرض الامتنان، ويفهم من ذلك تحريم كل ما فيه ضرر، لأن الله تعالى خلقها لنفعنا لا لمضرتنا، كما يفهم منها تحريم كل خبيث لأنه يقابل الطيب كما في قوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ [المائدة: ٥]

وقوله ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وهو منطوق الآية.

وقد خلق الله سبحانه الأرض في يومين قبل خلْق السماء، وقدّر فيها أقواتها وأرزاقها في يومين، ثم استوى سبحانه إلى السماء فخلق سبع سموات في يومين، كما جاء في

---

(١) قرأ بإسكان الهاء من (وهْو) قالون وأبو عمر والكسائي وأبو جعفر، للتخفيف، وهو لغة أهل نجد، وقرأ غيرهم بضم الهاء على الأصل وهو لغة أهل الحجاز.

سورة فصلت الآيات (٩- ١٢).

ثم دحى الأرض بعد خلقها وخلْق السموات، كما جاء في سورة النازعات ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾ [النازعات] أي: خلق الله الأرض أولًا، ثم خلق السماء، ثم دحى الأرض، أي: بسطها ومهدها، وجعلها صالحة للسكنى والمعيشة فيها، ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [النازعات].

والدحية: الشكل البيضاوي كالكرة، وهذا الشكل لا يتعارض مع بسط الأرض وفرشها، فإن سطح الأرض يراه الرائي من كل جهة، فهي مذللة ومسخرة على أيَّة حال، وكانت الأرض في غاية الحرارة ثم أخذت تبرد حتى جمدت وتكونت منها قشرة جامدة، ثم تشققت، وهبطت منها أماكن وارتفعت منها أماكن.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ خلق لكم كل ما في الأرض من نِعَم لتنتفعوا بها ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ وهي الجو المحيط بالكرة الأرضية ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ وفيها الأجرام العلوية من الكواكب السيارة المنتظمة مع الأرض في النظام الشمسي ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ وعلمه سبحانه محيط بجميع ما خلق.

وقد بين ابن إسحاق في شرح هذه الآيات أن الله تعالى خلق أولًا النور والظلمة، ثم ميَّز بينهما فجعل الظلمة ليلًا، والنور نهارًا، ثم خلق السموات من دخان الماء، وجعل في السماء الدنيا: الشمس والقمر والنجوم، بعد أن دحى الأرض وأرساها بالجبال وخلق فيها الدواب والأقوات، وتم ذلك في ستة أيام[1].

خَلْقُ الإنسَانِ وَاسْتِخْلَافُهُ فِي الأَرْضِ

٣٠- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ[2] أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

---

(١) «تفسير الطبري» (١/ ٤٣٣)

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح الياء من (إنيَ أعلم) وصلا وسكنها الباقون.

وبعد أن عدد الله سبحانه بعض نعمه على خلقه ذكَر أباهم الأول آدم عليه السلام لبيان فضله، فتحدث عن بدء خلقه، وعداوة إبليس له، وما حلَّ بآدم من تغمدِ الله له برحمته وتوبته عليه حين تاب وأناب إلى ربه، وما حلَّ بإبليس من لعنة الله عليه عاجلًا، واستحقاقه العذاب المقيم آجلا، ولأن الحديث عن خلْق الأرض وما فيها لنفع الإنسان يحتاج إلى بيان الهدف والغاية التي خلق الله الإنسان من أجلها، وهي التعرف على الله تعالى وعبادته، بجعله خليفة في أرضه لمن كان قبله من الخلائق فقد ذكر تعالى قصة خلق الإنسان الأول.

روى الضحَّاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن أول من سكن الأرض الجن، فأفسدوا فيها، وسفكوا الدماء، فأرسل إليهم إبليس جنده، فألحقوهم بجزر البحار وأطراف الجبال.

ثم خلق آدم فأسكنه إياها ليعمرها، ويخلف بعضه بعضًا فيها على مدى القرون، ويقيموا أمر الله وحكمه فيها، وعلى رأسهم (الخليفة الأعظم) أي حاكمهم في كل زمان ومكان، يقيم لهم منهج الله ويحقق العدالة بينهم.

والحديث عن خلق الأرض يحتاج إلى بيان الذنب الأول الذي وقع من (إبليس) حين امتنع عن الامتثال لأمر الله تعالى، ولم يسجد لآدم كما أمره الله سبحانه، فتشير الآيات التالية إلى أن الله تعالى كما خلق لنا ما في الأرض جميعًا من الحلال الطيب وسخَّره لنا، فإنه سبحانه سخر لنا هذا الكون بما فيه: الشمس والقمر والليل والنهار والماء والهواء، وخلق سبحانه وتعالى الملائكة قبلهم وأسكنهم السماء، وخلق الجن قبلهم، وأسكنهم الأرض، وخلق الجنة والنار، وجعلهما ثوابًا وعقابًا لعباده.

ولما خلق الله تعالى النار، قالت الملائكة وقد خافت من عذاب الله سبحانه: لمن خلقت يارب هذه النار؟ أشفقوا على أنفسهم أن يكون قد وقع منهم معصية، وهم الممحضُون لطاعة الله عز وجل ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] فحسِبوا أن يكون قد وقع منهم مخالفة اقتضت وجود خلق آخر، فقالوا: يا ربنا علِّمنا وأرشدنا، ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن من شأنهم الإفساد في الأرض، ونحن أطوع لأمرك؟ ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ قالوا ذلك دفاعًا عن أنفسهم، قال الله سبحانه: خَلَقْتُ النار لمن عصاني. وأخبرهم جل شأنه أنه جاعل في الأرض خليفة ﴿وَإِذْ قَالَ

رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أي: أنه سبحانه وتعالى تتجه إرادته إلى خلْق مخلوق آخر غير الملائكة وغير الجن، وهذا المخلوق:

١- خَلَفَ الجن الذين كانوا في الأرض قبل آدم.

٢- أو يخلف بعضهُ بعضًا قرونًا بعد قرون، وجيلًا بعد جيل.

٣- أو أنه يكون خليفة لله في أرضه بإقامة حدوده، وتنفيذ شريعته، وحِفْظ نظام الأمة، والحكم بين الناس بالعدل. والخليفة الأول هو آدم، أما ذريته فيخلف بعضهم بعضًا.

قال القرطبي: والآية أصلٌ في نصْب إمام وخليفة، يُسمع له ويطاع، لتجتمع به الكلمة، وتنفذ به الأحكام.

كما قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦] وقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥]

وقال أيضًا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

وقد كانت خلافة أبي بكر للنبي ﷺ بمقتضى تقديمه له في الصلاة وهو في مرضه.

وكانت خلافة عمر، بعهد أبي بكر له بذلك، وكانت الخلافة بعد عمر، شورى بين ستة من أصحاب النبي ﷺ، مات وهو عنهم راضٍ.

وإذا انتزع أحدٌ الخلافة بالقوة، وتغلَّب على الناس بالسلاح، دانت له الناس، حتى يستتِبَّ الأمن وتُحقن دماء المسلمين، ومن هذا القبيل كانت خلافة عبد الملك بن مروان.

والخروج على الحاكم الجائر -الخارج على حكم الله، الذي لا يقيم الدين في دنيا الناس- لا يكون إلا ممن يأنس في نفسه جدوى هذا الخروج، حتى لا يضيق الخناق على الإسلام والمسلمين، ويضر أكثر مما ينفع؛ لأن شرط الخلافة هو إقامة الدين في الناس كما جاء في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:

«إن هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد إلا كبه الله في النار على وجهه؛ ما أقاموا الدين»[1]

(١) البخاري (٣٥٠٠، ٧١٣٩).

وفي حديث أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«اسمعوا وأطيعوا، وإن استُعمل عليكم عبدٌ حبشي كأن رأسه زبيبة»**(١).

وفي حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: **«السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أُمِر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»**(٢).

فإن خالفوا أمر الله تعالى فغيرهم ممن يطيع الله تعالى وينفذ أوامره أولى منهم، وهذا الحديث بالنسبة للقرشيين، فمن عداهم من باب أولى.

ونعود إلى سياق الآية، فقد قالت الملائكة هذا القول استفسارًا واستعلامًا، وليس اعتراضًا ولا حسدًا ولا استنكارًا، لما أخبرهم الله تعالى أنه جاعل في الأرض خليفة قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ قالت الملائكة ذلك دفاعًا عن أنفسهم وقياسًا على ما رأوا من وقوع المفاسد والمعاصي من الجن في الأرض، وقد وقع بينهم خلافٌ وسفْك للدماء، وهكذا يكون من المخلوق الجديد، قالوا ذلك ظنًّا منهم أنه سيحدث مثله، وأخبروا أنهم قائمون بعبادة الله مسبحين له ومعظمين دون إفساد في الأرض﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ وننزهك بما يليق بجلالك، ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ أى نعظمك أو نطهر أنفسنا لك بالأخلاق الحميدة، ومحبتك وخشيتك.

فبيَّن الله سبحانه: أنه يعلم ما فيه مصلحة العباد ويعلم الظواهر والسرائر، وحكمكم هذا بمقتضي الظاهر، ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من المصلحة الراجحة في خلقكم.

أخرج الحاكم بسند صحيح عن ابن عباس ﷺ أن الجن كانوا في الأرض قبل خلق آدم بألفي عام، فأفسدوا في الأرض، وسفكوا الدماء، فلما أفسدوا في الأرض، بعث الله عليهم جنودًا من الملائكة فضربوهم حتى ألحقوهم بجزائر البحُور، فقالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ كما فعل الجن، فقال تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(٣).

---

(١) البخاري (٦٩٣٠، ٧١٤٢).

(٢) البخاري (٢٩٥٥، ٧١٤٤) ومسلم (١٨٣٩).

(٣) ينظر: «المستدرك» (٢/ ٢٦١) وقد صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

مراحل خلْق آدم خمس:

(أولا) المرحلة التُّرابية: فقد قبض الله سبحانه وتعالى قبضة من جميع أنحاء الأرض، ليخلق منها الإنسان الأول؛ فكان هذا الإنسان على اختلاف تربة الأرض، منه الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، ومنه الخبيث والطيب وبين ذلك:

١- فقد جاء عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله تبارك وتعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأسود والأبيض وبين ذلك، والسهل والحزن وبين ذلك، والخبيث والطيب وبين ذلك»**[١].

٢- وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﷺ قال: بعث رب العزة ملَك الموت، فأخذ من أديم الأرض، من عذبها ومالحها، فخرج منه آدم، ومن ثم سُمي آدم؛ لأنه خُلق من أديم الأرض[٢].

٣- وكان خلق آدم في يوم الجمعة، كما جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق الله آدم، وفيه أُدخل الجنة، وفيه هبط منها، وفيه مات، وفيه تِيب عليه، وفيه تقوم الساعة»**[٣].

٤- ولما خلق الله آدم قال له: اذهب فسلِّم على أولئك؛ نفرٌ من الملائكة، فاستمع ما يحيونك به، فإنها تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه: ورحمة الله، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم -ستون ذراعًا-

---

(١) حديث صحيح رواه أحمد في «المسند» (٤/ ٤٠٠) برقم (١٩٥٨٢، ١٩٦٤٢) إسناده صحيح ورجاله ثقات، كما قال محققوه، وصححه أحمد شاكر في تحقيقه «لتفسير الطبري» برقم (٦٤٥) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (١٦٣٠) وأبو داود (٤٦٩٣) والترمذي (٦٧١٤) وقال: حسن صحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي في «المستدرك» (٢/ ٢٦١) و«الطبقات الكبرى» لابن سعد وعبد بن حميد (٥٤٨).

(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير، قال الشيخ أحمد شاكر: (١/ ٤٨٠) هذا إسناد صحيح، ورواه الطبري في «التاريخ» أيضًا (١/ ٤٦) ورواه ابن سعد في «الطبقات» وابن أبي حاتم وابن عساكر.

(٣) رواه مسلم في صحيحه برقم (٨٥٤) والنسائي في السنن (٣/ ٨٩) وأبو داود (١٠٤٦).

فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن[١].

٥- وفي صحيح مسلم وغيره عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لما صوَّر الله آدم تركه ما شاء الله أن يتركه، فجعل إبليس يُطيف به، ينظر ما هو، فلما رآه أجوف عرف أنه خلق خلقًا لا يتمالك»**[٢] ولفظ أبي الشيخ **«قال: خلْق لا يتمالك ظفرت به»**[٣].

وورد أن الله تعالى أرسل جبريل إلى الأرض ليأتي منها بطين لخلق آدم فاستعاذت بالله تعالى أن ينقص منها شيء فأعاذها، وهكذا ميكائيل، ثم أرسل ملك الموت فاستعاذت بالله أن ينقص منها شيء، فقال ملك الموت: وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره، فأخذ من أماكن عدة من وجه الأرض تُربة حمراء وبيضاء وسوداء، فخرج بنو آدم مختلفين[٤].

فاختلاف ألوان الناس واختلاف طبائعهم ومشاربهم على وفق اختلاف تُربة الأرض التي خلقهم الله سبحانه وتعالى منها.

(ثانيا) مرحلة الطين اللازب: فقد خُلط هذا التراب بالماء وعُجن به، وصار طينًا لزجًا متماسكًا ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١] والطين اللازب: هو الذي يلتزق بعضه ببعض.

(ثالثا) مرحلة الحمأ المسنون: وذلك أن الطين بعد أن يعجن بالماء يبقى مدة فيتغير لونه ويكون أقرب إلى السواد، ثم ييبس ويجف.

(رابعا) مرحلة الصلصال: فقد مرت على الإنسان الأول فترة، جف فيها هذا الطين اللزج ويبس، وأصبح صلصالًا كالفخار، والصلصال: هو الشيء المنفوخ المجوَّف الذي يُسمع له صوتٌ إذا قُرع، بخلاف الشيء المصمت الذي لا جوف له، ولا يكون له

---

(١) جاء هذا في حديث صحيح، رواه الشيخان عن أبي هريرة في البخاري برقم (٣٣٢٦، ٦٢٢٧) ومسلم برقم (٢٨٤١) و«المسند» (٨١٧١).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٢٦١١) و«المسند» (١٢٥٣٩) والطيالسي (٢١٣٦) وأبو يعلى (٣٣٢١) وابن حبان (٦١٦٣).

(٣) أبو الشيخ في «العظمة» (١٠٣٣، ١٠٤٠) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٨١٩).

(٤) ينظر: رواية ابن مسعود في الطبري (١/ ٤٥٩).

صلصلة إذا قُرع باليد ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾ [الرحمن] وذلك بعد أن مضى عليه هذه المدة، وهي أربعون عامًا، ولم تمسسه نار.

وإلى ذلك يشير قول الله سبحانه: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ [الإنسان] ﴿هَلْ﴾ بمعنى: قد، و﴿حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ أي: مدة من الزمن تقدر بأربعين عامًا قبل أن يُنفخ فيه الروح.

وورد أن عمر بن الخطاب ﷺ سمع رجلًا يقرأ هذه الآية: ﴿هَلْ أَتَىٰ﴾... فقال: ليتها تمت، أي: ليت الإنسان بقي شيئًا غير مذكور، أي: طينًا لازبًا، يقولها من مخافة عذاب الله يوم القيامة[١].

(خامسًا) مرحلة النفخ في الروح: ثم نفخ الله تعالى في آدم من روحه، فصار لحمًا ودمًا وعظمًا، ثم خلقه وسوَّاه وعدله، فصار إنسانًا في أحسن تقويم، سميعًا بصيرًا متكلِّما.

وسُمِّي آدم؛ لأنه خُلق من أديم الأرض.

ورد أن النفخ بدأ من رأسه، فكان آدم ينظر إلى جسده ويُعجبه ما يُصبح منه لحمًا ودمًا يتحرك وتدب فيه الحياة، فلما أتت النفخة إلى سُرته، ذهب لينهض، فلم يقدر، ذلكم قول الله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧] وقوله ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١].

فلما تمت فيه النفخة عطس، فقالت له الملائكة: قل: الحمد لله، فقال: الحمد لله. فقال الله له: يرحمك الله يا آدم[٢].

وفي حديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«لما نفخ الله في آدم الروح، فبلغ الروح رأسه عطس، فقال: الحمد لله رب العالمين، فقال الله تبارك وتعالى: يرحمك الله»**[٣].

وقد ذكر آدم في القرآن خمسا وعشرين مرة في خمس وعشرين آية.

وهذه المراحل أجملها القرآن في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن

---

(١) ينظر: تعليق الشيخ أحمد شاكر في «تفسير الطبري» (ص٤٦٦).

(٢) ينظر: رواية ابن عباس ورواية ابن مسعود في تفسير الطبري (١/٤٥٦، ٤٦٠).

(٣) ابن حبان (٦١٦٥) قال محققه: إسناده صحيح.

طِينٍ﴿١٢﴾ [المؤمنون] هذا بالنسبة للإنسان الأول، آدم عليه السلام، والسلالة التي خلق منها هي التراب، والطين، والصلصال الذي يشبه الفخار.

أما خلق ذرية آدم فهي تمر بخمس مراحل أيضًا، جاءت في قول الله تعالى وهو يصف أطوار خلق الإنسان، وهذه الأطوار هي:

١- النطفة. ٢- والعلقة. ٣- والمضغة. ٤- والعظام.

٥- واللحم الذي نُفخ فيه من روح الله.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون].

وكما خلق الله تعالى آدم من تراب وخلق ذريته من نطفة تعود إلى التراب وتتكون منه، فإنه سبحانه خلق الملائكة من نور، وجعلهم أجسامًا هوائية لطيفة لها قدرة على التشكُّل بأشكال مختلفة، أما الجن فقد خلقوا قبل الإنس من مارج من نار.

عن عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ قال: «**خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم**»[1].

هذا: والإنسان يمر بخمس مراحل في أطواره كلها وهي:

(أولًا) دار الإقرار: وهي الدار التي أقر فيها بتوحيد الله تعالى، حين أخرج الله تعالى ذرية بني آدم من ظهور آبائهم، وأخذ عليهم العهد والميثاق ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

(ثانيًا) دار الأطوار: وهي بطن الأم التي يتكون فيها الإنسان، ويمر بمراحل الخلق: نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظمًا ثم بشرًا سويًا.

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٩٩٦) و«المسند» (٢١٥٩٤، ٢٥٣٥٤) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين وهو في «مصنف عبد الرزاق» (٢٠٩٠٤) وابن حبان (٦١٥٥) وغيرهم.

(ثالثًا) دار الأدوار:وهي هذه الدنيا، والمدة التي يعمرها الإنسان فيها، وما يكتسب خلالها من خيرٍ أو شرٍّ، يؤهله للنعيم أو الجحيم في الآخرة.

(رابعًا) دار الانتظار:وهي مدة البرزخ أو القبر التي ينتظر فيها الإنسان انقضاء أجل الدنيا، وانتهاء الأجيال والقرون التي يخلف بعضها بعضًا في هذه الحياة.

(خامسًا) دار القرار:وهي الدار الآخرة، التي يكون فيها البعث والحشر والنشر والحساب والجزاء على الأعمال بالجنة أو النار، وهي الدار التي يستقر فيها الخلائق في حياة أبدية.

فَضْلُ بَنِي آدَم عَلَى غَيْرِهِم بِالْعِلْمِ وَالمَعْرِفَةِ

٣١- ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى[١] بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ[٢] إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾

أراد الله عز وجل أن يُظهر للملائكة فضل آدم، وأنه أكثر علمًا وأكثر معرفة من غيره من المخلوقات، وأنه الأقدر على استخراج كنوز الأرض وعلى عمارتها والإقامة فيها، فعلَّم الله سبحانه وتعالى آدم أسماء الأشياء كلها، علمه إياها بعد أن تم خلقه.

وبعد خلْق آدم عليه السلام علَّمه الله سبحانه أسماء المخلوقات، وأولها أسماء ذريته، وأسماء الملائكة، قيل: واسم كل شيء خلقه الله سبحانه مثل: الدابة والأرض والجبل والبحر والطير... ليُظهر للملائكة فضل المخلوق الجديد، ويبيِّن أنه سيد هذه الأرض، وأنه قادر على استخراج كنوزها وإعمارها.

كما علّمه الأسماء والألفاظ والمعاني، حتى المكبَّر من الأسماء والمصغَّر، ثم عرض

(١) قرأ أبو جعفر (فقال أنبئوني) بحذف الهمزة وضم الباء ولحمزة وقفًا حذف الهمزة وتسهيلها بين بين وإبدالها ياء خالصة.

(٢) قرأ قالون والبزي بتسهيل الهمزة الأولى من (هؤلاء إن) بين بين وسهل الثانية الأصبهاني وأبو جعفر، وللأزرق تسهيل الهمزة الثانية وإبدالها حرف مد مشبع وإبدالها ياء خالصة ولقنبل إسقاط الأولى مع المد والقصر، وله تسهيلها وإبدالها حرف مد مشبع، وأسقط أبو عمرو الهمزة الأولى مع المد والقصر، ولرويس الإسقاط والتسهيل وحققها الباقون.

سبحانه هذه الأسماء على الملائكة قائلًا لهم: أخبروني بأسماء هذه الأشياء إن كنتم صادقين في أنكم أولى بالاستخلاف في الأرض من آدم ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾.

مثل الأعلام الشخصية، وأسماء الأجناس من الحيوانات والنبات والحجر والكواكب والثمار والأشجار والملائكة واللغات. . .إلخ.

وقد يكون هذا التعليم بطريقة التلقين، أو أن الله تعالى قد ألهمه وألقى في رُوعه أسماء الأشياء التي يراها بعد أن خلق فيه قوة النطق وعلمه البيان.

ومعنى ذلك أن آدم وضع أسماء المسميات ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ أي عرض الله تعالى مسميات الأشياء لا أعيانها ﴿عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أن الإنسان (آدم وذريته) لا فائدة من خلقه، وأنكم أولى بالاستخلاف في الأرض منهم، وفي هذا إشارة إلى أهمية استخلاف الإنسان في الأرض.

٣٢- ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾

قالت الملائكة: ننزهك يا ربنا، فنحن لا نعترض عليك ولا نخالف أمرك، فليس لنا علم بشيء بوجه من الوجوه إلا ما علمتنا إياه، فضلًا منك وكرمًا، وأنت وحدك العليم بشؤون خلقك، لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وله الحكمة التامة التي لا يخرج عنها مخلوق، ولا يشذ عنها مأمور، فأنت الحكيم في تدبيرك، تضع كل شيء في موضعه اللائق به، فأظهَروا عجزهم وقصورهم عن معرفة أسماء الأشياء، وأقروا واعترفوا بعلم الله وحكمته وتعليمه لهم ما لا يعلمون.

٣٣- ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ[1] أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

وفي أول نداء من الله تعالى لآدم، قال له: أخبرهم بأسماء هذه الكائنات والمخلوقات التي عجزوا عن معرفتها، فلما أنبأ الملائكة وأخبرهم بأسماء المسميات قال تعالى

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح ياء الإضافية من (إنيَ أعلم) في الموضعين للتخفيف، وقرأ غيره بإسكانها مديَّة على الأصل، وهما لغتان.

للملائكة: لقد أخبرتكم أني أعلم ما خفي عنكم في السموات والأرض، مما غاب عنكم ولم تشاهدوه، وأعلم ما تظهرونه وما تكتمونه، وأعلم ما كان وما سيكون مما لا علم لكم به في السموات والأرض.

والمعنى: أن الله تعالى لا يخفى عليه شيء سواء أسروه أو أعلنوه، وليس المراد أن الملائكة تكتم شيئًا عن الله سبحانه.

قِصَّةُ آدَمَ وَإبْلِيسَ والدُّرُوسُ المُسْتَفَادَةُ مِنْهَا

٣٤- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ[1] ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

ثم أمر الله سبحانه الملائكة أن تسجد لآدم إكرامًا له، سجود تحية بالانحناء، أو تسجد لله الذي خلق آدم، عبودية لله تعالى، فامتثلوا أمر الله تعالى وبادَروا كلهم بالسجود.

وهذا السجود يحتمل ثلاثة معانٍ:

المعنى الأول: سجود تحية وتعظيم واحترام وتكريم بالانحناء، فلم يكن فيه وضع للجبهة على الأرض، كسجود إخوة يوسف له إظهارًا لفضله.

المعنى الثاني: أن يكون المراد بالسجود سجودًا حقيقيًّا لله الذي خلق آدم، كسجود العبادة، وآدم يكون أمامهم كالقِبلة، كما جُعلت الكعبة قِبلة للصلاة.

المعنى الثالث: أن يكون المراد بالسجود سجود تحية وتكريم لخلق آدم عليه السلام بوضع الجبهة على الأرض، بدون تقديس ولا تعظيم، على أن هذا كان جائزًا ثم نُسخ.

---

(١) قرأ أبو جعفر بخلف ابن وردان عنه بضم التاء من (للملائكة اسجدوا) اتباعًا لضم الجيم والباقون بالكسر، والوجه الثاني لابن وردان إشمام كسرة التاء لحركة الضم، والمراد بالإشمام مزج حركة الكسر بحركة الضم.

وفي حديث معاذ ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«ولو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»**(١).

وقد عُرف السجود منذ أقدم العصور، فقد وجد في القرن التاسع عشر قبل الميلاد صورة (حمورابي) راكعًا أمام الشمس، ووُجد في الآثار المصرية، صور أسرى الحرب سُجَّدًا لفرعون.

وهيئة السجود تختلف باختلاف العوائد، وتختلف باختلاف الشرائع، وسجود الملائكة لآدم من عمل العالم الأعلى، ولا يدخل تحت تكاليف أهل الأرض، وقد نسخ الإسلام ما كان في الشرائع الأخرى من السجود لغير الله، وأصبح السجود لغير الله تعالى في الإسلام محرمًا(٢).

والخطاب بالأمر بالسجود موجَّه إلى الملائكة وإلى إبليس؛ لأنه كان معهم يُقيم بينهم، ولم يكن منهم، وهو أصل الجن، كما أن آدم أصل الإنس، قال تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ﴾ [طه: ١١٦] أي: كفر كفرًا عميقًا بسبب استكباره وامتناعه عن السجود، فاستكبر على آدم وخرج عن طاعة الله نتيجة الكفر الذي تنطوي عليه نفسه، فتبينت عداوته لله ولآدم، وتبين كفره واستكباره، وكان إبليس قبل هذا الامتناع يعبد الله تعالى مع الملائكة، وقد جاء استثناؤه منهم؛ لأنه كان مع الملائكة ولم يكن من جنسهم على الأصح، كما أخبر الله تعالى بذلك في قوله: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠].

قال الحسن: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصل الجن، كما أن آدم أصل الإنس(٣).

---

(١) ينظر حديث معاذ بن جبل في المسند برقم (٢١٩٨٦) قال محققوه: صحيح لغيره، وحديث عبد الله بن أبي أوفى برقم (٤٠٣ ٤٩٩ ١٩٤٠) في المسند أيضًا، وكذا حديث عائشة برقم (٢٤٤٧١) وهو حديث جيد، وعن حديث ابن أبي أوفي قال الألباني في صحيح سنن الترمذي: حسن صحيح، وكذا في السلسلة الصحيحة (١٢٠٣) وفي الإرواء (٧/ ٥٥) وهو في سنن الترمذي (١٨٥٣).

(٢) ينظر: «تفسير التحرير والتنوير» لابن عاشور (١/ ٤٢٢).

(٣) قال الشيخ أحمد شاكر: هذا إسناد صحيح عن الحسن، «تفسير الطبري» (١/ ٥٠٦)

ولو كان إبليس من الملائكة، ما عصى الله أبدًا، ولا امتنع من السجود لله تعالى، ولا من تنفيذ أمره حين أمره به.

وهذه أول معصية عُصي الله تعالى بها، وهي معصية الكِبر والامتناع من السجود لآدم، وقد اغترَّ إبليس بعنصر الخلْق الذي خُلق منه وهو النار، ووازن بينه وبين العنصر الذي خُلق منه آدم وهو التراب ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦] وظن إبليس أن النار أفضل من الطين، وهو مخطئ في تقديره، فالتراب أو الطين أفضل من النار؛ لأن التراب متواضع متطامن لا يعلو ولا يرتفع، يسير الماء في جداوله وأنهاره، ومنه كل شيء حي، ومنه يخرج الزرع والثمر والشجر، ولا حياة للمخلوقات بدونه.

أما النار: فإنها تحرق وتُدمر، ولها لهيب ودخان، يشبه الكبر في علوه وارتفاعه، وفي إيذائه للأعين والصدور وغيرهما.

وكانت العقوبة التي أنزلها الله سبحانه وتعالى بإبليس -جزاءَ كِبْره- أن طرده من الجنة، وحقت عليه لعنة الله سبحانه وتعالى إلى يوم القيامة.

ولو كان إبليس من الملائكة ما عصى الله سبحانه، ولا امتنع من السجود له، على أن إبليس قد خُلق من مادة غير المادة التي خلقت منها الملائكة، فالملائكة خلقوا من النور، وخلق إبليس من النار، يقول الله سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ أي من فصيلة أخرى وخلْقٍ آخر؛ ولذا وقعت منه المعصية والخروج عن طاعة الله تعالى ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾.

وإبليس اسمٌ للشيطان الأول، فمنه الشياطين، وهو من الإبلاس أي البعد عن الخير، واليأس من الرحمة، ثم إن إبليس له ذرية، والملائكة ليست لهم ذرية، يقول سبحانه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ [الكهف: ٥٠]

والملائكة لا يأكلون ولا يشربون، ولا يتناكحون ولا يتناسلون، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، والجن يتوالدون كما يتوالد بنو آدم ويأكلون ويشربون، ويحدث منهم العصيان والطاعة.

في صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول ﷺ: «**إذا قرأ ابن آدم**

السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا ويله، -وفي رواية: يا ويلتاه- أُمر ابن آدم بالسجود فسجد، فله الجنة، وأُمرتُ بالسجود فعصيتُ فلي النار»[١].

جَنَّةُ آدَمَ: أمر الله سبحانه وتعالى آدم بعد خلقه وتكريمه وإسجاد الملائكة له أن يسكن الجنة، ولعل المراد بالجنة المكان المرتفع من الأرض ذو الثمار والأزهار والمياه والمنظر الحسن والمقر الذي يقي من لفح الشمس.

وقد ذهب جمهور السلف إلى أن المراد بالجنة، جنة الخلد التي وعد الله بها المؤمنين وهي في العالم العلوي، وظواهر الآيات والأخبار المروية تشير إلى هذا، و(ال) في الجنة للعهد، أي جنة معهودة لآدم يشاهدها.

وذهب أبو مسلم الأصفهاني وأبو القاسم البلخي وبعض المعتزلة إلى أنها جنة في الأرض، خلقها الله لإسكان آدم وحواء.

ونقل البيضاوي أنها بستان في فلسطين أو العراق.

وفي التوراة في الإصحاح الثاني من سفر التكوين: (وأخذ الرب الإله آدم ووضعه في جنة عدن. . . فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل في الأرض التي أُخِذَ منها).

وقال شُرَّاح التوراة: إن جنة عدن في الأرض.

والقائلون بهذا يقولون: إن الجنة دار الثواب، وهي دار كمال، لا يناسب أن يحصل فيها العصيان، وهي دار خلد لا يخرج منها من دخل فيها[٢].

كما قال تعالى في وصف المتقين: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴿٤٨﴾﴾ [الحجر].

وبعد أن أصبح آدم في هذه الجنة وحيدًا فريدًا، لا أنيس له ولا جليس،

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٨١) والبغوي في «التفسير» (١/ ٦٣) وهو في «سنن ابن ماجه» (١٠٥٢) والبيهقي في السنن (٢/ ٣١٢) وفي «الشعب» (١٤٨٧) والمسند (٩٧١٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، كما قال محققوه، وأخرجه ابن خزيمة (٥٤٩)،وابن حبان (٢٧٥٩).

(٢) ينظر: «تفسير التحرير والتنوير» لابن عاشور (١/ ٤١١). وانظر سورة طه في الجزء الثامن من هذا التفسير، الآية (١١٧).

ألقى الله عليه النوم، فلما استيقظ وجد هذا المخلوق الجديد إلى جانبه.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**استوصوا بالنساء، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء**»[1].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١]

وفي هذا إشارة إلى أن الله تعالى خلقها من ضلع آدم الأقصر الأيسر، ومن هنا كان عطف الرجل على المرأة، وحُنو المرأة على الرجل.

وسميت حواء؛ لأنها خلقت من كائن حي، فلما قام من نومه وجدها إلى جواره فأنس إليها وأراد أن يمد يده عليها، فقالت له الملائكة: لا تفعل يا آدم ولا تقربها حتى تُعطي مهرها، قال وما مهرها؟ قالوا: أن تصلي على محمد ﷺ قال: ومن محمد؟ قالوا له نبيٌّ من ذريتك يُبعث آخر الزمان[2].

قيل: إن خلق حواء كان بعد أن سكن آدم الجنة، وقيل: قبل أن يسكنها.

وفي هذه الآية: إثبات صفة الكلام لله تعالى، وفيها بيان علمه وحكمته، وأن العبد إذا خفيت عليه الحكمة في أمرٍ مَّا، فعليه أن يتهم عقله، ويُقر بحكمة الله فيها.

وفي الآية بيان فضيلة العلم، وفضل آدم، وبيان عداوة إبليس للإنسان. قال تعالى:

الدَّرْسُ الْمُسْتَفَادُ مِنْ مُخَالَفَةِ أَوَّلِ نَهْيٍ إِلٰهِيٍّ

٣٥- ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا[3] وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾

أسكن الله آدم وحواء الجنة، وأمرهما أن يأكلا ويتمتعا من جميع الثمار وجميع

---

(١) البخاري برقم (٣٣٣١، ٥١٨٦) و«صحيح مسلم» برقم (١٤٦٨) وينظر خبران عن ابن مسعود وابن إسحاق في «تفسير الطبري» (١/ ٥١٣) وفي ابن كثير والشوكاني وغيرهما.

(٢) ينظر: «مقدمة السيرة الحلبية» ولم أقف له على سند صحيح

(٣) أبدل السوسي وأبو جعفر همزة (شئتما) ياء وكذا حمزة عند الوقف، وأثبت الهمزة ساكنة الباقون

الأشجار التي في الجنة أكلًا هنيئًا بلا عناء ولا تقتير إلا شجرة واحدة مرئية لهما، هذه الشجرة لا يعنينا أن تكون هي سنبلة القمح، أو شجرة العنب، أو التفاح أو التين، أو غير ذلك، والله أعلم بحقيقتها، ففيها أقوال كثيرة لا نفع في تقصيها، المهم أنها شجرة منع الله سبحانه آدم وحواء أن يقرباها لئلا يظلما نفسيهما بارتكاب ما نهى الله عنه فيُحرما من دار النعيم، وقد دلّت الآية على أن النهي للتحريم، لأنه رتب الظلم عليه.

وقد ضمن الله لآدم وهو في الجنة، وضمن لذريته من بعده هذه الأربع:

قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه]

٣٦- ﴿فَأَزَلَّهُمَا(١) الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾

وجاء الشيطان ليوسوس إلى آدم وحواء، ولم يزل كذلك حتى حملهما على الزلل، ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الأعراف]

فاغترَّا به وأطاعاه، فأخرجهما مما كانا فيه من النعيم، وأهبطوا إلى دار التعب والنصب.

وكان الشيطان قد أخذ على عاتقه وأقسم أن يقعُد للإنسان بكل مرصد، وبكل طريق، ليضله ويغويه، وطلب من ربه أن يمهله إلى يوم القيامة دون أن يموت ليتمكن من إغواء بني آدم، وأنظره الله سبحانه إلى وقت معلوم، هو الوقت الذي ينتهي فيه أجله، ويموت فيه كل كائن حي، ووسوس الشيطان لآدم وحواء وأقسم لهما أنه ناصح أمين، وأن الله تعالى ما منعهما من الأكل من هذه الشجرة إلا لسببين:

السبب الأول: حتى لا يكون آدم وحواء مَلَكين من الملائكة.

السبب الثاني: حتى لا يكتب لهما الخلود والبقاء.

وسَمى الله الشجرة -التي نهى إبليس عن الأكل منها- شجرة الخلد أي التي يخلد في الدنيا من أكل منها، كما ذكر الله تبارك وتعالى ذلك عنه في قوله:

---

(١) قرأ حمزة (فأزالهما) من الزوال، أي نحاهما وأبعدهما عن نعيم الجنة، وقرأ باقي القراء (فَأَزَلَّهُمَا) من الزلل، أي الوقوع في المعصية، وهي الأكل من الشجرة

﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠]
وقوله: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

وفي لحظة من لحظات الضعف الإنساني نسي آدم خلالها عهد ربه الذي أخذه عليه نسيانًا، ولم يعزم على مخالفة أمر الله سبحانه، كما قال جل شأنه: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه] أي: لم يكن عنده تصميمٌ أكيدٌ، ولا عزمٌ قوي على الأكل من الشجرة، وإنما هي لحظة ضعف ونسيان من آدم عليه السلام، وهكذا شأن ابن آدم حين تقع منه معصية، أن يكون ارتكابها منه سهوًا وجهلًا لا عمدًا، وأن يكون ذلك في لحظة ضعف إنساني وليس عن تصميم.

وهذا العصيان من آدم عليه السلام أمرٌ مُراد لله عز وجل، لعمارة هذه الأرض وسكناها، فأكلَ آدم وحواء من الشجرة، وكانت النتيجة الأولى بمجرد أن أكلا من الشجرة، أن ظهرت لهما الشهوة الكامنة فيهما، فظهرت العورة لآدم وحواء وبدت الرغبة الجنسية بينهما ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢].

وقد بين لنا سبحانه عداوة الشيطان في قوله ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ [طه: ١١٧]
ثم حذرنا سبحانه من فتنته وعداوته والوقوع في حبائله، كما حدث لآدم من قبل ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧].

ذلكم قول الله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾ أوقعهما في الخطيئة بأن وسوس لهما حتى أكلا من الشجرة ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ﴾ تسبب في إخراجهما من الجنة ونعيمها ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ﴾ أي آدم وحواء والشيطان، وذلك أن آدم وذريته أعداء لإبليس وذريته ومن المعلوم أن العدو يجتهد في ضرر عدوه وإيصال الشر إليه بكل طريق، وحرمانه من كل خير، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر]

وقال سبحانه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف]

ثم ذكر سبحانه نهاية الإهباط إلى الأرض فقال: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ دار إقامة وسكنى واستقرار ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: ولكم فيها انتفاع بخيراتها إلى انتهاء آجالكم، ثم

تنتقلون إلى الدار التي خلقتم لها، وخلقت لكم.

قال في معجم البلدان (٢/ ١٦٣ و ٣/ ٢١٥): (وفي سرنديب الجبل الذي هبط عليه آدم عليه السلام يقال له: الرَّهُون) وهكذا قال ابن بطوطة في رحلته: ليس مرادي منذ وصلتُ هذه الجزيرة إلا زيارة القدم الكريمة، قدَمُ آدم عليه السلام، وهم - في جزيرة سيلان - يسمونه (بابا) ويسمون حواء (ماما)، ويرجح أن آدم دفن عند سفح جبل أبي قبيس[1]، قال تعالى:

٣٧- ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ[2] فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٣٧﴾

ثم أقبل آدم تائبًا إلى ربه، ونبُوة آدم عليه السلام ثابتة بدليل أن الله سبحانه أوحى إليه بكلمات يقولها ليتوب عليه ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ ألهمه ولقّنهُ إياها توبة واستغفارًا ﴿فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ لمن تاب من عباده ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بهم، حيث وفقهم للتوبة وعفا عنهم، فهذا هو الوحي الإلهي المنزل على آدم عليه السلام وهو مقتضى التلقي عن الله تعالى، وهذه الكلمات جاء نصها في سورة الأعراف: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٢٣﴾ [الأعراف].

وقد وفق الله آدم إلى التوبة، ثم قبل منه توبته، وأكلُ آدم وحواء من الشجرة أمرٌ مقدَّر في الأزل.

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**تحاجَّ آدم وموسى، فحجَّ آدم موسى، قال موسى: أنت آدم الذي أغويت الناس وأخرجتهم من الجنة؟ قال له آدم: أنت موسى الذي أعطاك الله علم كل شيء واصطفاك برسالته؟ قال: نعم، قال: فتلومني على أمر قُدر قبل أن أُخلق**»[3].

وفي حديث جُندُب البَجَلي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**احتج آدم وموسى، فقال موسى: يا آدم، أنت الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته،**

---

(١) ينظر: أطلس القرآن د. شوقي أبو خليل ص ١٢و مابعدها.

(٢) قرأ ابن كثير (فتلقى آدمَ من ربه كلماتٌ) على أن آدم مفعول مقدم وكلمات فاعل مؤخر كأنه قال: فجاءته كلمات. وقرأ الباقون: (فتلقى آدمُ من ربه كلماتٍ) على أن آدم فاعل وكلمات مفعول به.

(٣) البخاري (٦٦١٤) ومسلم (٢٦٥٢) وأبو داود (٤٧٠١) والترمذي (٢١٣٤) والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٩٨٥، ١١١٨٧) وابن ماجه ٨٠.

وأسكنك جنته، وفعلت ما فعلت، فأخرجت ولدك من الجنة؟! فقال آدم: أنت موسى الذي بعثك الله برسالاته، وكلَّمك، وآتاك التوراة، وقرَّبك نجيًا، أنا أَقْدَمُ أم الذِّكْر؟ قال رسول الله ﷺ: **فحج آدم موسى، فحج آدم موسى»**[١]. قال تعالى:

٣٨- ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ[٢] عَلَيْهِمْ[٣] وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾

ذكر سبحانه الأمر بهبوط آدم وحواء وإبليس من الجنة مرة ثانية ليُرتِّب عليه نتيجة الاهتداء باتباع الرسل والعمل بما في الكتب، وهكذا: فقد كانت العقوبة أنْ أمَر الله سبحانه آدم وحواء وإبليس أن يهبطوا وينتقلوا من أرض الجنة إلى حيث العناء والشقاء ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ﴾ أي اخرجوا من هذا النعيم وتحولوا عنه، والهبوط هو التحول والانتقال، وهذا تكرار للهبوط الأول، وليس هبوطًا ثانيًا كما قال تعالى: ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا﴾ أي انزلوا مدينة من المدن، والأمر بالهبوط جاء في سورة طه لآدم وحواء فقط ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۖ﴾ [طه: ١٢٣] لأنهما اللذان أكلا من الشجرة وباشرا ذلك.

وعلى القول بأن المراد بالجنة دار الثواب في الآخرة، قيل: إن آدم هبط بسرنديب في الهند، وهبطت حواء في جدة، ثم تكون العودة الدائمة إلى الجنة -دار الثواب والنعيم- التي لا نزول منها، وهو مُرتبٌ على اتباع هدى الله سبحانه.

كما خاطب جل شأنه ذرية آدم في قوله ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

وفي هذه الآية أمَّنهم الله تعالى من الخوف والحزن، فهم في طمأنينة دائمة في الدنيا والآخرة، لا يندمون على ما مضى ولا يفزعون من المستقبل ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن

(١) النسائي في «السنن الكبرى» (٣٣٨، ١١٣١٨) وأبو يعلى (١٥٢٨) والطبراني (١٦٦٣) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٩١) : رجاله رجال الصحيح، وفي المسند (٩٩٩٠) بإسناد صحيح على شرط مسلم (محققوه) وانظر المسند أيضًا برقم (٧٣٧٨، ٧٥٨٨) عن أبي هريرة.

(٢) قرأ يعقوب (فلا خوفَ عليهم) بفتح الفاء، على أن (لا) نافية للجنس، وقرأ الباقون بالرفع والتنوين، على أن (لا) ملغاة، لا عمل لها.

(٣) وضم الهاء من (عليهم) حمزة ويعقوب وكسرها الباقون.

ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣] وهذا إخبار من الله تعالى بأنه سوف يبعث الرسل، ويُنزِّل الكتب، فالذين يتبعون هُدَى الله الذي أنزله في كُتبه على لسان رسله لا يخافون من مستقبلهم ولا يحزنون على ماضيهم كما قال تعالى: ﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ أي: لن يضل طريق الصواب في الدنيا والآخرة، وهكذا فقد نفى الله سبحانه عمن اتبع هُداه أربعة أشياء: الخوف والحزن، وبنفيهما يتحقق الأمْن التام، ويندفع الضلال والشقاء، وبنفيهما تتحقق السعادة الدنوية والأخروية،فيحصل كل مرغوب، ويزول كل مرهوب، والمؤمن مكفُول في الجنة ضامنٌ لمقوّمات الحياة الأساسية للإنسان، وهى المأكل والمشرب والملبس والمسكن، ولن يشقى فيها ولن يُطرد من الجنة، وإنما سيكون فيها دائمًا كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه].

وقد نهانا تعالى عن اتباع الشيطان؛ لأنه يزين المعصية للعبد، ويوقع الشهوة في نفسه وهو لا يراه، كما قال تعالى ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف].

وقد أمر الله نبيه أن يقول: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾﴾ إلى قوله: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾

وقال ﷺ فيما يرويه أنس ﷺ: «**إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم**»(١).

وقد أُمر إبليس قبل ذلك أن يهبط من الجنة حين امتنع من السجود لآدم ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣] فمُنِع من كرامة الجنة، وهذا هبوطٌ آخر يخرج بمقتضاه من الجنة، وقيل: أُهبط في المرة الأولى إلى سماء الدنيا وفي الثانية إلى الأرض، ثم ذكر سبحانه مصير من لم يتبع هُدى الله، فكفرو كذّب بآيات الله، فقال:

---

(١) حديث صحيح أخرجه أحمد في «المسند» برقم (١٢٥٩٢، ١٤٠٤٢) بإسناد صحيح ورجال ثقات، والشيخان: مسلم (٢١٧٤) والبخاري (٢٠٣٥، ٣٢٨١) وأبو داود من حديث أنس «الجامع الصغير» (٢٠٣٦).

٣٩- ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾

وأما الذين كفروا بالله وكذبوا ما جاء به الرسل وأعرضوا عن دلائل التوحيد ولم يتبعوا دين الله، ولم يعملوا بما جاء من عند الله، وماتوا على ذلك، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون لا يخرجون منها أبدا، ولا يخفف عنهم شيء من عذابها ولا هم ينصرون.

بَدْءُ قِصَّةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ: وَفِي أَوَّلِهَا: اثْنَتَا عَشْرَةَ وَصِيَّةً لَهُمْ

٤٠- ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ[١] ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ[٢]﴾

وبعد قصة آدم عليه السلام، تأتي قصة أول أمة لها رسالة كبرى، وهم بنو إسرائيل حيث تتصدى الآيات لفريق من الناس -هم اليهود - ممن كفر بآيات الله تعالى، وكذَّب رسوله محمدًا ﷺ كما كذَّب قبله عيسى عليه الصلاة والسلام فتناديهم على وجه التقريع والتوبيخ بهذا النداء الذي لم يرد في القرآن إلا لبني آدم عمومًا ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾.

والنداء الآخر في القرآن ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ والمراد بهم (اليهود) فتتحدث عنهم السورة بدءًا من هذه الآية الأربعين في سورة البقرة ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ الأولى، إلى الآية السادسة والسبعين بعد المئة، أي ما يساوي نصف السورة تقريبا.

والنصف الأول من هذه الآيات يَسردُ على وجه الإجمال، النعم التي أنعم الله تعالى بها على اليهود.

والنصف الثاني يتناول عشرين مخالفة من مخالفات اليهود، ونبدأ ذلك بنبذة عن بني إسرائيل:

---

(١) سهل الهمزة من (إسرائيل) مع المد والقصر أبو جعفر وحققها الباقون، ولا مدَّ فيه لورش؛ لأنه مستثنى من البدل، ولا ترقق الراء؛ لأنه اسم أعجمي.

(٢) قرأ يعقوب (فارهبوني)، (فاتقوني) بإثبات ياء بعد النون عند الوقف عليهما مراعاة للأصل وهي لغة الحجازيين، وقرأ الباقون بالحذف للتخفيف وموافقة للرسم وهي لغة هذيل.

مَنْ إسرائيل؟

إسرائيل[1]: اسمٌ أعجميٌّ، مركب من كلمتين (إسرا) ومعناها: (عبد)، و(إيل) ومعناها: (الله)؛ لأن (إل) بلسان العرب معناها (الله) كما قال تعالى ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾ [التوبة: ١٠].

قال بعض أهل العلم: (الإل) هو الله، وكل اسم يرجع إلى (إيل) فهو معبد له، مثل: جبريل، ميكائيل، إسرافيل[2] فمعنى الكلمة (عبد الله) أو (صفوة الله).

وإسرائيل: اسمٌ لنبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وقد أطلق اليهود هذا الاسم الشريف، على الأرض المحتلة تيمنًا من اليهود باسم أبيهم، وجلْبًا لعاطفة التدين لديهم، وشحْذًا للهمم اليهودية في الهجرة إلى الأرض المقدسة والدفاع عنها من منطلق ديني، وتلمسًا لنسبة فلسطين إليهم، للاستماتة في البقاء بها، غمطًا للحق الفلسطيني الثابت قبل ستة آلاف عام، وتجاهلًا للفتح الإسلامي على يد عمر ﷺ، وإنكارًا منهم بأن الإسلام - وهو الدين الخاتم- هو صاحب السيادة على الأرض جميعًا، فالوحي الذي نسخ رسالة موسى هو الذي جاء برسالة عيسى، وهو الذي نسخ رسالة عيسى وجاء برسالة محمد ﷺ حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وإسرائيل الذي هو نبي الله يعقوب عليه السلام قد أنجب اثني عشر ولدًا هم أصل الأسباط كما سمَّاهم القرآن الكريم، وكل ولد منهم له ذرية، فهم اثنتا عشرة عشيرة أو قبيلة، أكبرهم (يهوذا) الابن الأكبر ليعقوب، وهو أبو اليهود، وهو الذي أشار بقتل يوسف عليه السلام.

وسُمي اليهود يهودًا: نسبة إليه مع إبدال الذال دالًا تخفيفًا، أو من قولهم كما حكى الله تبارك وتعالى عنهم: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] أي: تبنا ورجعنا إليك.

والقرآن الكريم حين يخاطب اليهود أو بني إسرائيل في القرآن الكريم، يقول: يا بني

---

(١) وسبب هذه التسمية: أن نبي الله يعقوب قد هاجر خوفًا من أخيه عيسى، فعرض له ملَك وهو في طريق هجرته فسأله ما اسمك؟ قال: يعقوب، قال: بل أنت إسرائيل؛ لأنك جاهدت الناس.

(٢) ينظر في «تفسير الطبري» الآثار من (١٦٢٠ - ١٦٢٨).

إسرائيل، يعني: يا أولاد العبد الصالح، رسول الله يعقوب عليه السلام، يا ذرية نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، والقرآن يُلاطفهم ويُلاينهم، ويُخوِّفهم ويُوبِّخهم، ويذكِّرهم بنعم الله تعالى عليهم، ويُقيم عليهم الحجج والبراهين في أساليب متعددة من خطابه لهم.

وأول حديث خاطب به القرآن الكريم اليهودَ كان في سورة البقرة، وهي سورة مدنية، وجَّه فيها القرآن الكريم الخطاب إلى اليهود؛ لكي يَفُوا بعهدهم مع الله في الميثاق الذي أخذه عليهم في التوراة من الإيمان بمحمد ﷺ، وكان المفروض أن يكون اليهود المجاورون للمدينة هم أول من يؤمن بمحمد ﷺ؛ لأنه جاء وصْفُه في كتابهم صريحًا، أي في التوراة غير المحرَّفة، فكان من المفروض أن يكونوا أول من يؤمن به حيث كان قدومهم إلى المدينة وسكناهم فيها انتظارًا لهذا النبي المذكور في كتبهم، ولكن النتيجة كانت على العكس، فكانوا هم أول من كفر بمحمد ﷺ، وأول من باع الآخرة بالدنيا، فاشتروا بآيات الله ثمنًا قليلًا، وأول من خلط الحق بالباطل، فغيرُوا أوصاف النبي ﷺ الصادقة الصحيحة في كتابهم، حرفُوها وغيرُوها بأهوائهم، وما تُمليه عليهم مناصبُهم ورياستُهم.

وقد وجَّه الله سبحانه النداء إلى بني إسرائيل في سورة البقرة ثلاث مرات؛ مرة في أول القصة الآية (٤٠)، ومرة عند بدء ذكر النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل في الآية (٤٧)، ومرة في الآية (١٣٢).

النداء الأول لبنى إسرائيل:سورة البقرة ليست من القرآن المكي الذي يتحدث عن القصص القرآني، وإنما هي من القرآن المدني الذي يشير إلى القصة إشارة، ويُذَكِّر بالقصص تذكيرًا.

وفى هذا النداء الأول لبنى إسرائيل يذكِّرهم القرآن بمغبة كتمان أوصاف محمد ﷺ ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ يا ذرية يعقوب، وهذا نداءٌ باسم القبيلة، ولم ينادهم باسم الشريعة؛ لأن اليهودية قد دخل فيها غيراليهود، كقبيلة حمير وغيرها، ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: اذكروا هذه النعم الكثيرة وفيها نجاتكم من آل فرعون، وأنْ جعلتُ فيكم النبوة والرسالة، وأنزلتُ عليكم المن والسلوى، وفجَّرتُ لكم الحجرَ، وظللتُكم بالغمام... إلخ. اذكروها باللسان ولا تجحدوها، واشكروها بالقلب وعمل الجوارح، وقوموا بهذه الوصايا التي أوجبها الله عليكم.

وأعظم وصايا بني إسرائيل اثنتا عشرة وصية، وجملتها:

١- الوفاء بالعهد ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ﴾.

٢- الخوف من الله ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾.

٣- الإيمان بالقرآن ورسول الإسلام ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾.

٤- عدم إنكار أوصاف محمد ﷺ ابتغاء عرض الدنيا ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

٥- تقوى الله تعالى ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾.

٦- عدم خلط الحق بالباطل ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾.

٧- عدم كتمان الحق الصريح كأوصاف النبي ﷺ ﴿وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

٨- إقامة الصلاة ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

٩- إيتاء الزكاة ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

١٠- الركوع مع الراكعين من أمة محمد ﷺ ﴿وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ وذلك بدخولكم في الإسلام.

١١- عدم مخالفة القول للعمل ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾.

١٢- استعينوا على جميع أموركم بالصبر والصلاة ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾.

الوصية الأولى: الوفاء بالعهد

يا معشر يهود: أين أنتم من أبيكم يعقوب الذي كان شاكرًا لنعم الله، حافظًا لعهد الله، مالكم خالفتم سنة أبيكم وعصيتم أمره، فحاربتم رسله، ثم ذكَّرهم - سبحانه - ببعض نعمه عليهم، لعلهم يثوبون إلى رشدهم، فإن النعم لا تقابل بالعصيان وقتل الأنبياء وكتمان الحق ونقض العهد، فاذكروا نعمي عليكم.

﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ﴾ أي أتموا وصيتي إليكم ونفذوا عهدي الذي عاهدتكم عليه من الإيمان بمحمد ﷺ على وجه الخصوص، والإيمان بكتبي ورسلي جميعًا، والعمل بشرائعي ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ الذي وعدتكم به من الرحمة في الدنيا والنجاة في الآخرة، فأثيبكم عليه وأدخلكم الجنة فخافون، ولا تخافوا أحدًا غيري، فاحذروا غضبي وعقابي إن نقضتم العهد وكفرتم بي.

ومن الوفاء بالعهد: حفظ اليمين، والوصية، واتباع الأوامر واجتناب النواهي، والتصديق بالرسالة الأخيرة، وإقامة شرع الله.

الوصية الثانية: اجعلوا خوفكم من الله وحده

ثم أمرهم الله بالسبب الحامل لهم على الوفاء بالعهد وهي الرهبة والخشية من الله تعالى، فلا تخافوا غيري، ولتكن قلوبكم عامرة بخشيته تعالى، فإن ذلك يعينكم على طاعته والبعد عن معاصيه، فإنّ مَنْ خشي الله تعالى، حملتْه هذه الخشية على امتثال الأوامر واجتناب النواهي ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ والرهبة شدة الخوف.

وفي هذه الآية: تذكير لليهود بالعهد الذي قطعوه على أنفسهم من الإيمان بالله تعالى واتباع رسله، والقيام بفريضتي الصلاة والزكاة، وتوقير رسل الله تعالى، والإيمان بخاتم النبيين، وإنفاق المال في وجوه الخير، فإنهم إن فعلوا ذلك غفر الله لهم ذنوبهم، وأكرمهم في الآخرة بجنات النعيم.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ [المائدة]

الْوَصِيَّةُ الثَّالِثَةُ: دَعْوَةُ الْيَهُودِ إِلَى الْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَكِتَابِهِ

٤١- ﴿وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾

هذا شروعٌ في دعوة بني إسرائيل إلى الإيمان بما جاء به محمد ﷺ وهو القرآن المصدِّق لما في صحيح التوراة، والعمل بما فيه من الفضائل والبعد عن الرذائل، فلو أن موسى عليه السلام كان حيًّا ما وسعه إلا اتباع محمد ﷺ، فصدِّقوا يا بنى إسرائيل بالقرآن الذي أنزلته على محمد ﷺ موافقًا لما جاء في صحيح التوراة، وهذا يستلزم الإيمان بمن أُنزل عليه هذا القرآن، الذي لا يخالف صحيح التوراة ولا يناقضها ﴿وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ﴾ فريق ﴿كَافِرٍۭ بِهِۦ﴾ من أهل الكتاب - وعندكم فيه من العلم ما ليس عند غيركم - فتكونوا أئمة الكفر، تتحمّلون آثام مَن اقتدى بكم ممن يأتي بعدكم.

فيا معشر يهود آمنوا بما أنزلت على رسولي محمد ﷺ من القرآن المصدِّق لكتابكم: التوراة والإنجيل، المعهود إليكم فيهما أنه رسولي ونبيي المبعوث بالحق، وكذا بقية الكتب وهي: الزبور وكتاب أشعياء وأرمياء وحزقيال ودانيال وغيرها، ولا تكونوا أول من كذَّب بمحمد ﷺ وجحد نبوته مع علمكم به، فإنه قد كان من المتوقع أن تكونوا أول فريق من أهل الكتاب يؤمن بمحمد ﷺ وفق وَعْدكم أنكم أول من سيؤمن بالنبي الذي حان زمن رسالته كما هو ثابت في التوراة لديكم، وقلتم للمشركين الوثنيين من أهل مكة: إننا أول من سيفتح عليه ونؤمن به وننتصر به عليكم، كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [البقرة] ولكنكم أنكرتم رسالة محمد ﷺ عند مجيئه خوفًا على زعامتكم ومنزلتكم عند قريش، وأنتم بهذا قد بعتم آخرتكم بدنياكم.

الْوَصِيَّةُ الرَّابِعَةُ: لَا تُنْكِرُوا أَوْصَافَ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي التَّوْرَاةِ ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾

ثم ذكر سبحانه السبب المانع من الإيمان وهو اختيار العرض الأدنى على السعادة الأبدية، فقال: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟﴾ أي: ولا تستبدلوا ﴿بِـَٔايَٰتِى﴾ وهي الحجج الدالة على صدق محمد ﷺ من أوصافه التي لديكم، ولا تغيروا أحكام الله في كتابكم، كعقوبة الرجم، وغيرها مما حرم عليكم ولا تكذِّبوا بالقرآن المُنزَّل على محمد وتستبدلوا بذلك ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ من حُطام الدنيا الزائل بالخوف على زعامتكم، وهذا هو السبب المانع من الإيمان بخاتم النبيين، فاتبعوا هذى النبي محمد بن عبدالله، وما جاء به من الوحي، لأنه يصدق ما جاء به موسى، فيؤيده ويعضده، فكيف تفرقوا بين الرسولين والكتابين؟

واحذروا أن تكونوا أول المكذبين بهذا النبي، فتكونوا مفتاح فتنة، وأسوة في الصدّ عن سبيل الله، وإياكم أن تشتروا بآياتي التي عرفتموها عن محمد ﷺ عرض الدنيا الزائل فتكتموا الحق وتشهدوا الزور، وتأخذوا الرشوة أو تأكلوا الربا.

الْوَصِيَّةُ الْخَامِسَةُ: أَمْرُهُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾

فخافوا الله واتقوه، فإن من اتقى الله قدّم الإيمان بالله على الثمن القليل، ولا تكفروا بخاتم الأنبياء والمرسلين ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ واتركوا معصيتي، وافعلوا ما أمرتكم به،

واجتنبوا ما نهيتكم عنه، فاجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية.

قال طلق بن حبيب: التقوى: أن تعمل بطاعة الله، رجاء رحمة الله، على نور من الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله[1].

ومن التقوى: عدم كتمان الحق الذي عرفتموه -يا أهل الكتاب - في كتبكم من صفات محمد ﷺ، ووفائكم بما قطعتموه على أنفسكم من أنكم ستكونون أول من سيؤمن به عند مبعثه.

الْوَصِيَّةُ السَّادِسَةُ: لَا تُحَرِّفُوا التَّوْرَاةَ الْحَقِيقِيَّةِ وَتَخْلِطُوهَا بِالْبَاطِلِ

٤٢- ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾

أي: لا تخلطوا التوراة الصحيحة بما تغيِّرون وتُحرِّفون به كلام الله، وهذا التلبيس يكون بخلط الحق بالباطل حتى لا يتميز أحدهما من الآخر، فإياكم - يا معشر يهود- أن تمزجوا الصدق بالكذب، لتروِّجوا على الناس باطلكم، فتذكروا شيئا من الحق، ليصدقكم الناس في الباطل كحال الكهنة والشياطين، والمطلوب من أهل العلم أن يظهروا الحق ويميزوه من الباطل ليهتدى به المهتدون، وتقوم به الحجة على المخالفين المعاندين، ولتسبيين سبيل المهتدين من سبيل المجرمين.

الْوَصِيَّةُ السَّابِعَةُ: لَا تَكْتُمُوا مَا فِي التَّورَاةِ مِنْ وُجُوبِ الْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ:

وهذا أمرٌ بعدم جحد الحق وإنكاره ﴿وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ الذي جاءكم على لسان نبيكم موسى فتُخفوه وتظهروا غيره ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنكم كاذبون في افترائكم وبهتانكم، فلا تخلطوا الصدق بالكذب وتكتموا صفة محمد مع معرفتكم أنه الرسول الخاتم.

وفي هذه الآية نهى الله تعالى اليهود عن شيئين:

أحدهما: خلط الحق بالباطل، السابق ذكره في الوصية السادسة.

وثانيهما: عدم كتمان الحق، الذي جاء في هذه الوصية.

فإياكم أن تكتموا ما عندكم من المعرفة بخاتم النبيين، ومن الوحي الذي جاء به من عند

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (١/ ١٤٧).

الله، وأنتم تجدونه مكتوبًا عندكم؟ فكيف تجحدون ما تعلمون؟ وهذا الكتمان فيه ضرر عظيم على الناس بإضلالهم عن الهدى، وهذا يُفضي بهم إلى عذاب النار وبئس المصير.

الْوَصِيَّةُ الثَّامِنَةُ: أَمْرُ الْيَهُودِ بِالدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ وَأَدَاءِ أُصُولِهِ وَفُرُوعِهِ وَأَوَّلُهَا الصَّلَاةُ

٤٣- ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾

ومن هذه الوصايا لبني إسرائيل بعد أمرهم بالدخول في الإسلام؛ أمرهم الله تعالى بأداء فروع الإسلام ومنها إقامة الصلاة بأدائها مستوفية الأركان والشروط والواجبات والسنن والآداب، فبعد أن ذكَّرهم القرآن الكريم بالأسس التي يقوم عليها كل دين، ولا يختلف فيها دينٌ عن آخر، أمرهم بإقامة العبادات فقال: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يأتي هذا في سياق خطاب اليهود، حيث يأمرهم الله تعالى بإقام الصلاة مع المسلمين المصدِّقين بمحمد ﷺ وبما جاء به من عند الله.

فكونوا مع المؤمنين في أحسن أعمالهم، ومن أخص ذلك وأكمله: أداء الصلاة، فإن فعلتم ذلك فقد جمعتم بين الأعمال الظاهرة والباطنة وبين العبادة القلبية والبدنية.

الْوَصِيَّةُ التَّاسِعَةُ: أَمْرُهُمْ بِأَدَاءِ الزَّكَاةِ ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾

ثم أمرهم الله تعالى: أن يخضعوا لحكم الله ورسوله، فيؤدوا زكاة أموالهم ويتصدقوا على المحتاجين، وقد كان أحبار اليهود والمنافقون يأمرون الناس بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ولا يفعلونها، فأدوا زكاة أموالكم، لتزْكوا بها نفوسكم، وتطهر بها أموالكم، ويذهب الشح عنكم، فيرضى عنكم ربكم، ويحط عنكم خطاياكم، والآية عامة تخاطب أمة الدعوة وأمة الإجابة بما جاء به محمد ﷺ ويدل عليه:

الْوَصِيَّةُ الْعَاشِرَةُ: أَمْرُهُمْ بِصَلَاةِ الْجَمَاعَةِ

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أي: صلوا مع المصلين، و كونوا مع المسلمين أيها اليهود، وانخرطوا في سلكهم، فادخلوا في الإسلام، واخضعوا مع الخاضعين، وامتثلوا ما أمر الله به، واجتنبوا ما نهى عنه.

والتعبير بجزء من العبادة يدل على فرضيتها، وقد عبر الله سبحانه بالركوع عن الصلاة، وفي الآية أمر بصلاة الجماعة ووجوبها.

وفي محافظتكم على هذه العبادات: تطهيرٌ لقلوبكم، وتأليفٌ لها، وتزكيةٌ لنفوسكم، فإن لم تفعلوا فسيلحقكم الخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة.

الْوَصِيَّةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: عَدَمُ مُخَالَفَةِ الْقَوْلِ لِلْعَمَلِ:

٤٤- ﴿۞ أَتَأْمُرُونَ[1] ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾

الأوْلى بالقارىء أن يبدأ تلاوته بـ (يا بني إسرائيل) الأُولى أو الثانية، لأن هذه الآية متعلقة بما قبلها، وليست بداية معنى.

وجاءت الوصية هنا توبيخٌ لبني إسرائيل على أنهم يأمرون غيرهم بالمعروف ولا يفعلونه وهم يقرؤون التوراة ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وهذه أسسٌ متفقٌ عليها بين الديانات جميعًا، فالبِرُّ كلمةٌ جامعةٌ للخير والمعروف، وقد نُهِيَ العبدُ أن يأمر غيره بما لا يفعل وينسى نفسه، وكان أحبارُ اليهود إذا رأوا من يدخل في دين محمد ﷺ يقولون له: اثبُت على الإسلام، وهذا القائل نفسه لم يدخل الإسلام، فهو يأمر غيره ممن دخلوا في الإسلام أن يثبتوا عليه، مع أنه لم يُسْلِم بعد، وكانوا أيضًا ينهون الناس عن الكفر بالتوراة ويتركون أنفسهم كفَّارا بالقرآن، ويجحدون ما يعلمون صحته من نبوة محمد ﷺ وكانوا يحكمون بين الناس بإبطال الحق وإحقاق الباطل مقابل رشوة تقدم لهم، فالقرآن الكريم وبَّخهم ونعى عليهم أن يأمروا غيرهم بالبر، أي: بالثبات على دين محمد ﷺ أو الثبات على اليهودية، وينهون غيرهم عن الرشوة وينسون أنفسهم، فلا يدخلون في الإسلام ولا ينتهون عن فعل المنكر، ويأخذون الرشوة، ويأكلون السحت ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، والعقل يحث صاحبه على أن يكون أول فاعل لما يأمر به، وأول تارك لما ينهي عنه، فمن أمر غيره بالخير ولم يفعله، أو نهاه عن الشر ولم يتركه، دلّ ذلك على عدم عقله وجهله.

والآية عامة في كل من يخالف قوله فعله، كما قال تعالى ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن

(١) قرأ ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال همزة (أتامرون) ألفًا وكذا حمزة وقفًا.

تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴿٣﴾﴾ [الصف] وقد وصف الله بني إسرائيل بأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، ولَعَنهم لمخالفة أقوالهم لأفعالهم، حيث كان الرجل منهم ينهي غيره عن الإثم، ثم لا يمنعه ذلك من أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فَلُعِنوا على لسان داود وعيسى ابن مريم.

وكما قال تعالى على لسان نبي الله شعيب: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ﴾ [هود: ٨٨] والنفس مجبولة على عدم الانقياد لمن يخالف قوله فعله، والاقتداء بالأفعال أبلغ من الاقتداء بالأقوال.

وفي الحديث عن أسامة بن زيد ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«يُجاء بالرجل يوم القيامة فيُلقى في النار، فتندلق أقتاب بطنه فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيُطيف به أهل النار فيقولون: أي فلان، ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه»**(١).

وفي حديث أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«رأيت ليلة أُسري بي رجالًا تُقرض شفاههم بمقاريض من نار، قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء خطباء أمتك، الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم»**(٢).

وليس في الآية أن الإنسان إذا لم يفعل ما أُمر به، أنه يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأن الإنسان يجب عليه أن يأمر نفسه وينهاها، ويأمر غيره وينهاه، وترك أحدهما لا يكون رخصة في ترك الآخر.

---

(١) من حديث أسامة في «صحيح البخاري» برقم (٣٢٦٧، ٧٠٩٨) و«صحيح مسلم» برقم (٢٩٨٩) وفي مسند أحمد (٢١٧٨٤) والبغوي في «التفسير» بسنده عن البخاري (١/ ٦٨).

(٢) أخرجه ابن مردويه وابن حبان في «الموارد» برقم (٣٥) وفي «تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ١٥١) و«المسند» بزيادة (وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون) برقم (١٢٢١١، ١٣٤٢١، ١٣٨٥٦) حديث صحيح كما قال محققوه، والبزار في «الكشف» (٣٣٢٢١، ٣٣٢٢٢) وابن حبان (٥٣) وابن أبي حاتم (٤٧٢) وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٨٦) والبيهقي في «الشعب» (٤٩٦٥، ٤٩٦٧) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٩١).

الْوَصِيَّةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: الْاِسْتَعَانَةُ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ عَلَى جَمِيعِ الْأُمُورِ

٤٥- ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾

ثم أمرهم الله سبحانه أن يستعينوا بالصبر والصلاة على أمور الدنيا والدين فقال: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ استعينوا بالصبر على جميع أموركم، ومن ذلك: الصبر على طاعة الله حتى يؤديها، والصبر عن معصية حتى يتركها، والصبر على أقدار الله المؤلمة دون سخط، ومن يتصبر يُصَبِّره الله، واستعينوا على جميع أموركم بالصلاة فهي ميزان الإيمان، وفرق المسلم من الكافر، وهي التي تنهى فاعلها عن الفحشاء والمنكر وكان النبي ﷺ إذا حزَبه أمرٌ صلى[(١)].

وقال تعالى لنبيه: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾﴾ [طه]

وهذا أمرٌ له ﷺ بالصبر والصلاة عند حلول النوائب والشدائد.

والأحاديث الواردة في شأن الصبر كثيرةٌ، منها:

١- ما ورد في الصبر على أقدار الله تعالى كقوله ﷺ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: **«واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العُسر يُسرًا»**[(٢)].

٢- وفي الصبر على ضيق العيش، حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«قد أفلح من أسلم، وكان رزقه كفافًا، وصبر عليه»**[(٣)].

٣- وفي الصبر على أذى الناس قوله ﷺ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: **«المسلم الذي يُخالط الناس**

---

(١) من حديث حذيفة بن اليمان، وهذا اللفظ أصح - على ضعفه - من لفظ (فزع إلى الصلاة) وقد رواه أحمد في «المسند» (٥/ ٣٨٨) ط. الحلبي ورقمه في «المسند» (٢٣٢٩٩) بإسناد ضعيف، لجهالة محمد بن عُبيد، كما قال محققوه، ورواه أبو داود (١٣١٩) والطبري (١/ ٢٦٠) والبخاري في التاريخ الكبير (١/ ١٧٢).

(٢) الحديث بطوله في «المسند» (٢٨٠٣، ٢٧٦٣، ٢٦٦٩) قال محققوه حديث صحيح، و«صحيح سنن الترمذي» (٢٠٤٣) والبيهقي في «الشعب» (١٩٥) وفي «الأسماء والصفات» (١٢٦).

(٣) «المسند» (٦٥٧٢، ٦٦٠٩) ومسلم (١٠٥٤/ ١٢٥) والترمذي (٢٣٤٨) وابن ماجه (٤١٣٨) والبيهقي (١٩٦/٤) وفي «الشعب» (٩٧٢٣).

ويصبر على أذاهم خيرٌ من المسلم الذي لا يُخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»[١].

٤- والصبرُ خير عطاء يمنحه الله تعالى لعباده، عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إنه من يستعفف يعفه الله، ومن يستغنِ يغنه الله، ومن يتصبر يُصبره الله، ولم تُعطَوْا عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر»**[٢].

وهكذا الأحاديث الواردة في شأن الصلاة كثيرة، وكان أنبياء الله تعالى إذا أصابهم شيء فزعوا إلى الصلاة[٣].

ولمَّا نُعي إلى ابن عباس ﷺ أخوه قثم -وهو في سفَر- استرجع وتنحَّى عن الطريق وأناخ راحلته وصلى، ثم عاد إلى راحلته وهو يقرأ هذه الآية[٤].

وبيَّن سبحانه أن أداء الصلاة شاقٌّ وثقيلٌ على غير المؤمن الخاشع الذي يخشى لقاء ربه، وأمرهم أن يكونوا من الخاشعين الخاضعين لله عز وجل، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾. فإنها عليهم سهلة خفيفة، لأن رجاء ما عند الله تعالى يجعل العبد منشرح الصدر ترقبًا للثواب وخشية من العقاب، بخلاف غيره، فليس هناك ما يدعوه إلى هذا الانشراح ولذا ثقلت عليه، ثم وصف الله تعالى الخاشعين بقوله:

٤٦- ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾

ثم وصف الله سبحانه الخاشعين في صلاتهم الذين لا يثقل عليهم أداؤها بأنهم يوقنون بيومٍ يلقون فيه ربهم، فيرجعون إليه عند البعث والحشر بعد الموت، ويحاسبهم فيه على النقير والقطمير، فيثيبهم دار النعيم المقيم وهم في الغرفات آمنون، أما من لم يؤمن بلقاء ربه، فإن الصلاة عليه شاقة، وهو في الشقاء والعقاب الشديد يوم لقاء رب العالمين.

---

(١) البخاري في «الأدب المفرد» (٣٨٨) والترمذي (٢٥٠٧) وابن ماجه (٤٠٣٢) و«السلسلة الصحيحة» (٩٣٩).

(٢) البخاري (١٤٦٩، ٦٤٧٠) ومسلم (١٠٥٣) وأبو داود (١٦٤٤) والترمذي (٢٠٢٤) والنسائي (٢٥٨٧) و«المسند» (١٠٩٨٩) وغيره و«الموطأ» من رواية أبي مصعب (٢١٠٧).

(٣) كما في حديث صهيب في «المسند» (١٨٩٣٧) و«سنن النسائي الكبرى» (١٠٤٥٠) وابن حبان (١٩٧٥) وقال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٤) صحح إسناده العلامة أحمد شاكر كما في «تفسير الطبري» (٢/ ١٤) وهو في «المستدرك» (٢/ ٢٦٩) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، و(قثم) شقيق عبد الله بن عباس.

والظنُّ في لغة العرب: يطلق على الشك وعلى اليقين، والشاكُّ في لقاء الله كافرٌ، فالظن في هذه الآية بمعنى اليقين كما قال تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾ [الكهف] فالذين رأوا النار بأعينهم يوقنون بها ولا يشكون فيها.

قال تعالى عمن يأخذ كتابه بيمينه: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾ [الحاقة]

فكيف يشك وهو من أهل اليمين، وقد استلم كتابه بيمينه، وعرف مصيره، والظن: بمعنى اليقين معروفٌ في لغة العرب، وهؤلاء الذين يستعينون بالصبر والصلاة يؤمنون يقينًا باليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب وجزاء وجنة ونار.

وورود هذه الوصايا الاثنى عشر في القرآن الكريم يعني توجيهها إلى أمة محمد ﷺ وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، كما أمر الله بها بني إسرائيل من قبل.

النِّدَاءُ الثَّانِي لِبَنِي إِسْرَائِيلَ يُذَكِّرهُم بِعَشْرِ نِعَمٍ قَابَلُوهَا بِالْكُفْرِ وَالجُحُودِ

٤٧- ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

معنى تفضيل بني إسرائيل: هذا التفضيلُ موقوتٌ ومشروطٌ: فتفضيل بني إسرائيل كان على أمم عَصْرِهم، كالعرب والروم والفرس والهند والصين؛ لأن هذه الأمم كانت أهل شرك ووثنية، واليهود كانوا أهل كتاب يؤمنون بالله ورسوله موسى عليه السلام، فهم بلا شك أفضل من الوثنيين المشركين، وهذه الأفضلية لا تنسحب على أهل التوحيد من النصارى الذين قالوا: إن عيسى عبد الله ورسوله، والأفضلية في الإسلام منوطة بالإيمان بخاتم الرسل ﷺ عند مجيئه، فيكون حكمهم كغيرهم من المسلمين، وإلا فهم كفار؛ لأن من لم يؤمن بمحمد ﷺ فهو كافرٌ مستحق لنار جهنم.

ومن جهة أخرى فإن الله سبحانه وتعالى جعل في بني إسرائيل ملوكًا وسادة وأنبياء في زمانهم، كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المائدة] وهذا من تفضيل الله تعالى لهم على غيرهم في زمانهم.

وهكذا فقد أنعم الله عليهم بنعم لم تحدث لغيرهم، منها: أن الله تعالى أكثرَ فيهم الأنبياء والرسل دون غيرهم من الأمم، وجعل فيهم ملوكًا وحُكَّاما وآتاهم ما لم يؤتِ

أحدًا من العالمين: كالمن والسلوى، وتظليل الغمام لهم، وتفجير الماء من الحجر، وفَلْقِ البحر، وإنجائهم من الغرق، ومن استعباد فرعون.

فإن هم شكروا هذه النعم، وآمنوا بما في التوراة - ومنها: الإيمان بمحمد الذي جاء بعد عيسى- وآمنوا بعيسى الذي جاء بعد موسى؛ فإنهم بذلك ينخرطون في سلك المسلمين، والأكرم عند الله هو الأتقى؛ ولكنهم كفروا بعيسى وبمحمد، وعتوا عن أمر ربهم، وعصوا رسله، وقتلوا الأنبياء، وكفروا بالله وبرسله، فكانت النتيجة أن حقَّت عليهم لعنة الله وغضبه، فباؤوا بغضب من الله، وضُرِبتْ عليهم الذلة والمسكنة، فتفضيل الله تعالى لهم الوارد في هذه الآية: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وغيرها مما يُشبهها؛ لأنهم كانوا مؤمنين، وغيرهم من الأمم غير مؤمن، وهذا الإيمان موقوتٌ بزمان محدد ومكانٍ مُعيَّن.

والمعنى: فَضَّلْتُ أسلافكم بما كان فيهم من أنبياء وملوك وفَضَّلْتُهم بإيمانهم، وكفر غيرهم في وقتهم، ونِعَمُ الآباء نِعمٌ على الأبناء، أي: فضلتكم على عالمي زمانكم، حينما كنتم متبعين لموسى عليه السلام مؤمنين به غير مُحَرِّفين للتوراة، أما بعد أن حرَّفتم التوراة، وكفرتم بالله، ووصفتموه سبحانه بالبخل والفقر، وأشركتم به، وكذبتم الوحي الذي نزل على عيسى ومحمد، وعصيتم رسل الله، وقتلتم الأنبياء، فقد بدَّل الله تعالى بهذا التفضيل الذلة والمسكنة واللعنة والغضب ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١] ومثلها في آل عمران الآية (١١٢).

قال قتادة: فُضِّلُوا على العالم الذي كانوا فيه، ولكل زمان عالم[1]

وقال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الدخان] هذا لمن أطاعه واتبع أمره، وقد كان فيهم القردة، وهم أبغض خلقه إليه[2]

فالأفضلية غير مستمرة، وغير قائمة بعد نزول هذه الآية ونظائرها من القرآن الكريم؛ لأن شرطها قد فُقد، وانتهى العمل بها بمجيء الأمة التي بعدهم.

(١) عبد الرزاق (١/ ٤٤).

(٢) الطبري (٢/ ٢٤).

وأُمَّة محمد ﷺ قد نَصَّ الله سبحانه على أنها خير الأمم في قوله ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]

وفي الحديث عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال: **«أنتم تتمون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله»**[١].

تَحْذِيرُ الْيَهُودِ مِن يَومٍ لَا يَنفَعُ فِيهِ مَالٌ وَلَا بَنُونَ

٤٨ - ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ[٢] مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾

في هذه الآية وعظ وتذكير وحث لبني إسرائيل أن تتعلق قلوبهم بالخالق، وتنقطع عمن لا يملك مثقال ذرة من جلب نفع ولا دفع ضر، حيث يحذِّرهم الله تعالى ويخوِّفهم عذابه وعقوبته أن تحلَّ بهم يوم القيامة، يوم لا يُغني فيه أحد عن أحد، ولا يجزي والد عن ولده، ولا مولود عن والده، وأصلُ الجزاء في كلام العرب: القضاء والتعويض.

فالمعنى: لا تقضي نفسٌ عن نفس شيئًا لزمها لغيرها، ولا تدفع عنها شيئًا، إذ إنه ربما قضى والدٌ عن ولده في الدنيا دينًا أو غرامة، أو دفع عنه صدقة أو كفارة، ونحو ذلك، أما قضاء الحقوق يوم القيامة فهو الحسنات والسيئات.

جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«رحم الله عبدًا كانت عنده لأخيه مظلمة في عرض أو مال أو جاه، فاستحلَّه قبل أن يؤخذ منه، وليس ثمَّ دينارٌ ولا درهمٌ، فإن كانت له حسنات أخذوا من حسناته، وإن لم تكن له حسناتٌ حملوا عليه من سيئاتهم»**[٣].

وكما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«أتدرون من المفلس؟»**

---

(١) رواه الترمذي (٤/ ٨٢) برقم (٣٠٠١) وقال: هذا حديثٌ حسن، وعبد بن حميد (٤١١، ٤٠٩) وابن ماجه (٤٢٨٧) والدارمي (٢٧٦٠) ورواه الطبري في التفسير برقم (٨٧٣) وهو في المسند عن معاوية بن حيدة برقم (٢٠٠١٥، ٢٠٠٢٥) بإسناد حسن، كما قال محققوه.

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب (ولا تقبل) بتاء التأنيث، وقرأ الباقون (ولا يقبل) بياء التذكير؛ لأن تأنيث (شفاعة) تأنيث لفظي.

(٣) حديث صحيح، رواه الترمذي عن هناد (٣/ ٢٩٢) وقال: هذا حديث حسن صحيح، ورواه مالك عن أبي هريرة وغيرهما.

قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، قال: **«إن المفلس مَنْ أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاةٍ وصيامٍ وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وسفك دم هذا، وأكل مال هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فَنِيتْ حسناته -قبل أن يقضي ما عليه- أُخذ من سيئاتهم فطُرِحَتْ عليه، ثم طرح في النار»**[1].

وعن ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«لا يموتن أحدكم وعليه دينٌ، فإنه ليس هناك دينارٌ ولا درهم، إنما يقتسمون هنالك الحسنات والسيئات»**.

وأشار رسول الله ﷺ بيده يمينًا وشمالًا[2].

وغير ذلك من الآيات والأحاديث التي تفيد أنه إذا كان يوم القيامة فإنه لا تقضي نفسٌ عن نفسٍ شيئًا لزِمها لغيرها؛ لأن القضاء في الآخرة لا يكون إلا من الحسنات والسيئات. ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾.

أما الشفاعة في الدنيا فمعناها: أن يطلب المرء قضاء حاجته ممن يستطيع قضاءها، ويوم القيامة لا يقبل الله شفاعة أحد لأحد إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولًا، وقد كان اليهود يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن آباءهم سيشفعون لهم عند الله، فأخبرهم الله تعالى وأخبر سائر خلقه بقوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ فالشفاعة لا تقبل من الكافر ولا له، وصحَّ في الحديث عن جابر ﷺ: **«إن شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي»**[3].

وصحَّ أيضًا عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«ليس من نبي إلا وقد أُعطي دعوة، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي، وهي نائلة إن شاء الله منهم من لا يشرك بالله شيئا»**[4].

وبهذا يتبين أن الله تعالى يصفح عن عباده المؤمنين بشفاعة محمد ﷺ وأن عدم قبول الشفاعة إنما هو لمن مات على كفره ولم يتب.

---

(١) من حديث أبي هريرة في «صحيح مسلم» برقم (٢٥٨١).

(٢) «أخرجه الطبري» (٢/ ٣٠) قال الشيخ أحمد شاكر: هذا إسناد صحيح متصل عن ابن عباس.

(٣) من حديث جابر في «المستدرك» (٢/ ٣٨٢) والبيهقي في «البعث» (١) وصححه الألباني في «ظلال الجنة» (٣٨٥).

(٤) من حديث أبي موسى في «المسند» (١٩٧٣٥)، بنحوه، وهو صحيح لغيره، كما قال محققوه، وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١١/ ٤٣٣) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٥٨): رواه أحمد متصلًا ومرسلًا والطبراني ورجاله رجال الصحيح.

والعَدل بفتح العين: هو الفدية والبذل من غير جنس الشيء ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي: ولا يقبل منها أي فداء تدفعه لرفع العذاب عنها، ولو افتدى نفسه بملء الأرض ذهبًا، فليس هناك من ينقذهم من عذاب الله؛ لا مال، ولا جاه، ولا ولد، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾ [الأنعام: ٧٠].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٣٦].

والعِدل بكسر العين: هو الشيء المماثل أو المعادل من جنسه، والكفار لا يقبل منهم فدية ولا شفاعة وليس لهم من ينصرهم من عذاب الله، ولذا ختمت الآية بقوله تعالى ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ فلا سبيل لدفع العذاب عنهم.

عَشْرُ نِعَمٍ وَمِنَنٍ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ

٤٩- ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾

ابتدأ القرآن الكريم بذكر عشرة من النِّعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل، يذكِّرُهم بها تذكيرًا، ويشير إلى هذه النعم إشارة؛ لأنه سبحانه يتحدث في القرآن المدني إلى قوم قرؤوا هذه النعم في القرآن المكي، وعَرَفُوها في أماكن أخرى من القرآن، فُصِّلت فيها، كما في سورة الأعراف، وطه، والشعراء، والدخان، وغيرها من السور المكية التي تحدثت بالتفصيل عن القصص القرآني، فالمقام هنا مقامُ تذكير لبني إسرائيل بنعم الله عليهم، كي يحملهم ذلك على الاعتراف بما جاء في التوراة والإنجيل والقرآن من أوصاف محمد ﷺ وعلاماته، وزمان مجيئه، وألَّا يكفروا به، بل عليهم أن ينخرطوا في سلك المؤمنين.

ولذلك: فإن القرآن الكريم قبل هذه النعم خوَّفهم يوم الحساب والجزاء، وبيَّن لهم أنه يوم لا تقبل فيه الشفاعة، ولا الفدية، ولا يوجد من ينصرهم من عذاب الله.

ومجمل هذه النعم العشر هي:

١- نجاتهم من ذبح فرعون واستعباده لهم. ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [الآية: ٤٩]

٢- فَرْقُ البحر لهم ونجاتهم من الغرق. ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ [الآية: ٥٠]

٣- العفو عنهم بعد عبادة العجل. ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم...﴾ [الآية: ٥٢]

٤- نزول التوراة على نبيهم. ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ﴾ [الآية: ٥٣]

٥- قبول توبتهم من عبادة العجل. ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [الآية: ٥٤]

٦- بعث من مات منهم بالصاعقة في الحياة الدنيا ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ [الآية: ٥٦]

٧- تظليل الغمام لهم وهم في التيه. ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾ [الآية: ٥٧]

٨- نزول المن والسلوى عليهم. ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ [الآية: ٥٧]

٩- مراسم دخول بيت المقدس. ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ الآية: ٥٨]

١٠ - تفجير الماء لهم من الحجر. ﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [الآية: ٦٠]

جاءت هذه النعم مجملة تِلْوَ بعضها في الربع الثالث من سورة البقرة:

النِّعْمَةُ الأُولَى: نَجَاتُهم مِنْ فِرْعَوْنَ وَآلِهِ:

أول نعمة أنعم الله بها على بني إسرائيل: **(نجاتهم من آل فرعون)** حيث كان ملوك مصر يُسمَّوْن الفراعنة، فيقال: فرعون مصر، كما يقال: قيصر الروم، وكسرى الفرس، وتُبَّع اليمن، وجموعها: فراعنة وقياصرة وأكاسرة، وتبابعة، وقد ذكر محمد بن إسحاق: أن فرعون الذي كان في عهد موسى عليه السلام كان اسمه (الوليد بن مصعب بن الريان)[١].

وأفادت بعض الروايات أن مدة مُلْك فرعون موسى كانت أربع مئة سنة[٢].

وعن السُّدي: أن فرعون رأى في منامه أن نارًا أقبلت من بيت المقدس، وأهلكت المصريين، ولم تمس بني إسرائيل بسوء، فجمع فرعون الكهنة والعرافين وسألهم عن تأويل الرؤيا، فقالوا: إن مولودًا يولد من بني إسرائيل يكون زوال ملكك على يديه، فأمر بقتل الذكور، وإبقاء الإناث لاسترقاقهن وإبقائهن في البيوت للخدمة كالجواري، فأخذ فرعون يأمر بقتل من يولد من الذكور.

---

(١) ينظر: «تاريخ الطبري» (١/ ١٩٩)، وقد ذُكر هذا الاسم في كثير من كتب التاريخ والتفسير.

(٢) «تفسير الطبري» (٢/ ٤٣) وابن أبي حاتم (١/ ١٠٥).

ولما عمَّ القتل في الصغار، ومات الشيوخ ذهبوا إلى فرعون واشتكوا إليه ذلك، فأمر بقتل الذكور عامًا وإبقائهم عامًا آخر؛ فوُلد (هارون) في العام الذي لا قتْل فيه، ووُلد (موسى) في العام الذي فيه القتل[١] ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ [القصص: ٤].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان اللهُ وعد به إبراهيم خليله أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكًا فأجمعوا أمرهم على قتل الذكور[٢].

والله تعالى يخاطب الموجودين من بنى إسرائيل في عهد النبي ﷺ فيقول: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم﴾ أي نجينا آباءكم من بطش آل فرعون فقد كانوا يذبِّحون أبناءكم، ويستبْقُون نساءكم، فأنتم بين قتيل ومذلّل بالأعمال الشاقة، ومستبقَى من النساء لأغراض شهْوانية، وهذا في غاية الإذلال والإهانة، فأنقذكم الله من بطشهم، ومنّ عليكم بالنجاة و إغراق عدوكم، وهذا ابتلاء عظيم من رب العالمين، وبرسالة موسى نجّى الله بني إسرائيل من قتلهم وإذلالهم باستعبادهم[٣].

فاذكروا هذه النعمة يا أبناء نبي الله يعقوب إن كنتم تعقلون.

وكان دخول بني إسرائيل مصر في عصر يوسف عليه السلام لما كان عزيز مصر، وكان ذلك أيام الهكسوس سنة ١٩٠٠ قبل الميلاد، وانتهى بقاؤهم فيها سنة ١٧٠٠ قبل الميلاد، وكانوا يسكنون في جهة تسمى أرض (جاسان) وهي معروفة اليوم بـ(صفط الحنّة) بين الزقازيق وأبي حماد، في محافظة الشرقية، وسخَّر فرعون بني إسرائيل أثناء هذه المدة في خدمة المزارع والمباني وصناعة الطوب وبناء المدن، وحمل الأثقال. .

---

(١) «تاريخ الطبري» (١/ ٢٠٠).

(٢) «أخرجه الطبري» في تفسيره من طريق سعيد بن جبير موقوفا على ابن عباس برقم (٨٩٢) وعن أبي العالية عند ابن أبي حاتم (٥٠٥) وانظر: «تفسير القاسمي» (١/ ٤٤) ورجاله ثقات إلا الإصبغ يُغرِّب، والخبر ليس من غرائبه.

(٣) وجاءت رواية في هذه القصة أيضا عن مجاهد وابن اسحاق وغيرهما، ولعل المعنى مأخوذ عن أهل الكتاب.

قيل: ثم خشي فرعون أن يكون الإسرائيليون أعوانًا لأعدائه من ملوك العمالقة فأمر باستئصالهم[(١)].

لقد منَّ الله عليهم بنجاتهم من عذاب فرعون وقتله لهم ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ۝٣٠ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٣١﴾ [الدخان].

وكانت ولادة موسى بن عمران من سبط لاوي بن يعقوب في مصر سنة ألف وخمسمائة قبل الميلاد، وكان اسم أمه (يوخانذ) من سبط لاوي، وكان زوجها قد توفي حين ولادة موسى عليه السلام، فأخفته ثلاثة أشهر خوفًا عليه من القتل، ثم صنعت له صندوقًا وألقته في اليم بالقرب من قصر فرعون بـ (عين شمس).

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«ليلة أسري بي رأيت موسى، وإذا هو رجل ضرْب** (أي: نحيف) **رجلٌ كأنه من رجال شنوءة** (حيٌّ من اليمن) **ورأيت عيسى فإذا هو رجل رَبْعة، أحمر، كأنما خرج من ديماس** (أي: من الحمام لنضرته وكثرة ماء وجهه) **وأنا أشبه ولد إبراهيم به، ثم أُتيت بإنائين في أحدهما لبن، وفي الآخر خمر، فقال: اشرب أيهما شئت، فأخذت اللبن فشربته، فقيل: أخذت الفطرة، أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك»**[(٢)].

وكان نجاة بني إسرائيل من عدوِّهم في يوم عاشوراء، كما في حديث ابن عباس أن النبي ﷺ لما قدِم المدينة وجد اليهود يصومون عاشوراء، فقال: **«ما هذا اليوم الذي تصومون؟»** قالوا: هذا يومٌ صالحٌ نجى الله فيه بني إسرائيل من عدوِّهم، فصامه موسى، فقال رسول الله ﷺ **«نحن أحق بموسى منكم»** فصامه وأمر بصيامه[(٣)].

وفي هذه الآية امتنانُ الله تعالى على بني إسرائيل بنجاتهم من استعباد فرعون لهم وتسخيرهم في الأعمال الشاقة، وذبح المواليد الذكور واستبقاء الإناث.

---

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (١/ ٤٩٣).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣٣٩٤، ٣٤٣٧، ٤٧٠٩، ٥٥٧٦) و«صحيح مسلم» برقم (١٦٨).

(٣) البخاري (٢٠٠٤، ٣٣٩٧) ومسلم (١١٣٠) والنسائي (٢٨٣٤، ١١٢٣٧) و«المسند» (٢٦٤٤، ٢٨٣١، ٣١٦٤) والبيهقي (٤/ ٢٨٩).

النِّعْمَةُ الثَّانِيَةُ: فَرْقُ الْبَحْرِ وَنَجَاتُهُم مِنَ الْغَرَقِ

٥٠- ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٠﴾

وذلك أن الله تعالى أمر موسى أن يَخْرُج ببني إسرائيل من مصر، كما جاء في قوله تعالى ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٥٢﴾ [الشعراء]

وقوله: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ۝٧٧﴾ [طه]

فخرج موسى وقومه من مصر وكان عددهم ست مئة وعشرين ألفًا، أعمارهم ما بين عشرين إلى ستين سنة، ولم يَعُدُّوا ما دون العشرين لصِغَره ولا ما فوق الستين لكبره[١].

وسرى بهم موسى - عليه السلام - ليلًا حتى وصل إلى ساحل البحر الأحمر، على خليج السويس، ولحقه فرعون وجنوده عند شروق الشمس، وكان عددهم نحو سبعين ألفًا على خيولٍ دُهْمٍ، سوى الجند الذين كانوا على خيول ذات ألوان[٢] وأدركوهم، فنظر موسى ومعه بنو إسرائيل، فوجد البحر أمامه والعدو خلفه ولم يكن له مخرج ولا مُنْصرف.

ونظر فرعون إلى جند موسى فقال: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝٥٤ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝٥٥﴾ [الشعراء] قال فرعون ذلك احتقارًا لهم، أو لأن عددهم كان أكبر بكثير كما في بعض الروايات، قال تعالى: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١﴾ قال موسى: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢].

قال يوشع بن نون[٣] أين أَمَرك ربك يا موسى؟ فأشار موسى إلى البحر، فاقتحم يوشع بفرسه البحر ثلاث مرات وهو يرجع، وعندئذ أمر الله موسى أن يضرب البحر بعصاه، وماذا عسى أن تفعل عصا بالبحر حين يُضرب بها في العادة؟ وكان الله سبحانه قد أمر البحر أن ينفلق حين يضربه موسى بعصاه، فبات البحر ينتظر طلب موسى، معجزة من رب العالمين، أيد بها موسى عليه السلام، فهي العصا التي انقلبت حية تسعى، قال تعالى:

(١) كما جاء في رواية السُّدي في «تاريخ الطبري» (١/ ٢١٣).

(٢) «تاريخ الطبري» (١/ ٢١٧).

(٣) كما جاء تعيينه في بعض الروايات، ينظر: «تفسير عبد الرزاق» (١/ ٦٧).

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء] انفلق البحر، أو انشق اثني عشر طريقًا بعدد أسباط بني إسرائيل، فظهرت اليابسة، وجف الماء، وصار متراكمًا بعضه فوق بعض كالطود، أي الجبل الشامخ، حيث جمَّد الله المياه، وأوقفها في عرض البحر متراكمة كالجبل الأشم، وصارت الأرض في قاع البحر جامدة يابسة، وأمر الله موسى وبني إسرائيل أن يعبُروا البحر، فعبروه بإذن الله تعالى.

ولما وصل موسى وبنو إسرائيل إلى الجهة المقابلة أراد موسى أن يضرب البحر مرة أخرى حتى لا يلحقهم فرعون وجنوده، فقال الله تعالى له: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ﴾ أي: لا تضرب البحر بعصاك مرة ثانية، واتركه ساكنًا هادئًا كما هو على حالته ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٤].

لقد أراد الله لفرعون ومن معه الغرق والهلاك ليكون عِبرة وعظة للناس إلى يوم القيامة، نظر فرعون، فرأى الطريق ممهدًا يابسًا أمامه في عرض البحر، فنزل هو وجنوده البحر ليلحق بموسى وقومه، فكانت النتيجة أن أغرق الله فرعون ومن معه، وبعد أن اكتمل دخولهم البحر هاب حصان فرعون أن يتقدم، فعرض له جبريل على فرس أنثى يشتهيها الحصان الذكر، فقرَّبها منه، فلما شمَّها تبعها، وقرَّبهم الله منهم، كما قال تعالى: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الشعراء] فلما دخل آخرهم -وهَمَّ أولهم أن يخرج- صدر الأمر الإلهي فانطبق عليهم البحر وهو يتلاطم الأمواج، فأغرقهم الله جميعًا، وغشيهم من اليم ما غشيهم، ونطق فرعون بكلمة التوحيد في وقت لا تنفع فيه التوبة، وفي هذا يقول سبحانه مذكرًا بني إسرائيل بهذه النعمة عليهم: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ أي: وأنتم يا بني إسرائيل على ساحل البحر تنظرون إلى آية انفلاق البحر لموسى، وتنظرون إلى هلاك فرعون ومن معه، وأمواج البحر تتلاطم بفرعون وآله، وقد أنجاكم الله وأغرقهم، فهل من معتبر؟!

وكان خروج موسى ببني إسرائيل من مصر سنة ألف وأربع مئة وستين قبل الميلاد في زمن منفتاح الثاني وهو فرعون الذي كان في زمن موسى عليه السلام، وتُوفِّي موسى قُرب أريحا سنة ألف وثلاث مئة وثمانين قبل الميلاد.

عِبَادَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِلْعِجْلِ

٥١- ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا[(١)] مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ[(٢)] ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾﴾

طلب اليهود من موسى عليه السلام -بعد أن نجاهم الله من البحر وأغرق عدوهم- أن يكون لهم كتابٌ وشريعة، فسألوه أن يُنزِّل اللهُ عليهم كتابًا يعملون بمقتضاه، فأخبر الله موسى بموعد اللقاء ومكانه لنزول التوراة عليه في طور سيناء، وأمره ربُّه أن يصوم ويتطهر ويتقرب إليه جل شأنه مدة ثلاثين ليلة، ولأمرٍ مَّا أمره الله بإتمامها أربعين ليلة.

قيل: لأنه قد تسوَّك في نهايتها، فزاده الله عشرًا، وهي شهر ذي القعدة وعشر من ذي الحجة، ومكث موسى على جبل الطور أربعين ليلة، وكان قد تعجَّل الخروج إلى ربه شوقًا للقائه، فقرَّبه الله منه، وأنزل عليه التوراة في ألواح من برد[(٣)] قال تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢] وكان موسى قد استخلف على قومه هارون، أخاه الأكبر وقال له: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢] واستبطأ بنو إسرائيل موسى، حين زاد عشرة أيام بعد الثلاثين يومًا، حيث لم يكن لهم علم بها، فكانت فتنتهم بعبادة العجل في هذه العشر، وقيل: إنهم أخطؤوا في عد الليالي فاحتسبوها عشرين يومًا بليلة.

واستغل (موسى بن ظفر السامري) غيبة موسى عليه السلام في هذه العشر، أو أنه قد غالط القوم في عد المدة، وكان السامري منافقًا يُظهر الإسلام والإيمان بموسى عليه السلام، وكان موسى السامري من (باجرما) وهي قرية قرب (الرقة) من أرض الجزيرة، فدخل أرض مصر وانخرط في بني إسرائيل.

وكان قومه يعبدون البقر، فكان حب عبادة البقر في نفسه.

وكان السامري مع بني إسرائيل حين نجوا من الغرق، ورأى جبريل وهو على فرس

---

(١) قرأ أبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب بحذف الألف من (واعدنا) على أن الوعد من الله تعالى وقرأ الباقون بألف بعد الواو من المواعدة، فالله تعالى وعد موسى الوحي، وموسى وعد الله المجيء.

(٢) أظهر الذال من (اتخذتم) ابن كثير وحفص ورويس، وأدغمها في التاء الباقون.

(٣) جاء ذلك عن أبي العالية في «تفسير الطبري» (٢/ ٦٢).

أنثى؛ لِتُغْرِي حصان فرعون باقتحام اليمّ قبل غرقهم.

وكان السامري قد رأى جبريل على الفرس أيضًا حين كان يأتي لموسى عليه السلام وهو طفلٌ رضيع ليغذيه حين خافت عليه أمه من الذبح.

فلما جاء جبريل إلى موسى ليذهب به إلى لقاء ربه لنزول التوراة عليه -وعاينه السامري- قال: إنه فرس الحياة؛ لأنه رآه عدة مرات، فأخذ قبضة من تحت حافر الفرس، وكان ابن مسعود يقرأ: (فقبضت قبضة من أثر حافر الرسول)[1].

وكان مع بني إسرائيل حُلِيٌّ وأمتعة أخذوها من أهل مصر، وخرجوا بها معهم واعتبروها غنائم مستباحة لهم؛ ولذا: فإن فرعون كان يحرص على اللحاق بهم قائلًا: إنهم لم يخرجوا بأنفسهم حتى ذهبوا بأموالكم معهم[2].

وكان نساء بني إسرائيل قد استعرْن الذهب من أهل مصر للتحلِّي به في عُرس لهن، وكان الفيء أو الغنائم لا تحل لأحد قبل محمد ﷺ فطلب منهم هارون أن يجعلوه في حفرة حتى تأكله النار، فلما وضعوه في الحفرة جاء السامري بتلك القبضة التي في يده وقذفها فيه، فصنع لهم عجلًا من ذهب، هذا العجل صُمِّم بشكلٍ هندسيٍّ له صوتٌ وخوار تدخل الريح في دبره وتخرج من فمه، وقال لهم: هذا إلهكم وإله موسى، ولكن موسى ترك إلهه هنا وذهب يطلبه في جبل الطور، فآمن به بنو إسرائيل، واتخذوا العجل الذي صاغه السامري معبودًا من دون الله، وكانوا بعبادتهم للعجل ظالمين لأنفسهم؛ لأنهم وضعوا العبادة في غير موضعها، والعبادة لا تكون إلا لله تعالى.

ولما جاء موسى عليه السلام ووجد أن ذلك قد حدث في غيبته غضب، وأخذ برأس أخيه ولحيته يجره إليه، وكان هارون قد نصحهم وحذرهم من عبادة العجل قائلًا: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾ [طه: ٩٠] ولكنهم أصروا على

---

(١) «تفسير الطبري» (٢/ ٦٤) قلت: وهي قراءة تفتقد ركنًا من أركان القراءة الصحيحة؛ وهو موافقة رسم المصحف، فهي تعلم ولا تقرأ وليست قرآنًا يتلى.

(٢) «تاريخ الطبري» (١/ ٢١٦).

الاستمرار في عبادة العجل، قال موسى لهارون: ما منعك أن تتبعني وتلحق بي أنت ومن معك حين رأيتهم عبدوا العجل، كما حكى الله ذلك عنه ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾﴾ [طه]

قال هارون مجيبًا له: ﴿إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ [طه: ٩٤] أي فرقت -يا هارون - بين المؤمن منهم والكافر، ممن تبعك منهم وممن تبع السامري، وخشيت أن تقول: إنك تركتهم وذهبت، وقد أمَرْتني بالبقاء فيهم حتى تعود، وبهذا فإن هارونَ عليه السلام قد اجتهد فآثر الوحدة الوطنية على قيام الفتنة بين الفريقين، وآثر أن يبقى بينهم جمعًا لوحدة الصف.

وكانت توبة بني إسرائيل من عبادتهم لهذا العجل أن يقتل بعضهم بعضًا، وكانت عقوبة السامري في الدنيا وخيمة، فقد أصابه الله بما هو أعظم من مرض الإيدز، بما ينفر الناس منه فلا يقربهم ولا يقربونه ﴿فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ [طه: ٩٧] كالأجرب، أو صاحب المرض المعدي الذي لا يمسُّ أحدًا ولا يمسُّه أحدٌ، أما في الآخرة فعذابه أشدُّ وأعظم ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ [طه: ٩٧].

أما العجل فقد سحقه موسى، وحكَّه بالمبرد، ثم ذراه في اليم ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: ٩٧]:

النِّعْمَةُ الثَّالِثَةُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ: عَفْوُ اللَّهِ عَنْهُم بَعْدَ عِبَادَتِهِم العِجْلَ

٥٢- ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾

هذا عفوٌ من الله تعالى عن بني إسرائيل بعد عبادتهم العجل وعدم تعجيل العقوبة لهم؛ فقد طلب الله سبحانه منهم التوبة، بأن يرجعوا إلى طاعة ربهم وما يرضيه عنهم؛ حتى تتم لهم النجاة من عقاب الله في الآخرة وتكون لهم المثوبة.

فاذكروا - أيها اليهود المعاصرون ومن يأتي بعدكم - حين قبلنا توبة آبائكم وتجاوزنا عن فعلتهم المنكرة، ولا تتمادَوْا في الكفر والضلال، فإن هذا خيرٌ لكم من الخلود في

النار، واشكروا الله بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم، وهذا العفو عنهم بعد عبادتهم للعجل من أجلِّ نعم الله عليهم، لعلهم يشكرون خالقهم، ويستعملون نعمةُ فيما خُلقتْ لأجله.

النِّعْمَةُ الرَّابِعَةُ عَلَى بَنِي إِسْرائِيلَ: نُزُولُ التَّورَاةِ عَلَى مُوسَى عليه السلام

٥٣- ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴿٥٣﴾﴾

الكتابُ: هو التوراة المكتوبة في الألواح.

والفرقان: وصفٌ للتوراة؛ لأنها تفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال.

قال ابن عباس: الفرقان جماع اسم التوراة والإنجيل والزبور والقرآن، فهو يطلق على كل كتاب نزل من عند الله، وذلك أن بني إسرائيل بعد أن تابوا ورجعوا إلى الله سبحانه، أنزل عليهم التوراة، وأيّد موسى بالفرقان كما طلبوا.

وقيل: المراد بالفرقان: المعجزات الفارقة بين الحق والباطل، كالعصا واليد، لعلكم يا بني إسرائيل تعودون إلى رشدكم وتسلكون سبل الهداية، ولكن ذلك لم يحدث.

والتوراة تجمع بين كونها كتابًا منزَّلًا وشرعًا يفرّق بين الحلال والحرام، وبين الكفر والإيمان فيصحُّ إطلاق اسم (الفرقان) على التوراة، ويصح إطلاقه على المعجزات التي أيَّد الله بها موسى، وهو أيضا من أسماء القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١].

فاذكروا - أيها اليهود - هذه النعمة العظيمة وهي نزول التوراة عليكم، واهتدوا بهدى الله الذي جاء فيها، ولا تغيِّروها ولا تحرِّفوها، ولكن بني إسرائيل امتدت أيديهم إلى التوراة فحرَّفوها، وتركوا العمل بها، ولم ينتفعوا بما فيها، فكانوا كالذي يحمل أسفارًا، ولا يفقه ما فيها، ولا يستفيد منها.

النِّعْمَةُ الخَامِسَةُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ: قَبُولُ تَوْبَتِهِمْ مِنْ عِبَادَةِ العِجْلِ بِقَتْلِ أَنْفُسِهِم

٥٤- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ(١) فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ[1] فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ (٥٤)﴾

أي: اذكروا يا بني إسرائيل حين ظلمتم أنفسكم بما لم يكن لكم فِعْلُه من عبادتكم للعجل، مما أوجب لكم العقوبة، وكلُّ من يوجب العقوبة على نفسه فهو ظالمٌ لها، وبعد فراق موسى إياكم ارتددتم عن دين الله، وعكفتم على عبادة العجل الذهبي ﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ بأن يقتل بعضكم بعضًا، هذا تشريعٌ لا يكون إلا عن وحي، وهو أن يقتل من لم يعبد العجل، مَنْ عبده قتلًا حقيقيًّا، فإن القتل حكم المرتد ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾؛ فاستجاب القوم لما أمرهم به موسى من التوبة إلى الله تعالى من عبادة العجل وقتلوا أنفسهم ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي قبِل منكم توبتكم.

جاء في التوراة التي بين يدي اليهود اليوم: دعا موسى إليه من يرجع إلى الرب، فأجابه بنو (لاوي) فأمرهم بأن يأخذوا السيوف ويقتُل بعضهم بعضًا ففعلوا، وقتل في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف[2] ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ والتوبة هي الأوبة، والإنابة والرجوع إلى الخالق سبحانه، ولكن الردة لها توبة خاصة.

والتوبة المطلوبة منهم هي توبة المرتد، والذي ارتدَّ عن دينه ولم يرجع عن ردته، توبته لا تكون إلا بالقتل؛ لذا أمرهم الله سبحانه أن يقتلَ مَنْ لم يعبد العجل منهم من عبده، وهذا حكمٌ خاصٌ في حقِ مَنْ عَبَدَ العجل؛ أن يقتل البريء منهم المجرم، ولكنَّ القوم فيهم الأخ، وفيهم الأب، وفيهم الابن، فكيف يقتل أحدهم أقرب الناس إليه.

فأرسل الله تعالى عليهم ظلمة شديدة حتى لا يرى بعضهم بعضًا، وأخذ بعضهم يقتل بعضًا حتى قُتل منهم عدد كبير[3] ثم كشف الله عنهم السحابة وأمرهم أن يكفُّوا عن القتل بعد

---

(١) للدوري عن أبي عمرو في همزة (بارئكم) ثلاثة أوجه هي: إسكان الهمزة، واختلاس كسرتها، وكسر الهمزة كسرًا خالصًا، وللسوسي وجهان: الإسكان، والاختلاس، والباقون بالكسرة الخالصة، وكلها لغات.

(٢) عن «تفسير المنار» (١/ ٣٢٠).

(٣) ذكرت بعض الآثار أنهم سبعون ألفًا، وجاء في التوراة أنهم ثلاثة آلاف ولا يوجد دليل صحيح في ذلك.

أن أخذ موسى وهارون يبكيان ويتضرعان إلى الله تعالى قائلين: يارب، هلكَتْ بنو إسرائيل، البقية، البقية، فأجابهما الله تعالى[١] بعد أن نفَّذُوا ما أُمروا به، وأقاموا حد الردة على أنفسهم، فتاب الله عليهم، وقَبِل توبتهم، إنه هو التوَّاب القابل للتوبة، الرحيم بخلقه، فاذكروا - أيها اليهود - نعمتنا عليكم بقبول توبتكم بعد أن ظلمتم أنفسكم بعبادة العجل.

وقال بعض المتأخرين من أهل التفسير لاسيما أهلُ المدرسة العقلية[٢]: ليس المراد في الآية حقيقة القتل؛ بل المراد التوبة النصوح والإخلاص فيها، وقال بعضهم: إن عقوبة القتل قد نُسخت قبل الفعل.

ولعل القول الأول هو الأصح لما ورد فيه من آثارٍ كثيرة ذكرها الطبري والسيوطي وغيرهما، كما نصَّت التوراة على أنهم فعلوا ذلك فعلا، وليس لغيره ما يشهد له.

ويشهد للقول الأول ما أخرجه الطبري بسند صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أمر موسى قومه -عن أمر ربه عز وجل- أن يقتلوا أنفسهم، قال: فاحْتبى الذين عكفوا على عبادة العجل فجلسوا، وقام الذين لم يعكفوا على العجل، وأخذوا الخناجر بأيديهم، وأصابتهم ظُلمة شديدة، فجعل يقتل بعضهم بعضًا، فانجلت الظلمة عنهم، وقد أجْلَوْا عن سبعين ألف قتيل، كلٌّ منهم كانت له توبة، وكلٌّ من بقي كانت له توبة[٣].

الْيَهُودُ يَطْلُبُونَ رُؤْيَةَ اللهِ عَيَانًا:

٥٥- ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾

أي: واذكر -أيها المخاطب - حين قال بنو إسرائيل لموسى: لن نصدِّق أنك رسول الله، ولا نصدق أنك كليم الله، حتى نرى الله عيانًا، فكانت عقوبتهم أن نزلت بهم صاعقة أهلكتهم وهم يرون الموت بأعينهم.

---

(١) تراجع الآثار الواردة في «تفسير الطبري» وابن كثير والبغوي وغيرها، وهذا المعنى من مجموعها.

(٢) والعقل لا يُعتدّ به فيما يخالف صريح الكتاب والسنة الصحيحة، ولا يستقل وحده في معرفة الحسن والقبيح ونحو ذلك.

(٣) وجاء مثله عن مجاهد وقتادة وغيرهما عند تفسير الآية في الطبري وابن كثير وغيرهما.

وذلك أن موسى عليه السلام لما رجع إلى قومه -بعد نزول الألواح عليه- وجد منهم سبعين رجلًا قد اعتزلوا العجل مع هارون ولم يعبدوه، ولما أحرق موسى العجل -فبَرَدَهُ بالمبرد وذراه في اليم- خرج بهؤلاء الذين لم يعبدوا العجل؛ ليعتذروا إلى الله عز وجل عن عبادة بعضهم للعجل، بعد أن أمرهم أن يصوموا ويتطهروا، ويُطَهِّروا ثيابهم، ففعلوا، ولما وصلوا إلى طور سيناء -لميقات وقَّته له ربه- طلبوا منه أن يُسْمِعَهم كلام الله سبحانه الذي يكلمه به!! فأجاب الله تعالى مطلبهم، وأسمعهم كلامه، بعد أن غشيهم الغمام وخرُّوا لله سجدًا، وضُرب دونهم الحجاب، ودخل موسى في عمود غمام، ودنا القوم منه حتى دخلوا في الغمام، وسمعوه وهو يكلِّم ربه، حيث قال جل شأنه مخاطبًا موسى عليه السلام: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾ [طه] فقالوا بعد أن انكشف عن موسى الغمام وأقبل نحوهم: يا موسى، لن نصدِّق أن هذا الكلام الذي نسمعه هو كلام الله حقيقة، ولن نؤمن لك حتى نرى الله عيانًا.

وقيل: إن الذي طلب ذلك من موسى كانوا نحو عشرة آلاف، وليس هؤلاء السبعين، وهذا تكذيبٌ منهم لرسول الله موسى عليه السلام؛ بطلبهم أن يروا ربهم جهرة عيانًا بيانًا، وهي جُرْأة كبيرة على الله سبحانه ليس لها نظير في تاريخ الأمم والرسل.

فكانت النتيجة أن أخذتهم الصاعقة في عقوبة دنيوية، حيث أرسل الله عليهم نارًا محرِقة، أهلكتهم ودمَّرتْهم، واحدًا تلو الآخر، وظلوا ميتين نهائيًّا يومًا وليلة، وكل من كان حيًّا منهم ينظر إلى الذي مات قبله، ولما هلكوا جميعًا أخذ موسى يبكي ويتضرع ويقول: ماذا أقول لبنى إسرائيل، لو شئت يارب أهلكتهم وإياي قبل مجيئنا لموعد طلب العفو والتوبة، فهل أرجع إلى قومي وليس معي واحد منهم، وهم خيار القوم؟

﴿أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ١٥٥ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: ١٥٥، ١٥٦] وبهذا يذكِّر اللهُ تعالى يهودَ اليوم ويهود الأمس ويهود الغد بعدم استقامتهم وجرأتهم على الله عز وجل، مع كثرة النعم وإقامة الحجج عليهم.

فيهود اليوم يَحْرِقون المسجد الأقصى، ويحفرون حوله يريدون أن يَهْدِمُوه، ويقيموا

هيكلًا مزعومًا لنبي الله سليمان، مع عدم إيمانهم بنبوته ورسالته، وهم يهدمون البيوت على ساكنيها من الرُّضَّع والنساء والشيوخ.

وهم يجعلون العالم كله يعيش في قلق ورعب وعدم استقرار.

وهم يعيثون في الأرض فسادًا بكل طريق ديني وسياسي وعسكري واقتصادي وأخلاقي... إلخ.

ويهود الأمس سألوا نبيهم موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلهًا غير الله، ومرة عبدوا العجل من دون الله، ومرة قالوا له: لن نصدِّقك حتى نرى الله جهرة، وأخرى يقولون: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون.

ولما قال لهم: ادخلوا الباب سجدًا، دخلوه على أستاههم، ولما قال لهم: قولوا حطة، قالوا: حنطة في شعيرة، وهم الذين قالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء، وقالوا: يد الله مغلولة، ووصفوه جل شأنه بما لا يليق بجلاله.

والله تعالى يُعْلِمُ يهود بني إسرائيل أنهم -في تكذيبهم محمدًا ﷺ وجحودهم نبوته، وعدم الإقرار بما جاء به- هم في هذا كسائر مَن تقدمهم من اليهود، ومن يأتي بعدهم منهم، إنهم يفعلون ذلك مع عظيم نِعم الله عليهم وعدم قيامهم بواجب الشكر له سبحانه، فاذكروا يا بني إسرائيل حين أخذتكم هذه العقوبة بسبب تعنتكم، واشكروا نعمة الله عليكم، إذ بعثكم بعد موتكم.

النِّعْمَةُ السَّادِسَةُ: بَعْثُ مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ فِي الدُّنيَا بالصَّاعِقَةِ

٥٦- ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴿٥٦﴾﴾

وبعد أن ماتت هذه النخبة من اليهود بالصاعقة لم يزل موسى يناشد ربه حتى أحياهم الله سبحانه بعد أن أماتهم يومًا وليلة؛ لاستيفاء آجالهم في الدنيا، وهذه نعمة أخرى عظيمة، يذكِّر الله تعالى بها بني إسرائيل كي يشكروه سبحانه، فيؤمنوا بما جاء به محمد ﷺ.

وفي هذه الآية دليلٌ حسيٌّ ماديٌّ على حقيقة البعث بعد الموت، وأن الله سبحانه القادر على إحياء اليهود بعد أن أهلكهم بالصاعقة، قادرٌ على أن يميتنا ويبعثنا مرة أخرى.

﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: ٦].

وهذا **أول** خمسة أدلة حسية في هذه السورة على البعث بعد الموت.

والثاني: في قصة البقرة ﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾. (الآية ٧٣)

والثالث: في قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوفٌ حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم. (الآية ٢٤٣)

والرابع: في قصة الذي مر على قرية حيث أماته الله مئة عام ثم بعثه. (الآية ٢٥٩)

والخامس: في قصة خليل الرحمن ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ﴾. (الآية ٢٦٠)

النِّعْمَةُ السَّابِعَةُ: تَظْلِيلُ الغَمَامِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ

٥٧- ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ﴾

ثم ذكر سبحانه نعمته على اليهود وهم في صحراء سيناء في فترة التيه، حيث أمدهم بالظلال وسعة الأرزاق، اذكروا نعمتنا عليكم أيها اليهود حين كان موسى وبنو إسرائيل في التيه، مدة الأربعين سنة، وهم في صحراء سيناء حيث أصابهم حر الشمس، فسألوا موسى ظلًا، فظللهم الله سبحانه بسحاب أبيض رقيق، يقيهم حرَّ الشمس.

فالغمام: هو ما يُغطي وجه السماء عن الناظر إليها، وهو بمنزلة السحاب الذي يغشى الجو ويستره ويواريه.

وجعل لهم عمودًا من نور يضيء لهم ليلًا كالقمر، وجعل ثيابهم لا تتسخ ولا تبلى.

النِّعْمَةُ الثَّامِنَةُ: نُزُولُ المَنِّ والسَّلْوَى عَلَيْهِم

﴿وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾

أظل الله بني إسرائيل في أرض التيه بالغمام، ووقاهم حر الشمس، فقالوا لموسى عليه السلام: هذا المأوى وهذا المسكن، فأين الأكل؟ فأنزل الله عليهم المن، وهو نوع من الحلوى، كالصمغ يقع على الشجر، يشبه العسل في حلاوته وطعمه وشكله، يقطفونه من على الشجر، أمام أماكنهم التي هم فيها.

والمن: اسم جامع لكل رزق حسن، يحصل بلا تعب، ومنه الكمْأة والزنجبيل والخبز ونحو ذلك.

عن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل أن النبي ﷺ قال: «**الكَمْأةُ من المن، وشفاؤها ماءٌ للعين**»[1].

قال قتادة: كانت السلوى طيْرًا أقرب إلى الحُمرة، تحشرها عليهم ريح الجنوب، فكان الرجل منهم يذبح منها قدر ما يكفيه يومَه ذلك، فإذا تعدى فسَد، ولم يبقَ عنده، حتى إذا كان يومُ سادسه ليوم جُمعته أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه[2].

وقال وهب بن منبه: هو طير سمين مثل الحمام، كان يأتيهم فيأخذون منه من سبت إلى سبت[3].

إنهم لم يشكروا الله تعالى على هذه النعمة بل قالوا يا موسى: قد قتلَنا المنُّ بحلاوته، نريد اللحم، فأرسل الله عليهم السلوى، وهو اسم طائر يشبه الطير السماني؛ نوعٌ من الطير، شهي طعمه، ولذيذ أكله، وقيل: هو بعينه، وكان يأتيهم أسرابًا متلاحقة، يكاد يغطي الأرض حتى يصل إلى أماكنهم، فينزل عليهم من المن والسلوى ما يكفيهم ويُقيتهم، ويقال لهم: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ فهذا من نعم الله عليكم، فقالوا: هذا الطعام فأين الشراب؟ فأمر الله موسى أن يضرب الحجر بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا، فشرب كل سبط من عين، ثم قالوا: أين اللباس؟ فكانت ثيابهم تطول معهم، كما تطول الصبيان، ولا يتمزق لهم ثوبٌ، قاله السدي.

وكان هذا بعد خروجهم من مصر باثنين وأربعين يومًا وبعد أن اشتاقوا إلى اللحم والخبز.

ولكنهم لم يشكروا نعم الله عليهم ولم يمتثلوا، فبدَّلوا وغيَّروا وكفروا بأنعم الله، واستمروا على قساوة القلوب وكثرة الذنوب، فعاقبهم الله على ظلمهم، قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ بتلك الأفعال المخالفة لأوامرنا، لأن الله تعالى لا تضره معصية العاصين، ولا تنفعه طاعة الطائعين، ولذا: فقد ضرب الله عليهم الذلة والمسكنة وحقَّت عليهم اللعنة والغضب؛ لأنهم كفروا بهذه النعم، وظلموا أنفسهم؛ لأن عاقبة الظلم تعود عليهم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

---

(١) «المسند» (١٦٢٥، ١٦٣٦) بإسناد صحيح على شرط الشيخين كما قال محققوه، والبخاري (٤٤٧٨) ومسلم (٢٠٤٩) والترمذي (٢٠٦٧) والنسائي في «السنن الكبرى» (٦٦٦٧) وابن ماجه (٣٤٥٤).

(٢) عبد الرزاق (١/ ٤٦) والطبري (١/ ٧٠٥) وابن أبي حاتم (٥٦٢).

(٣) الطبري (١/ ٧٠٦) وابن أبي حاتم (٥٦٣).

النِّعْمَةُ التَّاسِعَةُ: مَرَاسِمُ دُخُولِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ

٥٨- ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ[1] لَكُمْ خَطَايَاكُمْ[2] وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (٥٨)﴾

ومن نعم الله على اليهود بعد عصيانهم له، أن أمرهم بدخول القرية ليسكنوها ويحصل لهم فيها الرزق الوفير، وأن يدخلوها خاضعين متذللين، يحط الله عنهم خطاياهم ويجزيهم جزاء حسنًا في الدارين.

وذلك أنه بعد أن أحيا الله السبعين الذين اختارهم موسى لميقات ربه بعد موتهم، وبعد مدة التيه -أربعين سنة- خرج بنو إسرائيل من صحراء سيناء، بعد تخاذلهم عن حرب الجبارين، فأمرهم الله أن يدخلوا القرية التي امتنعوا من دخولها في حرب العمالقة.

وهذه القرية للمفسرين فيها رأيان:

الرأي الأول: أنها بيت المقدس، فيكون الآمر لهم بالدخول حينئذ هو موسى عليه السلام.

والرأي الثاني: أنها قرية أريحا، ويكون الآمر لهم هو يوشع بن نون؛ لأنه الذي فتحها بعد موت موسى، وهي قرية الجبارين العمالقة من بقية قوم عاد.

ولعل الأولى أن القرية هي أريحا، وهي من أرض بيت المقدس، وليس بينهما مسافة تذكر، وقد أمرهم الله تعالى أن يدخلوها ساجدين شكرًا لله تعالى، وأن يسألوه سبحانه غفران الذنوب وحطَّ الخطايا عنهم، قائلين : (لا إله إلا الله)؛ لأنها تحطُّ الذنوب والخطايا.

وفي سورة الأعراف ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ [الأعراف: ١٦١]

ومرحلة السكنى تلي مرحلة الدخول، فآية البقرة تعني دخول القرية، وآية الأعراف تعني السكنى والإقامة فيها، ووعدهم الله سبحانه في كلتا الحالتين أن يعيشوا عيشة رغيدة،

---

(١) قرأ نافع وأبو جعفر (يُغفر لكم) بياء التذكير المضمومة، وقرأ ابن عامر (تُغفر لكم) بتاء التأنيث المضمومة، وقرأ الباقون (نغفر لكم) بالنون المفتوحة، وأدغم الراء في اللام أبو عمرو بخلف عن الدوري.

(٢) أمال الألف التي بعد الياء من (خطاياكم) الكسائي، وقللها الأزرق بخلف عنه، وأمال الألف التي بعد الطاء الدوري عن الكسائي بخلف عنه.

موسَّعًا عليهم فيها، وأن يأكلوا منها حيث شاؤوا، كما قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ وطلب منهم أن يكون هذا الدخول للقرية على صفة معينة، فعليهم أن يدخلوها ساجدين خاضعين خاشعين مُنْحنين لله عز وجل، شكرًا له سبحانه على دخولها، بعد أن امتنعوا من دخولها وقت وجود العمالقة فيها، وتخاذل اليهود عن قتالهم، فقال الله لهم على لسان نبيهم: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي: ادخلوها خاشعين خاضعين لله، وكان دخولهم لها على يد نبي الله يوشع بن نون بعد موت موسى وهارون عليهما السلام في أصح القولين، وتم ذلك عشية يوم جمعة، وطلب الله منهم أن يقولوا عند دخول القرية: (حِطَّة).

قال ابن عباس: المراد بالباب أحد أبواب بيت المقدس، وهو يدعى باب حطة. وقال مجاهد: باب حطة من باب بيت المقدس، أمر موسى قومه أن يدخلوا ويقولوا: حطة، وطُؤطئ لهم الباب ليخفضوا رؤوسهم، فلما سجدوا قالوا: حِنطَة[1]، هذا معنى قول الله تعالى:

﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أي: اسألوا الله التوبة والمغفرة عند دخول القرية، فقولوا: يا ربنا تجاوز عنا واغفر لنا ذنوبنا، وحُطَّ عنا خطايانا، وهذا كقول الله تعالى لنبيه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ أي: بعد أن أتم الله عليك النعمة بفتح مكة، وانتشار الإسلام، وحجة الوداع؛ لم يبق إلا شكر النعمة والثناء على المنعِم.

وهكذا أُمر بنو إسرائيل بشكر النعمة عند دخول القرية، فقد أمرهم الله بأمرين: فعل وقول.

أما الفعل: فهو أن يدخلوا القرية منحنين خاضعين خاشعين لله عز وجل مستشعرين عظمته سبحانه.

وأما القول: فهو أن يقولوا: (حطة) أي: حُطَّ عنا خطايانا، فاسألوا الله غفران ذنوبكم عند دخولكم القرية وأنتم ناوين الإقامة بها وحَطَّ الرحال.

وربما كان هذا القول (حطة) كان معروفًا لديهم، للدلالة على العجز والسؤال كالشحَّاذين؛ كي لا يَحْسِب لهم أهل القرية حسابًا، ولا يأخذوا حذرهم منهم.

---

(١) ابن أبي حاتم (٥٧٤) والطبري (١/ ٧١٤).

ثم رتب سبحانه على تنفيذ ذلك غفران الذنوب وتكفير الخطايا ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ أي: نستجب لكم ونسترها عليكم، ومن يزد إحسانًا وتقرُّبًا إلى الله تعالى يزده الله من فضله ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بأعمالهم خيرًا وثوابًا.

عُقُوبةُ المُتَخَاذِلِينَ عَنْ دُخُولِ الأَرْضِ المُقَدَّسَةِ

٥٩- ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا[1] غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ[2] لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴿٥٩﴾﴾

فما كان من القوم الضالين الجائرين إلا أن بدَّلوا قولًا غير الذي قيل لهم، وفعلًا غير الذي طُلب منهم، وقد وصفهم الله بالظلم لسوء قولهم وفعلهم، فبدَل أن يدخلوا القرية خاضعين منحنين دخلوها وهم يزحفون على مقاعدهم وأدبارهم، وبدَل أن يقولوا: (حِطَّة) قالوا: (حبة من شعير) أو قالوا: (حبة حِنْطَة) أي: أنهم أوَّلُوا وبدَّلوا وقالوا: (حنطة) بدل (حطة) أي: أننا نحتاج إلى الطعام.

وقد حدث هذا من بعضهم وليس من جميعهم، لأن الله تعالى قال: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ ولم يقل فبدلوا لأنهم لم يكونوا كلهم.

في الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«قيل لبني إسرائيل: ادخلوا الباب سُجَّدًا وقولوا حطة، فبدلوا، فدخلوا يزحفون على أستاههم، وقالوا: حبة في شعرة»**[3].

قال ابن عباس ﷺ: فدخلوا من قِبل أستاههم وقالوا: حنطة؛ استهزاء[4].

فماذا كانت النتيجة؟ ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ وهم اليهود ﴿رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أرسل

---

(١) قرأ أبو جعفر بإخفاء التنوين عند الغين.

(٢) قرأ هشام ورويس والكسائي بإشمام كسرة القاف صوت الضم في (قيل).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٣٤٠٣، ٤٤٧٩، ٤٦٤١) و«صحيح مسلم» برقم (٣٠١٥) و«سنن الترمذي» برقم (٢٩٥٦) والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٩٩٠) وابن أبي حاتم (٥٧٥).

(٤) الطبري (١/ ٧٢٥) وابن أبي حاتم (٥٧٢) والحاكم (٢/ ٢٦٢).

الله عليهم وباءً أهلكهم ودمَّرهم ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ أي: بسبب كفرهم وخروجهم على طاعة الله، وتبديل قوله تعالى استهزاءً وسخرية، ومخالفة للهيئة التي أُمروا أن يدخلوا عليها القرية.

والرِّجز -بكسر الراء المشددة- هو العذاب، وبضم الراء هو الأوثان، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ [المدثر: ٥] والعذاب المراد على المعنى الأول هو الخرَّاج الصغير كالدمامل، وهو نوعٌ من الطاعون والجدري ونحوهما من الأمراض المعدية.

وفي الحديث عن أسامة بن زيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن هذا الوجع والسُّقم رجزٌ عُذِّبَ به بعضُ الأمم قبلكم**»[١]

وفي لفظ: «**إن هذا الطاعون رجزٌ وبقية عذاب، عُذِّب به أناسٌ من قبلكم فإذا كان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها، وإذا بلغكم أنه بأرض فلا تدخلوها**»[٢].

وقال ابن عباس: كل شيء في كتاب الله من الرِّجز يعنى به العذاب.

وتبين هذه الآية ما قابل اليهود به هذه النِّعم من نُكرانٍ وجحودٍ وعصيانٍ وغلوٍّ، وما حلَّ بهم من عقابٍ، بسبب سخِط الله سبحانه وغضبه عليهم. والآيات تحذِّرنا أن نصنع مثل ما صنع اليهود، حتى لا يحلَّ بنا مثل ما حلَّ بهم.

وهاتان الآيتان تشيران إلى تخاذل بني إسرائيل عن دخول الأرض المقدَّسة وهي القصة التي في سورة المائدة، ومجملها تاريخيًّا كما تضمنتها كتبهم: أنه في السنة الثانية من خروج بني إسرائيل من مصر ووصولهم إلى حدود أرض كنعان (الأرض المقدسة) في مدينة (قادس) أرسل موسى اثني عشر رجلًا، من كل سبط رجل، ليتجسسوا على أرض كنعان، فأتوا مدينة (حبرون) فوجدوا فيها خيراتٍ كثيرة، فرجعوا إلى قومهم بعد أربعين يومًا، وأخبروهم بذلك، وأنها مدينة حصينة جدًّا، فأشار (يوشع وكالب) بدخولها.

(١) حديث صحيح أصله في البخاري برقم (٣٤٧٣، ٦٩٧٤) (٥٧٢٨) ومسلم (٢٢١٨) وفي «المسند» (٥/٢٠٧) و«تفسير ابن أبي حاتم» (١/١٨٦) و«تفسير الطبري» (٢/١١٦).

(٢) ينظر تخريجه للشيخ أحمد شاكر في «تفسير الطبري» (٢/١١٧) وهو حديث صحيح جاء في «المسند» (٢١٧٥١) بنحوه، وإسناده صحيح على شرط الشيخين، ومسلم (٢٢١٨) والنسائي في «الكبرى» (٧٥٥٣).

أما العشرة الآخرون، فأشاعوا في بني إسرائيل أنها أرض تأكل سكانها، وأن سكانها جبابرة، فخاف بنو إسرائيل وجبُنوا عن القتال، فقام (يوشع وكالب) وقالوا: لا تخافوا العدو، فإنهم لُقمة لنا، والله معنا، فلم يستمع لهم القوم، وأوحى الله إلى موسى أن بني إسرائيل أساؤوا الظن بربهم، وأنه مهلكهم، فاستشفع لهم موسى، فعفا الله عنهم، ولكنه حرَّم عليهم دخول الأرض المقدَّسة، وحرَّم عليهم إقامة وطن لهم بها، وكتب عليهم أن يتيهوا في الصحراء أربعين سنة، حتى يفنى هذا الجيل، فلم يدخلها أحد من الحاضرين إلا يوشعا وكالبا، وأُرسل على المثبِّطين العشرة وباءٌ فأهلكهم[1].

النِّعْمَةُ العَاشِرَةُ: تَفْجِيرُ المَاءِ مِنَ الحَجَرِ لِسُقْيَاهُم

٦٠- ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ[2] مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾

واذكر - أيها الرسول - حين طلب موسى من ربه سقيا قومه، وذلك أن بني إسرائيل عطشوا وهم في التيه، فطلبوا من موسى عليه السلام أن يسقيهم، فأمر الله سبحانه موسى أن يضرب بعصاه (المعجزة) التي ألقاها في مجلس فرعون فابتلعت ثعابين السحرة، أمره أن يضرب بها حجرًا معيَّنا خفيفًا، كان يحمله معه في أسفاره، ويضربه بعصاه إذا أراد الماء، فيخرج منه اثنتا عشرة عينًا من الماء بعدد عشائر بني إسرائيل، ويضربه مرة أخرى فيجفُّ ماؤه وييبسَ، وهو حجرٌ معيَّنٌ له أوجهٌ أربعةٌ.

وقيل: إن الله أمره أن يضرب أيَّ حجر من حجارة الأرض، فهو اسم جنس -وهو هنا حجر طوري- وعبر عنه في (سفر الخروج) بالصخرة.

وقيل: إنه الحجر الذي وضع موسى عليه ثوبه حين اغتسل، فقال له جبريل: ارفع هذا الحجر فإن لك فيه معجزة، حيث تنفجر أو تنبجس منه المياه، كما في سورة الأعراف.

---

(١) ينظر بتصرف: «تفسير التحرير والتنوير» (١/ ٥١٣).

(٢) أمال ألف (استسقى) حمزة والكسائي وخلف وقللها ورش بخلف عن الأزرق.

والانبجاس: هو أول الانفجار، فعبَّر هنا بنهايته، وعبَّر في سورة الأعراف ببدايته، والخطاب في هذه السورة موجَّهٌ لليهود؛ لأن السورة مدنيَّة، أما في سورة الأعراف فإنه بضمير الغائب إخبارٌ عنهم؛ لأن السورة مكيَّة.

والمعنى: فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا من الماء، في كل جهة من جهاته الأربع ثلاث عيون، بعدد قبائل اليهود الاثني عشر، وإعلام كل قبيلة منهم بالعين الخاصة بها؛ حتى لا يتنازعوا ولا يتزاحموا على الماء، وحتى لا يتقاتلوا عليه ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ أي: الموضع المعيَّن الذي يشرب منه كل سبط، وقلنا لهم: كلوا من المن والسلوى، واشربوا من هذه المياه التي تفجَّرت من الحجَر، وكل ذلك من رزق الله ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ﴾ ولا تُقابِلوا هذه النعم بمعصية الله فيسلبكم إياها ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ وفي هذا تحذيرٌ لهم من البطر والغرور، وعدم استعمال النعمة في غير موضعها، وتحذيرٌ لهم ولغيرهم من الإفساد في الأرض، ومن جحود النعمة، وعدم شكر المنعِم.

مُقَابَلَةُ النِّعَمِ بِالاسْتِخْفَافِ والجُحُودِ

٦١- ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا[1] فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ[2] ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ[3] بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾

تشير هذه الآية إلى عنَت بني إسرائيل، وعدم شُكرهم لأنعُم الله تعالى عليهم، حيث قابلوا هذه النعم بسوء الاختيار، والتمرُّد على نِعم الله، وعدم التأدُّب مع رسولهم، ومع

---

(١) قرأ بها الحسن والأعمش، ينظر: «اتحاف فضلاء البشر» ص١٣٧ .

(٢) قرأ أبو عمرو بكسر الهاء والميم وصلًا، وقرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر بضم الهاء والميم وصلًا، وقرأ الباقون ومنهم حفص بكسر الهاء وضم الميم وصلًا.

(٣) قرأ نافع بالهمز في (النبيين) على الأصل، لأنه من النبأ ويكون من قبيل المد المتصل عنده، وقرأ الباقون بياء مشددة على الإبدال والإدغام.

المنعِم سبحانه، فما كان منهم إلا أن قالوا لموسى: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ ثابت لا يتغير من المنِّ والسَّلوى، وقد تذكَّرنا السمك -الذي كنا نأكله في مصر- والقثاء والبطيخ والبصل والثوم، ونريد أنواعًا من البقول والخضراوات، مثل الكرفس والنعناع والخيار وغير ذلك من الأطعمة التي ألِفوها في مصر، في فترة الذُّلِّ والهَوانِ والاستعباد، تحت قهر فرعون واستضعافه وإهانته لهم، والفُومُ هو البُر، وقيل: الثوم أو الحمص.

قال لهم موسى مستنكرًا وموبِّخًا ومعنِّفًا: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ عجبًا لكم! أتطلبون ما هو أقل شأنًا من الرزق النافع الذي اختاره الله لكم ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ أي: انزلوا أيَّ مدينة من المدن، وأي أرض زراعية، تجدون فيها ما طلبتم، ولما قدَّموا اختيارهم على اختيار الله تعالى، وآثروا شهوتهم على رضى الله سبحانه؛ لزمتهم صفة الذل والمسكنة، ورجعوا بغضب الله؛ لإعراضهم عن دينه.

ويرى بعض المفسرين أخذًا من قراءة شاذة: (اهبطوا مصر) بعدم التنوين، ويكون المراد بها انزلوا مصر المعروفة التي خرجتم منها، ويقال لهم ذلك على وجه التهكُّم والتبكيت: أي عودوا إلى ما كنتم فيه من ضَيم وضعف، بعد أن أنقذكم الله من فرعون على يد موسى عليه السلام، وبعد أن تقاعستم وقعدتم عن الجهاد، وعن قتال العمالقة، وبعد عدم شكركم على ما أنعم الله به عليكم وأنتم في التيه من أكل وشرب، بلا كسبٍ ولا مشقة ولا سعي ولا تعب، وبعد أن ظلَّلكم الله بالغمام، ارجعوا إلى حياة الذُّل والهوان التي كنتم فيها قبل ذلك، واتركوا معاليَ الأمور، فإنها ليست لكم ولستم أهلًا لها.

ومن الثابت تاريخيًّا أن بني إسرائيل لم يعودوا إلى مصر بعد أن خرجوا منها مع موسى عليه السلام، ويبين هذا المعنى ويوضِّحه تتمة الآية في قوله سبحانه: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ فضربُ الذلةِ والمسكنةِ على اليهود لم يكن في هذا الوقت من التاريخ، أي: لم يكن في عهد موسى عليه السلام، ولا في وقت التيه الذي تتحدث عنه هذه الآيات، وإنما عجَّل القرآن الكريم بذكره هنا بمناسبة قوله تعالى: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ حيث قال سبحانه بعدها: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ وضَرْبُ الذلة والمسكنة عليهم جاء بعد أجيال من عهد موسى عليه السلام، أي: بعد أن

كفروا بآيات الله، وبعد أن قتلوا أنبياءهم، ونَشَرُوهم بالمناشير، وبعد أن حرَّفوا التوراة، وكتموا صفة محمد ﷺ التي فيها... إلخ.

ولا يوجد في تاريخ أمة من الأمم على مدى الزمن أنهم قتلوا الأنبياء ونشروهم بالمنشار كما فعل بنو إسرائيل بيحيى وزكريا وأشعياء وغيرهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وقبَّح الله من أساء إليهم بقول أو فعل.

ثم بيَّن سبحانه السبب في ضرب الذلة والمسكنة عليهم، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ فيجحدونها ولا يؤمنون بها ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ فمنهم من باشر القتل، ومنهم من سكت عنه ولم يدافع عن الأنبياء.

وقد قتل ملك اليهود (منسيُّ) نبيَّ الله (أشعياءَ) سنة سبع مئة قبل الميلاد؛ نشروه على جذع شجرة، وقتلوا نبي الله (أرمياءَ) رميًا بالحجارة في منتصف القرن السابع قبل الميلاد، وقتل (هيردوس العبراني) ملكُ اليهود نبيَّ الله (زكريا وابنه يحيى عليهما السلام).

جاء في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أشد الناس عذابًا يوم القيامة رجلٌ قتله نبيٌّ، أو قتل نبيًّا، وإمام ضلالة، وممثل من الممثلين**»[1] أي: مصوِّرٌ من المصوِّرين.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ يتجاوزون حدود الله.

فهذه أربعة أسباب لغضب الله عليهم وهي:

١- كفرهم بآيات الله. ٢- وقتلهم الأنبياء بغير حق.

٣- وعصيانهم وتمردهم على نعم الله. ٤- وتجاوزهم الحدَّ في الفساد والطغيان.

وضَرْبُ الذلة والمسكنة على اليهود أمرٌ قائمٌ إلى يوم الساعة، وإن علت كلمتهم، وإن علوا

---

(١) «المسند» (١/ ٤٠٧) برقم (٣٨٦٨) بإسناد حسن، وصححه الشيخ أحمد شاكر في تصحيح «المسند»، ونسبه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥/ ٢٣٦) إلى أحمد والبزار، وقال: رجالهما ثقات، وقد حسنه الشيخ مقبل الوادعي في حاشية «تفسير ابن كثير» (١/ ١٨٦) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٨١) وهو في الطبراني الكبير (١٠٤٩٧)، والمراد بالممثل: المصور الذي ينحت التماثيل المجسدة.

بماديتهم، وإن وجدوا من ينصرُهم في حِقبة من الزمن، أو في وقت من الأوقات، فإنَّ وعد الله سبحانه بذُلِّهم ومسْكنتهم وغَضبه عليهم لابد وأن يظلَّ متحقِّقًا بإذن الله تعالى، والعبرة بالنهاية والنصر الأخير، وهو للمؤمنين بمشيئة الله تعالى، تحقيقًا لوعد الله سبحانه ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧] وقديمًا استولى الصليبيون على بيت المقدس ردحًا من الزمن، ووقتًا غير قصير، ثم مكَّن الله سبحانه الإسلام والمسلمين فاستردوا بيت المقدس من أيديهم.

وفي تجمُّع اليهود في فلسطين في وقتنا الحاضر بدايةٌ لنهايتهم إن شاء الله تعالى.

وهم وإن وجدوا تأييدًا غربيًّا وأمريكيًّا، وإن كثُرت في أيديهم المادة التي يجمعونها عن طريق المرأة والشهوة والربا وسائر طرق الفساد، وإن توفَّر لديهم أحدث الأسلحة الفتَّاكة، والرؤوس النووية، أقول: إن حدث كل ذلك فهو ليس مستمرًّا إن شاء الله، والمسلمون في كل وقت بحاجة إلى الاستفادة من هذا الدرس، بسبب الابتعاد عن منهج الله سبحانه، وعدم الأخذ بأسباب النصر، وأولها: التصنيع الحربي، وذلك بعد قوة الصِّلة بالله تعالى، ويبدو هذا واضحًا في تفكُّك كلمة المسلمين، وتفكُّك وحدتهم، وقبضة حكام الجور عليهم.

ويوم يرفع القوم راية الجهاد في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله، ويزرعونها في نفوس أطفالهم وشبابهم، ويوالون في الله، ويبغضون في الله، ويقيمون شرع الله فيما شجر بينهم، ويتوجهون إليه وحده بالعبادة والاستعانة والاستغاثة وما إلى ذلك؛ فإنهم في هذه الحالة يكونون جديرين بالنصر والهيمنة على القدس الشريف، مسرى رسول الله ﷺ أولى القبلتين وثالث الحرمين.

إن اليهود يقاتلوننا عن عقيدة، فلابد من العقيدة في قتالهم، وإذا استوينا معهم في المعاصي تفوقوا علينا بقوة السلاح، لقد أكثرَ اليهودُ من الفساد في الأرض في العصر الحاضر، ووعْدُ الله سبحانه لا يتخلَّف، وقد قال جل شأنه: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨] أي: وإن عدتم يا بني إسرائيل إلى الإفساد في الأرض عُدنا إلى الانتقام منكم، ولكنْ على أيدي قوم وصفَهم ربهم بقوة الإيمان وحب الجهاد وإيثار الشهادة على الحياة ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾ [الإسراء: ٧].

ومن مظاهر الذلِّ والمسكنة لليهود في دولة الإسلام -أول تكوينها- فرضُ الجزية عليهم ودفعها للمسلمين حقبة من الزمن، كما في قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة] وتحرير المسجد الأقصى لا يكون على يد تاركٍ للصلاة، ولا شارب خمر، ولا آكلِ ربا، ولا يكون بأموالٍ خبيثة، ولا على يد غير مطيعٍ لله ورسوله، ولا مجامل على حساب الدين والعقيدة، ولا موالٍ لأعداء الله..

لقد فتح عمر بن الخطاب ﷺ، بيت المقدس وحررها صلاح الدين، فَمَنْ لَهَا الآن يشبه عمر وصلاح الدين؟! إن الأقصى قضية العالم الإسلامي وليس قضية العرب وحدهم، ويوم يكون للمسلمين جميعًا جيشٌ إسلاميٌّ واحد لا يخضع لأهواء الحكام، فيرفع راية التوحيد والجهاد، ويعمل على نصرة الأقليات المسلمة في العالم، وعلى نشر الدعوة، وفتح بلاد الكفر، واستعادة مجد الإسلام في إسبانيا وتركيا وروسيا وغيرها، ويوم يُسخِّر المسلمون طاقاتهم المادية للتصنيع الحربي ويعتمدوا على أنفسهم في أسلحتهم سيفرح المؤمنون يومئذ بنصر الله تعالى.

هذا: وخطاب الله تعالى في هذه الآيات ونحوها لليهود، يشمل اليهود الذين كانوا في عصر التنزيل ومن يأتي بعدهم إلى قيام الساعة.

فِرْيةُ شَعْبِ اللَّهِ المُخْتَار

تَمَاثُلُ الشَّرَائِعِ السَّمَاوِيَّةِ فِي الْعَقِيدَةِ، فِي زَمَنِ كُلٍّ مِنْهَا، ومِنْهَا اليَهُودِيَّةُ:

٦٢- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ(١) مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ(٢) عَلَيْهِمْ(٣) وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾

هذه الآية فيها حكم على الفِرق الكتابية، وإخبار عنهم قبل بعثة محمد ﷺ، والصابئة

---

(١) قرأ نافع وأبو جعفر بحذف الهمزة من (الصابئين) وقرأ الباقون بالهمز، ووقف عليها حمزة بتسهيل الهمزة بين بين، وبحذفها موافقة للرسم.

(٢) قرأ بنصب الفاء من (ولا خوف) يعقوب ونَوَّنَهَا مرفوعة الباقون.

(٣) ضم الهاء من (عليهم) حمزة ويعقوب، وكسرها الباقون.

فرقة كانت على التوحيد ثم عبدوا الكواكب والنجوم.

ولمَّا ذم الله اليهود وذكر معاصيتهم، أوْهم هذا أن الذم يشملهم جميعًا.

ولَمّا ذكر الله بني إسرائيل خاصة في الآيات السابقة، ذكر تعالى بعد ذلك حكمًا عامًّا يشمل الطوائف كلها ليتضح الحق ويزول الإشكال.

ولَمَّا كان اليهود يترفّعون على البشر، ويزعمون أنهم يتميزون عنهم، حيث يدَّعِي اليهود أنهم شعب الله المختار، وأنهم أبناءُ الله وأحباؤه، وأن الجنة قد أوجدها الله تعالى من أجلهم، وأنهم لن يدخلوا النار إلا أيامًا معدودة؛ هي مدة عبادتهم للعجل.

لذلك: فإن الله سبحانه وتعالى يرد عليهم ويجيبهم في قانون عام تسجله هذه الآية من سورة البقرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ﴾ ... الخ.

وقد اشتملت هذه الآية على أربعة أصناف من الناس وهم:

١- المؤمنون من أمة محمد، والمؤمنون: لقبٌ للأمة الإسلامية في عُرف القرآن؛ لأنهم آمنوا بمحمد ﷺ وآمنوا بمن قبله من الرسل.

٢- واليهود أتباع موسى ﷺ وهم بنو إسرائيل، وقد أطلق عليهم لقب (يهود) بعد موت سليمان سنة تسع مئة وخمس وسبعين قبل الميلاد، نسبة لأحد الأسباط (يهوذا) ولأنهم يدينون باليهودية، ومن قولهم ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: تبنا إليك، وبعد موت سليمان انقسمت بنو إسرائيل إلى مملكتين:

(أ) مملكة لابن سليمان، تبعه فيها سبط يهوذا وسبط بنيامين، وكانت تلقب (مملكة يهوذا) ومقرها (أورشليم)

(ب) ومملكة غلام سليمان، وكان شجاعًا نجيبًا، فتبعه الأسباط العشرة، وجعل مقر مملكته (السامرة) واستمر وجودهم في السامرة نحو قرنين ونصف، ثم انقرض مُلكهم على يد الآشوريين، فاستأصلوهم، وأخذوا من بقي منهم عبيدًا لهم، ومن ذلك التاريخ لم يبقَ لليهود وجودٌ إلا في أورشليم من أبناء يهوذا وبنيامين، وقد استمر تواجدهم فيها إلى سنة ١٢٠ قبل الميلاد، فجاء الرومان وأجلَوْهم الجلاء الأخير، فتفرقوا في العالم، فالتحق بهم آخرون من غير سبط يهوذا وبنيامين، وانتسبوا إلى اليهودية.

٣- أما النصارى فهم أتباع عيسى عليه السلام، نسبة إلى الناصرة، مكان نشأة عيسى عليه السلام، وهو المكان الذي خرجت منه مريم إلى بيت المقدس فولدت عيسى في بيت لحم، ولذلك فالنصارى يقولون: يشوع الناصري.

يقول ابن مسعود ﷺ: نحن أعلم من أين تسمَّت اليهود باليهودية؛ من كلمة موسى عليه السلام: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٥٦] وتسمَّت النصارى بالنصرانية من كلمة عيسى عليه السلام: ﴿كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾[١] [الصف: ١٤].

قلت: ونسب اليهود إلى أبيهم (يهوذا) بن يعقوب عليه السلام.

وقال قتادة: إنما سُمُّوا نصارى، بقرية يقال لها: ناصرة، ينزلها عيسى ابن مريم، فهو اسمٌ تسموا به ولم يؤمروا به[٢].

وقال ابن عباس: سُمِّيت النصارى نصارى؛ لأن قرية عيسى كانت تُسمَّى ناصرة[٣].

٤- واضطربت أقوال المفسرين في الصابئة لاشتباه أحوالهم وتكتُّمهم في دينهم بسبب تسلُّط الأمم عليهم، فالقسم الذي تغلَّب عليه الفرس اختلط بالمجوسية والذي غلب عليه الروم اختلط بالنصرانية.

فقيل أولًا: هم الحنفاء الذين لم يَرُقْ لهم عبادة الأصنام في الجاهلية، فعبدوا الله تعالى على ملة إبراهيم، وهم بهذا التوحيد قد صبؤوا عن دين قريش وعن دين المشركين بعبادتهم لله الواحد القهار، وهم بهذا قد سبقوا اليهودية والنصرانية في عبادة الله وحده، ويؤمنون بأن الله خالق هذا العالم، ويقرون بمعاد الأبدان، ثم ارتبطت عقيدتهم بعد ذلك بالكواكب والنجوم حتى وُصِمُوا بالوثنية، وهم اليوم قلة تعيش في شمال العراق، تحيط عقيدتها بشيء من السرية، خشية أن تتحوّر وتتغيّر بمرور الوقت[٤].

وقيل ثانيًا: إن الصابئين قومٌ كانوا يقولون: لا إله إلا الله، ويتجهون إلى الكعبة، ويقرؤون الزبور، وليسوا بيهودٍ ولا نصارى.

---

(١) ابن أبي حاتم (٩٠٤٣).

(٢) ابن جرير (٢/ ٣٤).

(٣) ابن سعد (١/ ٥٣) وابن جرير (٢/ ٣٤).

(٤) ينظر: أطلس القرآن د. شوقي أبو خليل ص١٤٠.

قال أبو العالية: هم قوم من أهل الكتاب يقرؤون الزبور[١].

وقيل ثالثًا: هم فرقة من النصارى.

وقيل رابعًا: هم من بقي على الفطرة ولم يتبع دينًا مُعينًا؛ لأن الدعوة لم تبلغه، وقيل غير ذلك.

وعن أبي الزناد: الصابئون قومٌ مما يلي العراق، وهم بِكُوثَى -مدينة بالعراق- يؤمنون بالنبيين كلهم[٢].

وقال وهب بن منبه: الصابئ الذي يعرف الله وحده، وليست له شريعةٌ يعمل بها، ولم يُحْدِثْ كفرًا[٣].

قلت: والأصل في معنى الصابئ هو الخارج عن دين قومه إلى دينٍ غيره، كالمرتد عن الإسلام إلى دين آخر، والعياذ بالله.

والصابئة: طائفة دينية كانت ولاتزال تعيش في شمال العراق، وهم عربُ ما بين النهرين بالعراق، وقد عُرف بهذا اللقب فرقة يهودية نصرانية في العراق، يقومون بالتعميد كالنصارى.

والمراد بالصابئين في الآية: الأمة الصابئة وهم المتدينون بدين الصابئة، وهذا الدين دينٌ قديمٌ، ظهر في بلاد الكلدان بالعراق، وانتشر أتباعه بين الخابور ودجلة والفرات، فكانوا في واسط بالعراق وفي حران بالشام، وقد انتقلوا منها إلى بغداد وغيرها في العصر العباس الأول، فلما ظهر الفرس على العراق منعوهم من عبادة الأصنام، كما منع الروم الصابئين في الشام والجزيرة، فلما تنصَّر قسطنطين حملهم بالسيف على التنصر، فانتهت عبادة الأوثان فيهم من ذلك الوقت، وأصبحوا ينتمون إلى النبي يحيى وزكريا عليهما السلام.

ولهم كتبٌ يزعمون أن الله أنزلها على شيث بن آدم عليهما السلام، والنصارى ينسبونهم إلى يوحنا وهو يحيى ﷺ، وقد كانوا من قبل يعبدون الكواكب السَّيارة والقمر وبعض النجوم مثل نجم القطب الشمالي.

---

(١) الطبري (٢/ ٣٧) وابن أبي حاتم (٦٣٩).

(٢) ابن أبي حاتم (٦٤١، ٦٦٢٩).

(٣) «تفسير ابن أبي حاتم» (٦٤٤، ٦٦٣٠).

وهم يؤمنون بخالق العالم، وأنه واحدٌ حكيمٌ مقدَّسٌ لا يشبه الحوادث، غير أنهم يتقرَّبون إلى الله بواسطة مخلوقات مُقرَّبين إليه، وهي أرواحٌ طاهرةٌ يزعمون أنها تسكن الكواكب وتنزل إلى نفوس البشر، فكانت عبادتهم للكواكب بقصد التقرب بها إلى الله، وألزموا أنفسهم (بالعفة والعدالة والحكمة والشجاعة والأعمال الصالحة وتجنب الرذائل) ولديهم ثلاث صلوات كل يوم، وقبلتهم مهب ريح الشمال، ويتطهرون قبل الصلاة وقبل القراءة، ويصومون ثلاثين يومًا في السنة موزَّعة على ثلاثة مواقيت من العام، ويغتسلون للجنابة والحيض، ويغسلون موتاهم ويكفنونهم ويدفنونهم في الأرض، وتَحْرُم العزوبة عندهم، ويتزوج الرجل ما شاء، والزواج مقتصر على الصابئة فيما بينهم.

قال ابن حزم في الفِصَل: كان الذي ينتحله الصابئون أقدم الأديان على وجه الأرض والغالب على الدنيا، إلى أن أحدثوا فيه الحوادث، فبعث الله إبراهيم بالحنيفية، ولذا قيل: إنهم كانوا على دين نوحٍ يتبعون المعلِّميْنِ الأوليْنِ لدين الصابئة وهما شيث وإدريس[١].

وقد اقتصرت الآية على ذكر اليهود والنصارى والصابئة دون غيرهم كالمجوسية والدهرية والزنادقة؛ لأن هؤلاء الثلاث أقرب إلى الدخول في الإسلام؛ لأنهم يؤمنون بالله خالق هذا العالم، بخلاف غيرهم.

والذين ذُكروا في هذه الآية من الأصناف الأربعة: المسلمون واليهود والنصارى والصابئون وغيرهم من كل من آمن منهم بالله، واليوم الآخر، وعمل صالحًا، **فهذه ثلاثة شروط**:

١- الإيمان بالله تعالى إيمانًا كاملًا يشمل الإيمان بنبيِّ ذلك الزمن والعمل بشرعه، ومن ذلك ما بشّرت به التوراة والإنجيل من بعثة محمد ﷺ.

٢- الإيمان باليوم الآخر وما فيه من بعثٍ وحشرٍ وحسابٍ وجزاءٍ.

٣- العمل الصالح القائم على الإخلاص والمتابعة.

وكان ذلك في وقت الرسالة، التي عاصروها قبل نسخها؛ لأن كل رسالة حادثة تُبطل ما قبلها حتى مجيء خاتمة الرسالات إلى يوم القيامة.

---

(١) ينظر في هذا: «الملل والنحل» لابن حزم، و«دائرة المعارف الإسلامية» و«تفسير الطاهر بن عاشور» للآية.

فكل أمة يُقبَل منها الإيمان برسولها وما جاء في شريعته، مدة بقاء هذه الرسالة، ولا يقبل غير الإسلام بعد ما بُعث محمد ﷺ قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران].

فكل من ثبت من هؤلاء على دينه ولم يتركه ولم يبدله، وأقر بالبعث والحساب والجزاء وعمل صالحًا حتى تُوفِّي على ذلك في زمن الرسالة القائمة؛ فله ثوابُ عمله يوم لقاء ربه، ولا يخاف من مستقبله في الدار الآخرة، ولا يحزن على ما فاته في الدنيا وما مضى من حياته.

ومن هؤلاء: سلمان الفارسي، فقد قيل بنزول الآية فيه وفي أمثاله ممن آمن برسوله ثم أدرك الإسلام فآمن بمحمد ﷺ فيكون له أجره مرتين، ومن مات على دين عيسى قبل أن يسمع بمحمد فهو على خير، ومن سمع بمحمد ﷺ ولم يؤمن به فقد هلك[1].

ذلكم قول الله تعالى ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ أي من آمن منهم ﴿بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بشرط أن يقع ذلك قبل انتهاء صلاحية رسالة موسى بمجيء رسالة عيسى، وقبل انتهاء صلاحية رسالة عيسى بالإسلام الخاتم، وقبل أن تصل دعوة الإسلام إلى الصابئين، ورسالة محمد ﷺ تنسخُ كلَّ ما قبلها من رسالات، ولا يقبل الله غير الإسلام دينًا من أحدٍ بعد بعثته ﷺ إلى قيام الساعة.

والآيةُ تفتح باب الإنابة لهم، فعُلِم بهذا أن الآية تتعلق بمؤمني أمة محمد ﷺ ومؤمني الأمم السابقة قبل بعثته ﷺ، وأنها لا تشمل اليهود والنصارى وغيرهم ممن بقي على دينه ولم تبلغه نبوة أخرى.

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار**»[2].

---

(١) ينظر الأثر الوارد في ذلك عن مجاهد في «تفسير الطبري» (٢/ ١٥٥) وانظر ما جاء عن السُّدِّي في شأن سلمان الفارسي عند ابن أبي حاتم (٦٣٦).

(٢) من حديث أبي هريرة في «المسند» (٨٢٠٣، ٨٦٠٩) بنحوه، وسنده صحيح على شرط الشيخين، والحديث في صحيح مسلم (١٥٣)، وهذا لفظه وأخرجه البغوي (٥٦) وأبو عوانة (١/ ١٠٤).

وانظر تفسير آية [سورة المائدة ٦٩] المماثلة لهذه الآية، ولمناسبة السياق فقد قدم فيها الصابئون على النصارى وليس فيها ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وانظر آية سورة الحج ١٧ وفيها ضم المجوس والوثنيين إلى الأصناف الأربعة، وبيان أن الله تعالى يفصل بين الجميع يوم القيامة.

اثْنَتَانِ وَثَلَاثُونَ مُخَالَفَةً مِنْ مُخَالَفَاتِ الْيَهُودِ جَاءَتْ فِي النِّصْفِ الْأَوَّلِ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ:

الْمُخَالَفَةُ الأُولَى: عَدَمُ الإِيمَانِ بِالتَّوْرَاةِ إِلَّا بَعْدَ رَفْعِ الجَبَلِ فَوقَهُم

٦٣- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

وبعد تعداد هذه النعم العشر على بني إسرائيل، والتعقيب عليها بأن الله تعالى لا يقبل منهم البقاء على ديانتهم المنسوخة، بل لابد لهم من الدخول في الإسلام والتصديق بمحمد ﷺ؛ يسجِّل الله سبحانه وتعالى على اليهود إحدى وثلاثين نوعًا من الجرائم في سورة البقرة وحدها.

من ذلك أن موسى ﷺ لما رجع بالتوراة من عند الله -تبارك وتعالى- وفيها أمْرُه ونَهْيه قالوا: لا والله لن نقبل قولك حتى نرى الله جهرة فيظهر علينا ويقول: هذا كتابي فخذوه، ويكلمنا كما يكلمك. وكان الله سبحانه قد أخذ على اليهود العهد والميثاق أن يؤمنوا بالتوراة ويعملوا بما فيها، وحين جاء موسى بالتوراة وقرؤوها استثْقلُوها ورأوْا أن التكاليف التي فيها شاقة، فامتنعوا عن العمل بما فيها، فكان عقاب الله تعالى لهم أنْ أمر جبل طور سيناء فانقلع من أصله، وأمر جبريل أن يرفع هذا الجبل فوق رؤوسهم قدْر قامة، وظللهم الجبل وصار فوقهم إرهابًا وتخويفًا لهم؛ حتى يؤمنوا بالتوراة ويعملوا بما فيها، وكان بنو إسرائيل أسفل منه فرفعه الله فوقهم وقال: لتأخُذَنَّ أمري ولأرمينكم[1].

وهذا ما يشير إليه قول الله سبحانه: ﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [الأعراف]

وكذا الآية الثالثة والتسعون من هذه السورة ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾

لقد رفع الله الجبل فوقهم تهديدًا لهم وقال: خذوا الكتاب وإلا طرحناه عليكم، ونظروا

---

(١) انظر «تفسير الطبري» (٢/ ٤٩، ٥٠) عن ابن عباس وقتادة.

إلى الجبل كأنه واقع عليهم فخافوا، ودبَّ الرُّعبُ في قلوبهم فآمنوا بالتوراة، وسكنوا خضوعًا لله سبحانه، وسجدوا على شِقٍّ واحد، أي: سجدوا على نصف وجوههم، والنصف الآخر ينظر إلى الجبل فوقهم خوفًا من أن يقع عليهم، فصار هذا سنة في اليهود؛ يسجدون على نصف وجوههم، أي: على شق واحد، ويقولون: بهذه السجدة رفع الله عنا العذاب.

وإلى هذا تشير الآية التي معنا: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ﴾ أي: واذكروا يا بني إسرائيل حين أخذنا العهد المؤكَّد منكم بالإيمان بالله تعالى والتوجُّه له وحده بالعبادة ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ﴾ جبل ﴿ٱلطُّورَ﴾ وقلنا لكم ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ خذوا الكتاب الذي أعطيناكم بجدٍّ واحفظوه واعملوا به ﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ من وعدٍ ووعيدٍ وحلالٍ وحرامٍ وترغيبٍ وترهيبٍ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: كي تخافوا عقابي فتعملوا بطاعتي وتُقلعوا عما أنتم فيه من معصيتي، والميثاق هو العهد. والطور: هو الجبل الذي أُنزلت عليه التوراة، وأخْذ التوراة: العمل بما فيها ، فكان منهم أن آمنوا بها وعملوا بما فيها تحت وطأة التهديد برفع الجبل فوق رؤوسهم هذا هو ظاهر القرآن.

والذي جاء في التوراة أن الجبل من شدة الزلازل وما ظهر حوله من السحاب والدخان والرعد صار يلوح للرائي كأنه سحابة[1]. قال تعالى:

٦٤- ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾

ولكن هذا الإيمان من اليهود، كان بصورة مؤقتة، حيث لم يستمروا على العمل بما في التوراة: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: تركتم العمل بما في التوراة ونبذتم وراء ظهوركم ما أخذناه عليكم من العهود والمواثيق كشأنكم دائمًا، وهذا الإعراض موجب لأن يحل بكم أعظم العقوبات ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ بالتوبة والإمهال والتجاوز عن خطاياكم ﴿لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ بسبب إعراضكم عن العمل بما في التوراة مرة ثانية ولولا إمهال الله لهم لعذبهم في الدنيا وصاروا من الهالكين.

والخاسر من خسر دنياه وأخراه، فلم يربح في الدنيا ولم يفلح في الآخرة.

---

(١) الفصل التاسع عشر من «سفر الخروج»، والفصل الخامس من «سفر التثنية»، وآية الأعراف تقول: (كأنه ظلة) ولم يرد في تفسير الآية حديث صحيح ومنطوق الآية واضح.

المُخَالَفَةُ الثَّانيَةُ: صَيْدُ اليَهُودِ السَّمَكَ في يَومِ العِبَادَةِ وقد نُهُوا عَنْهُ

٦٥- ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴿٦٥﴾﴾

جاء عن ابن عباس ﷺ أنه لم يبعث الله نبيًّا إلا أمره بالجمعة، وأخبره بفضلها وعِظَمِها، وأن الساعة تقوم فيها، فأخبر موسى قومه بفضلها، فقالوا: إن السبت هو أفضل الأيام؛ لأنه اليوم الذي انقطع الله فيه عن كل عمل، بعد فراغه يوم الجمعة من خلق السموات والأرض والأقوات في ستة أيام، فهو يوم السبوت، أي: الهدوء والراحة من العمل، نتفرغ فيه للعبادة، وهكذا قال النصارى مفضلين يوم الأحد؛ لأن الله تعالى بدأ فيه بخلق السموات، وهدى الله أمة محمد ﷺ لفضل يوم الجمعة فاستجابت لأمر نبيها(١).

وقد حرَّم الله العمل على اليهود في يوم السبت ابتلاءً وعقوبةً لهم، بعد أن أعطاهم الجمعة فلم يقبلوها، فكان سبحانه يبتليهم في يوم السبت بظهور السمك طافيًا على وجه الماء، فيصطادونه، أو يجمعونه ليلًا حتى تأتي ليلة الأحد فيصطادونه، مُتأولين أو محتالين على طريقتهم، ويخالفون أمر الله سبحانه.

والقصة مذكورة في سورة الأعراف على وجه التفصيل في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴿١٦٦﴾﴾ [الأعراف].

وفي سورة البقرة أشير إليها إشارة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ أي: الذين تجاوزوا حدود الله ظلمًا وبغيًا حين حرم عليهم الصيد في يوم السبت بسبب ذنوبهم، فنصبوا فيه الشباك واصطادوا الحيتان:

١- فكان منهم فرقة خالفت واصطادت، وهم من سكان العقبة، على خليجٍ صغيرٍ من البحر الأحمر، وكان اسمها (أيلة) وهي غير (إيلياء) التي هي القدس.

(١) ينظر الخبر في «تفسير الطبري» (٢/ ٤٦٧) وما بعدها.

٢- وفرقة أمسكت ونهت غيرهم عن الاصطياد فيه.

٣- وفرقة سكتت ولم تخالف حكم الله تعالى.

والذين نَهَوْا عن الاعتداء بالصيد يوم السبت لم يساكنوا المخالفين لأمر الله، وانفصلوا عنهم حتى لا يخالطوهم، واقتسموا القرية بجدارٍ بينهم.

فكانت العقوبة للذين اصطادوا وللذين لم ينهَوْهم عن المنكر، أن قال الله لهم: ﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ ولما أبطأ المعتدون في السبت ولم يخرجوا من بيوتهم تسوَّر عليهم الناهون الجدار فوجدوهم قردة، يثب بعضهم على بعض.

فالصحيح: أن الله سبحانه قد مسخهم قردة حقيقيين كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴿١٦٦﴾﴾ [الأعراف] وأن هذا المسخ لم يستمر أكثر من ثلاثة أو سبعة أيام، إذ إن المسخ لا يبقى بصفة دائمة، فمُسخوا قردة وخنازير ثم ماتوا بعد سبعة أيام أو ثلاثة، ولم يأكلوا ولم يشربوا ولم يتناسلوا.

عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إن الله لم يجعل لمسخٍ نسلًا ولا عقبًا، وقد كانت القردة والخنازير قبل ذلك**»[١].

قال ابن عباس رضي الله عنه: مسخهم الله قردة بمعصيتهم، ولم يعش مسخٌ قطُّ فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينْسِل[٢].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل**»[٣].

فاحذروا - أيها المخاطبون - أن يصيبكم ما أصابهم إذا تجرأتم على معصيتي ومخالفة أمري ونهيي.

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٦٦٣) وفي «المسند» برقم (٤١١٩)، (٣٧٠٠) بإسناد صحيح على شرط مسلم، ورجال ثقات كما قال محققوه، وأخرجه ابن أبي شيبة (١٠/ ١٩٠) وابن أبي عاصم في السنة (٢٦٢) وأبو يعلي (٥٣١٣) والنسائي في الكبرى (١٠٠٥٩).

(٢) الطبري (٢/ ٥٩).

(٣) «إبطال الحيل» ص٤٦ وقال ابن كثير: هذا إسناد جيد.

وهذه القصة وقعت في زمن داود عليه السلام فأطلع الله نبيه عليها، وكانت متواترة لدى علماء اليهود وأحبارهم، وليست مسطورة في الأسفار القديمة. قال تعالى:

٦٦- ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾

وقد جعل الله سبحانه عقوبتهم عبرة لكل من خالف أمر الله تعالى، فارتكب ما نهى الله تعالى عنه إلى يوم القيامة حتى تقوم الحجة على العباد، ويرتدعوا عن معاصيهم، ولكي تكون موعظة نافعة للمتقين، لأن من عداهم لا ينتفعون ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا﴾ أي: جعلنا هذه القصة وما تشتمل عليه من عقوبة عبرةً وعظةً لمن يأتي بعد أهل هذه القرية من الأجيال المتعاقبة، ولمن كان قبلها ممن بقي منهم، وذلك لمن يتقون الله بامتثال أمره واجتناب نهيه، فهم الذين ينتفعون بالموعظة.

فالضمير في ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ يعود على العقوبة، ويراد بما ﴿بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ مَن حضرها مِن الأمم ومَن هم في وقتها، ويراد بما خلفها من يأتي بعدهم.

والقرية التي حصل فيها الصيد هي القرية المُطِلَّة على البحر وهي: خليج العقبة. وفي سورة المائدة يبين سبحانه أن عقوبة المسخ هذه أَشَدُّ عقوبة من الله تعالى لأشَرِّ خلق الله، فيقول جل شأنه ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾﴾ [المائدة].

الْمُخَالَفَةُ الثَّالِثَةُ: التَّشَدُّدُ وَالتَّعَنُّتُ فِي ذَبْحِ الْبَقَرَةِ:

٦٧- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ(١) أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ۖ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا(٢) ۖ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾

وقصة البقرة لم تُذكر في مكان آخر من القرآن، ولذلك فقد فُصِّلت في هذه السورة،

(١) قرأ أبو عمرو بإسكان راء (يأمرْكم) واختلاس ضمتها للتخفيف، وقرأ الباقون بالضم الكامل ومعهم أبو عمرو في الوجه الثالث وهو الضم الكامل على الأصل.

(٢) قرأ حفص بإبدال الهمزة واوًا من (هزوا) مع ضم الزاي، وقرأ حمزة وصلًا وخلف العاشر وصلًا ووقفا بالهمزة وإسكان الزاي، والباقون بالهمز وضم الزاي، ولحمزة وقفًا النقل والحذف وإبدال الهمزة واوًا.

وسُمِّيت السورة باسمها، أي: اذكروا - يا معشر يهود - حين قتلتم قتيلًا، واختلفتم في معرفة قاتله، حتى تفاقم الأمر، وتحاكمتم إلى موسى، فأمركم أن تذبحوا بقرة، وكان من الواجب عليكم الامتثال وعدم الاعتراض، ولكنكم شدَّدْتُم على أنفسكم بكثرة الأسئلة، فشدد الله عليكم وعيّن لكم بقرة خاصة، ولما ذبحتموها وضربتم القتيل بعضْوٍ منها، كما أمركم نبيكم، بعث الله الميت فتكلّم و أخبر عن قاتله.

وملخص القصة: أن رجلًا من بني إسرائيل كان غنيًّا موسرًا، وليس له ولدٌ وارثٌ، فجاء ابن أخيه وعجَّل قتْله بيده ليرثه ويتزوج ابنته التي منعه من الزواج بها، فقتله ثم ألقاه أمام بيت آخر في حي آخر، وذهب يطلب الثأر والدِّية له، ويدَّعي أن أهل هذا الحي قتلوه، ورُفع الأمر إلى موسى عليه السلام، فاختلفوا فيمن قتله، فسأل موسى ربه أن يبيِّن لهم القاتل، فأمرهم أن يذبحوا بقرة، حتى يضربوا القتيل بجزء منها، فينطق المقتول ويعرِّفهم مَن قتله، ولو أنهم أتوْا بأيَّة بقرة وذبحوها لأجزأتهم ولكانوا منفِّذين لأمر الله سبحانه[(١)]، ولكن الحوار الذي تسجله سورة البقرة بين موسى واليهود درسٌ مستفادٌ للمسلمين، يتعلمون منه كيف تكون المفاوضات مع اليهود؟ و طبيعتهم في التشدد والتعنت و الجدل دائمًا على مثل هذه الصورة التي كانت بينهم وبين موسى، وهي نفسها صورة المفاوضات مع اليهود في كل زمان ومكان.

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ذروني ما تركتكم، فإنما هلكَ من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم**»[(٢)].

فاذكروا - يا بني إسرائيل - جناية أسلافكم وكثرة تعنتهم وجدالهم حين قال لهم موسى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ أيَّ بقرة كانت، ﴿قَالُوٓا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ أتهزأ بنا وتسخر منا، فردَّ عليهم موسى قائلًا: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَٰهِلِينَ﴾ أستجير بالله أن أكون من المستهزئين، والجاهل هو الذي يتكلم بما لا فائدة فيه، ويسخر من الناس،

---

(١) تنظر روايات القصة في «تفسير الطبري» (١/ ٣٣٧) و«ابن كثير» (١/ ٢٩٤) و«تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ٢١٤).

(٢) مسلم برقم (١٣٣٧، ٢٣٥٧) وأحمد (٧٣٦٧، ١٠٢٥٥). حديث صحيح وإسناد جيد، وأخرجه الحميدي (١١٢٥) وابن حبان (١٨) وأبو يعلى (٦٦٧٦) وعبدالرزاق (٢٠٣٧٢).

بخلاف العاقل فهو يرى أن ذلك من أكبر العيوب.

السُّؤَالُ الأَوَّلُ عَنْ سِنِّ البَقَرَةِ:

فلما علموا صدق موسى ﷺ، أخذوا يطلبون أوصافًا للبقرة تعجيزًا وتردُّدًا:

٦٨- ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾﴾

طلب اليهود من موسى أن يسأل ربه أن يوضح لهم سن و صفة هذه البقرة: أكبيرة هي أم صغيرة أم متوسطة؟ ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ﴾ ليست كبيرة هرمة ﴿وَلَا بِكْرٌ﴾ صغيرة لم تلد ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ فهي وسط؛ متوسطة العمر، ولدت بطنًا أو بطنين ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ لتصلوا إلى معرفة القاتل وامتثلوا أمر ربكم.

السُّؤَالُ الثَّانِي عَنْ لَوْنِ البَقَرَةِ:

٦٩- ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾

لم يكتفوا بذلك بل سألوه ثانية: ما لونها؟ ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا﴾ فحدَّده لهم قائلًا: ﴿إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾.

وهذا لونٌ محددٌ معينٌ، فهي بقرة شديدة الصفرة صافية اللون، حسنة المنظر والهيئة والخِلقة، تَسُرُّ من ينظر إليها، فبادِروا إلى ما أُمرتم به من ذبح البقرة.

السُّؤَالُ الثَّالِثُ عَنْ مَاهِيَّةِ البَقَرَةِ:

٧٠- ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ[1] إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾

ثم قالوا للمرة الثالثة: نريد معرفة صفات أخرى غير سِنِّها ولونها ووَصْفِها، فإن البقر كثير، وقد اشتبه علينا ماذا نختار؟ هل هذه البقرة من شأنها أن تحرث الأرض، وتسقي الزرع؟ أم أنها بقرة لا تعمل شيئًا من هذا القبيل ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ

(١) وقف يعقوب بهاء السكت على (ما هي) في جميع المواضع والباقون بدونها.

عَلَيْنَا﴾ فهي بقرة معينة ليس لها نظير، ثم قالو: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ وفي هذا التعليق تأدُّبٌ مع الله تعالى في رد الأمر إليه، ووعدٌ منهم بالامتثال وتنفيذ أمر الله تعالى، ولو لم يقولوا: إن شاء الله لم يهتدوا إليها أبدًا.

ذَبْحُ البَقَرَةِ بَعْدَ اسْتِكْمَالِ أَوْصَافِهَا

٧١- ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا[١] قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾

أجابهم موسى عليه السلام: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ﴾ أي: غير مذللة للعمل في حراثة الأرض للزراعة، وغير معدة لسقي الأرض وهي ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ بريئة من العيوب ﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ لا بياض فيها ولا سواد وليس فيها لونٌ آخر غير الصُّفرة، وليس فيها ما يميزها عن غيرها، ولا لون فيها يخالف لون جلدها ﴿قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: وضَّحْتَ وبيَّنْتَ لنا الحق الذي عرفْنا به وصف البقرة المراد ذبحها.

وهذا القول هراءٌ؛ لأن كل وصف وصفه موسى قبل هذه الآية هو وصفٌ كافٍ يبين البقرة المرادة، فقد جاءهم موسى بالحق من أول مرة، ومع هذا فهم يقولون: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ كأنه لم يسبق لهم وصف صحيح لهذه البقرة!!

وبعد هذه المراوغة الطويلة قرروا ذبح البقرة بعد أن قاربوا ألا يفعلوا، فأخذوا يبحثون عدة سنوات عن البقرة التي ينطبق عليها هذه الأوصاف فلم يجدوها إلا عند ابن بارٍّ بوالديه، وقد أمره أبوه قبل أن يموت -وهو طفل صغير، وأوصى أمه أيضًا- ألا يبيع هذه البقرة إلا بملء جلدها ذهبًا، فاشتروها بملء جلدها ذهبًا بعد محاولات ومساومات بينهم وبين الولد وأمه، حيث شددوا فشدَّد الله عليهم، قال تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ أي: لثمَنها الباهظ، وخوفًا من الفضيحة إن أطلعهم الله على القاتل، ولكثرة لَجاجهم، وأنه لو كان هناك طريقٌ آخر للتشدد والتعنت والتلكؤ والتباطؤ لسلكوه، ولو لم يقولوا: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ما وجدوها أبدًا[٢].

(١) قرأ حمزة بخلف عنه بمد اللام أربع حركات من (لا شية فيها) مبالغة في النفي والباقون بالقصر.

(٢) وقصة البقرة جاء ذكرها عند اليهود في الفصل الحادي والعشرين من «سفر التثنية»، السفر الرابع وفي «الدر المنثور» (١/ ٤٠٢- ٤٠٩) روايات مستفيضة عنها.

قال عكرمة يبلغ به النبيَّ ﷺ: لو أن بني إسرائيل أخذوا أدنى بقرة فذبحوها أجزأت عنهم، ولكنهم شددوا، ولولا أنهم قالوا: ﴿وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ ما وجدوها[١]

وقد استدل العلماء مِنْ حَصْرِ صفات هذه البقرة -حتى تعينت- استدلوا بذلك على صحة بيع السلَم في الحيوان، كما وصف النبي ﷺ -في الحديث- إبل الدية في قتل الخطأ، وشبه العمد، بصفات معينة، وجاء في حديث عبد الله بن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا تُباشر المرأةُ المرأةَ فتنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها**»[٢].

فالوصف بالنسبة للمرأة لا يجوز إلا لحاجة كزواج أو شهادة.

أَصْلُ الْقَضِيَّةِ

٧٢- ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾

ثم بين جل شأنه أصل القضية وبدايتها فقال جل شأنه: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾ قيل: إن هذه الآية هي أول القصة، ومعنى ادَّارأتم: اختلفتم وتخاصمتم فيمن قتلها، كلٌّ يريد أن يدفع الجريمة عن نفسه، والله معلنٌ ما كنتم تسرونه من أمر القتيل.

دَلِيلٌ مَحسُوسٌ عَلَى البَعْثِ بَعْدَ المَوتِ

٧٣- ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ[٣] وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾

أي: اضربوا القتيل بجزء من البقرة المذبوحة، بلسانها أو بذيلها أو بغضروف الكتف أو بغير ذلك؛ فإن الله سيبعثه حيًّا ويخبر عمن قتله! فضربوه بفخذها على الأرجح، فأحيٰ الله القتيل وبعثه بعد موته، ونطق وأخبر عمن قتله، ثم مات مرة ثانية.

عن أبي العالية قال: أمرهم موسى أن يأخذوا عظمًا منها فيضربوا به القتيل ففعلوا، فرجعت إليه روحه، فسمَّى لهم قاتله، ثم عاد ميتًا كما كان، فأخذ قاتله، وهو الذي أتى

---

(١) «تفسير سعيد بن منصور» (١٩٣).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٥٢٤٠، ٥٢٤١) و«السنن الكبرى» للنسائي (٩١٨٦، ٩١٨٧، ٩١٨٨).

(٣) أمال (الموتى) حمزة والكسائي وخلف وقللها أبو عمرو بخلف عنه وكذا الأزرق عن ورش.

موسى فشكا إليه، فقتله الله على أسوئ عمله.

وفي رواية ابن وهب: ضربوه ببعضها فإذا هو قاعدٌ، قالوا: من قتلك؟ قال: ابن أخي[(١)].

وقال ابن عباس ﷺ: إن أصحاب بقرة بني إسرائيل طلبوها أربعين سنة، حتى وجدوها عند رجل في بقرٍ له، وكانت بقرة تُعجبه، فجعلوا يعطونه بها فيأبى، حتى أعطوه مِلْءَ مَسْكِها دنانير، فذبحوها، فضربوه ببعضٍ منها فقام تَشْحَبُ أَوْداجُه دمًا، فقالوا له: مَنْ قتلك؟ قال: قتلني فلان[(٢)].

وهذا من الأدلة المحسوسة على بعث الخلق يوم القيامة بعد موتهم، وهو الدليل الثاني في هذه السورة وهو معنى قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

الحِجَارَةُ الصَّمَّاءُ أَلْيَنُ مِنْ قُلُوبِ اليَهُودِ

٧٤- ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ[(٣)] كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ[(٤)]﴾

وهذه المعجزة حدثت لموسى على مرأى من اليهود، فهل انتفعوا واستفادوا من هذا الدرس، فرقَّت قلوبهم ولانَتْ؟ والله سبحانه يبيِّن طبيعة اليهود في قوله عنهم: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ فاشتدت وتصلَّبت فلم ينفذ إليها خيرٌ، ولم تلِن أمام الآيات الباهرة التي أريتكم إياها ﴿فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ هذا وصفُ العليِّ القدير لليهود، وفيه بيان أن قلوبهم أقسى وأغلظ وأصلب من الحجارة الصماء، فقد رأيتم -أيها اليهود- المقتول

---

(١) «تفسير الطبري» (٢/ ٢٣١).

(٢) ابن أبي حاتم (٧٥٠) وانظر القصة بطولها عن وهب بن منبه في «الدر المنثور» (١/ ٤١٩- ٤٢٦) وعند أبي الشيخ في «العظمة» مختصرًا (١٢٧٩).

(٣) قرأ قالون وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر بإسكان الهاء (فهي) وكسرها غيرهم ووقف عليها يعقوب بهاء السكت قولًا واحدًا.

(٤) قرأ ابن كثير (عما يعملون) بياء الغيب، على الالتفات من الخطاب إلى الغيبة، وقرأ الباقون بتاء الخطاب على نسق ما قبله.

يُضربُ ببعض البقرة فيجلس حيًّا، وينطق بإذن الله، ومع ذلك فإن قلوبكم لم تَلِن، فكذبتم بالحق بعد معاينته وأنكرتم قتل القتيل!! فالحجارة أطوعُ إلى الله منكم، حيث إن الحجر يتفجر منه الماء، كما حدث من حجَر موسى - ﷺ - حيث انفجرت منه اثنتا عشرة عينًا.

والحجرُ يهبط متأثرًا من خشية الله، وقد رأوا ذلك بأعينهم، حين طلب موسى من ربه أن ينظر إليه سبحانه، فتجلَّى ربه للجبل فدُكَّ الجبل، وخرَّ موسى مغشيًّا عليه، وهي آية تخضع لها الجبال، وتلِين لها الحجارة، ولكن اليهود أقسى وأنكى وأغلظ.

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].

وقد عذر الله الحجارة ولم يعذُر اليهود، من بعد ما أراهم إحياء الموتى وما كان من أمر القتيل، فبيَّن أن من الحجارة لما يتسع وينفرج حتى يتصبب منه الماء، فتكون أنهارًا جارية، ومنها ما يتشقق فتخرج منه العيون والينابيع، ومنها ما يسقط من أعلى الجبال من خشية الله وتعظيمه، فهي ألينُ من قُلوب اليهود، وهذا معنى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فتتدفق منه بغزارة، وفي هذا بيان لفضل الحجارة على قلوبهم ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ﴾ يتصدَّع وينشق فينبع الماء من العيون والآبار والينابيع ﴿فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ وخشوع الجبل: خشوعٌ حقيقي، وبهذه الأمور الثلاثة كان للجارة فضل على قلوبكم:

عن جابر بن سمُرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إني لأعرف حجرًا بمكة كان يُسلِّم عليَّ قبل أن أُبعث، إني لأعرفه الآن»**[1].

فالجبال تسبح بحمد الله، وتسجد لله، والحجر الأسود يشهد لمن استلمه بحق، وقد حنَّ الجِذعُ لرسول الله، وسلَّم الحجر والشجر على رسول الله ﷺ.

قال مجاهد: كلُّ حجر يتفجر منه الماء، أو يتشقق عن ماء، أو يتردى من رأس جبل فهو من خشية الله عز وجل، نزلَ بذلك القرآنُ، وهي جماداتٌ أودع الله فيها العلم والحكمة، ولكن قلوبَ اليهودِ لا ترقُّ ولا تلين، فهي أقسى وأشد من الحجارة.

---

(١) «صحيح مسلم» (٢/ ٣٠٢) برقم (٢٢٧٧) وفي «المسند» برقم (٢٠٨٢٨، ٢٠٨٩٣) بإسناد حسن، وابن أبي شيبة (١١/ ٤٦٤) وابن حبان ٦٤٨٢) والبغوي (٣٧٠٩).

هذه أوصافٌ ثلاثة للحجارة بعضها أقسى من بعض، وهي مع صلابتها تتأثر بالماء الرقيق فينفذ منها، ذلكم وصف رب العالمين لليهود وهو العليم الخبير ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤] ثم توعّد الله اليهود بقوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ يا معشر المكذّبين بآياته الجاحدين لنبوة رسوله، فهو سبحانه حافظٌ لأعمالهم محصٍ لها، وسوف يعاقب هذه القلوب القاسية في الدار الآخرة على أعمالهم الخبيثة.

المُخَالَفَةُ الرَّابِعَةُ: تَحْرِيفُ اليَهُودِ لِكَلَامِ اللَّه تَعَالَى:

٧٥- ﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥)﴾

وبعد هذا الوصف التحليلي لطبيعة اليهود قطع سبحانه وتعالى طمع الرسول ﷺ وأصحابه والدعاة إلى الله تعالى في كل زمان ومكان، في إيمان اليهود ودخولهم في الإسلام، لما هم عليه من الغِلظة والجفوة وقسوة القلب، فقد كان بين اليهود -في ضواحي المدينة- وبين الأنصار حِلْفٌ على أن يناصر بعضهم بعضًا، ويُقاتل بعضهم مع بعض، وكان بينهم جوارٌ ورباطٌ، وكان المسلمون من الأنصار يطْمعُون في أن يدخل اليهود في الإسلام، فقطع الله سبحانه وتعالى هذا الأمل، ويأَّس المسلمين من دخول اليهود في الإسلام قائلًا سبحانه:

﴿أَفَتَطْمَعُونَ﴾ يا أصحاب محمد، ويا معشر المؤمنين - في كل زمان ومكان - وترجون من اليهود ﴿أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ﴾ أنسيتم أفعال بني إسرائيل، وطمعت نفوسكم في تصديق اليهود بدينكم، وتطلّعتم إلى ذلك؟! إن الإيمان لا يدخل إلا إلى القلوب اللينة السهلة، وهؤلاء قلوبهم أقسى من الحجارة، فالإيمان لن يدخل قلوبهم.

والخطاب موجَّهٌ إلى الجماعة المسلمة، لبيان أن اليهود في كل زمان ومكان لا يمكن أن يدخلوا في دين الإسلام إلا نادرًا، كما لم يدخلوا في النصرانية قبله.

والمعنى: لا تطمعوا أيها المسلمون في إيمان اليهود، فإنهم يحرفون كلام الله من بعد ما علموه، ليُوهموا الناس أنه من عند الله، وإذا كان هذا حالهم مع كتابهم، فلا يرجى منهم إيمان بغيره.

وقد بين سبحانه أن اليهود فريقان:الأحبار، أي: علماء اليهود وهم المحرِّفون للتوراة، وفريقٌ آخر: جهلاء أميون وهم الموصوفون بالنفاق المقلّدون لغيرهم.

أما أحبار اليهود، فقد كانوا أهل رئاسة في الدين والعلم، وقد قرؤوا أوصاف النبي ﷺ في التوراة، وعرفوها، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة]

أي: أن اليهود والنصارى ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾ أي يعرفون محمدًا ﷺ ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ الذين من أصلابهم، فلما جاء محمد ﷺ مطابقًا للأوصاف التي عندهم في التوراة آمن فريق من أحبارهم كعبد الله بن سلام وتميم الداري، وفريقٌ آخر خافوا على الرئاسة أن تُنزع منهم، وخافوا على مناصبهم وعلى أنفسهم، وغيَّرُوا أوصاف النبي ﷺ في التوراة وحرَّفوها وبدَّلوها، كما توضح ذلك الآية التاسعة والسبعون من هذه السورة.

ومن مظاهر تحريف اليهود لأوصاف الرسول ﷺ:

١- أن النبي ﷺ موصوفٌ في التوراة المنزَّلة من عند الله بأنه (أكحل العينين) ﷺ، فغيَّروا ذلك إلى (أزرق العينين).

٢- وموصوف بأنه ﷺ (رَبْعة) فغيروا هذا الوصف إلى أنه (طويلٌ).

٣- وموصوفٌ ﷺ بأنه (أجعد الشعر) فغيَّروا ذلك بأنه (سهل الشعر).

وغيْر ذلك من الأوصاف التي حرَّفوها وبدَّلوها بتغيير الألفاظ، أو بصرفها إلى غير معناها الصحيح.

فكان الأميُّون إذا سألوا أهل العلم بالتوراة عن صفات النبي ﷺ يذكرون لهم هذه الأوصاف المغيَّرة والمحرَّفة والمبدَّلة، وكان عامة اليهود يسمعون هذه الصفات ثم يطبقونها على النبي ﷺ فيجدونها مختلفة، فيكون هذا سببًا لتكذيبهم لرسول الله ﷺ.

وعن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في معنى الآية قال: (أحبار يهود وجدوا صفة محمد ﷺ مكتوبة في التوراة: أكحل، أعين، رَبعة، جعْد الشعر، حسن الوجه، فلما وجدوه في التوراة محوه حسدًا وبغيًا، فأتاهم نفرٌ من قريش، من أهل مكة، فقالوا:

أتجدون في التوراة نبيًّا أميًّا؟ فقالوا: نعم نجده: طويلًا، أزرق، سبط الشعر، فأنكرت قريش، وقالوا: ليس هذا منا)[١] فهذا التحريف يشمل تحريفهم لما في التوراة، وكتمانهم أوصاف النبي ﷺ فيها، وتبديلهم أحكام الله تعالى.

وعن الصنف الأول من اليهود -وهم الأحبار- يقول الله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ عن طريق الوحي بواسطة الرسول ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾ بصرفه إلى غير معناه الصحيح أو بتحريف ألفاظه ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ وعلموه حقيقةً ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم يحرِّفونه.

ومما عقلوه وحرَّفوه -عن علم- تغيير أحكام الله تعالى في الحلال والحرام، فكان الحبرُ منهم إذا جاءه صاحب الحق برشوة أخرج له التوراة الصحيحة، وإذا جاءه من هو على باطل برشوة أخرج له التوراة المحرَّفة، وإن جاءه أحدٌ بغير رشوة يسأل شيئًا أمره بالحق[٢].

قال عكرمة: إن امرأة من اليهود أصابت فاحشة، فجاءوا إلى النبي ﷺ يبتغون منه الحُكْم رجاء الرخصة، فدعا رسول الله ﷺ عالِمَهُم وهو ابن صوريا، فقال له: «**احكُم**» فحملوه على حمار وجعلوا وجهه إلى ذَنَب الحمار، فقال له رسول الله ﷺ: «**أبحكم الله حكَمْت؟**» قال: لا، ولكن نساءنا كُنَّ حسانًا، فأسرع فيهن رجالنا، فغيَّرنا الحُكْم، وفيه أنزلت: ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾[٣].

وهذا الفريق المحرِّف هم العلماء منهم، كانوا يحرِّفون كلام الله بعد فهمه ومعرفته، كتبديلهم لصفة النبي ﷺ وكانوا يحرِّفون شرع الله في التوراة، كتحريفهم لآية الرجم فيها وغير ذلك.

أخرج البخاريُّ وغيره بسنده عن ابن عمر ﷺ أن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا رجلًا منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟**» فقالوا: نفضحهم ويُجْلَدون، فقال عبد الله بن سلام: كذبتم؛ إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فانشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها،

---

(١) رواه ابن أبي حاتم بإسناد حسن وله شواهد كثيرة.

(٢) «أخرجه الطبري» عن ابن زيد برقم (١٣٣١) بتصرف.

(٣) «أخرجه ابن أبي حاتم» (٧٨٠) بتصرف.

فقال عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده فإذا فيها آية الرجم، فقالوا: صدق محمد، فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرُجِما، قال عبد الله: فرأيت الرجل يجنأ على المرأة يقيها الحجارة[1].

المُخَالَفَةُ الخَامِسَةُ: نِفَاقُ كِبَارِ اليَهُودِ وَجَهْلُ الأُمِّيِّينَ مِنْهُم:

٧٦، ٧٧- ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝﴾

هذا إخبار عن منافقي اليهود في كل زمان ومكان، وأنهم يُظهرون للمسلمين ما ليس في قلوبهم، فإذا لم يكن عندهم أحد من غير دينهم قال بعضهم لبعض: أتحدثون المسلمين بما تعرفونه من صدق محمد ﷺ ليكون هذا حجة لهم عليكم؟ أفلا تعقلون ما هو حجة عليكم فتتركوه، وإن أسر اليهود ما يعتقدونه عن صحة الإسلام وصدق رسوله بزعم عدم إقامة الحجة عليهم فإن الله تعالى يعلم سرهم ونجواهم فيظهر لعباده حقيقة أمرهم.

وكان من شأن المنافقين من رؤساء اليهود المحرِّفين لكلام الله تعالى أنهم إذا التقوا بالمؤمنين يقولون لهم خداعًا ونفاقًا: آمنا بمحمد ﷺ وأوصافه جاءت مطابقة لما في التوراة ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا﴾ بدينكم ورسولكم المبشَّر به في التوراة، فإذا خلوا إلى إخوانهم من اليهود وبَّخوهم؛ لأنهم أخبروا أتباع محمد ﷺ بما عرفوه من صفاته في التوراة ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا﴾ لا تحدثوا العرب بهذا، فإنكم كنتم تقولون قبل بعثته: نحن أول من يفتح عليه بالإيمان قبل المشركين الوثنيين، فلما بُعث ﷺ أرسل إليهم عليًّا ﷺ يدعوهم إلى الوفاء بما قالوا، فقال بعضهم لبعض: من أخبر محمدًا بهذا؟ ما خرج هذا إلا منكم ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ من العلم ببعثة محمد ﷺ وبأوصافه في التوراة ﴿لِيُحَاجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ أي ليقيموا عليكم به الحجة عند ربكم يوم القيامة ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن هذا حجة عليكم، حيث تعترفون به ولا تصدقونه فاحذروا، وقد كانوا يرسلون الجواسيس على النبي ﷺ يظهرون الإسلام ويبطنون اليهودية.

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٣٢٩، ٣٦٣٥) ومسلم برقم (١٦٩٩).

وقد عنَّفهم النبيُّ ﷺ على ذلك وأخبرهم به يوم قريظة وهم في حصونهم، فقال: يا إخوان القردة، ويا إخوان الخنازير، ويا عبدة الطاغوت، وحكى قولهم المذكور في الآية: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْۚ﴾ فعجبوا من ذلك؛ لأن أوصاف النبي ﷺ موجودة في كتبهم قبل أن يولد؛ فأخذ بعضهم يلوم بعضًا كيف وصلت هذه المعلومات إليه ﷺ ويقولون لبعضهم: لا تخبروهم بعد ذلك بمثل ما أخبرتموهم به من قبل، ولا تقولوا له ما في كتبكم، من أنه نبيٌّ مبعوث، حتى لا يكون هذا حجة عليكم عند ربكم، فلما بلغ النبي ﷺ قال: **«لا يدخلن علينا قصبةَ المدينة إلا مؤمن»** وقصبة المدينة: وسطها وجوفها، فقال رؤساؤهم من أهل الكفر والنفاق: اذهبوا فقولوا: آمنا، واكفروا إذا رجعتم. فكانوا يأتون المدينة صباحًا ويرجعون بعد العصر، فذلكم قول الله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [آل عمران]

وكانوا إذا دخلوا المدينة قالوا: نحن مسلمون، ليتعرفوا على أخبار النبي ﷺ وأحواله، فلما أخبر الله تعالى نبيه ﷺ بذلك منعهم من دخول المدينة[1].

قال تعالى: أيفعلون كل هذه الجرائم؟! ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ﴾ أوَ لا يعلم هؤلاء الذين يلومون غيرهم على ما يقولون من الإخبار بنبوة محمد ﷺ ونعته، ويظهرون الإيمان به ويبطنون الكفر ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فهو سبحانه يعلم كل ماخفي وكل ما ظهر من أقوالهم وأفعالهم.

٧٨- ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ[2] وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾

أما الفريق الثاني من اليهود فهم الجُهلاء الأميون، وهم لا يعرفون من التوراة إلا أكاذيب مختلطة اختلقها واخترعها أحبارُهم ظنًّا وافتراءً وأوهامًا.

ومن هذه الأكاذيب التي سماها القرآن الكريم بالأماني: أنهم لا يعرفون إلا أنهم شعب الله المختار، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودة، وأن الجنة

---

(١) ينظر الأثر عن ابن زيد في الطبري برقم (١٣٤٩) وفي ابن كثير (١/ ٢١٣) وغيرهما.

(٢) قرأ أبو جعفر (إلا أماني) بياء مخففة، وشددها غيره.

قد خُلقت لهم دون غيرهم، هذه الأكاذيب المختلقة هي ما يعرفه الجهلاء الأميون من أحبار اليهود ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ أي: عوامٌ وجهَلة لا تعرف شيئًا مما نزل على رسل الله، ولا وبعضهم لا يعرف القراءة والكتابة، وبالتالي فهم لا يعلمون شيئا عن التوراة ولا عن أوصاف النبي ﷺ فيها، فهم ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ أي: التوراة ﴿إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ أكاذيب وأقاويل مختلطة، وظنًّا وتخرُّصًا ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ فما يعلمونه أقاويل من الرؤساء والأحبار لا أساس لها من الصحة، بل هي ظنون فاسدة.

والمعنى: ومن أهل الكتاب عوام ليس لهم حظ من كتاب الله إلا التلاوة فقط، فهم مقلِّدون لأهل العلم، ولا يعرفون إلا ظنونًا وأكاذيب. وهكذا: فقد بيَّنتْ هذه الآيات أن العلماء من اليهود متمسكون بما هم عليه من ضلال، والعوام مقلدون لهم، والمنافقون منهم مذبذبون مترددون، فلا مطمع لكم في إيمانهم بحال.

وقد وصف الله تعالى أمة محمد ﷺ بالأُمِّية فقال: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢)﴾ [الجمعة: ٢] وفي الحديث عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**إنا أمة أُمِّيَّةٌ لا تَكتُبُ ولا تَحسِبُ**»[(١)]. والأمة الأمية هي التي لم ينزل عليها كتاب من عند الله.

والأُمِّيَّةُ: معجزة محمد ﷺ في إتيانه بهذا الكتاب -المعجز في فصاحته وبلاغته وعلومه- فالنبيُّ ﷺ أعلمُ الخلق مع أنه نشأ أميًّا، والأمية صفة مدحٍ بالنسبة للنبي ﷺ، وهي صفة ذمٍّ بالنسبة لليهود.

والأميُّ عند العرب: هو الذي لا يقرأ ولا يكتب، وبالنسبة لمعرفة العلوم المختلفة فكل إنسان له مجالٌ معين من العلم في باب منه أو أكثر، فهو أميٌّ جاهلٌ في بقية العلوم، فعالم الطب يجهل الهندسة، وعالم الفلك أو الجيولوجيا يجهل علوم الكيمياء وهكذا، ولكن هناك قدْرٌ من العلم الشرعي لابد منه لكل مسلم، وهو معرفة الحلال والحرام، والفرائض والنوافل، والأوامر والنواهي، وأبواب الشرك والبدع، إذ لا تصح عقيدته ولا

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري برقم (١٩٠٠، ١٩١٣) ومسلم برقم (١٠٨٠) وأبو داود برقم (٢٣١٩) والنسائي في «الكبرى» برقم (٢٤٦١، ٢٤٦٢) كما في «الجامع الصغير» برقم (٢٥٢١) و«المسند» برقم (٤٨٦٦) وابن حبان برقم (٣٤٤٩).

عبادته إلا بما كان خالصًا لله من الشرك، صوابًا موافقًا لما جاء في الهدْي النبوي، وكل من يجهل هذا فهو أكبرُ أُمِّيٍّ، فيما لابد من معرفته بالضرورة، وإن كان من حَمَلة الدكتوراة في ميدان من ميادين العلم التجريبي أو النظري.

أما الأماني في قوله تعالى عن اليهود: ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ **فهي الأكاذيب** والإفك وافتراء الباطل كما قال تعالى: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ [النساء: ١٥٧].

ومنه قول عثمان ﷺ للرجل الذي دخل عليه لقتله وقال له: اخلعها وندَعك، أي اترك الخلافة ولا نقتلك، فقال عثمان: ويحك! ما كشفتُ امرأة في جاهلية ولا إسلام، ولا تَغَنَّيْتُ ولا تمنَّيتُ، ولا وضعتُ يميني على عورتي منذ بايعت رسول الله ﷺ، ولست خالعًا قميصًا كسانيه الله عز وجل(١).

والشاهد: (ولا تمنيتُ) أي: لم أختلق كذبا ولم أقل باطلا.

وقد جاءت هذه اللفظة أيضًا في قوله ﷺ: قد اختبأت عند الله خصالًا: إني لرابعُ الإسلام، وزوَّجني رسول الله ابنته ثم ابنته، وبايعته بيدي اليمنى، فما مسسْتُ بها ذكري، ما تغنيت ولا تمنيت، ولا شربت خمرًا في الجاهلية ولا في الإسلام(٢). رضي الله عن عثمان وأرضاه، فقد قال ﷺ: **«اللهم ارضَ عن عثمان فإني عنه راضٍ»**(٣).

وقال عنه بعد تجهيزه جيش العُسرة: **«ما ضرَّ عثمان ما فعل بعد اليوم»**(٤).

الوَعِيدُ الشَّدِيدُ لِمَنْ يُحَرِّفُونَ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى

٧٩- ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ(٥) وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾

توعّد الله سبحانه من يحرفون كلامه بكتمان الحق وإظهار الباطل، وبتأويل معناه على

---

(١) ، (٢) خبر مقتل عثمان في «تاريخ الطبري» (٥/ ١٣٠).

(٣) ، (٤) ينظر: البداية والنهاية ٥/ ٥ ط دار الحديث بالقاهرة.

(٥) ضم يعقوب الهاء من (أيديهم) وكسرها الباقون، ووصل الميم بحرف مد طبيعي ابن كثير وأبو جعفر وقالون بخلف عنه.

غير وجهه، ابتغاء عرض من أعراض الدنيا، أو إرضاء للحكام، توعّدهم على تحريفهم كلام الله تعالى من جهة، وعلى ما يصل إليهم من متاع الدنيا مقابل هذا التحريف، من جهة أخرى، بأن لهم شدة العذاب وشدة الحسرة يوم لقاء الله.

وهكذا: قال سبحانه متوعِّدًا الفريق الأول الذين يحرِّفون كلام الله تعالى، ويغيرون صفات محمد ﷺ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ هلاكٌ ودمارٌ لأحْبَار السُّوء من اليهود الذي يكتبون التوراة بأيديهم فيحرفونها ويقولون: هذا من عند الله؛ ليأخذوا في مقابل ذلك عرضًا دنيويًا، فلهم من الله عقوبتان: عقوبة على تحريفهم كلام الله، وعقوبة على أخذهم الرشوة ونحوها مقابل هذا التغيير، وهذا الثمن مهما كثر فهو قليلٌ بالنسبة لعذابهم وقليلٌ بالنسبة للأجر الذي حُرِمُوا منه.

والويلُ: وعيدٌ بالهلاك والعذاب، أو هو وادٍ في جهنم.

عن أبي سعيد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**ويلٌ وادٍ في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفًا قبل أن يبلغ قعره**»[1] توعَّد الله به رؤساء اليهود الذين يحرِّفون التوراة ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ﴾ للعوام إذا سألوهم: هذا من عند الله، لماذا؟ ﴿لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ خوفًا على زوال رئاستهم وزعامتهم، وشراءً لشيء من حطام الدنيا ومتاعها.

وقد تكلم السَّلف والخلف في حكم بيع المصحف أخْذًا من قوله تعالى في هذه الآية وأمثالها: ﴿لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ فمنهم من منع ومنهم من رخَّص، ولعلَّ الصحيح في هذا ما قاله الشعبي: لابأس ببيع المصاحف، إنهم لا يبيعون كتاب الله، إنما يبيعون الورق وعمل أيديهم، فهو بيعٌ للورق وصناعة المطابع وعمل الأيدي.

ومما يدخل في هذا الحكم من يتخذ القرآن حرفةً يتكسَّب منها، ولا يقال: إن القارئ يأخذ أجرًا على حبس الوقت؛ لأن الأصل ألا يتخذ القرآن مهنة له، أما تعليم القرآن فقد

---

(١) «المسند» برقم (١١٧١٢) بإسناد ضعيف، وأبو يعلى (١٣٨٣) وابن أبي حاتم (٧٩٨٣/ ٧٥) والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٥٩٦) وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، ولكن الألباني ضعفه في «ضعيف سنن الترمذي» (٦١٧). وقال الترمذي (٢٥٧٦، ٣١٦٤) هذا حديث غيريب لا نعرفه مرفوعًا إلا من حديث ابن لهيعة.

صحَّ الحديث بجواز أخذ الأجرة عليه[١].

قال السُّدي وقتادة: كتب ناسٌ من اليهود كتابًا من عندِهم، يبيعونه من العرب، ويحدِّثون أنه من عند الله، ليأخذوا به ثمنًا قليلًا، فلهم الويلُ بسبب التحريف ولهم الويلُ بسبب الرشاوي. وكان لهؤلاء الرؤساء والأحبار مُخصَّصات ورشاوي موسمية يأخذونها من العامة، وقد كرَّر سبحانه ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم﴾ مرتين لتأكيد عذابهم وهلاكهم ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ فغيَّرت وبدَّلت وحرَّفت كلام الله في التوراة ﴿وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ في مقابل تحريفهم من المال الحرام، وما يكسبون من المعاصي وهو كسبٌ حرامٌ يتحملون وزره ووزر من عمل به إلى يوم القيامة.

وقد نهى الإسلام عن سؤال أهل الكتاب في شيء، نظرًا لتحريفهم كلام الله.

فقد أخبر الزهري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء؟ وكتابكم الذي أنزل الله على نبيه أحدثُ الأخبار بالله، تقرؤونه غضًّا لم يُشَب، وقد حدَّثكم الله أن أهل الكتاب قد بدَّلوا كتاب الله وغيَّروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلًا، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم؟ ولا والله ما رأينا منهم أحدًا قطُّ سألكم عن الذي أنزل إليكم[٢].

وهذه الآية تشير إلى فقْد التوراة بعد تخريب بيت المقدس في زمن بخْتنصر، ثم في زمن القائد الروماني طيطس، وذلك أن التوراة الحقيقية كان موسى عليه السلام قد أمر بوضعها في تابوت العهد، وأمر بنشرها كل سبع سنين، وَوُضِع التابوت في خيمة الاجتماع، ثم وضعه سليمان في الهيكل، فلما غزاهم بختنصر سنة ٥٨٨ قبل الميلاد أحرق الهيكل والمدينة كلها بالنار، فاحترقت التوراة الأصلية مع التابوت في الهيكل، ثم خرب بيت المقدس مرة أخرى سنة ٤٠ ميلادية في زمن الملك الروماني طيطس، وتفرَّق اليهود في العالم.

---

(١) عبد الرزاق (١٤٥٢٧) وأبو عبيد ص٢٣٩ وابن أبي داود (١٧٧) وانظر أقوال السلف في هذا الصدد في «الدر المنثور» (١/ ٤٣٧- ٤٤٦)، وحكم ذلك مبيّن في كتابنا (فنّ الترتيل وعلومه) الجزء الأول.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٢٦٨٥، ٧٣٦٣، ٧٥٢٢، ٧٥٢٣) وابن أبي حاتم (٨٠٤) والبيهقي في «الشعب» (٥٢٠٤) وعبد الرزاق في «المصنف» (١٩٢١٥) مختصرًا.

ولما رأى كبارُهم أن التَّوراة قد حُرِقت، وأنهم بلا مأوى، أجمعوا أمرهم على كتابة توراة تتضمن ما يجمع شتاتهم في فلسطين حتى يعودوا إليها، فحرفوا التوراة بما يخدم قضيتهم، وكتبوها من حفظهم وأوراقهم، كتابة سياسية خرافية في العقيدة إذ نسبوا فيها إلى الله تعالى ما لا يليق بجلاله.

فَكَتَبَ سِفْر التثنية، يهوديٌّ كان مُقِيمًا في مصر في عهد ملك اليهود (يوشيا) ودخل في الكتب الخمسة، التي هي مجموع التوراة، الكثير من تحريف (عزير) المسمى عندهم (صموئيل)؛ ولذا قالوا: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾؛ لأنه ادَّعى أنه ظَفَر بالتوراة، ويدل على هذا التحريف أنهم لما كانوا يرممون بيت المقدس في زمن الملك (يوشيا) وجد أحد الكهنة (سفر الشريعة) وسلمه لكاتب الملك، فلما قرأه الكاتب على الملك مزَّق ثيابه وتاب، وأمر الكهنة بتغيير كلام (سفر الشريعة) الموجود لديهم وفق هذا السفر الذي وجده الكاهن في بيت الرب. فهذا دليلٌ قويٌّ على أن التوراة قد فُقِدت منهم، وأن المكتوب منها بعد ذلك محرَّفٌ[١].

الْمُخَالَفَةُ السَّادِسَةُ: دَعْوَى الْيَهُودِ أَنَّ النَّارَ لَنْ تَمَسَّهُمْ إِلَّا مُدَّةَ عِبَادَتِهِمْ لِلْعِجْلِ: جَزَاءُ اللَّهُ الْعَادِلُ يَتَسَاوَى فِيهِ اليَهُودُ وَغَيرُهُم

٨٠- ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾

ومن الأمانيِّ والأكاذيب التي يعتقدها اليهود أنهم قالوا: لن تمسنا النار في الآخرة إلا أيامًا قليلة العدد، قال الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ﴾ تحلة القسم، بعدد أيام عبادتنا للعجل، أي: أنهم لا يُعذَّبون في النار إلا أربعين يومًا، هي مقدار الأيام التي عبدوا فيها العجل، أو أن النار لن تمسهم في الآخرة إلا سبعة أيام بمقدار عمر هذه الدنيا، وهي في زعمهم سبعة آلاف سنة، وأنهم سيعذبون يومًا عن كل ألف سنة.

قال ابن عباس ﷺ: إن اليهود كانوا يقولون: مدة الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما نُعذَّب لكل ألف سنة من أيام الدنيا يومًا واحدًا في النار، وإنما هي سبعة أيام معدودات ثم

---

(١) ينظر: «سفر الملوك الثاني»، «الإصحاح الحادي والعشرين»، و«تفسير التحرير والتنوير» (١/ ٥٧٨)

ينقطع العذاب، فأنزل الله الآية[١].

وقيل: إنهم وجدوا في التوراة مكتوبًا أن ما بين طرفي جهنم مسيرة أربعين سنة، وزعموا أن المسير إلى أصل الجحيم -وهي شجرة الزقوم- ينتهي بهذا العدد ثم تذهب جهنم وتنتهي[٢].

وزعم اليهود أن المسلمين يخلُفُونهم في جهنم بعد عذابهم فيها أربعين يومًا.

جاء في الأثر: كَذَبْتم، بل أنتم فيها خالدون مخلدون، لا نَلْحَقُكُم ولا نَخْلُفُكُم فيها إن شاء الله[٣].

ولما قدَّم يهود خيبر شاةً مسمومة إلى النبي ﷺ سألهم: **«من أبوكم؟»** فقالوا: فلانٌ، قال: **«بل كذبتم أبوكم فلان»** قالوا: صدقت، ثم سألهم: **«من أهل النار؟»** فقالوا: نكون فيها مدة يسيرة ثم تخلُفونا فيها، فقال ﷺ: **«اخسؤوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبدًا»** ثم سألهم: **«هل جعلتم في هذه الشاة سمًّا؟»** قالوا: نعم يا أبا القاسم، وكانوا قد قالوا له: إن كذبناك عرفت كذبنا، قال ﷺ: **«فما حملكم على ذلك؟»** قالوا: أردنا إن كنت كاذبًا أن نستريح منك، وإن كنت نبيًّا لم يضرك[٤].

وقال عكرمة: خاصمت اليهودُ رسول الله ﷺ فقالوا: لن ندخل النار إلا أربعين ليلة، وسيخلفنا فيها قومٌ آخرون -يعنون محمدًا ﷺ وأصحابه- فقال: ﷺ بيده على رؤوسهم: **«بل أنتم خالدون مخلدون لا يخلفكم إليها أحد»** فأنزل الله الآية يُلقِّن رسوله الجواب ولحْن الحجة.

وهكذا: يزكى اليهود أنفسهم ويشهدون لها بالنجاة من عذاب الله والفوز بثوابه وأن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودة، وقد رد الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا﴾ بأن النار لا تمسكم إلا سبعة أيام أو أربعين يومًا؟ ﴿فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ﴾ إن كان الله قد

---

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ٥٣٨) والطبري (٢/ ١٧٥) وابن أبي حاتم (٨١٣) والطبراني (١١١٦٠) و«أسباب النزول» للواحدي ص١٧ .

(٢) ينظر الأثر (١٤٠٤) عن ابن عباس في «تفسير الطبري» وابن أبي حاتم (٨١٧) والواحدي ص١٧

(٣) حديثٌ مرسلٌ عن عكرمة وابن زيد، ينظر: ابن جرير (٢/ ١٧٤) وابن أبي حاتم (٨١٥).

(٤) ينظر «المسند» (٢/ ٤٥١) برقم (٩٨٢٧) و«صحيح البخاري» برقم (٣١٦، ٤٢٤٩، ٥٧٧٧) و«سنن النسائي الكبرى» برقم (١١٣٥٥) والدارمي (١/ ٣٣) والبيهقي في «الدلائل» (٤/ ٢٥٦).

وعدكم بذلك، فأين ذلك العهد؟ أو هل ادخرتم عند الله عهدًا بتوحيده وعدم الإشراك به ترجون به مثوبة الله ويكون لكم عند الله به حجة وبرهان؟ ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ بافترائكم الكذب.

فأخبر سبحانه أن صِدْق دعواهم متوقف على أمرين:

إما أن يكونوا قد اتخذوا عند الله عهدا، فتكون دعواهم صحيحة.

وإما أن يكونوا متقولين عليه، فتكونوا دعواهم كاذبة، وهذا أبلغ في خزيهم وعذابهم.

وقد علم الله أنهم لم يتخذوا عنده عهدا، فتعين أنهم متقوّلون على الله ما لا يعلمون، وهذا من أشنع القبائح. قال تعالى:

٨١- ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ[1] فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ[2] هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾

ثم بيَّن سبحانه الجزاء العادل، والقانون الإلهي، الذي يشمل الخلق جميعًا في الإسلام والمسيحية واليهودية وغيرها فقال تعالى ردًّا على تحريف اليهود، وعلى قولهم أن النار لن تصيبهم في الآخرة إلا أياما معدودة: ﴿بَلَىٰ﴾ جوابًا لهم وبيانًا بأن النار تمسهم أبدًا وليست مدة معينة، فليس الأمر كما زعموا، ولكن ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ أي: أن من يكتسب ذنبًا يبلغ به الكفر أو الشرك ويموت عليه ﴿وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ أي: وأحدق به ذنبه الذي هو الشرك والكفر من كل جانب كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩] فاسْوَدَّ قلبه وأظلم بسبب تراكم المعاصي وكبائر الذنوب، مُسْتَحِلًا لها، فهو خالدٌ مخلَّدٌ في النار ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ [النمل: ٩٠] فالمراد بالسيئة: الكفر والشرك، وكل ذنبٍ توعَّد الله عليه بالنار، وقد سُئِل الحسن عن المراد بالخطيئة؟ قال: اقرؤوا القرآن، فكل آية وعد الله عليها النار فهي الخطيئة[3].

---

(١) قرأ نافع وأبو جعفر (وأحاطت به خطيئاته) بالجمع، ليطابق اللفظ كثرة الذنوب، وقرأ باقي القراء بالإفراد، على أن الخطيئة: اسم جنس.

(٢) أمال (النار) أبو عمرو ودوري الكسائي وابن ذكوان بخلف عنه وقللها الأزرق.

(٣) الطبري من طريق وكيع (٢/ ١٨٤).

وقال الربيع بن خُثَيْم: هو الذي يموت على خطيئته قبل أن يتوب[١].

والإحاطة بصاحبها بمعنى أنها لم تدع له منفذًا، وهذا لا يكون إلا الشرك، لأن من كان معه إيمان لا تحيط به خطيئته.

وأنتم - أيها اليهود - من هذا القبيل، كذَّبتم الله تعالى، وأحاطت بكم خطاياكم، فأشركتم بالله وكفرتم برسول الله، فأنتم مخلَّدون في النار، مُلازِمون لها ملازمة دائمة لا تنقطع، وهذا هو حكم الله الثابت.

ومما يتصل بهذا المعنى: أن من يرتكب ذنبًا ثم لا يتوب منه، فإن هذا الذنب يترك علامةً سوداء على قلبه، فإذا أذنب ذنبًا آخر وآخر ولم يتب فإنه يُطمس على قلبه ويسوَدّ، فتحيط به خطيئته، ويُطْبع على قلبه فلا يقبل الإيمان والعياذ بالله، وهذا هو الران المذكور في قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين] وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إياكم ومحقَّرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه**» وإن رسول الله ضرب لهن مثلًا: «**كمثل قوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعُود، حتى جمعوا أعوادًا وأجَّجُوا نارًا، فأنضجوا ما قذفوا فيها**»[٢].

وهذا من باب الإصرار على الصغيرة واعتيادها.

والقضاءُ الفصلُ في معاملة الناس جميعًا هو الحسنات والسيئات ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء].

وبعد بعثة النبي ﷺ لا يقبل الله تعالى من أحد من خلقه عملًا صالحًا، ما لم يكن مؤمنًا برسالة محمد ﷺ وليس باقٍ على يهوديته أو نصرانيته أو غيرهما. قال تعالى:

(١) ابن أبي شيبة (١٣/ ٣٩٧) والطبري (٢/ ١٨٣).

(٢) «مسند أحمد» (١/ ٤٠٢) برقم (٣٨١٨). وهو حديث حسن لغيره، وهو عند الطيالسي في مسنده (٤٠٠٥) والبيهقي في الشعب (٢٨٥) والطبراني في الكبير (١٠٥٠٠) والأوسط (٢٥٥٠).

٨٢- ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾

أي: وأما المؤمنون الذين صدَّقُوا بالله ورُسله واليوم الآخر، ولم يموتوا على الكفر والشرك، وعملوا بما يتفق مع شرع الله أعمالًا صالحة خالصة لوجهه الكريم، متبعين فيها سنة خاتم النبيين فهم أهل النعيم الدائم والسَّعادة الأبدية، يخلّدون في الجنة خلودًا أبديًّا لا ينقطع.

مُخَالَفَةُ الْيَهُودِ السَّابِعَةُ: عَدَمُ الالْتِزَامِ بِحُقُوقِ اللَّهِ وَحُقُوقِ الْعِبَادِ

بُنُودُ المِيثَاقِ المَأْخُوذِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مُكَوَّنٌ مِنْ عَشْرَةِ مَوَادٍ:

٨٣- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ[1] إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا[2] وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾

بنود هذا الميثاق من أصول الدين وشرائعه التي أمر الله بها خلقه في كل رسالة، لاشتمالها على المصالح العامة، فلم يدخلها النسخ، كأصل الدين، ولها نظائر في القرآن الكريم خاطب الله بها هذه الأمة كقوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ﴾ [النساء: ٣٦] وآية البر وغيرهما.

تذكر هذه الآية شيئًا مفصَّلًا عن الميثاق الذي أخذه الله على بني إسرائيل السابقين واللاحقين وهم تحت سقف الجبل حين رفعه الله عليهم لمَّا لم يعملوا بما في التوراة فارتجفوا خوفًا ورعبًا ورهبة من سقوط الجبل فوقهم، وأعلنوا إيمانهم بها والعمل بما فيها، فأخذ الله عليهم الميثاق وعلى جميع من يأتي بعدهم في ظلِّ اليهودية، أن يعملوا بما في التوراة، ويقيموا حُكم الله فيها، وهذا الميثاق المأخوذ على بني إسرائيل في هذه الآية موجودٌ في الإسلام، وفي جميع الشرائع السماوية. وهذه هي بنوده، مكوَّنة من عشر مواد:

---

(١) قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي (لا يعبدون إلا الله) بياء الغيب جريًا على السياق، وقرأ الباقون بتاء الخطاب، حكاية لما خوطبوا به، ليتناسب مع (وقولوا للناس حسنًا).

(٢) قرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر (وقولوا للناس حَسَنًا) على أنه صفة لمصدر محذوف أي: قَوْلًا حَسَنًا، وقرأ الباقون (حُسْنًا) على أنه مصدر.

المادة الأولى: الإيمان بالله وحده:

والتوجه إليه بالعبادة دون سواه ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

وهذا هو أساس دعوة الرسل، وأصل كل شريعة، فكلُّ رسول جاء إلى قومه ليقول لهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ والتوحيد يقتضي بالضرورة ترك الشرك بالله، وهو الذنب الذي لا يُغفر إذا مات العبد عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦] ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الزمر]

وهو أول عهد أخذه الله عليهم وعلى غيرهم، وهو حق الله تعالى، ولا يقبل عمل بدونه.

والشرك بالله يُحبِط عمل أيِّ مخلوق، ولو كان رسول الله ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الزمر]

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]

وقال جل شأنه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء] ولكن اليهود نقضوا هذا العهد وقالوا: عزيرٌ ابن الله، ونسبوا إلى الله تعالى ما لا يليق بالبَشر، وبعد بيان حق الله تعالى شرعت الآية في بيان حقوق العباد وبدأت بالأهم فالمهم.

المادة الثانية: البر بالوالدين والإحسان إليهما:

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ وإن كانا مشركين أو ظالمين أو أساءا التربية، فلهما المرتبة الثانية بعد التوحيد: وهذا يعم ا لإحسان بالقول والفعل، والنهي عن الإساءة إليهما بالقول أو الفعل، وترك الإحسان إليهما إساءة، وهو محرم.

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، أي العمل أفضل؟ قال: «**الصلاة على وقتها**» قلت: ثم أي؟ قال: «**بر الوالدين**» قلت: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**»[1] فهذا برُّ الوالدين في المرتبة الثانية بعد الصلاة؛ لأن للوالدين الفضل المباشر في

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٥٢٧، ٢٧٨٢، ٥٩٧٠) و«صحيح مسلم» برقم (٨٥).

وجود العبد في الحياة بعد الله سبحانه.

المادة الثالثة: الإحسان إلى الأقارب والأرحام:

﴿وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ من جهة الأب أو الأم، أو من جهتهما بصلتهم، ورعاية المحتاج منهم، والسؤال عنهم، ومودّتهم سِيَّمَا من يُكِنُّ للإنسان البغض والعداوة، فإن الإحسان والصدقة إليهم تستجلب مودتهم وتمحو عداوتهم.

المادة الرابعة: الإحسان إلى اليتامى:

﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ وهم من كانوا دون سن البلوغ ممن مات آباؤهم وهم فقراء، ليس عندهم ميراث ولا معاش يكفيهم، ويكون ذلك الإحسان برعايتهم وكفالتهم وحسن تربيتهم وتعليمهم؛ حتى يمكنهم الكسب والعمل، ومن يبلُغ منهم سِنَّ الحُلم لا يقال له يتيمًا.

عن قيس بن سعد عن يزيد بن هرمز أن نجدة كتب إلى ابن عباس رضي الله عنهما يسأله عن سهم ذي القربى، لمن هو؟ وعن اليتيم، متى ينقضي يُتمه؟ وعن المرأة والعبد يشهدان الغنيمة؟ وعن قتل أطفال المشركين؟ فقال ابن عباس: لولا أن أرده عن شيء يقع فيه ما أجبته، وكتب إليه: إنك كتبت إليَّ تسألني عن سهم ذي القربى، لمن هو؟ وإنا كنا نراها لقرابة رسول الله ﷺ فأبى ذلك علينا قومنا، وعن اليتيم متى ينقضي يُتمه؟ قال: إذا احتلم، أو أُونس منه خيرٌ، وعن المرأة والعبد يشهدان الغنيمة، فلا شيء لهما، ولكن يحذيان ويعطيان، وعن قتل أطفال المشركين، فإن رسول الله ﷺ لم يقتلهم، وأنت فلا تقتلهم، إلا أن تعلم منهم ما علم الخضر من الغلام حين قتله[1]. **فهذه أربعة أسئلة:**

أولها: أن يُتْمَ اليتيم ينتهي إذا بلغ سن الحلم أو آنس منه الرُّشد.

وثانيها: أن سهم ذوي القربى من الغنائم والفيء لقرابة رسول الله ﷺ.

وثالثها: أن العبد والمرأة ليس لهما حقٌّ واجب في الغنيمة، ولكن إذا حضراها يُعْطَيَا

---

(١) صححه أحمد شاكر في «المسند» برقم (٢٦٨٥) وإسناده صحيح على شرط مسلم كما قال محققوه، وانظر ٢٢٣٥ وصححه الألباني في «إرواء الغليل» على شرط مسلم (٥/ ٨٢). وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٥٣) وانظر صحيح مسلم (١٨١٢).

شيئًا تطييبًا لخاطرهم كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾﴾ [النساء].

ورابعها: أن أطفال المشركين دماءهم معصومةٌ ومُصانة في الإسلام.

المادة الخامسة: الإحسان إلى المساكين:

﴿وَٱلْمَسَٰكِينُ﴾ وهم الذين لا يجدون ما يكفي لسدِّ فاقتهم وستر عورتهم، وكانوا معتدلين في الإنفاق بمستوى الفقير، غير مبذِّرين للمال في وجوه مكروهة أو محرَّمة أو في الترف والكماليات وهم من أهل الزكاة والصدقة.

المادة السادسة: مخاطبة الناس بالكلام الطيب الحسن الجميل:

﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ أي: قولوا لجميع الناس قولًا حسنًا وكلامًا طيبًا وعاملوهم معاملة حسنة، كل بما يناسب حاله، فمن احتاج إلى المال أو المساعدة فساعدوه، والكلمة الطيبة صدقة وإن كان الطرف المقابل فظًّا غليظًا: قال تعالى ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥٣]

ومن القول الحسن: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم العلم، وبذل السلام، وطلاقة الوجه، والرد الجميل، ومقابلة السيئة بالإحسان.

ولما كان الإنسان لا يسع الناس بما له، أمره الله تعالى بالإحسان إليهم في القول، وفيه نهي لهم عن الكلام الفاحش البذيء، فلا يشتم ولا يسب ولا يخاصم، بل يكون حسن الخلق، وواسع الحلم، صبورًا على ما يناله من أذى.

المادة السابعة: المحافظة على أداء الصلاة في أوقاتها مع الجماعة:

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أدُّوها تامَّة في مواقيتها ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]

والمراد: تمام الركوع والخشوع والتلاوة فيها مع المداومة عليها في أوقاتها والمحافظة على أركانها وشروطها وآدابها، حتى تؤدي به إلى الانتهاء عن الفحشاء والمنكر.

وهكذا أرشدهم إلى العبادات التي تُحسن الصلة بينهم وبين الخالق والمخلوق، فأمرهم بالصلاة والزكاة.

المادة الثامنة: إخراج الزكاةِ المفروضة عليهم لمستحقيها:

﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وكانت الزكاة المقبولة عند اليهود تنزل نارٌ من السماء فتحملها، فأمروا بإخراج الزكاة، وأداء صدقة التطوع فإنها طهارة للمال وتزكية للنفس.

وبعد ذكر هذه التكاليف الثمانية بيَّن ﷻ شأن اليهود في النقض المستمر للعهود والمواثيق بعد التعقيب على ما جاء في هذه الآية ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: أعرضتم ولم تعملوا بما أُمرتم به فأشركتم بالله، وعققتم الوالدين، وأسأتم إلى الأقارب واليتامى والمساكين وقلتم للناس أفحَش الأقوال، وتركتم الصلاة، ومنعتم الزكاة، وقطعتم ما أمر الله به أن يوصل ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾ ممن حافظ على العهد وظل متبعا للحق حتى توفاه الله على ذلك أو أدرك الحق الذي جاء به محمد فآمن به وصدقه كعبد الله بن سلام، ﴿وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ مستمرون في هذا التولي، فهو وصفٌ ثابتٌ لكم، لأن من يتولى قد يكون له نية الرجوع، وهؤلاء ليس لهم رغبة ولا نية رجوع، ولذا وصفهم الله تعالى بالإعراض بعد التولى.

المَادَّةُ التَّاسِعَةُ: أَخْذُ الْعَهْدِ الْمُؤَكَّدِ عَلَيْهِمْ أَلَّا يَسْفِكَ بَعْضُهُمْ دَمَ بَعْضٍ

٨٤- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾

أي: وأخذنا عليكم العهد المؤكَّد أن لا يقتل أحدُكم أحدا دون حدٍّ ولا قصاصٍ، وقد كان هذا يحدث وقت تنزل الوحي بالمدينة، وذلك أن الأوس والخزرج كانا بينهما قتال قبل الإسلام، فلما نزل الوحي، وكان في المدينة فرق اليهود الثلاث، حالفت كل فرقة منهم فريقًا من الأوس والخزرج، فإذا حدث بينهما قتال، استعان كل حليف بحليفه من اليهود، فكان اليهودي يقتل اليهودي، ويخرجه من داره، فإذا وضعت الحرب أوزارها، وكان بينهما أسرى، فدَى بعضهم بعضًا، وكان الله قد أخذ عليهم الميثاق ألا يقتل بعضهم بعضا، ولا يخرج بعضهم بعضًا من داره، وإذا وجده أسيرا وجب عليه فداؤه، فعملوا بالأخير وتركوا ما قبله، فوبخهم الله تعالى على إيمانهم ببعض الكتاب، وهو فداء الأسير، وكفرهم ببعض، وهو القتل والإخراج، وكانت قريظة والنضير حلفاء الأوس، وبنو قينقاع حلفاء الخزرج، وكل منهما يقاتل مع حليفه.

المادة العاشرة: ألا يُخرج بعضهم بعضًا من داره:

وألا يتسببوا في إخراج أنفسهم من ديارهم، فإن اليهودي حين يقتل اليهودي أو يخرجه من داره، فكأنما قتل نفسه أو أخرجها من داره، ولذا عبر الله تعالى بالنفس دون الآخر، فقال: ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ﴾ أي: لا يعتدي بعضهم على بعض فيخرجه من داره أو يجليه من وطنه، فقد أخذ الله عليكم - أيها اليهود - العهد بلزوم الميثاق والعمل بهذه التكاليف العشرة، فاعترفتم وأقررتم بها وأنتم تشهدون على أنفسكم بلزوم اتباعها والعمل بها.

وفي الآية توبيخٌ لليهود السابقين والحاليين واللاحقين على تضييع أحكام التوراة التي كانوا يقرون بها ويشهدون على ما فيها من العهود والمواثيق، وإن كان الخطاب موجها ليهود المدينة في عصر النبوة إلا أنه عام في اليهود في كل زمان ومكان.

ومجمل بنود هذا الميثاق: أن يعبدوا الله وحده ، وأن يحسنوا إلى الآباء والأمهات، ويصلوا الأرحام، ويعطفوا على الأيتام، ويؤدوا حقوق المساكين، ويحثُّوا الناس على الخير، ويؤدوا الصلاة بفروضها وحدودها، ويخرجوا زكاة أموالهم، وألا يسفكوا دماء بعضهم ولا يخرج بعضهم بعضًا من داره، وهذا مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر، فهل وفَّى اليهود بهذه العهود والمواثيق؟ هذا ما تشير إليه الآية التالية:

الْمُخَالَفَةُ الثَّامِنَةُ: أَرْبَعَةُ أَمْثِلَةٍ لِنَقْضِ الْيَهُودِ عُهُودَهُمْ:

٨٥- ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ تَظَـٰهَرُونَ[١] عَلَيْهِم[٢] بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ[٣]

---

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي وخلف العاشر (تظاهرون) بتخفيف الظاء، على أن أصلها تتظاهرون، فحذفت إحدى التاءين، وقرأ الباقون (تظّاهرون) بالتشديد على إدغام التاء في الظاء.

(٢) ضم الهاء من (عليهم) حمزة ويعقوب وكسرها الباقون.

(٣) قرأ حمزة (أسرى) جمع أسير، وقرأ الباقون (أسارى) جمع أسرى، فيكون جمعا للجمع.

تُفَـٰدُوهُمْ(١) وَهُوَ(٢) مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ(٣) ﴿٨٥﴾﴾

إن اليهود لم يقوموا بشيء من هذه المواثيق السابق ذكرها بل نقضوها، ولم يعملوا بها، وفي هذه الآية بيانٌ لنبذهم للمواثيق التي أخذها عليهم ربُّ العالمين، ولم ينفّذوا منها إلا ما وافق هواهم، فآمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض.

قال السُّدي: أخذ الله عليهم أربعة عهود: ترك القتل لبعضهم، وترك الإخراج لأحد من داره، وترك المظاهرة، أي: ترك التعاون والتناصر عليهم بالإثم والعدوان، وفداء الأسير، فأعرضوا عن كل ما أُمروا به إلا الفداء، فاستباحوا -ضمن ما استباحوا- سفك الدماء، وعملوا بما فرض عليهم من فداء الأسرى، فآمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض.
هذا: وقد ذكرت الآية أربع حالات فيها إيمان ببعض الكتاب دون بعض:

أولًا: قتل اليهودي لليهودي الآخر المتحالف مع قبيلة أخرى:

ذلكم قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ﴾ يا ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ بعد أخذ الميثاق عليكم، يقتل بعضكم بعضًا حين يقاتل مع حلفائه، فيقتل اليهودي المقاتل له مع قبيلة أخرى، هذه واحدة.

ثانيا: فإن بعضكم يُخرج بعضًا من داره، وقد مُنعتم من ذلك ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ﴾، وحين تخرجون إخوانكم اليهود من ديارهم فكأنما أخرجتم أنفسكم.

ثالثا: فإن كل فريق منكم يتعاون مع الأعداء على إخوانه ويتقوَّى بهم عليه ظلمًا وبغيًا وعدوانًا.

وهذا معنى: ﴿تَظَـٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ أي: يساند بعضكم بعضًا ويتخذونهم حلفاء يتعاونون معهم على إخراجهم بالإثم والعدوان، وأنتم في هذه البنود الثلاثة مخالفون للعهد والميثاق الذي أُخذ عليكم.

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحمزة وخلف العاشر (تفدوهم) بفتح التاء وسكون الفاء من فدَى وقرأ الباقون (تفادوهم) من باب المفاعلة.

(٢) سكن الهاء من (وهو) قالون وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر، وضمها الباقون.

(٣) قرأ نافع وابن كثير وشعبة ويعقوب وخلف العاشر (يعملون) بياء الغيبة، لمناسبة (يردون إلى أشد العذاب) وقرأ الباقون بتاء الخطاب، لمناسبة (وإذ أخذنا ميثاقكم).

رابعًا: التعاون على فك الأسرى من اليهود:

﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ﴾ أي أن اليهود يتعاونون على فك أسراهم ويخالفون في قتل قتل بعضهم بعضا وإخراجهم من ديارهم، وهذا مخالف للميثاق الذي أخذه الله عليهم، فلماذا تُنفِّذون واحدة -وهي فداء الأسير- وتخالفون في ثلاث: وهي سفك الدماء، وإخراجهم من ديارهم، والتعاون عليهم بالإثم والعدوان؟!﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾.

وقد كانت قُريظة والنضير حلفاء الأوس، وبنو قينقاع حلفاء الخزرج، وكلٌّ منهما يُقاتل مع حليفه ويُناصره، فقتل اليهود بعضهم بعضًا، مفاخرة للأوس والخزرج، فإذا غلب أحد الفريقين أخرجوه من داره بعد تخريبها، وإن جاء أسير من الفريقين جمعوا له مالًا وأفدوه، فعيَّرتْهم العرب قائلين: فكيف تفدوهم من يد غيركم، وأنتم تقتلونهم بأيديكم مع الحلفاء، ما أقبح ما تفعلون فيجيبونهم: أُمرنا أن نعذِّبهم، وحُرِّم علينا قتالهم، فإنا نستحي أن يُستذَل حلفاؤنا[1].

يقول سبحانه: ﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ﴾ أي: ما عقوبة من ينقض هذا الميثاق إلا ذلٌّ وصغار وفضيحة في الدنيا، وفي هذا ذمٌّ لليهود؛ لأنهم يعتقدون صحة التوراة ويخالفون شرعها، وأنتم يا معشر يهود، أهل كتاب، والأوس والخزرج وَثَنيون لا يعرفون جنة ولا نارًا ولا حلالًا ولا حرامًا، فكيف تكونون مثلهم، فتتعاونون وتتحالفون ضد أهل دينكم وملتكم؟ ابتغاء عرضٍ من الدنيا، مخالفين بذلك حكم الله في التوراة.

ومن المؤمنين في هذه الأمة من يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض، فينفذون أوامر الله تعالى في أمر العبادة كالصلاة والصيام والحج، ويعطِّلونه في حدود الله، ويعطلون منهج الله تعالى في التعليم والإعلام والموالاة، ويكتفون بإقامتها في الأحوال الشخصية،

---

(١) يُنْظَرُ: «سيرة ابن هشام» (١/ ٥٤٠) والطبري (٢/ ٣٠٢) وما بعدها وابن أبي حاتم (٨٥٤) وما بعده.

وها هم يَجْنُون ثمرة ذلك ذلًّا وفُرقة وضعفًا وخذلانًا في الحياة الدنيا، كما حدث لليهود حين فُرضت عليهم الجزية وأُخرجوا من ديارهم لأول الحشر، وقتل مقاتلة قريظة، وسبي ذراريهم، وهذا خزيهم في الدنيا، وكذلك من يصنع صنيعهم من المسلمين، فإنهم يذوقون الخزي ألوانًا من أعدائهم اليهود والصليبيين، ويسلِّط الله عليهم الحكّام الظلمة الجائرين.

أما عقاب الآخرة لمن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض فقد جاء في تتمة الآية ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ﴾ وأفظعه في نار جهنم ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بل هو سبحانه عالمٌ بدقائق أمورهم، محيطٌ بكل شؤونهم، وسوف يعاقبهم على أفعالهم وأقوالهم.

ثم بيّن سبحانه السبب الذي جعلهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض فقال:

٨٦- ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض هم ﴿ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي: باعوا نعيم الآخرة بحظوظ الدنيا، من حبِّ الرئاسة والمتاع فيها، وجعلوا الكفر ثمنًا له، وتركوا طاعة الله تعالى؛ وتوهّموا أنهم إن لم يُعينوا حلفاءهم حصل لهم عار، فاختاروا النار على العار، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ يوم القيامة بل هو باق على شدته، فلا يحصل لهم راحة في وقت من الأوقات ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ وليس لهم ناصرٌ ينصرهم من عذاب الله، وهم بذلك قد خسروا الدنيا فلن تبقى لهم، وخسروا الآخرة فعذابهم فيها سرمديٌّ، ولا يخفف عنهم منه ساعة، وليس هناك من يشفع لهم ويدفع عنهم عذاب الله تعالى ولا يجيرهم منه أحد يوم لقائه.

مُخَالَفَةُ الْيَهُودِ التَّاسِعَةُ: أَنَّهُم كَذَّبُوا رُسُلَ اللهِ وَقَتَلُوهُم

٨٧- ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ[1] ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾

يمن الله على اليهود أنْ أرسل إليهم موسى عليه السلام وآتاه التوراة، ثم تابع بعده بالرسل الذين يحكمون بالتوراة إلى أن ختمهم بعيسى عليه السلام، وقوّاه بجبريل، وبالإيمان الذي يؤيد الله

(١) قرأ ابن كثير بإسكان الدال من لفظ (القدس) للتخفيف، وهي لغة تميم، وقرأ غيره بالضم وهي لغة أهل الحجاز.

به عباده، ولكن اليهود كذبوا فريقًا منهم وقتلوا فريقًا لمّا لم يأتوهم بما يوافق أهواءهم.

لقد حرَّف اليهود التوراة وبدَّلوها، ولم يعملوا بما فيها، وأرسل الله لهم رسلًا تترى بعد موسى ﷺ يَحْكمُون بشريعته، فكذَّبوهم وآذوهم وحسدوهم واشتد عنادهم لهم، ومنهم عيسى ﷺ فقد كذَّبوه وهموا بقتله، وكذَّبوا محمدًا ﷺ وهمُّوا بقتله.

ولو أن حكام المسلمين وعلماءهم قاموا -في الوقت الحاضر- بما أوجب الله تعالى عليهم، من دعوة جميع أمم الأرض وشعوبهم إلى الدخول في الإسلام على مختلف لغاتهم ولهجاتهم؛ فإن الأمر بالنسبة لليهود لن يختلف عما أجابوا به رسول الله ﷺ من الكفر والتكذيب مما سجَّله القرآن الكريم عليهم وهو يوضِّح إعراضهم وامتناعهم من الدخول في الإسلام، ويبين مواقفهم تجاه رسل الله وأنبيائه جميعًا من التكذيب لهم، والكفر بهم، وقتلهم أحيانًا.

وفي هذه الآية يوبِّخ الله تعالى اليهود؛ لأنهم خالفوا أمر التوراة وحرَّفوها، وكذَّبوا مَن جاء بعْدَ موسى من الرسل ومنهم عيسى عليه السلام مع تأييده بالمعجزات، وكلما جاءهم رسول لا يوافق أهواءهم كذَّبوه أو قتلوه.

يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ﴾ أي أتبعنا بعضهم بعضًا، على منهاج واحد، وشريعة واحدة، فكان منهم: داود وسليمان وإلياس واليسع ويونس وزكريا ويحيى عليهم السلام، إلى أن كانت رسالة عيسى عليه السلام حيث أنزل الله عليه الإنجيل وأيده بالمعجزات الباهرات، ثم ختم الله الرسالات بمحمد ﷺ ولكن الكفر برسل الله جميعًا ظلَّ ملازمًا لليهود وذلك أنهم كانوا يقولون للنبي ﷺ: يكفينا ما أنزل الله علينا من الكتب، وما أُرسل فينا من الرسل، فنحن ماضون على شريعة الرسل السابقين، ومتَّبِعون لمنهجهم.

والله تعالى يلقن رسوله الجواب، فيبين سبحانه أنه قد أرسل فيهم رسولهم موسى عليه السلام، وأنزل عليه التوراة، فغيَّروها وحرَّفوها وبدَّلوها، ثم أرسل في بني إسرائيل رُسُلًا كثيرين يتبع بعضهم بعضًا كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ [المؤمنون: ٤٤] وهؤلاء الرسل جميعًا، كانوا يحكمون بالتوراة، وبشريعة موسى عليه السلام كما قال تعالى ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟

مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَۚ﴾ [المائدة: ٤٤] فالأنبياء في بني إسرائيل بعد موسى كانوا يَحْكُمُون بما في التوراة، ويعتمدون عليها في تشريعاتهم، ويدعون الناس إليها وإلى العمل بما فيها، وهم كعلماء أمة محمد ﷺ كلهم يدْعُون إلى التمسُّك بالقرآن، وإلى الإيمان بالنبي الخاتم، والعمل بسنته.

قال ابن عباس ﷺ في الآية: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراة جملة واحدة مُفصَّلة محكمة ﴿وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ﴾ وهم:

١- رسولا يُدْعى أشمويلَ بنَ بابل.
٢- ورسولًا يُدْعى منشائيل.
٣- ورسولًا يُدْعى شعْيا بن أمضيا.
٤- ورسولًا يُدْعى حِزْقيل.
٥- ورسولًا يُدْعى أرْميا بن حَلْقِيا، وهو الخضر.
٦- ورسولًا يُدعى داود بن إيشا وهو أبو سليمان.
٧- ورسولًا يُدْعى المسيح عيسى ابن مريم.

فهؤلاء الرسل ابتعثهم الله تعالى وانْتخبهم للأمة بعد موسى بن عمران، وأخذ عليهم ميثاقًا غليظًا أن يؤدوا إلى أمتهم صفة محمد ﷺ وصفة أُمته[1].

وأنبياء بني إسرائيل كانوا كثرة، حتى أنه ليوجد في الزمن الواحد، وفي المكان الواحد أكثر من رسول أو نبي مثل: أرميا وشمعون وحزقيل ويوشع، وداود وسليمان، وعزير وإلياس واليسع ويحيى وزكريا، وخاتمهم عيسى عليهم جميعًا أفضل الصلاة وأتم التسليم.

ولما كان عيسى ﷺ هو آخر نبي في بني إسرائيل، وكانت شريعته مبْنية على شريعة موسى ﷺ غالبًا، فقد أنزل الله على عيسى الإنجيل من باب التيسير ورفع الحرج والمشقة التي عُوقب بها اليهود، فحرَّمت عليهم ما أحلَّ الله ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠] ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْۚ﴾ [آل عمران: ٥٠] فبعض ما حرَّم على اليهود أحلَّه الله للنصارى.

وقد أيَّد الله سبحانه عيسى بالمعجزات الدَّالة على صدقه ونبوته فقال: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: أن الله تعالى أيده بالمعجزات، ومن هذه المعجزات أنه كان:

---

(١) أخرجه ابن عساكر (٨/ ٣٣).

يخلُق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله، ويبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله، ويخبرهم بما في بيوتهم مما يأكلون ويدخرون.

وأيَّد الله عيسى بجبريل، كما قال تعالى له: ﴿إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ﴾ [المائدة: ١١٠] حيث كان عيسى نفخة من روح الله نفخها جبريل في جيب درع مريم، فلم يتدنس عليه السلام برحم امرأة ملطخ بالدم، ولم يكن محمولًا في صُلب أب من الآباء، ولذلك يقول سبحانه: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ أي: قويناه بالروح المقدسة الطاهرة، وهو جبريل، وسُمي جبريل روحًا لأنه يأتي بالوحي، وفيه حياة القلوب.

وكان جبريل ملازمًا لعيسى عليهما السلام حتى صعوده إلى السماء، وروح القدس هو جبريل كما نصَّ عليه ابن مسعود وابن عباس وقتادة وغيرهم في تفسير قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء].

ولما وضع النبي ﷺ منبرًا لحسان بن ثابت في المسجد قال ﷺ فيما يرويه أبو هريرة وعائشة رضي الله عنهما: **«اللهم أيد حسان بروح القدس كما نافح عن نبيك»**[(١)].

وفي الصحيحين أن عمر بن الخطاب مرَّ بحسان وهو ينشد الشعر في المسجد، فالتفت عمر إلى أبي هريرة وقال: أنشدك الله، أسمعت رسول الله ﷺ يقول: **«أجب عني، اللهم أيده بروح القدس»**؟ فقال: اللهم نعم[(٢)].

وفي حديث عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إن روح القدس نفث في رُوعي أنه لن تموت نفسٌ حتى تستوفي رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجمِلُوا في الطلب»**[(٣)].

---

(١) رواه النجار تعليقًا كما في «تحفة الأشراف» (١٢/ ١٠) ورقمه في البخاري (٣٥٣١، ٤١٤٥، ٤١٤٦، ٦١٥٠) وأبي داود (٥٠١٥) والترمذي (٢٨٤٦) وابن سعد (٥/ ١٥٧) و«المسند» (٢٤٤٣٧)، وهو حديث صحيح لغيره، وأخرجه الطبراني في الكبير (٣٥٨٠) وأبو يعلي (٤٥٩١) وانظر صحيح مسلم (٢٤٩٠).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٤٥٣، ٣٢١٢، ٦١٥٢) و«صحيح مسلم» برقم (٢٤٨٥).

(٣) رواه البغوي في «شرح السنة» (١٤/ ٣٠٤) والسيوطي في «الدر المنثور» (١/ ٤٦٠). وصححه الألباني عن أبي أمامة كما في صحيح الجامع (٢٠٨٥) وهو في التمهيد لابن عبد البر (١/ ٢٨٤) وفي صحيح ابن حبان.

فماذا كان موقف بني إسرائيل تجاه سلسلة الأنبياء والمرسلين جميعًا، ممن أُرسلوا فيهم؟ يقول سبحانه: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ وأعرضتم عن اتباعه ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾أي: فريقًا كذبتم، كعيسى ومحمد وداود وسليمان، وفريقًا تقتلون كيحيى وزكريا وغيرهما من رسل الله.

وقد حاولوا قتل النبي ﷺ أكثر من مرة بالسُّم والسِّحر، وقال ﷺ في مرض موته: **«ما زالت أَكْلةُ خيبر تُعاودني، فهذا أوانُ انقطاع أبهري»**.

ففي رواية أنس رضي الله عنه أن يهودية أتت النبي ﷺ بشاة مسمومة فأكل منها، فجيء بها، فقيل: ألا نقتُلها؟ قال: **«لا»** فما زلت أعرفها في لَهَوات رسول الله ﷺ[1].

ترجمة عيسى وأمه: وعيسى عليه السلام: اسمٌ معرَّب، من يسُوع، أو يشُوع، ومعناه: السيد، أو المبارك، وقد وُلد عيسى في بيت لحم سنة ست مئة وعشرين قبل الهجرة، أثناء حكم الرومان، وكان حاكم القدس من قِبَل الرومان اسمه (هيردوس) وجاءته الرسالة في سنِّ الثلاثين، وبقي في الدنيا إلى سنِّ الثالثة والثلاثين.

أما مريم: فهو اسمٌ عبراني، وهي ابنة عمران، من سبط يهوذا، وَلدت عيسى وهي في الثالثة عشرة من عمرها، وكان أبوها قد مات قبل ولادتها فكفلها زكريا زوج خالتها، وكان كاهنًا من أحبار اليهود.

الْمُخَالَفَةُ العَاشِرَةُ: كُفْرُ اليَهُودِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ بَعْدَ الإيمَانِ بِهِ قَبْلَ البِعْثَةِ

٨٨- ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴿٨٨﴾﴾

اعتذر اليهود عن الإيمان بما جاءت به الرسل، بأن قلوبهم مقفلة، لا تفقه ما يقوله محمد ﷺ، وقد بيّن الله سبحانه أنهم كذَبة، حيث طردهم من رحمته ولعنهم بسبب كفرهم، وأخبر أنهم يكفرون أكثر مما يؤمنون.

فهذه الآية تبين موقف اليهود تجاه دعوة محمد ﷺ، وبماذا أجابوا دعوته، وقالوا له: قلوبنا غلف، لا ينفذ إليها ما تقول، فهي مطموسة، مقفلة أو مغلقة، أو أنها لا تقبل دعوة

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري برقم (٢٦١٧، ٤٤٢٨) و«صحيح مسلم» برقم (٢١٩٠).

أخرى، ولا تقبل رسولًا آخر بعد موسى عليه السلام، ولا كتابًا آخر، غير التوراة، أي: أن قلوبهم مليئة بالعلم، فهي لا تتسع إلى شيء آخر، ولا تؤمن بغير ما جاء به موسى عليه السلام ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ أي: قالوا لخاتم الرسل ﷺ: قلوبنا مغطاة لا ينفذ فيها قولك، وليس الأمر كما ادَّعَوْا، بل قلوبهم مطبوعٌ عليها، فهي لا تقبل هدى ولا إيمانًا، بسبب أنهم كفروا ابتداء، فلعنهم الله بسبب كفرهم وجحودهم كما أن إيمانهم بموسى قليل، وليس إيمانًا كاملًا، ولا يدخل في الإسلام منهُم إلا قليلٌ، وهذا معنى: ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ وهذا كقوله تعالى عنهم: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥] وقوله سبحانه عن مشركي هذه الأمة: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ﴾ أي: أغطية وأوعية ﴿مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت: ٥] وهكذا: فاليهود يؤمنون ببعض التوراة ويكفرون ببعض، ويكفرون بعيسى ومحمد، وإن آمنوا فإيمانهم قليل. قال تعالى:

٨٩- ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ (٨٩)﴾

وحين جاء اليهود كتاب من عند الله على يد أفضل الخلق مصدق لما في التوراة، وكانوا إذا تقاتلوا مع المشركين الوثنيين في الجاهلية توعّدوهم بخروجه وقتاله المشركين معهم، فلما بُعث محمد ﷺ كفروا به حسدًا وبغيًا وخالفوا ما قطعوه على أنفسهم من الإيمان والاستنصار به.

فهذه الآية تبين كفر اليهود بمحمد ﷺ بعد الإيمان به قبل بعثته، وذلك أنهم كانوا قبل مجيئه ﷺ يقولون للمشركين من الأوس والخزرج إذا تقاتلوا معهم: لقد أظلَّنا النبي الخاتم، أظلَّنا زمانه، فهو سيأتي في هذه الحقبة من الزمن، فإن أتى هذا النبي الخاتم فإنا سننصره، وسنكون معه عليكم، ونقاتلكم به، ونكون أول من يؤمن به ويفتح عليه، وهذا معنى قول الله سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ﴾ أي: حين جاء اليهود ﴿كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ هو القرآن ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ من التوراة ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يستنصرون ببعثة محمد على المشركين الوثنيين ويقولون نحن سنقاتلكم معه، فهم خاتم النبيين كما تقول التوراة ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟﴾ وهو محمدٌ وكتابُه وعرفوه بصفاته وصِدقه ﴿كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ وكذَّبوه.

وفي الآية الأخرى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠١] هو محمد ﷺ والكتابُ هو القرآن، وهو مصدِقٌ للتوراة التي معهم، وكانوا قبل مجيء هذا النبي وهذا القرآن يقولون لمشركي العرب: إننا أول من سيفتح على محمد ويؤمن به؛ لأننا نعرفه كما نعرف أبناءنا من أوصافه وعلاماته في التوراة، لقد علموا أنه من العرب، وأن الرسالة قد خرجت من بني إسرائيل إلى يوم القيامة، لذلك فقد ﴿كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ حسدًا له وحقدًا على خروج الرسالة من سلالتهم ﴿فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: عليهم وعلى أمثالهم.

قال أبوالعالية: كانت اليهود تستنصر بمحمد ﷺ على مشركي العرب، يقولون لهم: اللهم ابْعث هذا النبي الذي نجده مكتوبًا عندنا حتى نُعذِّب المشركين ونقتلهم، فلمَّا بعث الله محمدًا ﷺ ورأوا أنه من غيرهم كفروا به حسدًا للعرب وهم يعلمون أنه رسول الله(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن يهودَ كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مَبعثه، فلمَّا بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه: فقال لهم مُعاذ بن جبل، وبِشر بن البراء بن معرور: يا معشر اليهود: اتقوا الله، وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك، وتخبروننا أنه مبعوث، وتصفونه لنا بصفته، فقال سَلَام بن مِشْكَم: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم! فأنزل الله الآية(٢).

وقال قتادة: لمَّا بعث الله محمدًا، فرأوه أنه قد بُعث من غيرهم كفروا به؛ حسدًا للعرب، وهم يعلمون أنه رسول الله، يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة(٣).

أخرج الإمام أحمد وغيره بسنده عن سلمة بن سلامة بن وَقْش -وكان من أصحاب بدر- أنه كان لهم جارٌ يهوديٌّ من عبد الأشهل، وذلك قبل مبعث النبي ﷺ فخرج على مجلس قومه، وذكر لهم القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار، فقال له المشركون -وهم لا يؤمنون بشيء مما قاله-: ويحك يا فلان، أيُبعث الناس بعد موتهم

(١) ابن كثير في تفسير الآية، والطبري برقم (١٥٢٦).

(٢) «سيرة ابن هشام» (٢/ ١٩٦) و«تفسير الطبري» برقم (١٥٢٠) من طريق سعيد بن جبير أو عكرمة وهو في ابن أبي حاتم (٩٠٥) وأبو نعيم في «الدلائل» (٤٣).

(٣) «تفسير الطبري» (١٥٤١).

إلى دار فيها جنة ونار؟ قال: نعم، وأقسم أنه لو وُضع في أعظم تنُّور في الدنيا، وأُطبق عليه؛ لينجو من عذاب النار غدًا لكان أهونَ عليه، فسألوه: وما علامة ذلك؟ قال: نبيٌّ يبعث من هذه البلاد، وأشار بيده نحو مكة واليمن، قالوا: ومتى نراه؟ قال سلمة -وكان أصغر القوم-: فنظر اليهودي إليَّ وقال: إن يستنفد هذا الغلام عمره يدركه، قال سلمة: فوالله ما ذهب الليلُ والنهار حتى بعث الله محمدًا ﷺ واليهوديُّ حَيٌّ بين أظهرنا، فآمنا به، وكفر اليهوديُّ حسدًا له، فقلنا له: ويلك يا فلان، ألست بالذي قلت لنا ما قلت؟ قال: بلى، وليس هو[١].

وأخرج الطبري بسند حسن عن قتادة أن اليهود كانوا يقولون لكفار العرب: اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده في التوراة يعذِّبهم ويقتلهم! فلما بُعث محمدٌ من غيرهم كفروا به حسدًا للعرب، وهم يعلمون أنه رسول الله[٢].

ذَمُّ القُرْآنِ لِلْيَهُودِ عَلَى اسْتِبْدَالِهِم الْإِيمَانَ بِالْكُفْرِ

٩٠- ﴿بِئْسَمَا[٣] اشْتَرَوْا بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ[٤] ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾

ثم ذمَّهم القرآن الكريم، وقبَّح استبدالهم الإيمان بالكفر بسبب الحسد، فقبَّح ما اختاره بنو إسرائيل لأنفسهم، حين استبدلوا الإيمان بالكفر، حسدًا منهم لنزول الوحي على محمد ﷺ فاستوجبوا بذلك غضب الله عليهم مرتين: مرة لتحريفهم التوراة، ومرة لجحودهم نبوة محمد ﷺ كما قال تعالى: ﴿بَغْيًا﴾ أي: حسدًا من عند أنفسهم، بعدما

---

(١) انظر الحديث بتمامه في «المسند»: (٣/ ٤٦٧) برقم (١٥٨٤١) قال محققوه: إسناده حسن، وأخرجه الطبراني (٦٣٢٧) فقد ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٣٠) ونسبه إلى الطبراني وأحمد وقال: رجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرَّح بالسماع، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي في «المستدرك» (٣/ ٤١٧) وأخرجه أبو نعيم برقم (٣٤) والبيهقي كما في «الدر المنثور» (٢/ ٧٨).

(٢) الطبري (٢/ ٢٣٩).

(٣) قرأ ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال الهمزة ياء وصلًا ووقفًا وكذا حمزة عند الوقف، وحققها ساكنة الباقون.

(٤) قرأ ابن كثير وأبو عمرو (أن يُنْزِل) بتخفيف الزاي، مضارع أنزل، وقرأ الباقون بتشديد الزاي، مضارع نزّل.

تبين لهم الحق، فسببُ كفرهم به هو الحسدُ حيث انتقلت الرسالة من بني إسرائيل إلى العرب، فالحسد بسبب ﴿أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ﴾ وكيف خرجت الرسالة من سلالة بني إسرائيل إلى سلالة إسماعيل من العرب؟

والله تعالى يَمُنُّ من فضله على من يشاء من عباده ﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ﴾ [النساء: ٥٤]

قال سبحانه ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ﴾ أي: عاقبهم الله بغضبين:

الغضب الأول: بسبب عبادتهم للعجل من دون الله، وعدم إيمانهم بعيسى عليه السلام وبالإنجيل، وتحريفهم للتوراة.

والغضب الثاني: بسبب عدم إيمانهم بمحمد ﷺ وبالقرآن ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ يُذلهم ويُخزيهم.

ومنشأ هذا الحسد هو الكبر، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**يُحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذرِّ في صور الناس يعلوهم كل شيء من الصغار حتى يدخلوا سجنًا في جهنم يقال له: بُولَس، تعلوهم نارُ الأنيار، يُسقون من طينة الخبال؛ عصارة أهل النار**»[1].

الْمُخَالَفَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: التَّعَصُّبُ الدِّينِيُّ عِنْدَ الْيَهُودِ

٩١- ﴿وَإِذَا قِيلَ[2] لَهُمۡ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٢/١٧٩) برقم (٥٩٧٣) والبخاري (٢٢١٥، ٥٩٧٤) وغيرهما وفي مسلم (٢٧٤٣) وأبو داود (٣٣٨٧) وابن حبان (٨٩٧) والترمذي برقم (٤٢٩٢) وقال: حديث حسن صحيح، وذكره الألباني في صحيح «الجامع الصغير» (٦/٣٢٧).

(٢) قرأ هشام والكسائي ورويس بإشمام كسرة القاف من (قيل) الضمة والباقون بالكسرة الخالصة.

وَهُوَ[(١)] ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ قُلۡ فَلِمَ[(٢)] تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ[(٣)] ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾

أي: وإذا أُمراليهود بالإيمان بمحمد، قالوا: نحن نؤمن بما أنزل علينا ونكفر بغيره، مع أن القرآن هو الحق في جميع ما اشتمل عليه، وهو يوافق التوراة التي بين أيديهم، فهو حجة لهم على صدقها، على أن وحي السماء واحد، والتفريق بين رسل الله كفر، والكفر بالقرآن كفر بما سواه.

وفي موقف ثالث تجاه دعوة بني إسرائيل للإيمان بالقرآن والرسول، أن المسلمين إذا قالوا لليهود المعاصرين للنبي ﷺ: صدِّقوا بما أنزل الله على محمد، قالوا: نحن نؤمن بما أُنزل على نبينا موسى، ولا نؤمن بغيره، يقولون: نحن نكتفي بما أنزل الله علينا ونؤمن بالتوراة، ويقول النَّصَارَى: نحن نؤمن بالإنجيل، ونكفر بما سوى ذلك أي، ونجحد ما عداه ﴿وَيَكۡفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ﴾ فردَّ الله عليهم مقالتهم بأمرين:

الأول: أن من يكفر بالقرآن فقد كفر بالتوراة؛ لأنه الحق المطابق للواقع الموافق للتوراة، فهو ﴿ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَهُمۡۗ﴾ أي: مع أن القرآن يصدِّق التوراة التي بين أيديهم.

الأمر الثاني: إن كنتم مؤمنين بما أنزل عليكم ﴿فَلِمَ تَقۡتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبۡلُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم كما تزعمون أنكم تؤمنون بكتب الله كالتوراة والإنجيل وبرسل الله كموسى وعيسى عليهما السلام فلم قتلْتم أيها اليهود أنبياء الله كيحيى وزكريا؟! وقد حرَّم الله عليكم قتلهم في الكتاب الذي أنزل عليكم، وأمركم باتباعهم وطاعتهم، ولمَ كذَّبتم نبيكم الأكبر، مُنقذكم من هلاك فرعون، وهو موسى عليه السلام؟!

الْمُخَالَفَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: عِبَادَةُ الْيَهُودِ لِلْعِجْلِ الذَّهَبِيِّ

٩٢- ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾

ثم إن كنتم - يامعشر يهود - تؤمنون بموسى عليه السلام، فَلِمَ عبدتم العجل؟ وقد

(١) سكن الهاء من (وهو) قالون وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر وضمها الباقون.

(٢) وقف البزي بهاء السكت على (فلم) بخلف عنه ويعقوب بلا خلاف.

(٣) قرأ نافع (أنبيئاء الله) بالهمزة قبل الألف، والباقون بالياء.

جاءكم موسى بالمعجزات والبراهين الساطعة -كالعصا واليد والطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم وفرْق البحر وتظليل الغمام والمنِّ والسلوى ونتق الجبل وانبثاق الحجر، وغير ذلك من الآيات الدالة على صدق رسالته- فلمَ اتخذتم العجل معبودًا من دون الله؟ وأُشْربتم حُبهُ في قلوبكم بسبب كفركم، ولِمَ لَمْ تؤمنوا بالتوراة حتى رفع الله فوقكم جبل الطور، فكان كالظُّلة فوق رؤوسكم يخوِّفكم ويهددكم حتى آمنتم بها؟ ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: من بعد ذهابه إلى ميقات ربه ﴿وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ متجاوزون حدود الله.

وجاء الحديث مفصلًا عن عبادة العجل في سورة الأعراف، من الآية: ١٤٨- ١٥٢ وفي سورة طه في الآية: ٩١ مع ما قبلها وما بعدها.

المُخَالَفَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: تَرْكُ اليَهُودِ العَمَلَ بِمَا فِي التَّوْرَاةِ

٩٣- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ[1] ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم[2] بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾

أشارت آيةُ الميثاق الأول إلى أن رفع جبل الطور فوق رؤوس اليهود كان بسبب عدم قبولهم للتوراة أصلًا ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [البقرة: ٦٣].

وأضافت هذه الآية إعلانهم العصيان وعدم العمل بما فيها؛ لأن قلوبهم قد أعماها حبُّ عبادة العجل.

فاذكروا - يا بني إسرائيل - حين أخذنا عليكم العهد المؤكَّد بقبول ما جاء به موسى في

---

(١) قرأ أبو عمر ويعقوب (في قلوبهم العجل) بكسر الهاء والميم وصلًا وحمزة والكسائي بضمهما وصلًا، ومعهما خلف العاشر.

(٢) قرأ أبو عمرو بإسكان الراء واختلاس حركتها، وذلك من (يأمركم) بإعطائها ثلثي الحركة، والباقون بالضم الكامل، و معهم الدوري عن أبي عمرو، فَلِلدُّوري ثلاثة أوجه فيها هي: الإسكان، والاختلاس، وإتمام حركة الضم فيها.

التوراة فنقضتم العهد، ورفعنا فوقكم جبل الطور، وقلنا: خذوا ما آتيناكم بجد واسمعوا وأطيعوا وإلا أسقطنا عليكم الجبل فقلتم سمعنا وعصينا؛ لأن عبادة العجل قد امتزجت بقلوبكم لتماديكم في الكفر.

وذلك أن موسى عليه السلام لما أحرق العجل وذراه في اليمِّ لم يبقَ بحرٌ يجري يومئذ إلا وقع فيه منه شيء، ثم قال لهم موسى: اشربوا منه، فشربوا، فمن كان يحبه خرج على شاربيه الذهبُ. هذا قول السُّدي[1].

وأخرج ابن أبي حاتم عن علي ﷺ قال: عمد موسى إلى العجل، فوضع عليه المبارد، فبرَده بها وهو على شاطئ نهر، فما شرب أحدٌ من ذلك الماء ممن كان يعبد العجل إلا اصفرَّ وجهه مثل (الذهب)، وبنحوه قال سعيد بن جُبير وغيره ﷺ[2].

فذلكم قوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ وأكبرُ ذنوبكم أيها اليهود بعد ذلك كفركم بخاتم النبيين وسيد المُرسلين المبعوث للخلق أجمعين، فكيف تدَّعون لأنفسكم الإيمان مع نقضكم المواثيق وعبادتكم العجل وكفركم بسيد المرسلين، وبدل أن تسمعوا وتطيعوا قلتم: سمعنا وعصينا، ولم تقبلوا أوامر الله ونواهيه إلا بعد التهديد ورفع الطور فوقكم، فإن كان هذا إيمانًا فبئس ما يأمركم به إيمانكم من الكفر والضلال، هذا إن كنتم مؤمنين ومصدِّقين بما أنزل الله عليكم؟!

المُخَالَفَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ: دَعْوَى اليَهُودِ حَقَّ الامْتِيَازِ عَلَى البَشَرِ

٩٤- ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾

في هذه الآية تصحيح لمزاعم اليهود، فهم يزعمون أن الآخرة لهم من دون الناس، وأن النارلن تمسهم إلا أيامًا معدودة، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، **فيا من** تدعون أنكم أهل الجنة، وأن الدار الآخرة خالصة لكم من دون الناس، وأنكم أبناء الله وأحباؤه، إن كان الأمر كذلك فتمنوا لقاء الله، وادْعُوا على أنفسكم بالموت، فإن الحبيب يَوَد لقاء حبيبه،

---

(١) يُنْظَر: «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٣٠).

(٢) «تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ٢٨٢).

أو ادْعوا بالموت على أي الفريقين أكذب؛ أنتم أم المسلمون، على وجه المباهلة، فليس لكم بعد هذا العناد إلا **أحد أمرين**:

إما أن تؤمنوا بالله ورسوله.

وإما أن تباهلوا على ما أنتم عليه، بتمنى الموت الذي يوصلكم إلى الدار الخالصة لكم من دون الله، فامتنَعوا من ذلك كله.

وسُميت المباهلة تمنيًا؛ لأن كل محقٍّ يودُّ لو أهلك الله المبطل المناظر له، كأنه قيل لهم: ادعْوا على الكاذبين، واعلموا أن الله سبحانه يُهلك الكاذب بالمباهلة.

﴿قُلْ﴾ يا محمد لليهود الذين يزعمون أن الجنة خاصة بهم؛ لأنهم أبناء الله وأحباؤه: ﴿إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: إن كان الأمر كذلك، فادعوا على الكاذبين منكم أو من غيركم بالموت ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فَمَنْ أيقن أنه من أهل الجنة اشتاق إليها، فادْعُوا على أنفسكم بالموت وتمنوه إن كنتم أبناءَ الله وأحباءَه.

وفي الأثر عن ابن عباس رضي الله عنهما: لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه[١].

صحَّ عن ابن عباس أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: «... **ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالًا ولا أهلًا**»[٢].

وقال ابن عباس ﷺ في ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: ادعوا بالموت على أي الفريقين أكذب، فأبوْا ذلك، ولو تمنوه يوم قالوا ذلك ما بقي على وجه الأرض يهوديٌّ إلا مات[٣].

---

(١) ابن أبي حاتم بسند صحيح برقم (٩٣٦) والطبري (٢/ ٢٦٨).

(٢) من حديث صحيح بأطول من هذا في «المسند» (٢٢٢٥) وأخرجه ابن جرير (٢/ ٣٦٢) و«تفسير عبد الرزاق» ص٤١ ورجاله ثقات وإسناده صحيح عن ابن عباس، يُنْظَر ابن أبي حاتم (٩٣٧، ٩٤٠) و«سيرة ابن هشام» (١/ ٥٤٢).

(٣) «سيرة ابن هشام» (١/ ٥٤٢) وابن أبي حاتم (١/ ١٧٧) (٩٣٧، ٩٤٠) والطبري (٢/ ٢٦٩).

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦﴾ [الجمعة]

وذكرت المباهلة في قصة عيسى عليه السلام مع وفد نصارى نجران في سورة آل عمران ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٦١﴾ [آل عمران].

المُحِبُّ يَتَمَنَّى لِقَاءَ حَبِيبِهِ

٩٥- ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ[١] وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٩٥﴾

ثم بيَّن سبحانه وتعالى أن اليهود لَن يتمنوا الموت أبدًا بسبب ما قدَّموه في حياتهم من كفرهم بالله، ولما يعرفونه من صدق النبي محمد ﷺ ومن كذبهم وافترائهم على الله تعالى بنسبة الشريك إليه، ومن الكفر بمحمد ﷺ وتحريفهم للتوراة وبسبب ما ارتكبوه من المعاصي لأنهم يعلمون أن الموت طريق للحساب والجزاء، فالموت أكره شيء إليهم، وهم أحرص على الحياة من كل الناس، حتى من المشركين الذين لا يؤمنون بالله ولا برسوله ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وسيجازيهم على ما قدَّمت أيديهم.

وفي سورة الجمعة: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧﴾ [الجمعة].

وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يتمنين أحدكم الموت لضُرٍّ أصابه، فإن كان لَا بُدَّ فاعلًا فليقل: اللهم احيني إذا كانت الحياة خيرًا لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي**»[٢].

وفي الحديث عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**خيركم من طال عمره وحسن عمله**»[٣]

---

(١) ضم الهاء من (أيديهم) يعقوب وكسرها غيره.

(٢) «صحيح مسلم» عن أنس برقم (٢٦٨٠) والبخاري برقم (٥٦٧١، ٦٣٥١).

(٣) رواه أحمد، «المسند» بنحوه (٢/ ٢٣٥) برقم (١٧٦٨٠، ١٧٦٩٨) إسناده صحيح ورجاله ثقات، كما قال محققوه، وأخرجه ابن ماجه (٣٧٩٣) وابن حبان (٨١٤) والطبراني في الأوسط (٢٢٨٩) والحاكم (١/ ٤٩٥)، والترمذي برقم (٢٣٢٩).

الْمُخَالَفَةُ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ: اليَهُودُ أَشَدُّ النَّاسِ كَرَاهِيَةً لِلْمَوْتِ وَحِرْصًا عَلَى الْحَيَاةِ

٩٦- ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ[1]﴾

في هذه الآية بيان شدة محبة اليهود للدنيا، وحرصهم عليها، وأنهم مهما عمّروا فيها فإن ذلك لا ينجيهم من عذاب الله.

ثم إن الذين يزعمون أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس هم أشد الناس كراهية للموت، وأحرص الناس على أدنى حياة ولو كان فيها بؤس وشقاء، ولو كانوا أولياء لله من دون الناس لرحّبوا بالانتقال إلى الآخرة ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ لما يعلمون من سُوء عاقبتهم، وما يخافون منه واقع لا محالة.

وهم أحرص على الحياة من المشركين الذين لا كتاب لهم، ولا يؤمنون ببعث ولا حساب ولا جزاء، ومع ذلك فهم أشدُّ حرصًا منهم على أطول حياة، يودُّ أحدهم ويتمنى لو يُعَمر في هذه الدنيا ألف سنة، وحتى لو عُمِّرَ ألف سنة أو أكثر فإن عُمْره هذا لن يمنعه ولن ينجّيه من عذاب الله في الآخرة، فقد حُببتْ إليهم الخطيئة طول العمر ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾، مهما طال عمره فإن مصيره إلى النار، ولن ينجيهم طول العمر من العقوبة، فها هو إبليس لم ينفعه عمره الطويل أن ينجو من النار بسبب كِبره وكفره ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ لا يخفى عليه شيءٌ من أعمالهم، وسوف يجازيهم عليها.

مُخَالَفَةُ الْيَهُودِ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ: عَدَاوَتُهُمْ لِرَسُولِ الْوَحْيِ جِبْرِيلَ عليه السلام

٩٧- ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ[2] فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾

---

(١) قرأ يعقوب (تعملون) بتاء الخطاب على الالتفات، وقرأ الباقون بالياء وفقًا للسياق.

(٢) قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر وحفص وأبو جعفر ويعقوب (لجِبرِيل) بكسر الجيم والراء وبعدها ياء، وقرأ ابن كثير (لجَبرِيل) بفتح الجيم وياء بعد الراء، وقرأ حمزة والكسائي وخلف وشعبة بخلف عنه (لجَبرَئيل) بجيم مفتوحة وراء مفتوحة بعدها همزة مكسورة بعدها ياء، وقرأ شعبة في الوجه الثاني (لجَبرَئل) كالقراءة السابقة ولكن بدون ياء بعد الهمزة، وكلها لغات، ومثلها (وجبريل) في الآية التالية.

قل - أيها الرسول - لليهود الذين قالوا: إن الذي منعهم من الإيمان بك، أن جبريل ينزل عليك بالوحي، ويزعمون أنه عدوّ لهم، ولو أن غيره ينزل عليك كميكائيل، لآمنوا بك، قل لهم: هذا تناقض وتكبر على الله، فإن جبريل هو الذي ينزل على الرسل جميعًا، وعداوته كفر بالله وآياته ورسله.

نزلت هذه الآية ردًّا على زعم اليهود أن جبريل عدوٌّ لهم، وأن ميكائيل وليٌّ لهم.

١- في صحيح البخاري وغيره عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمع عبد الله بن سلام بمقدِم النبي ﷺ وهو في أرض يحترف[١] فأتى النبي ﷺ فقال: إني سائلك عن ثلاثٍ لا يعلمهن إلا نبيٌّ: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام أهل الجنة؟ وما ينزع الولد: إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: **«أخبرَني بهذا جبريل آنفًا»** قال: جبريل؟ قال: **«نعم»** قال: ذاك عدوُّ اليهود من الملائكة، فقرأ النبي ﷺ هذه الآية ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾.

قال: **«أما أول أشراط الساعة: فنار تحشُر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة: فزيادة كبد الحوت، وإذا سبق ماء الرجل نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة نزعت»**.

قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله، يا رسول الله: إن اليهود قوم بُهت، وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني.

فجاءت اليهود، فقال لهم رسول الله ﷺ: **«أيُّ رجل عبد الله بن سلام فيكم؟»** قالوا: هو خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، قال: **«أرأيتم إن أسلم؟»** قالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج عبد الله فقال: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله» فقالوا: هو شرُّنا وابن شرِّنا، وانتقصُوه، فقال: هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله!![٢].

---

(١) أي: يلتقط البُسْر أو الرطب الذي ينزل من النخل.

(٢) انفرد البخاري بهذا اللفظ برقم (٤٤٨٠) وانظر (٣٢٢٩، ٣٩٣٨) وأخرجه أحمد في «المسند»، (١٢٠٥٧، ١٣٨٦٨) وابن أبي شيبة (١٣/ ١٢٥) والنسائي في «الكبرى» (٨٢٥٤) وأبو يعلى (٣٤١٤) وابن حبان (٧١٦١) وعبد بن حميد (١٣٨٩).

٢- وفي رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أقبلتْ يهودٌ على رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم، أخبرنا عن خمسة أشياء، فإن أنبأتنا بها عرفنا أنك نبي واتَّبعناك، فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قال: الله على ما نقول وكيل، قال: «**هاتوا**».

قالوا: فأخبرنا عن علامة النبي؟ قال: «**تنام عيناه ولا ينام قلبه**».

قالوا: أخبرنا كيف تؤنث المرأة وكيف تذكر؟ قال: «**يلتقي الماءان؛ فإن علا ماءُ الرجل ماءَ المرأة أذْكرتْ، وإن علا ماءُ المرأة ماءَ الرجل أنثت**».

قالوا: أخبرنا ما حرم إسرائيل على نفسه؟ قال: «**كان يشتكي عرق النسا، فلم يجد شيئًا يلائمه إلا الألبان**» فحرَّم على نفسه لحوم الإبل. قالوا: صدقت.

قالوا: أخبرنا ما هذا الرعد؟ قال: «**ملك من ملائكة الله عزوجل، موكَّل بالسحاب، بيديه مخراق من نار، يزجر به السحاب يسوقه حيث أمره الله تعالى**».

قالوا: فما الصوت الذي نسمع؟ قال: «**صوته**». قالوا: صدقت.

قالوا: إنما بقيت واحدة، وهي التي نبايعك إن أخبرتنا بها؟ إنه ليس من نبيٍّ إلا وله ملكٌ يأتيه بالخبر، فأخبرنا من صاحبك؟ قال: «**جبريل** عليه السلام».

قالوا: جبريل ذلك الذي ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدوُّنا، لو قلتَ: ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والقطْر والنبات لكان، فأنزل الله تعالى ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[1].

٣- وجاء من عِدة طُرق أن اليهود سألوا عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن صاحبه الذي يأتيه من السماء؟ فقال: «**جبريل**» قالوا: ذلك عدوُّنا من أهل السماء، يُطْلِع محمدًا على سرِّنا، وإذا

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ٢٧٤) برقم (٢٤٧١، ٢٥١٤) والطيالسي (٢٨٥٤) وابن أبي حاتم (٣٨١٦) والطبراني (١٣٠١٢) قال محققو «المسند»: إسناده حسن، ما عدا قصة الرعد، وفيها كلام سبق بيانه، وحسَّن إسناده البوصيري في الإتحاف بذيل المطالب (٦٠٢٠) وهو في «سنن الترمذي» وقال: حسن غريب برقم (٧١١٧) وهو في «سنن النسائي الكبرى» برقم (٩٠٧٢) وانظر الآثار من (١٦٠٥ - ١٦٢٨) في «تفسير الطبري».

جاء جاء بالحرب والسَّنَة، ولكن صاحب صاحبنا ميكائيل، إذا جاء جاء بالخصب والسِّلْم[١].

٤- ومن ذلك ما جاء عن عبد الرحمن بن أبي ليلى أن يهوديًا لقي عمر فقال: إن جبريل الذي يذكر صاحبكم عدوٌّ لنا، فقال عمر: من كان عدوًا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدوٌّ للكافرين، قال: فنزلت على لسان عمر[٢].

ونقل ابن جرير الإجماع على أن ذلك سبب نزول الآية[٣].

وقصة عداوة اليهود لجبريل قصة مُضحكة، فجبريل يأتي بالوحي من السماء لجميع الرسل، ومنهم موسى عليه السلام، وهو نبيهم، والوحي غذاء الروح، وميكائيل يأتي بالمطر، وهو غذاء البدن، وعداوتهم لجبريل تصور للإنسان أن اليهود لَمَّا لَمْ يجدوا حجة يُحاجُّون بها رسول الله ﷺ ولَمَّا لَمْ يجدوا سببًا لعدم إيمانهم، اختلقوا هذه المقولة، إذ كيف يكون جبريل عدوًّا لهم وهو ليس بشرًا مثلهم، ولم يعاملهم، ولم يعش بينهم أو يتعامل معهم؟ ما علاقتهم بجبريل عليه السلام حتى يعادوه، إنه ملَك ينزل من السماء؟

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء].

فما أسباب عداوة اليهود لجبريل، وهم بشَر في الأرض، وهو ملَك في السماء من ملائكة الله، إنها قصةٌ مختلَقة يتعللون بها لعدم الإيمان بمحمد ﷺ، وإلا فمقتضى هذه العداوة أن يكفروا بموسى أيضًا؛ لأنه نزل عليه، وهل من المعقول أن يُعادي اليهود جبريل لأنه نزل بالقرآن على محمد ﷺ أو لأنه ينزِل بالعذاب على الأمم التي كذبت رسلها؟!

إن جبريل ينزل بالوحي من عند الله وينزل بالعذاب بأمر الله، وما هو إلا رسولٌ يؤدي المهمة التي نيطت به، فإن عادوا جبريل -والحال هذه- فإن عداوتهم تكون لله تعالى وليست لجبريل، وعداوتهم لجبريل ليست لذاته، وإنما تكون لِمَا ينزل به من عند الله، وهذا يتضمن الكفر بمن أُرسل إليه، فهو كفر وعداوة لله ولرسوله وكتابه.

---

(١) انظر رواية الشعبي وعكرمة وقتادة والسُّدي في «الدر المنثور» (١/ ٤٧٧- ٤٨٠).

(٢) الطبري (٢/ ٢٩٢) وابن أبي حاتم (٩٦١).

(٣) ابن جرير الطبري (٢/ ٢٨٣).

والمعنى: قل يا محمد لليهود القائلين: (إن جبريل عدوُّنا من الملائكة) مَنْ كان عدوًا لجبريل، فإنه لا موجب لعداوته؛ لأن القرآن نزل على محمد ﷺ بإذن الله تعالى، مصدقًا لما سبقه من كتب الله، وهاديًا إلى طريق الفلاح والنجاح، ومبشِّرًا لكل من صدق به بخيري الدنيا والآخرة.

وقد مدحت هذه الآية القرآن **بخمس صفات** هي:

١- أنه مُنزَّل من عند الله تبارك وتعالى وبإذنه.

٢- أنه مُنزَّل على قلب النبي ﷺ.

٣- أنه مصدق لما سبقه من الكتب المنزلة من عند الله.

٤- أنه يهدي إلى الحق، والهدى أبلغ هداية.

٥- أنه بشارة للمؤمنين المصدِّقين به العاملين بما فيه.

اللَّهُ تَعَالَى عَدُوٌّ لِمَنْ عَادَى جِبْرِيلَ ﷺ

٩٨- ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ[1] فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾

ثم بين سبحانه أن المؤمن لا يفرِّق بين ملائكة الله، ولا يفرق بين رسل الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ [النساء].

وفي الحديث القدسي أن رسول الله ﷺ قال فيما يرويه عنه أبوهريرة ﷺ: إن الله تعالى قال: **«من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب»**[2].

---

(١) قرأ نافع وأبو جعفر وقنبل بخلف عنه (وميكائِل) بهمزة مكسورة بعد الألف، وهي لغة وقرأ أبو عمرو وحفص ويعقوب (وميكال) وهي لغة أهل الحجاز وقرأ الباقون (وميكائيل) بهمزة بعد الألف بعدها ياء مدية، وهو الوجه الثاني لقنبل، وهي لغة أيضًا.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة.

والله تعالى يصطفي من الملائكة رسلًا ومن الناس، وقد وكَّل الله تعالى بكل عمل يتعلق بحياة البشر، ملكًا يؤدي المهام المنوطة به، فجبريل أمين الوحي، وميكائيل صاحب القَطْر، وإسرافيل نافخ الصور، وكذا ملك الموت، وهكذا حملة العرش، وخزنة الجنة والنار، والموكَّلون بالإنسان الحفظة والمعقبات وغيرهم، وما يعلم جنود ربك إلا هو، ومن يعادي ملكًا من ملائكة الله أو رسولًا من رُسل الله فهو عدوٌّ لله؛ لأن الإيمان هو أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره، فمن كفر بركن من هذه الأركان الستة فهو كافر، والإيمان كلٌّ لا يتجزأ، وهو سبحانه عدو الكافرين.

ورد أن النبي ﷺ سأل اليهود فقال: «**أسألكم بكتابكم الذي تقرؤون هل تجدون به أنه قد بشر بي عيسى ابن مريم أن يأتيكم رسولٌ اسمه أحمد؟**» فقالوا: اللهم وجدناك في كتابنا، ولكنا كرهناك؛ لأنك تستحل الأموال وتهريق الدماء، فأنزل الله الآية[1].

وجبريل لا ينزل من نفسه إنما ينزل بأمر الله ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤].

في حديث عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يقول: «**اللهم رب جبريل وإسرافيل وميكائيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختُلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**»[2]. قال تعالى:

٩٩- ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾

ثم انتقلت الآيات إلى خطاب النبي ﷺ تسلية وتصديقًا له وتكذيبًا لليهود، فتبيّن أن ما أنزله الله على رسوله من البينات والهدى، تحصل به الهداية لمن طلب الهداية، وإقامة الحجة على من عاند، ولا يمتنع من ذلك إلا من فسق وخرج عن طاعة الله.

وقد قال ابن صوريا اليهودي للنبي ﷺ: يا محمد، ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله من آية بينة فنتبعك، فأنزل الله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾[3]

---

(١) «تفسير الطبري» (١٦٣٤) والحاكم (٢/ ٢٦٥) صححه الذهبي وفي سنده عبد الله العَتَكيّ متكلم فيه.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٧٧٠).

(٣) «تفسير الطبري» (١٦٣٧، ١٦٣٨) و«سيرة ابن هشام» (١/ ٥٤٧) و«تفسير ابن أبي حاتم» (٩٧٠، ٩٧٣).

علاماتٍ واضحة، يهتدي بها من كان مستعدا بفطرته لقبول الهداية، وأدلة وبراهين على صحة رسالتك، مع أنك لم تقرأ كتابًا، ولم تتعلم على يد معلم، ومع ذلك فأنت تأتي بأخبار الأوَّلين والآخرين وما تضمنته كتب بني إسرائيل وغيرهم ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ﴾ أي: بما جئت به من هذه الدلالات الساطعة ﴿إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ الخارجون عن طاعة الله ورسوله ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [النمل].

مُخَالَفَةُ الْيَهُودِ السَّابِعَةَ عَشْرَ: النَّقْضُ الدَّائِمُ لِلعُهُودِ والمَوَاثِيقِ

١٠٠- ﴿أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

في الآيات السابقة (٦٣، ٨٣، ٨٤، ٩٣) أمثلةٌ متعددة من نقض اليهود للمواثيق في جوانب مختلفة، وفي هذه الآيات، بيانُ أن نبذ العهد ونقضه خُلُقٌ من أخلاق اليهود يتكرر في كل زمان ومكان، وتبدأ هذه الآية بالتعجب من كثرة معاهدات اليهود وتكرار عدم الوفاء بها، فكلما عاهدوا عهدًا نقضوه، والسبب في ذلك عدم إيمانهم، فإن الإيمان يحمل صاحبه على الوفاء بالعهد:

بعث رسول الله ﷺ مالك بن الصيف ليذكِّر اليهود بما أخذ عليهم من الميثاق، ومن الإيمان بمحمد ﷺ فقالوا: والله ما عهد إلينا في محمد وما أَخَذَ علينا ميثاقًا، فأنزل الله تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُوا۟ عَهْدًا﴾[1]

أي: كلما عاهد اليهود عهدًا مع الله -كالعمل بما في التوراة، والوفاء بالإيمان بمحمد ﷺ- وكلما عاهدوا الناس على شيء نقضوا هذا العهد وخالفوه، وهذا معنى ﴿نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ أي: طرحه حزبٌ من أحزاب اليهود.

فتراهم يُبرمون العهد اليوم وينقضونه غدًا، فما أقبح حالهم في نقض العهود.

قال ابن جرير: لم يكن في الأرض عهدٌ يعاهدون عليه إلا نقضوه، ويعاهدون اليوم وينقضون غدًا[2]

ولذا نفى القرآن عنهم الإيمان، فقال تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ واليهود هم

---

(١) المراجع السابقة.

(٢) الطبري (٢/ ٣٠٩).

اليهود، وها نحن نعيش معاهدات بين اليهود والفلسطينيين منذ سنوات طويلة إلى كتابة هذه السطور، وكلما عاهد فريق منهم عهدًا نبذه فريق آخر.

أقول: وقد رأينا ذلك في عدد كثير من المعاهدات مع العدو الإسرائيلي في العصر الحاضر، وأنهم لا عهد لهم ولا ذمة، والله تعالى يقول: ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٧] وقال: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢] ولكن قتال العدوّ والانتصار عليه يلزمه صلح مع الله تعالى، وارتقاء من المصالح الشخصية إلى مصالح أمة الإسلام، وتسخير الطاقات للتصنيع الحربي وتحرير الولاء والبراء لله.

تَكْذِيبُ اليَهُودِ لِخَاتَمِ النَّبِيِّينَ مِنْ بَابِ نَقْضِ العُهُودِ

١٠١- ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾

ثم أعقب سبحانه ذلك بذكر تكذيبهم بالرسول المبعوث إليهم، وإلى الناس كافة.

وذلك أنه لما جاء محمد ﷺ بكتاب من عند الله -هو القرآن الكريم- يصدِّق ما سبق مِنْ كُتب الله قبله، وكانوا يزعمون أنهم متمسكون بكتابهم، وفيه البشارة بالنبي الخاتم، فلما جاءهم مصداق ما عندهم، كفر به فريق منهم وطرحوا كتابه وراءهم كأنهم لا يعرفون عنه شيئا.

أي: ولمّا جاء أحبارَ اليهود وعلماءَ بني إسرائيل ﴿رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ هو محمدٌ ﷺ جحدوه ورفضوه، وكان الله تعالى قد أخذ عليهم الميثاق أن يؤمنوا به عند مجيئه، وأن يكونوا أول من يؤمن به ويفتح عليه؛ لأنهم أهل كتاب يؤمنون بالوحي، وليسوا وثنيين، ولكن فريقًا منهم نقض هذا العهد ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ من اليهود ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ وهو التوراة ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ لما تضمنه من البشارة بمحمد ﷺ، وهذا تأكيد لطرحهم كلام الله تعالى ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ به، شأنهم شأن الجُهّال الذين لا يعلمون حقيقته، فجحدوا وكتموا الإيمان بمحمد ﷺ عند بعثته بعد أخذ العهد عليهم، وهو النبيُّ الأميُّ الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل، ولكنهم يُبرمون العهد اليوم

وينقضونه غدًا، أما الفريق الآخر فقد جحد الحق وكفر به.

قال السُّدي في معنى الآية: ولما جاءهم محمد ﷺ عارضوه بالتوراة، فاتفقت التوراة والقرآن، فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصَف، وسِحْر هاروت وماروت، كأنهم لا يعلمون ما في التوراة من الأمر باتباع محمد ﷺ وتصديقه[١].

مُخَالَفَةُ الْيَهُودِ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ: تَعَلُّمُ السِّحْرِ وَتَعْلِيمُهُ وَالعَمَلُ بِه

١٠٢- ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ[٢] الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

أشارت الآية السابقة إلى أن اليهود لم ينتفعوا بما عندهم من العلم بمقدم محمد ﷺ، ومن لم يشتغل بالحق اشتغل بالباطل، ومن لم ينتفع بالخير اشتغل بما يضره، وهكذا فإن اليهود تركوا ما ينفعهم من الإيمان بمحمد ﷺ واشتغلوا بما يضرهم ولا ينفعهم، وهو اتباع الشياطين وتعلم السحر، فقد بلغ السحر ذروته في عهد موسى ﵇، واستمر كذلك حتى عهْد نبي الله سليمان ﵇[٣] وتفشى أمر السحر وانتشر في عهد موسى ﵇، وأصبح الناس لا يفرِّقون بين السحر والمعجزة، كمعجزة العصا واليد.

ولما تشكَّك الناس في أمر النبوة بالنسبة للمعجزات الدالة عليها أنزل الله ﷻ مَلَكين يقال لهما: هاروت وماروت في أرض بابل من العراق، وخُصت بابل بالإنزال؛ لأنها

---

(١) الطبري (٢/ ٣١١).

(٢) قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وخلف العاشر (ولكنِ الشياطينُ كفروا) بكسر نون (ولكن) مخففة، ورفع (الشياطينُ) على أن (لكن) مهملة لا عمل لها، وقرأ الباقون (ولكنَّ الشياطينَ) بتشديد النون، على إعمال (لكن) ونصب (الشياطين).

(٣) وهو ابن داود ﵇ من سبط يهوذا، ولد سنة ١٠٣٢ قبل الميلاد، وتوفي في أورشليم سنة ٩٧٥ قبل الميلاد، وتولى مُلك بني إسرائيل سنة ١٠١٤ قبل الميلاد، بعد وفاة أبيه، وعظُم ملك بني إسرائيل في مدته، وكان له أسطولًا بحريًّا، وقد جدد بناء بيت المقدس، ويزعم اليهود أنه كان كافرًا وأن الله غضب عليه لكثرة نسائه.

كانت أكثر البلاد عملًا بالسحر، وكان سحرتُها قد سخَّروا العامة وجرُّوهم إلى عبادة الكواكب والأصنام فحدث فساد عظيم وعمت الأباطيل؛ فأراد الله سبحانه أن يكشف حقيقة السحر على يد الملكين فكانا يُعلِّمان الناس أبواب السحر؛ ليفرقوا بين السحر والمعجزة، وحتى لا يلتبس الأمر على عامة الناس، فيعرفوا أن الذي يدَّعى النبوة من السحَرة كاذبًا، وأنهم سحَرة وليسوا أنبياء، فكانا يعلمان الناس أبواب السحر ويقولان: إنما نحن فتنة وابتلاء، وامتحانٌ من الله سبحانه، فلا تكفر بتعلمك السحر واستخدامه ولا تتعلم ما يضر ولا ينفع مما يؤذي الناس ويفرِّق بينهم وكان ذلك قبل الميلاد بأربعين قرنًا، وقد شاع السحرُ في بابل ومصر في عصر واحد.

١- وقبل مبعث النبي ﷺ كانت الشياطين تسترق السمع من السماء، يَرْكَبُ بعضهم فوق بعض، حتى تستمع إلى كلام الملائكة، فيما يتعلق بتدبير أمور الخلق، كالموت والولادة والرزق، ثم ينزل هذا الشيطان المسترق للسمع فيضيف إلى الكلمة الصحيحة سبعين كلمة أخرى كذبًا، ثم يُلْقُون بها إلى الكهنة والعرَّافين والمنجِّمين، وكتبوا ذلك ودوَّنوه في دواوين على مدى وقت طويل، وأُشيع بين الناس أن الجن يَعْلَمُون الغيب، وكان ذلك في عهد سليمان عليه السلام، فجمع سليمان هذه الدواوين التي كُتب فيها السحر، ووضعها في صندوق ودفنها تحت كرسيه، وكان لا يمكن للشياطين أن تقترب من كرسي سليمان، فإذا اقتربت منه احترقت.

وقال سليمان وهو يذكِّرُ الناس ويعظهم: لا أسمع أحدًا يذكُر أن الشياطين يعْلَمون الغيب إلا ضربتُ عنقه، واستمر الأمر كذلك حتى مات سليمان عليه السلام.

ولما مات سليمان وقف شيطانٌ بالطريق وأخذ يدل بني إسرائيل على مكان الدواوين التي كان وضعها سليمان تحت كرسيه والتي سُجل فيها هذا السحر، فذهبوا واستخرجوا هذه الدواوين التي كُتب فيها السحر، وقال لهم الشيطان: إن سليمان كان يضبط الإنس والشياطين والطير بهذا السحر ويُدبر به ملكه، فأُشيع بين الناس أن سليمان كان ساحرًا وتناسخت الأمم هذه الدواويين، فأنزل الله عذر سليمان في هذه الآية[1].

---

(١) «أسباب النزول» للواحدي ص٢٩ وصححه الحاكم من طريق إسحاق بن إبراهيم ووافقه الذهبي، «المستدرك» (٢/ ٢٦٥) و«تفسير الطبري» (٢/ ٤١٥) وابن أبي حاتم (٩٨٩) و«تفسير سعيد بن منصور» (٢٠٧).

٢- وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أن (آصف) كاتب سليمان، كان يَعْلَم اسم الله الأعظم، وكان يكتب كل شيء بأمر سليمان ويدفنه تحت كرسيه، فلما مات سليمان أخرجته الشياطين، فكتبوا بين كل سطرين سحرًا وكفرًا، وقالوا: هذا الذي كان سليمان يعمل بها، قال: فأكفره جهال الناس وسبوه ووقف علماؤهم، فلم يزل جهالهم يسبوه حتى أنزل الله على محمد ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾[1] وبهذا أخذ اليهود، وأحدثوا فيه ما أحدثوا، وأفشوا السحر في الناس فتعلموه وعلموه، ولا يوجد من هو أكثر علمًا به منهم.

٣- واختلف الناس في شأن سليمان، فقال اليهود: لم يكن سليمان نبيًّا، بل كان ساحرًا وبه تعبَّدَنا وقهَرنا، وقال المؤمنون: بل كان نبيًّا مؤمنًا.

ومن ذلك أن إبليس قام خطيبًا في الناس بعد موت سليمان فقال: يأيها الناس، إن سليمان لم يكن نبيًّا، وإنما كان ساحرًا، فالتمسوا سحره في متاعه وبيوته، ثم دلَّهم على المكان الذي دُفن فيه السحر، فقالوا: والله لقد كان سليمان ساحرًا! وهذا سِحْره، فقال المؤمنون: بل كان نبيًّا مؤمنًا، فلما بُعث محمد ﷺ جعل يذكر الأنبياء ومنهم داود وسليمان، فقال اليهود: انظروا إلى محمد يخلط بين الحق والباطل[2] إنه يذكر ابن داود بأنه كان نبيًّا، والله ما كان إلا ساحرًا يركب الريح، فأنزل الله سبحانه هذه الآية، وفيها عذر سليمان.

٤- قال أبو العالية: إن اليهود سألوا النبي ﷺ زمانًا عن أمور من التوراة، لا يسألونه عن شيء من ذلك إلا أنزل الله عليه ما سألوا عنه، فيخْصِمَهم -أي يغلبهم بالحجة- فلما رأوا ذلك قالوا: هذا أعلم بما أُنزل علينا منا، وإنهم سألوه عن السحر وخاصموه به، فأنزل الله ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ وإن الشياطين عمدوا إلى كتاب، فكتبوا فيه السحر والكهانة وما شاء الله من ذلك، فدفنوه تحت مجلس سليمان، وكان سليمان لا يعلم الغيب، فلما فارق سليمان الدنيا استخرجوا ذلك السحر وخدعوا به الناس، وقالوا: هذا علمٌ كان سليمان يكتمه، ويحسُد الناس عليه، فأخبرهم النبي ﷺ بهذا

---

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ٢٩٧) برقم (٩٨٢) و«الدر المنثور» (١/ ٩٥) والنسائي في التفسير برقم (١٤، ١٠٩٩٤) بإسناد حسن، وصححه ابن حجر عن سعيد بن جبير في «فتح الباري» (١٠/ ٢٢٤).

(٢) الطبري: (١٦٥٩، ١٦٦٦) وابن كثير (١/ ٢٥٠).

الحديث، فرجعوا من عنده وقد حَزِنُوا وأدحض الله حجتهم[١].

ونمضي مع الآية: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟﴾ يعني اليهود، فالضمير يعود على الكلام السابق، وكله في الحديث عن بني إسرائيل ﴿مَا تَتْلُوا۟﴾ أي: ما تتحدث به الشياطين لليهود في شأن السحر ﴿عَلَىٰ﴾ عهد ﴿مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ فزعموا أن سليمان كان يستعمل السحر، وبه حصل على الملك، وهم كذبة في ذلك لأن الله تعالى نزّهه عن السحر، وقد كان السحر موجودًا قبل سليمان، ولكن اليهودلما نسبوا السحر لسليمان برّأه الله مما قالوا، وأبان أنهم وجدوه في خزانة تحت كرسيه على ما جاءت به الآثار.

واليهودُ نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم -كما هو مذكور في الآية قبلها- واستبدلوا بكتاب الله ما كانت تكتبه الشياطين وتعلّمه وتتحدث به من السحر على عهد مُلْك سليمان، حيث نبذ اليهود التوراة وأخذوا بكتاب (آصف بن برخيا) وسِحر (هاروت وماروت) الذي تلته الشياطين عليهم في عهد سليمان وخدعوا الناس به وفتنوهم.

قال سبحانه ردًّا على اليهود: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ لم يكن سليمان ساحرًا ولا كافرًا، ولم يتعلم السحر، ولم يعمل به ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾ فهم الذين كانوا ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ إفسادًا لدينهم، وكذلك اتبع اليهود السحر الذي أُنزل على الملكين في أرض بابل بالعراق، ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ﴾ ونزول السحر على الملكين معناه وصوله إليهم، فقد كان السحر منتشرًا، وقد يكون النزول بمعنى الإلهام.

والملكان هما: هاروت وماروت وكان ذلك ابتلاءً وامتحانًا من الله لعباده ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ ابتلاء وامتحان للناس؛ ليثبت منهم من يثْبُت على الحق والإيمان، فيتعلم الناس من الملكين ما يُحْدثون به الكراهية بين الزوجين حتى يتفرّقا، ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ وفي هذا بيان أن السحر له تأثير وحقيقة، ولكنه لا يؤثر إلا بإذن الله، وإذن الله منه ما هو قدَريّ متعلق بمشيئة الله كما في هذه الآية، ومنها ماهو شرعي كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧]

ومهما بلغت الأسباب من قوة التأثير، فإنها ليست مستقلة، بل لا بد من أن تتبع القضاء

(١) ابن جرير (٢/ ٣١٥) وابن أبي حاتم برقم (٩٨٥).

والقدر، ولا يستطيع السحرة أن يضروا أحدًا إلا بإذن الله وقضائه، وما يتعلم السحرةُ إلا شرًّا يضرهم ولا ينفعهم، ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ فهو مضرة مَحْضة ليس فيه منفعة دينية ولا دنيوية.

وقد نقلته الشياطين إلى اليهود فشاع بينهم حتى فضَّلوه على كتاب الله، فتركوا علم الأنبياء والمرسلين، وأقبلوا على علم الشياطين وتعلّم السحر.

وقول الملكين: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ أي: لا تتعجل باعتقاد السحر وتعلمه، فإنك إذا توغَّلت في معرفته وعرفتَ حقيقته اندفَعتْ عنك الفتنة؛ لأنها تحصل للإنسان حين يرى ظواهره وعجائبه على أيدي السحرة، فإذا عرف حقيقته زالت الفتنة.

وكان سحَرةُ اليهود يزعمون أن الله تعالى أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود، فأكذبهم الله بهذا، وأخبر نبيه محمدًا أن السحر من عمل الشياطين، وأنها تعلِّم الناس ذلك بأرض بابل[1] عن طريق مَلَكين أنزلهما الله تعالى ابتلاء للعباد وتمحيصًا لصدق إيمانهم، كما جاء في قوله ﷺ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه **«من أتى كاهنًا أو ساحرًا فصدَّقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد»**[2].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: **«من أتى كاهنا أو عرَّافًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد»**[3].

وكان الملكان يحذِّران الناس من تعلُّم السحر ويقولان: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ أي: بتعلمك السحر، فينْهيان الناس عن تعلّم السحر والعمل به، فإن ذلك كفر.

---

(١) وبابل على بُعد أميال من ملتقى الفرات ودجلة، وكانت أعظم مدن العالم القديم، بناها أبناء نوح عليه السلام بعد الطوفان، ثم توالت عليها الحضارات، وكان النمروذ من الجيل الثالث لأبناء نوح، وبلغت بابل عظمتها في حدود سنة ٣٧٥٥ قبل الميلاد، وكانت بلد العجائب في البناء والبساتين ومنبع المعارف والسحر، ويزعم أهل بابل أن هاروت وماروت رفعا إلى السماء بعد موتهما في صورة كواكب ومن هنا نشأت عبادتهم للكواكب.

(٢) البزار (١٨٧٣، ١٩٣١) قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح خلا هبيرة بن مريم، وهو ثقة، «مجمع الزوائد» (١١٨/٥) وانظر غاية المرام للألباني (٢٩٠).

(٣) من حديث أبي هريرة في «المسند» (٩٥٣٦) حديث حسن، رجاله ثقات، كما قال محققوه، والحاكم (٨/١).

وعن عمران بن حصين ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«ليس مِنَّا من تَطَير أو تُطير له، أو تكهن أو تُكهن له، أو سَحر أوسُحِر له، ومن عقد عقدة، ومن أتى كاهنًا فصدَّقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد»**[1].

ويؤخذ من هذا حُرمة تعلُّم السحر وتعليمه؛ لأن فيه تعلُّق القلب بغير الله سبحانه.

وفيه اعتقادُ النفع والضر من غير الله سبحانه.

وفيه استخدام للشياطين واعتقادٌ بأن النجوم والكواكب وغيرها تنفع وتضر.

وفي السحر إضرارٌ بالناس وقد نهى الإسلام عن الضرر والإضرار.

عقوبة الساحر: ومن أجل ذلك حَرَّم الإسلام السحر؛ تعلُّمًا وتعليمًا وشدد في عقوبته.

وفي جامع الترمذي وغيره عن جندب ﷺ: **«حد الساحر ضربة بالسيف»**[2].

وكتب عمر ﷺ: أن اقتلوا كل ساحر وساحرة، قال : فقتلنا ثلاث سواحر[3].

وأخرج مالك في الموطأ أن حفصة ﷺ قتلت جارية لها سحرتها[4].

وقال الإمام أحمد : صحَّ قتل الساحر عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ[5] هم: عمر وحفصة وجندب.

وقال مالك: إذا سحر الساحر نفسه قتل[6]

---

(١) «كشف الأستار» البزار برقم (٣٠٤٤) قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح خلا إسحاق بن الربيع وهو ثقة، «مجمع الزوائد» (٥/ ١١٧) والحديث حسنه الألباني في غاية المرام (٢٨٩).

(٢) «سنن الترمذي» برقم (١٤٦٠) قال أبو عيسى: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسماعيل بن مسلم المكي يُضعّف في الحديث من قبل حفظه، وإسماعيل بن مسلم العبدي البصري، قال وكيع: هو ثقة، ويروي عن الحسن أيضًا، والصحيح عن جُندب موقوف، والعمل على هذا الحديث عند بعض أهل العلم، من أصحاب النبي وغيرهم، وهو قول مالك بن أنس. والطبراني في «المعجم الكبير» (٢/ ١٦١).

(٣) «مسائل عبد الله بن أحمد» عن أبيه عن سفيان برقم (١٥٤٢).

(٤) «مسائل عبد الله بن أحمد» عن أبيه برقم (١٥٤٣) وأخرجه مالك في «الموطأ» من رواية أبي مصعب برقم (٢٩٨٤).

(٥) انظر «كتاب التوحيد» للشيخ محمد بن عبد الوهاب، باب ما جاء في السحر.

(٦) «الموطأ» (٢٩٨٥).

وقال الشافعي: إنما يقتل الساحر إذا كان يعمل من سحره ما يبلغ به الكفر، فإذا عمل عملًا دون الكفر فلم ير عليه قتلًا.[١]

وللسحر تأثيرٌ على النفوس وحقيقة، فقد أثبت الله سبحانه أنه يكون سببًا في وقوع الضرر، وفي التفرقة بين المرء وزوجه، ولكن هذا التأثير وهذا الضرر لا يكونان إلا بأمر الله سبحانه وإرادته ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ من عدم الخلطة والائتلاف وحسن العشرة والمحبة، فيفرقون بينهما بأسباب تقتضي الفرقة، كأن يتخيل كل منهما سوء منظر الآخر، أو يكون الذكَر في صورة أنثى أو العكس، أو يضع في داخل كل منهما بغضًا للآخر، وهذا السِّحر لا يؤثر بنفسه، بل بإذن الله تعالى وإرادته.

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«من عقد عقدة ونفث فيها فقد سحر، ومن سحرَ فقد أشرك، ومن تعلق شيئًا وُكل إليه»**[٢].

وأنفع ما يستعمل لإذهاب السحر ما أنزله الله على رسوله بقراءة المعوِّذتين، ففي الحديث عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لم يتعوذ المتعوِّذ بمثلهما»**[٣] وقراءة آية الكرسي مطردة للشياطين.

وذكر القرطبي عن وهب أنه قال: يُؤخذ سبع ورقات من سدر، فَتُدَقّ بين حجرين، ثم تُضرب بالماء، ويقرأ عليها آية الكرسي، ويشرب منها المسحور ثلاث حسوات ثم يغتسل بباقيه، فإنه يذهب ما به.

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله: هلَّا تنشَّرْتَ؟ فقال: **«أما أنا فقد عافني الله وشفاني، وخشيت أن أفتح على الناس شرًّا»**[٤]

وهذا في علاج النشرة، أي: حل المربوط.

(١) من كلام الترمذي في جامعه عند الحديث رقم ١٤٦٠.

(٢) رواه النسائي في «السنن» عن أبي هريرة (٧/ ١١٢) وهو في «السنن الكبرى» (٣٥٢٨) وفي «التحفة» (١٢٢٥٥).

(٣) رواه النسائي في «السنن الكبرى» عن عقبة بن عامر (٨/ ٢٥١) ونحوه في «صحيح سنن النسائي» (٥٠٢٦) وابن أبي شيبة (١٠/ ٣٥٨). و في صحيح سند أبي داود (١٣١٦).

(٤) «صحيح البخاري» برقم (٣١٧٥، ٥٧٦٥، ٥٧٦٦) و«صحيح مسلم» برقم (٢١٨٩).

وعن جابر بن عبد الله ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه في الناس، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا، فيقول: ما صنعت شيئًا، ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقتُ بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه، ويقول: نِعْمَ أنت**»(١).

والعين تكون من الحسد، وتكون من الشيطان، وتكون من الإعجاب بالنفس.

في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما: «**العين حق، ولو كان شيء سابق القَدَرِ لسَبَقَتْهُ العين، فإذا استُغْسِلْتم فاغسلوا**»(٢).

ثم ذمَّ الله سبحانه حقيقة من يسلك هذا الطريق ويتعلمه، وبين أنه قد اشترى دنياه بأخراه، ولقد علم اليهود أن من اختار السحر وترك الحق ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ﴾ أي: من حظٍّ أو نصيب في الخير؛ بل هو موجب للعقوبة لأن هذا ذنب وكفرٌ ولبئس ما باعوا به أنفسهم من السحر والكفر، عوضًا عن الإيمان بالله ومتابعة الرسول ﷺ لو كان لهم علم بما وُعظوا به.

والنبي ﷺ عدَّ السحر من السبع الموبقات المهلكات وجعلَه في المرتبة الثانية بعد الإشراك بالله سبحانه.

ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**اجتنبوا السبع الموبقات**» قيل: وما هن يا رسول الله؟ قال: «**الإشراك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، والزنى، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات**»(٣).

فالشرك في المرتبة الأولى، والسحرُ في المرتبة الثانية.

واليهود اتبَعُوا السحْر الذي أُنزل على الملكين ببابل من أرض العراق، ابتلاءً للناس وفتنة لهم، فتعلمه اليهود وأفسدوا به دين الناس ودنياهم، وفضَّلوه على كتاب الله، ولو أنهم خافوا الله تعالى لقدَّموا ثواب الله على ما اكتسبوه من السحر.

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٨١٣).

(٢) من حديث ابن عباس في «صحيح مسلم» برقم (٢١٨٨) والترمذي (٢٠٦٢) وابن حبان (٢١٠٧).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٧٦٦، ٥٧٦٤، ٦٨٥٧) و«صحيح مسلم» برقم (٨٩).

وللسحر علاج: هذا العلاج منه ما يكون قبل وقوع السحر، بحيث لا يؤثِّر في الإنسان سحرٌ ولا حسدٌ، ولا يقربُه جنٌّ بمسٍّ أو نحوه، ويكون هذا بالاعتصام بالله سبحانه، والتحصُّن به جل شأنه من الشيطان، ومن السحرة والحاسدين ومن مس الجن وغير ذلك، وهذا التحصُّن بالله سبحانه من أعظم ما يكون في حفظ العبد من الحسد والجن، مع قوة إيمانه، كما أرشدنا إليه رسولُنا ﷺ مثل: قراءة المعوذتين (الفلق، والناس) وسورة الإخلاص، وآية الكرسي، والآيتين الأخيرتين من سورة البقرة وهذا كله عقب كل صلاة، سيما عقب صلاتي الفجر والمغرب، أي في أول النهار وآخره، فإن ذلك اعتصامٌ وتحصُّن بالله سبحانه، ولا يحدُث للإنسان بفضل الله ﷻ ضررٌ بالسحر أو العين أو مس من الجن، ولا يفزع في نومه، ولا يرى ما يزعجه، ولا يُفسد الشيطان عليه صلاته أو أهله إذا كان دائمًا متحصِّنًا بالله تعالى، يقرأ ذلك يوميًا في صلواته، وصباحه ومسائه، وعند نومه واستيقاظه إلى جوار الأذكار الأخرى المعروفة.

وقد كان النبي ﷺ إذا نزل منزلًا في سفره، أو في بيت جديد يقول: «**أعوذ بكلمات الله التامَّات من شر ما خلق**»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ما لقيتُ من عقرب لدغتْني البارحة! قال: «**أما إنك لو قلت حين أمسيت: أعوذ بكلمات الله التامَّات من شر ما خلق لم تضرك**»[2].

وإذا قال المسلم في صباحه ومسائه: «**بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم**»[3].

هكذا علمنا رسول الله ﷺ، فإذا قال المسلم ذلك فإنه لا يقربه جنٌّ، ولا يمسه شيطانٌ

---

(١) عن رجل من أسلم في «المسند» (١٥٧٠٩، ٢٣٠٨٣، ٢٣٦٥٠) قال محققوه: حديث صحيح، وهذا إسناد رجاله ثقات، رجال الصحيح وهو في كتاب ابن السُّنِّي (٥٣٣) وهو عن خولة بنت حكيم في «صحيح مسلم» برقم (٢٧٠٨).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٧٠٩).

(٣) من حديث عثمان بن عفان في سنن أبي داود (٥٠٨٨) والترمذي (٣٣٨٨) قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وهذا لفظ الترمذي.

ويكون في تحصُّنٍ واعتصامٍ بالله سبحانه.

فإن وقع السحرُ وحَدث، فإن علاجه يكون بالرقية المشروعة المشتملة على آيات السحر، ويكون بمعرفة المكان الذي فيه السحر لاستخراجه عن طريق مَنْ فعلَه أو مَنْ رآه أو عَلم به، بأية وسيلة من الوسائل، كأن سمع شخصًا يتحدث بذلك، أو رأى في منامه رؤيا ترشده إلى مكانه، دون استخدامٍ للجن، ودون تصديق للسحرة والكهنة والعرافين.

وفي حلِّ السِّحر بالسِّحر وتعلمه بقصد رفع الضرر، وجلب الخير كلامٌ عند أهل العلم، فإن أمكن معرفة مكان السحر بأي طريق فإنه يُبْطِلُه، بأن يسكُب عليه شيئًا من النجاسات، وأن يضعه في القاذورات ونحو ذلك، ما لم يكن فيه اسم الله.

والدليل على ذلك: أن جبريل أرشد رسول الله ﷺ إلى المكان الذي وَضَع فيه (لبيد بن الأعصم) اليهودي السحر الذي سحَر به النبي ﷺ.

في صحيح البخاري عن عائشة ﵂ قالت: سحرَ رسولَ الله ﷺ رجلٌ من بني زريق، يقال له: لبيد بن الأعصم، حتى كان رسول الله ﷺ يُخيل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله، حتى إذا كان ذات يوم -أو ذات ليلة- وهو عندي، لكنه دعا ودعا ثم قال: «**يا عائشة، أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه؟ أتاني رجلان، فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال: أحدهما لصاحبه: ما وجعُ الرجل؟ فقال: مطبوب، قال: مَنْ طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم، قال: في أي شيء؟ قال: في مُشْط ومُشاطة، وجُف طلْع نَخْلة ذكَر، قال: وأين هو؟ قال: في بئر ذروان، فأتاها رسول الله ﷺ في ناسٍ من أصحابه، فجاء فقال: يا عائشة، كأن ماءها نُقاعة الحناء، وكأن رءوس نخلها رءوس الشياطين**»، قلت: يا رسول الله، أفلا استخرجته؟ قال: «**قد عافاني الله، فكرهت أن أثير على الناس فيه شرًّا**» فأمر بها فدُفنت[1] والمشاطة: ما يخرج من الشعر إذا سقط.

وفي رواية أن النبي ﷺ أمر عليًّا -رضوان الله تعالى عليه- أن يأتي به، فذهب وجاء بالسحر من المكان الذي هو فيه، بإرشاد جبريل له، ثم استخرجه وأبطله، وقد أطلع الله رسوله على هذا السحر ليكون معجزة له في إبطال سحر لبيد، ولتعْلَم اليهود أن النبي ﷺ

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣١٧٥، ٥٧٦٣) و«صحيح مسلم» برقم (٢١٨٩) والبيهقي في «الدلائل» (٧/ ٩٢).

لا تلحقه أضرارهم، وكما لم يؤثِّر السحرة على موسى لم يؤثِّر سحر لبيد بن الأعصم على النبي ﷺ وإنما عرض له عارض جسدي شفاه الله منه، فكان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما فعله.

وكانت رؤيا النبي ﷺ التي قالها لعائشة إخبارٌ من الله تعالى بما صنعه لبيد وهي من باب المعجزة؛ حتى لا يقدح في بلاغ الرسالة وعصمة الرسول، وفي هذا دليلٌ على جواز إبطال السحر بطريقة مشروعة.

وأصول السحر ثلاثة: الأول: تخويف الناس عن طريق التأثير النفسي بأشياء وهميَّة وإرهابيَّة.

الثاني: استخدام مؤثِّرات طبية خاصة كالزئبق والعقاقير المؤثرة في العقول.

الثالث: الشعوذة، واستخدام السرعة وخفة الحركة وخداع النظر.

احتراف الرقية: ولا أنصح بالذهاب إلى من يحترفون الرقية، ويعلقُون الفتاوى والتصاريح لهم بها، حيث يذهب الناس إليهم فرادى وجماعات ليقرؤوا عليهم ويَرْقُوهم، والرُّقية في حد ذاتها مشروعة بكتاب الله تعالى، وبما شرعه رسول الله ﷺ وأخْذُ الأجرة عليها في حدِّ ذاته لا بأس به أيضًا، ولكن أن يمتهن الإنسان هذا، ويصير حِرْفة له، ومصدر دخل وتكسب، ويُخَصَّصَ أفرادٌ يتعلق بهم الناس ويذهبون إليهم اعتقادًا فيهم، وفي أفضليتهم، وقبول رُقياهم دون غيرهم -وقد يكون بعضهم محتالًا أو دجَّالًا لسبب مادي أو شهوي- فإن هذا يدخُل في باب الشعوذة والتكهُّن والتعلق بغير الله سبحانه، فليس للرقية مشايخ أو أشخاص معينين، فكل إنسان يرقي، والأولى أن يرقي كلُّ واحد نفسه وأهل بيته.

فإن كان هناك رجلٌ صالحٌ لا يتخذ هذا حرفة أو مدخلًا لبيع الماء أو الزيت أو القفازين ونحو ذلك، فقصَده الشخص ليرقيه فليس في هذا شيءٌ، فقد قرأ عمر ﷺ الفاتحة على رجل فبرئ، ثم قرأها آخر على مريض فلم يبرأ، فقيل: هذه الفاتحة، فأين عمر؟

١٠٣- ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

ثم بيَّن سبحانه أن اليهودَ لو أنهم آمنوا بالله ورسوله وخافوا الله لأيقنوا أن ثواب الله خيرٌ لهم من السحر، وكما نعى الله تعالى على من يتعلَّمون السحر ويعملون به فقد نفى

عنهم الإيمان والتقوى، بما يستلزم وصفهم بنقيضها من عدم الإيمان وعدم الخوف من الله تعالى فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ بدلًا من تعلُّم السحر ﴿ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورُسله، إذ إن تعلُّم السحر ينافي الإيمان وهو من أعظم المحرَّمات ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ ما حرَّم الله، ﴿لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾ أي: لأثابهم الله خيرًا لهم مما ارتضوه لأنفسهم ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ وهذا تنزيلٌ لهم منزلة الجاهل، فكلُّ من عصى الله فهو جاهلٌ، ولو علموا ما يترتب على أمر السحر لتركوه وشغلوا أنفسهم بما فيه صلاحهم وصلاح الآخرين.

مُخَالَفَةُ الْيَهُودِ التَّاسِعَةَ عَشْرَ: التَّلَاعُبُ بِالْمُصْطَلَحَاتِ:

١٠٤- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

هذا أول نداء في سورة البقرة يُخاطَب به المؤمنون، وقد جاء هذا النداء وسط الآيات الخاصة ببني إسرائيل؛ لأنه يتعلق بإساءتهم للنبي ﷺ، ومما يتعلق بهذا النداء أن رجلًا جاء إلى عبد الله بن مسعود ﷺ، فقال له: اعهد إليَّ (أوصني وانصحني بنصيحة) قال له ابن مسعود: إذا سمعت الله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فأرعها سمعك (انتبه واصغِ وتيقَّظ جيدًا) فإنها إما خيرٌ تؤمر به، أو شرٌّ تنهى عنه[(١)].

وهذا النداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ جاء ذكره في القرآن الكريم خطابًا للمؤمنين بعد ما وقر الإيمان في قلوبهم، وتكوَّنت دولة الإسلام من المهاجرين والأنصار في المدينة، وأَخَذ التشريع يَنْزِل ويتوالى في القرآن المدني، وقد خوطب به المؤمنون الذين استجابوا لله والرسول، وتميَّزوا بذلك عن المشركين واليهود والمنافقين، خُوطِبوا بهذا النداء في ثمانية وثمانين موضعًا من القرآن الكريم، يأمرهم ربهم وينهاهم، وينوط بهم التكاليف والأحكام الشرعية، وهو نداء مُحَببٌ إلى القلوب، يستجيش النفوس، ويخاطب مشاعر الإيمان والاستجابة في نفوس المؤمنين لطاعة الله ﷻ.

وفي هذا النداء يُعلِّم الله سبحانه الأمة الإسلامية الأدب مع رسول الله ﷺ وألا يكونوا كاليهود فيتشبهوا بهم في سوء استخدامهم للألفاظ حال حديثهم مع رسول الله ﷺ في حياته، ومع شرعه ودعوته بعد مماته.

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ٣١٧) و«تفسير ابن كثير» وغيره للآية.

وقد كان المسلمون يقولون للنبي ﷺ وهم في مجلس العلم بين يديه، يقولون: (راعنا) ويقصدون بها معنىً صحيحًا، وكان اليهود يقصدون بها معنى سيئًا، فانتهزوا هذه الفرصة وصاروا يخاطبون الرسول بها ويقصدون المعنى السيء، فنهى الله المؤمنين عن هذه الكلمة سدًا للباب تأدبًا مع رسول الله ﷺ

وفي هذا النداء يكشف لنا القرآن شيئًا من أساليب اليهود، ومن سوء أدبهم مع النبي ﷺ فيحذرنا أن نكون مثلهم، أو أن نصنع مثل صنيعهم، أو نتشبه بهم، كما جاء في الحديث عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه: **«ومن تشبَّه بقومٍ فهو منهم»**[(١)]

وقد كان الرجل إذا جلس إلى رجل آخر، وهو يريد منه أن يُصْغِيَ إليه يقول له: استمع إليَّ وانتظر حتى أفهم، وأمهلني.

وقد كان اليهود يستغلون الألفاظ، ويقولون للنبي ﷺ وهم يُوهِمُونه أنهم يحبونه: السام عليكم. و(**السام**): هو الموت، فهم يَدْعُون على النبي ﷺ بالموت والهلاك، وفرْقٌ بين السام والسلام.

وكان المسلمون إذا أرادوا أن يقولوا للنبي ﷺ حين يعِظهم ويذكِّرهم: أمهلنا، و(**راعنا**) أي: راع أحوالنا، وتمهَّل علينا، وأعطنا سمعك.

وهذه الكلمة (راعنا) لها معنى آخر، حيث يُقصد بها الرعُونة: كما يقال لفلان: أنت أرْعن، ومعناها عند اليهود بالعبرية أحمق، ففيها سبٌّ وذمٌّ وتقبيحٌ، فلما سمع اليهود كلمة (راعنا) من المسلمين، قالوا : كنا نسب النبي ﷺ سرًا، فأعلنوا سبكم له الآن باستخدام هذه اللفظة (راعنا) فكانوا يقولون: (راعنا يا أبا القاسم) استغلالًا للألفاظ في مخاطبة الرسول ﷺ كأنهم يقولون له: أنت أرعن. قبَّحهم الله!

وكان سعد بن معاذ يعرف لغتهم، فلما سمعها منهم قال: لئن سمعتها من أحد منكم لأضربنَّ عنقه.

---

(١) من حديث طويل عن عبد الله بن عمر في «المسند» (٢/ ٩٢) برقم (٥١١٤، ٥١١٥) بإسناد ضعيف، ثوبان متكلم فيه، وسنن أبي داود برقم (٤٠٣١) وأخرجه عبد بن حميد (٨٤٨) والبيهقي في الشعب (١١٩٩) وابن أبي شيبة (٥/ ٣١٣) قلت: وهذه جملة من الحديث صحّت من طرق أخرى.

ولذلك فإن الله سبحانه نهى المؤمنين في أول خطاب يوجِّهه لهم في سورة البقرة -في سياق الحديث عن بني إسرائيل- ألا يكونوا كاليهود في استعمال مثل هذه الألفاظ المشتركة في المعنى، أو المحتملة لمعنى آخر، وأن يأتوا بدلها باللفظ الصريح الواضح ﴿وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا﴾ أي: انتظرنا، أو استمع إلينا، وترقبنا، حتى نفهم ما تُعلِّمه لنا، ولا يكونوا كاليهود في سُوء أدبهم مع النبي ﷺ، بل تخيروا في خطابكم له أحسنَ الألفاظ التي فيها توقيره واحترامه وتعظيمه، ولا تخاطبوه بما يُسِرُّ اليهود الذين قالوا سمعنا وعصينا، ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾ وأطيعوا، وجاء الأمر بالسمع مطلقا، ليشمل كل ما هو خير، مما أمر باستماعه، فيدخل فيه سماع القرآن وسماع السنة، وكل ما فيه أدب وطاعة، ثم توعد الكافرين بالعذاب المؤلم فقال: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وللجاحدين للحق المكذِّبين للرسول عذاب موجع، وفى هذا بيان لبعض جرائم اليهود وقبائحهم وسوء أدبهم مع النبي ﷺ.

مُخَالَفَةُ الْيَهُودِ الْعِشْرُونَ: حَسَدُهُم لخَاتَمِ الرُّسُلِ ﷺ وَأَسْبَابُهُ

١٠٥- ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ[١] عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾

ثم يُبيِّن سبحانه السبب في عداوة اليهود والمشركين للمؤمنين ورسولهم، وأنه الحسد الذي دعا اليهود لامتناعهم عن الإيمان بمحمد ﷺ وبالقرآن، فبيَّن أن الصارف لهم عن ذلك هو الحسد، وحقد اليهود على النبي ﷺ؛ لِما خصه الله به من النبوة والرسالة، وانتقالها إلى العرب من بني إسرائيل، والخير الذي في الآية هو الوحي والرسالة والنصر والاصطفاء. .

والكفر في الآية نوعان: كفر أهل الكتاب الذين بدَّلوا كتابهم، وكذَّبوا رسول الله محمدًا ﷺ، والنوع الثاني: كفر عبَدة الأوثان، وكلاهما كفر أكبر مُخرج من الملة.

والشرك أيضًا في الآية نوعان: شرك أهل الكتاب الذين ينسبون الأبوة والبُنُوّة والصاحبة إلى الله سبحانه، ويقولون بالتثليث، فهُم يشركون بالله تعالى شركًا أكبر، وشرك عبدة الأوثان الذين يتخذون مع الله إلهًا آخر، أو يتوجَّهون بالعبادة لغير الله.

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب (أن يُنْزَل) بسكون النون وفتح الزاي مضارع أنزل، وقرأ الباقون بفتح النون وتشديد الزاي مضارع نزّل.

والمشركُ بالله كافرٌ به، سواء أكان كتابيًا أم وثنيًا، ومن لم يؤمن بمحمد ﷺ فهو كافر أيضًا، قال تعالى ردًّا على حسدهم للنبي ﷺ: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ من عباده بالنبوة والرسالة ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ والرسالة فضلٌ من الله تعالى ورحمة بمن اصطفاهم ربهم، فـ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] والكفار يحسدون النبي ﷺ على ذلك ويتمنون زوال النعمة عنه كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٥٤].

مُخَالَفَةُ الْيَهُودِ الْحَادِيَةُ وَالْعِشْرُونَ: التَّشْكِيكُ فِي الْإِسْلَامِ وَالطَّعْنُ فِيهِ بِسَبَبِ قَضِيَّةِ النَّسْخِ

١٠٦- ﴿مَا نَنسَخْ[1] مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا[2] نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

يشير الرُّبع السادس من سورة البقرة -في مطلعه- إلى الحملة الخبيثة الماكرة التي يشنها اليهود ضد الإسلام بالتشكيك والطعن فيه، ومحاولة إخراج أهله منه، وهذا الأمر قديم متجدد، فهو الذي تقوم به الصهيونية العالمية، والصليبية العالمية، في كل عصر ومصر، وهو نفسه الذي حدث في عهد الرسول ﷺ، فقد اعتذر اليهود عن عدم إيمانهم بالنبي ﷺ بقولهم ﴿نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ ويكفرون بغيره، فهم يزعمون أن شريعتهم لا تُنسخ وأن محمدًا ﷺ وصفها بأنها حق وأنه جاء مصدقًا لها، فكيف يكون شرعه مبطلًا للتوراة؟!

فرد الله عليهم بهذه الآية،ينكر عليهم زعم القول بعدم النسخ، مع أنه مذكور عندهم في التوراة فإنكارهم له كفر واتباع الهوى، لأنهم يريدون بذلك التوصل إلى إنكار الرسالة الخاتمة، بدعوى أن رسالتهم لم تنسخ، وهو كلام باطل، فشريعتهم منسوخة برسالة عيسى ﷺ، ورسالة عيسى عليه االسلام منسوخة برسالة محمد ﷺ.

وأيضًا فقد حُولت القبلة بعد هجرة النبي ﷺ من بيت المقدس إلى الكعبة، فأثار ذلك حسد اليهود للنبي ﷺ وللإسلام وأهله، ولماذا يتحولون عن قبلتهم إلى الكعبة؟ فكان من

(١) قرأ ابن عامر بخلف عن هشام (ما نُنسِخ) بضم النون الأولى وكسر السين مضارع أنسخ، وقرأ الباقون بفتح النون الأولى، وفتح السين مضارع نسخ، وهو الوجه الثاني لهشام.

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو (أو نَنسَأها) بفتح النون الأولى، وهمزة ساكنة بعد السين المفتوحة من النسأ وهو التأخير، وقرأ الباقون بضم النون الأولى وكسر السين وعدم همز (أو نُنسها) من النسيان أو الترك.

نتيجة هذا الحسد أنهم أخذوا يبحثون عن أسباب يطعنون من خلالها في الإسلام، ويشككون فيه، ويحاولون إخراج أهله منه.

ومن ذلك أنهم انتهزوا هذه الفرصة، فقالوا لما نزل الأمر بتحويل القبلة إلى الكعبة: إن محمدًا يأمر اليوم أصحابه بأمر، وينهاهم عنه غدًا، ويقول لهم اليوم قولًا ويخالفه غدًا، فأنزل الله سبحانه يُبينن الحكمة من النسخ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ أي: ما ننسخ من شريعة ونتركها، إلا ونأت بما هو أفضل منها أو يماثلها، وما نرفع من حكم أو نبدله إلا أتينا بما هو خير منه وأنفع، حيث يكون البشر بحاجة إلى حكم من الأحكام في مرحلة معينة، ثم يُبدل هذا الحكم ويُغيَّر بعد أن أدى وظيفته المطلوبة في وقته المناسب، فنأتِ بخير من هذه الآية المنسوخة بما يتفق مع مصلحة العباد والبلاد من النقل والتحويل حسب ما تقتضيه المصلحة الإلهية في مرحلة من مراحل الدعوة، لانتهاء مدة العمل بالحكم الشرعي الأول؛ فهو سبحانه قادرٌ لا يعجزه شيء، **والمراد بالنسخ:** الإزالة والتغيير.

واليهود يزعمون أن التوراة لا تُنسخ، وأن ذلك مانعٌ لهم من الدخول في الإسلام، والواقع: أن الشريعة التالية تَنْسَخُ الأولى وتأتي شريعة خير منها، وشريعة عيسى لم تَنْسخ شريعة موسى بالكلية، بل رفعت بعض أحكامها وأثبتت أحكامًا أخرى، فهو نسخ في الجملة، أما شريعة محمد ﷺ فقد أبطلت شريعة عيسى إبطالًا تامًا، وأبطلت ما قبلها من سائر الشرائع من باب أولى، فهو رفعٌ كلي لجميع ما سبق من شرائع، بحيث لا يجوز لأحد أن يعتنق أيَّ شريعة سماوية أو أرضية غير الإسلام.

ثم أخبر سبحانه أن من يطعن في النسخ إنما يطعن في ملك الله تعالى وقدرته فقال:

١٠٧ - ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

أقام سبحانه الدليل على كمال قدرته وشمول علمه وإحاطته بما هو أصلح للعباد والبلاد فقال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إنه سبحانه يتصرف في هذا الكون كما يشاء؛ فهو سيده وربه وخالقه، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، والكلُّ مملوكٌ ومربوبٌ

لله ﷻ، وهو جل شأنه يُغيِّر ويبدِّل وفق ما تقتضيه المصلحة والأحوال، ويأمر عباده وينهاهم كما يشاء، وعليهم الطاعة والقبول، وكما أنه لا حَجْرَ عليه -سبحانه - في أقداره وأوامره ونواهيه، فكذلك لا يُعترض عليه فيما يشرعه لعباده من أحكام، فإن عصوْا فليس لهم ولي من دون الله يتولَّاهم، ولا نصير يمنعهم من عذابه.

ويماثل هذه الآية قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟﴾ أي للنبي ﷺ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ أي: قال اليهود والمشركون: هذا افتراء واختلاق منك يا محمد، قال سبحانه: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [النحل].

ولعل المراد بالآية في قوله تعالى ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾ لعل المراد بها الآية الحسيَّة الكونية، وليس الآية القرآنية.

معنى النسخ وأنواعه: والنسخ الذي يكون في آيات الكتاب العزيز معناه: رفع الحكم الشرعي عن المكلفين بدليل شرعي متأخر عنه، وقد حدث النسخ في جميع الأمم من لدن آدم ﷺ، فقد نُسخ زواج الأخ بالأخت من بني آدم لصلبه وحُرِّم على من بعده، وكان نكاح الأختين مباحًا لبني إسرائيل فحرمتْه التوراة. وحدث النسخ في شريعة نوح حين خروجه من الفُلك بحِل أكل لحوم **الدواب له** ولذريته، ثم نُسخ حِل بعضها.

وأُمر إبراهيم بذبح ولده، ثم نُسخ قبل الفعل، وأُمر بنو إسرائيل بقتل من عبد العجل ثم رُفع الحكم حتى لا يستأصلهم القتل.

وحُرم العمل في يوم السبت على اليهود في شريعة موسى بعد ما كان حلالًا لهم.

والقرآن نسخ جميع الكتب والشرائع المتقدِّمة كالتوراة والإنجيل والزبور وصُحف إبراهيم وشيث وغيرها.

والنسخ في الإسلام على ثلاثة أنواع:

النوع الأول: نسخُ الآية والحكم معًا، فالآية لم تَعُدْ تُقرأ، وحكمها قد رُفع عن المكلفين، فليس معمولًا به، وهذا النوع من النسخ كما جاء في الصحيحين وغيرهما عن عائشة ﵂ قالت: كان فيما أُنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يُحرمْن فنُسِخْن بخمس

رضعات معلومات[١].

فهذا الحكم ليس له وجودٌ في القرآن الكريم، وقد نُسخ بخمس رضعات بدل عشر، وهذا عند جمهور أهل العلم، ولم يرَ الشافعي جواز نسخ الكتاب بالسنة.

النوع الثاني: نسخُ التلاوة دون الحكم، أي: أن الآية قد نُسخت ولكن حكمها باقٍ معمول به، وذلك كحكم الرجم في الآية المنسوخة من سورة النور: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالًا من الله والله عزيز حكيم) هذه آية منسوخة التلاوة من سورة النور، ونسخت لشناعة وقوع الزنا من الشيخ والشيخة، وبقي الحكم معمولًا به، وتواتر عن رسول الله ﷺ العمل به أكثر من مرة، وقد صحَّ عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه رجم الزاني المحصن والزانية المحصنة حتى الموت، فقد رجم ﷺ ماعزًا الأسلمي[٢] والمرأة الجهنية[٣] والغامدية[٤] فهذا نسخٌ للتلاوة وبقاءٌ للحكم.

وفي الصحيحين أن عمر ﷺ قال وهو جالس على المنبر: كان فيما أُنزل آية الرجم، فقرأناها ووعيْناها وعقلْناها، ورجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده[٥].

ومما نسخت تلاوته (لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثًا ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب)[٦].

النوع الثالث: نسخ الحكم وبقاء التلاوة، وذلك كما في آية تقديم الصدقة عند مناجاة النبي ﷺ، أي: عند الحديث إليه والتخاطب معه، وذلك بعد كثرة الناس وازدحامهم حول رسول الله ﷺ كما في سورة المجادلة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾ إذا أردتم أن تحدِّثوه وتتخاطبوا معه ﴿فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗ﴾.

---

(١) مسلم (١٤٥٢) وأبو داود (٢٠٦٢) وابن ماجه (١٩٤٢) والترمذي (١١٥٠).

(٢) تنظر قصته في «صحيح مسلم» (١٦٩٥).

(٣) تنظر قصتها في «صحيح مسلم» (١٦٩٦) و«صحيح البخاري» (٢٦٩٦).

(٤) تنظر قصتها في «صحيح مسلم» (١٦٩٥).

(٥) يُنظَر: «صحيح مسلم» (١٦٩١) و«صحيح البخاري» (٢٤٦٢، ٣٩٢٨، ٧٣٣٣). وانظر الكلام عن آية (الشيخ والشيخة) في أول سورة النور.

(٦) «صحيح البخاري» (٦٤٣٦، ٦٤٣٧) و«صحيح مسلم» (١٠٤٩).

أي: أن على الذي يريد أن يتحدَّث مع الرسول عليه الصلاة والسلام أن يقدِّم صدقة بين يدي هذه النجوى، فرفع هذا الحكم ونسخ بقوله سبحانه: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٢ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٣﴾ [المجادلة]

أي: نُسخ تقديم الصدقة وخُفف إلى الإكثار من الأعمال الصالحة بدلًا من تقديم الصدقة بين يدي رسول الله ﷺ، وهذا عند جمهور أهل العلم.

ويرى بعضهم أن ذلك من باب الرخصة والعزيمة، ومثل ذلك آيتي الثبات في مواجهة العدو التي في سورة [الأنفال : ٦٥، ٦٦] وكون الواحد من المسلمين يتصدى لقتال عشرة من غير المسلمين، أو اثنين.

ومن ذلك: **الوصية للوالدين** في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ۝١٨٠﴾ [البقرة]

فقد نُسخت الوصية إلى الوالدين بقوله تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ﴾ [النساء: ١١] أي بآية الميراث، وبقول النبي ﷺ: **«لا وصية لوارث»**.

كما جاء في حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث»**[1].

وهذا النوع من النسخ حمله بعض أهل العلم، القائلين بعدم النسخ -كأبي مسلم الأصفهاني- على معان:

فقد يكون الحكم المنسوخ رخصة والناسخ عزيمة، وقد يكون لكل منهما معنى مغاير، مثل نسخ عدة المتوفى عنها زوجها من سنة إلى أربعة أشهر وعشرة أيام، كما في آيتي العدة من سورة البقرة (٢٣٤)، (٢٤٠) فقد قيل: إن الآية الأخيرة تتعلق بحق المتعة مدة

---

(١) «سنن النسائي» (٦/٢٤٧) وفي «الكبرى» (٥٧٨١) والطبراني في «الكبير» (٧٦٢١) وعبد الرزاق (٧٢٧٧) و«سنن أبي داود» (٢٨٧٠، ٣٥٦٥) و«سنن الترمذي» (٢١٢٠، ٢١٢١) و«المسند» (٢٢٢٩٤) وعن عمرو بن خارجة (١٧٦٦٣، ١٨٠٨٣) وغيرهم، وهو حديث حسن، وله شواهد يصح بها.

عام، وعدم حمل المتوفى عنها زوجها على الخروج من بيت الزوجية، إلا إذا خرجت من تلقاء نفسها، والآية الأولى للعدة، وهما حكمان مختلفان.

تَحْذِيرُ اللَّهِ لِلْمُسْلِمِينَ مِنَ الأَسْئِلَةِ الْمُفْضِيَةِ إِلَى الكُفْرِ

١٠٨- ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾﴾

ثم إن هذه الحملة الخبيثة الماكرة من اليهود للتشكيك في الإسلام قد آتت ثمارها حينذاك، فحذَّر الله المسلمين أن يتطرق إليهم الشك في الأحكام المنسوخة بعد استبدالها بغيرها، كما حذَّرهم من الأسئلة المفضية إلى الكفر، ومن التشكيك في الرسالة الخاتمة، حيث نتج عن ذلك أن كثيرًا ممن دخلوا في الإسلام من المشركين ومن لم يدخلوا فيه أخذوا يسألون الرسول ﷺ كثيرًا من الأدلة والبراهين على صحة رسالته.

قال رافع بنُ حُرَيْملة، ووهب بن زيد لرسول الله ﷺ: يا محمد ائتنا بكتابٍ تنزله علينا من السماء نقرؤه، أو فجِّر لنا أنهارا؛ نتبعْك ونصدقْك، فأنزل الله الآية[1]، كما في قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾ والآيات بعدها [الإسراء: ٩٠-٩٦]

وكذا قول سبحانه: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان: ٧، ٨] وقالوا له ﷺ: اجعل الصفا ذهبًا، ووسِّع لنا أرض مكة، فنُهوا عن مثل هذه الاقتراحات حتى لا يتشبهوا باليهود.

وكانت هذه الأسئلة ونحوها قد كثُرت بسبب الحملة الخبيثة التي شنَّها اليهود على رسول الله ﷺ يطلبون فيها إقامة البراهين الدالة على رسالته.

والله ﷻ يحذِّر المسلمين أن يكونوا كاليهود، فنهاهم عن كثرة السؤال، ونهاهم عن

---

(١) «سيرة ابن هشام» (١/٥٤٨) والطبري (٢/٤٠٩) وابن أبي حاتم (١٠٧٤).

السؤال عما لا يوجد، فربما يكون السؤال سببًا في التحريم كما صحَّ في الحديث عن سعد بن أبي وقاص ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أعظم المسلمين جُرمًا من سأل عن شيء لم يحرَّم فحُرِّم من أجل مسألته**»(١) فقد نزل حكم الملاعنة بسبب السؤال.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١]

ولما كرر رجلٌ السؤال عن فرضية الحج قال ﷺ: «**لو قلتُ: نعم لوجبت ولما استطعتم**» ثم قال: «**ذروني ما تركتكم**»(٢).

وفي الحديث عن المغيرة بن شعبة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إن الله كَرِه لكم ثلاثا: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال**»(٣).

ذلكم قول الله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أتريدون -أيها الناس- أن تسألوا رسولكم محمدًا من البراهين والأدلة على صدق رسالته ﷺ كما سأل اليهود موسى من قبل عنادًا ومكابرة؟! ﴿فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] وأيُّ بشاعة في مثل هذا السؤال؟ وأي جُرأة على الله سبحانه؟! وأي تكذيب لرسول الله ﷺ أعظم من هذا؟! ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]

ومن اختار الكفر وترك الإيمان فقد خرج عن صراط الله إلى الضلال وطريق الشيطان ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهكذا الذين عدلُوا عن طريق الأنبياء إلى الاقتراحات عليهم بالأسئلة، على وجه التعنت والكفر.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما رأيت قوما خيرًا من أصحاب محمد ﷺ، ما سألوه إلا عن اثنتي عشرة مسألة، كلها في القرآن: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩] ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢١٧] ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [البقرة: ٢٢٠] يعني:

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٧٢٨٩) و«صحيح مسلم» برقم (٢٣٥٨) عن سعد بن أبي وقاص ﷺ.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٣٣٧) عن أبي هريرة ورقم (١٢) عن أنس وفي البخاري (٧٢٨٨) وابن حبان (٣٧٠٤).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٨٤٤، ١٤٧٧) و«صحيح مسلم» برقم (٥٩٣).

هذا وأشباهه[١].

ومن يُكثر الأسئلة على وجه التعنُّت والتكذيب أو التعجيز فإنه يخرج عن الطريق المستقيم إلى الجهل والمخالفة والضلال ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ [إبراهيم].

فلا يصح لكم - أيها المؤمنون - أن تطلبوا من رسولكم مطالب تتنافى مع الإيمان؛ لأنكم لو فعلتم ذلك لكنتم كبني إسرائيل الذين طلبوا من نبيهم مطالب تدل على ضلالهم وجهلهم كقولهم: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ١٥٣] وقولهم: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] ولو صرتم مثلهم لكنتم ممن يختار الكفر على الإيمان، وخرجتم عن دعوة نبيكم.

عن أبي العالية قال: قال رجل يا رسول الله، لو كانت كفَّاراتُنا ككفارات بني إسرائيل؟ فقال النبي ﷺ **«اللهم لا نبغيها! ما أعطاكم الله خيرٌ مما أعطى بني إسرائيل، كانت بنو إسرائيل إذا فعل أحدهم الخطيئة وجدها مكتوبة على بابه وكفارتها، فإن كفَّرها كانت له خزيًا في الدنيا، وإن لم يكفِّرها كانت له خزيًا في الآخرة، وقد أعطاكم الله خيرًا مما أعطى بني إسرائيل»**، قال: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء][٢].

وقال ﷺ في حديث أبي هريرة ﷺ: **«الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهن»**[٣]

وقال أيضًا: **«من همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشر أمثالها، ولا يهلك على الله إلا هالك، فأنزل الله** ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾[٤].

---

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١/ ٤٥٤) من طريق عبد الله بن عمر بن أبان، عن محمد بن فضيل، به مطولًا.

(٢) حديث مرسل من مراسيل أبي العالية، أخرجه الطبري (٢، ٤٩١/ ١٧٨٣) والسيوطي (١/ ١٠٧) وذكره ابن كثير في تفسيره للآية، وذكره ابن أبي حاتم برقم (١٠٧٧).

(٣) صحيح مسلم (٢٣٣)

(٤) يُنظر: صحيح مسلم (١٢٨-١٣١).

أما سؤال الاسترشاد والتعليم فهو محمود، أمر الله به في مثل قوله ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧﴾ [الأنبياء: ٧]

الْمُخَالَفَةُ الثَّانِيَةُ وَالْعِشْرُونَ: الكَشْفُ عَنْ نَوَايَا اليَهُودِ تِجَاهَ المُسْلِمِينَ بِتَمَنِّيهِمْ كُفْرَهُمْ

١٠٩- ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

ثم بيَّن ﷻ أن السبب في هذه الحملة الخبيثة من بني إسرائيل ضد الإسلام هو الحسد لرسول الله ﷺ؛ لأنه كان من العرب، وقد حُوِّلت الرسالة من بني إسرائيل إلى نسل إسماعيل عليه السلام.

١- وقد حدث ذلك في أعقاب غزوة أحد، حيث مُني المسلمون بدرس فيه محنة، فقال فنحاص وزيد بن قيس وغيرهما من اليهود لحذيفة وعمَّار: لو كنتم على حق لما هُزمتم، فاتبعونا، ادخُلوا في دين اليهودية، فنحن أهدى سبيلا منكم، فردا عليهم وثبتا على الإسلام، وفي هذا يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ۝٥١ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ۝٥٢﴾ [النساء].

ومن هذه المكايد ما ذكره الله تعالى عنهم في قوله ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٧٢﴾ [آل عمران]

٢- وأخرج ابن أبي حاتم بسند حسن عن ابن عباس رضي الله عنه قال: فكان حُيي بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب، من أشد اليهود للعرب حسدًا؛ إذ خصهم الله برسوله، وكانا جاهدَين في ردِّ الناس عن الإسلام بما استطاعا، فأنزل الله فيهما: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا﴾.

فكثيرٌ من أهل الكتاب يتمنى أن ترجعوا بعد إيمانكم كفارا كما كنتم من قبل تعبدون الأصنام ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: حقدًا منهم على الإسلام وأهله بعد ما تبين لهم صدق محمد ﷺ فيما جاء به، فالإسلام حقٌّ، والقرآنُ حق والتوجُّه إلى الكعبة حق ﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ﴾ عن جهلهم، ولا تقابلوا الحقد بالحقد، ولا

تقابلوا السيئة بالسيئة، بل اصبروا حتى يأذن الله، اصبروا ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ أي: يأتي أمر الله بقتالهم، اصبروا حتى تشتد قوة المسلمين، وتقوى حوزتهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦]

وقد تم للمسلمين الغلبة عليهم وأجلي اليهود عن المدينة، وأُمر المسلمون بقتالهم ونُصروا عليهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فالله تعالى لا يعجزه شيء.

٣- ومن هذا القبيل أن النبي ﷺ ركب حمارًا وأردف خلفه أسامة بن زيد، وذهب لزيارة سعد بن عبادة -قبل غزوة بدر- فمر بمجلس فيه عبد الله بن أُبي -قبل أن يُسلِم- وفي المجلس أخلاطٌ من المسلمين واليهود وعبدة الأوثان، ومعهم عبد الله بن رواحة، فغشيت المجلس عجاجة الدابة، فخمَّر عبد الله بن أُبي أنفه بردائه وقال: لا تغبِّروا علينا، فوقف النبي ﷺ ونزل، ثم سلَّم عليهم ودعاهم إلى الإسلام وقرأ عليهم شيئًا من القرآن، فقال عبد الله: ما أحسن ما تقول إن كان حقًّا، ولكن لا تؤذنا في مجالسنا، وارجع إلى رحْلك، فمن جاءك فاقصص عليه.

قال عبد الله بن رواحة: بل اغشنا في مجالسنا، فإنا نحب ذلك، فاستبَّ أهل المجلس، فهدَّأهم النبي ﷺ ثم ركب دابته وذهب حتى دخل على سعد بن عُبادة، فقصَّ عليه ما حدث، فقال سعد: اعفُ عنه واصفح، فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاءك الله بالحق، وأهل المدينة ينظِمون له الخرز ليتوِّجوه مَلِكًا عليهم، فهذا هو سبب ما رأيت، فعفا عنه النبي ﷺ كما عفا عن المشركين وأهل الكتاب.

وقد أمره الله أن يصبر على أذاهم، وكان النبي ﷺ يتأوَّل العفو، حتى أذِن الله له بالجهاد، فلما غزا بدرًا وقتل صناديد قريش قال عبد الله بن أُبي: هذا أمرٌ قد توجه، فبايع الرسول على الإسلام فأسلم هو ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان[1].

٤- وعن الزهري أن كعب بن الأشرف اليهودي كان شاعرًا، وكان يهجو النبي ﷺ ويحرِّض

---

(١) انظر نص الحديث في «صحيح البخاري» عن عروة بن الزبير برقم (٤٥٦٦) في التفسير (٢٩٨٧) ومسلم (٧٩٨).

عليه كفار قريش في شِعْره، وكان المشركون واليهود في المدينة يؤذون النبي ﷺ حين قدِمها ويؤذون أصحابه أشد الأذى، فأمر الله نبيَّه بالصبر والعفو عنهم، فأنزل الله الآية[١].

وفي معنى هذه الآية يقول سبحانه تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء: ٨٩] ويقول جل شأنه: ﴿وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة: ٢].

والعفو: ترك العقوبة على الذنب، **والصفح**: الإعراض عنه وعدم مواجهته باللوم ونحوه، والصفح أبلغ من العفو.

وفي الحديث عن أبي موسى ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله ﷻ، يدعون له ندًّا وهو يرزقهم!»**[٢]

ألا فاتركوا معاقبتهم - أيها المؤمنون - وأعرضوا عنهم حتى يأذن الله لكم في الانتصار منهم بعد أن تتهيَّأ أسبابه.

دَعْوَةُ المُسْلِمِينَ لِإصْلَاحِ شُؤُونِهِم مَعَ اللهِ وَمَعَ النَّاسِ

١١٠- ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾

ثم امضوا - أيها المسلمون - في إصلاح شأنكم، وإقامة عمودَيْ الدين، وتقديم الخير لكم ولغيركم ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ واظبوا على العبادة البدنيَّة والماليَّة ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ﴾ فرضًا أو نفلًا ﴿تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ خيرًا وأعظم أجرًا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: اشتغلوا بإقامة الصلاة وأداء الزكاة وأعمال الخير والبر، وفعل القربات، في الوقت الحاضر، فإن الوقت لم يحن بعدُ للأمر بقتالهم، والله سبحانه لن يضيع ثواب أعمالكم، فهو سبحانه بصيرٌ بكل أعمالكم وسيجازيكم عليها بالإحسان إحسانًا، وبالإساءة مثلها، ولا تكونوا كبني إسرائيل يشككون في الإسلام ويطعنون في مصادره.

---

(١) النيسابوري ص٢٩ والسيوطي ص١٣ و«الدر المنثور» (١/ ١٠٧).

(٢) من حديث أبي موسى في البخاري (٦٠٩٩، ٧٣٧٨) ومسلم (٢٨٠٤) و«المسند» (١٩٥٢٧) بإسناد صحيح على شرط الشيخين كما قال محققوه وابن حبان (٢٤٢) و«الأدب المفرد» (٣٨٩) و«السنن الكبرى» للنسائي (٧٦٦١).

مُخَالَفَةُ الْيَهُودِ الثَّالِثَة وَالْعِشْرُونَ: زَعْمُهُم أَن الجَنَّةَ خُلِقَتْ لَهُم وَالرَّدُّ عَلَى ذَلِكَ

١١١- ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْۗ[1] قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾

ادّعى اليهود أن الجنة خلقت لهم، وادّعى النصارى أنها خلقت لهم، وهذا مجرد أكاذيب، فإن كل دعوة لابد لها من بُرهان وحجة على صحتها.

هذا: ولما قدِم وفد نصارى نجران على رسول الله ﷺ والْتقوا مع يهود المدينة في مجلس ضمَّهم عند رسول الله ﷺ وكان بين الفريقين -أحبار اليهود ورهبان النَّصَارَى- مناظرات ارتفعت فيها أصواتهم، فكان منها أن اليهود قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان هُودًا، أي: أن الجنة خاصة بهم في الدار الآخرة، ولا يدخلها غيرُهم، وقالت النَّصَارَى كذلك: لن يدخل الجنة إلا من كان نصرانيًا، وذلك قول الله سبحانه: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰۗ﴾ فبيَّن الله سبحانه أن هذه خرافات وأوهام وأماني كاذبة، وذلك في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْۗ﴾ أي: أنها أماني تمنَّوْها على الله بغير حق، بل سوَّلتها لهم أنفسهم، وخدعهم بها الشيطان وهي دعوى كاذبة، فأين الدليل والبرهان على هذه المقالة؟! فأتوا به إن كانت دعواكم حقًّا ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ على صحة هذا الاختصاص ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم.

ونظير هذه الآية ما حكاه الله تعالى عنهم في قوله ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْۗ﴾ [البقرة: ١٣٥] أي قالت اليهود: كونوا هودا تهتدوا، وقالت النَّصَارَى: كونوا نصارى تهتدوا، وكلا الفريقين يزعم أن المسلمين ليسوا أهلًا للجنة ولا للهداية.

ولمّا لم يكن لليهود ولا للنصارى برهان يصدق دعواهم أو يكذبها، فقد عُلم بهذا كذبهم، وذكر سبحانه وتعالى في الآية التالية البرهان العام لهذه القضية فقال:

---

(١) قرأ أبو جعفر ﴿تِلْكَ أَمَانِيهِمْ﴾ بياء مديّة بعد النون ثم هاء مكسورة، وقرأ باقي القراء كقراءة حفص ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْۗ﴾ بياء مشددة بعدها هاء مضمومة.

١١٢- ﴿بَلَىٰ[١] مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ[٢] مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ[٣] عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾

بيَّن سبحانه أن الأمر ليس كما زعم كل فريق من اليهود والنَّصارَى، من أن الجنة تختص بطائفة منهم دون غيرها، وإنما يدخل الجنة كل من أخلص دينه لله، فأسلم وجهه له، وكان شديد الامتثال لأوامره ونواهيه، مراقبًا لله في كل تصرُّفاته، مؤديًا للأعمال الصالحة على أحسن وجه، فهذه هي قاعدة الجزاء العادل الذي تُوفَّى به كل نفس يوم القيامة ما كسبت، فقال جل شأنه: ﴿بَلَىٰ﴾ ليس الأمر كما تزعمون أيها اليهود والنَّصارَى، ولكن ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ أي: أسلم ذاته لله تسليمًا مطلقًا، فأخلص لله أعماله، وتوجّه بقلبه إلى الله تعالى.

ولا يكفي إسلام الذات لله تعالى، ولا يكفى العمل الصالح إلا إذا كان متوّجًا بالإخلاص، ولذا قال تعالى في الشرط الثاني: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في عبادة ربه، يعبده بما شرع، وهذا وصفٌ للمسلم المحسن الصادق الإيمان الذي أخلص لله في كل أقواله وأفعاله، فهو الذي أسلم وجهه لله بصدق وإخلاص ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ﴾ ثواب عمله ﴿عِندَ رَبِّهِۦ﴾ يوم لقائه في الآخرة، ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ مما يُصيبهم في المستقبل ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما فاتهم من حظوظ الدنيا، والآية تشير إلى أن العمل المُتقبَّل له **شرطان**.

أحدهما: أن يكون خالصًا لله من الشرك والرياء.

وثانيهما: أن يكون موافقًا للشريعة التي جاء بها محمد ﷺ

ولو فَقد العمل أحدهما فهو رَدٌّ على صاحبه، وهذا معنى ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ

(١) أَمَالَ حمزة والكسائي وخلف العاشر (بلى)، وبالفتح والتقليل للأزرق ودوري وأبي عمرو، وبالفتح والإمالة لشعبة.

(٢) سَكَّن الهاء من (وهْو) قالون وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر، وضمها الباقون، ووقف عليها يعقوب بهاء السكت.

(٣) قرأ يعقوب (لا خوفَ عليهم) بفتح الفاء، على أن (لا) نافية للجنس تعمل عمل إن؛ فترفع الاسم وتنصب الخبر، وقرأ الباقون بتنوين الفاء المرفوعة، على أن (لا) ملغاة لا عمل لها، وقرأ حمزة ويعقوب بضم الهاء من (عليهُم) وكسرها الباقون.

﴿مُحْسِنٌ﴾ ونظيره قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]

قال تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾ [آل عمران: ٢٠].

ويفهم من هذا أنَّ من ليس كذلك فهو من أهل النار الهالكين، فلا نجاة إلا لأهل الإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول.

الْمُخَالَفَةُ الرَّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ: تَكْذِيبُ كُلٍّ مِنَ اليَهُودِ والنَّصَارَى لِلآخَرِ

١١٣- ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

وقد بلغ الأمر بأهل الكتاب أن ضلل بعضهم بعضًا، وكفّر بعضهم بعضًا، فكل طائفة تكفّر الأخرى، والله سيحكم بينهم يوم القيامة بحكمة العادل،

ومن المُناظرات التي وقعت بين النَّصَارَى واليهود في مجلس النبي ﷺ: أن كُلًّا من الفريقين كذَّب الآخر، وأنكر دينه، وأنكر رسوله وكتابه وكفَر به: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أي: ليسوا على دين صحيح، وليسوا على كتابٍ حق، وكفروا بعيسى والإنجيل ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أي: أن دينهم باطل وكتابهم باطل، وكفروا بموسى والتوراة، مع علم كل واحد من الفريقين ببطلان ما قاله؛ لأن كتابه يُثبت الرسالة الأخرى ويؤمن بها.

وذلك لما قَدِمَ وفد نصارى نجران على رسول الله ﷺ وأتتهم أحبار يهود، وهم عند النبي ﷺ فناظروهم في الدين وجادلوهم حتى تسابوا وكفر كل منهما بالآخر عند رسول الله ﷺ فقال رافع بن حريملة: ما أنتم على شيء! وكفر بعيسى ابن مريم وبالإنجيل، فقال رجل من نصارى نجران: ما أنتم على شيء! وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة، فأنزل الله فيهما هذه الآية[1].

وقال قتادة: قد كانت أوائل النَّصَارَى على شيء ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا، وكانت أوائل

---

(١) «تفسير الطبري» عن قتادة بسند حسن (١/ ٣٩٤) وأخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن عن ابن عباس وعن أبي العالية برقم (١١٠٣) و«سيرة ابن هشام» (١/ ٥٤٩).

اليهود على شيء لكنهم ابتدعوا وتفرقوا[1] وهذا بالنظر إلى أصل الشريعة.

قال سبحانه: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ أي: والحال أنهم يقرؤون التوارة والإنجيل، وليس فيهما هذا الاختلاف، ولا هذا التكذيب، بل فيهما وجوب الإيمان بالأنبياء جميعًا، وليس فيهما ما يثير شُبهة في عدم صحة رسالة محمد ﷺ، ولا في تكذيب رسول من رسل الله، أو تكذيب ما أنزل عليه من عند الله.

والقاعدة: أن كل أمةٍ لها كتاب ورسول وشريعة، فديانتها قائمة إلى أن تأتي الرسالة التي بعدها، والكتاب الذي يليها ينسخها، ويجب على كل من أدرك الرسالة التالية أن يؤمن بالرسول اللاحق وبالكتاب الذي نزل عليه، فالوحي الذي نزل على الرسول السابق هو نفسه الوحي الذي نزل على الرسول اللاحق، وآخرهم محمد ﷺ وكلهم يدعون إلى توحيد الله.

والنسخ يكون في بعض الأحكام التشريعية.

قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أي: كذلك قال المشركون والجهلة -ممن لا علم لهم من العرب مثل قول اليهود والنَّصَارَى فقالوا : إن محمدا ليس على شيء من الحق، فالله يَفْصل بينهم يوم القيامة، ويجازي كُلًّا بعمله ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الحج: ١٧].

مُخَالَفَةُ الْيَهُودِ الْخَامِسَةُ وَالْعِشْرُونَ: تَخْرِيبُ مَسَاجِدِ اللَّهِ وعَلَى رَأْسِهَا الْمَسْجِدُ الأَقْصَى

١١٤- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ۚ أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ[2] لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١٤)﴾

تهدف حملة اليهود في القديم والحديث إلى القضاء على الإسلام، ومن ذلك: تخريب مساجد الله، ومنع الأذان، والصلاة، وإقامة العبادة في بيوت الله، كذكر الله، وتلاوة القرآن، والاعتكاف فيها، ولا يوجد أحدٌ أظلم عند الله سبحانه ممن كان سببًا مانعًا من

---

(١) الطبري (٢/ ٤٢٧).

(٢) هذه الكلمة (خائفين) آية، المصحف البصري، وأسقطها غيره من العدد.

إقامة الصلاة في بيوت الله، فهدَمها أو أغلقها، أو جعلها لهدفٍ آخر، ومن ذلك تخريب اليهود والنصارى لبيت المقدس، وقصة أصحاب الفيل وقريش، وصد المشركين للرسول ﷺ عام الحديبية، وقصر المساجد على أداء الصلاة.

فتخريب المساجد، منه ما هو حسي، بهدمها وتخريبها وتقذيرها، ومنها ما هو معنوي، بمنع الصلاة فيها، أو منع الدروس العلمية والحلقات والندوات والمحاضرات فيها، والاقتصار على الصلاة فحسب، وفصل المسجد عن واقع الناس وحوادث الدهر.

قال القرطبي: وخراب المساجد قد يكون حقيقيًّا، كتخريب بخْتنصر والرومان لبيت المقدس، حيث قذفوا فيه القاذورات وهدموه، وقد يكون معنويًّا، كمنع المشركين حين صدوا رسول الله ﷺ عن المسجد الحرام، وعلى الجملة فتعطيل المساجد عن الصلاة وعن إظهار شعائر الإسلام فيه خرابٌ لها(١).

فالآية تشير إلى منع أهل مكة للنبي ﷺ من دخولها، كما جاء في حديث سعد بن معاذ حين دخل مكة خُفية، فقال له أبو جهل: لا أراك تطوف بالبيت آمنًا، وقد أَوَيتُم الصباء، وتكرر ذلك عام الحديبية، ونزول الآية في هذا مرويٌّ عن ابن عباس، وبالمقابل فإنه لا أعظم إيمانًا مِمَّنْ سعى في عمارة المساجد حسِّيًّا ومعنويًّ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٨] بل قد أمر الله برفع بيوته وتعظيمها وتكريمها وإقامة الشعائر ودروس العلم فيها قال تعالى: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ . .﴾ [النور: ٣٦، ٣٧]

تَخْرِيبُ مَلِكِ آشور لِلْمَسْجِدِ الأَقْصَى ثَلَاثَ مَرَّاتٍ

أما بختنصر -ملك أشور- فقد غزا بيت المقدس **ثلاث مرات**:

أولاها: سنة ٦٠٦ قبل الميلاد، وقد سَبَى فيها جمعًا من شعب بني إسرائيل.

وثانيها: بعد ثمانين سنة من الغزوة الأولى سبى فيها ملك اليهود، ورؤساء مملكته، ونهب ما في بيت المقدس من نفائس وكنوز.

---

(١) «تفسير القرطبي» (٢/ ٧٧).

وثالثها: بعد عشر سنين، حيث أسَر الملك (صدقيا) وسَمَل عينيه، وأحرق المسجد الأقصى وجميع المدينة، وسبى جميع بني إسرائيل، وانقرضت مملكتهم، وكان ذلك سنة ٥٧٨ قبل الميلاد وهذا هو السبي الثالث، وفي كلٍّ منها منعُ بيت المقدس أن يُذكر فيه اسم الله، وتسببٌ في خرابه[1].

قلت: إن (ناتانياهو) رئيس وزراء الكيان الصهيوني، كتب في هذا كتابًا، يبين فيه أنهم يتطلعون إلى الانتقام من العراق وأخذ الثأر منها، وما حدث في هذا العام من احتلال أمريكا وبريطانيا للعراق بمساعدة إسرائيل والموساد هو تنفيذٌ لهذا المخطط اليهودي[2].

أما الرومان فقد غَزَوْا أورشليم سنة ٧٩ قبل الميلاد فخرَّبوا بيت المقدس وأحرقوا التوراة وظل المسجد خرابًا حتى بناه المسلمون بعد فتح الشام[3].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ بتعطيلها وتخريبها ومنع إقامة الشعائر فيها، والعمل على تخريبها بالهدْم أو الإغلاق، أو منع المؤمنين من الدعوة إلى الله فيها بحرية كاملة، فهذا صدٌّ للناس عن سبيل الله.

وقد توعَّد الله من يصُد عن سبيله بشدة العذاب في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الأنفال: ٣٤].

وقال تعالى فيمن صدوا رسول الله عن دخول المسجد الحرام: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٥] وكلُّ من يفعل ذلك فهو أظلم الناس؛ من مسلم أو يهودي أو نصراني أو سيخي أو بوذي. . .إلخ.

وهؤلاء الظالمون ما كان ينبغي لهم أن يدخلوا المساجد إلا على خوف من الله، وخوف من عباده المؤمنين، بمعنى: أنه يجب على المؤمنين إخافتهم ومنعهم من دخول بيوت الله وهدمها وتخريبها، ويجب أن تكون الدعوة إلى الله تعالى فيها وإقامة الشعائر بها، مكفُولة بحرية لكل مسلم، ولكل من يريد الدخول في الإسلام.

---

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (١/ ٦٧٩).

(٢) كتب هذا التفسير في هذه الحقبة من الزمن التي احتُلّت فيها العراق وكان ذلك في عام ٢٠٠٣م.

(٣) «تفسير التحرير والتنوير» (١/ ٦٧٩).

ثم أرشد الله عباده إلى أنه ينبغي لهم أن يمنعوا مساجد الله من أهل الكفر، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ﴾ ذليلين صاغرين حقيرين ممنوعين من دخولها.

وقد استدل بعض أهل العلم بهذه الآية على أنه لا يجوز تمكين الكفار من دخول المساجد، إلا لمصلحة راجحة تتعلق بعمارتها، ولا يوجد في المسلمين من يقوم بها، وذلك باستثناء المسجد الحرام ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة: ٢٨]

قال كعب الأحبار: إن النَّصارَى لما ظهروا على بيت المقدس خرَّبوه، فلما بعث الله محمدًا ﷺ أنزل عليه هذه الآية، فليس في الأرض نصراني يدخل بيت المقدس إلا خائفًا[١].

قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: لهم جزاء في الدنيا بالخزي والفضيحة والهزيمة، وجزاء في الآخرة بالعذاب الشديد.

عن بُسر بن أرطاة قال: كان رسول الله ﷺ يدعو: «**اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها وأجِرنا من خِزي الدنيا وعذاب الآخرة**»[٢].

أما خزي الدنيا فعلى المسلم أن يتأمل ماذا حلَّ بالرومان، وماذا كانت عاقبة المشركين، وبماذا انتهى عدوان الصليبيين، وكيف انقرض حزب القرامطة المجرمين، وأخزى من ذلك ما سيحل باليهود -إن شاء الله- من ذُل ومسكنة وتمزيق وهزيمة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ [الإسراء: ٨] فقد نزلت هذه الآية فيمن خرَّبوا بيت المقدس من الروم والفرس والنَّصارَى والشيوعيين، ومن يخرِّبون بيوت الله في كل زمان ومكان، وأما عذاب الآخرة فهو عذابٌ هائلٌ عظيمٌ أعده الله لهذه الفئة من الناس في نار جهنم وبئس المصير.

١- والآية تشمل حادثة القرامطة الذين هدموا الكعبة ومنعوا المسلمين منها وهدموا كثيرًا من المساجد.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٨٩) وابن أبي حاتم (١١١٥).

(٢) «المسند» (٤/ ١٨١) برقم (١٧٦٢٨) والبخاري في «التاريخ الكبير» (١/ ٣٠) و«الصغير» (١/ ٣١٦) قال محققو المسند: رجاله موثقون غير أيوب بن ميسرة.

٢- وكان النَّصَارَى يضعُون الأذى في بيت المقدس لمنع الناس من الصلاة فيه[١].

٣- ومَنَعَ المشركون رسول الله ﷺ أن يدخل المسجد الحرام في عام الحديبية.

٤- وأقام بعض المنافقين مسجد الضرار لتحويل المسلمين إلى الصلاة فيه.

٥- ويراقب بعض الحكام من يترددون على بيوت الله لأداء الصلاة خوفًا على سُلطانهم، ومُنعت الدعوة إلى الله تعالى في كثير من المساجد إلا من دعاة الدولة في الحدود المطلوبة.

٦- وحَوَّلت الشيوعية -البائدة- آلاف المساجد التي كانت في الجمهوريات الإسلامية الخاضعة لها آنذاك إلى اصطبلات وحانات.

وبناء على القول بتعدد النزول وعموم الحكم فإن هذه الآية نزلت في اليهود الذين يحاولون تشكيك المسلمين وصرْفهم عن الكعبة، وهي تشير إلى حادثة وقعت بعد المسيح بسبعين سنة، حين دخل (تيطس) ملك الروم بيت المقدس وخرَّبه حتى صارت المدينة تلًّا من التراب، وأحرق ما كان عند اليهود من نُسخ التوراة.

ونزلت في بخْتنصر المجوسي الذي خرَّب بيت المقدس[٢].

ونزلت في اليهود المعاصرين الذين يخرِّبون بيت المقدس؛ لإقامة معبد سليمان على أنقاضه، ونزلت فيهم حين أقدموا على إحراق جُزء منه سنة ١٩٥٩م وحين دنَّسوه بدخول (شارون)[٣] فيه تحت حماية يهودية صهيونية.

ونزلت في الحفريات والأنفاق التي جعلوها تحت المسجد الأقصى وحوله.

ونزلت في تدنيسهم لحائط البراق وتسميته بحائط المبكى، وفي منع اليهود للمسلمين الشباب من الصلاة فيه، وصلاة الشيوخ فيه تحت حراسة يهودية، وفي السماح لليهود

(١) كما أخرجه الطبري بسند صحيح عن مجاهد.

(٢) كما أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح عن قتادة، «تفسير عبد الرزاق» ص٤٤ و«تفسير الطبري» (١/ ٣٩٧).

(٣) رئيس وزراء الكيان الصهيوني في عام ٢٠٠٥م وقد جعله الله عبرة لكل من يأتي بعده، فهو لم يزل حتى كتابة هذه الحاشية في شهر فبراير ٢٠٠٩م وهو جثة هامدة تحت الأجهزة الطبية، بلا حياة ولا موت، حاله كحال فرعون حين نجاه الله ببدنه ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس: ٩٢].

بالصلاة فيه، وفي كل من يساعدهم في العالم، من الأفراد، والقوى الكبرى، والمؤسسات العالمية، وكل من صنع صنيعهم، وفَعَلَ فِعْلهم في أي بيت من بيوت الله تعالى.

وتمت الحفريات التي تُحيط بالمسجد الأقصى من قِبل اليهود تمهيدًا لإقامة المعبد المزعوم على أنقاضه، وقد وضع اليهود حجرًا رمزيًا لإقامة هيكل سليمان الثالث في يوم الأحد ٢٩ يوليو ٢٠٠١م وأنا بصدد كتابة هذه السطور، فالآية عامة وإن كان السبب خاصًا.

مِنْ نَتَائِجِ تخْرِيْبِ المَسَاجِدِ: عَدَمُ معْرِفةِ الْقِبْلَةِ

١١٥- ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ[(١)] وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾

وربما ينتج عن تخريب المساجد أو صدِّ الناس عنها عدم معرفة القبلة في الصلاة؛ ولذا فإن هذه الآية تبين أن لله تعالى جهة الشروق والغروب؛ هو الخالق والمالك لهما، وهو الذي أمركم باستقبال الكعبة بعد أن كنتم تستقبلون بيت المقدس، ويأمركم بصلاة النافلة في السفر على الراحلة اين ما توجهت، وأينما حلَّ الإنسان وتحرى القِبلة، ثم توجَّه إليها بعد اجتهاد فقد أصاب الجهة المطلوبة.

قال عامر بن ربيعة: كنا مع النبي ﷺ في ليلة سوداء مُظلِمة، أي: وكان في الجوِّ ضبابٌ كثيفٌ، فجعل الرجل منهم يأخذ الأحجار ولم يعرفوا الاتجاه إلى القبلة، واجتهدوا قَبْلَ الصلاة في تعيينها، ثم صلوا، وفي الصباح وجدوا أنهم قد صَلَّوْا إلى غير القِبلة، فقالوا: يا رسول الله، صلينا ليلتنا هذه إلى غير القبلة، فأنزل الله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ فقال: «**مضت صلاتكم**»[(٢)].

فالأرض كلها ملك لله تعالى، وأينما توجَّهتم إلى الصلاة لم تخرجوا عن طاعته سبحانه، فإن مُنِعْتُم من الصلاة في المسجد الأقصى فقد جعلت لكم الأرض مسجدًا وطهورًا.

---

(١) وقف رويس بهاء السكت على (فثمه) بخلف عنه، والباقون بدونها.

(٢) أخرجه الطبري بسنده عن عامر بن ربيعة عن أبيه، «تفسير الطبري» (٢/ ٥٣١) وقد ذكر القصة أبو داود الطيالسي (١٢٤١) وعبد بن حميد (٣١٦) والترمذي (٣٤٥، ٢٩٥٧) وابن ماجه (١٠٢٠) وابن أبي حاتم (١١٢٠) قال العقيلي: حديث عامر بن ربيعة ليس يُروى من وجه يثبت متنه، وانظر نصب الراية (١/ ٣٠٤). وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٨٤) وصحيح سنن ابن ماجه (١٠٢٠).

وهذه الآية تنطبق على كل من يجتهد في معرفة القبلة قبل أن يصلي إذا كان في غير بلاد المسلمين وليس فيها مساجد، وليس هناك ما يحدد اتجاه القبلة، أو كان في صحراء مسافرًا في ليلة مُظلِمة وضلَّ معرفة القبلة، أو كان مريضًا مكبَّلًا في أجهزة ولا يستطيع التوجُّه إلى القبلة، ومثل ذلك من الأحوال، فإن الآية تنطبق عليه.

وكذلك المسافر الذي يُصلي النافلة على الراحلة؛ في الطائرة أينما اتجهت، وفي السيارة أينما اتجهت، وعلى الدابة أينما اتجهت، فصلاته صحيحة، أما في الأحوال العادية، فإن استقبال القبلة من شروط صحة الصلاة، ويجب بذل الجهد قبل الصلاة لتحديد اتجاه القبلة عن طريق جهة غروب الشمس وشروقها ونحو ذلك إن كان في صحراء أو غيرها، والله تعالى واسع الرحمة عليم بمصلحة عباده ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾، ومن سعته أن وسّع لكم الأمر ولم يضيق عليكم في التوجه إلى القبلة.

وفي الآية إثبات الوجه لله تعالى على الوجه اللائق بجلاله، وليس كمثله شيء.

وفي صحيح مسلم وغيره عن ابن عمر ﷺ أن النبي ﷺ كان يصلي على دابته وهو مُقبِل من مكة إلى المدينة حيثما توجهت[(١)].

وقال ابن عمر: أُنزلت في المسافر يصلي التطوع حيثما توجَّهت به راحلته.

ولعل الأرجح أن هذه الآية نزلت تمهيدًا لتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة قبل أن يُفرض التوجه إليها ليُعلِم الله نبيه أن قبلة الله أينما توجهت شرقًا أو غربًا، وذلك لأن الشأن هو توالي نزول الآيات.

وآيات تحويل القبلة تأتي في الرُّبع بعد التالي من السورة، فالأوْلى أن تكون هذه الآية مُمَهِّدة لحدث تحويل القبلة وردٌّ مُسبَق على قول اليهود: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢] وإلى جوار ذلك فإن مقصد الآية عامٌّ، يشمل صلاة النافلة في السفر حيثما توجهت السيارة أو الدَّابة، كما ثبت ذلك في الأحاديث السابقة، ويشمل أيضًا

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٧٠٠) و«سنن الترمذي» برقم (٢٩٥٨) وصحيح الترمذي بنحوه (٢٨٣) بنحوه و«سنن النسائي» (١/ ٢٤٤) وصحيح النسائي (٤٧٧) بلفظه و«تفسير الطبري» (٢/ ٥٣٠) وابن أبي حاتم (١/ ٣٤٤).

صلاة الفريضة في أحوال خاصة، كمَن تعذَّر عليه معرفة القبلة على وجه التحديد لسبب من الأسباب، كمن غُمَّت عليه الرؤية في الصحراء، أو كان في رحلة طويلة جوًّا سيفوت معها وقت الصلاة مع مراعاة جمع التقديم والتأخير بين الظهر والعصر، والمغرب والعشاء، أو كان مجبرًا على التوجه إلى غير القبلة.

ومن ذلك ما جاء عن عطاء بن رباح عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: بعث رسول الله ﷺ سرِيَة كنتُ فيها، فأصابتنا ظُلمة، فلم نعرف القبلة، فقالت طائفة منا: قد عرفنا القبلة، هي ههنا، جهة الشمال، فصلُّوا وخطُّوا خطوطًا، وقال بعضنا: القبلة ههنا، جهة الجنوب، وخطُّوا خطُوطًا، فلما أصبحوا وطلعت الشمس أصبحت تلك الخطوط لغير القبلة، فلما رجعنا من سفرنا سألْنا النبي ﷺ عن ذلك، فسكتَ، فأنزل الله الآية[١].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء: إن النجاشي لما تُوفِّيَ قال جبريل للنبي ﷺ: إن النجاشي تُوفي، فصلِّ عليه، فأمر النبي ﷺ أن يحضروا، وصَفَّهم، ثم تقدَّم وقال لهم: «**إن الله أمرني أن أصلي على النجاشي، وقد تُوفِّي، فصلُّوا عليه**» فقالوا: كيف نصلي على رجل مات وهو يصلي على غير قبلتنا؟! وكان النجاشي يُصلي إلى بيت المقدس حتى مات، وقد صُرفت القبلة إلى الكعبة، فأنزل الله الآية[٢].

مُخَالَفَةُ الْيَهُودِ السَّادِسَةُ وَالْعِشْرُونَ: قَوْلُهُم (عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ)

١١٦- ﴿[٣]وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾

ومن فَظائِعهم أنهم نسبوا الولد إلى الله تعالى، فقالت اليهود: عزيرٌ ابن الله، كما قالت

---

(١) رواه الدارقطني في «السنن» (١/ ٢٧١) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢/ ١٢).

(٢) يُنْظَر: تصحيح الحاكم والذهبي له في «المستدرك» (٢/ ٢٦٧) و«أسباب النزول» للواحدي ص٣١ والسيوطي ص١٥، وأخرجه الدارقطني (١/ ٢٧١) والبيهقي (٢/ ١١) وضعفه، كما ضعفه ابن حزم في «المحلى» (٣/ ٢٩٦) أما القول بأن هذه الآية مَنسوخة كما في رواية أبي عبيد عن ابن عباس ففي إسناده عطاء الخراساني، وهو ضعيف.

(٣) قرأ ابن عامر (قالوا اتخذ الله ولدًا) بدون واو قبل قالوا على الاستئناف، وهذا موافق لرسم المصحف العثماني المُرسَل للشام، وقرأ الباقون (وقالوا) بالواو، عطف جملة على جملة، وهذا موافق للرسم العثماني في المصاحف الأخرى بالمدينة ومكة والعراق.

النَّصَارَى: المسيح ابن الله، وقال المشركون: الملائكة بنات الله، فاجتمعت على هذه الضلالات الفرق الثلاث، ونسبو إلى الله تعالى مالا يليق بجلاله، وهو سبحانه حليم بهم، يعافيهم ويرزقهم، وقد تنزه جل شأنه عما وصفوه به، فسبحان مَنْ له الكمال المطلق، ولا يعتريه نقص بوجه من الوجوه، وقد أقام الله الحجة والبرهان على تنزيهه تعالى بأن جميع مافي هذا الكون ملك لله تعالى، وكلهم مسخرون تحت تدبيره مفتقرون إليه، وهو غني عنهم، فكيف يكون واحدا منهم، له ولد، وهذا من أبطل الباطل:

١- وفي البخاري عن ابن عباس ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**قال الله ﷻ: كذَّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأمَّا تكذيبه إياي، فيزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي، فقوله: إن لي ولدًا، فسُبحاني أن أتَّخذ صاحبةً أو ولدًا**»[1].

٢- وفي لفظ آخر عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**يقول الله ﷻ: كذبني ابن آدم ولم ينبغِ له أن يكذبني، وشتمني ولم ينبغ له أن يشتمني، أما تكذيبه إياي فقوله: لن يُعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته، وأما شتْمُه إيايَّ فقوله: اتخذ الله ولدا، وأنا الله الأحد الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد**»[2].

٣- وفي الصَّحيحين وغيرهما عن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولدًا وهو يرزقهم ويعافيهم!**»[3].

وهذا معنى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ﴾ والقائل هم المشركون واليهود والنصارى، ونسبة الولد إليه سبحانه شرك أكبر مخرج من الملة، ويعلِّمنا جل شأنه كيف ننزِّهه عن الشريك والولد، فيقول ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾ تنزَّه جلَّ شأنه عن هذا القول الباطل.

وكان النبي ﷺ إذا مر بآية تنزيهٍ سبَّح، فجميع الكائنات مخلوقة ومربُوبة لله تعالى، فهي في قبضته وتحت تصرُّفه، وهو مالِكُها وقاهِرُها، وهي مُنقَادة لله جل شأنه ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ ملكًا وخلقًا وعبيدًا، فليس الأمر كما زعموا بل هو سبحانه خالقُ هذا

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٤٨٢).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٣١٩٣، ٤٩٧٤، ٤٩٧٥) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٤٩).

(٣) البخاري برقم (٦٠٩٩) ومسلم برقم (٢٨٠٤) عن أبي موسى و«المسند» (١٩٥٢٧) والنسائي في «الكبرى» (١١٤٤٥) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١٠٦٣).

الكون بما فيه الملائكة والمسيحُ وعزيرٌ، والكلُّ منقادٌ إليه، لا يستعصي عليه شيءٌ في الخلق والتدبير ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ مُطيعون ومُقِرُّون له بالعبودية، ضمن مخلوقات الله تعالى، فجميع الخلق تحت تدبير الخالق، وهذا معنى القنوت العام للخلق كلهم، وهناك قنوت خاص للراكعين الساجدين جاء في قوله تعالى ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] وقوله: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ﴾ [آل عمران: ٤٣]

والقول بنسبة الولد إلى الله تعالى قولٌ شنيعٌ تتفطَّر له السموات، وتنشقُّ له الأرض، وتخرُّ له الجبال ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم]

وقول المشركين: الملائكة بنات الله، ناشئٌ عن جهل منهم بعظمة الله عز وجل.

وقول اليهود: عزيرٌ ابن الله، سببه: أن عزيرًا كتب معظم التوراة من حِفْظِه بعد أن أُحرقت في التابوت.

وقول النَّصارَى: المسيح ابن الله ناشئٌ من سوء فهم للنصوص التي في الأناجيل، فهي على وجه التشبيه كما في الأثر عن أنس (الخلق عيال الله)[1].

وكما في وصف بعض الصالحين لأنفسهم بأنهم أبناء الله وأحبابه، وهذا على حد زعمهم.

تَنْزِيهُ اللَّهِ تَعَالَى عَمَّا يَقُولُهُ اليَهُوْدُ

١١٧- ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ[2]﴾

وكيف لا يخضع جميع الخلق لخالقهم، وهو سبحانه مبدع السموات والأرض قد خلقهما فأتقنهما وأحسنهما على غير مثال سبق، فهو ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ خالقهما

---

(١) رواه أبو يعلى والبزار كما في مجمع الزوائد (٨/ ٣٤) وفيه يوسف بن عطية الصفار وهو متروك، وانظر كنز العمال عن ابن عباسن تتمة الإكمال من الترغيب في الزكاة (١٦١٧١) وهو في الجامع الصغير، والجزء الثاني من فيض القدير، وطرقه كلها ضعيفة.

(٢) قرأ ابن عامر (كن فيكونَ) بالنصب على تقدير إضمار (أن) بعد الفاء، على أن (كن) أمر حقيقي، وقرأ الباقون (فيكونُ) بالرفع، على الاستئناف.

ومنشئهما، والكون كله رهن إشارته ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ قدَّره وأراد خلقه ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي: يوجد وفق ما أراد الله تعالى من حال العدم إلى حالة الوجود، لا يستعصي عليه ولا يمتنع منه.

وخَصَّ السموات والأرض بالإبداع؛ لأنهما أعظم ما يُشاهَد من المخلوقات.

وإذا قدَّر الله أمرًا أوجده سبحانه مرة واحدة وفق ما أراد، كما قال تعالى ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس].

وفي سورة النحل﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل].

وفي سورة القمر ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾[القمر]

وفي خلق عيسى عليه السلام بكلمة كُن قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران].

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام].

والبدعة على قسمين:

القسم الأول: بدعة شرعيَّة، وهي أن يُحدِث المرءُ في شرع الله ما ليس منه، وهذا هو المراد في قوله ﷺ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: **«وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة»**(١).

وهذه البدعة قد تكون بإضافة شيء زائد على المشروع، كمن يزيد الصلاة على النبي ﷺ بعد الأذان، أو بترك شيء مشروع، كمن يترك الصلاة على النبي ﷺ قصدًا عند ذكر اسمه، وهكذا كل ما كان من أمور الشرع، أما ما يتعلق بشئون الحياة -كالمذياع والهاتف والملعقة ونحو ذلك، فلا يُسمَّى بدعة.

والقسم الثاني: البدعة اللُّغوية كقول عمر رضي الله عنه في صلاة التراويح خَلف أُبي: نعمت

---

(١) من حديث طويل عن جابر في «المسند» (١٤٣٣٤). وهو حديث صحيح وإسناد حسن كما قال محققوه وأخرجه مسلم ٨٦٧ وابن ماجه ٤٥ و ابن حبان، وأبو يعلى (٢١١١).

البدعة هذه[١] فهي بدعة من ناحية الدلالة اللغوية؛ لأن الأصل موجود، وهو صلاة الصحابة خلف رسول الله ﷺ بِضعَ ليال من صلاة التراويح.

الْمُخَالَفَةُ السَّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ: مُشَابَهَةُ الْيَهُوْدِ لِلوَثَنِيِّينَ فِي جُرْأَتِهِم عَلَى اللهِ تَعَالَى

١١٨- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾

أي: قال الجهلة الذين لا علم لهم: لولا يكلمنا الله كما كلم موسى وسائر الرسل، أو تأتينا آية حسيَّة كنزول ملَك من السماء يؤيد دعوى محمد ﷺ، وقد بيّن سبحانه في هذه الآية أن اليهود يشابهون المشركين في هذا، ولو علم الله أنهم يؤمنون لأجابهم.

وقبل أربع آيات من هذه الآية كانت الآية تتحدث عن مجادلة أهل الكتاب فيما بينهم عن تفاضُل الشرائع، وبيَّنت الآية هناك أن ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهم مشركو العرب وغيرهم، قالوا مثل قول اليهود والنصارى في شأن محمد ﷺ من أنه ليس على شيء.

ثم أشرك سبحانه اليهود والنَّصارَى والمشركين الوثنيين في قولهم جميعًا: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾.

وفي هذه الآية بيَّن سبحانه أن ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهم الوثنيون يطلبون أن يكلِّمهم الله كما يكلِّم الرسل، ليخبرهم أن محمدًا رسول الله، ويطلبون أن تُلبَّى اقتراحاتُهم من الآيات الحسية، فيأتيهم بمعجزة مادية، تدل على صدق رسالته، كأن يُصيِّر جبل الصفا ذهبًا، أو ينزل عليه ملَكٌ يبلِّغ الدعوة معه.

ومثل هذين الطلبين سبق لمن قبلهم من الأمم أن طلبوهما، فالقلوب مُتشابهة، ولَمَّا لم تؤمن هذه الأمم برسل الله بعد أن أُجيبوا إلى ما طلبوا، استأصلهم الله بعذاب من عنده.

أما الأمم التي كانت معجزة رسولها كتابٌ نزل من عند الله -كالتوراة والإنجيل والزبور والقرآن- فإن هذه الأمم لا تُهلك بعذاب الاستئصال، إنما يؤخِّر الله عقاب المكذِّبين منهم إلى يوم لقائه.

ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من جهلة العرب من المشركين

---

(١) من حديث عمر في البخاري (٢٠١٠).

الوثنيين: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ مشافهة أو بإنزال الوحي كما يكلم الرسل، فيخبرنا أنك رسول الله ﴿أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ﴾ كناقة صالح وعصا موسى تصدقك في دعواك، وسؤالهم هذا على وجه التعنُّت، ولو علم الله أنهم يؤمنون لأجابهم إلى ما طلبوا كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩] لقد علم الله أنهم لن يؤمنوا ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

ثم بيَّن سبحانه أن اليهود والنصارى، قالو كما قال المشركون الوثنيون ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الأنعام: ٣٧].

وهكذا قال أهل الكتاب ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]

ولذا: فقد جاء في أسباب النزول أن رافع بن حريملة اليهودي قال لرسول الله ﷺ: إن كنت رسولًا من الله كما تقول فقل لله؛ فليكلِّمنا حتى نسمع كلامه، فنزلت الآية[1].

وفي هذا دليلٌ قويٌّ على أن اليهود هم المعنيُّون في الآية بالأصالة؛ لأن السياق فيهم ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ من الأمم الضالة، والفرق المنحرفة، والطوائف الهالكة، قالوا ﴿مِّثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ أي: مثل قول اليهود، قال تعالى: ﴿تَشَـٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ في الكفر والعناد ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ فيصدقون بها تصديقًا جازمًا، فكل مؤمن يعرف من آيات الله الباهرة وبراهينه الظاهرة، ما يحصل له به اليقين، ويندفع عنه كل شك وريب.

وهذه الآية جعلت اليهود والنَّصارَى مماثلين للمشركين الوثنيين في هذه المقالة؛ فكأنَّ أهل الكتاب مشابهين للمشركين في طلب آيات التعنت، وليس قصدهم الاسترشاد ولا بيان الحق.

ثم ذكر الله آية موجزة جامعة للآيات الدالة على صدق محمد ﷺ وصدق ما جاء به فقال تعالى:

---

(١) «تفسير ابن كثير» عن ابن عباس (١/٣٩٩) وهو في «سيرة ابن هشام» (١/٥٤٩) والطبري (٢/٤٧٤) وابن أبي حاتم (١١٤٠).

مِنْ أَوْصَافِ الرَّسُولِ فِي التَّوْرَاةِ

١١٩ - ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۖ وَلَا تُسْـَٔلُ[1] عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾﴾

ومُهِمَّة الرسول ﷺ هي بشرى من آمن وعمل صالحًا بجنة النعيم، وإنذار من كفر بالله ورسوله واليوم الآخر بعذاب الجحيم، فبلِّغ ذلك - أيها الرسول - للناس، ولست مسؤولًا بعد البلاغ عن كفرهم وعذابهم في نار جهنم ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]

أخرج الإمام أحمد وغيره عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة فقال: أجل، والله إنه لموصوفٌ في التوراة بصفته في القرآن: يأيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكِّل، لا فظٌّ ولا غليظٌ ولا صخَّاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتح به أعينًا عُمْيًا، وآذانا صمًّا، وقلوبًا غُلفًا[2].

وهذه الآية معترضة لتأنيس النبي ﷺ عن أسفه لِمَا لَقِيَهُ من المشركين وأهل الكتاب، وكان مما قال: **«لو أن عشرة من اليهود آمنوا بي لآمنوا كلهم»**[3].

والمراد عشرة من كبار أحبارهم، أو عشرة مخصوصين، وإلا فقد آمن به ﷺ منهم أكثر من هذا العدد. فكأن الله تعالى يعذر رسوله ويقول له: لا تذهب نفسك عليهم حسرات فقد بذلت الجهد في دعوتهم وهذه مُهمَّتُك.

هذا: وقد كان أهل الأرض قبل بعثة النبي ﷺ عُبّاد أوثان وصُلْبان ونيران، قد عمهم الجهل والشرك، إلا بقايا ممن هم على الحنيفية وأهل الكتاب.

ولذا: فقد أرسل الله محمد ﷺ يأمرهم بعبادة الله وحده، وكان ﷺ معروفًا قبل البعثة

(١) قرأ نافع ويعقوب (ولاتَسلْ) بفتح التاء وسكون اللام بالجزم على النهي، وقرأ الباقون بالرفع على الاستئناف.

(٢) «المسند» (٢/ ١٧٤) برقم (٦٦٢٢) حديث صحيح ورجال ثقات، و«صحيح البخاري» برقم (٢١٢٥، ٤٨٣٨). وفي الأدب المفرد (٢٤٧).

(٣) صحيح البخاري عن أبي هريرة برقم (٣٩٤١) وصحيح مسلم (٢٧٩٣) وفي الجامع لصغير (٧٤٢١).

بصدقة وأمانته وعفافه، وازدادت مكارمه وأخلاقه بعد البعثة، وأنزل الله عليه هذا القرآن العظيم فيه الأمر بكل حسن، والنهي عن كل قبيح، فمن اتبعه فقد نجا واهتدى، ومن لم يؤمن به فقد خسر وهلك.

مُخَالَفَةُ الْيَهُودِ الثَّامِنَةُ وَالْعِشْرُونَ: مُحاوَلَةُ إِخْرَاجِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ دِينِهِم

١٢٠- ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾

ثم قطع الله تعالى طمع رسوله ﷺ في إسلام اليهود والنَّصَارَى، وبيّن أنه لا يُرضيهم إلا اتباع ملتهم فهم دعاة دين، ويزعمون أنهم على هدى، وهذا هو السبب في الحملة الماكرة ضد الإسلام والمسلمين، وقد بيَّنه ربُّنا في قوله سبحانه: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ﴾ فتترك دينك وتدخل في ملتهم.

والملة: اسمٌ للشريعة المتَّبَعة، المكونة من العقائد والعبادات والأخلاق.

والكفر كله ملة واحدة، هذا هو السبب، وهذه هي العِلَّة والغاية من حملات التشكيك من اليهود والنَّصَارَى تجاه الإسلام والمسلمين، وهي قاعدة عامة إلى يوم القيامة، فهم يشكِّكون في الإسلام دائمًا، ويريدون إخراج المسلم من دينه إلى النصرانية واليهودية فدع ما يرضيهم وأقْبِل على رِضى ربك.

ثم أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبيِّن لليهود وغيرهم أن الإسلام هو الدين الحق ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ﴾ وهُدَى الله هو الإسلام، فهو الدين الصحيح، وليس بعده هُدى، فكيف نخرج منه إلى الضلال؟

أخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عن قتادة ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ﴾ قال: خصومة علَّمها الله محمدًا وأصحابه ﷺ، يخاصمون بها أهل الضلالة.

ثم حذَّر الله كل مسلم في شخص رسوله ﷺ ألا يتبع بعد الإسلام أهواء الأمم الأخرى، كما قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] فقال جل شأنه: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ في اتباع ملة اليهود أو النَّصَارَى ﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ﴾ أي: البراهين والحجج القاطعة على أن دين الإسلام هو الدين الخاتم الذي ليس في وسع المسلم أن

يتبع غيره، إنك إن فعلت ذلك ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي: ليس لك من ينفعك فيدفع عنك عقاب الله، أو ينصرك ويشفع لك عنده، إنك إن اتبعت أقوالهم وأفعالهم فلن تجد لك من يتولى أمرك فيحفظك ويمنع عنك عذاب الله، والخطاب موجَّه لكل مسلم.

حَقُّ التِّلَاوَةِ

١٢١ - ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾

وما دام اليهود والنَّصَارَى ليسوا على شيء من الهدى، فمن الذي على هدى من ربه؟ إنهم الذين يقرؤون الكتاب فيؤمنون بما جاء فيه من أن محمدًا ﷺ هو خاتم الرسل وكتابُه آخر الكتب.

فقد بيَّن الله سبحانه في هذه الآية أن الذين أنزل الله عليهم كتابًا كاليهود والنَّصَارَى والمسلمين يتلونه حق تلاوته، فيقيمون حروفه وألفاظه، ويقرؤونه حق قراءته بالترتيل والتدبر والتفكُّر، ويسألون الله الجنة إذا مروا بذكرها، ويستعيذون به من النار عند مرورهم بها، ويعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه، ويمتثلون أمره ويجتنبون نهيه، ويُحِلُّون حلاله ويحرِّمون حرامه، ويؤمنون بكل ما فيه.

ومن ذلك: بشرى التوراة والإنجيل بمجيء محمد ﷺ ووجوب الإيمان به وبدعوته، وأنها نَسخت ما قبلها من الشرائع، ومن كفر بها فقد خسر دنياه وأخراه؛ لأنه استبدل الإيمان بالكفر ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ من اليهود والنَّصَارَى والمسلمين ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ يقرؤونه القراءة الصحيحة، ويتبعونه حق الاتباع ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ﴾ أي: يؤمنون بما جاء فيه من الإيمان برسل الله، ومنهم خاتمهم محمد ﷺ ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾ فيحرِّفه ويبدِّله ولا يؤمن بما جاء فيه، أو يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض، أو يؤمن ببعض الرسل والكتب دون بعض، أو يؤمن بما أنزل على نبيه ويكفر بغيره، فهو أشد الناس خسرانًا لأُولاه وأُخراه وهذا معنى ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي: الهالكون.

وعلى هذا فالآية عامَّة في كل من أنزل الله عليهم كتابًا، وإذا كان القرآن خاتم الكتب فهو الذي يتعين حمل المعنى عليه في نهاية الأمر، بعد شموله لأهل الكتاب، لان السياق يقتضي هذا، وأيضًا فإن جملة ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ تغْنيهم، أمّا ما ورد بخصوص إقامة

التوراة والإنجيل في قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦] فهو مقيَّد بزمن الصلاحية للرسالة، أي إلى بعثة محمد ﷺ،والإسلام هو الدين الذي لا يقبل الله من أحد دينا غيره، كما جاء في الصحيح وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة -يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ- ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار**»[١].

وقال جل شأنه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران]

وهكذا وصف الله أولي العِلم من اليهود والنَّصارَى الذين آمنوا بمحمد ﷺ وهم يقرؤون القرآن في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء].

وقال جل شأنه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [القصص].

وقال سبحانه عن أهل الكتاب: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ﴾ [آل عمران: ٢٠].

والمعنى شاملٌ لكل كتاب نزل من عند الله قبل أن يطرأ عليه تحريف أو تغيير أو تبديل.

والآيةُ تفيد أن الذي يتلو القرآن لمجرد التلاوة -بدون عمل- مثله كمثل الحمار يحمل أسفارًا، ولا حظَّ له من الإيمان؛ لأنه لا يفهم أسراره، ولا يعرف هداية الله فيه، ولا يعمل به، ولأن مجرد قراءة الألفاظ لا تؤدي إلى الهداية، بل لا بد من العمل.

قال ابن مسعود ﷺ: والله إن حق تلاوته أن يحلَّ حلاله، ويحرِّمَ حرامه، ويقرأه كما أنزل الله، ولا يحرِّفَ الكلم عن مواضعه[٢].

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٥٣) عن أبي هريرة بنحوه، والطبري (١٢/ ٣٦٤) وابن أبي حاتم (٦/ ٢٠١٥) والحاكم (٢/ ٣٤٢).

(٢) الطبري (٢/ ٤٨٦).

وقد وصف الرسول قومًا بأنهم يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم[(١)].

وفي الآية نَعْي على أهل الكتاب الذين يكتفون بالأماني والظنون، ويتخذون من الدين جنسِيَّة لهم، مع جمودهم على الظواهر والتقاليد، وتلاوة الكتاب حق التلاوة هي علة الرجاء ومناط الأمل في دخولهم في الإسلام، ولكنهم لا يفعلون، فهم ليسوا ممن يؤمن به، وإنما هم ممن يكفُر به، ويخسر دنياه وأخراه، وهذا مصداق الآية قبلها ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾.

وخلاصة معنى الآية: يخبر الله سبحانه أن الذين أنزل الله عليهم كتابًا، من اليهود والنصارى وغيرهم، عليهم أن يتبعوه حق الاتباع، فيحلون حلاله ويحرمون حرامه، ويقرؤونه كما أنزل، وهؤلاء هم الصادقون في إيمانهم، السعداء يوم لقاء الله، ومن لم يؤمن بالله، فآمن ببعض دون بعض، وفرّق بين رسل الله، ولم يؤمن بخاتم النبيين، فجزاؤه الخسران والهلاك والعذاب الدائم، وكل مَنْ أقام كتابه فآمن به وعمل بما فيه، من أهل الكُتب المنزَّلة على الأنبياء المتقدمين وجب عليه أن يؤمن برسالة محمد ﷺ، ومن لم يؤمن منهم بها، مِنْ كُل من وُجد بعد بعثته ﷺ فهو كافرٌ، وهو بهذا غير تال لكتابه حق التلاوة؛ لأنه لم يعمل بما فيه، ولا يقيم حدوده وأحكامه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨].

النِّدَاءُ الثَّالِثُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فِي سُورَةِ البَقَرَةِ

١٢٢- ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ[(٢)] ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾﴾

ختم الله سبحانه هذه الآيات -عودًا على بدء- بما بدأه عن بني إسرائيل: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ

---

(١) كما في حديث سهل بن حنيف في مسلم (١٠٦٨، ١٥٩)، و «المسند» برقم (١٥٩٧٧) وابن أبي عاصم في السنة ٩٠٨ والطبراني في الكبير (٥٦٠٧) والبخاري (٦٩٣٤).

(٢) قرأ أبو جعفر بتسهيل الهمزة الثانية من (إسرائيل) مع المد والقصر، وحققها الباقون.

﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴿١٢٢﴾﴾ وقد سبق بيان معناها عند الآية (٤٧) وإعادتها هنا للتأكيد والحثِّ على اتِّباع الرسول النَّبي الأمِّي، والتحذير من كتمان أوصافه ﷺ وأن يذكر اليهود نعم الله الدينية والدنيوية عليهم، ولا يحسدوا العرب على أن الرسول الخاتم منهم، ولا يحملهم هذا الحسد على مخالفة الحق واتباع الباطل، وألا يقابلوا نعم الله عليهم بالكفر والعناد ومخالفة الأقوال للأفعال.

وقد بيَّنتُ أن سبب هذا التفضيل على غيرهم من الأمم في زمانهم أنهم كانوا أهل كتاب يؤمنون بالله وبرسوله موسى عليه السلام، وغيرهم وثنيُّون، فهم بهذا أفضل منهم بلاشك، وهذا يخص زمانهم، لأن رسالتهم قد نسخت برسالة عيسى عليه السلام وانتهى وقت تفضيلهم بمجيء أمة أخرى ورسالة أخرى.

تَحْذِيرُ الْيَهُودِ مَرَّةً أُخْرَى مِنْ يَومٍ لَا يَنفَعُ فِيهِ مَالٌ وَلَا بَنُونَ

١٢٣- ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾

ثم حثهم الله تعالى على اتقاء يوم يفرُّ فيه المرءُ من أخيه وأمه وأبيه، ولا تجزي فيه نفس عن نفس شيئًا، ولا تزرُ وازرةٌ وزرَ أُخرى، وكل نفس رهينة بعملها ، ولا تُقبل الفدية من كافرٍ، ولو فدى نفسه بملء الأرض ذهبًا، ولا تنفع فيه الشفاعة لأحد من غير إذنٍ للشافع أن يشفع، ولا رضى عن المشفوع له في الشفاعة، وفيه ردٌّ على اليهود في قولهم: آباؤنا يشفعون لنا، وليس في الآخرة من ينصرهم أو يدفع عنهم عذاب رب العالمين، والفدية والشفاعة يستويان في عدم نفع كل منهما بالنسبة للكافر، مهما قدَّم من عمل صالح في دنياه كما في الآية (٤٨).

وفي الآية حثٌّ لليهود على الإنصاف في تلقي الدعوة الإسلامية، والتجرُّد من المُكابرة والحسد، وترك حظوظ الدنيا لنيل السعادة في الآخرة، وفي هذا اليوم لا ينتفع الكافر بشفاعة غيره له، كما في هذه الآية، ولا يُقبل من الكافر أن يشفع في غيره كما في الآية (٤٨)، فالكافر لا ينتفع بالشفاعة ولا تُقبل منه الشفاعة، كما أن الفداء لا يُؤخذ منه أصلًا كما في الآية (٤٨) وإذا أُخذ منه فإنه لا يُقبل كما في هذه الآية، ولعل هذا هو السرُّ في تقديم لفظ ﴿عَدْلٌ﴾ هنا، وتأخيره في الآية السابقة، وتأخير الشفاعة هنا وتقديمها في الآية السابقة.

إِبْرَاهِيمُ يَجْمَعُ العَرَبَ وَأَهْلَ الكِتَابِ فِي نَسَبٍ وَاحِدٍ

١٢٤- ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ[(١)] رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى[(٢)] ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (١٢٤)

ولا يزالُ الحديث موصولًا عن بني إسرائيل مع إضافة المسلمين إليهم؛ ليشمل الطوائف الثلاث: اليهود والنَّصَارَى والمسلمين، باعتبار أن كل طائفة منهم تتبع إبراهيم عليه السلام، وترتبط به برباط النسب والعقيدة، وذلك أن السورة بدأت بعد الافتتاح بذكر خَلق آدم، ثم خصَّ من ذرية آدم بني إسرائيل، الذين عُهد إليهم على لسان موسى، الإيمان بمحمد ﷺ، ثم ذكرت السورة الأبَ الأقرب للعرب وأهل الكتاب وهو إبراهيم، ومعناه: أبو الأمم.

التَّعْرِيفُ بِإِبْرَاهِيمَ عليه السلام

وإبراهيم: اسمٌ أعجميٌّ، معناه: أبٌ رحيم، أو أبو الأمم، ينتسب إلى سام بن نوح عليهما السلام، وُلد في الأهواز، أو أُور الكَلْدَانيِّين سنة ١٩٩٦ قبل الميلاد، ثم انتقل به والده إلى حُوران، ثم إلى بابل أرض النمروذ وتزوَّج سَارَّة، وهاجر بها إلى مصر بسبب قحطٍ أصاب البلاد، وأهدى له ملك مصر (هاجر) أم إسماعيل وتُوفِّي إبراهيم سنة ١٧٧٣ قبل الميلاد، وجميع الطوائف تتشرف بالنسب إليه.

وقد حكى الله تعالى عن إبراهيم أمورًا تجعل المشركين واليهود والنَّصَارَى يَقْبلون قول محمد ﷺ ويعترفون بدينه، وينقادون لشرعه، فاليهود والنَّصَارَى يرجعون في أصولهم إلى إسحاق بن إبراهيم، ومشركو مكة (العرب) يرجعون في أصولهم إلى إسماعيل بن إبراهيم، وجميع هذه الطوائف تعتزُّ بنسبها وصلتها بخليل الرحمن ﷺ، وكلها تؤمن به وبدعوته ورسالته.

---

(١) قرأ ابن عامر بخلف عن ابن ذكوان (وإذ ابتلى إبراهام) بألف بعد الهاء، وقد رُسمت في المصحف بدون ياء بعد الهاء، وقرأ الباقون (إبراهيم) بياء بعد الهاء، وهو الوجه الثاني لابن ذكوان، وهما لغتان، وهذه القاعدة مُطَّرِدَةٌ في القرآن في كل ما رُسم منه بدون ياء، وهو ثلاثة وثلاثون موضعًا، أما ما رُسم بالياء مثل التي في سورة إبراهيم آية (٣٥) فإن القراء كلُّهم متفقون على قراءتها بالياء.

(٢) قرأ حفص وحمزة بإسكان الياء من (عهدي) وحذفها لالتقاء الساكنين، وقرأ الباقون بفتحها وإثباتها.

وقد جاء محمد بما جاء به إبراهيم، وكأن القرآن يقول لجميع الملل والنحل التي لم تدخل في الإسلام ممن ينتمون إلى إبراهيم في النسب والعقيدة، يقول لهم: إن كنتم تؤمنون حقًّا بدعوة إبراهيم، فهو الذي دعا ربه أن يرسل في هذه الأمة محمدًا ﷺ وإبراهيم هو الذي جاء بالحنيفية السمحة، وهي ملة محمد ﷺ، فكلاهما جاء بالتوحيد والإسلام والانقياد والاستسلام لله ﷻ، جاء بهذا إبراهيم، وجاء به محمد بعد موسى وعيسى، وعليكم أن تؤمنوا بمحمد الذي جاء بما أتى به إبراهيم عليه السلام.

ولذا تحدثت الآيات عن إبراهيم من بداية أمره لحظة لحظة، منذ أن ابتلاه الله سبحانه بما ابتلاه به -ليكون أهلًا للاصطفاء والخلة والإمامة- إلى أن بعث الله محمدًا ﷺ استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام.

﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ والاختبار من الله تعالى يكون لإظهار ما سبق في علمه في الأزل للناس؛ ليتبين لهم سبب الثواب أو العقاب، ولكي تُحصيه الملائكة وتسجله في صحفهم، أما الاختبار من الناس فهو لظهور ما لم يعلموه، فاذكر -أيها الرسول- لجميع من ينتمي إلى إبراهيم عليه السلام حين اختبره الله بكلمات، ويرجح أن يكون هذا الابتلاء قد وقع قبل النُّبوة لتقدم السبب عن المسبب، فما هذه الكلمات التي اختبر الله بها إبراهيمَ عليه السلام فأدَّاها وقام بها خير قيام؟ إنه سبحانه أعلم بنتيجة هذا الابتلاء الذي ترتب عليه اصطفاء إبراهيم، وكونه أهلًا لأن يكون خليل الرحمن.

وتشير الآية إلى أن الله تعالى ابتلى خليله إبراهيم بأوامر ونواهٍ، لرفع درجته وزيادة قدره، فأتم ما ابتلاه الله به وأكمله ووفَّاه، فشكرا الله له ذلك، وكافأه بقوله ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ يقتدون بك، ويهتدون بهديك، ويحصل لهم الثناء الدائم والأجر العظيم، وفرح إبراهيم بهذا الاختيار وهذه المكانة، فطلبها لذريته ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ فأجابه ربه بقوله ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لاينال الإمامة من ظلم نفسه بالمعاصي والذنوب، ولا مَنْ ظَلم غيره بالاعتداء عليهم أو أكل أموالهم، وغير الظالم ينال الإمامة إذا أتى بأسبابها.

الكَلِمَاتُ التِي ابْتَلَى اللَّهُ بِهَا إِبْرَاهِيمَ فِيهَا خَمْسَةُ أَقْوَالٍ

وهذه الكلمات وردَ فيها عدةُ أقوالٍ، لا يُجزَم بشيء منها على وجه التعيين، إذ لم يرد

فيها خبرٌ صحيح عن المعصوم ﷺ، وأبرزها: أمره بالختان على كِبر، وقذفه في النار، وأمره بذبح ولده، وهجرته من بلاد الكلدان إلى العراق إلى الشام والحجاز ومصر، وقد وفَّى وأتمَّ كل ما أُمر به، ومما ورد في هذه الكلمات ما يأتي:

القول الأول: أنها خصال **الفطرة العشرة**: المضمضة والاستنشاق والسواك وقص الشارب وغسل البراجم -عُقد الأصابع- وتقليم الأظافر ونتف الإبط وحلق العانة والختان وانتقاص الماء[١].

قيل: إن إبراهيم عليه السلام هو أول من فعل هذه الخصال، فهو أَوَّلُ مَنْ اخْتُتِن، واختتن وهو كبيرٌ في سنٍّ مُتقدمة بعد الثمانين من عمره.

في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**اختتن إبراهيم وهو ابن ثمانين سنة بالقَدُوم**»[٢] بالتخفيف، وهو آلة القطع المعروفة، وروى بالتشديد، اسم لموضع.

وهو أول من قلم أظافره، وقصَّ شاربه، وأول من رأى الشيب، فقال: ربِّ ما هذا؟ قال: وقارٌ يا إبراهيم، قال: رب زدني وقارًا[٣].

فإبراهيم عليه السلام هو أول من قام بهذه الخصال من سنن الفطرة.

وهذه الخصال العشر، منهما خمسٌ في الرأس، هي: قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، والسواك، وفرْق الرأس. وخمسٌ في الجسد، وهي: تقليم الأظافر، وحلق العانة، والختان، ونتف الإبط، وغسل مكان البول والغائط[٤].

---

(١) يُنْظَر الحديث بتمامه في «صحيح مسلم» عن عائشة برقم (٢٦١) وأبو داود (٥٣) والترمذي (٢٧٥٧) والنسائي (٥٠٥٥) وابن ماجه (٢٩٣) وابن أبي شيبة (١/ ١٩٥) والحاكم (٢/ ٥٥١) والبيهقي (٨٦٤٠) وقال: والصحيح أنه موقوف.

(٢) البخاري (٣٣٥٦، ٦٢٩٨) ومسلم (٢٣٧٠).

(٣) أخرجه مالك في «الموطأ» عن يحيى بن سعيد بن المسيب، وأخرجه ابن سعد عن أبي هريرة (١/ ٤٧) وابن أبي شيبة (٩/ ٥٨).

(٤) جاء هذا عن ابن عباس عند عبد الرزاق (١/ ٥٧) والطبري (٢/ ٤٩٩) وابن أبي حاتم (١١٦٥) والحاكم (٢/ ٢٢٦) والبيهقي في «السنن» (١/ ١٤٩).

وهذه طائفة من الأحاديث فيها جُملة من سُنَن الفطرة:

١- فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: **«وقَّت لنا رسولُ الله ﷺ في قصِّ الشارب وتقليم الأظافر وحلق العانة ونتف الإبط، ألَّا تُترك أكثر من أربعين يومًا»**[١].

٢- وعن زيد بن أرقم ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من لم يأخُذ من شاربه فليس منا»**[٢].

وإعفاء اللحية من سُنَنِ الفطرة:

٣- وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«خالفوا المشركين، وفِّروا اللحى، وأحفوا الشوارب»**[٣].

والسِّواكُ من سنن الفطرة.

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لولا أن أشقَّ على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة»**[٤].

٥- وعن خالد بن زيد الجهني ﷺ قال: ما كان رسول الله ﷺ يخرج من بيته لشيء من الصلوات حتى يستاك[٥].

٦- وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: **«إن أفواهكم طُرق للقرآن، فطيِّبُوها بالسِّواك»**[٦].

٧- وعن عائشة ﷺ أنها سُئلت بأي شيء كان النبي ﷺ يبدأ إذا دخل بيته؟ قالت: كان

---

(١) مسلم (٢٥٨) وأبو داود (٤٢٠٠) والترمذي (٢٧٥٩) والنسائي (١٤) وفي «الكبرى» (١٥) وابن ماجه (٢٩٥).

(٢) «المسند» (١٩٢٦٣) بإسناد صحيح ورجال ثقات، كما قال محققوه، والترمذي (٢٧٦١) والنسائي (١٣) وفي «الكبرى» (٩٢٩٣، ١٤) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٢١٧) و«صحيح سنن النسائي» (١٣) وابن أبي شيبة (٥٦٥/٨).

(٣) «الموطأ» (٢/ ٩٤٧) والبخاري (٥٨٩٢) ومسلم (٢٥٩) وأبو داود (٤١٩٩) والترمذي (٢٧٦٣).

(٤) البخاري (٨٨٧، ٧٢٤٠) ومسلم (٢٥٢) وأبو داود (٤٦) والنسائي (٧، ٥٣٣) وابن ماجه (٢٨٧).

(٥) الطبراني (٥٢٦١) قال الهيثمي: رجاله موثقون، «مجمع الزوائد» (٢/ ٩٩).

(٦) «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٣٦)، وفي سنن ابن ماجه (٢٩١) وفي السلسلة الصحيحة (١٢١٣)

إذا دخل يبدأ بالسواك[١].

وتَغْيِيرُ لَون الشَّيب من سنن الفطرة:

٨- عن أبي ذر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أحسن ما غيَّرتم به الشيب الحناء والكَتَم**»[٢].

٩- وعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**إن اليهود والنَّصارَى لا يصبُغون فخالفوهم**»[٣].

وهكذا: فإن سنن الفطرة تشمل ما جاء في هذه الآحاديث ونحوها.

القول الثاني: إن هذه الكلمات التي ابتلى الله بها إبراهيم هي **مناسك الحج**: الطواف والسعي والوقوف بعرفة والمبيت بمزدلفة، ورمي الجمار، والمبيت بمنى، وسائر المناسك.

القول الثالث: أنها مجموع ما في الآيات الخمس من نِعَمٍ وَمِنَنٍ.

أخرج الطبري بسند صحيح عن مجاهد في قوله ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ﴾ قال الله لإبراهيم: إني مُبتليك بأمر، فما هو؟ قال: تجعلني للناس إمامًا! قال: نعم، قال: ومن ذريتي، قال: لا ينال عهدي الظالمين، قال: تجعل البيت مثابة للناس، قال: نعم، قال: وأمنا، قال: نعم، قال: وتجعلنا مُسْلِمَيْنِ لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك، قال: نعم، قال: وتُرِينا مناسكنا وتتوب علينا، قال: نعم، قال: وتجعل هذا البلد آمنا، قال: نعم، قال: وترزق أهله من الثمرات من آمن منهم، قال: نعم.

القول الرابع: ويرجِّح كثيرٌ من المفسرين أنها: **مجموع الأوامر والنواهي التي ابتُلي بها إبراهيم**. ومنها: أمره بمفارقة وطنه في بادئ الأمر، حيث كان في بابل من أرض العراق، ثم هاجر منها إلى فلسطين، ومنها: مخاطبة النمروذ الملك الجبار الطاغية، ومحاربة إبراهيم للأصنام وتكسيرها، ثم ما كان من أمره حين أُلقي في النار وصَبْره عليها، ثم أمره

---

(١) مسلم (٢٥٣) وابن أبي شيبة (١/ ١٦٨) وأبو داود (٥١) والنسائي (٣) وابن ماجه (٢٩٠).

(٢) أبو داود (٤٢٠٥) وصحيح سنن أبي داود (٣٥٤٢) والترمذي (١٧٥٣) والنسائي (٥٠٩٣) وابن ماجه (٣٦٢٢) وصحيح سنن ابن ماجه (٢٩١٩) و«السلسلة الصحيحة» (١٥٠٩). وغاية المرام (١٠٧).

(٣) البخاري (٣٤٦٢) ومسلم (٢١٠٣) وأبو داود (٤٢٠٣) وصحيح سنن أبي داود (٣٥٤٠) والنسائي (٥٠٨٧) وابن ماجه (٣٦٢١) و صحيح سنن ابن ماجه (٢٩١٨) وغاية المرام (١٠٤).

بالهجرة من فلسطين إلى مكة المكرمة، وتركُه فيها زوجه وابنه الصغير، ثم ابتلاؤه بذبح ولده وحيده الذي رزقه الله إياه على كبر، فابتلي بذبحه ونفَّذ فيه أمر الله سبحانه وصبر على أمر الذبح حتى كان الفداء بذبح كبشٍ عظيمٍ.

ويشهد لذلك ما أخرجه ابن أبي حاتم بسندٍ حسنٍ من طريق ابن إسحاق بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الكلمات التي ابتُلي بهن إبراهيم فأتمهن: فِراق قومه في الله حين أُمر بفراقهم، ومحاجَّته نمروذ في الله... وصبره على قذفه إياه في النار ليحْرِقوه في الله، والهجرة بعد ذلك من وطنه وبلاده في الله حين أمره بالخروج عنهم، وما أمره به من الضيافة والصبر عليها، وما ابتُلي به من ذبح ولده حين أُمر بذبحه، فلما مضى على ذلك من أمر الله، وأخلصه البلاء، قال الله له: أسلم قال: أسلمت لرب العالمين، على ما كان من خلاف الناس وفراقهم.

القول الخامس: أن الكلمات التي ابتُلي بها إبراهيم:

هي الوفاء بما وصف الله به المؤمنين في سورة التوبة والمؤمنون والأحزاب والمعارج.

قال ابن عباس ﷺ: ما ابْتُلِيَ أحدٌ بهذا الدين فقام به كله إلا إبراهيم، قال: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ﴾ قيل: ما الكلمات؟ قال: سهام الإسلام، ثلاثون سهمًا:

عشر في سورة براءة ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ﴾... إلى آخر الآية [التوبة: ١١٢]

وعشر في أول سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ و ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾﴾ الآيات [المعارج]

وعشر في الأحزاب ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ﴾... [الأحزاب: ٣٥] إلى آخر الآية.

فأتمهن كلهن، فكتب له براءة، قال تعالى ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾[1][النجم].

وبعد أن نجح إبراهيم في الاختبار والابتلاء أثنى عليه ربه في سورة النجم بقوله ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ أي: وفَّى بما أمره به ربه من أوامر وتكاليف شرعية.

---

(١) أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢/ ٤٧٠) وابن أبي حاتم (١٢١٦٦) وابن أبي شيبة (١١/ ٥٢٢) والطبري (٢/ ٤٩٨) وابن عساكر (٦/ ١٩٤).

قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾ [النحل]

وبعد أن قام إبراهيم بهذه الكلمات ونجح في الابتلاء، كان أهلًا للإمامة والرسالة، فقال تعالى له: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أي: نبيًّا مرسلًا، وحاكمًا تحكم بين الناس، وقاضيًا تقضي بينهم، وإمامًا لهم في الصلاة، فلفظ (إمام) يشمل هذا وغيره، فهو إمام المسلمين في كل شيء ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ امتدت الرغبة في إبراهيم أن تكون الإمامة وراثية في ذريته من بعده، وذلك من طبيعة البشر، فدعا ربه أن يجعل بعض نسله أئمة، وقد بيَّن سبحانه ذلك في سورة الصافات بعد ذكْر ذرية إبراهيم وابنه إسحاق فقال جل شأنه: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ [الصافات: ١١٣]

والمحسنُ هو المؤمن، والظالمُ هو الكافر، وقد بيَّن الله سبحانه لإبراهيم أن في ذريته من يصلُح للإمامة، ومنهم من لا يصلُح، وأن وراثة النبوة والإمامة لا تكون بمقتضى العِرق، ولا بمقتضى وشيجة الدم والنسب، وإنما تكون بمقتضى الإيمان والصلاح، فقال سبحانه: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا ينال وعدي بالرسالة والإمامة الظالمين من ذريتك، فالعهد هو الوعد بالإمامة، ولا يصلُح لها من كان ظالمًا، وهم الذين ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي أو ظلموا غيرهم بالبغي والعدوان عليهم، فهؤلاء ليسوا جديرين بالإمامة لاتصافهم بالظلم، ومنه الشرك وارتكاب الكبائر، وتحريف الكتاب، والانهماك في الشهوات وحظوظ الدنيا.

الْبَيْتُ الْحَرَامُ مَثَابَةٌ لِلْنَاسِ وَأَمْنٌ

١٢٥- ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا[1] مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ

(١) قرأ نافع وابن عامر (واتخَذوا) بفتح الخاء، على أنه فعل ماضٍ أُرِيدَ به الإخبار، وقرأ الباقون بكسر الخاء، على أنه فعل أمر، والمأمور بذلك هو إبراهيم وذريته، أو محمد وأمته.

إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ[١] أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ[٢] لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴿١٢٥﴾﴾

ذكر سبحانه وتعالى في هذه الآية مثالًا على إمامة إبراهيم، وهو مثال قائم إلى يوم القيامة، ويمثل ركنًا من أركان الإسلام، ألا وهو بيت الله الحرام، الذي رفع إبراهيم قواعده، وطهره من الشرك والكفر والمعاصي والرجس والنجس، وجعله آمنًا للناس وأمر الله باتخاذ مقام إبراهيم مصلى.

ونظرا لأن الآيات الأربع التالية هي أول آيات القرآن حديثًا عن بناء البيت الحرام، وكونه مثابة للناس وأمنا، وهي أول الآيات عن مناسك الحج؛ فقد أسهبتُ في الحديث عن ذلك بما يُغطِّي جوانب الموضوع وعْظًا وفقها وتفسيرا.

وقد بدأت هذه الآية بامتنان الله تعالى على خلقه حيث جعل الكعبة البيت الحرام مرجعًا للناس، أي إنهم يأتونه ثم يرجعون إلى أهليهم بعد أن يؤدوا مناسكهم دون أن يُغِير عليهم أحد أو يتعرضوا لأذى.

اذكر - أيها الرسول - وقت أن دعا إبراهيم ربه أن يجعل البيت الحرام بلدًا آمنًا، ومثابة للناس يَحِنُّون إليه ويشتاقون، فيعودون إلى زيارته، كما قال تعالى في السورة التي تحمل اسمه ﷺ ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [ابراهيم: ٣٧]

وقال هنا: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ أي: مرجعًا يُثابون على زيارته والطواف حوله، ويأمنون على أنفسهم وأموالهم حيث يُتخطَّف الناس من حولهم، كما قال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧]

وقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴿٤﴾﴾ [قريش].

(١) إسماعيل هو الابن البكر لإبراهيم، وهو ابنه من (هاجر) وُلِد في أرض كنعان سنة ١٩١٠ قبل الميلاد، ومعنى إسماعيل بالعبرية: سمع الله؛ أي: استجاب الله دعاءَ أمه، وهو أكبر من إسحاق بثلاثة عشر عامًا، تُوفي بمكة سنة ١٧٧٣ قبل الميلاد، ودُفِن بالحِجْرِ حول الكعبة.

(٢) قرأ نافع وهشام وحفص وأبو جعفر بفتح الياء من (بيتيَ) وصلًا، وأسكنها الباقون.

خَمْسُ وَقَفَاتٍ مَعَ مَثُوبَةِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾

أَوَّلًا: فَضْلُ الحَجِّ

عن أبي هريرة ﷺ قال: سُئل رسول الله ﷺ: أيُّ العمل أفضل قال: «**إيمان بالله ورسوله**» قيل: ثم ماذا؟ قال: «**الجهاد فى سبيل الله**» قيل: ثم ماذا؟ «**قال حج مبرور**»[١].

وعن الشِّفاء بنت عبد الله القرشيّة العَدويّة قالت: سمعت رسول الله ﷺ وسأله رجلٌ: أيُّ الأعمال أفضل؟ قال: «**إيمان بالله، وجهاد في سبيله وحج مبرور**»[٢].

فدلَّ هذا على أن للحج مكانةً عظيمة فى الإسلام، يُثاب عليه المسلم أعظم الثواب، حيث تأتي مرتبته بعد الإيمان بالله ورسوله، وهما أساس قبول الأعمال عند الله تعالى وبعد الجهاد في سبيل الله، الذي هو ذروة سَنَام الإسلام.

ثَانيًا: الحَجُّ نَوعٌ مِنْ الجِهَادِ: عن الحسين بن علي ﷺ قال: جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فقال: إني جبانٌ، وإنى ضعيفٌ، فقال: «**هَلم إلى جهاد لا شوكة فيه: الحج**»[٣].

وعن عائشة ﷺ أنها قالت: يا رسول الله نرى الجهاد أفضل العمل، أفلا نجاهد؟ قال: «**لكُنَّ أفضل الجهاد حج مبرور**»[٤].

فالحج جهادُ الكبير والصغير والضعيف والجبان والمرأة، وقد تواترت نصوص كثيرة فى بيان فضل الحج وعظيم مكانته، وأنه نوعٌ من جهاد النفس والهوى والشيطان لكن جهاد العدو أفضل الأعمال عند الله تعالى، وذروة سنام الإسلام.

---

(١) أخرجه الشيخان «اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان» (١/ ١٥) رقم (٥٠) وفي البخاري (٢٦، ١٥١٩) وفي مسلم (٨٣) وانظر «الترغيب والترهيب» دار الفكر ١٩٨١م (٢/ ١٦٢).

(٢) أخرجه الطبراني فى «الكبير» ورجاله ثقات، «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد» للهيثمى (٣/ ٢٠٧) ط ثانية ١٩٦٧م. والمسند (٢٧٠٩٤، ٢٧٠٩٦) صحيح لغيره، وله شاهد من حديث أبي هريرة (٧٥٩٠) بإسناد صحيح.

(٣) رواه الطبراني فى «الكبير» برقم (٢٩١٠) وفي «الأوسط» برقم (٤٢٨٧) قال الهيثمي: ورجاله ثقات، «مجمع الزوائد» (٣/ ٢٠٦).

(٤) أخرجه البخاري عن عائشة ﷺ برقم (١٥٢٠، ١٦١٨، ٢٧٨٤، ٢٨٧٥).

ثَالِثًا: الحَجُّ يُكَفِّر الذُّنُوبَ: عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كما ولدته أمه»**[1].

رَابِعًا: تَكْرَارُ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ: ولما كانت الذنوب تتجدد ويعاودُها المسلم كلما غفل عن طاعة ربه فإن تكرار الحج ومعاودته أمر مطلوب -بين الحين والآخر كل خمسة أعوام أو أربعة عند القدرة عليه- لتكفير الذنوب، وتنظيف صحيفة الأعمال مما عَلِق بها من دنس المعاصي إذا اقترن ذلك بالتوبة النصوح.

ولما كانت العمرة كذلك تغفر الذنوب وتمحوها، فإن الإسلام رغَّب في المتابعة بين الحج والعمرة والإكثار منهما؛ لأنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكِيرُ خبث الحديد، وقد ورد الوعيد والترهيب لمن يوسِّع الله عليه في المعيشة، ويصحِّح له بدنه ثم لا يعاود الحج كل أربعة أو خمسة أعوام.

فعن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: إن الله تعالى يقول: **«إن عبدًا أصححت له بدنه، وأوسعت عليه فى الرزق، لم يفِد إليَّ في كل أربعة أعوام لمحرومٌ»** وفى رواية **«في كل خمسة أعوام»**[2].

وعن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«تابعوا بين الحج والعمرة فإن المتابعة بينهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد»**[3].

---

(١) أخرجه الشيخان في البخاري (١٥٢١، ١٨١٩، ١٨٢٠) ومسلم (١٣٥٠).

(٢) رواه الطبراني في «الأوسط» وأبو يعلى (١٠٣١) ورجال الجميع رجال الصحيح، «مجمع الزوائد» (٣٠/ ٢٠٦) و«صحيح الجامع الصغير» حديث رقم (١٩٠٥) ج١ والمطالب العالية برقم (١٢١٢) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٦٦٢) وأخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٨٨٢٦).

(٣) أخرجه ابن ماجه بإسناد صحيح، كما في صحيح سنن ابن ماجة (٢٣٣٤) وفي المشكاة (٢٥٢٤) وفي «صحيح الجامع» (٣/ ٣٠) رقم (٢٨٩٦) ورقمه في «سنن ابن ماجه» (٢٨٨٧) والمسند (١٦٧) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وفي «السلسلة الصحيحة» (١٢٠٠) وأخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٠٩٤).

وعن ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة، وليس للحجة المبرورة ثواب دون الجنة»**(١).

والذنوب التي تُكفَّر: هي الصغائر والكبائر من حقوق الله تعالى؛ لأن الحاج تائبٌ إلى الله تعالى، مقبلٌ عليه سبحانه، نادمٌ على ما فرَّط في جنب الله، راجعٌ إلى ربه، وقد غفر ذنبه وستر عيبه إنشاء الله.

أما فيما يتعلق بحقوق العباد فإنه لَا بُدَّ من ردِّها إليهم، أو استحلالهم منها.

وإذا نتج من تكرار الحج بالنسبة للفرد الواحد ازدحام شديد في المشاعر يؤدي إلى إحداث الضرر وإلحاق الأذى بالمسلمين فإن هذه ضرورة تقدَّر بقدرها.

والإسلام لم يفرض الحج والعمرة على المسلم إلا مرة واحدة في العمر، وفيما عدا ذلك فإن تكرارهما طاعةٌ وقُربى إلى الله تعالى، ما لم تكن هناك جهاتٌ منكوبة في العالم الإسلامي؛ كأحوال المسلمين اليوم في فلسطين والعراق وغيرهما، فإنَّ بذل المال لهم ولأمثالهم أولى من حج النافلة، وما لم يزدد أعداد الحجَّاج لدرجة تضرُّ بمن يحج لأول مرة فإن ترك أماكن المناسك لهذا الحاج تحتمه الضرورة.

خَامِسًا: ثَوابُ الحَجِّ المَبْرُورِ: عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«العمرة إلى العمرة كفَّارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاءٌ إلا الجنة»**(٢).

والحج المبرور: هو الذي لا يخالطه إثمٌ ولا رفث ولا فسوق، ويكون من نفقة حلال، خاليًا من الرياء والسمعة، وتكون حال العبد بعد الحج أفضل مما قَبْلَه فى البُعد عن السيئات، والرغبة فى الصالحات و التوبة النصوح.

مقام إبراهيم: ولْنعُد إلى تفسير بقية الآية قال تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾

---

(١) أخرجه النسائي في سننه بإسناد صحيح، برقم (٢٨٩٧) وهو في «صحيح النسائي» (٢٤٦٧). و أخرجه أحمد في المسند (٣٦٦٩) صحيح لغيره، والترمذي (٨١٠) وابن حبان (٣٦٩٣) وابن خزيمة (٢٥١٢).

(٢) أخرجه الشيخان «اللؤلؤ والمرجان» (٢/٧٦) برقم (٨٥٥) وهو في البخاري (١٧٧٣) ومسلم (١٣٤٩) والترمذي (٩٣٣) والنسائي (٢٦٢١، ٢٦٢٨) وابن ماجه (٢٨٨٨) ومالك (١/٣٤٦) و«صحيح سنن النسائي» (٢٤٦٦).

١- في أسباب النزول: أنه لما طاف النبي ﷺ بالبيت في حجة الوداع قال له عمر ﷺ: هذا مقام أبينا إبراهيم؟ قال: «نعم» قال عمر للنبي ﷺ أفلا نتخذه مصلى؟ فقال ﷺ: «لم أومر بذلك» فلم تغب الشمس حتى نزلت: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾[١].

٢- وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال عمر بن الخطاب ﷺ: وافقت ربي في ثلاث، قلت: يا رسول الله لو اتخذتَ من مقام إبراهيم مصلى؟ فنزلت: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾.

وقلت: يا رسول الله، يدخل عليك البَرُّ والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب.

قال: وبلغني مُعاتبة النبي بعض نسائه، فدخلْتُ عليهن، فقلت: إن انتهيتُن أو ليبدلَن الله رسوله خيرًا منكن، حتى أتيتُ إحدى نسائه، قالت: يا عمر، أما في رسول الله ما يعظ نساءه، حتى تَعظهن أنت؟ فأنزل الله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ﴾[٢] [التحريم: ٥].

٣- وفي لفظ آخر: وافقت ربي في ثلاث: في الحجاب، وفي أسارى بدر، وفي مقام إبراهيم[٣].

وفي رواية ثالثة: ذكَرَتْ مقام إبراهيم، والحجاب، والثالثة: لما مات عبد الله بن أُبي جاء رسول الله ليصلي عليه، قلت: يا رسول الله، تصلي على هذا الكافر المنافق؟ فنزلت: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾[٤] [التوبة: ٨٤].

والروايات الثلاث إسنادها صحيحٌ، فيتحصَّل من مجموعها أن عمر وافق ربه في خمس، فرضي الله عنه وأرضاه.

ومقام إبراهيم: هو الحجَر الذي قام عليه وهو يبني البيت، وضَعتْهُ تحت قدمه زوجة إسماعيل فوقف عليه إبراهيم، ويناوله الحجارة ولده إسماعيل.

---

(١) يُنْظَرُ الروايات الواردة في ذلك في «تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ٣٧٠) وابن كثير (١/ ٤١٤) والطبري و«الدر المنثور» (١/ ٦١٩) وما بعدها، ويُنْظَرُ: «سنن النسائي» (٥/ ٢٣٦).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٤٠٢، ٤٤٨٣) و«المسند» (١/ ٢٣) برقم (١٥٧، ١٦٠، ٢٥٠) والنسائي في «الكبرى» (١١٤١٨) وابن حبان (٦٨٩٦) وغيرهم.

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٣٩٩) عن نافع عن ابن عمر عن أبيه .

(٤) «سنن البيهقي» (٧/ ٨٨) من طريق أبي حاتم الرزاي.

ويسنُّ أن يصلي المسلم ركعتي الطواف خلف المقام إن تيسر له ذلك، و إلا ففي أي مكان من الحرم.

وصحَّ في البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ صلى خلف المقام ركعتين.

وكان إبراهيم عليه السلام كلما انتقل في بنائه للبيت من ناحية نقل الحجر إلى الناحية الأخرى ليقف عليه، فلما فرغ من بناء الكعبة تركه مُلْصَقًا بجدارها، ولما كثر الناس وازدحموا حول البيت في الطواف، نقله عمر ﷺ إلى المكان الذي هو فيه الآن، وعُمر أحد الأئمة المهديين والخلفاء الراشدين، وأحد الرجلين الذين قال فيهم النبي ﷺ: **«اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر»**[١].

وأخرج البيهقي في سننه بإسناد صحيح عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة ﷺ أن المقام كان زمان رسول الله ﷺ وزمان أبي بكر ﷺ مُلْتَصِقًا بالبيت، ثم أخَّره عمر بن الخطاب ﷺ[٢].

وعن ابن شهاب أن أنس بن مالك حدَّثهم قال: رأيت المقام فيه أصابعه -أي: أصابع إبراهيم ﷺ- وأخمص قدميه، غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم[٣].

والسُّنة: الصلاة خلفه إن أمكن ذلك، ولا يُشرع مسحه باليدين.

أخرج الطبري بإسناد حسن عن قتادة: إنما أُمر الناس أن يصلوا عنده، ولم يؤمروا بمسحه، ولقد تكلفتْ هذه الأمة شيئًا ما تكلفتْه الأمم قبلها، ولقد ذَكَر لنا بعض من رأى أثر عقبه وأصابعه فيه: فما زالت هذه الأمة يمسحونه حتى اخلوْلق وانمحى[٤].

وقد عهد الله سبحانه إلى إبراهيم وابنه إسماعيل فأمرهما أن يخلِصَا في بنائه لله وحده،

---

(١) من حديث حذيفة بن اليمان في «المسند» (٢٣٢٤٥، ٢٣٢٧٦) قال محققوه: حديث حسن بطرقه وشواهده، وهذا إسناد رجاله ثقات، رجال الشيخين، وأخرجه الطبراني في «الأوسط» (٣٨٢٨) والحاكم (٣/ ٧٥) والبغوي (٣٨٩٥) والترمذي (٣٦٦٢) والبزار في مسنده (٢٨٢٧).

(٢) قال ابن كثير في التفسير (١/ ٤١٨) : هذا إسناد صحيح وهو في «الدر المنثور» (١/ ٦٢٩).

(٣) وإسناده صحيح إلى أنس، كما في «تفسير ابن كثير» (١/ ٤١٨).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» عن ابن جريج، وصحح إسناده ابن حجر في الفتح (٨/ ١٦٩) وهو في الطبري (٢/ ٥٢٧) وعند الأزرقي (١/ ٢٧٢).

وألزمهما أن يطهرا البيت من الأصنام والأوثان والأرجاس للطائفين والعاكفين والركع السجود، وهذا معناه أن البيت قد بُني مطهرًا من الشرك بالله، وهل كان في البيت قبل ذلك أوثان؟

لقد ظهرت الأوثان فى قوم نوح من الذين عبدوا ودًا وسواعًا ويغوث ويعوق ونسرًا، وربما جيء بهذه الأصنام إلى مكة المكرمة وعُبدت من دون الله، وكان عمرو بن لُحي قد أتى بالأصنام من بلاد الشام إلى مكة، وقد بيَّن النبي ﷺ أن عمرو بن لُحي يَجُر أمعاءه في النار بسبب ذلك.

وأُمر إبراهيم وإسماعيل أن يُطَهرا البيت من الأوثان والأصنام، وبيَّن سبحانه أن هذا البيت أُسس لعبادة الله وحده بالصلاة والطواف والذكر ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج].

أَمْنُ الحَرَمِ وَرِزْقُ أَهْلِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ

١٢٦- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ(١) قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾

دعا إبراهيم ربه أن يجعل مكة بلدا آمنا، وأن يرزق أهله من أنواع الثمرات، وقيد ذلك بالمؤمنين ، تأدّبًا مع الله تعالى، وكان دعاءه قبل ذلك بإطلاق، فجاء الجواب مقيدا بغير الظالم، ولما كان رزق الله تعالى شاملًا للمؤمن والكافر والعاصي والطائع، قال تعالى ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي إني أرزق الجميع، المسلم والكافر، أما المسلم فيستعين برزقه على طاعة الله، ثم ينتقل إلى نعيم الجنة، وأما الكافر فيتمتع قليلا في الدنيا ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ﴾ أي ألجئه وأخرجه مكرها ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

---

(١) قرأ ابن عامر (فأُمْتعه) بسكون الميم وتخفيف التاء، على أنه مضارع (أمتع) المُعدَّى بالهمز، وقرأ غيره بفتح الميم وتشديد التاء، مضارع (متَّع) المعدَّى بالتضعيف.

هذا: وقد ساق القرآن الكريم في الآيات الثلاث التالية **سبع دعوات من جوامع كلم النبوة**:

١- فدعا إبراهيم ربه أن يجعل البلد الحرام بلدًا آمنًا حتى يستطيع الخلق أداء الحج والعمرة.

٢- ودعاه أن يرزق أهل مكة من أنواع الثمرات في وقتٍ كانت فيه مكة صحراء قاحلة.

٣- ودعاه وهو يرفع قواعد البيت مع ابنه إسماعيل أن يتقبَّل منهما عملَهما.

٤- ودعا ربه أن يثبتهما على الإسلام، وهو التوحيد والإخلاص، وأن يُخرج من ذريتهما أمة مسلمة موحِّدة لربها.

٥- وسأل ربه أن يُبصِّره وذريته بمعالم الدين، وطرق العبادة، ومنها مناسك الحج.

٦- وسأل إبراهيم ربه التوبة، والتجاوز عن الذنوب.

٧- وسأل ربه أخيرًا أن يبعث من أهل مكة رسولا منهم تنطلق رسالته من مكة إلى العالم أجمع، ليعلِّمهم القرآن والسنة، ويطهرهم من الشرك وسُوء الأخلاق.

أما ما يتعلق بأمن البيت الحرام، فقد جاء في الصحيحين وغيرهما عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، واللفظ لمسلم، أن النبي ﷺ قال يوم فتح مكة: «**إن هذا البلد حرَّمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرامٌ بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعةً من نهارٍ، فهو حرامٌ بحُرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعضَّد شوكهُ، ولا ينفَّرُ صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرَّفها، ولا يختلى خلاها**».

فقال العباس: يا رسول الله، إلا الإذخر فإنه لِقَيْنِهِمْ ولبيوتهم، قال: «**إلا الإذخر**»[(١)].

وفي صحيح مسلم عن رافع بن خَديج أن رسول الله ﷺ قال: «**إن إبراهيم حرَّم مكة، وإني أحرِّم ما بين لابتيها**»[(٢)].

وفي البخاري وغيره عن عبد الله بن زيد بن عاصم المازني ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**إن إبراهيم حَرَّم مكة ودعا لها، وحَرَّمتُ المدينة كما حَرَّم إبراهيم مكة، ودعوْتُ لها في مُدِّها**

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٥٨٧، ١٨٣٤، ٣١٨٩) و«صحيح مسلم» برقم (١٣٥٣) وأبو اود (٢٠١٨) والترمذي (١٥٩٠) والنسائي في «الكبرى» (٣٨٥٨).

(٢) «تفسير الطبري» (٣/ ٤٩) والحديث في «صحيح مسلم» برقم (١٣٦١) والمراد بِلابتيْها: المدينة.

وصاعها مثل ما دَعا إبراهيم لمكة»[1].

ويُؤخذ من هذا أن النبي ﷺ حرَّم المدينة كما حُرِّمت مكة، ويؤخذ مما جاء في الصحيحين أن حُرمة مكة بتحريم الله لها منذ بدء الخليقة، فمكَّة محرَّمة بحرمة الله تعالى، يدفع عنها كل من أرادها بسوء، وقد أظهر الله هذا التحريم على لسان إبراهيم ﷺ، وجعل تحريمها من التكاليف المنُوطة بخلق الله، وحرَّم النبي ﷺ المدينة ودعا لها، كما حرَّم إبراهيم مكة ودعا لها فأجاب الله دعاءه، فهي حرامٌ بحُرمة الله تعالى إلى يوم القيامة، ولم تحلّ حُرمة مكة لأحد قبل النبي ﷺ حيث أحلَّها الله له ساعة من نهار يوم فتح مكة المكرمة.

فالإنسان يأمن فيه على نفسه ولو كان آثمًا مرتكِبًا جُرمًا خارج الحرم، والطيرُ يأمنُ على نفسه، والحيوان يأمنُ على نفسه، وكذا الشجر والنبات، حتى اللقطة، فلا يُلتقط لقطته، ولا يُختلى خلاه، أي: لا يقطع نباته، ولا يُعضَّدُ شوكه، أي: لا يُقطع شوكه، ولا ينفَّر صيده، وقد بلَّغ إبراهيم ذلك إلى الناس، ولم يبلغه إليهم أحد قبل إبراهيم، وجاء هذا البلاغ بصيغة الدعاء ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ ليتمكن الناس من أداء المناسك، ولتجبى إليه الثمرات، فأجاب الله دعاءه، فاللقطة لا تُلتقط،و الطير والصيد لا ينفر والكل آمِنٌ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

ولقد كانت قريشُ تُخيفُ المارة، وكان فيهم قُطَّاع الطُّرق، ولو لم تكن مكة آمنة لما أمكن السفر لأداء الحج والعمرة إلى بيت الله الحرام، ولو لم يكن البيت آمنًا لما أمكن أن تُحقق دعوة إبراهيم، في بلدٍ جرْداء، وصحراء لا نبات فيها ولا زرع ولا ضرع، ولما أمكن للإنسان أن يعيش فيها، فكيف يأتيها المأكل والمشرب؟ إن أمن البلاد تتْبعه سعادة الحياة ويقتضي ذلك العدل والعِزَّة والرخاءُ إذ لا أمن بدونها، فإذا اختل الأمن اضطربت الحياة واختل نظامها، لقد تحقق ذلك بسبب دعاء إبراهيم ﷺ فيما جاء على لسانه في قوله: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ فهو بلدٌ ليس فيه ماءٌ ولا زرعٌ ولا ثمرٌ ولا ضرعٌ.

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢١٢٩) و«صحيح مسلم» (١٣٦٠) بلفظ (مثلي) و«المسند» (١٦٤٤٦)، بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وشرح مشكل الآثار (٤٧٩٧).

والبلد الحرام أحبُّ بلاد الله إلى الله، وأحبُّ البلاد إلى رسول الله ﷺ.

في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لمكة: «**ما أطيبَك من بلدة، وأحبَّك إليَّ، ولولا أن قومك أخرجوني ما سكنْتُ غيرك**»[١].

وعن عبد الله بن عَدِي بن الحمراء قال: رأيت رسول الله ﷺ وهو على ناقته واقف بالحزْوَرة[٢] يقول لِمكَّة: «**والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أُخرجت منكِ ما خرجت**»[٣].

ولما هاجر ﷺ إلى المدينة دعا لها بالبركة فقال: «**اللهم اجعل بالمدينة ضعفيْ ما بمكة من البركة**»[٤].

إن دعوة إبراهيم هذه قد خَصت المؤمنين بالرزق حين قال: ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ ولكن الله سبحانه استدرك على إبراهيم، فبيَّن له أن رزق الله تعالى لا يخص المؤمن وحده، وإنما يشمل الكافر أيضًا ﴿قَالَ﴾ أي: قال الله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ سأرزقه أيضًا، فرِزْقُ الله في الدنيا يستوي فيه الخلق جميعًا، بل ربما يُوسّع الله على الكافر أكثر؛ لأن هذا متاعه والدنيا جنته، قال تعالى: ﴿فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا﴾ أي: أمتع الكافرين في الدنيا متاعًا قليلًا؛ لأن متاع الدنيا مهما بلغ فهو قليلٌ بالقياس إلى متاع الآخرة، أما يوم القيامة فإن مصيره ومرجعه جهنم وساءت مستقرًا ومصيرًا: ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

خَمْسُ وَقَفَاتٍ مَعَ حُرْمَةِ الحَرَمِ وَأَمْنِهِ

أولًا: حرمة مكة: وحُرْمة مكة مستَمَدة من حرمة البيت الحرام، أول بيت وضع للناس، وهي حرمة أبدية بتحريم الله تعالى له يوم أن خلق السموات والأرض.

وقد عظَّمته العرب في الجاهلية وحمته من كل معتدٍ.

---

(١) «صحيح سنن الترمذي» (٣٠٨٣) والحاكم (١/ ٤٨٦) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٠١٣).

(٢) هي سوق أهل مكة قديمًا، وقد دخلت الآن في مساحة المسجد الحرام.

(٣) «صحيح سنن الترمذي» (٣٠٨٢) و«سنن النسائي الكبرى» (٤٢٥٢) و«المسند» (١٨٧١٥ - ١٨٧١٨) بإسناد صحيح ورجال ثقات، (محققوه) وابن سعد (٢/ ١٣٧). وهو في الترمذي (٣٩٢٥).

(٤) من حديث أنس في البخاري (١٨٨٥) ومسلم (١٣٦٩) و«المسند» (١٢٤٥٢).

وجاء الإسلام فزاده تعظيمًا وتقديرًا، وجعل للحرم المكي من القداسة والحُرمة ما يحفظ للحاج والمعتمر الأمن والسلامة والهدوء، ويصون البيت الحرام من العبث والتخريب والفساد.

وقد وضع الإسلامُ لذلك الكثير من التدابير وأساليب الوقاية اللازمة، فحرَّم القتال في الحرم، إلا لضرورة رد العدوان والدفاع عن النفس أو الأهل أو العِرض أو المال.

قال عليه الصلاة والسلام يوم فتح مكة في حديث عبد الله بن عباس ﷺ: **«إن هذا البلد حرَّمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرامٌ بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرامٌ بحُرمة الله إلى يوم القيامة»**[1].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

ومن أفسد بالحرم -فانتهك حرمته بالقتل أو الفساد في الأرض- فإنه يكون قد ارتكب حُرمات وجرائم؛ حُرمة الله تعالى، وحُرمة الإنسان، وحُرمة البيت الحرام، ولو لم يُقَمِ الحدُّ على الجُناةِ فيه لعمَّ الفسادُ، وعظُم الشرُّ فى حَرم الله، فالحرمُ لا يُجير مُجرمًا آثمًا.

جاء في الحديث عن أبي شُريح العَدَوي: **«إن الحرم لا يعيذ عاصيًا، ولا فارًّا بدم، ولا فارًّا بخربة»**[2] أي: بمكان خرب.

ثانيًا: حرمة الحيوان في الحرم: وقد حرَّم الإسلام الصيد في مكة المكرمة، وحرَّم التعرض للحيوان بالقتل، أو الذبح، أو التنفير، أو الإشارة، أو حتى بكسر بيضه.

وحرمة الحيوانات في الحرم على **أقسام أربعة:**

القسم الأول: الحيوان البري مأكول اللحم، مثل: الغزال، والظبي، والنعامة، والضبع، والأرنب، واليربوع، والوعل.

وكذلك الطير، مثل الحمام؛ فإن هذا وأمثاله من الحيوان الوحشي (البري) الذي

---

(١) «صحيح البخاري» عن ابن عباس برقم (٣١٨٩) وانظر (١٣٤٩) و«صحيح مسلم» برقم (١٣٥٣).

(٢) من حديث أبي شريح العدوي قال: وهو يحدث به سمعته أذناي، ووعاه قلبي، وهو لفظ مسلم برقم (١٣٥٤) و«صحيح البخاري» برقم (١٠٤، ١٨٣٢).

يؤكل، لا ينبغي للمُحْرِمِ أن يصيده، أو يتعرض له بشيء من الأذى، وفى صيده، أو قتله جزاء وعقوبة جاءت في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾ [المائدة] فيُخيَّر بين ذبح مثْله إن كان له مثْل، وبين تقويمه بدراهم يَشْتَري بها طعامًا ويعطي كل مسكين مدًّا، أو يصوم عن كل مدٍّ من الطعام يومًا.

وفي حديث ابن عباس السابق في حُرمة مكة: «**ولا ينفَّر صيده**».

وهذا النوع من الحيوانات هو الذي يحرَّم صيده على المحرم.

القسم الثاني: الحيوان الضار المؤذِي، وهذا الحيوان يُقْتل في الحلِّ والحرم، فقتْلُه خيرٌ من الإبقاء عليه، ولا حاجة للناس في صيده.

وهو خمسة أنواع، جاء ذكرها في حديث عائشة ﵂ أن النبي ﷺ قال: «**خمسٌ من الدواب كُلُّهنَّ فاسقٌ يُقتلْن في الحرم: الغراب، والحدأة، والعقرب، والفأرة، والكلب العقور**».

وفي رواية مسلم: «**يُقتل خمسُ فواسق فى الحِلِّ والحَرم**»[1].

وغُرَاب الزرع الصغير الذي يأكل الزرع لا يقتل، والكلب العقور يشمل الأسد والذئب والفهد والنمر.

القسم الثالث: الحيوان الأهليُّ المستأنس: كبهيمة الأنعام (الإبل، والبقر، والغنم) والدجاج ونحوه، فإنه يباح تزكيته في كل حالٍ، وهو مملوكٌ للناس، والاعتداء عليه كالاعتداء على المال.

القسم الرابع: الحيوان الذي لا يُؤكل وليس فيه كبيرُ أذى، كالحشرات من البراغيث، والنمل والذباب، يُكره قتله، وإن قُتل فليس فيه فداء.

ثالثًا: حُرَمَةُ الشَّجَرِ والنَّبَاتِ فِي الحَرَمِ:

وكما حرَّم الإسلامُ الاعتداء على الإنسان وعلى الحيوان فى البلد الحَرام، فإنه حرَّم

---

(١) أخرجه الشيخان، انظر: «عمدة الأحكام بشرح تيسير العلَّام» ص٥١٩ وزاد في رواية البخاري: «والحيَّة»، والحديث في البخاري برقم (١٨٢٩، ٣٣١٤) وفي مسلم برقم (١١٩٨).

الاعتداء على أشجار الحرم ونباتِه الوحشيِّ، وهو الذي يَنبت مِن نفسه دون أن يَتعهده أحدٌ بالغَرس أو الزرع أو الرعاية، فإنه يَحرم قطعه والتعرضُ له إلا لضرورة.

أما النبات الأهليُّ: وهو الذي يَزرعه الناسُ ويعتمدون عليه في حياتهم، فإنه لا يَحرم قطعه؛ لأن الناس قد زرعوه بأيديهم وتعهدوه بالسقى والحرث، لحاجتهم إليه.

ويَجُوز قطع ما يُحتاج إلى قطعه من نبات الحرم الوحشيِّ، مثل: شجر السواك (الأراك) (والسنامِكي) (والإذخر) وهو نباتٌ وكَلأٌ، له أصل في الأرض، ذو رائحة طيِّبَة، كما يَجُوز قَطْعُ ما يُضطر إلى قطعه للبناء مكانه مثلًا[1].

وفي حديث ابن عباس السابق بشأن حُرمة الحرم: «**لا يُعضَدُ شوكه، ولا يُخْتَلَى خَلاَه**» أي: لا يُقطع الشوك، ولا الرَّطْبُ، من النبات ولا الكلأ.

رابعًا: انتهاك حُرمة الحرم: ومَنْ خرج عن التعاليم السابقة يُعاقب بما يتناسب مع المخالفة التي ارتكبها في الحرم؛ فمن قاتل قُوتِل بعد أن يُرشد ويُنصح إن كان باغيًا، فإن أصرَّ على بغيه يُقاتل، وإن تمكنتْ منه السلطات يُحاكم بما يتناسب مع جُرمه من تعزيرٍ أو عقابٍ.

ومَن تعرَّض للصيد أو النبات المنهي عن التعرض لهما، وَجَبَ عليه أن يَذبح أقرب الأمثال إلى ما أَتْلَفَ، أو يُقَوِّم هذا المِثل، ويُخرج بقيمته طعامًا، أو يَصوم عن كل مُدٍّ يومًا، وهذا التحريم يَشمل جميعَ مَن كان بداخل حُدود الحَرَم، سواء أكان مُحْرِمًا أم غير مُحْرِمٍ، فإن هذه الحرمة تتعلق بذات الحرم ولا تتعلق بالمُحْرِم.

خَامِسًا: الإِلْحَادُ فِي الحَرَمِ:

وممَّا حرَّمه الله تعالى الإلحاد في الحرم؛ وهذا الإلحاد طرفُه الأعلى يكون بالكفر أو الشرك، أو فعل المحرمات، أو ترك الواجبات، أو الحَلِف بالله كذبًا، أو انتهاك الحُرُمات، وطرفُه الأدنى يكون باحتكار الطعام، أو النزاع والخصام، أو النظرة أو المُزاحمة، أو التفاخر بالأحساب والأنساب، أو عَقْد العزم على ارتكاب السيئة في الحَرَم.

والإلحاد في الأصل: هو الهَمُّ بأمر فظيع من كبائر الذنوب، بأن يَقصد فعلَه في الحرم، وجاء في الأثر: (احتكارُ الطعام بمكة إلحاد).

---

(١) «الفقه على المذاهب الأربعة» قسم العبادات ص.٥٢٨

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

والإرادة: تعني العَزْم والتصميم على ارتكاب الذنب، وانتهاك حُرمة الحرم، سواء تعلَّق هذا الإلحاد بذات الشخص أمْ تَعدَّاه إلى غيره، وفى هذه الحالة فإن الذنب يكون أعظم؛ لأن الضرر قد تعدَّى فشَمِل الحَرَمَ نفسَه، وشمل الآمنين فيه.

وقد كان لعبد الله بن عمر ﷺ فسطاطان؛ أحدهما: بطرف الحرم، والآخر: في طرف الحل، فإذا أراد أن يُعاتب أهلَه أو غلامَه، فعل ذلك فى الفسطاط الذي ليس فيه الحرم؛ لأنه يَرَى أن هذا من الإلحاد.

وهذا وَرَعٌ من ابن عمر ﷺ، فإن الإلحاد يكون بترك شيء من الواجب، أو فعل شيء من المحرَّم مما يدخل في الظلم، أما الأمور الجائزة كعتاب الرجل امرأته أو عبده فليس من الإلحاد، ولا من الظلم في شيء.

عُقُوبَةُ الإِلحَادِ فِي الحَرَمِ:

ثبت عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يغزو هذا البيت جيشٌ حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض خُسِف بأولهم وآخرهم**»[1]

وفي رواية أمِّ سلمة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، أرأيتَ المُكْرَه منهم؟ قال: «**يُبْعَثُ على نيَّتِه**»[2] أي: بما فيهم الصالحون من عباد الله، فإنهم يبعثون على نيَّاتهم، وكذلك الحال في كل من يَرِدُ الحَرَم بسوء، فهو ملعونٌ على لسان رسول الله، مستوجِبٌ للعقوبة فى الدارين.

أخرج الإمام أحمد وغيره أن عبد الله بن عمر أتى عبد الله بن الزبير، فقال: يابن الزبير، إياك والإلحاد في حرم الله، فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إنه سيلحد فيه**

---

(١) النسائي في «السنن الكبرى» (٣٨٤٦) عن أبي هريرة، والبيداء: اسم موضع بين مكة والمدينة، و«التحفة» (١٢١٩٩). وهو في البخاري عن عائشة (٢١١٨) وفي كتاب رقم (٢٥) باب رقم (٤٩).

(٢) «المسند» (٢٦٧٠٢) قال محققوه: إسناده صحيح، وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٩٨٥) وأبو يعلى (٦٩٩٥) والطيالسي (١٦١١) وغيرهم.

رجل من قريش، لو توزن ذنوبُه بذنوب الثقلين لرجحتْ، فانظر، لا تكن هو»[١]

وفي الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«يُخَرِّبُ الكعبةَ ذو السُّوَيْقَتَيْنِ مِن الحبشةِ»**[٢].

فالحَرَم مَحَلُّ سكينةٍ ووقارٍ وعبادةٍ وخشوعٍ، لا يجوز فيه حملُ السلاح ولا المتفجرات ولا ترويع الآمنين من عباد الله، وإذا كان شَتْمُ الخادم من الإلحاد في الحرم، وقد نُهينا عن الرَّفث والفسوق والعصيان والجدال فيه، فلا يَحِلُّ من باب أَوْلَى القيام بالمظاهرات والمسيرات والشعارات إعلانًا عن سياسةٍ أو فكرٍ أو مذهبٍ، مما يخل بالأمن، ويُعطل مسيرةَ الحُجاج، ويُوقع الشِّقاق بينهم، ويُكثر الحوادث فى صفوفهم.

وقد طهَّر الله البيت الحرام من المشركين، فلم يَعُدْ لهم طوافٌ بالبيت، بل ولا يدخلون حِماه، ولا تَطَأُ أقدامُهم حدودَه، وأصبحتْ أجهزةُ الإعلام المسموعة والمرئية والمقروءة أكثر انتشارًا لِمَنْ أراد الإعلان عن مبادئَ وشعاراتٍ بدلًا من صدِّ الناس عن ذكر الله في البلد الحَرَام.

لقد جاء إبراهيم عليه السلام بالتَّوحيد الخالص، وجاء محمدٌ بالتوحيد الخالص، وجاء به موسى وعيسى وغيرُهم من رسل الله، صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين، ولكن بعض الأقوام حرَّفُوا وغيَّروا وبدَّلُوا بعد أنبيائهم كاليهود والنَّصَارَى، وحُرمة البيت الحرام أَبَدِيَّة، وقد أظهرها الله على يد إبراهيم عليه السلام، كما سبق بيانها.

إِبْرَاهِيمُ يَرْفَعُ قَوَاعِدَ الْبَيْتِ

١٢٧- ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ[٣] ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾

---

(١) «المسند» برقم (٦٢٠٠)، رجاله ثقات، وجاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص في المسند أيضا (٦٨٤٧).

(٢) البخاري برقم (١٥٩١، ١٥٩٦) ومسلم برقم (٢٩٠٩) و(٥٧ - ٥٩) و«المسند» (٨٠٩٤) وابن حبان (٦٧٥١) والنسائي في «السنن الكبرى» (٣٨٧٣، ١١٠٧٨) والسويقة: تصغير الساق؛ لأن الغالب على سوق الحبشة الدقة والحمُوشة.

(٣) قرأ ابن عامر بخلف عن ابن ذكوان (إبراهام) وقرأ الباقون (إبراهيم).

ثم ذكر سبحانه مَنْقَبَةً عظيمةً من مناقبِ إبراهيمَ تتمثل في بنائه للبيت بعد أن أرشده الله تعالى إلى مكان البيت، ونَهاه عن الشرك، وأَمَره بتطهير بيتِه لمَن يَطوف به كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦] أي: واذكر حين عرفناه بمكانه حين أمره ربُّه برفع أُسس وقواعدِ البيت في قوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ أي: وهو يناولُه الحِجَارة، وأمرهما بتطهيره مِن بقايا الوثنية لعباد الله الطائفين والعاكفين من الركع والسجود.

وقام إبراهيمُ وابنُه بهذه المهمة من العمل الصالح، وهما يسألان اللهَ القبول في خشوعٍ وضراعةٍ ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوال عبادك ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم.

قرأ وهيب بن الورد هذه الآية، فأخذ يَبكي ويقول: يا خليل الرحمن، تَرفع قوائمَ بيت الرحمن، وأنت مُشفِقٌ ألا يُتقبل منك، وهذا حالُ المؤمنين الخُلَّص، قال تعالى في وصفهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون] أي: يُقدِّمون صالحَ الأعمال، ويخافون عدم القبول.

بِنَاءُ الْكَعْبَةِ: ولوجود ارتباطٍ وثيقٍ بين إبراهيم ﷺ وبين البيت الحرام (الكعبة المشرفة)؛ فالقرآن الكريم يَتحدث عن الكعبة، وعن بنائها من عهد إبراهيم ﷺ، أما قبل ذلك فهو مِمَّا يُذْكر في التاريخ وفي كتب أهل الكتاب، مما لا يُصدق ولا يُكذب، ولا يُوجد من المعصوم ﷺ خبرٌ صحيحٌ صريحٌ يَدلُّ على بداية بناء البيت قبل إبراهيم ﷺ، وقد قيل: إن أول مَن بَنَى البيت الملائكة، وقيل: بناه آدم، وقيل: بناه شيث بن آدم عليهم الصلاة والسلام جميعًا.

فما معنى رفْع القواعدِ من البيت؟ هل المعنى أقام الأساس وبناه؟ أو أنه كان هناك قواعدُ موجودةٌ بالفعل فرفعها إبراهيم؟ ربما، يُحتمل هذا وهذا، ولكن الحديث عن البيت الحرام في القرآن الكريم مُرتبِطٌ بإبراهيم ﷺ، ولا يوجد فيما أعلم خبرٌ صحيحٌ في بناء البيت قبل إبراهيم، ولكنه يُفهَمُ ضِمنًا من القرآن أن البيت كان موجودًا قبل أن يَرفع إبراهيم قواعدَه.

وتوجد آثارٌ تدل على أن إبراهيم قام ببناء البيت ورفع قواعده بعدما أرسل الله رياحًا شديدة الهبوب، كَنَسَتْ ما حول الكعبة حتى ظَهَرَ له موضع البيت وعَرَفَ مكانه، يُفهم هذا

من قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦].

وقيل: إن الله تعالى أرسل سحابةً مَشَى فى ظلها إبراهيم حتى وقفتْ على موضع البيت، ونُودي يا إبراهيم: ابنِ على قَدْرِ ظِلِّهَا، فبَنَى إبراهيم البيت، وأذَّن في الناس بالحج كما أمره ربُّه، وهو يسأل الله أن يتقبل منه هذا العمل.

أما الحجر الأسود فكان ياقوتةً بيضاء، نزل بها جبريل، فاسودَّ من مس الحُيَّضِ فى الجاهلية، أو من خطايا بني آدم.

نَبْعُ عَيْنِ زَمْزَمَ: وفي حديث البخاري عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﷺ أجمعين أن إبراهيم ﷺ أتى بإسماعيل وأمه، ووضعهما عند دوحة فوق زمزم، وليس بمكة يومئذٍ أحدٌ ولا ماءَ ولا طعامَ، ووضع عندهما جرابًا فيه تَمر، وسقاءً فيه ماءٌ، ثم مشى موليًّا إلى الشام، فتَبِعتْه أمُّ إسماعيل فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيسٌ؟ وكرَّرتْ ذلك، وهو لا يلتفت إليها، فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم؟ قالت: إذًا لا يضيعنا، ثم رجعت.

ولمَّا كان إبراهيم عند (الثنية) بحيث لا يروْنَه؛ استقبل البيت، ورفع يديه، وقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

ولما نَفَدَ الماء الذي في السِّقاء، وعطش إسماعيل صعدتْ أمُّه فوق أقرب الجبال إليها (الصفا)، وهبطت منه حتى بلغتْ (المروة) سبع مرات، وهي تَسعَى بينهما سعيًا حثيثًا؛ طلبًا للماء، ويَزداد سعيُها إذا استقبلت الوادي، وهو ما بين العلَمَيْن الأخضريْن حاليًا، ثم سمعتْ صوتًا، فإذا بِجبريلَ عند موضع زمزم، وقد نبع الماءُ عنده، فأخذتْ تَحُوطُهُ، وتَغرف منه في سقائها، وهو يفور بعدما تغرف:

جاء في الحديث عن أنس ﷺ: **«يرحم الله أمَّ إسماعيل لو تركت زمزم لكانت عَيْنًا مَعِينًا»**[1].

فشربتْ وأرضعتْ ولدها، وقال لها الملَك: لا تخافي الضَّيعة، فإن ههنا بيتًا لله يبنيه هذا

---

(١) أخرجه البخاري كما في زيادة الجامع الصغير (٤٣٤٣) وأخرجه أحمد في مسند عبدالله بن عباس، ورقمه في البخاري (٢٣٦٨، ٣٣٦٤).

الغلام وأبوه، وإن الله لن يضيعَ أهله، وكان إبراهيم يَتردد عليهما بين الحين والآخر.

وكان موضع البيت مكانًا مرتفعًا تأخذه السيول يمينًا وشمالًا، وكانت قبيلة جُرهم أقرب الناس إلى أم إسماعيل فرأوْا طائرًا يُحَلِّق فوق مكان البيت، فعرفوا مِن تَحليقه وجود ماء في هذا المكان، فاستأذنوا أمَّ إسماعيل في مجاورتها من أجل الماء؛ فأذنتْ لهم، وشَبَّ إسماعيل وتَعَلَّمَ منهم العربية، ثم تَزوج منهم، وماتتْ أمه، فجاء إبراهيم وسأل عن ولده؛ فقالت امرأته: خرج يطلب لنا معيشةً، فسألها عن حالهم، فقالت: إنهم في ضيقٍ وشدةٍ، قال لها: فإذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولي له: يغيِّر عتبةَ بابِه، فلما جاء إسماعيل وقصَّتْ عليه ما حدث، قال لها: هذا أبي يأمرني أن أفارقَك، فالحقي بأهلك، وطَلَّقَها وتزوج بأخرى.

وجاء إبراهيمُ فوجدها فسألها عن حالهم؛ فقالت: نحن بخير وسَعَة، قال لها: فإذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولي له: يثبتْ عتبةَ بابِه، فلما جاء إسماعيل وأخبرتْه قال: هذا أبي يأمرني أن أمسِكَكِ.

ثم جاء إبراهيم بعد ذلك، فوجد إسماعيل يَبْرِي نَبْلًا له تحت دَوْحَةٍ قريبًا من زمزم، فسلَّم كلٌّ منهما على الآخر، ثم قال له: إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال: وتعينني؟ قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبني ههنا بيتًا، وأشار إلى مكانٍ مرتفعٍ، فعند ذلك رفعا القواعد من البيت حتى ارتفع البناء، وهما يسألان الله القبول[١].

وهذا الحديث اقتصر على قصة زمزم وبناء البيت، ولم يَتعرض لرحلة إبراهيم في قِصَّة ذَبْحِ إسماعيل حيث كان سِنُّهُ آنذاك ثلاثة عشر عامًا، وكانت القصة في حياة أمِّه، وقبل زواجه الأول.

وَوَرَدَ أن إبراهيم ﷺ كان يزور أهله بمكة على البُراق ثم يعود إلى فلسطين، والله أعلم.

هذا: والكعبة التي بناها إبراهيم كانت إلى نِهاية سُور حِجْرِ إسماعيل؛ أي: كان الحِجْر داخلًا فيها، ثم إن السيول قَوَّضَتْهَا في الجاهلية، فبَنَتْها قريش، ولمَّا لم تكفِ أموالُهم

---

(١) ذكرته بالمعنى، يُنْظَر: «صحيح البخاري» برقم (٢٣٦٨، ٣٣٦٤، ٣٣٦٥) و«المسند» (٢٢٨٥، ٣٢٥٠) وابن أبي حاتم (١٢٣٣) والحاكم (٢/ ٥٥١) والطبري (٢/ ٥٥٩).

لبناء كامل المساحة؛ اقتصروا على بناء المقدار المعروف حاليًا؛ أي: بإخراج حِجْر إسماعيل منه، وكانوا قد تحرَّوْا أن لا يدخلَ في بنائها مالٌ من حرام، كالرِّبا، أو المظالم، أو مهر البغي، ونحو ذلك.

ثم إن النبي ﷺ أراد أن يُعيد بناء الكعبة على قواعد إبراهيم؛ أي: بإدخال الحجْر فيها، ولكنه خَشِيَ إحداثَ فتنةٍ بذلك؛ لأن قومَه حدِيثو عهد بالكفر.

قال عبد الله بن الزبير: حدثتني خالتي عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبي ﷺ: **«يا عائشة، لولا قومُك حديثو عهد بشرك؛ لهدمْتُ الكعبة، فألزقتُها بالأرض، وجعلتُ لها بابين؛ بابًا شرقيًّا، وبابًا غربيًّا، وزِدْتُ فيه ستة أذرع من الحِجْر، فإن قريشًا اقتصرتْها حين بنت الكعبة»**[(١)]

ومعنى اقتصرتْها: أنقصتْها لنقص المال الحلال.

قال ابن إسحاق: وكانت الكعبة على عهد النبي ﷺ ثمانيةَ عشر ذراعًا.

قال ابن كثير: ولم تَزَلْ على بناء قريش حتى أُحرقت في أول إمارة عبد الله بن الزبير بعد سنة ستين، وفي آخر ولاية يزيد بن معاوية، نقضها ابن الزبير إلى الأرض وبناها على قواعدِ إبراهيم، وأدْخَلَ فيها الحِجْر، وجعل لها بابًا شرقيًّا، وبابًا غربيًّا، مُلْصقَيْن بالأرض، كما سَمِع ذلك من خالته عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ، ولم تزل كذلك مدةَ إمارته، حتى ردَّها الحَجَّاجُ إلى ما كانت عليه بأمر عبد الملك بن مَرْوَان[(٢)]

مَنَاسِكُ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ

١٢٨- ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا[(٣)] مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٣٣٣) وقد ورد في هذا المعنى أحاديث كثيرة منها في البخاري (١٥٨٥، ١٥٨٦) و«المسند» (٢٤٢٩٧) والنسائي في «الكبرى» (٣٨٦٩، ٣٨٧٢).

(٢) «تفسير ابن كثير» (١/٤٣٨) وقد أورد عددًا من الأحاديث في ذلك، وانظر هذا في باب نقض الكعبة وبنائها من كتاب الحج في «صحيح مسلم».

(٣) قرأ ابن كثير ويعقوب وأبو عمرو بخلف عنه بإسكان الراء للتخفيف، والوجه الثاني لأبي عمرو اختلاس كسرة الراء، وقرأ الباقون بالكسرة الكاملة على الأصل.

أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾.

ثُم سأل إبراهيمُ ربَّه وهو يرفع القواعد من البيت أن يجعلَه وابنَه إسماعيلَ مسلميْنِ له، وأن يجعل من ذريته جماعةً كُبرى مسلمةً ومُنقادَةً له، وهذا تحقيقٌ للعبودية والانقياد لله سبحانه، وإسلام الوجه له تعالى، وهذا الإسلام الذي طلبه إبراهيمُ ﷺ قد تكَامَلَ وتَنَامَى بمجيء رسول الإسلام محمدٍ ﷺ، وهو قبل ذلك رسالةُ كُلِّ رسولٍ.

وقد ألهم الله إبراهيم اسم الإسلام، ثم ادَّخَرَه لأمة محمدٍ ﷺ، ولم يُلقب به دينٌ آخر؛ لأن الله أراد أن يكون هذا الدين مُتَمِّمًا للحنيفيَّة ملة إبراهيم، فالإسلام دينُ كل أمَّة بمعناه العام الذي هو التوحيد والاستسلام لله سبحانه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩] فكل رسول جاء ليقول للناس: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ قالها نوح، وهود، وصالح، وشعيب، وسائر الرسل إلى أقوامهم، كما في سورة هود وغيرها.

والعبادة: تَعني إخلاص العقيدة لله، والاتباع لرسول الله، وصِدْقِ التوجه إلى الله تعالى في أداء التكاليف الشرعية، وإقامة الحياة إعلاميًّا وتربويًّا وسياسيًّا واجتماعيًّا وقضائيًّا وثقافيًّا واقتصاديًّا وعسكريًّا وما إلى ذلك، على منهج الله سبحانه، وفي ذلك تحقيقٌ لمعنى الإسلام كما جاء به كُلُّ رسولٍ.

وكما سأل إبراهيمُ ربَّه تحقيقَ الإسلام فيه، وفي ذريته إلى يوم القيامة، سأله أن يعلمَه وذريتَه مناسكَ الحَج وشعائرَ العبادة،وأن يوفقه للعلم النافع والعمل الصالح، وأن يَتوب عليه وعلى ذريتِه، ومِن ذريته اليهود والنَّصارَى والمسلمون ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ ثابتِين على الإسلام، منقادِين لحُكْمِك، واجعل ذلك في ذريتي إلى يوم القيامة ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ مُنْقَادَة وخَاضعة لك، لا تَعْبُدُ غيْرَك.

وسأل إبراهيمُ ربَّه أن يعلِّمَه ألوانَ الطاعة والعبادة فقال: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ بَصِّرْنَا بمعالمِ عبادتك، ومنها مناسك الحج.

أخرج الطبري بسند حسن عن قتادة: أن المناسك هي: الطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، والإفاضة من عرفات، والإفاضة من جَمع ورمي الجِمار، حتى أكملَ الله الدِّين؛ فأجاب الله دعاءهما، وبَعث جبريلَ فأراهما المناسك فى يوم عرفة، فلما وَصل جبلَ عرفة، وهو يعلِّمه المناسك قال: عرفت يا إبراهيم؟ قال: نعم، فسُمي الوقت عرفة،

وسُمي المكان عرفات، وقيل غير ذلك في علة التسمية.

ثم طَلَبَ إبراهيم من ربِّه التوبةَ والرحمةَ فقال: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أنت المتجاوِزُ عن الذنوب، كثيرُ التوبة والرحمة بعبادك.

ورَدَ أن إبراهيم لمَّا بَنَى البيت أخذ جبريلُ بيدِه إلى الصفا، وقال له: هذا من شعائر الله، ثم أخذه إلى المروة وقال: هذا من شعائر الله، ثم انطلق به نحو مِنَى، فأراه مكان الجمرات الثلاث، وقال له: كَبِّرْ وَارْمِ، ثم أخذه إلى المشعر الحرام، ثم إلى عرفة[١].

وعن ابن عباس ﷺ قال: إن إبراهيم لمَّا أُمِرَ بأداء المناسك؛ عرض له الشيطان عند الْمَسعى، فسابقه إبراهيم، ثم انطلق به جبريلُ حتى أَتَى مِنَى، فقال: مُناخ الناس هذا، فلما انتهى إلى جمرة العقبة تعرَّض له الشيطان؛ فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم أتى به الجمرة القُصوى، فعَرَضَ له الشيطان؛ فرماه بسبع حصيات حتى ذهب، فأتى به جمْعًا (أي: مزدلفة) فقال: هذا المشعر، ثم أتى به عرفة، فقال: هذه عرفة، فقال له جبريل: عَرَفْتَ[٢].

وقد طاف النبي ﷺ حول البيت على بعير؛ كي يسمع الناس كلامَه، ولا تناله الأيدي، وكان ما حول الكعبة أرضٌ حصباء، وليس طواف الحاج راكبًا من السُّنَّة.

وقد رَمَل النبي ﷺ وهو يطوف (أي: مَشَى مُظْهِرًا لقوته) كمشية الجندي؛ إظهارًا للقوة؛ لأن قريشًا قالوا: دَعُوا محمدًا وأصحابَه حتى يموتوا موت النَّغَفِ، وكانوا يقولون: إن محمدًا وأصحابَه أوهنتْهم حُمَّى يثرب، وقد أمر النبي ﷺ أصحابَه في عُمرة القضاء أن يرملوا من أجل هذا السبب.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن إبراهيم لما أُمر أن يُؤَذِّن في الناس بالحج، أُمرت الجبال فخفضتْ رؤوسَها، ورُفعتْ له القرى، فأذَّن في الناس بالحج[٣].

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور في سننه عن مجاهد برقم (٢٢٠) وابن أبي حاتم (١٢٥٢) والأزرقي (١/ ٣٥).

(٢) يُنْظَر: حديث طويل في «مسند الطيالسي» برقم (٢٦٩٧) والطبراني (١٠٦٢٨) والطبري في تفسيره (٢٣/ ٨٠)، (٢٨٢٠) والبيهقي في «الشعب» (٤٠٧٧) و«المسند» (٢٧٠٧) قال محققوه: رجاله ثقات، رجال الصحيح غير أبي عاصم الغنوى.

(٣) يُنْظَر: «المسند» بتصحيح أحمد شاكر رقم (٢٧٠٧) و«منحة المعبود» برقم (٩٩٢) والطبراني في «الكبير»، و«مجمع الزوائد» (٣/ ٣٥٩) (٨/ ٢٠٠).

ويَحْسُنُ بنا إتمامًا للفائدة أن نتناول بعض ما يَتَعَلَّقُ بالحج والعمرة:

أولًا: الحُجَّاجُ والعُمَّارُ وَفْدُ اللهِ: الحجاج والعمار يَفِدون إلى ربهم ويزورونه فى بيته؛ كى يحظَوْا بالتكريم والقربَى منه سبحانه؛ لأداء فرضهم، وتطهير نفوسهم، وتزكية أرواحهم؛ إجابةً لدعوة ربهم، عن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«الحجاج والعمار وفد الله، دعاهم فأجابوه، وسألوه فأعطاهم»**(١).

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«وفد الله ثلاثة: الحاج والمعتمر والغازي»**(٢).

هذا الوفد لم يذهبْ لملِك من مُلوك الدنيا، ولا لمؤتمر من مؤتمرات الخَلْق، ولم يَشد الرَّحل لنزهة أو لسياحة أو لفُسحة، أو البحث عن أثر من الآثار، أو للتنقيب عن كَنْزٍ من كُنوز الأرض، أو لزيادة الثروة التِّجارية أو غير ذلك، إنه سَفَرٌ وحيد من نوعه، فريدٌ فى هدفه، لا مثيلَ له فى أسفار الدنيا، إنه سفرٌ إلى رب العالمين ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝٩٩﴾ [الصافات: ٩٩] ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤].

ثانيًا: مباهاة الملائكة: إن هذا الوفد أعظم الوفود وأكرمها على الله جل شأنه، حيث يباهي بهم ملائكتَه الكرام، فيقول لهم: **«انظروا إلى عبادي شعثًا غبرًا جاؤوا من كل فج عميق، يَرجون رحمتي ولم يَروا عذابي، أشهدكم يا ملائكتي أني قد غفرت لهم»**(٣).

وفي هذا ردٌّ على الملائكة الذين قالوا عندما أراد الله سبحانه أن يخلقَ الإنسان: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] فالحج بما فيه يوم عرفة مَظهرٌ من مظاهر طاعة هذا الإنسان وتلبيته

---

(١) رواه البزار، ورجاله ثقات كما قال الهيثمي فى «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد» ط٢ ج٣ وهو في «كشف الأستار» (١١٥٣).

(٢) أخرجه ابن حبان، راجع «موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان»، وصحيح، «الجامع الصغير» حديث رقم (٦٩٨٩) والحاكم (١/ ٤٤١) والبيهقي (٥/ ٢٦٢) وفي «الشعب» (٤١٠٣) ورجح البيهقي وقفه على كعب.

(٣) من حديث عبد الله بن عمرو في «المسند» برقم (٧٠٨٩) إلى (غُبرًا) بإسناد لا بأس به، وأخرجه الطبراني في الصغير (٥٧٥) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٢٥٠) رواه أحمد والطبراني في الصغير والكبير، ورجال أحمد موثقون، وله شواهد.

وإنابته لربه، وموقف إبراهيم وهو يعالج بالسِّكِّين عنُق وَحيده إسماعيل مثالٌ فريدٌ في طاعة الإنسان لربه وإجابته له سبحانه.

ثالثًا: المبادرة إلى الحج والعمرة: وينبغي على المسلم أن يبادر ويُعجل إلى أداء الحج والعمرة قبل أن تأتيَه الشواغل والصوارف والعوارض؛ فتعتل الصحة، أو تشح اليد، أو لا يأمن الطريق، ونحو ذلك.

عن الفضل بن العباس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**من أراد الحج فليتعجل فإنه قد يَمرض المريض، وتضل الضالة، وتعرض الحاجة**»[1].

وعن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**تعجلوا إلى الحج** (أي: إلى أداء الفريضة) **فإن أحدكم لا يَدري ما يعرض له**»[2]

فينبغي على المكلَّفِ القادر أن يُبادر إلى الحج متى استطاع أداءَه.

رابعًا: الترهيب لِمَنْ ترك الحج مع الاستطاعة: ولا ينبغي لِمَن أعطاه الله الصحةَ والمالَ، وأَمِن الطريق أن يَتراخى ويتهاون فى أداء فريضة الحج، ويكفي في الوعيد لِمَن تخلَّف عن الحج مع القدرة عليه قول الله تعالى في تتمة آية الحج: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] كأن الإعراضَ عن الحجِّ مع القدرة عليه كُفْرٌ بالله تعالى، كما أنَّ تَرْكَ الصلاة عَمْدًا وجُحودًا لها كُفرٌ، كما جاء ذلك في الأحاديث الصحيحة؛ فلا ينبغي التهاون والتسويف وتقديم أمور الدنيا ومتاعها على فريضة الحج.

خامسًا: الحج مرة: ومن رحمة الله تعالى بعباده أنه لم يَفرض الحج عليهم فى كل عام؛ بل فَرَضَه مرة واحدة في العمر، وما زاد عن ذلك فهو تَطَوُّعٌ، والنبى ﷺ لم يَحُج إلا مرة واحدة، حيث كانت فريضةُ الحج على الأرجح في العام التاسع من الهجرة، وحَج

---

(١) رواه أحمد برقم (١٨٣٣، ١٨٣٤) والحاكم (١/ ٤٤٨) قال محققو المسند: حديث حسن، ورواه ابن ماجه بإسناد حسن كما في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٣٣١) وهو في «صحيح أبي داود» (١٥٢٢) وفي «مشكاة المصابيح» (٩٩٠) و«الإرواء» (٩٩٠) وانظر «صحيح الجامع» (٥/ ٢٣٧) رقم (٥٨٨٠) عن الفضل.

(٢) انظر: «صحيح الجامع الصغير» (٣/ ٤٣) برقم (٢٩٥٤) وأخرجه الأصبهاني في «الترغيب والترهيب» للمنذري (٢/ ١٦٨) وصححه الألباني في «الإرواء» (٩٩٠). وهو في المسند (٢٨٦٧) بإسناد حسن.

النبي ﷺ في العام الذي بعده (العاشر من الهجرة) بعد أن استدار الزمان كهيئته يوم خلق الله السمواتِ والأرضَ، فجاء الحج في وقته المشروع، وتَطَهَّرَ البيتُ من الشرك والمشركين، ووافق الحَج موعده في العاشر من شهر ذي الحجة، بعد أن أخذ النسيء دَوْرته من التقديم والتأخير بين الشهور، حيث كان الحج في شهر ذي القعدة في العام الذي سبق حج النبي ﷺ.

عن أبي هريرة ﷺ قال: خَطَبنا رسول الله ﷺ فقال: «**أيها الناس قد فُرض عليكم الحج فحجوا**»، فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثًا، فقال: «**لو قلت: نعم؛ لوجبت ولَمَا استطعتم**»، ثم قال: «**ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه**»[1].

سادسًا: حُكْم الحج: الحج رُكن من أركان الإسلام، فَرَضَه الله ﷻ على المسلم البالغ العاقل المستطيع الذي يأمن الطريق، وعنده القدرة البدنية على أداء المناسك، بحيث يُمكنه أن يَثبت على الراحلة، ويَملك نفقتَه ونفقةَ أهله في ذَهابه وإيابه، وإذا كان الحاج امرأةً فإنه يلزمها وجود الزوج أو المَحْرَم قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ﴾ [آل عمران: ٩٧] ومن استطاعة المرأة وجود الزوج أو المَحْرَم.

سابعًا: حُكم العمرة: وكما أن الحجَّ لا يَجب في العُمر إلا مرة واحدة؛ فإن العمرة كذلك تَجب مرة واحدة على القول بوجوبها، وهو الأرجح، وقيل: إنها سُنَّة مؤكَّدَة، وما زاد عن المرة فهو تطوعٌ وتقربٌ إلى الله تعالى، لَا سِيَّمَا في شهر رمضان.

والنبي ﷺ قد اعتمر أربع مرات: ثلاث منفردات، ورابعة أدخلها على حَجه ﷺ.

والعُمرة جائزةٌ في جميع أيام السنة قبل الحج وبعده، ويُستدل على وجوب العمرة بقول الله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِۚ﴾ [البقرة: ١٩٦]

وبالحديث الصحيح عن أبي رَزين العُقَيْلِيِّ أنه قال: يا رسول الله، إن أبي شيخ كبير لا

---

(١) رواه مسلم «مختصر صحيح مسلم» ص١٧١ حديث رقم (٦٣٩) وهو في «صحيح مسلم» برقم (١٣٣٧).

يستطيع الحج والعمرة والظعن؛ فقال: **«حج عن أبيك واعتمر»**[(١)].

ثامنًا: وقت الحج: للحجِّ أوقاتٌ لا يَصح إلا فيها، بيَّنها الله سبحانه في قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩] وقال: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ ومواقيتُ الحجِّ والأشهر المعلومات هي: شهري شوال وذي القعدة وعشر من ذي الحجة أو ما يشمل شهر ذي الحجة كما سبق، وجميعُ أعمال الحج يَجب أن تُؤَدَّى في الوقت المُحَدد للحج، سواء أكان متمتعًا أم قارنًا أم مفردًا، ولهذا الوقت من الزمن حُرمة خاصة ليست لغيره من بقية العام.

تاسعًا: وقت أداء العمرة:

ولما كان الحج له وقتٌ معيَّنٌ من العام؛ فإن الله ﷻ لم يكن لِيرُدَّ زائريه في أيِّ وقت عن زيارة بيته؛ فشرع لهم العمرة فى جميع الأزمنة إلى جانب الحج؛ كي يَفد الحجاج والعُمار إلى الله تعالى ويزوروه فى بيته؛ استجابةً لدعوته سبحانه على لسان خليله إبراهيم ﷺ، فيغفر لهم خطاياهم، ويحط عنهم ذنوبَهم، ويغفر لهم ما بين العمرة والحج.

عاشرًا: ما يفعله المُحْرِم قبل الإحرام

(أ) الاستخارة: إذا عزم المسلم على الحج أو العمرة، ينبغى عليه أن يَستخير الله تعالى في سفره هذا العام، فيصلي ركعتين بنِيَّةِ الاستخارة، يقرأ سورة الكافرون بعد الفاتحة فى الركعة الأولى، والإخلاص بعد الفاتحة في الركعة الثانية، ثم يدعو بعد أن يتشهد ويُسلم، ويقرأ دعاء الاستخارة، فيقول:

اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأَستقدرك بِقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم؛ فإنك تَقدر ولا أَقدر، وتَعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تَعلم أن ذَهابي إلى الحج فى هذا العام خيرٌ لي في ديني، ودنياي، ومعاشي، وعاقبة أمري، وعاجله وآجله، فاقْدُره لي ويَسِّره لي، ثم باركْ لي فيه، وإن كنتَ تعلم أنه شرٌ لي في ديني، ودنياي،

---

(١) أخرجه أبو داود (١٨١٠) وابن ماجه (٢٩٠٦) والترمذي (٩٣٠) والنسائي في «السنن الكبرى» (٣٥٨٧، ٣٦٠٣) و«المسند» (١٦١٨٤، ١٦١٨٥) بإسناد صحيح ورجال ثقات كما قال محققوه، وابن حبان (٣٩٩١)وابن خزيمة (٣٠٤٠) والطيالسي (١٠٩١).

ومعاشي، وعاقبة أمري، وعاجله وآجله؛ فاصرفه عني واصْرِفني عنه، واقْدُر لِيَ الخير حيث كان، ثم رَضِّني به، وقيل يدعو بهذا الدعاء بعد التشهد وقبل السلام.

ولْيمضِ بعد الاستخارة لِمَا يَنشرح له صدُره من السفر وعدمه، وكذلك كل أمر يُقْدِم عليه المسلم ويتردد في الإقدام عليه، فإنه يستخير الله تعالى قبل أن يَعزم أو يتحيَّز لأحد الأمرين.

(ب) التوبة: ثم يَتُوب العبد إلى الله تعالى توبةً نصوحًا، ويَرد المظالم والحقوق إلى أهلها، وكذلك الودائع والأمانات، ويَقْضِي ديونه المطلوبة منه في ذلك الحين، ويُؤدي ما عليه من الزكاة والكفارات، ويَكتب وصيَّته، ويتخيَّر الرِّفقة الصالحين، ولا يأخذ آلة لهو ولا تصوير ولا تدخين، ولا يَتجمل بحلق لحيته، ويجتهد فى إرضاء والديه، ولْيتزود بالنفقة من المال الحلال، ويُكثر منها ليفيض على غيره إنْ أمكنه، ولْيترك لمن يَعولهم ما يَكفيهم أمرَ المعيشة من المال الحلال الطيِّب حتى يرجع، ويتجنب الجدال والخصام والزحام والمضارة، ويتعلم ما يلزمه لأداء النُّسك الذى يريده، ويصحب العلماء؛ لِيسألَهم ويقتديَ بهم، ويودع أهله، ويقرأ دعاء الخروج من البيت، ودعاء السفر.

(ج) النظافة والغُسل والإحرام: ويُسن لمَن أراد الإحرامَ أن يتنظَّف فيقص أظافره وشاربه، ويحلق عانته، ويزيل شعر إبطيْه، ثم يغتسل بنية غُسل الإحرام، ويتطيب، ثم يتجرد من المَخِيط، ويلبس ملابس الإحرام، ويضطبع (بكشف كتفه الأيمن) أثناء الأشواط الثلاثة الأول في الطواف الأول فقط مع الرمل فيها، ثم يُصلي فريضة أو نافلة، ويَنوي الحج أو العمرة بعدها في الميقات أو عند محاذاته له، وبمجرد النية يَتقيَّد المُحْرِم بجميع محظورات الإحرام، وإن نوى الإحرام بدون صلاة صح ذلك.

(د) التلبية: ويُلبي الرجال بصوت مسموعٍ غير جماعيٍّ؛ **والمقصود بالتلبية الجماعية:** أن يلبيَ شخص ويَرد عليه آخرون، ولا يرفعُ النساء صوتَهن بالتلبية خشيةَ الفتنة، والتلبيةُ شعارُ الحج، كالتكبير شعار الصلاة؛ فيستحب الإكثار منها في كل حال، وفي يوم العيد يُستبدل التكبير بالتلبية.

حادي عشر: أنواع النسك ثلاثة

(أ) التمتع: وهو أن يُحرم المتمتع بالعمرة في أشهر الحج (بأن يطوف ويَسعى

ويَحْلق أو يُقَصر) ثم يلبس ملابِسَه العادية، ويَحل له كل شيءٍ حَرُم عليه، وفي يوم التروية يُحرِم بالحج من داخل حدود الحرم، ويأتي بأعمال الحج، وعليه هدْي يَذبحه يوم النحر.

والتمتع هو أفضل الأنساك؛ لأن النبي ﷺ قد تَمناه لنفسه، وأمر أصحابَه به.

(ب) **القِران**: وهو أن يُحرم بالعمرة والحج معًا، أو يُحرم بالعمرة ثم يَنوي الحج قبل أن يَفرغ من العمرة، ويلزمه طوافٌ واحدٌ، وسَعْيٌ واحدٌ عند الجمهور، كالمفرد، وعليه هَدْي كذلك، ويَبْقَى مُحرِمًا حتى يوم النحر، وعند الأحناف أن القارن عليه طوافان وسعيان.

(ج) **الإفراد**: وهو الإحرام بالحج وحده، وليس عليه هدْي.

ولا ينبغي إفراد الحج؛ ليتعمَّد المرء الإتيان بعمرة بعده من التنعيم؛ هروبًا من الهدْي.

وقد كره بعضُ أهل العلم هذه العمرة؛ لأنها كانت رُخصة لعائشة ﵂ ومَن في حكمها ممن لها ظرفٌ خاص كظرف عائشة من اللاتي طرأ عليهن الحيض من النساء وهن محرمات، ويَبقى معها مَحْرَمٌ لها.

ومَن ليس عنده قدرة على الهدْي، وكان حَجُّه تمتعًا أو قرانًا شَرع له الإسلام صيامَ ثلاثة أيام في الحج قبل عرفة، أو في أيام التشريق إن ضاق عنه الوقت، وسبعة أيام إذا رجع إلى أهله.

ومن كان دون سن البلوغ وأحرم بالحج، أو نوى عنه والداه، فإن حُكمَه حُكمُ الكبير في الهدْي والتقيد بالمحظورات، وله ولوالديه أجرٌ، ولا يَسقط عنه حجُّ الفرض، وكذا العمرة لا تَسقط عنه.

مُحَمَّدٌ دَعْوَةُ إِبْرَاهِيمَ

١٢٩- ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾.

ثم يدعو إبراهيم ﵇ ربَّه أن يبعثَ في هذه الأمة رسولًا منهم، وقد بينت سورة الجمعة المراد بالأميين في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ [الجمعة: ٢]

والأميُّون: هم العرب، وسمو كذلك لأنهم ليسو أهل كتاب.

والرسول: هو محمد ﷺ، ولم يُبعث من العرب من ذرية إسماعيل إلا محمد ﷺ، ومهمة هذا الرسول أنه يتلو عليهم آيات الله، ويُعلمهم القرآن والحِكمة وهي السنة والإصابة في القول والعمل، والتفقُّه في الدين، ويُطهرهم من الشرك وسوء الخلق، فالله لا يُعجزه شيء، وهو سبحانه يضع الأشياء في مواضعِها.

روى البغوي وغيره بإسناده عن العِرباض بن سَارية أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قال: **«إني عند الله في أمّ الكتاب لَخَاتم النَّبيِّين، وإن آدم لَمُنْجَدِلٌ في طينته، وسأخبركم بأول أمري، أنا دعوة أبي إبراهيم، وبُشرى أخي عيسى، ورؤيا أمي»**[١].

وفي روايةٍ عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أخبِرْنا عن نفسك؟ قال: **«دعوة أبي إبراهيم، وبُشرى عيسى، ورأت أمي حين حَملت بي أنه يَخرج منها نورٌ أضاءتْ له قصورُ الشام»**[٢].

طلب إبراهيم من ربِّه أن يَبعث من العرب رسولًا منهم، يعرفون حَسَبَه ونَسَبَه، وتكون رسالتُه عامَّةٍ إلى الناس كافَّة، وليس للعرب وحدهم فقال: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾

وقد اقتضى ترتيبُ الآية أن يَكون تبليغ الوحي بتلاوة القرآن على الأمة أولًا، ثم تَعَلُّمِ معانيه وأحكامه بالسُّنَّة، وبالقرآن والسنة تكون تزكية النفس وطهارتها في الظاهر والباطن.

واسْتجابَ الله تعالى دعوةَ إبراهيمَ ﷺ؛ وبعث محمدًا ﷺ آخرَ الزمان، فأخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الكُفر الى الإيمان، وطَهَّرَ أخلاقَهم وزكَّاها، فالله العزيز الذي لا يُغلب، الحكيم في تدبير شئون خلقِه.

---

(١) انظر تفسير البغوي للآية و«المسند» (٤/ ١٢٧) برقم (١٧١٥٠، ١٧١٦٣) قال محققوه: صحيح لغيره وأخرجه ابن أبي حاتم (١٢٥٤) والحاكم (٢/ ٤١٨) والبيهقي (٢/ ١٣٠).

(٢) صححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (١٥٤٥، ١٩٢٥) وصححه الحاكم والذهبي في «المستدرك» (٢/ ٦٠٠) وهو في «المسند» (٢٢٢٦١) صحيح لغيره وابن سعد (١/ ١٤٨) والطبراني (٧٧٢٩) والبيهقي (١/ ٨٤).

هذا: وقد أُرسل في العرب شُعيبًا، وهو من ذرية إبراهيمَ، وليس من ذرية إسماعيلَ، وأرسل فيهم هُودًا وصَالحًا، وهما من العرب العَارِبَة، وليسا من ذرية إبراهيم ولا إسماعيل.

الْمُخَالَفَةُ التَّاسِعَةُ وَالْعِشْرُونَ: عُدُولُ الْيَهُودِ عَنْ الْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ وَهُوَ (دَعْوَةُ إِبْرَاهِيمَ)

١٣٠- ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾.

ونتيجة لِمَا سبق من ذِكْر فضائل إبراهيم عليه السلام؛ فإنه لا يَعدل عن دين إبراهيم والاقتداء به إلا مَن كان سفيهَ العقل، خائرَ الرأي، ولا أرشد وأكمل ممن رغب في ملة إبراهيم، فقد اختاره الله واصطفاه، ووفقه للأعمال التي صار بها من المصطفين الأخيار، الذين لهم أعلى الدرجات، وأفضل المنازل.

قال ابن عُيينة: إن عبد الله بن سلام -وهو حَبْر من أحْبَارِ اليهود- قد أخبر ابني أخيه: (سلمة ومهاجرًا) عن مجيء نَبِيٍّ في هذه الأمة، يقال له: أحمد، وبيَّن لهما أن مَن آمن به فقد اهتَدَى، ومَن كَفَر به فهو ملعونٌ مطرودٌ من رحمة الله.

ولمَّا جاء النبي ﷺ أسلم (سلمة) وكَفَرَ (مهاجرٌ) فأنزل الله سبحانه: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ فلا يُعرِض عن دعوة محمدٍ إلا سفيهٌ جاهل، حيث إن محمدًا ﷺ جاء بما جاء به إبراهيم، جاء بالتوحيد الخالص كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [الزخرف] وقال: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران].

فإن كنتُم تفتخرون بالانتساب إلى إبراهيم فهو الذي دعا ربه أن يبعث في هذه الأمة رسولا منهم، فمَن يكفر به فقد كَفَرَ بإبراهيمَ، ثم بيَّن سبحانه مَنْزِلَةَ إبراهيمَ، ورفع درجته في الدارين فقال: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ فجعلناه نبيًّا ورسولًا وخليلًا ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ مِن الذين لهم أعلى الدرجات؛ لاستقامتهم على الطريقة المُثْلَى. قال تعالى:

١٣١- ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾.

ومِن دلائل اصطفاء إبراهيم أنه استجاب لوحي ربِّه حين أمره بالتوحيد وإخلاص العبادة له، فقد كان إبراهيمُ مسلمًا موحدًا، مائلًا عن الشرك، مسارعًا للإسلام دون تردد حين

قال له ربُّه: أخلص نفسَك ودينَك لله، فقال إبراهيم: أسلمت لرب العالمين، إسلامًا وتوحيدًا وإخلاصًا ومحبة وإنابة.

ومِن مظاهر إخلاص إبراهيم وصدقِه حين أخذ يُناظر قومَه في توحيد الله، وترْك عبادة الأصنام والكواكب والنجوم، فلما رأى القمرَ بازغًا قال: هذا ربي، ولما رأى الشمسَ بازغةً ظاهرةً قال: هذا ربي؛ استدراجًا لهم، ثم قال في النهاية بعد أن أَفَلَتِ الشمس ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام] حينئذٍ أَمَرَه ربُّه أن يُعلن بُطلان هذه الكواكب، وبُطلان عبادتها من دون الله، وكان قومه يعكفون على عبادتها، لقد عَلِم إبراهيم أن لهذا العالم خالقًا مدبرًا بإلهام من الله تعالى، فلما أوحى الله إليه بالإيمان صادف عقلًا راشدًا؛ فاستجاب من فوره لدعوة ربه.

الْإِسْلَامُ هُوَ وَصِيَّةُ إِبْرَاهِيمَ لِبَنِيهِ وَحَفِيدِهِ يَعْقُوبَ

١٣٢- ﴿وَوَصَّىٰ[(١)] بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

أي: أن إبراهيم وصّى ذريته بكلمة التوحيد، وجعلها كلمة باقية في عقبه وتوارثوها حتى وصلت إلى يعقوب وبنيه، فيجب عليكم الانقياد واتباع خاتم النبيين، فإن من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه.

وشأنُ الصالحين المُصلِحين، أهل الحق والحِكمة، أن يكونوا حَرِيصين على هداية أنفسهم، وهداية ذريَّتِهم وأمَّتِهم، ومِن سُنَّتِهم التوصيةُ لِمَن يَخلفونهم، ألّا يَحيدوا عن طريق الحق، ولا يُفرطوا فيه، وكلمةُ الإسلام هي التي وصَّى بها إبراهيمُ بَنِيه ويعقوب وحثَّهما على الثبات عليها إلى الممات، فقال لهم: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: فلا تُفارقوه مَدَى حياتِكم، ولا يأتيكم الموت إلا وأنتم عليه.

أبناء إبراهيم: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا﴾ أي: بكلمة الإسلام وهي كلمة التوحيد ﴿إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ﴾ وكان له ثمانية أولاد: إسماعيل، وإسحاق، ومدين، ومداين، ونهشان، وزمران، ونشيق، وشيوخ، والستة الأواخر من (قنطورا) الكنعانية التي تزوجها بعد موت سَارَّة،

---

(١) قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر (وأوصى) مُعدًّى بالهمزة، وهي موافقة لرسم المصحف المدني والشامي، وقرأ الباقون (ووصى) بدون همزة معدًّى بالتضعيف.

وإسحاق وحده منها، وإسماعيل من هاجر.

ومدين هو جَدُّ قبيلة مدين، وفي ضاحيتها -أصحاب الأيكة-، نبيُّهم شعيبُ ﷺ.

نبي الله يعقوب: ووصى بها أيضًا حفيدَه يعقوب وقال لهم: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ وقد وُلِدَ يعقوب بن إسحاق في حياة جَدِّه إبراهيم وجَدَّتِه سَارَّة.

ولُقب بإسرائيل، وهو جَد جميع بني إسرائيل، ومات يعقوب بمصرَ سنة ١٩٨٩ قبل الميلاد، ونُقل منها إلى أرض كنعان حيث دفن بالخليل، ويعقوب هو جامع نسب بني إسرائيل قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] وقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢] وهذا يَقتضي أن يعقوب وُجِدَ في حياة جَدِّه، ومَن يموت على الإسلام هو الموفَّق المتبع لطريق الهُدَى والرشاد، وقد أمر الله بذلك في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران]

فاثبتوا على الإسلام، واستقيموا عليه، فهو الدين الذي لا يَقبل اللهُ من أحدٍ دينًا سواه.

الْإِسْلَامُ هُوَ وَصِيَّةُ يَعْقُوبَ لِلْأَسْبَاطِ

١٣٣- ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ[1] إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾

ثم فصَّل سبحانه وصيةَ يعقوبَ التي أمر بها أبناءه؛ وهي أن يكونوا على ملة آبائهم: إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، وهذا مُجمل وصيةِ إبراهيم لبنيه، وهي الحنيفية؛ أي: التوحيد الذي هو أساس الإسلام، وفي هذا إبطالٌ لليهودية والنصرانية، والمخاطَبُ بالآية هم اليهود الذين يَزعمون أن يعقوب مات على اليهودية، وأَوْصَى بها ذريَّته.

وقد ورد أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: ألستَ تعلم أن يعقوب أَوْصى بنيه باليهودية؛ فنزلت هذه الآية[2].

والآية تُنكر على اليهود ادعاءهم الباطل؛ لأنهم ادعوْا ما لا قِبَلَ لهم به؛ إذ لم يكونوا

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بتسهيل الهمزة الثانية بينها وبين الياء وحققها الباقون.

(٢) «أسباب النزول» للواحدي ص٢٢ و«تفسير الطبري» (١/ ٤٣٦).

حاضرين ومشاهدين ليعقوب حين حضرتْه الوفاةُ وأوصى بنيه بما زعموا.

أبناء يعقوب: وبنو يعقوب هم أسباط إسحاق، ومنهم تَشَعَّبَتْ قبائل بني إسرائيل الاثنتا عشرة؛ وهم: روبيل وشمعُون ولاوِي ويهوذا ويساكر وزبولون (وهؤلاء أمهم: ليْئة) ويوسف وبنيامين (وأمهما: راحيل) ودان ونفتالي (وأمهما: بلهة) وجاد وأشير (وأمهما: زلفة)، وقد أخبر القرآن بأنهم كلهم صاروا أنبياء، وأن يوسف كان رسولًا[١].

وقد كان اليهود يقولون: إن يعقوب قد أوصانا باليهودية حين موته، وما مات نبيٌّ إلا على اليهودية، والله ﷻ يُكذبهم ويقول لهم: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ﴾ أي: هل كنتم حضورًا حين حضرت مقدمات الوفاة وأسبابها، نبي الله يعقوب عليه السلام، وحين أحضر أبناءه وجَمَعَهم حوله قبل موته، وقال لهم ما تعبدون من بعد موتي؟ أي: لم يَحصل لكم العلمُ بذلك إلا عن طريق الوحي.

والقرآن الكريم يُقرِّر وصيةَ يعقوب لأبنائه، وإقرارهم له بالإسلام والتوحيد الخالص، فهذه هي التَّرِكة والميراث التي تركها لذريته مِن بعده، يقررها الإسلام ويبيِّن أنها ليست اليهودية، فقد انتَهَى وقتُها، وانتهى العمل بها بعد مجيء عيسى عليه السلام، ومِن بعده محمد ﷺ ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾؟! توبيخ لليهود ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ﴾ وهم حوله حين كان يُعاني من سكرات الموت، قال لهم مختبرًا، كي تقرّ عينه في حياته بامتثالهم ما وصّاهم به ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾ فأجابوه بما قرت به عينه ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ فلا نشرك به شيئًا ولا نعدل به أحدا ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ فجمعوا بين التوحيد والعمل، ومن المعلوم أن المخاطبين بالآية لم يحضروا موت يعقوب، وقد وصّاهم يعقوب بالحنيفية لا باليهودية.

وقد ذكرتْ الآية ثلاثة هم: إبراهيم وهو جَدُّ يعقوب، والجَد يُسمى أبًا، وإسحاق وهو والد يعقوب مباشرة[٢]، وإسماعيل: وهو عَم يعقوب، والعرب تُسمِّي العم أبًا، والإسلام دينُ الجميع، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣].

---

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (١/ ٧٣٢).

(٢) وهو أصغر من إسماعيل بثلاثة عشر عامًا، وُلِد سنة ١٨٩٦ ق. م، وتوفي سنة ١٧٠٨ ق. م ودُفِن في الخليل.

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**الأنبياء إخوة من عَلَّات، وأمهاتهم شتَّى، ودينُهم واحد**»[1] وأولاد العَلات هم: الإخوة من الأب وأمهاتهم شَتَّى.

قال ابن عباس: كل الأنبياء من بني إسرائيل إلا عشرة؛ هم: نوح وهود وصالح وشعيب ولوط وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

والمراد بالوصية: أخذ الميثاق عليهم بالثَّبات على التوحيد ملة إبراهيم، وألا يَتطرق الشرك إليهم، ولا القول بالتثليث أو المشابَهة للمخلوقين، فهل وفَّى اليهود والنَّصارَى بهذا الميثاق؟ كما قال إبراهيم ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ووصَّى أبناءه قائلًا:

﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

وكما قال يعقوب: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ قال نوح: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٢].

وقال الحواريون: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢]

وقال يوسف: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]

وقال فريق من أهل الكتاب عن القرآن: ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٣]

والدين الحقُّ لا شِرْكَ فيه بالله تعالى بوجهٍ من الوجوه هو الإسلام ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران].

وجميع الرسل مُتفقون في أصول الدين وكُلِّياته، وعلى رأسها توحيد الله تعالى، واختصاصه بالعبادة، وتصديق الرسل السابقين فيما جاؤوا به من عند الله، والإيمان باليوم الآخر وما فيه من نعيم وعذاب، والحث على مكارم الأخلاق، وما عدا ذلك من تفاصيل العبادات والمعاملات فيها تَدرج في التشريع بما يُناسب كلَّ أمة ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] وامتاز الإسلام باليُسر ورفع الإصر والأغلال.

(١) «صحيح مسلم» (٢٣٦٥) و«صحيح البخاري» (٣٤٤٣).

لَا يُؤَاخَذُ أَحَدٌ بِذَنْبِ أَحَدٍ

١٣٤- ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

ثُم أثْنَى اللهُ على إبراهيمَ وبَنِيه ونوَّه بشأنهم، وعَرَّض بمَن لم يقتفِ آثارَهم مِن ذريَّتِهم ومِن غيرهم، فقال: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ مَضَتْ وسلفت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من الأقوال والأعمال ﴿وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾ من القول والعمل أيضًا، فلا تقولوا عنهم ما ليس فيهم، ولا تُسألون عن أعمالهم، ولا يُسألون عن أعمالكم، فلا يؤاخَذ أحدٌ بذنب أحدٍ، ولا يَنفع أحدًا إلا إيمانُه وتقوَاه، فهذه الأمة من بني إسرائيل مسؤولةٌ عن عملها، وأنتم مسؤلون عن عملكم، وكل مَجْزِيٌّ بما قَدَّمَ، جاء في الحديث: «**من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه**»(١). فانظروا في حالكم، هل تصلحون للنجاة أم لا؟

الْمُخَالَفَةُ الثَّلَاثُونَ: دَعْوَى أَهْلِ الْكِتَابِ أَنَّ الْهِدَايَةَ فِي اتِّبَاعِ دِينِ كُلٍّ مِنْهُمَا

١٣٥- ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾

أي: أن كُلًّا من اليهود والنصارى دعا الآخر إلى الدخول في دينه، زاعمًا أنه على هُدًى، وغيره على ضلال، فقال تعالى مجيبًا لهم: بل اتبعوا ملة إبراهيم، مقبلين على الله، معرضين عما سواه، قائمين بالتوحيد، تاركين للشرك، فهذا هو طريق الهداية، وفي الإعراض عنه كفر وغواية.

وهكذا ذمَّ الله تعالى مَن يَعْدِل عن دين الإسلام إلى غيره، واستشهد بدَعْوَى اليهود والنَّصارَى أن دينَهم أفضلُ الأديان، ونبيَّهم أفضلُ الأنبياء، وكتابَهم أفضلُ الكتب، فقد خاصم رؤساء اليهود ونصارى نجران، المسلمين، فزعم كلٌّ منهم أنه أحقُّ بدين الله، قالت اليهود: نبيُّنا موسى أفضل الأنبياء، وكتابنا التوراة أفضل الكتب، وديننا أفضل الأديان، وكفروا بعيسى والإنجيل، ومحمد والقرآن، وقالت النَّصارَى مثل ذلك، وقال كل منهما للمؤمنين: كونوا على ديننا فلا دينَ غيره، فأنزل الله سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟﴾(٢).

---

(١) من حديث أبي هريرة في صحيح مسلم.

(٢) يُنْظَر: «تفسير الطبري» (١/ ٤٤٠).

والكلام مُتصل بالحديث عن بني إسرائيل، وقد جاء الكلام عن إبراهيم عليه السلام في ثَنَايا الكلام عن بني إسرائيل؛ لإقامة الحُجَّة عليهم في رفضهم الإيمان بمحمد ﷺ، وجاء ذكر النَّصَارَى لاشتراكهم في المقولة، فقالت اليهود لأمة محمدٍ ﷺ: ادخلوا فى دين اليهود تَجِدُوا الهِداية، وقالت النَّصَارَى مثل ذلك، فرد الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا﴾ أي: نَتبع جميعًا ملةَ إبراهيم، فإنه لم يكُ مشركًا، بل كان حنيفًا مسلمًا، وهو الذي سَمَّاكم المسلمين.

ولذا: قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وفي هذا إشارةٌ إلى أن كِلَا الفريقين من اليهود والنَّصَارَى مشرِكٌ بالله تعالى، وفيه ثناءٌ على ملة إبراهيم عليه السلام، وأنها هي الحنيفية السَّمْحَة المائلة عن الشرك، وفيه تَعرِيضٌ لليهود والنَّصَارَى بالذمِّ، وأنهم قد حرَّفوا وغيَّروا وبدَّلوا وأشركوا مع الله غيره.

هذا: والحنيف هو الذي يَميل في مِشْيَتِه عن الطريق المُعتاد، وقد ظهر إبراهيم في قومٍ كانوا في ضلالة عمياء، فجاء دينُه مَائِلا عنهم، فلُقب بالحنيف، ولُقبت ملته بالحنيفية؛ فصار هذا مَدحًا له، ودلَّ على أن الدين الإسلامي من إسلام إبراهيم، ونَفَى عن اليهود والنَّصَارَى انتماءهم إليه.

وُجُوبُ الْإِيمَانِ بِرُسُلِ اللَّهِ جَمِيعًا

١٣٦-﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ[١] وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ[٢] مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾.

ثُم بيَّنت هذه الآية أنه يَجب الإيمانُ برسل الله جميعًا، والاعتقاد الجازم برسالاتهم وكتبهم، وهذا الإيمان يدخل فيه الإسلام، ويدخل فيه العمل الصالح، فهما من آثار الإيمان، وإذا أُطلق الإيمان دخلا فيه، فإذا قُرن بينهما، فإن الإيمان يعني إقرار القلب وتصديقه، والإسلام يكون اسمًا للأعمال الظاهرة، والعمل الصالح يكون ثمرة لهما، وإذا جُمع بين الإيمان والعمل الصالح كان الأول اعتقاد القلب، والثاني عمل الجوارح.

---

(١) قرأ ابن عامر بخلف عن ابن ذكوان في هذه السورة (إبراهام) والباقون (إبراهيم).

(٢) قرأ نافع (النبيئون) بهمزة بعد الياء، مد متصل، والباقون (النبيون) بياء مشددة.

قال تعالى ﴿قُولُوٓا۟﴾ أيها المؤمنون لليهود والنَّصارَى وغيرهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ قولوها بألسنتكم واعتقدوها بقلوبكم ، لأن نطق اللسان دون اعتقاد القلب نفاق وكفر، فالقول الخالي من عمل القلب عديم التأثير قليل الفائدة، والثواب والجزاء يكونان على القول والاعتقاد والعمل ، وفي لفظ ﴿قُولُوٓا۟﴾ إعلان بالصدع بالعقيدة والدعوة إليها، إذ هي أصل الدين وأساسه، وفي لفظ (آمنا) إشارة إلى جميع الأمة، وإلى وحدتها وائتلافها، فداعيهم واحد وعملهم واحد، وفيها نهي عن التفرق والاختلاف، والله تعالى متصف بكل كمال، منزه عن كل نقص، مستحق للعبادة وحده دون سواه، ولا يختلف في ذلك الشرائع كلها.

﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ وهو القرآن والسنة، كما قال تعالى:﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [١١٣]، وهذا يشمل كل ما تضمنه الكتاب والسنة من صفات الله تعالى وصفات رسله، واليوم الآخر وما فيه من بعث وحشر ونشر وحساب وجزاء، ويشمل الأمور الغيبية والأحكام الشرعية.

﴿وَمَآ أُنزِلَ﴾ من الصحف ﴿إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ وقد سَبَقَ ذِكْرُهم في الآية قبل السابقة وهم الأنبياء من وَلَدِ يعقوبَ، فى قبائل وشعوب وعشائر بني إسرائيل الاثنتي عشرة؛ وهم أحفاد إسحاق وإبراهيم ، فالسبط هو الحفيد.

أسماء الأسباط: فالأسباط: اثنا عشر رجلًا، هم أبناء يعقوب ﷺ، وكلُّ واحد منهم وَلَد أُمَّةً من الناس قال السدي: الأسباط بنو يعقوب؛ يوسف، وبنيامن، ورُوبيل، ويهوذا، وشمعون، ولَاوى، ودانُ وقهاثُ، وكوذُ، وباليونُ، وجاد، وأشير[(١)].

﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ من التوراة والإنجيل ﴿وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ عن طريق الوحي من الكتب والشرائع، وليس من الملك والمال، وفيه أن الأنبياء مبلّغون عن الله ، ووسائط بين الله وبين خلقه في تبيلغ الرسالة، وليس لهم من الأمر شيء، والتبليغ عن الله يُخرج كل من ادعى النبوة وكذَب على الله، فلابد أن يتناقض هذا المدعي في أخباره وأوامره ونواهيه ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ في الإيمان بهم جميعًا كل واحد منهم في زمانه

---

(١) «أخرجه الطبري» (٢/٥٩٨) وابن أبي حاتم (١٣٠١). ويوجد بعض الخلاف في أسماء ثلاثة منهم بالموازنة بين ما جاء في تفسير الآية ١٣٣ السابقة.

ومكانه، نؤمن بهم كلهم، وهذه خاصية انفرد بها المسلمون، لأن غيرهم يؤمن ببعض الرسل وببعض الكتب دون بعض، ومن هؤلاء اليهود والنصارى والصابئين، فهم يفرقون بين الله ورسله، ومن كذّب محمدا فقد كذب رسوله، لأنه أخبر به.

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ خاضعون ذليلون، والإيمان بكل رسول على أنه جاء يُمثل لَبِنة في البناء الذي اكتمل بمجيء النبي الخَاتَم، وهذا يشمل الكتب المنزلة على جميع الأنبياء لا سيما من ذُكروا في الآية، فهم أصحاب الشرائع الكبرى.

جاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«مَثَلي ومثلُ الأنبياء قبلي كمثل رجل بَنَى بيتًا، فأحسنه وجمَّلَه، إلا موضع لَبِنة، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وُضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين»**[(١)].

والإسلام بمعناه العام والخاص هو الذي تقرِّره الآية في نهايتها ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ فهو يقرر وحدة العقيدة عند جميع الرسل، وعدم التفريق بين رسل الله في أصْل الدعوة والعقيدة.

وقد اشتملتْ هذه الآية على الإيمان بجميع الرسل وجميع الكتب؛ فآمنوا بهم جميعًا، ولا تكونوا كالذين يُفرقون بين الله ورسله، ويقولون: نؤمن ببعض ونكفر ببعض، وقد أمر الله المؤمنين أن يؤمنوا بهذه الكتب ويصدِّقوها، ولا يعملوا بما فيها؛ لأن العمل بها قد انتهى أَمَدُه، وليس في وُسْعِ أحدٍ أن يعمل بغير القرآن.

وعن أبي هريرة ﷺ أن أهل الكتاب كانوا يقرؤون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ في حديث أبي هريرة ﷺ: **«لا تصدقوا أهل الكتاب، ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالله وما أنزل إلينا»**[(٢)].

وفي الآية ردٌّ على اليهود والنَّصارَى حين آمنوا بأنبيائهم وكفروا بمَن جاء بعدهم، وفرَّقوا بينهم في الإيمان.

---

(١) من حديث أبي هريرة في البخاري (٣٥٣٥) ومسلم (٢٢٨٦) (٢٠- ٢٢) و«المسند» (٧٣٢٢) وابن حبان (٦٤٠٥، ٦٤٠٦).

(٢) من حديث أبي هريرة في «صحيح البخاري» برقم (٤٤٨٥، ٧٣٦٢، ٧٥٤٢) و«سنن النسائي الكبرى» (١١٣٢٣).

وقد اشتملت هذه الآية على توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، واشتملت على الإيمان بجميع الرسل وجميع الكتب، وعلى الإخلاص والتصديق بالقلب واللسان والجوارح، واشتملت على ذكر رسل الله الصادقين، كي نفرق بينهم وبين من ادعى النبوة، وعلّمتنا كيف نطلب فضل الله تعالى ورحمته وإحسانه.

الْهِدَايَةُ فِي اتِّبَاعِ الإِسْلَامِ

١٣٧- ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾.

ثُم بيَّنت هذه الآية أن أهل الكتاب من اليهود والنَّصَارَى إن آمنوا بجميع الرسل وجميع الكتب واليوم الآخر إيمانًا مثل إيمانكم يا معشر المؤمنين؛ من التوحيد والعمل الصالح، والإيمان بخاتَم الرسل وأفضلهم محمدٍ ﷺ ﴿فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ إلى طريق الحق الموصل إلى جنات النعيم، فلا هداية لهم إلا بهذا الإيمان وليس بقولهم: كونوا هودًا أو نصارى، والهدى هو العلم بالحق والعمل به، وضده الضلال عن العلم وعن العمل به، فقد كانوا قبل تعاليم الإسلام على غير هُدى، خلافًا لزعمهم، وإن أعرضوا عنه فَهُم في شِقاق وعداوة وبغضاء وخلافٍ مستمرٍّ إلى يوم القيامة، وليسوا من طالبي الحقيقة، وهذه المخالفة وهذا العناد هو سبب عدم إيمانهم، فلا تَأسَ عليهم، ولا تَحزن على عدم إيمانهم، فقد وعدك الله بأن يكفيَك أمرَهم، ويَدفع عنك بُغضهم، فسيكفيك الله شرَّهم يا محمدُ، وينصرك عليهم، وهو السميع لأقوالهم، العليم بأحوالكم:

١- عن نافع بن أبي نعيم أول القراء السبعة أن مصحف عثمان ﷺ الذي كان في حِجْرِه حين قُتِل، قد وقع الدمُ فيه على هذه الآية ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ قال نافع: بَصُرتْ عيني بالدم على هذه الآية وقد قدم[1].

٢- وعن أبي سعيد مَوْلَى بني أسد قال: لما دخل المصْريُّون على عثمانَ والمصحف بين يديه، ضربوه بالسيف على يديه فجرى الدم على ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ٤٠٢) برقم (١٣١٢).

فمدَّ يدَه، وقال: والله إنها لأول يدٍ خطتِ المفصل[١].

٣- وعن عَمْرة بنت أرْطاةَ العَدَوية قالت: خرجتُ مع عائشة سنة قتل عثمان إلى مكة، فمررْنا بالمدينة، ورأينا المصحف الذي قُتل عثمان وهو في حِجره، وكانت أول قطرة قطرتْ من دمه على هذه الآية ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ قالت عَمْرة: فما مات منهم رجل سويًّا[٢].

وقد أوفى الله بوعده، فعَصَم دمَ نبيه، وَوَعْدُ الله للمؤمنين بالنصر عليهم قائمٌ.

دُخُولُ بَعْضِ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي الْإِسْلَامِ وَصِبْغَتُهُمْ بِهِ

١٣٨- ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ۝١٣٨﴾.

أي: الزموا - معشر اليهود والنصارى - شَرْع الله، وقوموا له قيامًا في جميع عقائده وأعماله الظاهرة والباطنة، حتى يكون الدين طبيعة لكم، وصفة لازمة من صفاتكم، تُصْبغُون بها كما يُصبغ الثوب، فتحصل لكم السعادة في الداريْن، ولا يوجد أحسن من صبغة الله، فليس الصدق كالكذب، وليس الكفر كالإيمان، وليس التواضع كالكبر، وليس حسن الخلق كسوء الخلق، فكل من الضِّديْن صبغة وصفة، ولكنهما لا يستويان، هذا هو المعنى العام للآية.

ومن جهة أخرى فقد تَحقَّقَ صِدْقُ ما أخبر به القرآن، فدخل الكثير من اليهود والنَّصارَى وسائر المِلَلِ والنِّحَلِ في الإسلام، فصُبغوا بصبغة الإسلام، وتمَّ إجلاء اليهود عن المدينة وما حولها، وتمَّ ضرب الجزية على مَن لم يُسلم، ونصَر الله المسلمين عليهم، فأُلزِمُوا صبغة الله المُمَثَّلَة في دينه القَويم، وأخلصوا له الانقياد والطاعة والمتابعة ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ أي: الملة التي جعلها الله شعارنًا كالصبغة عند اليهود والنَّصَارَى، وفي الكنائس ماءٌ يزعمون أنه مخلوط ببقايا ماء أُهرق على عيسى حين عمَّده يَحيى بن زكريا.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾ والصبغة في الإسلام: هي الفِطرة والتوحيد، فليس هناك

---

(١) أخرجه ابن داود، وابن عساكر في ترجمة عثمان بن عفان ص(٤١٩).

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد كما في «الدر المنثور» (١/ ٧٢٨).

أحسن من فطرة الله التي فطر الناس عليها، والكلُّ له سبحانه خاضعون مُتبعون ملة إبراهيم.

وسُميت صبغة: لأن أثر اللين والاستقامة وحسن التعامل والخُلُق يظهر على المتديِّن، كما يظهر أثر الصبغ على الثوب، والمراد التشبيه بما يفعله النَّصَارَى بأبنائهم حين يقومون بغمسهم وتعميدهم في الكنيسة بعد ولادتهم بسبعة أيام في ماء أصفر يُسمونه ماء المعمودية؛ ليطهروا به مكان الختان، ومَن دخل في النصرانية كبيرًا يُعمد أيضًا، ثم يقولون: الآن صار نصرانيًّا حقًّا.

وكذا الاغتسال الذي يغتسله الكاهن في عيد الكفارة عن خطايا بني إسرائيل في كل عام على حد زعمهم، وكان يحيى يعظ الناس؛ فإذا تابوا أمرهم بالاغتسال في نهر الأردن رمزًا للتطهير، وقد رفض اليهود التعميد؛ لكفرهم بعيسى ﵇.

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نبيَّ الله ﷺ قال: **«إن بني إسرائيل سألوا موسى، هل يصبغ ربك؟ فقال: اتقوا الله، فناداه ربه يا موسى، سألوك هل يصبغ ربك؟ فقل: نعم، أنا أصبغ الألوان: الأحمر والأبيض والأسود، والألوان كلها من صبغي»** وأنزل الله على نبيِّه ﷺ ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾[١].

وكانت المعمودية مشروعةً عند النَّصَارَى؛ لغلبة تأثير المحسوبات على عقائدهم، وقد ردَّ الله عليهم بأن صبغة الإسلام في الاعتقاد والعمل وليس في هذه الطقوس.

قال ابن عباس: إن النَّصَارَى كانوا إذا وُلِد لأحدهم وَلَدٌ، فأَتَى عليه سبعة أيام، صبغوه في ماء لهم، يقال له: المعمودي؛ ليطهروه بذلك، ويقولون: هذا طهور مكان الختان، فإذا فعلوا ذلك صار نصرانيًّا حقًّا، فأنزل الله هذه الآية[٢].

وقال قتادة: إن اليهود تصبغ أبناءها يهودًا، وإن النَّصَارَى تصبغ أبناءها نصارى، وإن صبغة الله الإسلام، ولا صبغةَ أحسن من صبغة الله الإسلام ولا أطهر، وهو دين الله الذي بعث به نوحًا، ومَن كان بعده من الأنبياء[٣].

---

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (١/ ٤٠٣) وأبو الشيخ في «العظمة» برقم (١٣٨) عن سعيد بن جبير والضياء المقدسي (١٠٧) من طريق ابن مردويه.

(٢) «أسباب النزول» للنيسابوري.

(٣) الطبري (٢/ ٦٠٣).

فأخبر الله تعالى أن صِبغة المسلمين هي عبادة الله وحده، فلا يشركون معه غيرَه، ولا يَتخذون الأحبار والرهبان يزيدون لهم في الدين وينقصون، ويُحلون ويُحرمون، ويَمحون من النفوس صِبغة التوحيد؛ لِيُحِلُّوا محلها الشرك والكفر.

رَبُّ الْجَمِيعِ وَاحِدٌ

١٣٩ - ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾.

يزعم أهل الكتاب أنهم أولى بالله من المسلمين، وهذه دعوى تفتقر إلى دليل، فإذا كان رب الجميع واحد، فإن أحد الفريقين لا يكون أولى بالله من الآخر، لأن التفريق بين الشريكين المتماثلين، مكابرة ظاهرة ودعوى باطلة، ولا يكون أولى بالله إلا من أخلص الأعمال الصالحة لله وحده، وهذا هو الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ولا ينازع في ذلك إلا مكابر،

وربُّ الجميع واحدٌ، وهو المحاسِب لكل منهم، فلا مَجال لزعمكم أيها اليهود أنكم أَوْلَى بالله مِن غيركم ﴿قُلْ﴾ يا محمدُ لأهل الكتاب: ﴿أَتُحَآجُّونَنَا فِى﴾ دين ﴿ٱللَّهِ﴾ وتناظروننا فيه، ونحن جميعًا خلقُ الله ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ المتصرِّفُ فِينَا وفيكم، لا يَختص بأحد دون أحد.

ومَرْجِعُ رِضَى الله تعالى هو أعمال العباد ﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ لم يُخطِّئْهم ربهم، ولم يُعنِّفْهم، بل قصر ذلك في التعريض بهم، وقيام الْحُجة عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس] وختام الآية: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ في العبادة والتوجه فلا نُشرك به، ولا نَعبد سواه، فلماذا لا نكون أقرب إلى الله منكم؟!

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران: ٢٠] وأنتم به مشركون، ولا يَكون الجدال إلا في الأمور الخِلافية، ولا خلافَ في دين الإسلام، ولا في إسلام إبراهيم وإخلاصِه.

والمراد بالمحاجة في الآية: هي المجادلة فيما تضمنته بعثة محمدٍ ﷺ من نَسخ شريعتهم، وفضله وفضل أمته؛ وهذا راجعٌ إلى حَسَدهم، ولا يُوجد مجادلة في ذات الله سبحانه.

وتكون المجادلة بين الخصمين في المسائل الخلافية، وكل منهما يريد نصر حجته وإبطال حجة الطرف الآخر، والمطلوب أن تكون هذه المحاجة بالتي هي أحسن حتى يتضح الحق ويتبيّن الباطل، وتصفو النفوس، والخلاف في الرأى لا يفسد للودّ قضية.

المُسْلِمُونَ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ

١٤٠- ﴿أَمْ تَقُولُونَ[١] إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنتُمْ[٢] أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

وهذه دعوى أخرى ومحاجة في رسل الله، حيث يزعم اليهود أنهم أولى بهؤلاء الرسل المذكورين في الآية من المسلمين، فرد الله عليهم بسؤالهم: هل أنتم أصدق أم الله؟ وهذا لا يحتاج إلى جواب، فهو في غاية الوضوح والبيان، ولا أحد أظلم ممن جمع بين كتمان الحق وعدم النطق به، وأظهر الباطل ودعا إليه.

أي: وجدالُكم أيضًا -أيها اليهود- في نسبةِ إبراهيم وذريّتِه من رسل الله إلى اليهودية أو النصرانية ليس له مجالٌ؛ فَلَستم أَوْلَى بهؤلاء الرسل الكرام من المسلمين، وأَوْلى الناس بهم هم الذين سلكوا طريقَهم، ولم يُحرِّفوا دينَهم، فإبراهيم لم يكنْ مشرِكًا، وكذا ذريته إسماعيل وإسحاق وأحفاده، ويعقوب والأسباط، قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥)﴾ [آل عمران].

والأمة إذا انغمست في الجهالة والضلالة اجتمعتْ في عقائدها المتناقضات.

وقد وَجَدَ النبي ﷺ يومَ الفتح صورةَ إبراهيم في الكعبة وهو يستقسم بالأزلام فتلا قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨)﴾ [آل عمران]

فأولى الناس بإبراهيم هو (هذا النبي) محمدٌ ﷺ، ومَن آمن به وبدعوته، والله أعلم بما يقرره من حقائق، وكتمانكم لهذا وإظهارُ ضدِّه ظلمٌ عظيمٌ، وأمرُكم لا يَخفى على رب

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وشُعبة وروح بياء الغيبة، لمناسبة (فإن آمنوا) أو على الالتفات، وقرأ الباقون (أم تقولون) بتاء الخطاب لمناسبة (قل أتحاجوننا) وبعده (قل أأنتم).

(٢) مثل: (أأنذرتهم) في أول السورة آية ٦ .

العالمين، ولا ينبغي للإنسان أن يَتعلق بغيره من المخلوقين، فالانتفاع بالتقوى والاتباع، لا بالأحساب والأنساب.

أتُجادلون أيها اليهود والنَّصَارَى وتقولون: إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا على دين اليهود أو النَّصارَى؟ وهذا كذبٌ، فقد بُعثوا وماتوا قبل التوراة والإنجيل ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾ قل لهم يا محمدُ: ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ﴾ بدينهم ﴿أَمِ ٱللَّهُ﴾؟ وقد أخبر الله تعالى أنهم كانوا حُنفاء مسلمِين، ولا أحد أظلم ممن كتم حقًّا ثابتًا عنده، وافترى على الله غيرَه ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ وهو سبحانه يُحصي أعمالكم، ويجازيكم عليها، ولا يغيب عنه شيءٌ ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾. قال تعالى:

١٤١- ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾.

هذه أمةٌ مِن أسْلَافِكم قد مَضَتْ، فلا تَتعلقوا بالمخلوقين، ولا تَغْتَرُّوا بالانتساب إليهم، فالعِبرة بالإيمان والتقوى، ومن كَفَر برسول كَفَر بسائر الرسل، وكُرِّرتِ الآيةُ لأن الاختلاف موطنُ المحاجة، وإذا كان الأمر كذلك فاسلكوا طريق الإيمان بالله وحده والإيمان بخاتَم الرسل ﷺ، واتركوا الاتكال على آبائكم وأجدادكم، فالإنسان ينتفع بعمله وليس بالانتساب إلى أصله وحسبه ونسبه.

مُخَالَفَةُ الْيَهُودِ الْحَادِيَةُ وَ الثَّلَاثُونَ: التَّشْكِيكُ فِي الإِسْلَامِ بِسَبَبِ تَحْوِيلِ القِبْلَةِ

١٤٢- ﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ[1] ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ[2] إِلَىٰ صِرَٰطٍ[3] مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾

ثم أخبر الله سبحانه أن فريقًا من الناس ممن بلَغُوا الحد الأقصى في السفاهة من

---

(١) قرأ أبو عمرو ويعقوب بكسر الهاء والميم من (قبلتهم التي) حالة الوصل، وقرأ حمزة والكسائي وخلف بضمهما وصلًا، أما في حالة الوقف على (قبلتهم) فالجميع يكسر الهاء ويسكن الميم.

(٢) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس بتسهيل الهمزة الثانية من (يشاء إلى) بَيْن بَيْن وبإبدالها واوًا خالصة، وحققها الباقون.

(٣) قرأ قنبل ورويس بالسين في (صراط) وأشَمَّ الصادَ صوتَ الزاي خلفُ عن حمزة، وقرأ الباقون بالصاد الخالصة.

المشركين والمنافقين واليهود، سوف يطْعنون ويُشككون في دعوة محمد ﷺ قائلين: كيف ترك محمد قبلة إبراهيم بمكة، واستقبل بيت المقدس، مع ادعائه أنه على ملة إبراهيم، ويأبى اتباع اليهودية والنصرانية.

أخرج الطبري وابن أبي حاتم والبيهقي بإسناد حسن عن ابن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما صُرفت القبلة عن الشام إلى الكعبة في شهر رجب، على رأس سبعة عشر شهرًا من مَقْدم النَّبيِّ ﷺ المدينة، أتى رسول الله ﷺ: رفاعة بن قيس، وقرْدم بن عمرو، وكعب بن الأشرف، ورافع بن أبي رافع، والحجاج بن عمرو، والربيع بن الربيع بن أبي الحقيق، وكنانة بن أبي الحقيق، فقالوا: يا محمد، ما ولَّاك عن قبلتك التي كنت عليها، وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه، فأنزل الله ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ إلى ﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ﴾[1].

قال ابن حجر: وكان التحويل في نصف شهر رجب من السنة الثانية على الصحيح، وبه جزم الجمهور[2].

ولما فُرضت الصلاة ليلة المعراج كان النبي ﷺ وهو في مكة يستقبل الكعبة قبلة إبراهيم، وكان إبراهيم ﷺ لما بنى الكعبة استقبلها في صلاته ودعائه، وهي أول قبلة وُضعت للصلاة، أما اليهود فلا يوجد في أسفار التوراة الخمسة ما يحدد لهم قبلة معينة. واستقبالهم لبيت المقدس سَنَّهُ لهم سليمان ﷺ، كما جاء في سِفْر الملوك الأول، أنه سأل الله فأجاب الله دعاءه.

ولا يوجد في الأناجيل تغيير في أمر القبلة بالنسبة للنصارى، ولكنهم لما وجدوا الروم يجعلون أبواب هياكلهم مستقبلة لدخول أشعة الشمس فيها عند شروقها، عكسوا ذلك وجعلوا أبواب كنائسهم إلى الغرب، ويستقبلون الشرق في صلاتهم كما أن اليهود يستقبلون الغرب.

---

(١) اللفظ للطبري برقم (٢١٤٩) وهو في «الدر المنثور» للبيهقي (٢/ ٥٧٥) وفي تفسير الآية عن ابن أبي حاتم (١٣٢٧، ١٣٤٢، ١٣٤٥، ١٣٤٨) وفي «سيرة ابن هشام» (١/ ٥٥٠).

(٢) يُنظَر: «فتح الباري» (١/ ٩٧) وصححه الحاكم.

قيل: إن بولس هو الذي أمر النصارى باستقبال الغرب، ثم إنهم في العصور الوسطى توسعوا في ذلك، فجُعلت أبواب كنائسهم مختلفة الاتجاه، وتركوا استقبال جهة معينة في صلاتهم.

والأحاديث الصحيحة الواردة في تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة عند المسلمين، ثلاثة أحاديث هي:

حديث ابن عمر رضي الله عنهما: في الصحيحين وغيرهما، وفيه استدارة الناس وهم في صلاة الصبح بمسجد قباء إلى الكعبة[١].

والحديث الثاني: هو حديث أنس بن مالك في صحيح مسلم وغيره، وفيه أنهم تحولوا إلى الكعبة وهم ركوع في صلاة الفجر في مسجد بني سلمة حين مر بهم رجل وأخبرهم أن القبلة قد حُوِّلت[٢].

والحديث الثالث: ما جاء في الصحيحين وغيرهما عن البراء، وفي لفظ البخاري: أنهم توجهوا إلى الكعبة في صلاة العصر[٣]. وهي أول صلاة كاملة صليت بعد الأمر بتحويل القبلة.

ولم يكن التوجه إلى بيت المقدس أول قدوم النبي ﷺ إلى المدينة، من باب تأليف قلوب اليهود كما قيل، فهذا لم يرد بسند صحيح، وإنما توجَّه النبي ﷺ إلى كل من بيت المقدس والكعبة بأمر من الله تعالى.

وقد أخبر الله ﷻ رسوله محمدًا ﷺ بأن الفتنة بسبب تحويل القبلة ستكون كبيرة، وأنها ستثير رياح الشُّبَهِ والشكوك، ويُبتلَى بها ضُعفاء الإيمان، ويتخذوا منها سُلَّمًا للطعن في الإسلام والتشكيك فيه، وقد أعلم الله نبيه في سياق تعداد نعمه عليه، بما سيحدث من

(١) «صحيح البخاري» (٤٠٣، ٤٤٨٨) و«صحيح مسلم» (٥٢٧) وأبو داود (١٠٤٥) وأبو يعلى (٣٨٢٦).

(٢) «صحيح مسلم» (٥٢٦، ٥٢٧) وأبو داود (١٠٤٥) وأبو يعلى (٣٨٢٦) والبيهقي (٢/ ١١) وجاء عن أنس حديث عند البزار (٤٢٠) في «الكشف»، والطبري (٢/ ٦٢١) بإسناد ضعَّفه ابن حجر في الفتح (١/ ٩٧) والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/ ١٣) وفيه أن القبلة قد حولت من بيت المقدس إلى الكعبة في صلاة الظهر، وهو يوافق رواية النسائي عن أبي سعيد بن المعلى.

(٣) يُنظَر الحديث في «صحيح البخاري» (٤٠، ٣٩٩، ٤٤٨٦، ٤٤٩٢، ٧٢٥٢) وفي الترمذي (٣٤٠، ٢٩٦٢) والنسائي (٧٤١، ٤٨٨، ٤٨٧) وابن أبي شيبة (١/ ٣٣٤) وابن سعد (١/ ٢٤٣) وابن حبان (١٧١٦) وغيرهم.

سفهاء الناس وجُهَّالهم من اليهود والمشركين والمنافقين وغيرهم من ضعاف العقول عند الأمر بتحويل القبلة في حملة ضد الإسلام، لبلبلة أفكار المسلمين، وأنه ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي سيعترض على ذلك من لا يعرفون مصلحة أنفسهم، ممن اتصفوا بالسفه وقلة العقل وعدم الحلم ونقص الدين، والجهل والعناد.

وقد أخبر سبحانه بالقول قبل وقوعه توطينًا للنفس؛ حتى لا تفاجأ بالمكروه، سيقولون: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ ما الذي صرف هؤلاء المسلمين عن توجههم من بيت المقدس إلى الكعبة، قالوا ذلك سخرية واعتراضًا، وليس هذا شأن المؤمن، لأن المؤمن يتلقى الأحكام بالقبول والتسليم والانقياد، فيقول: سمعنا وأطعنا ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]

ثم لقَّن الله رسوله الجواب في قوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ وما بينهما، فليس البرُّ في التوجه قبل المشرق والمغرب، فكلها ملك لله تعالى، وإنما البرُّ في الإيمان بالله، فلماذا تعترضون على قبلة داخلة في ملك الله وليست خاج ملكه.

ومن ثمرات الإيمان أنه سبحانه ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ من عباده ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وحيثُما وُجِّهنا توجَّهنا، والهداية والإضلال لهما أسباب موجبة، ذكرها الله تعالى في أكثر من موضع من كتابه قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة] فالسبب الموجب للهداية هو اتباع العبد رضوان الله والسبب الموجب للإضلال هو أنهم زاغوا أوّلًا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

الأُمَّةُ الوَسَطُ

١٤٣- ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ[١] رَّحِيمٌ﴾

---

(١) قرأ أبو عمرو وشعبة وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر (لرؤُف) على وزن (عضُد) أي: بدون مد الهمز، وقرأ الباقون (لرءُوف) على وزن (فعُول) أي: بمد الهمز.

وكما هدى الله المسلمين إلى الطريق الصحيح في الدين هداهم إلى جهة القبلة؛ حيث بيَّن ﷻ أن هذه القبلة التي يتوجه إليها المسلمون هي في مكان وسط من العالم، كمركز الدائرة التي يتوجه إليها من كل جانب، وهي في محاذاة البيت المعمور حيث تطوف حوله الملائكة في السماء.

الكعبة تتوسط العالم: جعل الله تعالى قبلة المسلمين في مكان وسط من العالم، وجعل الأمة الإسلامية أمة وسطًا، أي: خيارًا عدولًا، وهي خير الأمم وأعدلها؛ لتشهد يوم القيامة على جميع الأمم أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم.

جاء في الحديث: أن الأمم يوم القيامة يجحدون وينكِرُون أن رسل الله تعالى قد بلَّغتْهُم الرسالة، فيُبدأ بسؤال أمة نوح ﷺ.

عن أبي سعيد الخدرى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « **يدعى نوح يوم القيامة، فيقال له: هل بلَّغت؟ فيقول: نعم، فيُدعى قومه، فيقال لهم: هل بُلغْتُم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، وما أتانا من أحد، فيقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، قال: فذلك قوله:** ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ قال: والوسط: العدل، فتدْعون، فتشهد له بالبلاغ، وأشهد عليكم[(١)].

وفي رواية معناها: فيؤتى بأمة محمد، وتُسْأَلُ، فتشهد أن نوحًا وغيره من رسل الله قد بلَّغوا رسالات ربهم إلى الأمم، فيقال لهم: فمن أين لكم ذلك؟ فيقولون: عرفنا هذا من كتاب الله ﷻ المنزل على رسول الله ﷺ، ثم يؤتى بمحمد عليه الصلاة والسلام فيشهد على صدق أمته ويزكيهم، ذلكم قول الله سبحانه ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[(٢)].

(١) تنظر رواية أحمد في «المسند» عن أبي سعيد: (٣/ ٣٢) ((٣/ ٥٨) برقم (١١٢٨٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين وينظر: البخاري (٣٣٣٩، ٤٤٨٧) والترمذي (٢٩٦١) وابن ماجه (٤٢٨٤) و«سنن النسائي الكبرى» (١١٠٠٧) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٤٦٤) وابن أبي حاتم (١٣٢٢، ١٣٣٦).

(٢) يُنظَر هذا المعنى في «المسند» (١١٥٥٨) بإسناد صحيح على شرط الشيخين كما قال (محققوه) وابن ماجه (٤٢٨٤) والبيهقي في «الشعب» (٢٦٤) وقد أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٥٩٨) والطبري (٢/ ٦٣٥) و«سنن النسائي الكبرى» (١٠٩٤٠)

وسطًا في العقيدة، لا غلوَّ ولا تقصير، لا إفراط ولا تفريط.

فمثلًا: النصارى بعد تحريفهم للإنجيل يقولون: إن عيسى ابن الله، أو أنه هو الإله، أو أنه ثالث ثلاثة، هذا غلوٌّ في العقيدة، وتحريف وضلال، واليهود يُفرِّطون ويُقَصِّرون ويَكْفُرون، فيقولون عن عيسى ﷺ: إنه ابن زنى، وأن أُمه مريم قد زنت به مع يوسف النجار!! وفي كل هذا إفراط وتفريط، وغلوٌّ وتقصير، وإحداث وتبديل وتحريف.

وأمة محمد ﷺ يعتقدون أن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، لا إفراط ولا تفريط، أمة وسطًا في العقيدة والعبادة والمعاملة، ليس فيها مشقة ولا تهاون، وهي أمة وسط في الزمان، ووسط في المكان، ووسط في العبادة، فالمسلم يصلي أينما أدركته الصلاة، واليهود والنصارى لا يصلون إلا في بيعهم وكنائسهم، والمسلم يصلي خلف من قال لا إله إلا الله، والنصراني لا يصلى إلا خلف القس، والمسلم أحل الله له الطيبات وحرم عليه الخبائث، واليهودي حرم الله عليهم بعض الطيبات عقوبة لهم، وهكذا ﴿جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بسبب عدالتكم وحكمكم بالقسط، فما شهدت له هذه الأمة بالقبول فهو مقبول، وما شهدت له بالرد فهو مردود يوم القيامة أن رسُل الله قد بلغوا إلى أممهم رسالتهم ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًاۗ﴾ أنه قد بلَّغكُم رسالة ربه، ويزكي شهادتكم على الناس، فإذا أنكرتْ بعض الأمم أن رسلهم قد بلّغوهم، استشهد الأنبياء بهذه الأمة، وزكاها نبيها:

فعن أبي هريرة ﷺ قال: أُتي النبي ﷺ بجنازة يُصلى عليها، فقال الناس: نعم الرجل، فقال النبي ﷺ: «وجبت»، وأُتي بجنازة فقال الناس: بئس الرجل، فقال النبي ﷺ «وجبت»، قال أُبي بن كعب: ما قولك وجبت؟ فقال: **قال الله تعالى**: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ فالملائكة شهود الله في السماء، وأمة محمد ﷺ شهود الله في أرضه[1].

---

(١) صححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٦٠٠) و«أخرجه الطبري» (٢/ ٦٣٢) وابن أبي حاتم في التفسير (١٣٣٤). والحديث في أبي داود (٣٢٣٣) وابن ماجه (١٤٩٢) وسنن النسائي الكبرى (٢٠٧١) وفي المسند (١٠٠٧٦) وابن حبان (٣٠٢٤) وجاء الحديث عن أنس وعمر في البخاري (١٣٦٧، ١٣٦٨) كما وفي مسلم (٩٤٩) والترمذي (١٠٥٨، ١٠٥٩)

مِنْ مَظَاهِرِ الابْتِلَاءِ: تَحْوِيلُ الْقِبْلَةِ عَنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ وهي بيت المقدس، ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ نُظْهِر في عالم الوجود وصحف الملائكة ما يترتب عليه من الثواب والعقاب، وإلا فا لله تعالى عالم بكل شيء قبل وجوده، وإذا وجد العمل ترتب عليه الثواب والعقاب وإقامة الحجة، وقد شرعنا تلك القبلة لنمتحن ﴿مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ فينقلب مرتدًّا لشكه ونفاقه، وإن كان هذا التحول لثَقيلٌ إلا على من هدى الله ﴿وَإِن كَانَتْ﴾ أي تحولك عن قبلة بيت المقدس ﴿لَكَبِيرَةً﴾ وشاقة ﴿إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ فعرفوا نعمه وشكروه.

ولما قالت اليهود لمن اتجه في صلاته إلى بيت المقدس، ومات قبل أن يدرك التوجه إلى الكعبة، قالوا: إن صلاته باطلة؛ لأنه اتجه نحو القبلة المنسوخة، قال الله سبحانه جوابًا عليهم: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾، بل سيحفظ صلاتكم من الضياع والبطلان ويثيبكم عليها، ويحفظ عليكم إيمانكم فلا يفسده ولا ينقصه بل يزيده وينميه ويوفقكم لإتقانه.

أخرج البخاري عن البراء ﷺ أن رسول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا، وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبَلَ البيت، وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر، وصلى معه قوم، فخرج رجل ممن كان صلى معه فمر على أهل المسجد وهم راكعون، فقال: أشهد بالله، لقد صليت مع النبي ﷺ قِبَلَ مكة، فداروُا كما هم قِبَلَ البيت، وكان الذي مات على القبلة قبل أن تُحوَّل قِبَلَ البيت رجالًا قُتِلوا، لم ندرِ ما نقول فيهم، فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾[1].

قال ابن عباس ﷺ: لما وُجِّه النبي ﷺ إلى الكعبة قالوا: يا رسول الله، كيف إخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾[2].

---

(١) انفرد به البخاري برقم (٤٠، ٤٤٨٦) ورواه مسلم من وجه آخر برقم (٥٢٥).

(٢) قال الترمذي: حديث حسن صحيح (٢٩٦٤) و«المسند» (٢٦٩١، ٢٧٧٥، ٣٢٤٩) صحيح لغيره، وهذا إسناد رجاله ثقات، رجال الصحيح والطيالسي (٢٧٩٥) والطبري (٢/٦٥١) وابن حبان (١٧١٧) والطبراني (١١٧٢٩)، والدارمي (١٢٣٥).

وكان منهم: أسعد بن زرارة، والبراء بن معرور، وأبي أمامة.

وورد أن حُيي بن أخطب وجماعة من اليهود قالوا للمسلمين: أخبرونا عن صلاتكم إلى بيت المقدس، إن كانت على هدى، لقد تحولتم عنه، وإن كانت على ضلالة فقد عبدتم الله مسافة، ومن مات عليها فقد مات على ضلالة، فقال المسلمون: إنما الهدى فيما أمر الله تعالى، والضلالة فيما نهى الله عنها، فقالوا: فما شهادتكم على من مات منكم على قبلتنا؟ وكان قد مات من المسلمين جماعة قبل تحويل القبلة، فانطلق عشائرهم إلى النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله، كيف إخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْۚ﴾.

والمراد بالإيمان: الصلاة، أي: وما كان الله ليضيع صلاتكم حين توجهتم إلى بيت المقدس، فمن مات منكم على ذلك قبل الأمر بتحويل القبلة فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، ومن رأفته ورحمته أن ميّز من دخل في الإيمان بلسانه دون قلبه، وأن امتحنهم امتحانًا تزداد به درجاتهم، وأن وجّههم إلى أشرف البيوت وأجلّها.

تَحْوِيلُ الْقِبْلَةِ

١٤٤- ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ[1] ﴿١٤٤﴾﴾

كان النبي ﷺ وهو في مكة يستقبل الكعبة من الجهة الجنوبية، فيكون متوجِّهًا إلى صخرة بيت المقدس بالضرورة، فلما هاجر ﷺ إلى المدينة أمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس، واستمر الأمر على ذلك ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا، يتوجه إلى الله ويبتهل إليه خلالها أن يحوله إلى الكعبة، فأجيب إلى ذلك، وأُمر بالتوجه إلى الكعبة، وفي ذلك امتحان للمسلمين، وفيه حِكَم تربوية؛ حيث كان العرب في الجاهلية يُعظِّمون ويمجِّدون الكعبة المشرفة وتتعلق قلوبهم بها، وقد أراد الله ﷻ أن يُخلِّص النفوس من رواسب

(١) قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم ورويس وخلف العاشر (يعملون) بياء الغيبة عائد على أهل الكتاب، وقرأ الباقون بتاء الخطاب، والمخاطب هم المؤمنون وهو مناسب لقوله تعالى: (وحيث ما كنتم فولوا).

الجاهلية، وأن يجعلها تتعلق بالله وحده، وتتجه حيث أمر الله سبحانه، وألا ترتبط بمكان من الأمكنة، ولا بزمان من الأزمنة.

قال سبحانه في بيان ذلك: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ يعني: بيت المقدس﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ وفي هذا ابتلاء للمؤمنين؛ ليظهر في عالم الوجود من يثبُت منهم على الإيمان، ومن لم يثبُت، ويُعلمهم أن لله المشرق والمغرب، والله تعالى عالم في الأزل بكل ما يريد وجوده في الوقت الذي يشاء، والمكان الذي يشاء ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ويبتلي من يشاء من عباده، فكان أن ارتد قوم عن إسلامهم نتيجة تحول القبلة.

وكان النبي ﷺ يتألف قلوب اليهود تحببًا لهم إلى الدخول في دين الإسلام، وكان من المفروض أن يؤدي تحويل القبلة أولًا من الكعبة إلى بيت المقدس، إلى تألف قلوب اليهود، ولكن ذلك أدى إلى نتيجة عكسية؛ حيث زاد القوم استكبارًا وعنادًا فأخذوا يتحدثون، ويقولون: إن ديننا هو الحق، وقبلتنا هي الحق، وما ترك محمد قبلتنا إلا حسدًا لنا، ولو لم يكن الأمر كذلك ما اتجه إلى قبلتنا، وأنه يوشك أن يعود إلى ديننا كما عاد إلى قبلتنا، والله تعالى لا تخفى عليه أعمالهم، وسوف يجازيهم عليها ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

وكان النبي ﷺ يحب أنه يُوجَّه إلى الكعبة قبلة أبيه إبراهيم وإسماعيل، فكان يتطلع إلى السماء بغية تحويل القبلة، دون أن يتكلم بشيء؛ تأدبًا مع رب العالمين، وظل كذلك ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا، يتوجه إلى بيت المقدس بعد الهجرة، حتى أنزل الله تعالى عليه يأمره بالتوجه إلى الكعبة ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ﴾ أي: تحول ﴿وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ مرة بعد مرة، انتظارًا لنزول الوحي ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ وتحبها.

الأمر الأول: بالتوجه إلى الكعبة: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ مخالفة لليهود، وليكون أدعى إلى تثبيت الإيمان في قلوب أهله، وفي هذا اشتراط استقبال القبلة في الصلاة فرضًا ونفلًا، باستقبال عينها إن أمكن، وإلا فاستقبال جهتها، وفيه إشارة إلى أن الالتفات بالبدن مبطل للصلاة ، وكان يكفي هذا الأمر، ولكن الله سبحانه أكده أكثر من مرة لبيان وجوب التوجه إلى الكعبة في كل زمان وفي كل مكان من الناس أجمعين، فقال جل شأنه: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ أي في أي مكان كنتم، وفي

أي زمان كنتم، ولُّوا وجوهكم قبل المسجد الحرام، وتم تحويل القبلة في منتصف شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة، وقيل: في منتصف شهر رجب.

مسجد القبلتين:

١- والمكان الذي نزل فيه الأمر على النبي ﷺ بتحويل القبلة هو مسجد بني سلمة، حيث كان عليه الصلاة والسلام يُصلِّي الصبح فيه، ثم سُمِّي هذا المسجد بعد ذلك بمسجد القبلتين، وكان قد صَلى ركعة وأُمر بالتوجه إلى الكعبة وهو في الصلاة فتحول النبي ﷺ وتحول معه المسلمون تجاه الكعبة وهم في الصلاة[(١)].

٢- وجاء في رواية أبي سعيد بن المعلى عند النسائي أنها كانت صلاة الظهر، قال: كنا نغدو للسوق على عهد رسول الله ﷺ فنمر على المسجد فنصلي فيه فمررنا يومًا ورسول الله ﷺ قاعد على المنبر فقلت: لقد حدث أمر، فجلست، فقرأ رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ فقلت لصاحبي: تعال نركع ركعتين قبل أن ينزل رسول الله ﷺ فنكون أول من صلى، فتوارينا فصلينا، ثم نزل رسول الله فصلى للناس الظهر يومئذ[(٢)].

٣- وأول صلاة كاملة صُلِّيت إلى الكعبة بعد التحويل هي صلاة العصر، كما جاء في حديث البراء السابق عند البخاري وغيره[(٣)].

٤- أما مسجد قُباء فقد وصل إليه الخبر في صلاة الفجر التالي كما جاء في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنه أنه قال: بينما الناس بقباء في صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال: إن رسول الله ﷺ قد أُنزل عليه الليلة قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها[(٤)].

قال ابن كثير: وفي هذا دليل على أن الناسخ لا يلزم حكمه إلا بعد العلم به، وإن تقدم نزوله

---

(١) من حديث أنس بن مالك في «صحيح مسلم» برقم (٥٢٧)

(٢) «سنن النسائي الكبرى» برقم (١١٠٠٤) وهو في ط مؤسسة الرسالة عام ١٤٢٢ برقم (١٠٩٣٧). وقد ضعفه ابن حجر في الفتح (١/ ٩٧).

(٣) ينظر: البخاري (٤٠، ٣٩٩، ٤٤٨٦ ومسلم (٥٢٥)، وهو في صحيح سنن النسائي (٧١٦، ٤٧٥، ٤٧٤)

(٤) «صحيح مسلم» برقم (٥٢٦، ٥٢٧) والبخاري برقم (٤٤٨٨) والترمذي برقم (٣٤١)، وصحيح سنن النسائي (٧١٩، ٤٧٩).

وإبلاغه؛ لأنهم لم يؤمروا بإعادة العصر والمغرب والعشاء. وهكذا كان أصحاب النبي ﷺ يمتثلون أوامر الله تعالى، وأوامر رسوله ﷺ دون تلكؤ ولا تباطؤ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ (٥٢)﴾ [النور].

قَطْعُ الأَطْمَاعِ فِي اتِّبَاعِ أَهْلِ الْكِتَابِ لِخَاتَمِ النَّبِيِّينَ ﷺ

١٤٥- ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

وقد ذكر سبحانه الأمر بالتوجُّه إلى الكعبة ثلاث مرات، وأكد على ذلك في مرة خاصة بأهل الكتاب، فبيَّن سبحانه أن محمدًا ﷺ لو جاء إلى المعاندين المخالفين بكل حجة وبكل برهان على أن يتوجهوا إلى الكعبة في الصلاة، ما تبعوا قبلتك عنادًا واستكبارًا ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ۚ﴾ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ (٩٧)﴾ [يونس]

وما أنت براجع إلى قبلتهم في بيت المقدس كما قال تعالى ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ﴾ واليهود لن يتَّبِعوا قبلة النصارى، والنصارى لن يتوجهوا إلى قبلة اليهود ﴿وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ﴾ يا رسولنا ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ أي: أهواء أهل الكتاب في شأن القبلة وغيرها من بعدما تبيَّن لك الحق من أنهم على باطل بعدم اتباع ما أنزله الله إليك عن طريق الوحي، وهو العلم المراد في قوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا﴾ إن اتبعت أهواء أهل الكتاب ﴿لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ المخالفين لشرع الله مع علمك أنك على حق، ومع علمهم أنك على حق ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ﴾ فالتوجُّه إلى الكعبة هو الحق؛ حيث إن الخبر ممن لا ينطق عن الهوى، وهم يعلمون أنه على حق، وأنه الموجود في التوراة والإنجيل، وهم يعلمون ذلك تمام العلم، ولكنهم يعترضون عنادًا وبغيًا والظلم على مراتب ينتهي إلى العقائد الضالة، وهو ظلم النفس.

مُخَالَفَةُ الْيَهُودِ الثَّانِيَةُ وَالثَّلَاثُونَ: كُفْرُهُمْ بِمُحَمَّدٍ ﷺ مَعَ شِدَّةِ مَعْرِفَتِهِمْ لَهُ

١٤٦- ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

ولما ذكر سبحانه اعتراض أهل الكتاب على تحويل القبلة، وبيّن أن كُلًّا من اليهود والنصارى والمسلمين لن يتْبع قبلة الآخر، ذكر في هذه الآية، أن أهل الكتاب والعلم منهم، يعلمون بمقتضى ما في كتبهم أن ما يقوله محمد حق وصدق، وهم بالتالي يعرفون صاحب الرسالة أقوى وأشد من معرفتهم لأبنائهم، لا يشكون في ذلك فيما بينهم، ولكنهم يكتمون هذا الحق وهم يعلمون، وبعضهم لا ينكر ذلك ممن أسلم وحسن إسلامه.

وكما أن أسماء النبي ﷺ وصفاته موجودة في التوراة والإنجيل وهم يعلمونها تمامًا، فمن أسمائه ﷺ: أحمد، والمتوكل، والفارقليط، ومن صفاته ﷺ عندهم: أنه ليس بفظٍّ، ولا غليظ، ولا صخَّاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويصفح.

مَعْرِفَتِي بِمُحَمَّدٍ أَشَدُّ مِنْ مَعْرِفَتِي بِابْنِي

وأهل الكتاب يعرفونه ﷺ أكثر من معرفتهم لأبنائهم، كما بيَّن تعالى أن الذين أعطاهم الله التوراة والإنجيل من أحبار اليهود وعلماء النصارى يعرفون محمدًا بأوصافه المذكورة في كتبهم مثل معرفتهم لأبنائهم أو أشد ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ من اليهود كعبد الله بن سلام ومن النصارى؛ كتميم الداري، وصُهَيْب ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾.

سأل عمر ﷺ عبد الله بن سلام، قال له: أتعرف محمدًا كما تعرف ولدك؟ قال: نعم، معرفتي بمحمد أشد من معرفتي بابني، قال: كيف؟ قال: نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بِنَعْتِه فَعَرفتُه، وإني لا أدري ما كان من أُمِّ ولدي.

أي: أني أشهد أن محمدًا رسول الله حقًّا، كما نعتَه الله في كتابنا، لا أشك في ذلك؛ لأن معرفتي بمحمد جاءت عن طريق الوحي من عند الله تعالى، أما ولدي فلعل والدته قد خانت، ولا أدري ما تصنع النساء، فمعرفتي بمحمد أوثق، فقبَّل عمر رأسه، وقال: وفقك الله يا بن سلام، فقد صدقت[1].

قال سلمان الفارسي: خرجتُ أبتغي الدين، فوافقتُ في الرهبان، بقايا أهل الكتاب، وكانوا يقولون: هذا زمان نبي قد أظل، يخرج من أرض العرب، له علامات، من ذلك

---

(١) يُنظَر «تفسير القرطبي» للآية وقد أخرجه الثعلبي من طريق السُّدِّي الصغير عن الكلبي عن ابن عباس كما في «الدر المنثور» (٢/ ٣٢).

شامةٌ مُدَورة بين كتفي خاتم النبوة[١].

وفي الحديث: عن أبي رمْثة أن النبي ﷺ رأى رجلًا معه طفل صغير، فقال: **«ابنك هذا؟ قال: نعم يا رسول الله، أشهد به، قال: إنه لا يجني عليك ولا تجني عليه»**[٢].

أما من لم يُسْلم من علماء أهل الكتاب، فإنهم يكتمون صفة محمد ﷺ، وينكرون رسالته مع علمهم بذلك من التوراة والإنجيل، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ﴾ أي: من أهل الكتاب ﴿لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ صفة محمد، حسدًا وعنادًا مثل ابن صوريا، وكعب بن الأشرف ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة ما يكتمونه.

ويجوز أن يكون المعنى أن الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى يعرفون أن تحويل القبلة إلى الكعبة هو الحق، وأنهم لا يشكُّون في ذلك كما لا يشكُّون في أبنائهم؛ لوجود ذلك عندهم في التوراة والإنجيل، وبهذا قال قتادة والربيع، أي: أن البيت الحرام هو القبلة التي أمروا بها، وفريق منهم يكتم هذا الحق وينكر معرفته به والمعنى الأول أظهر، وهو يقتضي بالضرورة تصديق ما جاء به محمد ﷺ من أمر التحويل إلى القبلة وغيرها. قال تعالى:

١٤٧- ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

ثم وجَّه الله سبحانه الخطاب لرسوله ﷺ، والمراد جميع خلقه من الإنس والجن، في كل زمان ومكان، مؤكدًا أن محمدًا ﷺ هو رسول من عند الله حقًّا وصدقًا ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ﴾ أيها المخاطب ﴿مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ الشاكين فيه، كما اختلفوا في شأن القبلة، فاليهود تستقبل بيت المقدس، والنصارى تستقبل مطلع الشمس، وأنت يا محمد تتوجه إلى الكعبة، فلا ترجو موافقتهم لك، والزم قبلتك التي أمرت بها فهي الحق.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٦١٨٠).

(٢) «المسند» (٢/٢٢٦، ٢٢٨) برقم (٧١٠٦، ١٧٤٩٩) وغيرهما برجال ثقات وإسناد صحيح على شرط مسلم، كما قال محققوه، وأبو دواد في السنن برقم (٤٤٩٥)، (٤٢٠٨).

الأَمْرُ بِالمُسَابَقَةِ إِلَى الخَيْرَاتِ

١٤٨- ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا[١] فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾

ثم يصرف الله سبحانه أنظار المسلمين عن الانشغال بدسائس وفتن أهل الكتاب إلى العمل الصالح، والمبادرة إلى قبول الأوامر، وترك النواهي، والإكثار من الطاعات والخيرات؛ فلكل أهل ملة قبلة يُتوجَّه إليها في عبادتهم، وقبلة الإسلام هي الكعبة، فبادروا بالتوجه إليها.

ولكل أهل ملة طريقة وشريعة تناسب زمانهم ومكانهم وأشخاصهم ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] وتذكَّروا أن مرجعكم جميعًا إلى الله، فيثيب المطيع ويجازي العاصي، وهو قادر على إعادتكم بعد الموت، ومجازاتكم على ما قدمت أيديكم ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ﴾ أي: قبلة أو شريعة ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ أي: مستقبلها فبادروا إلى صالح الأعمال التي جاء بها الإسلام وتسابقوا إلى الخيرات والمبرات ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ فالأعمال الصالحة مصدر السعادة في الدنيا والآخرة، قال تعالى ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد: ٢٠]

أما القبلة فإنها من الشرائع التي تتغير بها الأزمنة ويدخلها النسخ، ولكن العبرة في امتثال الطاعة والتقرب إلى الله تعالى، والمبادرة إلى الخيرات، فإن من سبق إليها في الدنيا سبق إلى الجنة في الآخرة.

﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ فيفصل بين الحق والباطل يوم القيامة، ليجزى الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ومن قدرته سبحانه البعث والحساب والجزاء على الأعمال.

وفي حديث أنس بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم؛ له ذمة الله وذمة رسوله، فلا تخفروا الله في ذمته»**[٢].

ويستدل بهذه الآية على فضيلة الإتيان بالأعمال الصالحة والعبادات المفروضة،

---

(١) قرأ ابن عامر (هو مولَّاها) بفتح اللام المشددة، وبعدها ألف، على أنه اسم مفعول، وقرأ الباقون كحفص (هو مولِّيها) على أنه فاعل.

(٢) البخاري (٣٩١) والنسائي (٥٠١٢) والبيهقي في سننه (٢/٣).

كالصلاة والزكاة والجهاد والعمرة، وكذا السنن والآداب في أول وقتها بالإسراع إليها.

الأَمْرُ الثَّانِي: التَّوجُّهُ إِلَى الكَعْبَةِ هُوَ الحَقُّ الثَّابِتُ وَلَا حُجَّةَ للْمُتَشَكِّكِينَ فِيهِ

١٤٩- ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ[1] (١٤٩)﴾

ثم أمر سبحانه بالتوجه إلى الكعبة في الصلاة في أي حال كان عليه المسلم في سفر أو حضر، وفي أي مكان كان ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۖ﴾ وهذه الآية تخلو من ذكر أهل الكتاب، وموقفهم من التوجه إلى الكعبة ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: وإن هذا التوجه المأمور به لهو الحق الثابت الذي لا مرية فيه ﴿مِن رَّبِّكَۗ﴾ لئلا يقع لأحد أدنى شبهة في ذلك.

ثم يحذر سبحانه من طرف خفي من الانحراف عن هذا الحق، فإن الله تعالى لا يخفى عليه شيء ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فهو سبحانه يحصي أعمالكم ويجازيكم عليها، إن خيرًا فخيرا وإن شرًا فشر.

الأَمْرُ الثَّالِثُ بِوُجُوبِ التَّوَجُّهِ إِلَى الكَعْبَةِ فِي الصَّلَاةِ

١٥٠- ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٠)﴾

ثم يأتي الأمر الثالث بوجوب التوجه في الصلاة إلى الكعبة بغرض إبطال حجة أهل الكتاب، ومَنِ انساق منهم أو ينساقُ وراء ترويجهم للباطل من المنافقين والمشركين.

فقد قالت قريش: رجع محمد إلى الكعبة؛ لأنه عَلم أنها الحق، وأنها قبلة أبيه، وسيرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا. وقالت اليهود: لم ينصرف محمد عن بيت المقدس مع علمه أنه حق، إلا أنه يعمل برأيه[2].

---

(١) قرأ أبو عمرو بياء الغيبة في (تعملون) مراعاة لشأن الكاتمين للحق من أهل الكتاب، وقرأ الباقون بتاء الخطاب موافقة لنسق الآية لما قبلها.

(٢) يُنظَر قول ابن عباس وقتادة في «تفسير الطبري» (٢/ ٦٨٥، ٦٨٦).

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ من أي مكان خرجت، وفي أي مكان كنت ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ خطاب للنبي ﷺ ﴿شَطْرَ﴾ أي: جهة ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ثم خاطب الله الأمة عمومًا فقال: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ من أي أقطار العالم كنتم، سواء أكنتم تشاهدون الكعبة، أم كنتم قريبين منها، أم بعيدين عنها في سائر الأمصار والقرى والصحاري والبوادي والشعاب، في البر، أو البحر، أو الجو ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ﴾ المخالفين لكم احتجاج عليكم بالمخاصمة والمجادلة بعد هذا الذي حدث من أهل الكتاب والمشركين؛ فباستقبال الكعبة قامت الحجة عليهم وانقطع جدالهم، لأن أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن قبلة محمد هي الكعبة، والمشركون يرون أنها من تراثهم ومفاخرهم، وأنه من ملة إبراهيم، فإذا لم يستقبلها محمد، قالوا: كيف يدَّعِي أنه على ملة إبراهيم، وأنه من ذريته، وقد ترك استقبال قبلته؟ وذلك لأن اليهود عرفوا أن الكعبة قبلة إبراهيم، ووجدوا في التوراة أن محمدًا سيُحوَّل إليها، فلما حُوِّل إليها ذهبت حجتهم، إلا الظالمين المعاندين القائلين: يوشك أن يرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا، وهم أهل الظلم الذين احتجوا بحجة هم ظالمون فيها وليس لهم مستند إلا اتباع الهوى، وهم الذين قال الله عنهم: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ وهم المشركون ومن كتموا ما عرفوا من الحق من اليهود والنصارى، وصدوا الناس عن دين الله ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ لا تخشوا شُبَه الظلمة المتعنتين، لأن حجتهم باطلة، والباطل مخذول، فإنهم لن يضروكم، ولا تخشوا غيري، فإنهم هم السفهاء الذين سبق وصفهم ﴿وَاخْشَوْنِي﴾ خافوني واحذروا عقابي ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ بهدايتكم إلى الإسلام واختيار أكمل الشرائع لكم، ودخولكم الجنة، والتمتع بالنظر إلى وجه الله الكريم ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلى الحق والصواب الذي ضل عنه غيركم، وكان صرف المسلمين إلى الكعبة قد حصلت فيها فتنة كبيرة أشاعها المشركون وأهل الكتاب ولفظ (لعل وعسى) من الله تعالى للوجوب، وقد اقترن هذا الأمر الثالث بحِكَمٍ ثلاث هي:

١- قطع دابر الفتنة بإزالة حجة المخالفين.

٢- وإن من تمام النعمة، الاستقلال عن اليهود في القبلة.

٣- ومن تمام النعمة الإرشاد إلى الصواب الذي ضل عنه غيرنا.

والفرق بين الآيات الثلاث:

أن **الأمر الأول** بالتوجه إلى الكعبة في الصلاة: فيه استجابة لرغبة النبي ﷺ و فيه ذكر لأهل الكتاب.

والأمر الثاني: فيه بيان أن ذلك هو الحق الثابت من عند الله، ولا عبرة بتشكيك المضلين.

والأمر الثالث : فيه قطعٌ لحجة المعترضين من اليهود والمنافقين والمشركين على تحويل القبلة.

وقد وُجه الأمر بالتوجّه إلى الكعبة إلى الرسول خاصة، ثم إلى الأمة عامة، وفي هذا قطع لأطماع أهل الكتاب من اتباع الرسول قبلتهم.

امْتِنَانُ اللَّهِ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةَ بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ

١٥١- ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾

أي: وكما أتم الله نعمته عليكم أيها المؤمنون فهداكم إلى ما ضلت عنه الأمم قبلكم، أرسل فيكم هذا الرسول الخاتم؛ إجابة لدعوة أبيه إبراهيم، لتعليمكم الكتاب والسُّنَّة، وتطهيركم من دنس الشرك وأخلاق الجاهلية وإخراجكم من الظلمات إلى النور ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ﴾ أيها الناس جميعًا ﴿رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ هو محمد ﷺ تعرفون حسبه ونسبه، وصِدْقه وأمانته ثم وصفه ربنا **بخمسة أوصاف:**

أولها: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ القرآن والسنة، لبيان الحق من الباطل، والهدى من الضلال، والتوحيد من الشرك، و ما في اليوم الآخر من البعث الحساب والجزاء.

وثانيها: ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ أي: يطهركم من الشرك والذنوب، ويربيكم على الأخلاق الحميدة، واجتناب الأخلاق الرذيلة، كالتزكية من الرياء إلى الإخلاص، ومن الكذب إلى الصدق. . .

وثالثها: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فالتعليم غير التلاوة، والرسول يعلمكم ألفاظ القرآن ومعانيه، تلاوة وتدبرًا، وعلمًا وعملًا.

ورابعها ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ السُّنَّة الموضحة للقرآن والتفقه في الدين، ومعرفة أسرار الشريعة.

وخامسها: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ عن طريق الوحي من أخبار الأمم الماضية، والحوادث المستقبلة، وما غاب عن العباد، وعن طريق الاستنباط والاجتهاد، وكان الناس قبل البعثة في ضلال مبين، لا علم لهم ولا عمل، فهذا القرآن وهذه السُّنَّة القولية والفعلية المستمدة منه هما مادة التَّوْجِيهُ والتعليم، والحكمة هي ثمرة هذا التعليم، وهي تعني وضع الأمور في مواضعها، ووزنها بميزانها الصحيح.

وقد طلب إبراهيم من ربه في الآية السابقة توافر **أربعة أشياء** على هذا الترتيب:

١- يتلو عليهم آياته. ٢- ويعلمهم الكتاب. ٣- والحكمة. ٤- ويزكيهم.

فكان إجابة دعائه في هذه الآية بتقديم التزكية، وهي التطهر من الشرك والذنوب؛ لأن التخلية تكون قبل التَّحْلِية وسمو الخلق، فيقدم ذلك على تعليم الكتاب والحكمة.

وقد قدم الله تزكية النفس على تعليم الكتاب والحكمة في مثل قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران].

وذم الله سبحانه من لم يصُن هذه النعمة ويعمل بمقتضاها في مثل قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ [إبراهيم].

وتلاوة آيات الكتاب أمر عام، يشمل ما جاء فيه من دلائل التوحيد والهداية، وأصول الأخلاق، وتزكية النفوس، وما اشتملت عليه آيات القرآن من الأدلة النقلية والعقلية على أصول العقائد والقواعد. ويلي ذلك تزكية الأخلاق من سفاسف الأمور وقبائح العادات، ويليه تعليم الحلال والحرام وشرائع الإسلام، ومهمة الرسالة جاءت على هذا النحو: التلاوة العامة للكتاب، وهي تختلف عن التعليم، ف﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ تختلف عن ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ثم طهارة الأخلاق، ثم التكاليف الشرعية.

وقد بدأت مهمة الرسول بتزكية النفوس والطهارة من رذائل الجاهلية وأفعالها القبيحة، وفي مقدمة ذلك إزالة الشرك وتزكية النفوس بالتوحيد، وهو أول شيء فعله الرسول ﷺ بأهل مكة، ثم شرعت الأحكام الشرعية غالبًا في المدينة.

أَرْبَعَةُ تَوْجِيهَاتٍ لِتَرْبِيَةِ النُّفُوسِ الْمُؤْمِنَةِ

التَّوْجِيهُ الأَوَّلُ: المُدَاوَمَةُ عَلَى ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى وَشُكْرِهِ

١٥٢- ﴿فَاذْكُرُونِي[١] أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ[٢] ﴿١٥٢﴾﴾

وفي التعقيب على هذه النعم يوجِّه الله ﷻ عباده أربع توجيهات لتربية النفوس المؤمنة لمواجهة الأحداث الجسام:

التَّوْجِيهُ الأول: المداومة على ذكر الله تعالى وشكره.

التَّوْجِيهُ الثاني: الاستعانة على المتاعب بالصبر والصلاة.

التَّوْجِيهُ الثالث: تربية النفوس على حب الشهادة في سبيل الله.

التَّوْجِيهُ الرابع: مواجهة الخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والأرزاق بالصبر والرضا والتفويض.

أما **التَّوْجِيهُ الأول:** فهو يهدف إلى الاعتراف بهذه النعم عن طريق ذكره تعالى بالطاعة والعبادة، وشكره بالقول والعمل، وتحذيرهم من كفره وجحد نعمته.

وذكر اللسان يكون بالتسبيح والتحميد والثناء والتمجيد.. إلخ.

وذكر القلب يكون بالتفكر في عظمة الله تعالى وأدلة وحدانيته.

وذكر الجوارح يكون بالاستغراق في الطاعات والأعمال الصالحة؛ كالصلاة، والحج.

فاذكروني بطاعتي أذكركم بمغفرتي.

وقد أمر الله بالذكر، ووعد عليه أفضل جزاء، وهو ذِكْرُه سبحانه لمن ذَكَره، فقال ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾.

قال الحسن البصري: (اذكروني فيما افترضته عليكم أذكركم فيما أوجبت لكم على نفسي).

---

(١) قرأ ابن كثير بفتح ياء (فاذكروني) في حالة الوصل، وقرأ الباقون بإسكانها.

(٢) أثبت يعقوب ياء في (ولا تكفرون) وصلًا ووقفًا وحذفها الباقون في الحالين.

والذكر يُثمر معرفة الله تعالى ومحبته وكثرة ثوابه.

ومن أوصاف المتقين أنهم إذا فعلوا فاحشة، أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله... وذكر الله تعالى للعبد يكون بإثابته على ذكره لربه ورضاه عنه، وغفران ذنوبه.

والذكر هو رأس الشكر، ولذا خصه الله بالذكر، ثم أمر به عمومًا فقال: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِى﴾.

وشكر الله تعالى يكون بطاعته باللسان والقلب والجوارح كذلك؛ فالذكر والشكر يتفقان في هذا المعنى، حيث يكون الشكر إقرارًا واعترافًا بالقلب، وذكرًا وثناءً باللسان، وطاعة وانقيادًا بالجوارح:

والكفر يكون بالمعصية، فمن أطاع الله فقد شكره، ومن عصاه فقد كفره، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم]. والمراد كفر النعمة وجحودها وعدم القيام بحقوقها، وأعلى أنواع الكفر: الشرك الأكبر، ثم أنواع المعاصي على اختلاف أنواعها وأجناسها.

ومن شُكْر النعمة: أن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على خلقه.

وهذه طائفة من الأحاديث الصحيحة في فضل ذكر الله تعالى والترغيب فيه:

١- فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ يقول الله تعالى: **«من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه»**[١].

والذاكر لله تعالى يكون في معية ربه:

٢- وفي الحديث القدسي عن أبي هريرة أيضًا يقول الله تعالى: **«أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه»**[٢].

(١) يُنظَر البخاري عن قتادة برقم (٧٥٣٦) و«المسند» عن أنس (٣/١٣٨) برقم (٨٦٥٠) حديث صحيح.

(٢) «المسند» (٧٤٢٢، ١٠٩٦٨، ١٠٩٧٥، ١٠٩٧٦) وهو في البخاري ك ٩٧ ب ٤٣ قبل الحديث رقم (٧٥٢٤) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٣٠٥٩) وابن حبان (٨١٥).

والفرق كبير بين من يذكر ربه، ومن يغفل عن ذكره

٣- وعن أبي موسى ﷺ: **«مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت»**(١).

والذاكرون لله هم الموحدون السابقون إلى الخيرات:

٤- وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ: **«سبق المفردون، قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات...»**(٢).

ذكر الله للعبد خير من ذكر العبد لربه:

٥- وفي حديث أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: قال الله ﷻ: **«يا بن آدم، إن ذكرتني في نفسك ذكرتك في نفسي، وإن ذكرتني في ملأ ذكرتك في ملأ من الملائكة - أو قال: في ملأ خير منهم- وإن دنوت مني شبرًا دنوتُ منك ذراعًا، وإن دنوتَ مني ذراعًا دنوتُ منك باعًا، وإن أتيتني تمشي أتيتك هَرْولة»**(٣).

المؤمن يجعل لسانه دائمًا رطبًا بذكر الله:

٦- عن عبد الله بن بُسْر رضي الله عنه أن رجلًا قال: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثُرتْ عليَّ، فأخبرني بشيء أتشبث به، قال: **«لا يزال لسانك رطْبًا من ذكر الله»**(٤).

ولذكر الله أكبر:

٧- وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعِها في درجاتكم، وخيرٍ لكم من إنفاق الذهب والوَرِق، وخيرٍ لكم من أن تلْقَوْا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى، قال: ذكر الله»**(٥).

---

(١) البخاري (٦٤٠٧) ومسلم (٧٧٩) والبيهقي في «الشعب» (٥٣٦).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٦٧٦).

(٣) «المسند» (١٢٤٠٥) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٦٢٦) وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٢١٣) وفي «السلسلة الصحيحة» (٢٠١٢).

(٤) «المسند» (١٧٦٨٠، ١٧٦٩٨) وابن أبي شيبة (١٠/ ٣٠١) والترمذي (٣٣٧٥) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٣٠٦٠) وابن حبان (٨١٤) والحاكم (١/ ٤٩٥) والبيهقي في السنن (٣/ ٣٧) وفي «الشعب» (٥١٥).

(٥) «المسند» (٢١٧٠٢، ٢١٧٠٤) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٦٨٨) وابن ماجه (٣٧٩٠) والحاكم (٤٩٦/١) والبيهقي في «الشعب» (٥١٩).

التحسر على كل وقت يمر على العبد دون ذكر لله تعالى:

٨- في حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«ليس يتحسر أهل الجنة إلا على ساعة مرتْ بهم لم يذكروا الله تعالى فيها»**[١].

والذاكر لله تعالى يكون في ساحة الرحمة والرضوان:

٩- وعن أبي سعيد وأبي هريرة ﷺ أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه قال: **«لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده»**[٢].

والذاكرون الله تعالى لا يشقى جليسهم:

١٠- في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله تنادوْا: هلموا إلى حاجتكم، فيَحفونهم بأجنحتهم إلى السماء، فإذا تفرقوا عرجوا وصعدوا إلى السماء، فيسألهم ربهم وهو أعلم: من أين جئتم؟ فيقولون: جئنا من عند عباد لك في الأرض يسبحونك ويكبرونك ويهللُونك ويحْمدونك، فيقول: هل رأوْني؟ فيقولون: لا، فيقول: كيف لو رأوْني؟ فيقولون: لو رأوْك كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تمجيدًا، وأكثر لك تسبيحًا، فيقول: فما يسألون؟ فيقولون: يسألونك الجنة، فيقول: وهل رأوْها؟ فيقولون: لا، فيقول: فكيف لو رأوها؟ فيقولون: لو أنهم رأوْها كانوا أشد عليها حرصًا، وأشد لها طلبًا، وأعظمَ فيها رغبة، قال: فمِّم يتعوذون؟ فيقولون: يتعوذون من النار، فيقول: وهل رأوها؟ فيقولون: لا، فيقول: فكيف لو رأوها؟ فيقولون: لو أنهم رأوْها كانوا أشد منها فرارًا وأشد لها مخافة، فيقول: أشهدكم أني قد غفرت لهم، فيقول ملك من الملائكة: فيهم فلانٌ ليس منهم، إنما جاء لحاجة، قال: هم القوم لا يشقى بهم جليسهم»**[٣].

---

(١) الطبراني في الكبير (١٨٢) والبيهقي في «الشعب» (١٥١٢) وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٣٢٢).

(٢) «المسند» (٩٧٧٢، ١١٨٩٢) ومسلم (٢٧٠٠) والترمذي (٣٣٧٨) وابن ماجه (٣٧٩١) والبيهقي في «الشعب» (٥٣٠) وابن أبي شيبة (١٠/٣٠٧).

(٣) البخاري (٦٤٠٨) ومسلم (٢٦٨٩) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٤٤٤).

ثواب الله تعالى للذاكرين والذاكرات

١١- وعن سهل بن الحَنْظَلِية ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما جلس قوم مجلسًا يذكرون الله ﷻ فيقومون، حتى يقال لهم: قوموا قد غفر الله لكم، وبُدلت سيئاتكم حسنات»**[١]

والمؤمن يسأل ربه أن يعينه على ذكره وشكره:

١٢- عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ: **«إني أحبك، لا تَدَعَنَّ أن تقول في دُبُر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»**[٢].

١٣- وفي حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«لِلطَّاعِم الشاكر مثل ما للصائم الصابر»**[٣].

والمؤمن يحمد ربه على العافية مما ابتلى به غيره:

١٤- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: من رأى صاحب بلاء فقال: **«الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به، وفضلني عليك وعلى جميع خلقه تفضيلًا، فقد أدى شكر تلك النعمة»**[٤].

والمؤمن يسجد لله شكرًا على نعمه:

١٥- عن أبي بكرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا جاءه أمر يَسُرُّه خَرَّ ساجدًا لله ﷻ شكرًا لله[٥].

والذكر غير منحصر في التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير وتلاوة القرآن، والتأمل في الكون، بل كل طاعة فيها ذكر لله تعالى فهي ذكر.

---

(١) الطبراني في الكبير (٣٠٦٩) وصححه الألباني في صحيح «الجامع الصغير» (٥٤٨٦)

(٢) «المسند» (٢٢١١٩) وأبو داود (١٥٢٢) والنسائي (١٣٠٢) وابن أبي الدنيا (١٩) والبيهقي في «الشعب» (٤٤١٠) وصحيح سنن أبي داود (١٣٤٧).

(٣) الترمذي (٢٤٨٦) وابن ماجه (١٧٦٤) والبيهقي (٤٤٦١) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٦٥٥).

(٤) ابن أبي الدنيا (١٨٧) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٦٠٢).

(٥) صحيح سنن أبي داود (٢٤١٢) والترمذي (١٥٧٨) وابن ماجه (١٣٩٤) وابن أبي الدنيا (١٣٥) والحاكم (٢٧٦/١).

التَّوْجِيهُ الثَّانِي: الاسْتِعَانَةُ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ عَلَى مُوَاجَهَةِ الشَّدَائِدِ

١٥٣ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾

وكان أول توجيه لهذه الأمة الوسط التي تشهد على الناس يوم القيامة، بعد تقرير شأن القبلة، هو الأمر بذكر الله تعالى، وشكره على نعمة الرسالة والهداية، ثم يأتي التَّوْجِيهُ الثاني للأمة بالاستعانة بالصبر والصلاة على الأمور الدينية والدنيوية؛ وفي ذلك إعداد للمسلم لتحمل الشدائد فيما يستقبل من أمره، وخصهما بالذكر؛ لأن العبد إما أن يكون في نعمة فيشكر الله عليها، أو يكون في نقمة فيصبر عليها.

ولذا جاء في الحديث عن صُهَيْب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«عجبًا للمؤمن، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرًا له، إن أصابته سراء فشكر كان خيرًا له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرًا له»**[(١)]

وهما أفضل ما يستعين بهما المؤمن على متاعب الأيام وتحمل المصائب، ولذا أمر الله تعالى بهما فقال: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾؛ لما فيهما من العون على سائر العبادات، اطلبوا العون من الله في كل أموركم.

فالصبر: حبْسٌ للنفس على احتمال المكاره، وتوطينها على تحمل المشاق في أداء الطاعات وتجنب المحظورات.

والصبر لازم لكل عبادة؛ حتى تُؤدَّى على أكمل وجه، (الصبر على أداء الطاعات)

والصبر لازم لكل ذنب مُحرَّم؛ حتى يكف عنه العبد، (الصبر على ترك المعاصي)

والصبر لازم لما يصيب الإنسان من آلام وأقدار وأذى من الناس، (الصبر على أقدار الله المؤلمة)

فالصبر هو المعونة العظيمة على كل أمر، ولا سبيل لغير الصابر أن يدرك مطلوبه إلا بالصبر، فالمعاصي لا يمكن تركها إلا بصبر، والطاعات لا يمكن أداءها إلا بصبر.. وهكذا.

---

(١) «المسند» (٢٣٩٢٤، ١٨٩٣٩، ١٨٩٣٤) ومسلم (٢٩٩٩) والبيهقي (٤٤٨٧) والدارمي (٢/ ٣١٨) وابن حبان (٢٨٩٦).

ولذا فإن الله تعالى يوفِّي الصابرين أجرهم بغير حساب، والله مع الصابرين بعونه وحفظه ورعايته وتوفيقه وتسديده، وهذه معية خاصة بالمؤمنين.

أما المعية العامة فهي لجميع الخلق، معية العلم والمعرفة والقدرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ۝١٢٨﴾ [النحل] ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤].

أما الاستعانة بالصلاة فلأنها الصلة المباشرة بين العبد وربه، ولأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وفيها الراحة والطمأنينة، وهي عماد الدين، ونور المؤمنين،

ولذا: فإن النبي ﷺ كان إذا حزَبهُ أمر فزع إلى الصلاة، وكان يقول: يا بلال، أقم الصلاة وأرحنا بها.

قيل في سبب نزول الآية: إنها نزلت لما قال المشركون: (سيرجع محمد إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا).

قال ابن عباس ﷺ: (استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على أداء الفرائض والصلاة).

التَّوْجِيهُ الثَّالِثُ: تَرْبِيَةُ النُّفُوسِ عَلَى حُبِّ الشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ

١٥٤- ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ۝١٥٤﴾

ومن أعظم أنواع الصبر: الصبر على الجهاد في سبيل الله، وهو مثل ضربه الله تعالى للاستعانة عليه بالصبر، والأمة المسلمة بحاجة إلى شحْذ الهمم، وتقْوية العزائم في مواجهة أعداء الله؛ لنشر الدعوة الإسلامية، وإزالة المعوقات أمامها، والجهاد أفضل الطاعات وأشقها على النفوس، لأنه يؤدي إلى القتل.

ولما استُشهد في غزوة بدر ستة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار، وكان الناس يقولون: مات فلان، وذهب عنه نعيم الدنيا فأنزل الله سبحانه الآية[1]؛ لتبيِّن أنهم أحياء يرزقون، تصل أرواحهم إلى الجنات، تسرح فيها في حواصل طير خضر، وحياتهم حياة حقيقية عند عالم الغيب والشهادة، وإن كنا لا نشعر بذلك؛ لأنه فوق مداركنا، ومن ثَمَّ فهم لا يُغسَّلون كالموتى، ويُكفَّنون في ثيابهم التي استُشهِدوا فيها، فهم أحياء، يُحشرون

(١) النيسابوري ص٣٧ .

على هيئتهم، اللون لون الدم، والريح ريح مسك، وهم يُرزقون كما نُرزق، ويفرحون كما نفرح.

في حديث كعب بن مالك ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر، ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل معلقة في ظل العرش»**[1].

والشهيد يتمنى أن يعود إلى الدنيا فيُقتل عشر مرات؛ لما يرى من الكرامة عند الله، ومن قُتل في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، فإنه يترك هذه الحياة المحبوبة لديه إلى حياة أعظم وأكمل، هي الدار الآخرة، فالشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، يلازمهم الفرح والسرور، ويزول عنهم الخوف والحزن، وأرواح الشهداء وهم في الحياة البرزخية، في حواصل طير خضر، ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوى إلى قناديل معلقة بالعرش، والله تعالى قد اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، وسُجِّل هذا العقد في التوراة والإنجيل والقرآن، فلو كان للإنسان ألف نفْسٍ فذهبتْ نَفْسًا نَفْسًا في سبيل الله، لَمَا كان هذا أعظم من هذا الثواب الجزيل والنعيم المقيم، ولذا فإن الشهيد يتمنى ذلك!!

والمراد بالشهيد: من يُقتل بأيدي الكفار في معركة بين المسلمين وغيرهم؛ لإعلاء كلمة الله، ونصرة دينه، بلا رياء ولا سمعة، ولا عصبية ولا تفاخر.

وقد كره النبي ﷺ كما في حديث أبي عقبة وهو غلام فارسي أن يذكر جنسيته في ساحة القتال حين ضرب مشركًا، وقال له: خذْها وأنا الغلام الفارسي، فقال ﷺ:

«هلا قلت: وأنا الغلام الأنصاري، إن أخا القوم منهم...»[2]

وهذا هو التَّوْجِيهُ الثالث لجماعة المؤمنين.

---

(١) جاء هذا بألفاظ مختلفة وزيادة ونقص في «المسند» (١٥٧٧٨، ١٥٧٨٧، ٢٧١٦٦) و«الموطأ» (١/ ٢٤٠) والترمذي (١٦٤١) والنسائي (٢٠٧٠٢) و«مصنف عبد الرزاق» (٩٥٥٣، ٩٥٥٦) و هو في «صحيح مسلم» برقم (١٨٨٧) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) «المسند» (٢٢٥١٥) وابن أبي شيبة (١٢/ ٥٠٥) وأبو داود (٥١٢٣) وابن ماجه (٢٧٨٤) وأبو يعلى (٩١٠) ومثل هذه القصة في حديث سهل بن الحنْظليَّة برقم (١٧٦٢٢) قال محققو «المسند»: وإسناده محتمل للتحسين.

التَّوْجِيهُ الرَّابِعُ: تَرْبِيَةُ النُّفُوسِ عَلَى تَحَمُّلِ الأَحْدَاثِ الجِسَامِ

١٥٥ - ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾

أما التَّوْجِيهُ الرابع في تربية النفوس لمواجهة الأحداث الجسام، فهو الصبر على ما يصاب به الأفراد والجماعات بشيء ولو قليل من الخوف من العدو، أو مما قد يحيق بالإنسان من مكروه وألم، أو نقص في الأرزاق، أو تلف وهلاك للأموال، أو موت وقتل للأبناء، أو قلة في الثمار.. إذ لا بد أن يبتلى الله العبد ببعض المحن، ليتبيّن الصادق من الكاذب، والجازع من الصابر، وهذه سنة الله في خلقه، وحكمته تقتضي تمييز أهل الخير من أهل الشر ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ﴾ يسير ﴿مِّنَ الْخَوْفِ﴾ من العدو ﴿وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ عند نزول البلاء؛ ولو ابتلاهم الله بالخوف كله، أو الجوع كله، لهلكوا، والمطلوب هو التمحيص وليس الهلاك.

فالله تعالى يبتلي عباده لتمحيصهم، أو رفع درجاتهم، كما قال تعالى:
﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد].

والابتلاء يكون تارة بالسراء وتارة بالضراء،وتارة بالفقر وتارة بالغنى،وتارة بالمرض وتارة بالصحة،وتارة بالهزيمة وتارة بالنصر، وهكذا، وعند وقوع هذا الابتلاء يكون الناس فريقين : جازعين وصابرين، فالجازع تقع به المصيبة ويفوته الأجر بخلاف الصابر.

والله سبحانه أعلم بهؤلاء الصابرين في الشدة والرخاء والبأساء والضراء، وسيوفيهم أجورهم كاملة.

عِظَمُ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ

١٥٦ - ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾

ثم وصف الله الصابرين فبيَّن أنهم: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ فهم يُقرون بأنهم مملوكون لله تعالى، يتصرف فيهم كيف يشاء، فليس لنا من أنفسنا وأموالنا شيء، فإذا أخذ الله شيئًا منها، فقد تصرّف في ماله ومملوكه، فلا اعتراض عليه، فله الحمد والشكر، وهم يعتقدون أنهم راجعون إليه سبحانه في الآخرة، ومثابون

على صبرهم وابتلائهم، فلا يزال البلاء بالمؤمن في نفسه وماله وولده؛ حتى يلقى الله وما عليه خطيئة.

وَاللَّهُ تَعَالَى يَخْلُفُ على مَنْ يُفَوِّضُ أَمْرَهُ إِلَى اللَّهِ، خَيْرًا مِنْ مُصِيبَتِهِ:

١- عن أم سلمة ﷺ قالت قال رسول الله ﷺ: **«لا يصيب أحدًا من المسلمين مصيبةٌ فيسترجع عند مصيبته، ثم يقول: اللهم أجُرنى في مصيبتي، وأخلف لي خيرًا منها إلا فعل ذلك به»** قالت أم سلمة: فحفظتُ ذلك منه، فلما تُوُفِّيَ أبو سلمة، استرجعت، وقلت: اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرًا منها، ثم رجعت إلى نفسي فقلت: من أين لي خير من أبي سلمة؟ فلما انقضتْ عدتي، استأذن عليَّ رسول الله ﷺ وأنا أدبُغ ثيابًا لي، فغسلتُ يدي من القرظ وأذنتُ له، فوضعتُ له وسادة أدم، حشوها ليف فقعد عليها، فخطبني إلى نفسي، فلما فرغ من مقالته قلتُ: يا رسول الله، ما بي ألَّا يكون بك الرغبة، ولكني امرأة فيَّ غيرة شديدة، فأخاف أن ترى مني شيئًا يعذبني الله به، وأنا امرأة قد دخلْتُ في السن، و أنا ذو عيال، فقال: **«أمَّا ما ذكرْتِ من الغيرة فسوف يُذهبها الله ﷻ عنك، وأما ما ذكرْتِ من السن فقد أصابني مثل الذي أصابك، وأما ما ذكرت من العيال فإنما عيالُكِ عيالي»**، قالت: فقد سلمتُ لرسول الله، فتزوجها رسول الله ﷺ فقالت أم سلمة بعد: أبدلني الله بأبي سلمة خيرًا منه، رسول الله ﷺ[١].

٢- وفي صحيح مسلم عن أم سلمة ﷺ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرًا منها إلا آجره الله في مصيبته وأخلف له خيرًا منها»**[٢].

وأشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل:

٣- عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: **«الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، حتى يُبتلى الرجل على قدْر دينه، فإن كان صُلْبَ**

---

(١) «المسند» (٤/٢٧) برقم (١٦٣٤٤) والبيهقي في «الشعب» (٩٦٩٧) قال محققو «المسند»: رجاله ثقات إلا أن المطلب وهو ابن عبد الله بن حنطب روايته مرسلة عن بعض الصحابة.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٩١٨).

الدين، اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة، ابتُلي على حسب ذلك، أو قدْر ذلك، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»[(١)].

والصابر المحتسب له بيت في الجنة يسمى بيت الحمد:

٤- في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«قال الله تعالى: يا ملك الموت، قبضتَ ولد عبدي، قبضت قرة عينه وثمرة فؤاده؟ قال: نعم، قال: فماذا قال؟ قال: حمدك واسترجع، قال: ابنوا له بيتًا في الجنة، وسموه بيت الحمد»**[(٢)].

والمصائب تكفر الذنوب والخطايا:

٥- في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب، ولا هم ولا حزن، ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفَّر الله بها من خطاياه»**[(٣)].

وأعظم الصبر يكون عند الصدمة الأولى:

٦- عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ رأى امرأة تبكي على صبي لها، فقال: **«اتقي الله واصبري»** فقالت: وما تبالي أنت بمصيبتي، فلما ذهب قيل لها: إنه رسول الله، فأخذها مثلُ الموت، فأتت بابه، فلم تجد عليه بوابين، فقالت: لم أعْرِفْك يا رسول الله، فقال: **«إنما الصبر عند أول صدمة»**[(٤)].

والطفل الذي مات يفتح أبواب الجنة لأبيه في دار النعيم:

٧- عن معاوية بن قُرَّة عن أبيه قال: كان رجل يختلف إلى رسول الله ﷺ ومعه بُنَيٌّ له،

---

(١) أبو داود الطيالسي برقم (٢١٥) بإسناد حسن، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣/ ٢٣٣) و«المسند» برقم (١٤٨١) بإسناد حسن و«صحيح سنن ابن ماجه» برقم (٣٢٤٩) والحاكم (٤/ ٣٠٧) وصححه، ووافقه الذهبي، وقال البوصيري: هذا إسناد حسن صحيح ورجاله ثقات وأخرجه غيرهم.

(٢) «المسند» برقم (١٩٧٢٥) بإسناد ضعيف، لضعف أبي سنان، (محققوه) والترمذي (١٠٢١) والبيهقي في «الشعب» (٩٧٠٠) وهو حديث حسن عند الألباني كما في «صحيح سنن الترمذي» (٨١٤).

(٣) البخاري (٥٦٤١، ٥٦٤٢) ومسلم (٢٥٧٣).

(٤) البخاري (١٢٥٢، ٧١٥٤) ومسلم (٩٢٦) وأبو داود (٣١٢٤) والترمذي (٩٨٨) والنسائي (١٨٦٨) و«المسند» (١٣٢٧٣، ١٢٤٥٨، ١٢٣١٧).

فقال له رسول الله ﷺ ذات يوم: «**أتحبه؟**» قال: يا رسول الله، أحبك الله كما أُحِبه، ففقدَهُ رسول الله ﷺ فقال: «**ما فعل ابن فلان؟**» قالوا: مات، قال: فلقيه النبي ﷺ فقال: «**أما تحب ألا تأتي بابًا من أبواب الجنة تستفتحه إلا جاء يسعى حتى يفتحَه لك؟ قالوا: يا رسول الله، أَلَهُ وحده أم لِكُلِّنا؟ قال: بل لِكُلِّكُم**»[1].

والجنة جزاء من يفقد حبيبه إذا احتسبه عند الله تعالى:

٨- فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**قال الله ﷻ: ما لعبدي المؤمن عندي جزاءٌ إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا، ثم احتسبه إلا الجنة**»[2].

٩- و عن حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أُثكِلَ ثلاثةً من صُلبه، فاحتسَبَهم على الله، وجبتْ له الجنة**»[3].

١٠- و عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من مات له ثلاثة من الولد فاحتسبهم دخل الجنة** قلنا: يا رسول الله، اثنان؟ قال: «**واثنان**»[4].

١١- وعن أبي سلمى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**بَخٍ بَخٍ لخمس ما أثقلهن في الميزان: لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله، والحمد لله، والولد الصالح يُتَوَفَّى للمؤمن فيحتسبه**»[5].

هذا: والجزاء على الأعمال يكون في الآخرة، أما مصائب الدنيا فأسبابها دنيوية، وقد تكون للتخفيف من عذاب الآخرة، وقد تكون لرفع درجات المؤمن، وقد صدَّر الله هذه الآية بذكر الابتلاء؛ توطينًا للنفس للصبر عليه، وإذا علم العبد أنه سيبتلى اشتد خوفه، فعظُم جزاؤه، وَذِكْرُ البلاء قبل وقوعه، إخبار بالغيب، ولكي يتميز المنافق من غيره. قال تعالى:

---

(١) «المسند» (١٥٥٩٥) والنسائي (٢٠٨٧، ١٨٦٩) والحاكم (١/ ٣٨٤) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٧٥٤، ٩٧٥٣) قال محققو «المسند»: إسناده صحيح.

(٢) البخاري (٦٤٢٤).

(٣) الطبراني (٨٢٩) و«المسند» (١٧٢٩٨) قال محققوه: حديث صحيح.

(٤) البيهقي في «الشعب» (٩٧٤٥) و«المسند» (١٤٢٨٥) قال محققوه: صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن رجاله رجال الصحيح غير محمد بن إسحاق فقد روى له أهل السنن.

(٥) البيهقي في «شعب الإيمان» (٨٧٥٥) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٢٠٤).

١٥٧- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾

أي أن الموصوفين بالصبر عند نزول البلايا والمحن، عليهم ثناء من الله ورحمة عظيمة، فهم الذين عرفوا الحق، وعلموا أنهم راجعون إلى الله، وبالمقابل فإن من لم يصبر يحصل له الضلال والخسران.

قال سعيد بن جبير: لقد أُعطيَتْ هذه الأمة عند المصيبة شيئًا لم يعطه الأنبياء قبلهم ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ ولو أُعطيها الأنبياء، لأُعطيها يعقوب، ألم تسمع إلى قوله: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤].

وهؤلاء الذين يفوضون أمرهم إلى الله، ويعلنون أنهم راضون بما ينزل بهم من المصائب تشملهم مغفرة الله تعالى وفضلُه ورحمته وإحسانه، وهم المهتدون إلى الحق والصواب.

وإنَّ عِظَم الجزاء مع عظم البلاء، وإذا أحب الله قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضى، ومن سخط فله السخط، وإذا أراد الله بعبد خيرًا عجَّل له العقوبة في الدنيا، وأشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل...

والمؤمن الصابر إذا أصابه ما يكره قال: إنا عبيد، مملوكون لله، مدبَّرون بأمره وتصريفه، يفعل بنا ما يشاء، وإنا له راجعون بالموت، ثم بالبعث للحساب والجزاء، أولئك الصابرون لهم ثناء من ربهم ورحمة واسعة، وهم المهتدون إلى الرشاد والفلاح.

فعلى الإنسان أن يوطن نفسه على الصبر لتسهل عليه النوازل ويفوز بالأجر.

سِتٌّ مِنْ قَوَاعِدِ الإِيمَانِ الصَّحِيحِ

١٥٨- ﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ[1] خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾

الصفا والمروة جبلان معروفان - قد زال معظمهما في العصر الحاضر- وهما من

(١) قرأ حمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر (ومن يطَّوعْ) على أنه فعل مضارع مجزوم بـ(مَنْ) الشرطية، وقرأ الباقون (ومن تطوَّعَ) على أنه فعل ماض في محل الجزم بـ(مَنْ) الشرطية، أو صلة لـ(مَنْ) على أنها اسم موصول.

أعلام دين الله وشعائره التي تعبّد الله بها عباده، وتعظيم شعائر الله من تقوى القلوب، ولمّا كانت الأصنام تُعبد عند هذين الجبلين في الجاهلية، فقد نفى الله الحرج عمّن يسعى بينهما في الحج والعمرة فرضًا أو نافلة، بعد أن شرع الإسلام ذلك، ولا يُشرع السعي بدون طواف، كما لا يشرع بدون حج أو عمرة، بخلاف الطواف فإنه يُتعبد به بدون السعي، وبدون حج أو عمرة.

وقوله تعالى ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ لا يعود على السعي، لأنه لا يُتعبد به نافلة، كما قال ﷺ (خذوا عني مناسككم) ولم يؤثر عن النبي ﷺ انه سعى بين الصفا والمروة بدون طواف للحج أو العمرة.

والمراد بالتطوع في الآية: فعل الطاعة من حج أو عمرة أو طواف أو صلاة أو صوم أو صدقة.. الخ، والله تعالى يقبل اليسير من عباده ويثيب عليه.

ثم أخذت السورة تستهدف تصحيح عدد من القواعد التي يقوم عليها الإيمان الصحيح، هي من تمام النعمة والهداية التي أشارت إليها الآية السابقة ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ وهي من بشرى الاستعانة بالصبر والصلاة على تحمل المصائب والشدائد ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ وفيها تصريح ضمني بأن المسلمين سيفتحون مكة، ويقيمون مناسك الحج التي كان عليها إبراهيم، وقد أحيا النبي ملته وجُعلت الصلاة إلى قِبلته، وهذا السعي شعيرة من شعائر الحج والعمرة.

فالآية ليست منقطعة عن سياق الآيات قبلها تفيد حكمًا جديدًا، وإنما هي من تتمة الموضوع بتأكيد البشارة، والكلام موصول عن إبراهيم خليل الرحمن.

وهذه الآية نزلت قبل أن يُفرض الحج على المسلمين، وهي من الآيات التي أمر النبي ﷺ بإلحاقها ببعض السور؛ لأنها نزلت قبلها بمدة، وقد حدث بين المسلمين تردد في فهم وتطبيق هذه الآية يوم حجة الوداع.

ولإقامة هذه الشعيرة في الإسلام، وهي فريضة الحج لا بُدَّ من تصحيح أوضاع كانت سائدة في الجاهلية.

وهذه ست قواعد مما كان عليه أهل الجاهلية، جاءت في الآيات التالية:

القَاعِدَةُ الأولى: مشروعية السعي بين الصفا والمروة بعد أن كان عليهما صنمان.

القَاعِدَةُ الثانية: عدم كتمان العلم، لا سِيَّمَا ما في التوراة والإنجيل من أوصاف محمد ﷺ.

القَاعِدَةُ الثالثة: وحدانية الخالق والتوصل إلى ذلك بقراءة الكتاب المنظور.

القَاعِدَةُ الرابعة: محبة العبد لربه تفوق كل محبة.

القَاعِدَةُ الخامسة: مسؤولية كل إنسان عن نفسه.

القَاعِدَةُ السادسة: التحليل والتحريم حق لله وحده.

القَاعِدَةُ الأُولَى: مَشْرُوعِيَّةُ السَّعْيِ بَيْنَ الصَّفَا وَالمَرْوَةِ بَعْدَ أَنْ كَانَ عَلَيْهِمَا صَنَمَانِ

وقد ورد في **أسباب النزول**:

أنه كان على الصفا والمروة صنمان يقال لهما: إساف ونائلة؛ إساف على الصفا، ونائلة على المروة، وكان أهل الجاهلية يطوفون بين الصفا والمروة ويستلمونهما تعظيمًا للصنمين، فلما جاء الإسلام وكُسِّرت الأصنام، تحرَّج المسلمون من السعي بين الصفا والمروة، فأنزل الله هذه الآية، وأذِن في السعي بينهما وأخبر سبحانه أنه من شعائر الله[١].

١- قال ابن اسحاق: إن إساف ونائلة كانا بشرين فزنيا داخل الكعبة فَمُسِخا حجرَيْن، فنصبتْهما قريش تجاه الكعبة؛ ليعتبر بهما الناس، فلما طال العهد عُبدا، ثم حُوِّلا إلى الصفا والمروة، فكان من طاف بينهما يستلمهما[٢].

٢- وقال ابن جُريْج: كان إساف ونائلة، رجلًا وامرأة دخلا الكعبة، فقبَّلها فيها، فمُسِخا حجرين، فأُخرجا من الكعبة، فنُصِب أحدهما في مكان زمزم، ونُصِب الآخر في وجه الكعبة؛ ليعتبر بهما الناس[٣].

٣- وقال عامر الشعبي: كان وثَن بالصفا يُدْعى إسافًا، ووَثنٌ بالمروة يُدْعى نائلة، فكان

---

(١) «تفسير الخازن» و"تفسير ابن كثير" عن الشعبي وكذا ابن الجوزي في "زاد المسير".

(٢) «السيرة النبوية» لابن إسحاق، ص٤ .

(٣) أخرجه الأزرقي (١/ ٣٦٧).

أهل الجاهلية إذا طافوا بالبيت يَسْعَوْن بينهما ويمسحون الوثَنين، فلما قدم النبي ﷺ قالوا: يا رسول الله، إن الصفا والمروة إنما كان يُطاف بهما من أجل الوثَنين، وليس الطواف بهما من الشعائر فأنزل الله ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ فَذُكِّر الصفا من أجل الوثن الذي كان عليه، و أُنثت المروة من أجل الوثن الذي كان عليها[1].

ومن الأحاديث الواردة في ذلك:

١- وفي البخاري وغيره عن عاصم بن يسار، قال: سألت أنسًا عن الصفا والمروة قال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما جاء الإسلام أمسكْنا عنهما، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾[2].

٢- وجاء في صحيح مسلم من حديث جابر رضي الله عنه، وفيه: أن رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه بالبيت، عاد إلى الركن فاستلمه، ثم خرج من الباب إلى الصفا وهو يقول: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ الآية، ثم قال: **«أبْدَأ بما بدأ الله به، وسَعَى بينهما»**[3].

وقد كان بين مكة والمدينة صنم يقال له: مناة، وكان بعض الأنصار قبل الإسلام لا يسعى بين الصفا والمروة تعظيمًا لمناة، فلما جاء الإسلام، سأل رجال من الأنصار رسول الله ﷺ: إنا كنا لا نطوف بين الصفا والمروة تعظيمًا لمناة، فهل علينا من حرج أن نطوف بهما؟ فنزلت هذه الآية.

٣- صح عن عائشة ﵂ أنها قالت: كان رجال من الأنصار ممن كان يُهِلُّ لمناة في الجاهلية -ومناة صنم بين مكة والمدينة- قالوا: يا نبي الله، إنا كنا لا نطوف بين الصفا والمروة تعظيمًا لمناة، فهل علينا من حرج أن نطوف بهما؟ فأنزل الله الآية، قال عروة: فقلت لعائشة: ما أُبالي ألا أطوف بين الصفا والمروة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ فقالت: يا بن أختي، ألا ترى أن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾[4].

---

(١) أثر مرسل أخرجه سعيد بن منصور في تفسيره (٢٣٤) و«تفسير الطبري» (٢/ ٧١٤).

(٢) البخاري (١٦٤٨، ٤٤٩٦) والترمذي (٢٩٦٦) وابن أبي حاتم (١٤٣٢) والطبري (٢/ ٧١٥) وغيرهم.

(٣) من حديث طويل في «صحيح مسلم» برقم (١٢١٨).

(٤) مسلم (٢١٧٧) والترمذي (٢٩٦٥) والطبري (٢/ ٧١٩) واللفظ له، والبيهقي في السنن (٥/ ٩٦).

٤- وأخرج الشيخان وغيرهما عن عروة بن الزبير أنه قال: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ﴾ فما أرى على أحد شيئًا أن لا يطوف بهما، فقالت عائشة: لو كانت كما تقول؛ كانت فلا جناح عليه أن لا يطوَّف بهما، ولكنها أنزلت في الأنصار: كانوا يُهلُّون لمناة، وكانت مناة حذْوَ قُديد، وكانوا يتحرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام، سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فأنزل الله الآية، قالت عائشة: وقد سَنَّ رسول الله الطواف بهما، فليس لأحد أن يدع الطواف بهما(١).

وقال أنس بن مالك: كنا نكره الطواف بين الصفا والمروة؛ لأنهما كانا من مشاعر قريش في الجاهلية، فتركناه في الإسلام، فأنزل الله الآية(٢).

ويتبين من أسباب النزول هذه وغيرها أن بعض المسلمين تحرَّج من السعي بين الصفا والمروة لأسباب، من أهمها: أنهما صنمان أتى بهما عمرو بن لحي إلى مكة من الشام، وأن هذا السعي كان من شعائر الناس في الجاهلية، فقد كان بعضهم يُحْرِمُ مِنْ مناة حذْوَ قُديد؛ ثم يسعى بينهما ليتمسح بالصنميْن، وكان العرب يذبحون لهما.

ومنها: قصة إساف ونائلة وأنهما أصل الصنمين على رواية ابن إسحاق وغيره؛ فنزلت هذه الآية لتزيل الحرج الذي تردد في الصدور، وتُبيِّن أن ما حدث في الجاهلية مما صححه الإسلام وأزال أسبابه ولم يعد له بقاء، كما أن الكعبة نفسها كانت تعج بالأصنام، فلا يمنع هذا من أنهما صارا في الإسلام شعيرة من شعائر الحج والعمرة، فلا إثم على المسلم أن يسعى بينهما.

وجمهور الفقهاء على أن السعي ركن من الأركان، وذهب الحنفية إلى أن السعي واجب يجبر تركه بدم؛ لأن رفع الجناح معناه أنه مأذون فيه، وغير منهي عنه، فيصدُق هذا على الوجوب، وهو شعيرة من المناسك.

---

(١) البخاري برقم (١٦٤٣، ٤٤٩٥، ٤٨٦١) ومسلم برقم (١٢٧٧) و«المسند» (٦/ ١٤٤) برقم (٢٥١١٢، ٢٥٩٠٥) ومالك (١/ ٣٧٣) وأبو داود (١٩٠١) والنسائي (٢٩٦٧) وغيرهم.

(٢) يُنظَر: «صحيح مسلم» (١٢٧٨) وعبد بن حميد في المنتخب (١٢٢٤).

والصفا والمروة جبلان صغيران قرب الكعبة من جهة الشرق، الصفا منتهى جبل أبي قبيس، والمروة منتهى جبل قُعَيْقَعان، والصفا في اللغة: الحجر الأملس، والمروة: الحجر الأبيض اللين.

فالآية تشير إلى رفع الحرج عمن سعى بينهما في حَجه وعُمرته على سبيل الوجوب أو التطوع ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ أي: من شرائعه في مناسك الحج.

وينفي القرآن الحرج الذي كان عالقًا بالنفوس من السعي بين الصفا والمروة ﴿فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾ أي: لا إثم، ولا حرج على الحاج أوالمعتمر ﴿أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ وفي هذا طمأنة إلى أن السعي بينهما من الخير الذي يَرْضى الله تعالى عنه، ويثيب عليه، و هو من فعل الخير ،يحمل هذا المعنى ختام الآية ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ في حجه وعمرته فزاد في الطواف بالبيت عن الفريضة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ يجزل له الأجر والمثوبة.
والسعي عبادة لا تتكرر، أي: لا يأتي المسلم زيادة على السبعة، ولا يأتي بسبعة مستقلة نفلًا، بخلاف الطواف، فإنه يُتعبدُ به، وإن لم يكن المسلم حاجًا ولا معتمرًا.

والأصل في هذا السعي: أن هاجر أخذت تتردد بين الصفا والمروة طلبًا للماء لولدها لما نفد ماؤه وزاده، وكان إبراهيم قد أتى بهما من فلسطين وتركهما في هذا المكان وليس عندهما أحد، فلما نفد ما عندها قامت تطلب الغوث، فلم تزل تتردد بين الصفا والمروة حتى كشف الله كربتها وأنبع لها ماء زمزم طعامًا وشفاءً وشرابًا.

قال سعيد بن جبير: أقبل إبراهيم ومعه هاجر وإسماعيل ﷺ، فوضَعَهم عند البيت، فقالت: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قال: فعطش الصبي، فنظرت فإذا أقرب الجبال إليها الصفا، فسعَتْ سعيًا حثيثًا، فرَقَتْ على الجبل، فنظرت من فوق الجبل، فلم تر شيئًا، قال: فهي أول من سعى بين الصفا والمروة، ثم أقبلت فسمعتْ حَفيفًا - أي: صوتًا- أمامها، قالت: قد أسمع، فإن يكن هناك غياث فهلُمَّ، فإذا جبريل أمامها يركُض زمزم بعَقبِه، فنبع الماء، فجاءت بشن لها - أي بِقرْبة أو نحوها- تقْرِشُ فيه الماء- أي: تجمع الماء وتضعه في هذا الإناء المصنوع من الجلد- فقال لها جبريل: تخافين

العطش؟ هذا بلَدُ ضيفان الله لا يخافون العطش(١).

القَاعِدَةُ الثَّانِيَةُ مِنْ قَوَاعِدِ الإِيمَانِ الصَّحِيحِ: عَدَمُ كِتْمَانِ العِلْمِ

١٥٩- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩﴾

وهذه القَاعِدَةُ تتعلق بكتمان العلم بشكل عام لكل من كتم علمًا دينيًا أو دنيويًّا فيه خير العباد ونفعهم في الدنيا والآخرة، ومن ذلك كتمان اليهود لأوصاف النبي في التوراة، فاليهود لا تنقطع دسائسهم عند تحويل القبلة وغيرها، بل تمتد إلى شتى الميادين وأهمها: أنهم يعرفون محمدًا أكثر مما يعرفون أبناءهم، كما أخبرهم رب العالمين في التوراة والإنجيل، ولكنهم يكتمون ذلك حسدًا للنبي ﷺ؛ لكونه من العرب، وحرصًا على مكانتهم بين الناس، وهؤلاء هم من قال الله فيهم: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾.

قال أبوالعالية في معنى الآية: هم أهل الكتاب كتموا محمدًا ونعْته وهم يجدونه مكتوبًا عندهم حسدًا وبغيًا(٢).

قال ابن عباس: نزلت في رؤساء اليهود كتموا ما أنزل الله في التوراة من البينات والهدى؛ وصفة هذا الكتمان هو التحريف والتأويل وحمل الأوصاف التي وردت في النبي ﷺ على غيره، حتى إذا سئلوا عنه، قالوا: لا، ومن ذلك صفة محمد ﷺ، وآية الرجم، وغيرها من الأحكام.

وقال قتادة: هم أهل الكتاب كتموا الإسلام وهو دين الله، وكتموا محمدًا وهم يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل(٣).

وفي حديث أبي هريرة، وعبد الله بن عمرو، وأنس، وأبي سعيد ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**من سُئل عن علم فكتمه أُلجم يوم القيامة بلجام من نار**»(٤).

---

(١) أخرجه الخطيب في (تالي التلخيص) عن سعيد بن جبير كما في «الدر المنثور» (٢/ ٩٤)

(٢) الطبري (٢/ ٧٣١).

(٣) ابن سعد (١/ ٣٦٢) والطبري (٢/ ٧٣١).

(٤) «صحيح سنن ابن ماجه» عن أنس برقم (٢١٢) وأبو يعلى (٢٥٨٥) والطبراني (١١٣١٠) عن ابن عباس قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٦٣): رجال أبي يعلى رجال الصحيح وأخرجه الترمذي (٢٦٤٩) وابن ماجه (٢٦١) والحاكم (١/ ١٠١) عن أبي هريرة.

وفي الصحيح وغيره عن أبي هريرة ﷺ قال: «**لولا آيتان في كتاب الله ما حدثتُ حديثًا**» وقرأ الآية[(١)].

وقد أخذ الله الميثاق على بني إسرائيل أن يبينوا التوراة ولا يُخْفُوها، وكما أن العالِم يستغفر له كل شيء حتى الحيتان في البحر فإن هؤلاء ﴿يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ من أهل السموات والأرض جميعًا.

جاء عن البراء بن عازب ﷺ قال: كنا مع النبي ﷺ في جنازة فقال: «**إن الكافر يُضْرِبُ ضربة يسمعها ما بين المشرق والمغرب إلا الثقلين**»[(٢)].

وهذا الوعيد يتعلق بكل من كتم شيئًا من أمر الدين من المسلمين، سِيَّمَا عدم تبليغ دعوة الإسلام عبر جميع وسائل الإعلام الحديثة في عصرنا بلغات العالم أجمع.

والكتمان هو: ترك إظهار الشيء مع الحاجة إلى بيانه، ومن كتم شيئًا من أمور الدين فقد عَظُمتْ مصيبته.

وكان معاذ بن جبل، وسعد بن معاذ، وخارجة بن زيد، قد سألوا اليهود عن أوصاف النبي ﷺ في التوراة فكتموا ذلك مع وجودها عندهم وعِلْمهم بها[(٣)].

كما كتم اليهود حكم رجم الزاني المحصن في التوراة، وكتموا أمر تحويل القبلة مع علمهم بها في كتبهم، وكان الله قد أخذ الميثاق على أهل الكتاب أن يبينوا ما عندهم من العلم ولا يكتموه ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾[آل عمران: ١٨٧] فحقت عليهم لعنة الله.

قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ﴾ أي: الذين نبذوا ميثاق الله وراء ظهورهم، وكتموا ما أنزل الله

---

(١) البخاري برقم (٧٣٥٤، ٢٤٧، ١١٨) ومسلم برقم (٢٤٩٢) وابن ماجه (٢٦٢) والحاكم (٢/ ٢٧١) وابن سعد (٢/ ٣٦٢) وغيرهم.

(٢) من حديثه الطويل في سنن أبي داود برقم (٤٧٥٣) صححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣٩٧٩) والنسائي في السنن (٤/ ٧٨).

(٣) يُنظَر: تفسير الألوسي (٢/ ٢٦) و«سيرة ابن هشام» (١/ ٥٥١) والطبري (٢/ ٧٣٠) وابن أبي حاتم (١٤٣٩).

من العلم ﴿يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ﴾ أي: يطردهم ويبعدهم من رحمته ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ أي: جميع الخلائق من الإنس والجن وغيرهم.

كما أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الطير في الهواء، فالعالم لا يكتم علمًا، ويحدث الناس بما يعرفون، ويضع العلم في موضعه اللازم، فيقدم الأصول على الفروع، والكليات على الجزئيات، ويفتي بما يناسب حال السائل؛ فإن النبي ﷺ سئل عن أحب الأعمال إلى الله تعالى؛ فكانت إجابته مختلفة من شخص لآخر، فقال مرة: «**الصلاة لوقتها**»، وقال مرة: «**بر الوالدين**»، فلعل الأول كان غير حريص على أداء الصلاة في وقتها، ولعل الثاني كان عاقًا لوالديه وهكذا. قال تعالى:

١٦٠- ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠)﴾

ثم استثنى سبحانه الذين رجعوا عن الكفر إلى الإسلام، ورجعوا عماهم عليه من الذنوب، وندموا على ما فعلوا، وأصلحوا ما بينهم وبين الله والناس، وبينوا ما كتموه من العلم، فأولئك يتجاوز الله عنهم ويقبل توبتهم ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ مستغفرين عن خطاياهم نادمين على ما فعلوا، عازمين على عدم العودة إليه ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ ما أفسدوه ﴿وَبَيَّنُوا﴾ للناس ما كتموه مما أنزل الله تعالى ﴿فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أتوب على من تاب فأرحمه وأقبل توبته، ومن رحمته تعالى أن وفقهم للتوبة والإنابة، فتابوا وأنابوا.

الخُلُودُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ لِمَنْ مَاتَ عَلَى الكُفْرِ

١٦١- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ[١] لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾

أما من أصر منهم على كفره، فلم يدخل في حظيرة الإسلام، واستمر على حاله إلى مماته وصار الكفر وصفًا ثابتًا لهم، فقد استوجب غضب الله تعالى، والطرد من رحمته، ووجبت عليه لعنة الله وجميع خلقه ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: جحدوا الإيمان بالله ورسوله، وكتموا الحق فلم يبينوه للناس، واستمروا على ذلك حتى الموت ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أما قبل الغرغرة وقبل الموت فإن الله يقبل التوبة حتى من الكافر والمشرك والمبتدع. قال تعالى:

(١) قرأ حمزة ويعقوب بضم الهاء من (عليهم) وصلًا ووقفًا وكسرها الباقون في الحالين.

١٦٢- ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

وهذا حكم من مات على الكفر، فهو خالد في اللعنة، وخالد مخلد في نار جهنم؛ فلا يخفف عنه العذاب، ولا يُنظَر ولا يُمهَل؛ نتيجة استحقاقه للعنة الله والملائكة والناس أجمعين، بسبب أنه مات على الكفر، وأغلق باب التوبة المفتوح، وفوَّت الفرصة على نفسه ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ فهو في اللعنة والغضب الدائم ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ بل هو عذاب دائم شديد مستمر في نار جهنم ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ فيمهلون أو يعذرون، لأن وقت الإمهال الذي كان في الدنيا قد مضى، فاستحق هذه اللعنة وهذا العذاب الدائم المخلد.

والكفار بصفة عامة يجوز لعنهم، واختلف أهل العلم في لعن الكافر المعين، فأجازه بعضهم، ومنعه بعضهم.

وفي صحيح البخاري أن رجلًا كان يقام عليه حد السكر كثيرًا، فقال رجل: لعنه الله، كثيرًا ما يؤتى به، فقال ﷺ: **«لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله»**[1].

فمن لا يحبون الله ورسوله يجوز لعنهم بصفة عامة.

وقد لعن الله من يكتمون صفة محمد ﷺ من أهل الكتاب؛ لأنه تسبب في صد كثير من الناس عن سبيل الهدى والدخول في الإسلام، فالناس أمام إخفاء صفات النبي ﷺ وأمام كتمان العلم بشكل عام صنْفان: منهم من تاب وبلَّغ، فهذا يقبل الله توبته، ومنهم من كتم وأخفى، فهو متوعَّد بعذاب الله.

القَاعِدَةُ الثَّالِثَةُ: قَاعِدَةُ التَّوْحِيدُ

١٦٣- ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾

هذه هي القَاعِدَةُ العظيمة الأساس في الإسلام، ويليها التَّوْجِيهُ إلى أدلة التوحيد في هذا الكون المشاهَد، والتنديد بمن يتخذ من دون الله أندادًا.

ولما حقت لعنة الله في الآية السابقة على من مات على الكفر وكتمان العلم ولم يبينه للناس، ممن لا ترجى لهم رحمة، بيَّن جلَّ شأنه أن مُشرِّع هذا الدين واحدٌ، ومُحِقَّ الحقِّ

---

(١) من حديث عمر في البخاري برقم (٦٧٨٠).

واحدٌ، لا يُعبَد غيرُه، ولا تُكتَم هدايتُه، ولا يُجعَل لكلام البشر معيارٌ مع كلامه، فهو الإله الحق، الحقيق بالعبادة: إله واحد، ولا إلهَ غيرُه يستحق العبادة، فلا تشركوا به أحدًا ﴿وَإِلَٰهُكُمْ﴾ أيها الناس ﴿إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ متفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، وعبودية خلقه له ﴿لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود بحق إلا الله، فليس له نِدٌّ ولا شريك ولا ولد، وهو ﴿الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾.

ومن آثار رحمة الله تعالى: وجود جميع النعم واندفاع جميع النقم، وهذا دليل إجمالي على وحدانيته تعالى.

وأسباب النزول يُحتاج إليها لمعرفة الوقائع والحوادث التي نزلت فيها أحكام التشريع، بخلاف الآيات التي تقرر التوحيد فهي لا تحتاج إلى أسباب نزول.

ومما ورد في هذه الآية ما قاله ابن عباس ﷺ: إن كفار قريش قالوا: يا محمد، صف لنا ربك وانسبه، فنزلت هذه الآية ونزلت سورة الإخلاص.

وقيل: إن اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى مذكور في هذه الآية، وفي آية الكرسي، وأول آل عمران.

عن أسماء بنت يزيد بن السكَن ﷺ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين**: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾، وفاتحة آل عمران ﴿الم ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾»[1].

والوحدة هي الانفراد، والواحد هو الذي لا يتبعَّض ولا ينقسم، والواحد لا نظير له، وليس كمثله شيء، واحد في ألوهيته وربوبيته، وأسمائه وصفاته لا شريك له.

ولما أشرك المشركون مع الله غيرَه كذَّبهم الله بهذه الآية، فنفى عن نفسه الشريك والقسيم والشبيه، فهو سبحانه واحد في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله، ومن صفاته سبحانه

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (١٤٩٦) وصحيح سنن أبي داود (١٣٢٧)، و«المسند» (٦/ ٤٦١) برقم (٢٧٦١١) بإسناد ضعيف لضعف ابن أبي زياد وشهر بن حوشب، كما قال (محققوه) وحسنه الألباني برقم (٩٩١) في «صحيح الجامع» وأخرجَه أيضا: ابن ماجه (٣٨٥٥) والبيهقي في «الشعب» (٢٣٨٣) وابن أبي شيبة (١٠/ ٢٧٢).

أنه: رحمن رحيم، منعم بأصول النعم وفروعها، ومع هذا فهو رحيم بعباده المؤمنين رحمة خاصة، وبجميع خلقه رحمة عامة؛ تشمل البر والفاجر.

فالآية تبطل وجود إله غير الله تعالى، فلا يوجد إله يستحق العبادة غيره سبحانه، وهو الذي يفرد بالمحبة والخوف والرجاء والتوكل وغير ذلك.

ثَمَانِيَةٌ مِنْ دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ فِي هَذِهِ الآيَةِ

١٦٤- ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ[1] وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

أخبر سبحانه وتعالى أن في هذه المخلوقات العظيمة: السموات والأرض والليل والنهار والسفن والمياه والدواب والرياح والسحاب، وغيرها، آيات دالة على وحدانية الله تعالى لمن لهم عقول يتدبرون ويستدلون بها على قدرة الخالق سبحانه، ويستعملونها فيما خُلقت له.

وكيف يكفر بعض الناس بربهم، وهو سبحانه الإله الحق، المستحق للعبادة دون سواه؛ لأنه سبحانه الخالق الرازق، المحي المميت، الذي يُشرِّع ويحلل ويحرم.

ولما نزلت الآية السابقة، قال المشركون: إن محمدًا يقول: إلهكم إله واحد، فليأت بآية إن كان صادقًا فأنزل الله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2]؛ لتبيِّن لهم - أيها النبي - أن ما يرون من آيات الله في الكون أعظم مما يطلبون، فيعلمون أنه إله واحد، وأنه إله كل شيء، وخالق كل شيء.

وتوضح هذه الرواية بعض مطالب المشركين في مثل قولهم: اجعل لنا الصفا ذهبًا إن كنت صادقًا[3] فأنزل الله سبحانه يعلِّم خلقه كيفية الاستدلال على وحدانيته بالتفكير ،

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر (وتصريف الريح) بالإفراد، وقرأ الباقون (الرياح) بالجمع نظرًا لاختلاف هبوبها: شمالًا وجنوبًا، وصبًا ودبورًا، واختلاف أوصافها حارة وباردة.

(٢) «تفسير الطبري» (٢/ ٣٧).

(٣) أخرجه ابن مردويه وابن أبيَ حاتم (١٤٦٥) عن ابن عباس عن سعيد بن جبير.

في آياته وعجائب مخلوقاته، وقد أُمِرْنا أن نفكر في آلاء الله وعظيم خلقه.

عن ابن أبي نجيح عن عطاء قال: أنزلت بالمدينة ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ فقال المشركون بمكة: كيف يسع الناس إله واحد؟ فأنزل الله هذه الآية[١].

وفيها إشارة إلى علم الفلك، والطبيعة، والجغرافيا الطبيعية، وعلم الفضاء، وعلم الأرض، وعلم النبات، والبحار والمعادن والحيوان، فأراد الله سبحانه أن يلفت أنظار خلقه إلى هذا الكون وما فيه، إذا أرادوا أن يستدلوا على وحدانية الله سبحانه، فإن هذا أمر موجود في الفطرة يُقِرُّ به المؤمن والكافر؛ فمنذ أن خلق الله الخلق، والكل يعترف بذلك ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨].

وقد ذكرت هذه الآية ثمانية أدلة على وحدانية الله تعالى يُستدَلُّ بها على وحدة الخالق جل شأنه، وهي من عجائب صنع الله تعالى في هذا الكون، ينتفع بها كلٌّ من كان له عقل وبصيرة ممن يستجيبون لنداء الفطرة فيهم، فإذا أرادوا أن يتعرفوا عليها فما عليهم إلا أن ينظروا في هذا الكون بما فيه، من فوقهم ومن تحتهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم:

الآية الأولى: السموات: عليهم أن ينظروا إلى العالم العلوي، وما فيه من النظام الشمسي، وما يتبعه من كواكب مختلفة المقادير والأبعاد، وقد استقر كل منها في مداره، ولولا قدرة الله جل شأنه لانفلتت هذه الكواكب، واصطدم بعضها في بعض وهلك العالم، فما عليكم إلا أن تتأملوا السموات بارتفاعها واتساعها، ومجراتها وعوالمها وإحكامها وإتقانها، وما جعل الله فيها من الشمس والقمر والنجوم وتنظيمها لمصالح العباد ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾ [ق].

وفي العالم العلوي: الملائكة والعرش والكرسي وسدرة المنتهى وما إلى ذلك.

الآية الثانية: الأرض:

وعليهم أن ينظروا إلى العالم السفلي، وما فيه: الأرض بجبالها وسهولها وأوديتها وبحارها ومعادنها ونباتها وثمارها، وما فيها من إنسان وحيوان وجماد ونبات ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الذاريات]. نظام عجيب، وسنن إلهية مطردة، وإبداع حكيم، مع تعدد

---

(١) «تفسير القرطبي» (٢/ ١٨٤).

المنافع وتنوع الفوائد ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ [ق]. وقد جعل الله الأرض مهادًا للخلق. يمكنهم الاستقرار عليها والانتفاع بما فيها، وفي ذلك دليل على قدرة الله تعالى وانفراده بالخلق والتدبير.

الآية الثالثة: اختلاف الليل والنهار: وعليهم أن ينظروا في اختلاف الليل والنهار إذا ذهب أحدهما خلَفه الآخر، وتعاقبهما بالطول والقصر، والظلمة والنور، والحرارة والبرودة وما ينشأ عن ذلك من انتظام مصالح بني آدم وحيواناتهم، وما على وجه الأرض من أشجار ونبات، كل ذلك بانتظام وتدبير وتسخير تحار فيه العقول، وتعجز عن إدراكه الفحول، وفي ذلك دلائل على قدرة الله تعالى وعلمه وحكمته، مما يوجب بذل الجهد في محبته سبحانه ومرضاته. قال تعالى: ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [الجاثية: ٥].

وقال سبحانه: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥].

وقال أيضًا: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحديد: ٦].

وعليهم أن ينظروا ما في تغير الظلمة والنور، بسبب دورة الفلَك، واختلاف الفصول باختلاف مواقعهم على الأرض :

١- قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ [فاطر: ١٣].

٢- وقال أيضًا: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان].

٣- وقال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢].

٤- وقال ﷻ: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس].

٥- وقال جل شأنه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ [إبراهيم].

الآية الرابعة: الفلك التي تجري في البحر لمنفعة العباد:

وقد سخر الله البحر والرياح والسفن والمراكب وما تحملها من الركّاب والبضائع التي هي من منافع الناس، تنظّم معايشهم ومصالحهم، وقد خلقها الله لهم وأقدرهم عليها، فمن الذي ألهمهم صنْعتها، ومن الذي سخر لهم البحر، وسخر لهم الرياح، لتجري

السفن فيه بأمره، ومن الذي أوجد الوقود للمراكب البرية والبحرية.

عليهم أن ينظروا إلى السفن الجارية في البحار تحمل للناس ما ينفعهم، كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ [إبراهيم: ٣٢].

وقال سبحانه: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢].

وفي سورة النحل: ١٤ بتقديم ﴿مَوَاخِرَ﴾ على ﴿فِيهِ﴾ وزيادة واو قبل ﴿لِتَبْتَغُوا۟﴾.

الآية الخامسة: نعمة الماء لحياة الإنسان والحيوان والنبات:

ثم ينظروا إلى هذه السحُب المسخرة بين السماء والأرض، وما تحمله من ماء؛ فيحيي الله به الأرض بعد موتها، وتصبح مخضرة بعد أن كانت يابسة.

وبالماء حياة الإنسان والنبات والحيوان ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ﴾ [فاطر: ٩].

وقال سبحانه: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الروم].

والمراد برحمة الله في الآية: المطر، أو الماء النازل من السماء؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الجاثية: ٥]. والرزق هو المطر.

فبالماء حدثت حياة الأرض بالنبات، وبه استعدت لظهور أنواع الحيوانات فيها.

وقد كانت السماء بلا سحاب ولا مطر، وكانت الأرض بلا نبات ولا شجر، فأحياهما الله بأن أودع في السحاب الماء الغزير، ثم ساقه إلى بلد ميت فأحيا به الأرض بعد موتها، وذلك حين انفصلت السموات عن الأرض بعد أن كانتا مادة واحدة ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ﴾ [الأنبياء: ٣٠]. فقد جعل الله كل شيء حيًّا بالماء، بعد أن استقلت الأرض، وتكَوَّنَتِ اليابسة، وخرج النبات والحيوان واستمرت المتابعة، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

والحياة تتجدد وتتوالد، والماء يتغذى به كل شيء حي على سطح هذه اليابسة.

ومع أن الماء واحد، إلا أنه يخرج به النبات مختلفًا في لونه وطعمه وفائدته ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤] ويستدل بهذا ونحوه على البعث والنشور.

عن أبي رزين العُقَيْلي قال: قلت: يا رسول الله، كيف يحيي الله الموتى؟ قال: **«أما مررت بالوادي مَحْلًا، ثم تمرُّ به خضرًا؟»** قال: بلى، قال: **«فكذلك النشور»**.

أو قال: **«كذلك يحيي الله الموتى»**[1].

الآية السادسة: كل ما دب على وجه الأرض فهو من خلق الله:

وقد نشر الله في أقطار الأرض من الدواب المتنوعة، ما هو دليل على قدرته وعظمته ووحدانيته، وسخرها للناس كي ينتفعوا بها.

وعلى الناس أن ينظروا إلى كل ما دب على وجه الأرض من الإنسان والحيوان والطيور والهوام والحشرات وسائر الدواب، كلها من خلق الله تدل على وحدانيته وتوجب تفرده بالعبادة، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨]. وفي سورة الجاثية خص الله الإنسان بالذكر ثم عطف عليه سائر الدواب.

فقال سبحانه: ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ [الجاثية: ٤].

ومن هذه الدواب ما يأكلون من لحمه ويشربون من درّة، ومنها ما يركبون، ومنها ما يقوم على حراستهم، وهو سبحانه القائم بأرزاقهم، المتكفل بأقواتهم، فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها.

الآية السابعة: تصريف الرياح: على المنكِر لوحدانية الله تعالى، المتوجه بالعبادة إلى غيره أن يفكر وينظر إلى هذه الرياح وهي تتجه شرقاً وغربًا وشمالًا وجنوبًا، حارة وباردة، وهي تأتي بالخير فتلقِّح النبات والأشجار، وتسوق الأمطار لحياة العباد والبلاد قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الحجر].

---

(١) مسند الطيالسي برقم (١٠٩) ومسند أحمد (٤/ ١١) برقم (١٦١٩٢، ١٦١٩٤) إسناده ضعيف لجهالة حال وكيع بن حدس، و له شواهد وأخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (١٠٦٩) والطبراني في «المعجم الكبير» برقم (٢٠٨) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي في «المستدرك» (٤/ ٥٦٠) بإسناد حسن.

وينظر الإنسان الجاحد إلى الريح وهي تأتي تحمل العذاب والهلاك وتدمر كل شيء بأمر ربها، إن في ذلك لعبرة وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [الروم: ٤٨]

وقال سبحانه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾﴾ [فاطر]

وهذه الرياح تارة تثير السحاب، وتارة تؤلف بينه، وتارة تُلَقِّحه، وتارة تُدرُّه، وتارة تُمزِّقُه، وتارة تبشر بالرحمة، وتارة تنذر بالعذاب، فمن الذي صرّفها هذا التصريف، وأودع فيها هذه المنافع، ومن الذي سخرها لنفع الإنسان والحيوان والأشجار والنبات؟ لقد سخر الله السحاب بين السماء والأرض ليحمل الماء الكثير فيسوقه الى حيث يشاء، فيحيي به العباد والبلاد، فهل يليق بالعباد أن يتمتعوا برزق الله، ويستعينوا به على سخطه ومعصيته؟ أليس هذا دليلا على حلمه وصبره وعفوه. **ومن الأحاديث الواردة في الرياح:**

١- ما جاء عن أبي هريرة ﷺ قال: أخذتِ الناسَ ريحٌ بطريق مكة، وعُمَرُ حاجٌّ، فاشتدت، فقال عمر لمن حوله: ما بلغكم في الريح؟ فقلت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**الريح من روْح الله، تأتي بالرحمة وبالعذاب، فلا تسبوها وسلُوا الله من خيرها، وعُوذوا بالله من شرها**»[(١)].

٢- وعن ابن عباس ﷺ أن رجلًا لعن الريح، فقال له النبي ﷺ: «**لا تلعن الريح فإنها مأمورة، وإنه مَن لعن شيئًا ليس له بأهل رجعت اللعنة عليه**»[(٢)].

٣- وعن أُبَيِّ بن كعب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تسبوا الريح؛ فإنها من روح الله تعالى، وسلوا الله خيرها وخير ما فيها، وخير ما أُرسلت به، وتعوذوا بالله من شرها**

---

(١) بنحوه في «المسند» (٩٦٢٩، ٩٢٩٩، ٧٤١٣) صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن رجاله ثقات كما قال محققوه، و«صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣٠٣) والنسائي (١٠٧٦٧) وابن أبي شيبة (١٠/ ٢١٦) والشافعي في شفاء العي (٥٠٤) والبيهقي في السنن (٣/ ٣٦١)

(٢) صحيح سنن أبي داود (٤١٠٢) والترمذي (١٩٧٨) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥٢٣٥).

وشر ما فيها وشر ما أُرسلت به»[١].

٤- قال أُبَيُّ بن كعب: كل شيء في القرآن من الرياح فهو رحمة، وكل شيء في القرآن من الريح فهو عذاب[٢].

قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الروم]

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ [الروم: ٤٦]

الآية الثامنة: تصريف السُّحُب:

وعلى المنكرين لوحدانية الله تعالى أن ينظروا في هذه السحب: كيف يُصرفها الله سبحانه، تبشر وتنذر، تجمع الرياح وتفرقها، وتصرفها فتكون تارة جنوبية، وتارة شمالية، وأخرى شرقية، ورابعة غربية، مرة حارة ومرة باردة؟! ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٥]. فيعلمون أنهم مفتقرون إلى الله تعالى، وأنه الغني عنهم، فلا إله غيره ولا معبود سواه.

إن في هذه الدلائل السابقة لآيات على وحدانية الله وجليل نعمه.

ومجمل هذه الأدلة الثمانية هي:

١- السموات والأرض. ٢- الليل والنهار.

٣- السفن المسخرة. ٤- انتفاع الناس بها.

٥- المطر والماء. ٦- كل ما دب على وجه الأرض.

٧- تصريف الرياح شمالًا وجنوبًا. ٨- السحب والغيوم.

وفي سورة إبراهيم في الآيتين الثامنة والثلاثين والثالثة والثلاثين جاء ذِكْر هذه الدلائل وهذه النعم، وبيان أن الله سبحانه سخرها لنفع الإنسان وفائدته، وأنها من نعم الله تعالى التي لا تحصى ولا تعدّ.

---

(١) عبد الله بن أحمد في زوائد «المسند» (٢١١٣٩) حديث صحيح وإسناد رجاله ثقات رجال الشيخين، كما قال محققوه، والترمذي (٢٢٥٢) والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٧٧١) واللفظ له، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٧٥٦).

(٢) ابن أبي حاتم (١٤٧٥، ٨٦٠٦).

وجاء ذكرها أيضا في سورة الجاثية في الآيات: الثالثة والرابعة والخامسة، وبيان أن فيها عبرًا وعظات للمؤمنين والموقنين والعاقلين، أما غير المؤمنين وغير الموقنين وغير العاقلين، فهي عليهم عمي، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤]

وإنها دعوة إلى التأمل والنظر لما في هذا الكون، وإعمال العقل والفكر في آثار صنع الله تعالى فيه للاستدلال به على وحدانية الخالق سبحانه ووجوب التوجه له وحده بالعبادة.

وهذه هي الآية الجامعة لأدلة التوحيد الثمانية، وهي نعم دنيوية، والانتفاع بها لا يكون إلا بسلامة العقول وانفتاح البصيرة، وفيها تثبيت للعقيدة، وتفتيق المدارك لقراءة الكتاب المنظور، والتأمل في الكتاب المسطور.

القَاعِدَةُ الرَّابِعَةُ: مَحَبَّةُ العَبْدِ لِرَبِّهِ تَفُوقُ كُلَّ مَحَبَّةٍ

١٦٥- ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى[١] ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ[٢] ٱلْعَذَابَ أَنَّ[٣] ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ(٣) ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾

ومع قيام هذه الأدلة والبراهين على وحدانية الخالق سبحانه؛ فإن بعض الناس يتخذون معبوداتٍ كالأوثان والأصنام من دون الله، فيحبونهم كحب الله في الطاعة والتعظيم والانقياد، أو يسوُّونهم مع الله ﷻ، أو يحبونهم كحب المؤمنين لله.

فما أجمل اتصال هذه الآية بما قبلها، فبعد أن بين سبحانه دلائل وحدانيته بالبراهين الساطعة، ذكر أن من الناس مع هذا البيان من يتخذ من المخلوقين أندادا لله يحبهم ويعظمهم.

---

(١) قرأ نافع وابن عامر ويعقوب وابن وردان بخلف عنه (ولو ترى) بتاء الخطاب، و (الذين) مفعول به، وقرأ الباقون بياء الغيبة، و (الذين) فاعل.

(٢) قرأ ابن عامر (إذ يُرون) بالبناء المجهول، وواو الجماعة نائب فاعل، وقرأ الباقون بالبناء المعلوم، وواو الجماعة فاعل.

(٣) قرأ أبو جعفر ويعقوب بكسر الهمزة في الموضعين (إن) و (أن) وهي وما بعدها جواب (لو) أي: لقلت (إن) على قراءة الخطاب، أو لقالوا (إن) على قراءة الغيب، وقرأ الباقون بفتح الهمزة فيهما، وتقدير الجواب: لعلمت أن على قراءة الخطاب و (لعلموا إن) على قراءة الغيب.

فالآية السابقة تبين حال الذين لا يعقلون آيات الله الكونية، فالوثني يقيس تعظيم الله تعالى على تعظيم الرؤساء وعظماء الناس، لا سِيَّمَا المستبدين منهم، يسوِّيه به ويعتمد عليه، ويعتقد فيه نفعًا أو ضرًّا، فالمحب يعتقد فيمن يحبه قدرة فَوْق قدرته، ونفوذًا فوق نفوذه، بما فيه من خصائص ومزايا حسب زعمه.

وما أكثر الأصنام والأوثان التي يحبها بعض الناس قديمًا وحديثًا ويبغضها بعضهم، وما هَدْمُ الصنم الذي كان في أفغانستان عنا ببعيد.

وإن القنوات الفضائية لتأتي بما هو عجيب وغريب من المعبودات في العالم، ومنها عبدة الشيطان في العالم العربي، ومثل كل ما يعبد من دون الله، سواء أكان ذلك متمثلًا في محبة المال أم الزوجة أم الولد أم الهوى والشيطان ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣].

أم كان هذا الحب متمثلًا في محبة أهل الأضرحة والقبور، يدعونهم، ويسألونهم النفع والضر، ويطوفون حول قبورهم، كما يطاف حول الكعبة، ويذبحون لأصحابها، وينذرون إليهم، ويطلبون منهم المدد والعون، ويتقربون بهم إلى الله تعالى ويتشفعون بهم عنده، ويطيعون الأحياء منهم فيما يُحلُّون لهم ويحرمون عليهم، ويشركونهم في محبة الله ﷻ، وَيذْكرُونهم إلى جوار اسم الله سبحانه.

فإن قلت له: اسأل الله وحده، نفَر واستكبر، وقال: أنا عبد كثير الذنوب، وهو رجل صالح، والله **يستجيب له** ولا يستجيب لي، وهو لا يعلم أن الله تعالى قد استجاب لإبليس أشقى الخلق، وأنه لا واسطة بين الخالق والمخلوق، والله جل شأنه أقرب إلى عبده من حبل الوريد، ومع هذا فهو يأبى أن يوحِّد الله، ولا بد له أن يشرك معه غيره!! يا سبحان الله!!

قال تعالى مقررًا هذه الحالة: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝٤٥﴾ [الزمر]. فهو يُعرض عن التوحيد، ويهش ويبش للشرك ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥﴾ [الصافات]. إنه لا يقنع بالله وحده، بل يريد ولا بد أن يشرك معه غيره ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦].

في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: **«أن تجعل لله ندًا وهو خلقك»**[1].

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٧٦١، ٦٠٠١) و«صحيح مسلم» برقم ٨٦ .

إن الغلو في محبة الصالحين وأولياء الله، ممن ماتوا وقُبروا، أوْ مَن كان حيًّا منهم هو سبب الشرك بالله في القديم والحديث، إن هؤلاء الصالحين لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا وهم أحياء، فكيف وهم أموات؟! والآية التي نحن بصددها تقرر هذا المعنى، قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الزمر].

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأحقاف].

وهذا معنى ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ﴾ يشركونهم مع الله تعالى في المحبة والطاعة، أو يسوُّون بينهم وبين الله ﷻ في ذلك، وهذا شأن الكافر، فالمخلوق ليس ندًّا لله، لأن الله هو الخالق الرازق، وغيره مخلوق مرزوق، والله هو النافع الضار، والمخلوق لا ينفع ولايضر، والله هو الغني وأنتم الفقراء، فعُلم بهذا بطلان عبادة من اتخذ من دون الله أنداد، عبدًا أو صنمًا.

أما المؤمن، فيقول الله سبحانه عنه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ﴾ أي: أشد من حب المشركين لآلهتهم؛ لأنهم أحبوا من يستحق المحبة على الحقيقة، وفي محبته صلاح العبد وسعادته، والمشركون أحبوا من لا يستحق المحبة، وفي محبتهم شقاء العبد وتعاسته، فالمؤمن له محبوب واحد، بيده ملكوت كل شيء، يخصه بالمحبة، ويوحده بالعبادة، وحب المؤمنين لربهم ثابت ودائم لا تعدله محبة، فهم أعظم حبًّا لله من حب هؤلاء الكفار لآلهتهم؛ لأن المؤمنين أخلصوا محبتهم كلها لله، وهؤلاء أشركوا في محبتهم لآلهتهم؛ وذلك لأنه لا حجة لهم في محبتهم لها، وهم يقصدونها في أغراض عاجلة، كقضاء الحاجات ودفع الملمات، أما محبة المؤمنين لربهم، فهي حب لذاته تعالى؛ لكونه أهلًا للحب، فهو حب عن عقيدة وتصميم، ويتبع هذه المحبة طلب رفع الدرجات، وتزكية النفس.

ورد أن امرأ القيس لما أراد قتال بني أسد، حين قتلوا أباه، مرَّ على (ذي الخُلَصة) الصنم الذي كان بتَبَالة، بين مكة واليمن، فاستقسم بالأزلام، التي كانت عند الصنم، فخرج له القدح الناهي ثلاث مرات، فكسر تلك القداح، ورمى بها في وجه الصنم وشتمه، وأنشد فيه شعرًا يهجوه.

وورد أن رجلًا من بني مَلْكَان جاء إلى صنم بساحل جدة، وكان معه إبل فنفرت الإبل

لما رأت الصنم، فغضب على الصنم ورماه بحجر، وأنشد فيه أبياتًا يهجوه.

وقصة عمرو بن الجموح مشهورة في هجائه لصنمه بعد أن علق الفأس في عنقه؛ ليدفع بها الأذى عن نفسه دون جدوى!

فأين هذه المحبة، من محبة المؤمن لربه؟ أين هي من بلال وهو يعذب في الرمْضاء ليكْفُر، فما يزيد عن قوله: أحد، أحد؟!

فالمؤمن الحقيقي يحب الله سبحانه محبةً لا نظير لها ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣] ويقدم طاعة الله ﷻ على كل شيء، ويعتقد أن الخلائق جميعًا من الأنبياء والصالحين لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم شيئًا.

والمحبة المطلوبة هي التي يَصْغُر دونها كل شيء، بحيث يكون الله ورسوله أحب إلى المرء مما سواهما، ومن نفسه التي بين جنبيه، محبة قلبية، ومحبة عقلية، بالقلب والقالَب والنفس والوجدان، وإيثار حب الله ورسوله على محبة كل شيء في هذه الدنيا ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤] ففي تقديم محبة شهوات الدنيا كلها، على محبة الله ورسوله، تهديد ووعيد، ونذير بالعاقبة الوخيمة، والمحبة الصحيحة، تجعل مصيبة الإنسان في دينه أشد وأعظم من مصيبته في دنياه وماله وولده، ولذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يعزي بعضهم بعضًا فيمن فاتته صلاة مع الجماعة، أو تكبيرة الإحرام.

قال سبحانه متوعدًا من يحب غير الله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: ولو يرى هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالشرك واتخاذ الند والصاحبة والولد لله تعالى، فظلموا أنفسهم بالمعاصي، أو ظلموا غيرهم بالبغي والعدوان والصد عن سبيل الله، لو يرى الذين ظلموا أنفسهم وغيرهم حين يرون العذاب ويعاينونه يوم القيامة وقت أن يُقذف بهم في النار، لرأوا أمرًا عظيمًا هائلا، فهم يرَون ويشاهدون حينئذ أن الله هو المنفرد بالقوة وحده ، وأن الأنداد ليس فيها شيء من القوة، فيتبيّن لهم عجزها وضعفها، ويعلمون ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ والقدرة كلها بيد الله، يُعَذِّبُ من يشاء ويرحم من يشاء ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ لمن اتخذوا من دون الله آلهة يعبدونها، ويتقربون بها إليه،

ويكون ذلك حين يرون مشهدًا من مشاهد يوم القيامة ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر].

الْقَاعِدَةُ الْخَامِسَةُ: مَسْؤُولِيَّةُ كُلِّ إِنْسَانٍ عَنْ نَفْسِهِ (تَلَاوُمُ أَهْلِ النَّارِ)

١٦٦- ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ[1] ٱلْأَسْبَابُ﴾

وهذا إخبار من الله تعالى عن المستقبل؛ حيث يتخاصم أو يتلاوم الكفار في النار يوم القيامة، كل منهم يُلقي باللوم والتبعة على الآخر؛ حيث يَكْفرُ بعضهم ببعض، ويلعن بعضهم بعضًا، لأن الصلة بينهم كانت لغير الله، فانقلبت عليهم حسرة وندامة، وضرّتْهم غاية الضرر، وهذا بخلاف من كانت علاقته لله، فإنه يجد جزاء ذلك عند ربه ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ٣].

قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨]. وهذا يشمل كل من اتبع غيره وقلده في الكفر والضلال، الرئيس والمرؤوس، التابع والمتبوع، والفقير الذي قلد الغني، والحاكم والمحكوم، والقوي والضعيف، وكل من اتبع هواه، فعبد شيئًا من دون الله باتباع إشارته، أو ممن عبد الشمس أو القمر أو النجوم أو الأصنام، أو الصالحين، من الأحياء أو الأموات، فأشركهم مع الله تعالى في دعائه وعبادته، أو توسط بهم إليه، فإذا كان يوم القيامة، فإن كُلًّا منهم يتنكَّر للآخر، ويلوم كل فريق صاحبه ويتنصَّل منه ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

ويوم القيامة يَحْدُث بين هؤلاء جميعًا خصام، وقطْع للروابط والصِّلات، وكل منهم يتبرأ من الآخر ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ فتنقطع بينهم كل الصلات والروابط والمودة والقرابة حتى رابطة الدين الذي جمعهم وقلد بعضهم بعضا فيه ﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ أمام أعينهم مشاهدًا ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ والروابط التي كانت في الدنيا

---

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف بضم الهاء والميم وصلا من (بهم الأسباب) وكسرهما أبو عمرو ويعقوب وصلا كذلك، والباقون بكسر الهاء وسكون الميم وصلا، وعند الوقف على (بهم) الجميع يكسر الهاء ويسكن الميم

وانتهت العلاقات، وهوت الرئاسات، وسقطت الكراسي، وأصبحت لا قيمة لها، ولم يعُدْ هؤلاء الكبار يملكون للصغار شيئًا، ولا يمكن أن ينفعوهم، وقد أضلوهم في الدنيا، لقد اغتروا بصحبتهم في الدنيا، ويوم القيامة يتبرؤون منهم.

قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۝٨٢﴾ [مريم].

وحين يدخل بعضهم على بعض في عذاب جهنم، ينفر كل من التابع والمتبوع من لقاء الآخر، فيقال لمن سبق منهم: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ يدخل النار معكم، فيقولون: ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْۚ إِنَّهُمْ صَالُواْ ٱلنَّارِ﴾ فيقول الفوج الآخر: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ [ص: ٥٩، ٦٠]. قال تعالى:

١٦٧- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ(١) ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْۖ(٢) وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ۝١٦٧﴾

ويوم القيامة يقول التابعون: لو أن لنا عودة إلى الدنيا مرة ثانية، لانتقمنا منهم وأعلنا براءتنا منهم كما أعلنوا براءتهم منا، وكما أراهم الله شدة عذاب الآخرة يريهم عاقبة ما كانوا يفعلونه في الدنيا من الشرك والكفر والمعاصي ندامة وحسرة على ما فرطوا في جنب الله، فهم يتمنون أن يُردّوا إلى الدنيا مرة أخرى، فيتركوا المعاصي وعلى رأسها الإشراك بالله، ويقبلوا على ربهم مخلصين له الدين، وأنّى لهم ذلك، فقد فات وقت التوبة، وانتهى عمر الدنيا، ولو رُدّوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون.

قال سبحانه: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ فأهل النار والعياذ بالله مخلدون فيها لا يخرجون منها أبدًا ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَاۚ﴾ [فاطر: ٣٦]؛ لأن الكافر في عذاب مستمر متجدد، لا يحيى ولا يموت ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣﴾ [الأعلى]. ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَۗ﴾ [النساء: ٥٦].

---

(١) قرأ أبو عمرو بكسر الهاء والميم وصلًا من (يريهم الله) وضم الهاء والميم وصلًا حمزة والكسائي وخلف وضمهما يعقوب وصلًا، والباقون بكسر الهاء وضم الميم وصلًا، وعند الوقف الجميع يكسر الهاء ويسكن الميم ماعدا يعقوب فإنه يضم الهاء.

(٢) ضم الهاء من (عليهم) حمزة ويعقوب وصلًا ووقفًا والباقون بكسرها في الحالين.

نسأل الله السلامة والعفو والعافية.

وقد جاء تفصيل هذا التلاوم في مواطن عدة من القرآن الكريم، منها الآيات في سورة غافر [٤٧- ٥٠]، وفي سورة ص [٥٩- ٦٤]، وفي سورة إبراهيم [٢١، ٢٢].

ومن ذلك ما يقع من التلاوم بين المستضعفين والمستكبرين في قصة نبي الله صالح وغيره من الرسل، كما جاء ذلك في سورة الأعراف كما في الآيتين (٧٥، ٧٦)

وفي كل هذا يطلب الضالون من الذين أضلوهم أن يتحملوا عنهم نصيبًا من عذاب النار ولو ساعة من نهار!! فيقولون لهم: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٨]

فيذهبون لخزنة جهنم، يسألونهم الشفاعة عند الله تعالى لتخفيف العذاب عنهم، ولو للحظات !! فيقررونهم عن دعوة الرسل لهم، وإنزال الكتب عليهم؛ فيقرون، فيقولون لهم: ادعوا ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: ٥٠].

ثم يحاولون الخروج من النار فلا يجدون منفذًا ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ [المائدة].

وهذا أمر متجدد يتكرر، قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠]. وفي سورة الحج بزيادة ﴿مِنْ غَمٍّ﴾[الحج: ٢٢].

ثم يلجؤون في النهاية إلى (مالك) أكبر خزنة جهنم، يطلبون منه القضاء عليهم بإهلاكهم في النار مرة واحدة، فيجيبهم (مالك) بعد وقت طويل، تتبدل فيه دماؤهم، وتُصْهَر فيه جلودهم، وتُشْوى فيه وجوههم، وتُقَطَّع فيه أمعاؤهم آلاف المرات، يجيبهم قائلًا: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾!! ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الزخرف] وهذه الأكثرية هم أهل النار.

وحين تلفح وجوههم النار، وتتشنَّج شفاههم وتكْلَح، ويحاولون الكلام، يُختم على أفواههم، ويقال لهم ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون].

ويوم القيامة يتبرأ الشيطان من الجميع قائلًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ۖ﴾ [إبراهيم: ٢٢]. والشيطان هو رأس المتبوعين.

والنتيجة الأخيرة: أنه يقال لمن مات على الكفر: **«ويا أهل النار خلود بلا موت»** كما قال تعالى ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزمر].

وكما يقع التلاوم بين الضالين والمضلين، يقع بين العابدين والمعبودين، فيكفرون بهم ويكونون لهم أعداء.

اللهم جنِّبنا عذاب النار، واصرف عنا لهيبها وجحيمها يا رب العالمين، وباعد بيننا وبينها كما باعدت بين المشرق والمغرب، واجعلنا من الفائزين بجنات النعيم، آمين.

القَاعِدَةُ السَّادِسَةُ: التَّحْلِيلُ وَالتَّحْرِيمُ حَقُّ اللهِ وَحْدَهُ

١٦٨ - ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ[(١)] ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾

ولما بيَّن الله سبحانه أنه الواحد الأحد، واجب الطاعة والمحبة والاتباع والانقياد، أمر عباده - على وجه الامتنان - أن يأكلوا مما أباحه لهم في الأرض، من كل ما هو طاهر غير نجس، ومن كل ما هو نافع غير ضار، كالحبوب والثمار والفواكه، ومن كل حلال طيب لا شبهة فيه ولا سرقة ولا رشوة ولا غصب، فبيَّن سبحانه أنه الرازق لعباده، وأنه الذي يُشَرِّع لهم الحلال والحرام، فالذي يخلق هو الذي يرزق، وهو الذي يحلل ويحرم؛ لأن التشريع يرتبط بالعقيدة.

ومن باب التعدي على خصائص الألوهية أن يحرم الخلق على أنفسهم ما أحله الله لهم، أو يُحِلُّوا لأنفسهم ما حرم الله عليهم، كالذين حرموا على أنفسهم في الجاهلية بعض الحرث والأنعام، والذين يحلون لأنفسهم في كل عصر ومصر ما حرمه الله تعالى؛ كالخمر والربا والميسر، أو يحرمون ما أحله الله لهم؛ كلحم البقر الذي يحرمه الهنود على أنفسهم، وما حرمه المشركون على أنفسهم قديمًا من البَحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام، وغير ذلك مما أحله الله، وما حرمه الله على اليهود إنما كان بسبب ظلمهم وصدهم عن سبيل الله، ثم أحله لمن بعدهم.

---

(١) قرأ نافع وأبو عمرو وشعبة وحمزة وخلف العاشر والبزي بخلْف عنه بسكون الطاء من (خطوات) وضمها الباقون ومعهم البزي في وجهه الآخر.

والمحرَّم من المطعومات نوعان: إما مُحَرَّم لذاته، وهو الخبيث، كالدم ولحم الخنزير، وهو ضد الطيب، وإما مُحَرَّم لِمَا عرَض له من التعلق بحق الله تعالى أو حق عباده، وهو ضد الحلال.

وفي صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار ﷺ عن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «**ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا؛ كل مال نحلْتُه عبدي حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين، فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم...**» الحديث[1].

ولما ذُكرتْ هذه الآية عند الصحابة ﷺ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ قام سعد بن أبي وقاص ﷺ، فقال يا رسول الله ادعُ الله أن يجعلني مستجاب الدعوة، فقال: «**يا سعد، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة، والذي نفس محمد بيده، إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام في جوفه، ما يُتقبل منه أربعين يومًا، وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به**»[2] والحديث وإن كان في سنده مقال إلا أن فيه تربية، وترهيبًا من أكل الحرام، وله شواهد كثيرة، فهو صحيح المعنى.

والتعدي في تشريع الحرام والحلال اتباع لخطوات الشيطان، أي: طاعة واتباع له، والشيطان ظاهر العداوة للإنسان؛ فهو يوحي له بكل ما فيه عصيان لله ﷻ، مما يسوء صاحبه ويخزيه يوم القيامة، ويأمره بكل قول أو فعل فاحش قبيح؛ كالزنا والربا والبخل واللواط، ولذا فقد نهانا الله تعالى أن نسلك طريقه فقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ وعداوته معلومة لدى المؤمنين وغيرهم.

وجميع المعاصي من كفر وفسوق وظلم، وأكل اللحوم المحرمة، كل ذلك من خطوات الشيطان، وهو لا يألوا جهدا في أن يكون أتباعه من أصحاب السعير.

ولذا: فقد كان المشركون في الجاهلية يرمون الجمار، ويعتقدون أنهم يرجمون الشيطان، وعداوة الشيطان للناس في ثياب النصيحة، فهو يوسوس ولا يُظهر عداوته، ومن اتباع خطوات الشيطان ما سوَّله لبعض الناس قديمًا مما ذكره القرآن في سورة الأنعام

---

(١) «صحيح مسلم» برقم (٢٨٦٥).

(٢) المعجم «الأوسط» للطبراني برقم (٥٠٢٦) وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (١٨١٢).

بالنسبة لقبائل ثقيف، وبني عامر بن صعصعة، وخزاعة، وبني مدلج، فقد حرموا على أنفسهم ما أحله الله من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام(١).

ولما رأى ابن مسعود رجلًا قد حرَّم أكل الضرع على نفسه قال له: هذا من خطوات الشيطان، كُلْ وكَفِّر عن يمينك(٢).

ومن هذا القبيل منع الإنجاب وتحريمه، ومنع تعدد الزوجات، وإباحة الخليلات والشذوذ الجنسي، واستحلال الرِّبا والرِّشْوَة، وما إلى ذلك

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [النحل].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾ [فاطر].

وقال جل شأنه ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧].

مَسَالِكُ الشَّيْطَانِ

١٦٩- ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم(٣) بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

والشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم؛ فضيِّقوا مجاريه حتى لا تضلوا وتسلكوا سبيله، فهو يأمركم بالسوء والفحشاء، أي: بكل ذنب قبيح وبكل معصية بالغة القبح وادعاء ما لا علم لكم به، فتقولوا على الله ما لا تعلمون، ومنه تحريم الحلال، وتحليل الحرام.

والسوء: ما يسوء فاعله، ويدخل فيه جميع المعاصي.

والفحشاء مِنْ عطف الخاص على العام، وهو كل ماتناهى قبحه وفُحشه، كالزنى والقتل والسحر والقذف والربا وشرب الخمر.

---

(١) «تفسير الطبري» (٢/ ٣٧) والألوسي (٢/ ٢٨) وابن أبي حاتم (١٥١٠).

(٢) عبد الرزاق (١/ ١٩٨) و«تفسير سعيد بن منصور» (٧٧٢) وابن أبي حاتم (١٥٠٣) والطبراني (٨٩٠٧).

(٣) قرأ أبو عمرو بخلف عن الدوري بإسكان الراء من (يأمركم) وضمها الباقون، والوجه الثاني للدوري هو اختلاس حركة الراء، وأبدل الهمزة ألفًا ورش وأبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه.

ومن القول على الله بغير علم، من زعم أن لله ندًّا، أو نسب الشريك والولد لله تعالى، أو وصف الله تعالى بما لم يصف به نفسه، أو نفى عنه ما أثبته لنفسه، وكذلك الشأن بالنسبة لرسول الله ﷺ.

ومن ذلك أن يقول العبد بغير دليل صحيح: إن الله حرم كذا أو أحل كذا، أو أمر بكذا، أو نهى عن كذا.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف]

وإذا كان الشيطان يأمر بالسوء والفحشاء، فإن الله تعالى يأمر بالعدل والإحسان وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، والعاقل يختار لنفسه أيَّ الطريقين، فيتبع داعي الخير والسعادة، أو داعي الشر والضلالة. ثم أخبر سبحانه عن حال متَّبعي الشيطان فقال:

١٧٠- ﴿وَإِذَا قِيلَ[١] لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

أي: ومن مسالك الشيطان أنه إذا قيل لمن يتخذون من دون الله أندادًا: وحِّدوا الله، واتَّبِعوا شرعه فيما أحل وحرم، وأخلِصوا له العبادة؛ فلا تدعوا إلا إياه، ولا تنذُروا إلا له، قالوا: بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا في جميع العادات والتقاليد، والتحليل والحرام، وما ورثناه عن مجتمعنا وبيئتنا وآبائنا السابقين في كل ما يقولونه ويفعلونه، فهم يظنون أنهم على صواب في كل شيء؛ في عقائدهم، وعباداتهم، وأخلاقهم، وهذه شبهة لرد الحق وعدم قبوله.

قال تعالى منكرًا عليهم: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ الذين يتبعونهم ﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا﴾ من أمر الدين والدنيا ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ إلى الصواب في شيء، فلو أنهم كانوا على هدى، لكان الحق هو قَصْدهم، ومن جعل الحق قَصْدَه ووازن بينه وبين الباطل، تبيّن له الحق واتّبعه إن كان منصفًا.

وللآية اتصال بحديث السورة عن اليهود على أساس أن الضمير في (لهم) يعود إلى غير مذكور.

---

(١) قرأ هشام والكسائي ورويس بإشمام كسرة القاف من (قيل) ضمًّا والباقون بالكسر الخالص.

قال ابن عباس ﷺ: دعا رسول الله ﷺ اليهود إلى الإسلام ورغَّبهم فيه، وحذَّرهم عذاب الله ونقمته، فقال رافع بن خارجة ومالك بن عوف: بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، فهم كانوا أعلم وخيرًا منا فنزلت الآية[1].

والآية عامة في اليهود والمشركين وأضرابهم ممن يُقَلِّدون الآباء والأجداد في العقيدة الفاسدة، والعبادة الضالة، وما أكثرهم في كل زمان ومكان!!

مَثَلُ الْكَافِرِ

١٧١ - ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾

ثم ضرب الله مثلًا لما عليه المقلدون لغيرهم بالباطل: من الضلال والجهل وتشبيههم بالدواب التي تتْبع كل صوت تسمعه، دون فهْم لما يُقال، فالبعير أو الحمار يسمع الصوت، ولكنه لا يفقه معناه، ومثل المقلد غيره في الكفر كمثل صوت راعي الغنم تتْبعه غنمه، وهي لا تسمع إلا صوتًا، فهي تسمع ولا تفهم، ولا تدرك معنى ما يقال، وكذلك الكفار يسمعون ولا يعملون، إنهم يسمعون دعوة الرسول ولا ينتفعون بها، وقد علم الله منهم ذلك، فأخبر أن مثلهم عند دعاء داعي الإيمان لهم، كمثل البهائم التي ينعق لها راعيها، وليس لها علم بما يقول إلا مجرد سماع الصوت الذي تقوم به الحجة، ولكنها لا تفقه شيئًا، فلهذا كان الكفار صُمًّا لا يسمعون الحق سماع فهم وقبول، عُميًا لا ينظرون نظر اعتبار، بكمًا لا ينطقون بما فيه خير لهم.

والمثل ينطبق على كل من يدعو غير الله، فليس له إلا العناء والبلاء، فالأصنام والأموات لا تسمع، ولا تنطق، ولا تبصر، ولا تعقل ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: وصفة الذين كفروا وداعيهم إلى الهدى والإيمان ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ كصفة الراعي الذي يصيح بالبهائم ويزجرها وهي لا تفهم معاني كلامه، وإنما تسمع النداء ودوي الصوت فقط، فهي تسمع الصوت ولا تفهم المعنى.

وفي هذا تهكم بالمشركين؛ لأن الأصنام تفقد الإحساس، فالدواب خير منها، والكفار

---

(١) «تفسير الطبري» (٣/ ٣٠٥) وأخرجه ابن أبي حاتم بسند حسن (١٥١١) و«سيرة ابن هشام» (١/ ٥٥٢).

صمٌّ عن سماع الحق، بكمٌ عن النطق به، عُمْيٌ عن طريق الهدى، فهم لا يعقلون شيئًا ولا يفهمونه؛ لأنهم لم ينتفعوا بما يسمعون ويبصرون، لقد سَدُّوا أسماعهم عن الحق، وأخرسوا ألسنتهم عنه، وهم لا يرون البراهين الواضحة؛ لأنهم لا يُعمِلُون عقولهم فيما ينفعهم حين يدعون آلهتهم ولا ينتفعون بشيء من دعائهم لها، بل هم في عناء من دعائهم وندائهم إياها، فهم يعرضون عن الإسلام، ويُقْبلون على عبادة الأصنام.

فهل يشك عاقل في أن مَنْ دُعى إلى الخير والرشاد، فعصى الداعي واتبع طريق الشيطان، أنه من أسفه السفهاء.

مَا يُبَاحُ وَمَا يَحْرُمُ مِنَ المَطْعُومَاتِ

١٧٢- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾

ثم يتوجَّه السياق إلى المؤمنين خاصة، - بعد الأمر العام في النداء السابق للناس عمومًا - فيبيح لهم الأكل من الطيبات، ويوجههم إلى شكر النعم، ويبيِّن لهم غير الطيبات مما حُرِّم عليهم، وأن أكل الحلال يسبب قبول الدعاء والعبادة، وأكل الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة، فأمرهم أن يأكلوا من رزقه ويشكروا نعمه عليهم، فيتقوَّوْا به على طاعته، فالشكر يحفظ النعم ويدفع النقم.

وقد أمر الله عباده المؤمنين أن يأكلوا من كل ما هو حلال طيب، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾ أي: كلوا من الأطعمة الحلال المستلذة التي رزقناكم إياها من كل ما ليس فيه ضرر للعقل والبدن.

وفي صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال:** ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا﴾ وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء، يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك»[1].

---

(١) «المسند» (٢/٣٢٨) برقم (٨٣٤٨) بإسناد حسن، و«صحيح مسلم» برقم (١٠١٥) و«سنن الترمذي» برقم (٢٩٨٩). والبخاري في رفع اليدين (٩٤) والدارمي (٢٧١٧).

وقد أمر الله سبحانه عباده المؤمنين أن يشكروا ربهم الذي رزقهم هذه النعم، فقال: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي: إن كنتم تخصونه بالعبادة، وتقرون بوحدانيته وتعترفون بفضله عليكم فاشكروا فضل الله عليكم ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ [لقمان: ٢٠]. والطاعم الشاكر بمنزلة الصابر على الحرمان، والله تعالى يرضى عن عبده الذي يحمد ربه على الأكلة والشربة.

في حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمده عليها»**[(١)].

ولما ذكر سبحانه أنه أباح الطيبات، ذكر تحريم الخبائث فقال:

١٧٣- ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ[(٢)] وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ[(٣)] ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾

ثم حدد الله سبحانه المحرمات من المآكل في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ فهذه أربعة أصناف، وهذا بيانها:

١- كل حيوان خرجت روحه بغير ذكاة شرعية، بأن مات حتف أنفه، أو قتل على هيئة غير مشروعة،فهو خبيث ضار، والأغلب فيما مات حتف أنفه أن يكون ذلك عن مرض، و سواء أكانت الميتة منخنقة، أو موقوذة، أو مترديه، أو نطيحة، أو عدا عليها السبع، فلفظ ﴿ٱلْمَيْتَةَ﴾ يشمل كل هذا؛ لأن حبس الدم، وعدم خروجه بالتذكية يضر بالبدن، وما قطع من البهيمة وهي حية فهو ميتة.

كما في حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه قال: قدم النبي ﷺ المدينة وهم يحبون أسنمة الإبل، ويقطعون آليات الغنم، قال: **ما قطع من البهيمة وهي حية فهي ميتة»**[(٤)].

---

(١) مسلم (٢٧٣٤) وابن أبي شيبة (١٠/ ٣٤٤) و«المسند» (١٢١٦٨) بإسناد صحيح على شرط الشيخين.

(٢) قرأ أبو جعفر (الميّتة) بتشديد الياء، وخففها الباقون، وهما لغتان.

(٣) قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة ويعقوب بكسر النون من (فمنِ اضطر) مع ضم الطاء، وقرأ أبو جعفر بضم النون وكسر الطاء (فمنُ اضطِر) وقرأ الباقون بضم النون والطاء (فمنُ اضطُر).

(٤) «سنن الترمذي» برقم (١٤٨٠) و«المستدرك» (٤/ ٢٣٩) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي كما صححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥/ ١٥٠) وحسنه السيوطي في «فيض القدير» (٥/ ٤٦١).

وقد أحل الله لنا (صيد البحر وطعامه) وأحل الإسلام لنا ميتتين: **«السمك والجراد، ودمين: الكبد والطحال»** كما جاء في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«أحل لنا ميتتان ودمان: السمك والجراد والكبد والطحال»**[١].

٢- وحرم علينا (الدم) المسفوح، وهو الذي يسيل من الحيوان عند ذبحه، وكل دم سال من حيوان فهو محرم تستقذره الطباع وتنفر منه، أما ما يتخلل اللحم منه فلا يحرم.

٣- وحرم علينا (لحم الخنزير) وجميع أجزائه وشحومه، سواء ذُكِّي، أو مات حتف أنفه، وخص **اللحم** بالذكْر؛ لأنه المقصود بالأصالة، وغيره داخل فيه، وقد أثبت الطب ما في تناوله من أضرار صحية.

و فيصحيح مسلم وغيره عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول عام الفتح وهو بمكة: **«إن الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام»**، فقيل: يا رسول الله، فإنه يُطْلى بها السفن، ويُدهن بها الجلود، ويستَصْبح بها الناس؟ فقال: **«لا، هو حرام»**، ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك: **«قاتل الله اليهود إن الله ﷻ لما حرم عليهم شحومها، أجملوه، ثم باعوه، فأكلوا ثمنه»**[٢].

فالحديث لم يقتصر على تحريم عينها، بل حرم بيعها، والانتفاع بها بوجه من الوجوه، إلا ما استثنى من دباغ جلود الميتة عند الحنفية والشافعية، وعند أحمد لا يطهر، أما جلد الخنزير فهو محرم العين، فلا يطهر عند الجميع، وألْحق الشافعي جلد الكلب بجلد الخنزير، وذكاة جنين الأنعام بذكاة أمه.

٤-ومما حرَّمه الله في الآية: ما ذُبح على غير اسم الله تعالى؛ كالأنصاب والأزلام، ومنه ما ذُبح على اسم الصليب، وما ذُبح للجنِّ ونحوه؛ مما ذُبح لولي، أو قُدِّم نذرًا لغير الله تعالى، ومن ذلك (عجل السيد البدوي، أو الحسين، أو السيدة . . .) فكل هذا مما أُهِلَّ به لغير الله؛ أي: مما ذُبح على غير اسم الله، فمن اضطُرَّ إلى شيء من ذلك، بأن

---

(١) يُنظَر حديث ابن عمر في «المسند» (٥٧٢٣) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٢٦٠٧، ٢٦٧٩) والدارقطني (٤/ ٢٧١) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (١١٨).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٥٨١) والبخاري برقم (٤٦٣٣، ٤٢٩٦، ٢٢٣٦).

أشرف على الهلاك؛ بسبب الجوع أو العطش ولم يحصل على الطعام و الشراب فتناول منه بمقدارِ ما يردُّ إليه أنفاسَه، ويَحفظ عليه حياتَه قدْر الضرورة، غير متجاوزٍ للحدِّ، فلا حرج عليه في ذلك، فمَن أكل شيئًا من هذه الميتة وهو مضطرٌّ فلا حرج، ومن أكل وهو غير مضطَّر فقد بَغَى واعتدى ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ أي أُلجيء إلى المحرّم بسبب جوع أو إكراه وهو ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ أي: غير طالب للمحرم مع قدرته على الحلال، أو غير جائع مشرف على الهلاك ﴿وَلَا عَادٍ﴾ متجاوز الحد في تناول ما أبيح له اضطرارا﴿ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي: لا حرمة ولا جناح عليه، وإذا رُفع الحرج، رجع الأمر إلى الجواز، فيأكل، ويأثم إن ترك الأكل حتى مات ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ ما أكل أو شرب ﴿رَّحِيمٌ﴾ بعباده أن يعرضَهم للهلاك.

والمعنى: فمَن ألجأته الضرورةُ إلى أَكْل شيءٍ، وهو لا يَجد غيرَه، و لم يَبلغ حدَّ الشبع، فلا إثم عليه، وهناك محرمات أخرى كالحُمُر الأهلية، فالحَصْر في الآية غير مقصود.

روتْ عائشةُ أن قومًا قالوا للنبي ﷺ: إن قومًا يأتوننا باللحم، لا نَدري أذُكر اسم الله عليه أم لا؟ فقال: «**سموا عليه أنتم وكُلوه**»، قالت: وكانوا حديثي عهد بكفر[١].

وقال الحسن بن علي: إذا ذَكَر الكِتَابيُّ اسمَ غير الله على ذبيحتِه وأنت تسمع فلا تأكل، فإذا غاب عنك فكُلْ، فإن الله قد أَحل ذبائحهم، وهو سبحانه يعلم ما يقولون.

وفي الآية دليل على أن الضرورات تبيح المحظورات، وهي قاعدة مشهورة.

عُقُوبَةُ مَنْ يَكْتُمُ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ابْتِغَاءَ عَرَضِ الدُّنْيَا

١٧٤- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُولَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

هذا وعيد شديد لمن كتم ما أنزل الله على رسله، لا سيما خاتمهم، ابتغاء عرض دنيوي، فهو متوعد بخصومة الله له يوم لقائه، فجزاء الكتمان كتمان، فمن لم يتكلم بالحق في الدنيا لا يكلمه الله يوم القيامة، ولا يزكي أخلاقه، وله عذاب موجع، لأنه أكل في بطنه نارًا حين كتم ما أنزل الله واشترى به مالًا أو جاهًا أو منصبًا.

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢٠٥٧، ٥٥٠٧).

هذا: ولَمَّا خالف اليهودُ أمرَ الله، فاعتدوا في السبت، وأكلوا الرِّبا، وصَدُّوا عن سبيل الله، حرَّم الله عليهم طَيباتٍ كانت حلالًا لهم، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٦]

وقال: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠].

وقد كتم اليهود هذه المحرمات، كما كتموا أوصافَ النبي ﷺ، واشتروْا بهذا الكِتمان نفعًا دنيويًّا ماديًّا كما قال تعالى: ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾ [الأنعام: ٩١]. فكان رؤساؤهم يأخذون الهدايا على سبيل الرِّشْوَة من عامَّة اليهودِ، ولما بُعِثَ النبي ﷺ خافوا على ذَهَابِ هذه الهدايا، وزوال رياستهم، فعمدوا إلى صفة النبي ﷺ فغيَّروها[1]، كما قال تعالى: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

وقد بيَّن سبحانه أنهم يأكلون الرِّشْوَة على كتمان أوصاف النبي ﷺ، وأن هذه الرِّشْوَة تُفضِي إلى عذاب النار، فكأنها نارٌ تَشتعل عليهم في بطونهم، ولما كانت النار عقوبتهم في الآخرة، فكأنهم أكلوها في الدنيا، ثُمَّ توعَّدهم الله تعالى **بثلاثة أشياء**، هي:

١ - غضب الله تعالى عليهم، فلا يكلِّمهم يوم القيامة، ويقال لهم:
﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: شيخٌ زانٍ، وملِكٌ كذَّاب، وعائِلٌ مستكبِر**»[2].

٢- عدم طهارتهم من دَنَسِ الذُّنُوب، وعدم تزكية نفوسهم
﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة: ٤١].

٣- العذاب الأُخروي الأليم الذي يَصِل أَلَمُه إلى سُوَيْدَاءِ قلوبهم.

ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وقريب من هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّـٰهُ لِلنَّاسِ فِى

(١) يُنظَر: «تفسير القرطبي» (٢/ ٢٣٤) و«زاد المسير» (١/ ١٧٦) والنيسابوري ص٤١ و«الدر المنثور» (٢/ ١٣٥).
(٢) «صحيح مسلم» عن أبي هريرة برقم (١٠٧).

ٱلْكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [البقرة: ١٥٩].

وهؤلاء الذين اختاروا الضلالة على الهدى، والدنيا على الآخرة، لا يصلح لهم إلا النار، ولا قدرة لهم على تحملها، قال تعالى:

١٧٥- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾.

وهؤلاء الذين سبق ذكرهم، هم الذين اختاروا طريق الضَّلال على طريق الهُدَى، واشتروا عذابَ الله بمغفرته؛ لأنهم أخْفَوا الحق وكتموه؛ ولذا يَعجب الله تعالى من إقدامهم على هذا المصير المُؤلم، فما أجرأهم على النار بعملهم عمل أهل النار، وما أعماهم عن الحق، وما أشد احتمالهم لها، ويا لَطُول صَبْرهم على مضادة الحق ومقاومته!، وهذا التعجب من باب الاستهانة والاستخفاف بهم. قال تعالى:

١٧٦- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾.

والسبب في ذلك العذاب الذي أعدَّه الله لمن يَكتمُون الحق، ويبتعدون عنه بالقرب من الضلالة: أن الله تعالى نزَّل الكتب على رسله بالحقِّ؛ أي: مشتملة على الحقِّ الواضح، فكفروا به، ومن الحق مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، والحقُّ لا يُغالَب، فمَن غالَبَه غُلِبَ، ومَن صَارَعَه صُرِعَ، وأن الذين لم يهتدوا بهديه في شقاقٍ دائم وعذابٍ أليم؛ والسبب في ذلك أنهم اختلفوا في الكتاب، فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾.

أي في بُعْد ومحادة عن الحق لأنهم خالفوا الطريق الموجب للاتفاق، فكثر افتراقهم وشقاقهم.

ومن شِقاقهم وخِلافهم كُفْرُ اليهود بعيسى ومحمد، وكفر النصارى بمحمد، وبما أَنْزَل الله عليه، فكانوا مفارقين للحقِّ، بَعيدِين عن الرُّشد والصَّواب، والذين يبيعون آخرتَهم بدنياهم عن عَمْدٍ وعِلْم بسوء العاقبة، فإنهم قد رضوا بالعذاب وإضاعة المغفرة، فاستبدلوا بالحقِّ عرَضًا زائلًا، ومتاعًا قليلًا، وشهوةً عارضةً، وهذا أمرٌ عامٌّ في جميع رؤساء الضَّلال في جميع الأمم، ومنهم رؤساء اليهود في عصر التنزيل، الذين كانوا في جزيرة العرب، فكان منهم الذين رفضوا دعوةَ الإسلام وناصبوه العداء، وتعاونوا مع المشركين على الإسلام وأهله، أما يهود البلاد الأُخرى كسوريا والأندلس فقد كانوا يساعدون الدعوة

الإسلامية؛ للتخلص من ظُلم النَّصارَى وقهرهم لهم ما دام ملكهم ومتاعهم قد سَلِمَ لهم.

الْبِرُّ وَخِصَالُهُ الْعَشَرَةُ

١٧٧- ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ[١] أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ[٢] مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ[٣] وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

جمعتْ آيةُ البرِّ أركانَ الإسلام والإيمان والإحسان على ضَوْءِ ما جاء في حديث عمرَ بن الخطاب أن جبريل جاء إلى النبي ﷺ في صورة رجلٍ ولا يُرى عليه أثرُ السفر، وسأل النبيَّ ﷺ عن الإسلام؟ فقال: «**شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتَحج البيت**»، ثم سأله عن الإيمان فقال: «**أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقَدَرِ خيرِه وشرِّه**»، ثم سأله عن الإحسان فقال: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[٤] وفي الآية غير ذلك من وجوه الإنفاق في سبيل الله، ووجوب الوفاء بالعهد، والصبر على البأساء والضراء.

قال قتادة: ذُكر لنا أن رجلًا سأل نبيَّ الله ﷺ عن البرِّ؛ فأنزل الله الآية، قال: وقد كان الرجلُ قبل الفرائض إذا شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبدُه ورسولُه، ثم مات على ذلك، وَجَبَتْ له الجنةُ، فأنزل الله هذه الآية[٥].

وأخرج ابن أبي حاتم والطبري بسندٍ جيِّدٍ عن أبي العالية قال: كانتِ اليهود تُقبل قِبَل

---

(١) قرأ حفص وحمزة (ليس البرَّ) بالنصب على أنه خبر ليس مقدمًا، و(أن تولوا) في تأويل مصدر اسمها مؤخرًا، وقرأ الباقون برفع (البرُّ) اسم ليس، و(أن تولوا) في تأويل مصدر خبرها.

(٢) قرأ نافع وابن عامر (ولكنِ البرُّ) بكسر النون المخففة المهملة، ورفع البر على الابتداء، وقرأ الباقون بتشديد (لكنَّ) مع فتحها، ونصب (البرَّ) اسمًا لها.

(٣) قرأ نافع بهمز (والنبيين) والباقون بالياء المشددة.

(٤) الحديث في مسلم برقم ٨ و«المسند» (١٨٤) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وكذا (١٩١) وفي أبي داود (٤٦٩٥) والترمذي (٢٦١٠) والنسائي (٥٠٠٥) وابن ماجه (٦٣).

(٥) «زاد المسير» (١/ ١٧٨) و«تفسير ابن كثير» (١/ ٤٨٥) والطبري (٣/ ٧٦).

المغرب، وكانت النَّصَارَى تُقبِل - أي تتوجه - قِبَل المشرق، فأنزل الله الآية ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ..﴾ يقول: هذا كلام الإيمان وحقيقته العمل[1].

قال الضحاك: ولكن البر والتقوى أن تؤدوا الفرائض على وجهها[2].

فليس البِرُّ المطلوب هو أمرُ القبلة، حتى يحدث فيه الشقاق والخلاف. بل البر المطلوب هو هذه الخِصال التي في الآية، والتوجُّه إلى القِبلة من الوسائل وليس من المقاصد، فلا ينبغي أن تكون قُصارى هِمة المؤمن، وإلا لَمَا أسقطها الله عنه في حالة العَجْز، والنسيان، وصلاة النوافل على الراحلة في السفر.

قوله سبحانه: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ هذا الربع يتنصف سورة البقرة على وجه التقريب، وما قبله يتحدث غالبًا عن بني إسرائيل من اليهود على الأخص، ومن النَّصَارَى على الأقل، ثم يبدأ الحديث عن أحكام التشريع في سورة البقرة، فيتنزل الحلال والحرام من الله تعالى لأول مرة على المؤمنين من المهاجرين والأنصار، بعد أن قامتْ دولةُ الإسلام في المدينة المنورة.

ويتناول الكلام في هذا الربع من السورة:

القِصاص في القتل العَمْد، والوَصِيَّة عند الموت، والصيام وأحكامه، والاعتكاف، والدعاء: أحكامه وآدابه، والصيام المستمر عن أكل الحرام، وبعد ذلك تتحدث الآياتُ عن الحَج، وعن الرِّبا، وعن الطلاق، والعِدة، والرَّضاع، وغير ذلك من أحكام التشريع الأربعين التي جاءت في سورة البقرة.

ولهذه الآية ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ﴾ عَلاقةٌ بأمر تَحويل القِبْلة من بيت المقدس إلى الكعبة، ذلكم أن اليهود كانوا يتوجهون في صلاتهم إلى غرب بيت المقدس، والنَّصَارَى يتوجهون إلى شرق بيت المقدس، وكلٌّ منهم يرى أن البر والتقوى في الاتجاه إلى قبلته التي هو عليها، وأن هذا التحول قد شقَّ على بعض المسلمين أيضًا، فأنزل الله سبحانه يبيِّن لهم أن الخير والبر والطاعة والتقوى ليس بالتوجه تِجاه المشرق أو المغرب في الصلاة، إن لم يكن عن أمر الله وشرعِه، وإنما الخير كل الخير فيما ثبت في القلوب من أركان الإيمان، والقيام بأداء الفرائض، والتحلي بأخلاق الإسلام، وترْكِ ما حرَّم الله.

(١،٢) ابن كثير (١/ ٤٨٦) والطبري (٤/ ٧٦) وابن أبي حاتم (١٥٤١).

فالبرُّ لا يَتمثل في الصلاة وحدها دون العمل بها، بل يكون في الإيمان بالله، وفي التقوى والطاعة، وامتثال أمر الله تعالى، واجتناب نهيه.

وَالْبِرُّ: اسمٌ جامعٌ لكل الطاعات وأعمال الخير المُقَرِّبة إلى الله تعالى، الموجِبَة للثواب ودخول الجنة، وقد ذكرتِ الآيةُ صفاتِ الأبرار المتقين الصادقين، وفي نهايتها يقول سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

وقد جَمَع الله ﷻ خِصالَ أهل البرِّ كلِّها في هذه الآية، وبيَّنتِ الآية ما البرُّ؟ وشرحتْه على وجه التفصيل.

ويُؤخذ منها: أن البرَّ والصلاح والتقوى لا ينحصر في الصلاة وحدها، بل لَا بُدَّ أن يَنضم إليها ما يترجم عن قَبُولها وإخلاصها لله تعالى، والتخلُّق بأخلاق الإسلام، فقد يكون العبد من المصلين، ولكنه يقترف بعضَ المحرمات من كبائر الذنوب، أو يُصر على صغائرها، أو يأكل حقوق الناس ويظلمهم ويتعدى عليهم.

ومعنى ذلك: أنه لم يَزَلْ في المرحلة الابتدائية من صلاته، وأنه لا زال يحبو؛ لأن صلاتَه لم تُؤَدِّ وظيفتَها بالانتهاء عن الفحشاء والمنكر، وإن كان قد أدَّى فرضَه، وعليه أن يستمرَ في صلاتِه حتى يخشعَ ويتأثرَ، وتقع الصلاة من قلبه موقعَ القبول والرِّضَى وتصل إلى درجة الامتياز.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ إلهًا وربًّا واحدًا، وآمن باليوم الآخر، وعبدةُ الأوثان وأشباههم في القديم والحديث يُنكرون البعث والنشور والحساب والجنة والنار، وآمن بالملائكة كلِّهم، وآمن بالقرآن الذي نَزَلَ على محمدٍ ﷺ، وجميع الكتب المنزلة من السماء.

فالعبد لا يُعَدُّ من الأبرار المتقين الصادقين حتى يجتمع له خِصال الخير العشر؛ الخمس الأولى في أصول الإيمان وما يَلزم التصديق به من العقيدة، والخمس الأخرى تجمع أصول الأعمال الصالحة في مَجَالِ التعامل مع الناس؛ **وبيانها كالآتي**:

أولًا: الإيمان بالله تعالى: وأنه الواحد الأحد الفرد الصمد، خالق الكون ومدبِّر أمرِه، وهو سبحانه موصوف بكل كمال ومنزه عن كل نقص، وإليه وحده يتوجه الخَلْق بالطاعة والعبادة ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾.

ثانيًا: الإيمان باليوم الآخر: وما فيه من بعث وحشر ونشر وحساب وجزاء على

الأعمال والأقوال بالجنة أو النار، كما أخبر الله في كتابه أو أخبر به الرسول ﷺ مما يكون بعد الموت قال تعالى: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾.

ثالثًا: الإيمان بملائكة الله: وأنهم أجسامٌ لطيفةٌ نُورانيةٌ قادرةٌ على التَّشَكُّلِ في صُور حسنة مختلفة، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ومنهم المُوَكَّلون بما يتعلق بِحياة الإنسان من الرزق والموت وحفظ الأعمال، والمُوَكَّلون بالعرش والكرسي والجنة والنار وما إلى ذلك، كما وصفهم الله لنا في كتابه ووصفهم رسولنا ﷺ، قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾.

رابعًا: الإيمان بالكتب المنزَّلَة من عند الله على رسله: من صحف شيث وإدريس وإبراهيم والتوراة والإنجيل والزبور، وأن القرآن الكريم قد نَسَخَ جميعَ ما قبله، قال تعالى: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾و المراد جنس الكتب التي أنزلها الله على رسله، وأعظمها القرآن، فيؤمن العبد بما تضمنه من الأخبار والأحكام.

خامسًا: الإيمان بالنبيين من غير تفريقٍ بينهم، وأن محمدًا ﷺ خاتَمهُم، وأنه ليس في وُسْعِ الإنسان أن يؤمن بغيره بعد بعثته.

هذه هي أركانُ الإيمان، ما عدا الركن السادس منها؛ حيث ذَكَرَ الله تعالى هنا خمسةً منها، جمعتْها هذه الفقرة من الآية: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ فَصَدَّقَ العبد بهم، واهتدَى بهديهم، واقْتَفَى أثرَهم.

والركن السادس هو الإيمان بالقضاء والقدر الذي جاء ذكره في سورة القمر: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر].

ثم إن البرَّ لا يَنحصر في أركان الإيمان الستة، وإنما المسلم الصالح مَن وصفتْه الآيةُ أيضًا ببقية الخصال العشر.

سادسًا: ومن البِرِّ بذلُ المال قليلًا أو كثيرًا: عن طيب خاطرٍ ورغبةٍ صادقةٍ فيما عند الله تعالى ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أي على حب العبد للمال، وهو حريصٌ شحيحٌ يأمل الغِنَى ويَخْشَى الفقر، فأَعْطَى المال مع حبِّه له، لأقاربه المحتاجين ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

فإن من أنفق المال تقربًا إلى الله تعالى، مع حبه وحاجته إليه، كان هذا برهانًا على

إيمانه، ثم ذكر سبحانه المنفَق عليهم من هذا المال، وهم **أصناف ستة**:

١- ﴿ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فالصدقة على القريب صدقةٌ وصِلَةٌ، وهم أحقُّ الناس بالبر والصِّلة، وفي مقدمتهم الوالدان؛ فالنفقة عليهم واجبةٌ.

وفي حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعَيْط أن رسول الله ﷺ قال: «**أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح**»[1].

أي: الذي يبغضُك، فإن الصدقة عليه تَمحو عداوتَه، وتستجلب مودتَه، ولها أجرُ الصدقة وأجرُ الصِّلة.

٢- ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ المحتاجين الذين مات آباؤهم، وهم دون سن البلوغ، ولا قدرةَ لهم على الكَسْب، ولا يَجدون ما يَكفي ضرورات حياتهم، ومن رحم يتيم غيره رحم الله يتيمه.

٣- ﴿وَٱلْمَسَـٰكِينَ﴾ الذين أرهقهم الفقر والحاجة، فلهم حق في الزكاة والصدقة بما يكفي حاجتهم الضرورية من مسكن ومأكل وملبس وتعليم وعلاج.

٤- ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ المسافرين الذين بعُدوا عن مالهم وأهلهم فاحتاجوا، فيُعطوْن ما يُعينهم على سفرهم ويردهم إلى بلادهم، وإن كانوا أثرياء في بلادهم.

٥- ﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ الذين اضْطُرُّوا إلى السؤال؛ لشدة حاجتهم بسبب جائحة أو حريق أو سرقة أو دفع دية، ونحو ذلك، وكذلك من يسأل لبناء المساجد والمدارس والمرافق العامة ونحوها.

٦ - ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ يعني: في فَكِّ الأسرَى من أيدي الكفار أو من أيدي المالكين لهم، وعتق العبيد، والإعانة على التحرير من الرق، وبذل المال للمكاتب ليوفي حق سيده الذي كاتبه على العتق مقابل أقساط يدفعها له وكذا من عليه رقبة فإنه يعان على الوفاء بها.

فمن صفات الأبرار أنهم يُعطون أموالَهم فيتصدقون بها وينفقونها، على حبِّهم للمال، وحاجتِهم الشديدة إليه، في هذه الجهات التي ذكرتْها الآيةُ الكريمةُ، نفقةٌ مُطْلَقَةٌ غير مقيَّدةٍ بنصاب ولا ربع ولا عُشْر.

---

(١) الطبراني (٢٠٤) والحاكم (١/٤٠٦) والبيهقي في «السنن» (٧/٢٧) قال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني في الكبير بإسناد حسن «مجمع الزوائد» (٣/١١٦) وجاء مثله عن حكيم بن حزام في «المسند» (١٥٣٢٠) حديث صحيح، وهو في صحيح ابن خزيمة (٢٣٢٦) عن أم كلثوم بنت عقبة، والحميدي (٣٢٨)

ثم ذَكَرَ سبحانه ركنين عظيمين من أركان الإسلام؛ وهما الصلاة والزكاة:

سابعًا: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَوٰةَ﴾ فأداها في أوقاتها بخشوع وخضوع ومحافظة على أركانها وشروطها وواجباتها وسننها وآدابها.

ثامنًا: ﴿وَءَاتَى الزَّكَوٰةَ﴾ أي: أَعْطَى الزكاة المفروضة لمستحقيها، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَالْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] فدلَّ ذلك على أن إيتاء المال على حُبِّه غير الزكاة، وأن في المال حقًّا سِوَى الزكاة، وقد ورد في ذلك آثار ضعيفة:

سُئِلَ الشعبي: هل على الرجل حقٌّ في ماله سِوَى الزكاة؟ قال: نعم، وتلا هذه الآية.

وأخرج مالك في الموطأ عن زيد بن أسلم أن رسول الله ﷺ قال: **«أعطوا السائل ولو جاء على ظهر فرس»**[1].

ولفظ أبي داود وغيره عن الحسين بن علي رضي الله عنه: **«للسائل حقٌّ، وإن جاء على فرس»**[2].

وفي الصحيحين وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلًا سأل النبي ﷺ فقال: أيُّ الصدقة أعظم أجرًا؟ قال: **«أن تَصَدَّقَ، وأنت صحيح شحيح تَأْمُلُ الغِنَى، وتخشى الفقر»**[3]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله، أيُّ الصدقة أفضل؟ قال: **«جُهْدُ المُقِلِّ وابدأ بمن تَعُولُ»**[4].

---

(١) أخرجه مالك من رواية أبي مصعب برقم (٢١٠٢) باب الترغيب في الصدقة، قال ابن عبد البر في التمهيد: (٥/ ٢٩٤) لا أعلم في إرسال هذا الحديث خلافًا بين رُواة مالك، ولبس في هذا اللفظ مستند يحتج به فيما علمت، وهو في الموطأ عن زيد بن أسلم (٢/ ٩٩٦).

(٢) أبو داود برقم (١٦٦٥) و«المسند» (١٧٣٠)بإسناد ضعيف لجهالة يعلى بن أبي يحى، وأخرجه ابن أبي حاتم (١٥٥٦) وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود» (٣٦٤)، و أخرجه ابن خزيمة (٢٤٦٨) وأبو يعلى (٦٧٨٤) وابن أبي شيبة (٣/ ١١٣).

(٣) البخاري (١٤١٩، ٢٧٤٨) ومسلم (١٠٣٢) وأبو داود (٢٨٦٥) والنسائي (٢٥٤١، ٣٦١٢) و«المسند» (٧١٥٩، ٩٧٦٨) وابن حبان (٣٣١٢، ٣٣٣٥).

(٤) أخرجه أبو داود (١٦٧٧) و ابن خزيمة (٢٤٤٤) وابن حبان (٣٣٤٦) والحاكم (١/ ٤١٤) وصححه بموافقة الذهبي، وهو في مسند أحمد إسناده صحيح برقم (٨٧٠٢) وعن عبد الله بن حبشي برقم (١٥٤٠١).

ففي المال: النفقة والصدقة والزكاة، وفيه حقوقٌ أخرى.

تاسعًا: ثم انتقل سبحانه من صفات البر في الأفعال، إلى صفات البر في الأخلاق الاجتماعية فقال: ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ من صفات التُّقَى أن يكون العبد وفيًّا بعهده ووعده مع الله سبحانه، محافظًا على طاعته بامتثال أمر الله تعالى، واجتناب نهيه، وفيًّا مع خَلْق الله بما عاهدهم عليه، وما وثَّقه بينه وبينهم من وعود وعهود وغير ذلك من سائر العُقود بين العامل وربِّ العمل، والبائع والمشتري . . . إلخ، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

والعهد: كل ما ألزم الله به العبد أو ألزم به نفسه، فيدخل فيه حقوق الله وحقوق العباد.

عاشرًا: ومن صفات الأبرار أنهم يصبرون في البأس والضر.

قال تعالى: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ أي: في الشدة والفَاقَةِ والمرض.

﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ أي: ساعة الجهاد في ساحة القتال بين المسلمين وبين أعدائهم، فإن هذا يحتاج إلى الصبر والجلَد على الجراح أو الأسر أو الشهادة احتسابًا وطلبًا لثواب الله تعالى.

فالبأساء: اسم من البؤس، وهو الشدة والفقر، والفقير يحتاج إلى الصبر على ما يكابد من آلام الجوع والحاجة، والتطلع إلى الأثرياء.

والضَّرَاءُ: ما يضر الإنسان من مرض أو فَقْد ولد أو مال ونحو ذلك، والعبد يحتاج إلى الصبر على كل ما ينزل به من ضر، فإن النفس تضعف والبدن يتألم.

أولئك الموصوفون بهذه الصفات، ممن اجتمع فيهم أركان الإيمان، وإنفاق المال، والوفاء بالعهد، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، هم الذين اتقوا عقاب الله؛ فتجنَّبوا معاصيَه ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ مع الله في إيمانهم وأعمالهم ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ المتجنبون لمعاصيه، ولم يتعدوا حدوده؛ خوفًا من عذاب الله تعالى.

فهذه عشرة أوصاف للأبرار؛ وهي:

١- الإيمان بالله. ٢- الإيمان باليوم الآخر. ٣- الإيمان بالملائكة.

٤- الإيمان بالكتب. ٥- الإيمان بالنبيين. ٦- الإنفاق في سبيل الله في مصارفه الثمانية.

٧- إقامة الصلاة. ٨- إيتاء الزكاة. ٩- الوفاء بعهد الله.

١٠ - الصابرين على ما أصابهم.

أَرْبَعُونَ حُكْمًا تَشْرِيعِيًا فِي السُّورَةِ بَدْءًا مِنْ هَذِهِ الآيَةِ

١٧٨- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾.

وبعد بيان خِصال البرِّ لأهل التقوى والإيمان، تَذْكُر سورة البقرة أربعون حُكمًا تشريعيًّا؛ لتحقيق منهج الله تعالى في المجتمع الإسلامي الجديد، وهذه الأحكام التشريعية هي:

١- القِصاص وأحكامه. ٢- حُكْمُ الوَصِيَّة عند الموت.

٣- أحكام الصيام. ٤- أحكام الدُّعاء.

٥- أحكامُ الاعتكاف. ٦- الصيام المستمر عن أكل الحرام.

٧- مراحلُ تشريع القتال في الإسلام.

٨ - القتال عند المسجد الحرام لرد العدوان. ٩- الجهادُ بالمال.

١٠- أحكامُ الحج. ١١ - الجِهاد في سبيل الله.

١٢- حُكم القتال في الشهر الحرام؛ لإعلاء كلمة الله، ورد العدوان.

١٣- التَّدَرُّجُ في تحريم الخمر. ١٤- إصلاحُ مال اليتيم.

١٥- حُكم الزواج من الوثنيات والكتابيات.

١٦- حُكم إتيان المرأة في المحيض و في الدبر.

١٧- موضع الحرث. ١٨- أحكام الأَيْمَانِ.

١٩- حُكم الإيلاء. ٢٠- أحكام العِدَّةِ.

٢١- أحكام الطلاق الرجعي.
٢٢- أحكام الخُلَع والطلاق على عِوَضٍ.
٢٣- طلاق البائن بينونة كبرى.
٢٤- عَضْلُ الأزواج للمرأة.
٢٥- عضل الأولياء للمرأة.
٢٦- حُكم الرضاع و الحضانة.
٢٧- عِدَّةُ المُتوفَّى عنها زوجها.
٢٨- حُكم التَّعَرُّضِ بالخِطبة للمعتدة.
٢٩- متعة المطلقة قبل تسمية المهر وقبل الدخول بها.
٣٠- المطلقة بعد تحديد المهر وقبل الدخول بها
٣١- حُكم المرتدِّ ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [الآية: ٢٥٦].
٣٢- متعة المتوفى عنها زوجها.
٣٣- متعة المطلقة المدخول بها.
٣٤- النفقة في سبيل الله: أجرُها والمنُّ بها.
٣٥- حُكم النَّذر.
٣٦- أحكام الرِّبا.
٣٧- أحكام المُدَاينة.
٣٨- التجارة الحاضرة.
٣٩- حكم الرهن ... إلخ.
٤٠- النهي عن كتمان الشهادة.

الحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ الأَوَّلُ: القِصَاصُ وَأَحْكَامُهُ

وقد ابتدأتْ هذه التشريعات بأحكام القصاص؛ لأنه أعظمُ في اختلال الأمن، وشيوع الفوضَى في المجتمع، ولذا: فإن هذه الآيات من أول ما نَزَلَ بالمدينة بعد الهجرة، وكان التحالف على النُّصرة يسود الأفرادَ والقبائلَ، والعصبية تتحكم في تصرفاتِهم.

وقد شَرَعَ الإسلام القِصاص في القتل العَمْد؛ حقنًا للدماء، واستتبابًا للأمن، وتحقيقًا للعدل بين الناس، وردعًا لهم، فإن القاتِل إذا عَرَفَ أنه سيُقْتَل ارتدع عن القتل.

وقد نَاطَ الإسلام مسألةَ القِصاص بالحَاكم، ولم يتركْها للناس حتى لا يعتدِي بعضُهم على بعض ظلمًا وعداونًا، ويتسلسل الثأر بين الناس، وتظل العداوة قائمةً بينهم.

وأول قِصاص حدث في الإسلام كان سنة ثمان من الهجرة، والنبي ﷺ في طريقِه إلى

فتح الطائف، حيث قَتَلَ رجلٌ من بني ليث رجلًا من هذيل، في مكان يسمى (بَحْرَةُ الرغاء) فاقتص منه النبي ﷺ[(١)].

ومما ورد في أسباب نزول الآية

١- أنه كان بيْن حَيَّيْن من أحياء العرب دماءٌ في الجاهلية، وكان لأحدهما طَوْل على الآخر، يزيد عليه في العُدة والأموال، فأقسموا، لَنقْتُلَنَّ الحر منكم بالعبد، والذَّكَر بالأنثى، فلما جاء الإسلام تحاكموا إلى رسول الله ﷺ، وكانت بنو النضير قد غزت قريظة في الجاهلية وقهروهم، فكان النضَري إذا قَتل القُرظي، لا يُقتل به، بل يَدفع له الدِّيَة، وقدرُها مئة وَسْق من التمر، وإذا قتل القُرظي النضري يُقتل به، وإن حدث فداءٌ، يُفدى بمئتي وَسْق من التمر، ضِعْف دية القُرظي، فأنزل الله هذه الآية يأمر بالعدل في القصاص[(٢)].

٢- أخرج ابن أبي حاتم بسندٍ حَسَنٍ عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أنهم كانوا لا يَقتلون الرجل بالمرأة، ولكن يَقتلون الرجل بالرجل، والمرأة بالمرأة؛ فأنزل الله: ﴿ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ﴾ فجعل الأحرار في القِصاص سواء فيما بينهم، رجالهم ونساؤهم، في النفْس وما دون النفْس، وجعل العبيد مستوين فيما بينهم في العَمْد، في النفْس وما دون النفْس، رجالهم ونساؤهم[(٣)].

٣- وأخرج البخاري وغيرُه عن أنس، أن عمة الربيع، كسرتْ ثَنِيَّةَ جارية، فطلبوا إليها العفو، فأَبَوْا، فعرضوا الأَرْشَ، فَأَبَوْا، فأتَوْا رسول الله، وأَبَوْا إلا القِصاص، فأمر رسول الله بالقصاص فقال أنس بن النضر: أَتُكْسَرُ ثنية الربيع؟ لا، والذي بعثك بالحق لا تُكْسَر ثنيتها، فقال ﷺ: **«يا أنس، كتاب الله القِصاص»**؛ فرضي القومُ فعفَوْا، فقال ﷺ: **«إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره»**[(٤)].

وقد أخذ أبو حنيفة بعموم الآية، ولم يستثنِ في القِصاص إلا المسلم، فإنه لا يُقتل في

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (٢/ ١٣٧).

(٢) «تفسير البيضاوي» ص٣٦ و«تفسير ابن كثير» (١/ ٤٨٩) وابن أبي حاتم (١٥٧٦) عن سعيد بن جبير، وفي الطبري (٣/ ٩٨) عن أبي مالك.

(٣) الطبري (٣/ ١٠٠) وابن أبي حاتم (١٥٧٨) والبيهقي في «السنن» (٨/ ٤٠).

(٤) البخاري برقم (٢٧٠٣، ٤٥٠٠) وبنحوه في مسلم برقم (١٦٧٥).

القاتل الحربي، وهذا مَحَلُّ اتفاقٍ، ففي الحديث: «ولا يُقتل مسلمٌ بكافرٍ»[١].

أما المعاهَد: فإن الجمهور على أن المسلم يُقتل فيه إذا قَتَلَه.

وقال مالك والشافعي وأحمد: لا يُقتل الحرُّ في العبد؛ استنادًا على فِعْل الخلفاء الراشدين، وسكوت الصحابة عنهم، والآثار مَرْوِيَّةٌ في ذلك، أما قَتْل الخطأ فسيأتي في سورة النساء.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾ أي: يأيها الذين صَدَقُوا اللهَ ورسولَه، وعملوا بشرعه، فُرض عليكم ما لم يعفُ وليُّ الدم أو يقبل الدية أن تقتصوا من القاتل عمدًا، بشرط المساواة في القتل، والمُمَاثَلَة وعدم التجاوز أو الإفراط بالتعدِي على غير القاتل، وفي هذا امتنان من الله تعالى على عباده أن القاتل يقتل على الصفة التي قتل عليها المقتول، وفيه دليل على أنه يجب إعانة وليّ المقتول إذا طلب القصاص ولا يجوز لأحد أن يمنعه من ذلك.

وبعض القبائل تَتَعَالَى على القبائل الأخرى، وتترفع عليها، وترى أنها ذات حسبٍ، أو جاهٍ، أو مالٍ، أو نسبٍ وأصلٍ، وأنها أفضل من غيرها بوجه من الوجوه.

فإذا اقتتل بعض الفريقين أو القبيلتين، وَقتلَ واحدٌ منهم عبدًا، أو رجلًا، أو امرأةً، فإن القبيلة التي تترفع وتتعالى على الأخرى لا تَكْتَفِي بالقِصاص العادل، وإنما تُريد الزيادة بغيًا وظلمًا وعدوانًا، فيقتلون بالرجل رجلين، ويقتلون بالأنثى رجلًا، وبالعبد حرًّا، وبالضعيف قويًّا، وبالفقير غنيًّا وهكذا، والله ﷻ يَنْهَى عن البغي والظلم في كل زمان ومكان.

قال قتادة: كان أهل الجاهلية فيهم بَغْيٌ وطاعةٌ للشيطان، فكان الحي إذا كان فيهم مَنَعَةٌ، فقَتل عبدُ قومٍ آخرين، عبدًا لهم، قالوا: لا نقتل به إلا حرًّا؛ تعززًا بفضلهم على غيرهم في أنفسهم، وإذا قُتلت لهم امرأة، قالوا: لا نقبل بها إلا رجلًا، فأنزل الله هذه الآية، يخبرهم أن العبد يُقتل بالعبد، والأنثى تُقتل بالأنثى، فنهاهم عن البغي، ثم أنزل الله ذكْرَه بعد ذلك في سورة المائدة في قوله: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ﴾[٢].

---

(١) من حديث عليٍّ في البخاري برقم (١١١، ١٨٧٠، ٧٣٠٠).

(٢) الأثر رقم (٢٥٥٩) من «تفسير الطبري» وأخرجه البيهقي في سننه (٨/ ٢٦) وعبد بن حميد، وأبو داود في ناسخه، وأبو القاسم الزَّجَّاجيُّ في أماليه، كما قال السيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ١٥٥).

وأنزل في سورة النساء آيةَ القصاص في القتل العَمْد، وأَوْجَبَ أن يكون القِصاص مِثْلًا بمثْلٍ، كما عليه الجمهور: مالك والشافعي وأحمد؛ لقوله تعالى ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ قيل: إنها نزلت في فريقين من العرب اقتتلوا في الجاهلية بسبب قتيل.

وقيل: إنها نزلت فيما كان بين الأوس والخزرج من حروب، وكان الشخص في أحد القبيلتين يترفَّعُ على الآخر، ويتوعد بالزيادة في الثأر.

والعِبرة بالعموم لا بالخصوص، وهو أمرٌ يَحدث في كل زمان ومكان.

فبيَّن تعالى أن الحرَّ الذكر يُقتل بالحر الذكر ولا يُزاد، والعبد يُقتل بالعبد ولا يزاد، والأنثى تُقتل بالأنثى كما هو ظاهر هذه الآية.

وخرج من هذا العموم الأبوان وإن علَوْا، فلا يقتلان بالولد كما دلّت عليه السنة.

وخرج أيضًا الكافر فلا يقتل فيه المسلم كما دلّت عليه السنة، إذ لا يُقتل ولي الله بعدوه.

وعند الأحناف: أن الذَّكَرَ يُقتل بالأنثى، والحر يقتل بالعبد، والمسلم يقتل بالذِّميِّ؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٤]،

ولحديث: **«المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يدٌ على مَن سواهم»**(١).

فالتفاضل عنده غير معتبَرٍ في الأنفس، بدليل أن جماعةً لو قَتلوا واحدًا قُتِلُوا به.

والذي يتولى تنفيذ القِصاص هو وليُّ أمر المسلمين، أو مَن فوَّضه في الجهة التنفيذية المخولة بهذا الجزاء، ولا يُترك القصاص لأفراد الناس، ولا يُترك لوليِّ الدم؛ أي: ليس له أن يثأر لنفسه، ولا يثأر لغيره؛ لأن الدماء تصير فوضَى، وكلٌّ يَقتل الآخر، فولي الأمر هو الذي يَتَوَلَّى تنفيذ القصاص، والأصل وجوب القصاص في القتل، والدية بدلًا عنه.

ثم أوصى الله وليَّ الدم أن يكون رفيقًا في مطالبة القاتل بالدِّيَةِ، فقال: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾ المراد بالشيء: هو القصاص أو القود، أي: فإن عفا ولي المقتول عن القصاص من القاتل وتنازل عنه إلى الدية، فإن القصاص يسقط وتجب الدية على القاتل،

---

(١) «سنن ابن ماجه» برقم (٢٦٨٣) عن ابن عباس، ومسند أحمد برقم (٦٧٩٧) عن عبد الله بن عمرو، وهو حديث صحيح وإسناده حسن، (محققوا المسند) وأخرجه الطيالسي (٢٢٥٨).

فيطالب بها من غير أن يُشق عليه، أو يُحمّل ما لا يطيق، وهذا معنى ﴿فَٱتِّبَاعُۢ﴾ أي: يجب أن تكون مطالبة ولي الأمر ﴿بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ أي: فإن صَفَحَ وليُّ الدم عن القصاص ورضِيَ بالدية؛ فلْيطالب القاتل بدية المقتول مطالبةً حسنةً، فلا يجحف له في القول، ولا يأخذ زيادة عن حقه، ولذا قال: (من أخيه) وفيه ترقيق وحث على العفو والتنازل من القصاص إلى الدية.

وأوصى سبحانه القاتل أن يدفع الدية لولي الدم دون تسويف ولا مماطلة ﴿وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ أي: وعلى القاتل أن يؤديَ الدية المستحَقَّةَ عليه للمقتول بدون مماطلة، بل يُحسن أداءها، فهل جزاء الإحسان إليه بالعفو، إلا الإحسان بحسن القضاء.

قال ابن عباس: كان في بني إسرائيل القِصاص، ولم يكن فيهم الدِّيَة، فقال الله لهذه الأمة: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾ إلى قوله: ﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ﴾ فالعفو أن يقبل الدية في القتل العَمْد ﴿فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ أي: يتبع الطالب بالمعروف ﴿وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ أي: يؤدي إليه المطلوب بإحسان ﴿ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ﴾ مما كُتب على مَنْ كان قبلكم ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: قَتَل بعد قبول الدية ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[١].

وكانت الدية عند العرب تسمى (العاقلة)؛ لأنها كانت إبلًا يسوقها وليُّ الدم إلى وَرَثَةِ المقتول، فيسلمونها إليهم، ويعقلون كل منها بالعِقَال الذي تُربط فيه، ومن هنا سُميت المعاقلة.

وكان في شريعة اليهود القِصاص فقط، فالقاتِل لَا بُدَّ أن يُقتل، ولا عفوَ ولا ديةَ[٢].

وكان عند النَّصَارَى الدية فقط مقابل القتل العَمْد، ولا قصاصَ ولا عفوَ[٣].

وقال ابن عباس: كان في بني إسرائيل القِصاص في القتْلَى، ليس بينهم دِيَة في نفس ولا جُرح، وكُتب عليهم أن النفس بالنفس، فخفف الله عن أمة محمدٍ، فجعل عليهم الدِّيَة في النفس وفي الجراحة، وهذا تخفيفٌ من الله ورحمة[٤].

---

(١) يُنظَر: البخاري (٤٤٩٨، ٦٨٨١) والنسائي (٤٧٩٥) وسعيد بن منصور في تفسيره (٢٤٦) وعبد الرزاق في تفسيره (١/ ٦٧) وفي مصنفه (١٨٤٥٠، ١٨٤٥١) وغيرهم.

(٢) يُنظَر الفصل التاسع عشر من سِفْرِ الخروج، والعشرين من سِفْرِ التثنية.

(٣) وهذا من وصايا مقابلة الإساءة بالإحسان في الإنجيل.

(٤) يُنظَر: الطبري (٣/ ١١٢) وابن أبي حاتم (١٥٨٥).

ولما جاء الإسلام نَسَخَ العمل بما كان قبله في هذا الحكم، وكان وسَطًا بين مجموع البشر من أهل الشرائع السماوية والقوانين الوضعية، فلم يُفرق بين الشريف والضعيف، ولم يَقتل قبيلةً بفرد، ولم يُعاقب بعقوبة لا تكفُّ الناس عن القتل، وتجعلهم غير آمنين.

وَخُيِّرَ الناس بين ثلاثة أشياء: هي القِصاص أو الدِّيَة أو العفو؛ أي: يعفو وليُّ الدم، ويتنازل عن حقِّه في القِصاص، ويكتفي بالدية، أو يعفو أيضًا بترك الدية والقصاص معًا.

عن أبي شُريح الخزاعي أن النبي ﷺ قال: **«مَن أُصيب بقتْلٍ أو خبْلٍ، فإنه يختار إحدى ثلاثٍ: إما أن يَقْتَصَّ، وإما أن يعفوَ، وإما أن يأخذ الدية، فإن أراد الرابعة فخذوا على يديه، ومَن اعتدى بعد ذلك فله نار جهنم خالدًا فيها مخلّدًا»**(١).

يقول سبحانه في نهاية الآية: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ لِمَا فيه من التسهيل والانتفاع ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ فاعتدى على القاتِل بالقتل بعد العفو عنه ﴿فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بقتله قصاصًا، أو بالنار في الآخرة؛ أي: مَن اعتدى بعد أخذ الدية فقَتَل قاتلَ وليِّه، فله عذاب أليم عاجل في الدنيا؛ وهو القتل؛ لأن الله تعالى جعل لكل وليِّ قتيل قُتِلَ ظلمًا سلطانًا على قاتلِ وليِّه كما قال تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ [الإسراء: ٣٣] ومَن أقيم عليه الحدُّ في الدنيا كان ذلك عقوبةً لذنبه، فلا يُعاقب في الآخرة.

كما في حديث عُبادة بن الصامت قال: بايعتُ رسول الله ﷺ في رهطٍ فقال: **«أبايعكم على أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمَن وفَّى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فأخذ به في الدنيا فهو كفارةٌ له، ومن سَتَرَه الله؛ فذلك إلى الله، إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له»**(٢).

---

(١) «المسند» (٤/ ٣١) برقم (١٦٣٧٥). إسناده ضعيف، لضعف ابن أبي العوجاء، وأخرجه البخاري في التاريخ ٣/ ٢٢٤ والدار قطني في السنن (٣/ ٩٦) والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٤٩٠٤ و أبوداود (٤٤٩٦) وابن ماجه (٢٦٢٣).

(٢) البخاري كتاب الحدود (٨/ ١٦٢) برقم (٦٨٠١، ٧٤٦٨) ومسلم (١٧٠٩).

الحِكْمَةُ في تَشْرِيعِ القِصَاصِ

١٧٩- ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾.

ثم بيَّن سبحانه العِلَّةَ والحِكمة في تشريع القِصاص فبين أنها حياةٌ للنفوس، ولكم أيها الناس في تشريع القِصَاص وتنفيذه فيما فرضته عليكم، وأوجبتُه لبعضكم على بعض حياةٌ آمنةٌ، فالبشرية كلُّها تَحْيَا والأمن يستتب، وإذا علم القاتِل أنه سيُقتل ولَا بُدَّ؛ فإنه سيكفُّ عن القتل، ويكون في هذا حياةُ البشر، حيث تُحقن الدماء ويُزجر الأشقياء، بخلاف ما إذا سُجِنَ للأبد، أو يُسجن فترة ثم يُطلق سراحه، أو يُقتل الوضيع ويُترك الشريف، فلا يكون في هذا حياة للناس؛ لأن العقوبة غيرُ رادعة، ففي مشروعية القصاص حياةٌ لنَفْسَي القاتل والمقتول؛ ولذلك يقول سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٧٩﴾[1] أي: رجاء أن تتقوا الله، وتخافوه يا أصحاب العقول السليمة.

أخرج عبد الرازق بسندٍ صحيحٍ عن قتادة قال: جعل الله في القِصاص حياةً، إذا ذَكَرَه الظالِم المعتدِي كَفَّ عن القتل.

الحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ الثَّانِي: الوَصِيَّةُ عِنْدَ المَوْتِ

١٨٠- ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ١٨٠﴾

هذه الآية فيها وصية مجملة مردها إلى العُرف، بالنسبة للوالدين والأقارب الوارثين، وكان ذلك قبل تحديد أنصبة المواريث في سورة النساء، وبقيت الوصية للوالدين، والأقارب الممنوعين من الميراث بسبب الكفر أو الحجب أو القتل، والله أعلم.

أي: لقد فَرَضَ الله عليكم أيها المؤمنون إذا حضر أحدَكم علامات الموت ومقدماته - إن ترك مالًا- الوَصِيَّة بجزءٍ من ماله للوالدين والأقربين الذين لا يرثون على قدر حاله من غير سرف ولا اقتصار على قريب دون قريب، مع العدل فيها، فلا يُوصِ للغني ويترك

---

(١) تكلم الفخر الرازي والألوسي عن ثلاثة عشر وجهًا من البلاغة في هذه الجملة: (ولكم في القصاص حياة) عن جُملة بعض بُلَغَاء العرب (القتل أنفَى للقتل) ومما قيل فيها: إن (قتل البعض إحياء للجميع).

الفقير، ولا يتجاوز الثلث في وصيته، ولا وصيةَ لوارث إلا بإجازة الورثة.

حكم الوصية: والوَصِيَّةُ قد تكون واجبةً، وذلك إذا سافر الإنسان أو مَرِض ونحو ذلك، كما جاء في الحديث عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: **«ما حقُّ امرئٍ مسلم، له شيء يوصِي فيه، يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عند رأسه»**(١).

قال عبد الله بن عمر: ما مرتْ عليَّ ليلة منذ سمعتُ رسول الله ﷺ قال ذلك إلا وعندي وصيتي، فإن كان عليه دَيْنٌ، أو زكاة أو نذر أو غير ذلك فإن كتابة الوَصِيَّة عليه تكون واجبةً؛ لبيان حقوق الله وحقوق العباد.

وفي غير ذلك تكون سُنة مستحبة، ويستحب للمسلم أن يوصِيَ من أمواله في حدود الثلث إلى جِهات الخير والبرِّ، ويجعلها وَقْفًا لله تعالى، صدقة جارية أو نحو ذلك من أنواع البر.

مقدار الوصية: جاء في الصحيحين وغيرهما أن سعدًا رضي الله عنه قال: يا رسول الله، إن لي مالًا، ولا يرثني إلا ابنة لي، أفأُوصي بثلثيْ مالي؟ قال: **«لا»**، قال: فبالشطر، قال: **«لا»**، قلت: فالثلث، قال: **«الثلث والثلث كثير، إنك أن تذر ورثتَك أغنياء خيرٌ من أن تذرهم عالةً يتكففون الناس»**(٢).

وفي البخاري وغيره أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لو أنَّ الناس غضوا من الثلث إلى الربع فإن رسول الله ﷺ قال: **«الثلث، والثلث كثير»**(٣).

وعن عائشةَ ﵂ أن رجلًا قال لها: إني أريد أن أوصِي؟ قالت: كم مالُكَ؟ قال: ثلاثة آلاف، قالت: كم عيالُك؟ قال: أربعة، قالت: قال الله: **﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾** وإن هذا شيءٌ يسيرٌ، فاتركْه لعيالِك فهو أفضل(٤).

---

(١) البخاري (٢٥٣٣) ومسلم (٣٠٧٤).

(٢) يُنظَر: «صحيح مسلم» برقم (١٦٢، ١٦٢٨) و«صحيح البخاري» برقم (١٢٩٥، ٢٧٤٢) وغيرها.

(٣) البخاري برقم (٢٧٤٣) ومسلم (١٦٢٩) وانظر «المسند» (٥/ ٦٧). والحديث السابق.

(٤) أخرجه سعيد بن منصور في تفسيره (٢٤٨) وابن أبي شيبة (١١/ ٢٠٨) والبيهقي (٦/ ٢٧٠) قال محقق سنن سعيد بن منصور: سنده صحيح.

وقال قتادة: ويلك يابن آدم، كنتَ بخيلًا ممسكًا، حتى إذا حضرك الموت أخذتَ تُدعْدع مالَك وتُفرقُه، يابن آدم، اتقِ الله، ولا تجمع إساءتين في مالِك؛ إساءة في الحياة، وإساءة عند الموت، انظرْ إلى قرابتِك الذين يحتاجون ولا يَرثون، فأوصِ لهم من مالِك بالمعروف[1].

والآيةُ تحدَّثتْ عن الوَصِيَّة للوالدين والأقربين ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ **والخير**: هو المال الكثير؛ أي: إن ترك مالًا كثيرًا كثرة نسبية وَفْقَ مستوى الموصِي، وهذا لا يمنع الوَصِيَّة من المال ولو كان قليلًا.

هل الآية منسوخة؟ وهذه الوَصِيَّة للوالدين والأقربين، نُسخت عند جمهور أهل العلم بآية الميراث التي حدَّدَتْ نصيبَ كلِّ وارثٍ ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء: ١١] ففي الآية توريث الوالدين السدس إن كان له ولد، أو الثلث إن لم يكن له ولد، فجاء توريث الوالدين في آية الميراث ناسخًا لِمَا في هذه الآية من وجوب الوَصِيَّة للوالدين، وقبل نزولها كان لا يرث مع الوالدين غيرهم إلا وصية الأقربين، فأنزل الله ميراثَ الوالدين وأقرَّ بوصية الأقربين من غير الورثة في ثلث المال.

وقيل: إنها غيرُ منسوخة، وإنها نزلت في حقِّ مَنْ ليس بوارثٍ من الوالدين والأقربين بسبب الكفر أو الحجْر ونحوه، فشُرعت الوَصِيَّة للوالدين والأقارب قضاءً لحقِّ الأبوة والقرابة، فهي مُستحبَّةٌ في حقِّ مَن لا يَرِثُ.

قال علي ﷺ: من لم يوصِ عند موته لذوي قرابته مِمَّن لم يرثْ فقد ختم عمله بمعصية.

ونُقِل عن ابن عباس أنها خاصة بغير الورثة؛ لأن الوَصِيَّة لا تجوز لوارثٍ إلا إذا أجازتْها الورثة؛ لسبب من الأسباب المقبولة شرعًا كأن كان مُعاقًا أو صغيرًا لم يأخذ حظَّه كإخوانه في التربية أو التعليم أو الزواج ونحو ذلك.

لا وصية لوارث:

ففي حديث عمرو بن خارجة أن رسول الله ﷺ خطبهم على راحلته فقال: «**إن الله قد**

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١٦٣٦٨).

قَسَمَ لكل إنسانٍ نصيبه من الميراث، فلا تجوز لوارث وصيةٌ»[١].

وفي حديث أبي أُمَامة الباهِلي قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يَخطب في حَجة الوداع وهو ﷺ يقول: «**إن الله قد أعطَى كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فلا وصية لوارث**»[٢].

وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال رسول الله ﷺ: «**لا وصية لوارث إلا أن يجيزَه الورثة**»[٣].

فالذي يرث لا ينبغي أن يُوصَى له في الأصل، وفي غير ما ذكر فإن الوَصِيَّة باقيةٌ بهذه الآية، وهو الأرجح، فهي آيةٌ مُحْكَمَةٌ.

وقد كان العرب يوصون في جاهليتهم بأموالهم للبعيد ويتركون القريب، فأنزل الله ﴿ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ من غير الورثة، وخُصص ذلك بالمعروف؛ أي: ليس فيه ظُلْمٌ ولا جَوْرٌ ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: عادني النبي ﷺ وأبو بكر في بني سلمة ماشييْن، فوجدني النبي لا أعقل، فدعا بماء فتوضأ منه ثم رشَّ عليَّ؛ فأفقت، فقلت: ما تأمرني أن أصنع في مالي يا رسول الله؟ فنزلت ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾[٤] فعلم بهذا أن الوَصِيَّة للوالدين كانت مجملة قبل نزول آية الميراث، وأنها باقيةٌ للأقربين، والوالدين غير الوارثين.

وقد أخذ بعضُ أهل العلم من آية الوَصِيَّة هذه ما أسموْه بـ (الوَصِيَّة الواجبة) بمعنى أن الأحفاد الذين مات أبوهم في حياة جَدهم يرثون حقَّ أبيهم في تَرِكة جدهم كما لو كان أبوهم حيًا، وخاصة لو كان هو الابنُ الأكبر، وقد تحمل عبئًا أو ساهم في تكوين الثروة فإن ذريتَه لا تُحرم من ميراث أبيهم، وبهذا أخذ قانونُ الأحوال الشخصية في مصر وبعض

---

(١) «سنن الترمذي» برقم (٢١٢١) و«سنن النسائي» (٦/ ٢٤٧، ٣٦٤٣، ٣٦٤٥) و«سنن ابن ماجه» برقم (٢٧١٢) و«المسند» (١٧٦٦٤، ١٧٦٧٠) صحيح لغيره وفي إسناده شهر بن حوشب ضعيف، و«صحيح سنن الترمذي» (١٧٢٢).

(٢) أخرجه البيهقي في سننه (٦/ ٢١٢) عن أبي أمامة الباهلي، وكذا أحمد في «المسند» (٢٢٢٩٤) وقال محققوه: إسناده حسن، وأخرجه أبو داود (٢٨٧٠) والترمذي (٦٧٠) وابن ماجة (٢٠٠٧) والطيالسي (١١٢٧) وعبدالرزاق (٧٢٧٧) وغيرهم.

(٣) «الدر المنثور» (٢/ ١٦٧).

(٤) أخرجه البخاري في تفسير سورة النساء برقم (٤٥٧٧) وانظر (١٩٤) وأخرجه مسلم (١٦١٦).

البلاد الإسلامية. قال تعالى:

١٨١ - ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١٨١﴾

فمَن غيَّر وصيةَ الميت بعدما سمعها منه قبل موته، فالذنب على مَن غَيَّر وبدَّل، أو حرَّف فيها أو نقص أو زاد بعدما سمعه، أما الموصى فقد وقع أجره على الله وعلى المسلم أن لا يترك الوَصِيَّة مخافةَ تبديلها أو عدم تنفيذها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لوصيتكم وأقوالكم، فينبغي على الموصي أن يراقب من يسمعه ويراه، ولا يجور في وصيته فالله ﴿عَلِيمٞ﴾ بما تُخفيه صدورُكم، وسيجازيكم عليه فلا ذنب على الموصِي ولا الموصَى له، وإنما الإثم على مَن بدَّل. قال تعالى:

١٨٢ - ﴿فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ[1] جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

فإذا حضر أحدٌ صاحبَ الوَصِيَّة وهو يوصِي، ووجد منه ميلًا عن الحق في وصيته عمدًا أو خطأً، فوجده يضر ببعض أقاربه فيَحْرِمَهم، أو يُقدِّم عليهم الأبعد، أو يترك الفقير منهم، أو وجده يَحيف أو يَجور أو يَظلم في وصيته؛ فعليه أن يأمره بالمعروف، وعليه أن يُصْلِح بين الأطراف، وأن يأمرَه بالحقِّ والعَدْلِ وتغيير الوَصِيَّة؛ لتوافق الشريعة ﴿فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا﴾ أي: عدولًا عن الحقِّ، وتعمدًا للإثم؛ يعني: جَوْرًا وظلمًا وبغيًا أو إثمًا ﴿فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ **والجنف**: هو الميل عن الصواب والخطأ فيه.

جاء في حديث أبي هريرة ﷺ: «**إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة، فإذا أوصَى حاف في وصيته، فيختم له بشر عمله**»[2].

وفي الأثر عن ابن عباس ﷺ قال: الجنف في الوَصِيَّة والإضرار فيها من الكبائر[3].

---

(١) قرأ شعبة وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف العاشر (مُوَصٍّ) بفتح الواو وكسر الصاد المشددة، وقرأ الباقون (مُوصٍ) بواو مدية بعد الميم وبعدها صاد منونة بالكسر، وهما لغتان.

(٢) يُنظَر: «مصنف عبد الرزاق» برقم (١٦٤٥٥) وأبو داود في «السنن» (٢٨٦٧) والترمذي برقم (٢١١٧) عن شهر بن حوشب وقال: حديث حسن صحيح غريب.

(٣) رواه الدارقطني (٤/١٥١٥) والبيهقي في «السنن الكبرى» (٦/ ٢٧١) رُوِيَ مرفوعًا وموقوفًا على ابن عباس و الوقف أصح ،وأخرجه أيضا سعيد بن منصور في سننه (٢٥٨، ٢٦٠) قال محققه: إسناده صحيح.

وفي معنى الآية أخرج الطبري بسندٍ حَسَنٍ عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: إذا أخطأ الميِّتُ في وصيته، أو حاف فيها، فليس على الأولياء حَرَجٌ أن يَرُدُّوا خطأه إلى الصواب[١].

فمَن أوصَى بشيءٍ فيه ظُلم أو جَور فعلى وليِّ أمر الميت وأُولي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يَردوه إلى الصواب.

وأخرج الطبري أيضًا بسند صحيح عن مُجاهد قال: هذا حين يحضر الرجل وهو يموت، فإذا أسرف أمروه: افعل كذا، أعط فلانًا كذا[٢].

الحُكمُ الثَّالِثُ فِي سُورَةِ البَقَرَةِ (الصِّيَامُ وَأَحْكَامُهُ)[٣]

١٨٣- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾

وهذه الآية من سورة البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ هي النداء الخامس لجماعة المؤمنين في السورة الأولى بعد الفاتحة من سور القرآن الكريم، وهو نداء حبيب إلى القلب، بلفظ الإيمان، يستنهض الهمم، ويستجيش النفوس، ويحرك مشاعر الطاعة والاستجابة، يخاطب سبحانه عباده المؤمنين ليكلفهم، فيأمرهم أو ينهاهم؛ كي يسمعوا ويطيعوا، وقد جمع الله سبحانه آيات الصيام في مكان واحد من سورة البقرة.

وسوف نتناول الصيام في الإسلام وفي غيره من الديانات السماوية والأرضية:

الصيام في الإسلام: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ أي: فُرض ووجب عليكم، والصيام كما هو معلوم: الإمساك والامتناع عن الأكل والشرب ومجامعة النساء بنية الصوم من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وقد فُرِض الصيامُ في السنة الثانية للهجرة، وصام النبي ﷺ تسعة رمضانات، ولا بدَّ فيه من النية، وإلا فإذا امتنع المسلم عن شهوة بطنه وفرجه دون نية فلا أجر له ولا يُعدُّ ذلك صومًا، ولو كان من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

---

(١) الطبري (٣/ ١٤٠) وابن أبي حاتم (١٦٠٩، ١٦١٩).

(٢) الطبري (٣/ ١٤٢).

(٣) عمدنا إلى تخصيص آيات الصيام بمزيد من البحث؛ لأنها لا توجد في مكان آخر من القرآن، ولأنها تتعلق بركن من أركان الإسلام يأتي في كل عام مرة، ولأن الداعية يلزمه ذلك في شهر الصيام.

ولا يكون الصوم كاملًا مقبولًا إلا إذا كان العبد مؤديًا ومحافظًا على الفرائض التي فرضها الإسلام وشرعها له، بأن كان مصليًا مزكيًا حاجًّا ومعتمرًا إن كان مستطيعًا، وغير ذلك مما ألزمنا به الشرع.

ولا يكون الصيام كاملًا إلا إذا امتنع العبد عن ارتكاب المحرمات والمحظورات من كبائر الذنوب والخطايا.

ولا يكون الصوم على الوجه اللائق المقبول إلا إذا اتقى العبد الشهوات والشبهات، وامتنع عن صغائر الآثام والذنوب وسفاسف الأمور، وعدم الإساءة إلى خلق الله.

ولا يكون الصوم كاملًا إلا إذا مَلَك الإنسان نفسه فامتنع عن الغضب، وحَفِظ جوارحه وأعضاءه، ومن ذلك حفظ سمعه وبصره ولسانه ويده من المنكرات، كما قال ﷺ من حديث أبي هريرة ﷺ: **«من لم يدع قول الزور والعمل به والجهل فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»**[١] والزور: هو المحظور المحرم من الأقوال والأفعال.

ولا يكون الصوم مقبولًا على الوجه الصحيح حتى يَكُف الإنسان أذاه عن غيره، فلا يسبه ولا يشتمه، ولا يصخب، ولا يغتاب، ولا يكون نمامًا، وأكد الإسلام على عدم الغضب والجهل، وتصرف السفهاء، كالاستهزاء والسخرية من الناس؛ حتى يصل العبد إلى درجة الكمال المطلوب من الصائم، وهذا مما يشير إليه قول النبي ﷺ فيما يرويه أبوهريرة ﷺ: **«إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب ولا يجهل** - كما في رواية- **فإن سابَّه أحد أو شاتمه فليقل إني امرؤ صائم»**[٢]

فإن أجر الصائم يقل مع ارتكاب اللَّمم والصغائر.

ويُسنُّ في الصيام التعجيل بالفطر عقب غروب الشمس، وأن يفطُر الصائم على تمرات

---

(١) أخرجه الشيخان ومالك وأبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة، «صحيح الجامع الصغير» برقم (٧٩٥)، ورقمه في البخاري (١٩٠٣)، دون (والجهل) والنسائي في السنن الكبرى (٣٢٤٥، ٣٢٤٨)، والبيهقي في الشعب (٣٦٤١).

(٢) يُنظَر: البخاري (١٩٠٤) ومسلم (١١٥١) والنسائي (٢٢١٥، ٢٢١٦) والمسند (٧٦٩٣، ١٠٦٩٢) وابن أبي شيبة (٣/ ٥) ومالك (١/ ٣١٠)

وإلا فماء. ويُسن تأخير السحور إلى قبيل صلاة الفجر. ويُسن أن يصحب الصيام في العشر الأواخر من رمضان: الاعتكاف في المساجد. ويفسُد الاعتكاف بالجماع؛ بأن يأتي الإنسان أهله ليلًا في رمضان، وإتيان النساء في نهار رمضان يفسد الصيام على وجه الخصوص، وفيه القضاء والكفارة المغلظة فيبدأ بتحرير رقبة من الرق، ثم صيام شهرين متتابعين، ثم إطعام ستين مسكينًا على هذا الترتيب.

ومما ورد في هذا أن سلطان قرطبة سأل يحيى بن يحيى الليثي عن يوم أفطره في رمضان عامدًا، غلبته الشهوة على إتيان بعض جواريه، فأفتاه يحيى بأن يصوم ستين يومًا، وأغفل ذكر العتق والإطعام، فلما سئل عن ذلك، قال: لو فتحنا له هذا الباب لوطئ كل يوم وأعتق أو أطعم؛ فحملتُه على الأصعب لئلا يعود[١].

ذلكم بعض ما يشير إليه قول الحق تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾، أي: فرض عليكم الصيام كما فرض على الأمم السابقة، لأنه من الشرائع التي فيها مصلحة الخلق في كل زمان، وليس من الأمور الثقيلة التي اختصت بها هذه الأمة، فينبغي عليها أن تنافس غيرها، وأن تسارع إلى صالح الأعمال والخصال.

وقد أوجب الله علينا صيام شهر رمضان بهذه الآيات، وبحديث عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**بُنِيَ الإسلامُ على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، والحج**»[٢] وثبتت فرضيته بعمل الرسول ﷺ وإجماع الصحابة والمسلمين، وإنكاره كفر مُخرِجٌ من الملة، والصيام المأمور به في الآية هو المبيَّن وقته في قوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ فالمراد به: صيام شهر رمضان، وكان الصيام في بادئ الأمر ثلاثة أيام من كل شهر.

الصيام عبادة قديمة: وهذا الصيام لم يشرع لأمة محمد ﷺ وحدها، وإنما شرع الصيام لأمم التوحيد جميعًا، فالآية تصرح بأن الصيام الذي فرضه الله علينا فرضه كذلك على

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (٢/ ٧٠).

(٢) البخاري (٨) ومسلم (١٦) والترمذي (٢٦٠٩) والنسائي (٥٠١٦) وغيرهم.

الأمم ذات الرسالات الإلهية، وهي التي نزل عليها وحْيٌ وكِتابٌ ورسالةٌ من عند الله تعالى؛ كقوم نوح، وقوم إبراهيم، وقوم موسى، وقوم عيسى عليهم الصلاة والسلام، فالجميع يشتركون في هذه العبادة العظيمة، ولكن صيام كل أمة يختلف عن غيرها، فهو عبادة قديمة عرفتْها البشرية عن طريق الوحي بواسطة الرسل على أنه وسيلة من وسائل التقرب إلى الله تعالى، وهو من أكثر العبادات انتشارًا، ولم يخلُ منه دين من الأديان، ولا شعب من الشعوب في العالم قديمه وحديثه في جميع الملل والنحل، سواء منها الديانات التي نزلت من عند الله تعالى، أو من الديانات الباطلة التي اخترعها الإنسان على وجه هذه الأرض، وقد فُرض الصيام على هذه الأمة، وعلى غيرها من أمم التوحيد، كما فرض على الذين من قبلكم.

أولًا: صيام أهل الديانات الأرضية: والصيام ليس معروفًا فقط في الشرائع الإلهية، وإنما عَرف الصيامَ أهل الديانات الوثنية الأرضية الذين شرعوا لأنفسهم ما لم يشرعْه لهم رب العالمين، واختلقوا ديانات في الأرض، كأنواع الديانات المعروفة إلى اليوم: البوذية، والمانوية، والهندوكية، والصابئة، وقدماء المصريين، واليونانيين، والصينيين، وغيرهم من الملل والنحل المختلفة، هؤلاء وغيرهم عرَفوا الصيام على أنه تهذيب ورياضة نفسية وصفاء للروح، فكانوا يصومون بشكل أو بآخر وفق اختراعاتهم، **ومن هذه الملل:**

١- **قدماء المصريين:** فقد عرفوا الصيام ومارسوه قصدًا لصفاء الروح، خصوصًا أيام أعيادهم، حيث كان الشعب كله يصوم، أما الكهنة فكانوا يصومون من سبعة أيام إلى ستة أسابيع من كل عام.

٢- **أما اليونانيون:** فقد أخذوا الصيام عن قدماء المصريين، فكان الشعب كله يصوم (ترضية للآلهة) أيامًا متوالية قبل الحرب؛ حتى ينتصروا.

٣- **والصينيون:** كانوا يصومون بعض الأيام، ويوجبونه على أنفسهم أيام الفتن والقلاقل، وبعض طوائف (التبْت) يمتنعون عن الطعام أربعًا وعشرين ساعة متصلة، لا يبتلعون حتى ريقهم، ولا يتناولون أي طعام، هكذا شرعوا لأنفسهم ما لم يأذن به الله.

٤- **أما البرهمية:** فإنهم يصومون عن اللحم والسمك والحلوى واقتراب النساء.

ثانيًا: التعرف على صيام أهل الرسالات السماوية:

١- **صيام قوم نوح:** قال قتادة: كان الصيام زمن نوح عليه السلام ثلاثة أيام من كل شهر، ثم نسخه الله بصوم رمضان.

قال الضحاك: كان الصوم الأول صامه نوح فمَنْ دونه، حتى صامه النبي ﷺ وأصحابه، وكان صومهم من كل شهر ثلاثة أيام إلى العشاء، وهكذا صامه النبي ﷺ وأصحابه(١).

٢- **صيام اليهود:** صام موسى عليه السلام استعدادًا لملاقاة ربه ونزول التوراة عليه أربعين يومًا ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢]

وقد أخبر النبي ﷺ أن اليهود كانوا يصومون يوم عاشوراء حين قدم إلى المدينة ووجدهم يصومونه، فسألهم عن سبب صيامهم له، قالوا: هذا يوم نجَّى الله فيه بني إسرائيل من عدوهم فصامه موسى شكرًا لله تعالى، وكان اليهود يصومون عند الحُزْن والحِداد، وعند المرض والخطر، ويصومون أسبوعًا من كل عام تذكارًا لخراب (أورشليم)، ويومًا آخر للكفارة.

وقيل: إن الله تعالى فرض صيام شهر رمضان على اليهود والنصارى، ولكنهم غيروا وبدلوا وحرفوا.

٣- **أما صيام النصارى:** فقد صام عيسى عليه السلام أربعين يومًا قبل بدء الرسالة كما جاء في الإنجيل، وصام أيضًا يوم الكفارة الذي كان مقررًا ومعروفًا في شريعة موسى عليه السلام.

وقيل: إن صيام شهر رمضان كان واجبًا عليهم، ولما وجدوا أن صيامه يأتي في شدة الحر والبرد، وكان يشق عليهم الصيام فيه، اجتمع رؤساؤهم ورهبانهم، كعادتهم في التغيير والتحريف والتبديل، وتخيروا وقتًا آخر للصيام هو فصل الربيع من العام؛ حيث لا حر ولا برد، وأخذوه وقتًا لصيامهم، فاستبدلوا بصيام شهر رمضان فصل الربيع، وزادوا عشرة أيام كفارة لما صنعوا، فصاروا يصومون أربعين يومًا، ثم زادوه ثلاثة أيام وسموه: الصيام الصغير، وهو عند طائفة الأرثوذكس يمتنعون فيه عن اللحوم البرية وما يخرج من حيواناتها، من ٢٥ نوفمبر إلى ٧ يناير.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم (١٦٢٤).

أما الصيام الكبير فمدته خمسة وخمسون يومًا، قيل: إنهم صاموا شهرًا، ثم مرض ملكهم فقالوا: لئن شفاه الله لنزيدنَّ عشرًا، ثم جاء ملك آخر، فأكل لحمًا ومرض، فقالوا: لئن شفاه الله لنزيدنَّ سبعًا، ثم جاءهم ملك ثالث، فأتموها عشرًا، وجعلوا صومهم في الربيع، فصارت خمسين يومًا[(١)].

وهم يمتنعون في هذا الصيام عن لحوم الحيوانات البرية والبحرية، وينتهي بما يسمونه يوم القيامة، يَعنُون به قيام المسيح من قبره بعد صَلْبه على حد زعمهم.

٤- وأفضل الصيام **صيام داود**، كان عليه السلام يصوم يومًا ويفطر يومًا، كما أخبر بذلك المصطفى ﷺ.

في الصحيحين أن عبد الله بن عمرو ﷺ قال: أُخْبر رسول الله ﷺ أني أقول: والله لأصومنَّ النهار ولأقومنَّ الليل ما عشت، **فقلت له**: قد قلتُه بأبي أنت وأمي، قال: «**فإنك لا تستطيع ذلك، فصم وأفطر، وقم ونم، وصم من الشهر ثلاثة أيام، فإن الحسنة بعشر أمثالها وذلك مثل صيام الدهر**»، قلت: إني أطيق أفضل من ذلك، قال: «**فصم يومًا، وأفطر يومين**»، قلت: إني أطيق أفضل من ذلك، قال: «**فصم يومًا وأفطر يومًا، فذلك صيام داود** عليه السلام، **وهو أفضل الصيام**»، فقلت: إني أطيق أفضل من ذلك، قال النبي ﷺ: «**لا أفضل من ذلك**»[(٢)].

٥- وكان الصوم معروفًا عند العرب **في الجاهلية** قبل الإسلام، فبعضهم كان يصوم رمضان ويتحنث فيه، لاسيما الحنفاء الذين كانوا على التوحيد.

وكان النبي ﷺ يتحنث شهر رمضان من كل عام قبل نزول الوحي يتعبد، ويطعم من جاءه من المساكين في غار حراء.

صيام يوم عاشوراء:

وكان العرب يصومون يوم عاشوراء على سبيل الفرض، ولما فُرض صيام شهر رمضان صار

---

(١) أخرجه البخاري في تاريخه (٣/ ٢٥٤) والنحاس في ناسخه ص٩٢ والطبراني في الكبير (٣٢٠٣) وفي الأوسط (٨١٩٣) عن دغْفل بن حنظلة، قال البخاري: لا أعرف لدغفل إدراكًا للنبي ﷺ.

(٢) «صحيح البخاري» (٣/ ٣٥) برقم (١٩٧٦) وانظر: (١١٣١) «صحيح مسلم» (٣/ ١٦٢) برقم (١١٥٩).

صيام يوم عاشوراء بالتخيير، كما صح عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت: **«كان عاشوراء يُصام، فلما نزل فَرْضُ رمضان كان مَن شاء صام، ومن شاء أفطر»**[(١)]

ومنهم من كان يصوم يوم عاشوراء قبل الإسلام في مكة، ثم في المدينة.

روى البخاري وغيره بسنده عن عائشة ﵂ قالت: كان يوم عاشوراء تصومه قريش في الجاهلية، وكان رسول الله ﷺ يصومه، فلما قدم المدينة صامه وأمر بصيامه، فلما فُرِض صيام شهر رمضان ترك يوم عاشوراء، فمن شاء صامه ومن شاء تركه[(٢)]

وعن جابر بن سمُرة ﵁ قال: كان رسول الله ﷺ يأمر بصيام يوم عاشوراء، ويحثنا عليه، ويتعاهدنا عنده، فلما فُرض رمضان، لم يأمرْنا ولم ينْهنا عنه، ولم يتعاهدْنا عنده[(٣)]

فالصيام إذًا عبادة قديمة قِدَم الإنسان من لَدن آدم إلى محمد عليهم جميعًا أفضل الصلاة وأتم التسليم.

مِنْ صُوَرِ الصِّيَامِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ

للصيام قبل الإسلام صور متعددة منها:

أ- الامتناع عن الكلام فقط: وهو صورة من صور الصيام عند اليهود. فهذه مريم وقد كانت ديانتها اليهودية تقول: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦] وكان قومها أيضًا من اليهود.

وقد عرف هذا النوع من الصيام طائفة الكاثوليك من النصارى، وبعض ديانات الهنود كالبرهمية، كما عرفه العرب في جاهليتهم ومارسوه.

ب- الصوم عن الحركة والعمل: وتَرْكُ العمل بالمرة صورة من صور الصيام كما تقرره شريعة اليهود؛ إذ تَحْرُمُ عليهم مزاولة الأعمال في يوم السبت من كل أسبوع، اعتقادًا منهم

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٥٩٢، ٤٥٠٢) و«صحيح مسلم» برقم (١١٢٥).

(٢) «التجريد الصريح لأحاديث الصحيح» الجزء الأول، باب الصوم ص١٣٥ مطبعة دار الكتاب العربي ببيروت، ورقمه في «صحيح البخاري» (٢٠٠٢) وانظر: (١٥٩٢) وأخرجه مسلم (١١٢٥).

(٣) مسلم (١١٢٨) وابن أبي شيبة (٣/ ٥٥).

أن الله تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام، واستراح في اليوم السابع، وكان يوم سبت، قال تعالى ردًّا عليهم: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق] فالله ﷻ لا يتعبه شيء، ولا يمسه نصب ولا جهد.

وقد عرف هذا النوع من الصيام كثير من الديانات؛ كالديانة البوذية التي تحرم العمل مدة أربعة أيام من كل شهر قمري.

ج- الصيام عن بعض المأكولات والمشروبات:

وترك بعض المأكولات والمشروبات دون بعض، صورة من صور الصيام قديمًا:

كالصيام الصغير عند طائفة النصارى الأرثوذكس، وهو يقتضي الكف عن لحوم الحيوانات البرية وما يُستخرج منها، ويباح ماعدا ذلك، ومدته ثلاثة وأربعون يومًا تبدأ من ٢٥ نوفمبر وتنتهي في ٧ يناير من كل عام ميلادي.

وكذلك الصيام الكبير عندهم، وهو يقتضي الكف عن لحوم الحيوانات البرية والبحرية وما يستخرج منهما، ويباح ما عداهما، ومدته خمسة وخمسون يومًا، تنتهي بما يسمونه يوم القيامة، ويَعْنُون به: قيام المسيح من قبره بعد صَلْبه ودفنه - على حد زعمهم - وقد عرف هذا النوع من الصيام: الصابئة، وهم يصومون سبعة أيام يمتنعون فيها عن اللحم ومشتقاته، وعن شرب الخمر.

أما أهل الديانة البرهمية فقد كانوا يمتنعون عن اللحم والسمك والحلوى، واقتراب النساء.

مدة الصيام عند الأمم السابقة: وقد يستغرق الصيام في هذا كله، الليل والنهار، أو الليل فقط، أو النهار فقط، أو جزءًا منهما، كل ديانة وفق ما هو مقرر فيها، وقد يكون الصيام يومًا أو أيامًا متتابعة، أو متفرقة، وقد يبلغ شهرًا أو أكثر، وقد يكون الصيام: صيام يوم وإفطار يوم، أو ترك بعض الواجبات دون بعض.

طقوس غريبة ترتبط بالصيام

١- يؤدي بعض اليهود الصوم صامتًا واقفًا في الشمس، لا يتكلم ولا يقعد ولا يستظل، يعذب نفسه طيلة الصيام.

٢- ومن البرهميين من يصوم وهو جالس على الأرض مباشرة دون فراش.

٣- ومنهم من يلوث جسمه في صيامه بروْث البقر، ويفطر على روْثها وبولها، وغير ذلك من العجائب والغرائب[١].

فالحمد لله الذي أكرمنا بالإسلام، وهدانا إلى الصيام الذي شرعه رب العالمين، وارتضاه من عباده إلى يوم الدين.

ثالثًا: الصيام الأخير: أما الصيام الكامل الذي أراده الله من عباده إلى يوم القيامة، بعد أن تدرج التشريع الإلهي مع البشر من لدن آدم إلى محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فهو الامتناع عن شهوتي البطن والفرج من طلوع الفجر إلى غروب الشمس في شهر رمضان من كل عام؛ كي يقوده هذا الصيام إلى تقوى الله تعالى.

وقد مر الصيام في الإسلام بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: أنه لما قدم النبي ﷺ المدينة كان يصوم ثلاثة أيام من كل شهر، ويصوم يوم عاشوراء، وكان ذلك قبل أن يفرض صيام شهر رمضان.

من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم:

وفي السنة الثانية من الهجرة فرض الله عليه وعلى أمته صيام شهر رمضان بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾أي: يستطيعون الصيام ويتحملونه بمشقة ﴿فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ﴾ فكان من شاء صام ومن شاء أفطر.

ومعنى هذا أن صيام شهر رمضان فُرض أولًا على وجه الاختيار، من شاء صام، ومن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكينًا، كما جاء في الآية: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ﴾:

١- روى البخاري وغيره عن سلمة بن الأكوع أنه قال: لما نزلت ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ

(١) راجع بحث الصيام للدكتور/علي عبد الواحد وافي.

يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ﴾ كان من أراد أن يُفطر ويَفتدي فَعَل حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها[١].

٢- وأخرج ابن حبان وغيره عن سلمة بن الأكوع قال: كنا في رمضان في عهد رسول الله ﷺ من شاء صام، ومن شاء أفطر وافتدى بإطعام مسكين حتى نزلت هذه الآية ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾[٢].

٣- وقال ابن أبي ليلى: حدثنا أصحابنا أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة أمرهم بصيام ثلاثة من كل شهر تطوعًا من غير فريضة، ثم نزل صيام رمضان، وكانوا قومًا لم يتعودوا الصيام، فكان يشتد عليهم الصوم، فكان من لم يصُم أطعم مسكينًا، ثم نزلت هذه الآية ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ﴾ فكانت الرخصة للمريض والمسافر، وأُمِرْنا بالصيام[٣].

أما مقدار الفدية فقيل هي: نصف صاع من البُرِّ، وصاع من غيره، وقيل: مُدٌّ.

المرحلة الثانية: ثم نُسخ هذا الاختيار، بقوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ فأوجب الله الصيام على الصحيح المقيم، ورخص للمريض والمسافر بقوله: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ﴾ وثبت الإطعام للكبير الذي لا يستطيع الصيام، فتكون آية ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ﴾ ناسخة للآية التي قبلها.

وقال ابن عباس ﷺ: نزلت هذه الآية ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ في الشيخ الكبير الذي لا يستطيع الصيام، والعجوز الكبيرة، فرُخِّص لهم أن يطعموا مكان كل يوم مسكينًا ولا قضاء عليهم[٤]؛ لأن الشيخ الهرم ليست له حالة يتمكن فيها من القضاء والإطعام، وهو ما عليه أكثر العلماء، ورأى بعضهم أنه لا إطعام عليهما لعجزهما بالكبر وعدم الاستطاعة.

ومعنى﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞۖ﴾، أي: يتحملون الصوم بمشقة بالغة؛ كالشيخ

---

(١) البخاري (٤٥٠٧) ومسلم (١١٤٥) وأبو داود (٢٣١٥) والترمذي (٧٩٨) والنسائي (١٣١٥) وابن خزيمة (١٩٠٣) وغيرهم.

(٢) «صحيح ابن حبان» (٣٦٢٤)، وصحيح مسلم (١١٤٥).

(٣) الطبري (٣/ ١٢٦).

(٤) البخاري (٤٥٠٥) وعبد الرزاق في «المصنف» (٧٥٧٧) والطبراني (١١٣٨٨) وابن أبي حاتم (١٦٣٤) وغيرهم.

الكبير، والمرأة العجوز والحامل، والمرضع فيُرخَّص لهم في الفطر وعليهم فدية، وهذه الآية رفعت توهم بعض المسلمين لمشابهة صيامهم بصيام أهل الكتاب.

وكان الصيام في هذه الحالة من المغرب إلى العشاء، أو إلى أن ينام المسلم، فكان الرجل يأكل ويشرب ويأتي النساء ما لم ينَم، فإذا أُذِّن للعشاء، أو نام المسلم قبل الآذان فإنه يكون قد دخل في صيام اليوم التالي وامتنع عن الطعام والشراب والجماع، فشق ذلك على بعض الصحابة.

وكان (قَيْسُ بنُ صِرْمَةَ) رَجل من الأنصار، يعمل نهارًا وهو صائم، فلما جاء إلى أهله صلى العشاء، ونام دون أن يأكل ويشرب، وأصبح صائمًا، فأصابه إعياء وجهد شديد، وكان (عمر) قد أصاب من النساء بعد ما نام.

المرحلة الثالثة: ثم خفف الله عن الأمة وأنزل ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ﴾ فأحل الله للمؤمن أن يأكل ويشرب ويأتي النساء من المغرب إلى طلوع الفجر ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ﴾.

وقد جاءت هذه الأحوال في حديث معاذ بن جبل، وفيه أن **أحوال الصيام ثلاثة** وهي:

أولًا: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة، جعل يصوم من كل شهر ثلاثة أيام، ويصوم عاشوراء، ثم إن الله فرض عليه صيام رمضان وأنزل الله ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ﴾ فكان من شاء صام، ومن شاء أطعم مسكينا، فأجزأ ذلك عنه.

ثانيًا: ثم إن الله تعالى أنزل الآية الأخرى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ إلى قوله: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُۖ﴾ فأثبت الله صيامه على المقيم الصحيح، ورخص فيه للمريض والمسافر، وثبت الإطعام للكبير الذي لا يستطيع.

ثالثًا: كانت فترة الإفطار من المغرب إلى العشاء، فحدثَ حرج ومشقة للمسلمين من العطش والجوع وعدم إتيان النساء، فخفف الله عنهم، بأن أحل الله لهم الرفث إلى نسائهم والأكل والشرب حتى مطلع الفجر[1].

(١) يُنظَر: الحديث بنصه في «المسند» (٢٢١٢٤) وأبو داود (٥٠٧) والطبري (٣/ ١٨٥) وابن أبي حاتم (١٦٢٢) والحاكم (٢/ ٢٧٤) والبيهقي (٤/ ٢٠٠) قال محققو «المسند»: رجاله ثقات، رجال الشيخين غير المسعود - وابن أبي ليلى لم يسمع من معاذ.

رابعًا: فضل شهر رمضان:

فيه تفتح أبواب الجنان:

١- عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال **«إذا دخل شهر رمضان فُتِحتْ أبواب الجنة وغُلِّقت أبواب جهنم، وسُلْسِلت الشياطين»**[١]

وفيه تكفر الذنوب:

٢- وعن أبي هريرة أيضا عن النبي ﷺ قال **«الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات ما بينهن إذا اجتُنبت الكبائر»**[٢].

وفيه العتق من النار:

٣- وعن جابر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن لله عند كل فطر عتقاء وذلك في كل ليلة»**[٣]

وفيه تُغَلُّ الشياطين:

٤- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا كان أول ليلة من شهر رمضان، صُفِّدت الشياطين ومردة الجن، وغُلقت أبواب النار، فلم يُفتح منها باب، وفتحت أبواب الجنة، فلم يُغلق منها باب، وينادي منادٍ كل ليلة: يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصر، ولله ﷻ عُتقاء من النار وذلك كل ليلة»**[٤].

---

(١) البخاري (١٨٩٩، ٣٢٧٧) ومسلم (١٠٧٩) والنسائي (٢٠٩٦) والبيهقي (٤/ ٣٠٣) ومالك (١/ ٣١٠) وابن أبي شيبة (٣/ ٢).

(٢) مسلم (٢٣٣) والبيهقي في «الشعب» (٣٦١٩).

(٣) «صحيح سنن ابن ماجه» (١٣٣٢)، قال الألباني: حسن صحيح، وهو في المسند (٢٢٢٠٢) من حديث أبي أمامة بدون (كل ليلة) وهو حديث صحيح لغيره وإسناده حسن، وأخرجه الطبراني (٨٠٨٩) ومن حديث أبي هريرة في المسند أيضًا (٧٤٥٠) بنحوه، بإسناد صحيح على شرط الشيخين، كما قال محققوه، والحديث في صحيح والترغيب والترهيب (٩٩١).

(٤) «صحيح سنن ابن ماجه» (١٣٣١) بتصحيح الألباني، وأخرجه الترمذي (٦٨٢) وابن خزيمة (١٨٨٣) والحاكم (١/ ٤٢١) والبيهقي في «الشعب» (٣٥٩٨).

وفيه ليلة خير من ألف شهر:

٥- وعن أبي هريرة أيضًا أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يُبشرهم: **«قد جاءكم رمضان، شهر مبارك، افترض الله عليكم صيامه، تفتح فيه أبواب الجنة، وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتُغل فيه الشياطين، فيه ليلة خير من ألف شهر، من حُرِم خيرها فقد حُرِم»**(١).

٦- وعن أنس رضي الله عنه قال: دخل رمضان، فقال رسول الله ﷺ: **«إن هذا الشهر قد حضركم، وفيه ليلة خير من ألف شهر، من حُرمها فقد حُرِم الخير كله، ولا يُحرَم خيرَها إلا محروم»**(٢).

وصيام رمضان من أسباب دخول الجنة:

٧- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من أصبح منكم اليوم صائمًا؟»** قال أبوبكر: أنا، قال: **«فمن تبع منكم اليوم جنازة؟»** قال أبوبكر: أنا، قال: **«فمن عاد منكم اليوم مريضًا؟»** قال أبوبكر: أنا، فقال رسول الله ﷺ: **«ما اجتمعْن في امرئ إلا دخل الجنة»**(٣).

٨- وعن عمرو بن مُرة الجُهني قال: جاء رجل من قُضاعة إلى رسول الله ﷺ فقال: أرأيت إن شهدتُ أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، وصليتُ الصلوات الخمس، وصمتُ رمضان وقُمْتُه، وآتيتُ الزكاة، فمِمَّنْ أنا؟ فقال له النبي ﷺ: **«من مات على هذا كان مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة هكذا - ونصَبَ أصبُعيه- ما لم يَعُق والديه»**(٤).

---

(١) «صحيح سنن النسائي» (١٩٩٢) والبيهقي في «الشعب» (٣٦٠٠) وابن أبي شيبة (٣/ ١).

(٢) «صحيح سنن ابن ماجه» (١٣٣٣)، قال الألباني: حسن صحيح وهو في صحيح الترغيب والترهيب (٩٨٩).

(٣) «صحيح مسلم» (١٠٢٨)

(٤) «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٥١٥، ٧٤٩) وابن خزيمة (٢٢١٢) وابن حبان (٣٤٣٨) والبيهقي (٣٦١٧)

التَّقْوَى هِي الغَايَةُ مِنَ الصِّيَامِ

دروس في التقوى ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

في هاتين الكلمتين بيَّن ﷻ الحكمة والغرض من الصيام، أي: أن الصيام كُتب عليكم أيها المؤمنون رجاء أن تتعلموا منه تقوى الله تعالى وطاعته والخوف منه، ومراقبته في السر والعلانية.

وأن تتعودوا ذلك بتكرار الدرس من كل عام، والاستعانة من هذه الدورة التدريبية التي تستمر ثلاثين يومًا، فينمو الغرس، وتصبح التقوى صفة ملازمة للعبد تأخذ بيده إلى أسمى الدرجات وتُحقق له سعادتي الدنيا والآخرة، فما التقوى؟.

والتقوى هي: أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية بامتثال أمره، واجتناب نهيه في الصغائر والكبائر.

قال علي بن أبي طالب: (التقوى هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والقناعة بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل)[١].

وقال طلق بن حبيب: (التقوى: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، تخاف عقاب الله).

وقال عبد الله بن مسعود: (أن يُطاع فلا يُعصى، وأن يُذكر فلا يُنسى، وأن يُشكر فلا يُكفر).

ولا يكون العبد من المتقين حتى يؤدي الفرائض ويجتنب المحرمات، ويترك ما يحيك في نفسه من الإثم وصغائر الذنوب، ويتقرب إلى الله بكثرة النوافل، وألَّا يراه حيث نهاه، ولا يفقده حيث أمره، وأن يكون صالح السريرة، كما هو صالح العلانية مداومًا على الطاعة، مسارعًا إلى الخيرات، مكثرًا من الصالحات، حافظًا لجوارحه من الزلات، كثير الخوف والحذر من الذنوب، محاسبًا لنفسه، فزعًا من سوء الخاتمة، بين الرجاء والخوف، يعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه ﷻ يراه، ويطلع على سره ونجواه.

---

(١) راجع: كتاب «التقوى» لصلاح الدين الارديني ص١٦، ١٧ .

وفيه رغبة ورهبة، وزهد وورع، وخشية وتقوى، وتورع عن ارتكاب الشهوات والشبهات، وصغائر الذنوب، وما يحيك في نفسه ويتردد فيه.

وبهذا تعلو عند الله درجته، فيحبه ربه، ويكون في معيته، يفوز بالفلاح والنجاح، والنجاة من النار، والظفر بالجنة، ضِمْن وفْد الرحمن، وقد حسنت عاقبته في جنات ونهر، ومقام أمين، غُرف من فوقها غرف، في مقعد صدق عند مليك مقتدر؛ لأنه امتنع عن شهوتي البطن والفرج في خلوته وجلوته، وعرف كيف يراقب ربه ويخاف منه في السر والعلانية.

الصيام أيها الأخوة يأخذ بأيدينا إلى هذه الدرجات العلى؛ إذ بالصيام يَضْعُف البدن، ويتغلب الصائم على جانب المادة فيه، ويسمو بروحه إلى درجات التقوى، والانتصار على الشهوة، وهوى النفس، وقهر الشيطان، وبذلك تسمو روح الصائم، ويصح بدنه، وتتأدب نفسه، ويتهذب خلقه، وتقوى إرادته، ويشعر بآلام الفقير.

فهذا وغيره داخل في إطار التقوى التي هي ثمرة الصيام وفائدته، وطريق ذلك كله: انتصار العقل والروح على الجسم والشهوة، فكيف يتم ذلك؟

عَشْرٌ مِنْ فَوَائِدِ الصِّيَامِ المَادِيَّةِ وَالمَعْنَوِيَّةِ

١- **الإنسان بين العقل والشهوة:** خلق الله تعالى الإنسان من جسم وروح، وخلق فيه الشهوة، وهي من خواص البهائم، وخلق فيه العقل، وهو من خواص الملائكة، والعقل والشهوة يتنازعان الإنسان، وهو في جهاد مستمر معهما، تارة يغلب بعقله، وتارة تغلبه شهوته.

فالجسد له مطالب من نوع المادة التي خلق منها، وهي التراب، غرائز ونزعات وشهوات، يتطلبها البطن والفرج، طعام وشراب وجماع، يستوي فيها مع الحيوان، بالإضافة إلى سلطان الهوى والشيطان.

وللروح مطالب عقلية من جنس العالم العلوي - الملائكة - طاعة وعبادة، وأمر ونهي، وصفاء وتقوى، وسمو وارتقاء، فإذا تغلب جانب الشهوة على جانب العقل كان الإنسان شبيهًا بالحيوان، وإذا تغلب جانب الروح -و هو العقل- على جانب المادة -و هي الشهوة- كان الإنسان شبيهًا بالملائكة الكرام، الذين لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناسلون، ولا يعصون

الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

٢- **في الصيام سلامة الروح**: ومن هنا فرض الله الصيام؛ ليتحرر الإنسان من سلطان غرائزه، ويتغلب على نزعات شهوته، ويرتقي بالصائم إلى مرتبة التشبه بالملائكة، وذلك بإضعاف القوى الجسمية، وإضعاف تحكمها في العبْد، حتى تصفو روحانية العبد بابتعاده عن المعاصي واقترابه من التقوى التي هي هدف الصيام.

فصوم رمضان بمنزلة (المَصْل) الذي يكسب الجسم قوة ومناعة ضد الجراثيم.

وكما أن التطعيم بالمَصْل يحتاج إلى تكرار؛ لتتجدد قدرة الجسم على مقاومة المرض، فكذلك الصيام يتكرر كل عام؛ ليكسب الجسم قدرة على مقاومة الشهوة[١]؛ وبذلك يكون الصوم وسيلة لتقوى الله تعالى.

٣- **وفي الصيام سلامة البدن**: وكما أن الصيام يُقَوِّي الإيمان، ويرتقي بالعقل والروح، فإنه كذلك يقوي البدن ويصحح الجسم، وفيه علاج لكثير من الأمراض، لاسيما مرض العصر (السمنة) فقد وضع النبي ﷺ أسباب الوقاية وأصول العلاج للتخمة في قوله ﷺ: **«ما ملأ ابن آدم وعاء شرًّا من بطنه، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»**[٢]. وفي الأثر: **«صوموا تصحوا»**[٣].

والمسلم لا يأكل حتى يجوع، وإذا أكل لا يشبع، فالمعدة بيت الداء، والحمية - وهي الامتناع عن الأكل- رأس الدواء، والإنسان في يومه لا يحتاج إلا إلى سعرات حرارية قليلة، ربما تصل عند بعض الناس إلى معشار ما يلتهم من الطعام والشراب، ولو أن الزائد عن حاجة جسمه أعطاه إلى فقير محروم لذهب عنه الجوع، وذهب عن المتخوم التخمة.

---

(١) الشيخ/ يوسف القرضاوي في كتابه «العبادات في الإسلام».

(٢) أخرجه أحمد في المسند(١٧١٨٦) بنحوه عن المقدام بن معدي كرب، ورجاله ثقات، وأخرجه الترمذي (٢٣٨٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح وابن ماجه (٣٣٤٩) والنسائي في الكبرى (٦٧٦٩) والبيهقي في الشعب (٥٦٤٨).

(٣) «ضعيف الجامع» رقم (٣٥٠٦).

ويوم القيامة يؤتى بالرجل الأكول الشروب، لا يزن عند الله جناح بعوضة، مادامت يده طويلة في الأكل والمعاصي، قصيرة في الطاعات، قاسي القلب، غافلًا عن ربه.

٤- راحة للمعدة: وفي الصوم فرصة لاستراحة المعدة، وتخليص الجسم من الفضلات الضارة المتراكمة طوال العام، وللأطباء في ذلك الباع الطويل، والبحوث العديدة في مجال فوائد الصوم الصحية وعلاجه لكثير من الأمراض.

وخفة البدن تأخذ بيد المسلم إلى تقوى الله تعالى بالابتعاد عن المعاصي والقرب من الله تعالى، فإذا امتلأت المعدة هاجت الشهوة.

٥- شعور بالحرمان: وفي الصيام شعور بحاجة الفقير إلى الطعام، وتذكير بحاله، وتذوق مرارة الجوع والعطش، فيرق القلب، ويحنو على الضعفاء والمساكين، ويعالج في نفسه قسوة القلب والهلع والشح والبخل.

ولذا فقد كان يوسف عليه السلام يجوع وهو على خزائن الأرض، فسئل عن سبب ذلك، فقال: أخاف أن أشبع فأنسى الجائع.

فالصوم إذًا وسيلة لأن يحس الأغنياء بألم الفقراء فيعطفون عليهم، وهو يؤدي إلى التقوى عمومًا، وإلى تعلم الصبر والتحمل بالنسبة للفقير.

٦- تأديب النفس: وإذا جاع الإنسان ضعفت قواه، وانكسرت الشهوة فيه، وضيقت مجاري الشيطان، ولهذا كان الصوم (جُنَّة)، أي: وقاية وسترًا من النار بترك المعاصي، وكان (وجاء) حافظًا للعبد من الوقوع في الفاحشة عند عجزه عن مؤونة الزواج، كما جاء في نصيحة النبي ﷺ للمعسرين من الشباب في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: **«يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»**[(١)].

ففي الصوم تدريب على مراقبة الله تعالى بترك هوى النفس مع قدرته عليه، وفيه تضييق لمجاري

(١) راجع الحديث بتمامه رقم(٧٨٥٢) في «صحيح الجامع الصغير»، وقد أخرجه البخاري برقم (١٩٠٥، ٥٠٦٥) ومسلم برقم(١٤٠٠) وأبو داود (٢٠٤٦) وابن ماجه (١٨٤٥) والترمذي (١٠٨١) وأحمد في «المسند» (٣٥٩٢) ، وابن حبان (٤٠٢٦) والنسائي في «السنن الكبرى» (٢٥٥٩-٢٥٦٣) وألفاظه متقاربة .

الشيطان، فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم فبالصيام يضعف نفوذه وتقل منه المعاصي

وفي الصيام علاج لثورة الغضب، وكبح لجماح النفس عند هيجانها، وكسر لكبريائها، وعلاج للفرح والبطر والشر، وتزكية للبدن، وتضييق لمسالك الشيطان، وهذا كله مما يأخذ بيد الصائم إلى تقوى الله تعالى.

٧- **قوة الإرادة**: والتحكم في رغبات الإنسان ونزواته بالصيام عن شهوتي البطن والفرج، تُكسب المسلم قوة الإرادة وتحمل المشاق والصعاب، والصبر على الشدائد. فالصائم يجوع ويعطش، وبين يديه الطعام والشراب، لا رقيب عليه إلا الله، ويعف عن شهوة الفرج ومعه زوجته، لا سلطان عليه إلا ضمير المؤمن، فأي مدرسة أقوى لتربية الإرادة، وتعليم الصبر، وقوة العزم من مدرسة الصيام.

إن الانتصار على العدو لا يتحقق إلا بالانتصار على النفس أولًا.

وفي الصيام أنواع الصبر كله، فيه الصبر على طاعة الله، والصبر على محارم الله، والصبر على أقدار الله، ولذلك فإن الصيام نصف الصبر، والصبر نصف الإيمان.

فليس شهر رمضان إذًا شهر كسل وخمول وتقصير ونوم وقلة إنتاج، وتواكل واسترخاء، وإنما هو شهر كفاح وجهاد، وقوة وعمل، وصبر وتحمل، وزيادة إنتاج، وانتصار على النفس والعدو، وقوة في الإرادة والعزيمة، وبهذا كله تتحقق التقوى التي هي ثمرة الصيام وفائدته حتى يحافظ العبد على أداء الفرائض التي شرعها الإسلام، ويبتعد عن المحرمات التي حرمها عليه، ويتورع عن ارتكاب الشبهات وصغائر الذنوب، وأن يكون مكثرًا من الطاعات، مسارعًا إلى الخيرات، مسابقًا إلى عمل الصالحات، بعيدًا من كل شك، ومن كل شبهة فيها ما يسيء العلاقة، ويُكْثِرُ رصيدَ الذنوب والمعاصي بينه وبين رب العالمين، وأن يتورع عما يحيك في نفسه من الآثام، ومن كل شيء فيه شبهة، أو شك، أو إثم، كما جاء في الحديث عن النواس بن سمعان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**البِرُّ حسن الخلق، والإثم ما حاك في النفس وكرهت أن يطلع عليه الناس**»[1].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٥٣) في كتاب البر والصلة والآداب، باب تفسير البر والإثم.

٨- **أجر الصائم**: وفي الصيام أجر عظيم وثواب مضاعف، ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«كل عمل ابن آدم يضاعف، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله ﷻ: إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، يدع طعامه وشرابه وشهوته من أجلي، للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»**(١).

٩- وللصائمين باب خاص في الجنة:

فعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«في الجنة ثمانية أبواب، فيها باب يُسمَّى الريان، يدخل منه الصائمون يوم القيامة، لا يدخل معهم أحد غيرهم، يقال: أين الصائمون؟ فيدخلون منه، فإذا دخل آخرهم أُغلِقَ فلم يدخل منه أحد»**.

زاد ابن خزيمة **«ومن دخل شرب، ومن شرب لم يظمأ أبدًا»**(٢).

١٠- والصائم يُغفَر ذنبه

عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه»**(٣).

مُدَّةُ الصِّيَامِ وَأَحْكَامُ أَهْلِ الأَعْذَارِ

١٨٤- ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى

---

(١) البخاري (٥٩٢٧) مختصرًا، ومسلم (١١٥١) وأبو داود (٢٣٦٣) والترمذي (٧٦٤) والنسائي (٢٢١٤) وابن ماجه (١٦٣٨) وابن خزيمة (١٨٩٧) والبيهقي في «الشعب» (٣٥٧٩) ومالك (١/ ٣١٠) وأحمد (١٠١٧٥، ٩٧١٤) وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وابن أبي شيبة (٣/ ٥).

(٢) البخاري (٣٢٥٧) (١٨٩٦) ومسلم (١١٥٢) و«المسند» (٢٢٨١٩) مختصرا والنسائي (٢٢٣٥) وابن خزيمة (١٩٠٢) والبيهقي في الشعب (٣٥٨٤) وابن أبي شيبة (٣/ ٥).

(٣) البخاري (٣٨) ومسلم (٧٥٩) وأبوداود (١٣٧٢) والمسند (٧١٧٠، ٧٢٨٠) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وابن ماجه (١٦٤١) وهو في صحيح سنن أبي داود (١٢٢٤).

﴿ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ[(١)] فَمَن تَطَوَّعَ[(٢)] خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴿١٨٤﴾﴾

أولًا: مدة الصيام ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾

وهذا الصيام ليس فريضة الدهر، إنما فُرض علينا أيامًا معدودات، قال عطاء: كُتب عليهم الصيام ثلاثة أيام من كل شهر - ولم يُسم الشهر- أيامًا معدودات، قال: وكان صيام الناس قبل، ثم فرض الله عليهم شهر رمضان[(٣)] ثلاثون يومًا، أو تسعة وعشرين يومًا في كل عام.

دورة تدريبية على التقوى كل عام؛ كي ينمو الغرس، ويتكرر الدرس، وتتكون ملَكة المراقبة في النفس؛ حتى لا ينطفىء مصباح الإيمان، ولا ينقطع نور اليقين، فيكون الصوم مددًا تَزْكُو به النفس، ويصفو به القلب، وتتهذب به الروح، ويتأدب الجسد، ويقترب العبد من الملأ الأعلى، فيصبح من المتقين أو تزداد عنده درجة التقوى، وتنمو المراقبة لله في السر والعلن والخلوة والجلوة، ويعظُم الخوف من الله سبحانه، فيكون العبد من المتقين العابدين، كما أراد الله من خلقه في هذه الحياة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، أي: ليعرفوني فيعبدوني ويوحدوني، وأكثر ما تتحقق معرفة الله تعالى في هذه العبادة؛ لأن الصيام يُضعف البدن، ويتغلب الصائم على جانب المادة فيه ويسمو بروحه إلى درجات التقوى، والانتصار على الشهوة، وهوى النفس، وقهر الشيطان، وبذلك تسمو روحه، فتتأدب نفسه، وتتهذب أخلاقه، وتقوى إرادته، ويرتقي إلى رتبة الملائكة.

(١) قرأ نافع وابن ذكوان وأبوجعفر (فديةُ طعام مساكين) بعدم تنوين (فدية) وخفض (طعام) على الإضافة، وجمع (مسكين) وفتح النون بلا تنوين اسم لا ينصرف وقرأ هشام بتنوين (فدية) مع الرفع، ورفع (طعَام) وجمع (مسكين) مع فتح النون بلا تنوين وقرأ الباقون بتنوين (فدية) مع رفعها ورفع (طعام) وإفراد (مساكين) مع كسر النون وتنوينها.

(٢) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر (فمن يَطَّوعْ) فعل مضارع مجزوم، بمَن، وقرأ الباقون (فمن تَطَوَّعَ) فعل ماض، و(من) اسم موصول

(٣) الطبري (٣/ ١٥٧) وابن أبي حاتم (١٦٣٠)

ثانيا: أحكام أهل الأعذار الخمسة:

﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، وقد أعيدت هذه الجملة من الآية: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]؛ لئلا يتوهم أن الرخصة للمريض والمسافر في الفطر منسوخة كما نسخ الاختيار بين الصيام والفدية في المرحلة الأولى للصيام كما في الآية السابقة.

ومن مظاهر التيسير ورفع الحرج في الإسلام أنه رخص للمريض والمسافر والشيخ الكبير الذي لا يقوى على الصيام، والمرأة الكبيرة العاجزة عن الصيام، وأصحاب المرض المزمن، ومن في حكم هؤلاء من الحامل والمرضع، رخص الإسلام لهؤلاء جميعًا في الإفطار في رمضان، إذا توفرت دواعي الإفطار وفق أحكام القضاء والفدية، رحمة من الله تعالى وتيسيرًا عليهم، كما حرم الصيام على الحائض والنفساء رفعًا للمشقة والحرج عنهم.

ولما كان صيام شهر رمضان على التخيير في بادئ الأمر، من شاء صام، ومن شاء أطعم مسكينًا عن كل يوم، فقد رخص الإسلام للمريض والمسافر في الإفطار والفدية، وأتبع ذلك بقوله: ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ كما في الآية الأولى (١٨٤).

ثم نسخ هذا التخيير، وأوجب الله الصيام على كل صحيح مقيم، ولذا أعاد الله سبحانه ذكر الرخصة للمريض والمسافر في الإفطار بشرط القضاء، كما في الآية الثانية (١٨٥) وأتبع سبحانه ذلك ببيان أن هذه الرخصة من باب التيسير ورفع الحرج عن الأمة: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[1] وذلك على التفصيل الآتي:

أولًا المريض: المرض نوعان: نوع يُتوقَّع علاجه وشفاؤه، ونوع لا يُتوقَّع الشفاء منه.

النوع الأول: مرض يُرجى برؤه ويتوقع الشفاء منه، وهو أقسام منها:

أ- المريض مرضًا شديدًا يؤدي إلى ضرر في الجسد، أو في النفس إذا حدث الصيام.

ب- المرض الذي يزداد ويتضاعف مع الصوم.

---

(١) قرأ أبوجعفر بضم السين من لفظي (اليسر والعسر)، وسكنها الباقون.

ج- المرض الذي يتأخر برؤه بسبب الصوم.

يُرخَّص لهؤلاء جميعًا بالإفطار في رمضان، إن استدعت حالة المرض وشق عليه الصيام، ويجب عليهم قضاء الأيام التي أفطروها عند زوال السبب، قبل دخول شهر رمضان التالي، إذا انتهى المرض، وانقضى السفر، وحصلت الراحة.

والمريض أدرى بنفسه إن كان يتحمل الصيام أم لا، لاسيما مع التجربة، ويُستأنس في ذلك بقول الطبيب المسلم الثقة، مع استفتاء المسلم لقلبه، وإن أفتاه الطبيب وأفتاه، فإن كان المرض يسيرًا ليس فيه ضرر محقق، ولا مشقة بالغة فإنه لا يبيح الإفطار.

ولاخير فيمن يتعلل ويتلمس الرخص؛ ليفلت من أداء الفريضة تحت ستار الرخصة.

وقد ذُكرت الرخصة في الفطر للمريض والمسافر مرتين في آيات الصيام تأكيدًا عليها وبيانًا لرحمة الله تعالى بعباده في التكليف والتيسير.

أَحْكَامُ الفِدْيَةِ: الفدية هي المعبر عنها في الآية بـ (إطعام مسكين) وتسمى كفارة، وتشمل فدية الإفطار في المرض والسفر وكفارة اليمين وغير ذلك، وحكمها كالتالي:

١- **عند جمهور الفقهاء**: إطعام مسكين وجبة واحدة من أوسط طعام من وجبت عليه الفدية، أو يعطيه مدًّا (ربع صاع) من حنطة أو أرز ونحوهما من غالب قوت البلد، ولا يجزيء عندهم إخراج قيمة الطعام دراهم.

٢- **عند أبي حنيفة وأهل الرأي**: إطعام المسكين وجْبتين، أو إخراج مدين (نصف صاع) من حنطة أو صاع من شعير أو تمر ونحوهما، ويجوز عندهم إخراج قيمة الوجْبتين نقدًا.

النوع الثاني: المريض الميؤوس منه:

وهو الذي لا يرجى شفاؤه، فإنه يفطر ويطعم عن كل يوم من أيام رمضان مسكينًا، ولا قضاء عليه إن برء من مرضه على خلاف المتوقع، وقيل: عليه القضاء.

أَحْكَامُ القَضَاء: على المريض أن يقضي بعدد أيام ما أفطره، متى رجَعتْ إليه صحتُه، وقَوِيَ على الصيام، ولا شيء عليه سوى القضاء إن أداه قبل رمضان التالي.

ويجوز القضاء متتابعًا أو متفرقًا بعدد الأيام التي أفطرها، سواء أكان النهار طويلًا أم

قصيرًا، صيفًا أم شتاءً. وإن استمر العذر قائمًا حتى دخل رمضان الثاني فليس عليه سوى القضاء ولا فدية عليه لكونه معذورًا.

ومن أفطر في رمضان لمرض، ثم تُوُفِّيَ في مرضه هذا قبل أن يتمكن من القضاء، فلا يجب على ورثته إطعام ولا صيام.

أما إذا أفطر لعذر المرض ثم عوفي وبرء من مرضه ومكث وقتًا يتمكن فيه من القضاء، ثم تُوُفِّيَ قبل أن يقضي ما عليه، فإنه يُطْعَم عنه عن كل يوم مسكينٌ.

وإن صام عنه وليه أجزأه؛ لما في الصحيحين وغيرهما عن عائشة ﵂ أن النبي ﷺ قال: **«من مات وعليه صيام، صام عنه وليه»**[1] سواء أكان المرض مرجوّ الزوال أم لا.

قضاء رمضان وصيام ستة شوال: ومن كان عليه قضاء من رمضان وأراد صوم ستة أيام من شوال، فإنه يبدأ بقضاء ما عليه، ثم يصوم بعد ذلك الأيام الستة إن تمكن؛ لأن النبي ﷺ قال فيما يرويه أبو أيوب ﵁: **«من صام رمضان ثم أتبعه ستًّا من شوال كان كصيام الدهر»**[2].

أمّا الذي عليه قضاء من رمضان، بأن فاته صيام رمضان كله أو بعضه: فإن لم يتسع الشهر لصوم القضاء وستة شوال، وصام الست فقط، أجزأه ذلك مع مخالفة الأولى، فقد كانت عائشة ﵂ تقضي ما عليها من رمضان في شهر شعبان حيث كان النبي ﷺ يكثر من الصيام فيه.

ثانيًا: المسافر: رخص الإسلام للمسافر سفرًا يسمى سفرًا في عرف الناس، مسافته نحو ثمانين ميلًا بعد الخروج من حدود بلده، إذا كان هذا السفر مباحًا وليس فيه تحايُل على الفطر، ومن شأنه أن يؤدي إلى مشقة في الغالب، سواء أكان سفره بالسيارة أو الطائرة أو الباخرة أو على دابة أو ماشيًا أو غير ذلك.

---

(١) البخاري (١٩٥٢) ومسلم (١١٤٧) وأبو داود (٢٤٠٠، ٣٣١١) و«المسند» (٢٤٤٠١) حديث صحيح و«شرح مشكل الآثار» للطحاوي (٢٣٩٧-٢٣٩٩) وابن حبان (٣٥٦٩) و«سنن النسائي الكبرى» (٢٩٣١).

(٢) أبو داود (٢٤٣٣) ومسلم (١١٦٤) وابن ماجه (١٧١٦) والترمذي (٧٥٩) و«المسند» (٢٣٥٣٣) قال محققوه حديث صحيح وإسناده حسن، و«شرح مشكل الآثار» للطحاوي (٢٣٣٧-٢٣٤٦) وابن حبان (٣٦٣٤) و«سنن النسائي الكبرى» (٢٨٧٥-٢٨٨٠).

وسواء أكان سفره طارئًا بأن حل عليه الشهر وهو مسافر، أو أنشأ سفرًا في أثناء الصوم، أو كان سفره مستمرًّا كسائقي الطائرات وسيارات الأجرة ونحوهما.

رخص الإسلام لهؤلاء جميعًا في الفطر، وهم مخيرون بينه وبين الصيام.

والأفضل للمسافر أن يفعل ما هو أيسر عليه منهما، فإن تساوى الأمر عنده فالصوم أفضل لقوله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وإذا قدم المسافر إلى بلده أثناء النهار، فعليه أن يُمسك بقية يومه، وإن نوى المسافر إقامة أربعة أيام فأكثر لزمه الصوم.

وعليه في جميع الحالات قضاء أيام بعدد ما أفطر من رمضان في سفره.

ولا ينبغي للمسلم أن يتلمس أدنى عذر للفطر دون سبب قوي يبرر فطره.

كما لا ينبغي له أن يشدد على نفسه فيصوم مع وجود المشقة عليه.

وفي أحاديث النبي ﷺ ما يشير إلى استحباب الفطر عند حدوث المشقة، فتارة يصف الصائمين -والحالة هذه- بقوله: **«أولئك العصاة، أولئك العصاة»**[١].

وتارة يقول: **«ذهب المفطرون بالأجر»**[٢]

وأخرى يقول: **«ليس من البر الصيام في السفر عليكم برخصة الله فاقبلوها»**.

وفي لفظ في الصحيحين عن جابر ﷺ أن النبي ﷺ رأى رجلًا قد ظُلِّل عليه في السفر، فقال: **«ليس من البر الصيام في السفر»**[٣].

وعن أبي الدرداء ﷺ قال: كنا مع النبي ﷺ في رمضان في حر شديد حتى إن كان أحدنا ليضع يده على رأسه من شدة الحر وما فينا صائم إلا رسول الله وابن رواحة[٤].

---

(١) من حديث جابر في «صحيح مسلم» (١١١٤) و«سنن النسائي الكبرى» (٢٥٨٣)

(٢) من حديث أنس بن مالك في البخاري (٢٨٩٠) ومسلم (١١١٩) و«سنن النسائي الكبرى» (٢٦٠٤).

(٣) من حديث جابر في البخاري (١٩٤٥) ومسلم (١١١٥) وأبو داود (٢٤٠٧) و«المسند» (١٤٤٢٦) بإسناد صحيح على شرط مسلم (١٤١٩٣) ومن حديث كعب الأشعري (٣٦٨٠) وابن حبان (٣٥٥٢) و«سنن النسائي الكبرى» (٢٥٨٠) وفي السنن (٤/ ١٧٧).

(٤) «صحيح سنن أبي داود» (٢١٠٨).

وأحاديث الإفطار في السفر تشير في جملتها إلى هذه الرخصة في سماحة ويسر، فمن شاء صام، ومن شاء أفطر، من غير أن يعيب الصائم على المفطر، أو المفطر على الصائم.

مسافة السفر ومدته: والسفر المبيح للفطر هو ما يسمى سفرًا في عرف الناس. والمدة التي يجوز للمسافر الإفطار فيها هي ما كانت أقل من أربعة أيام عند الجمهور، فإن نوى الإقامة أربعة أيام فأكثر، فليس له الإفطار من أول لحظة في الإقامة، وليس له قصر الصلاة كذلك، وإذا كان لا يعلم متى تقضى مهمته، ومتى يحين وقت سفره فهو في حكم المسافر، فله استعمال الرخصة عند المشقة مهما طالت المدة ومهما تنوعت وسائل السفر بأن كانت في طائرة أو باخرة أو سيارة أو على دابة وغير ذلك.

عن عائشة ﵂ أن حمزة الأسلمي ﵁ سأل رسول الله ﷺ عن الصوم في السفر، فقال: **«إن شئت فصُم، وإن شئت فأفطر»**

وفي لفظ (**إني أجد قوة على الصيام في السفر...**)[1]

وعن أنس بن مالك ﵁ قال: سافرنا مع النبي ﷺ في رمضان، فصام بعضنا وأفطر بعضنا، فلم يعب الصائم على المفطر، ولا المفطر على الصائم[2].

ثالثًا: كبر السن: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ عن كل يوم يفطرونه، وهذا في ابتداء فرض الصيام، حيث خيّر الله من يطيقه بين الصيام والإطعام، ثم جعل الله الصيام فريضة حتمية على من يطيقه ورخص لمن لا يطيقه في الإفطار والقضاء، فإن كان القضاء متعذرا أطعم عن كل يوم مسكينا.

وقيل في ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ أي يتكلفونه ويشق عليهم مشقة غير محتملة، وهو الرجل الهرم الطاعن في السن، والمرأة العجوز، إذا كان الصوم يجهدهما ويشق عليهما مشقة شديدة للعجز الذي لحق بهما، فلهما الفطر ولا قضاء عليهما؛ لأنهما في حكم

---

(١) البخاري (١٩٤٣) ومسلم (١١٢١) وأبو داود (٢٤٠٣) والترمذي (٧١١) والنسائي (٢٣٠٤-٢٣٠٧) وفي الكبرى (٢٦١٥) وابن ماجه (١٦٦٢) و«الموطأ» من رواية أبي مصعب (٧٩٤) والشافعي (٧٠٩) شفاء العيّ وابن خزيمة (٢٠٢٦ والمسند (١٦٠٣٧)، وابن حبان (٣٥٦٧).

(٢) البخاري (١٩٤٧) وأبو داود (٢٤٠٥) ومالك (١/ ٢٩٥).

المريض مرضًا مستمرًا لا يرجى برؤه، إن استمر بهما المرض إلى الموت، وهذا ما تشير إليه الآية: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾، أي: على الذين يتحملون الصوم بمشقة وصعوبة بالغة تؤدي بهما إلى الضرر والإجهاد (إخراج فدية).

قال ابن عباس في الآية: (هي للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فيطعمان مكان كل يوم مسكينًا) فعلى كل منهما إطعام مسكين عن كل يوم، بإعطائه نصف صاع من بُرٍّ أو غيره كما نطقت الآية بالفدية، وكما شرحها ابن عباس، ومن تطوع خيرًا فزاد عن إطعام مسكين فهو خير له.

وفي حكم الشيخ الكبير أصحاب الأعمال الشاقة التي يكون الصيام معها مُهْلِكًا كالحارس على الحدود، والجندي في ساحة القتال، وعند إمكانية الصيام يقول تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

رابعًا: الحامل والمرضع:

الحامل والمرضع إذا أجهدهما الصوم، وشق عليهما: وخافتا الضرر من الصيام على النفس، أو على الولد، أو على النفس والولد معًا، فهما يدخلان في منطوق قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ فهي تشمل كل من يُجهده الصوم ولا يطيقه.

والحمل والرضاع نوعان من المرض كما قال الحسن البصري، وقد ثبتت هذه الرخصة لهما من حديث أنس بن مالك الكعبي أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله ﷻ وضع عن المسافر: الصوم، وشطر الصلاة، وعن الحبلى والمرضع: الصيام**»[1] ويجب عليهما القضاء بعدد أيام الفطر.

وإن كان الإفطار خوفًا على الولد فقط أضافت مع القضاء إطعام مسكين.

خامسًا: الحائض والنفساء: يحرم على الحائض والنفساء الصوم ولا يصح منهما، ويجب عليهما القضاء، ولو صامتا كان صومهما باطلًا.

---

(١) ابن سعد (٧/ ٤٥) و«صحيح سنن أبي داود» (٢١٠٧) والترمذي (٧١٥) والنسائي (١٤٢٣، ٢٢٧٣) وابن ماجه (١٦٦٧). والمسند (٢٠٣٢٦) حديث حسن، وعبدالرزاق (٧٥٦٠) وابن خزيمة (٢٠٤٢).

قالت عائشة ﵂: كان يصيبنا ذلك، أي: الحيض، فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة.

أما النزيف (المستحاضة) فتؤدي صلاتها وصومها مع نقاء الطهارة منهما.

وإذا ظهر الحيض قبل الغروب ولو بلحظة، بطل الصوم، ولزم القضاء في صوم الفرض.

وإذا انتهى الدم أثناء النهار لم يصح صيام باقيه وتمسك عن الطعام والشراب تأدبًا.

وإذا طهرت المرأة من الحيض أو النفاس قبل الفجر ولو بلحظة، وجب الصوم، ويصح الصوم منها وإن لم تغتسل من انقطاع الدم إلا بعد أذان الفجر كما يصح من الجنُب، ويجوز للمرأة أخذ حبوب تمنع نزول الدورة لإتمام الصيام أو الحج والعمرة.

والله ﷻ رحيم بعباده يرفع الحرج عنهم، يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر.

وقد خُتِمت الآية الأولى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ بقوله تعالى: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ بعد قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ وهذا بالنسبة للشيخ الكبير والمرأة العجوز والحامل والمرضع ونحوهم ممن يشق عليهم الصيام ولا يطيقونه بصفة مستمرة، فكان على كل مِنْ هؤلاء إن أفطر، وأطعم مسكينًا أو أكثر من مسكين عن كل يوم، أو زاد في إطعامه عن القدر المحدد فهو خير له، وإن صام ولم يطعم فهو أفضل من الإفطار والفدية، ويصح أن يكون المعنى: وأن تصوموا في السفر والمرض غير الشاق فهو خير لكم.

أما الآية الأخرى (١٨٥): ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ فقد ختمت بقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾، أي: أن الله تعالى قد رخص في الإفطار للمرض والسفر ونحوهما كالحامل والمرضع تيسيرًا عليهم، فالآية الأولى ترغب في الصيام أو الزيادة في الإطعام.

والآية الثانية فيها أمر بالإطعام وعدم الترغيب في الصيام؛ فقد بُعث النبي ﷺ بالحنيفية السمحة.

والتيسير وعدم التعسير هو سمة هذا الدين، والله تعالى قد رفع الحرج والمشقة عن عباده في جميع التكاليف الشرعية ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [النساء: ٢٨] وأمر الله عباده أن يُيسروا ولا يُعَسروا، وأن يُبَشروا ولا يُنَفروا، وما خُيِّر الرسول ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن فيه إثمٌ، وليس من هدْي النبي ﷺ الأخذ بالأشد والأحوط خوفًا من

تساهل الناس، ومن يفعل ذلك فإنه يدعي لنفسه أنه أحرص على شرع الله تعالى من الله، وأحرص من رسوله ﷺ في تبليغ الوحي للناس، وهو بهذا يقف عقبة في وجه انتشار الدعوة، وسماحة الإسلام ويسره، ويكون عنوانًا غير صحيح لحقيقة الإسلام.

١- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: **«الدين يسر، ولن يُغالب الدين أحد إلا غلبه، فسددوا، وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغَدْوة والروحة وشيء من الدلْجة»**(١).

٢- وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«يسروا ولا تعسروا، وسَكِّنُوا ولا تُنفروا»**(٢).

٣- ومن التيسير العمل برُخص الله وعدم التشدد والغلُو في الدين، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله يحب أن تؤتى رُخصه، كما لا يحب أن تؤتى معصيته»**(٣).

٤- وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: **«إن الله يحب أن تؤتى رخصُه كما يحب أن تؤتى عزائمه»**(٤).

٥- وقالت عائشة رضي الله عنها: وضع رسول الله ﷺ ذَقْني على مَنكِبه لأنظُرَ إلى ذَفْن الحبشة - أي: إلى لَعِبهم- حتى كنت الذي مَلِلْتُ وانصرفت عنهم، قالت: وقال يومئذ: **«لِتعْلَمَ يهودُ أن في ديننا فُسْحة، وأني أُرسِلْتُ بحنيفية سمحة»**(٥).

وقد أمر سبحانه عباده بقضاء ما فاتهم من رمضان في مرضهم وسفرهم، إكمالًا لعدة أيام الشهر ﴿وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾ كما أمر عباده أن يكثروا من ذكره سبحانه، وأن

---

(١) البخاري (٣٩) والنسائي (٥٠٤٩) والبيهقي في «الشعب» (٣٨٨١).

(٢) البزار في «الكشف» (٧٥) قال الهيثمي: ورجاله ثقات، مجمع الزوائد (١/ ٦١)، والحديث عن أنس بلفظ (وبشروا) بدلًا من (وسكنوا) في البخاري (٥٧٧٤) ورقم (٦٩).

(٣) «المسند» (٥٨٧٣) و (٥٨٦٦)والبزار في «الكشف» (٩٨٨) وابن خزيمة (٩٥٠) وابن حبان (٢٧٤٢) والطبراني (٥٣٠٢) والبيهقي في «الشعب» (٣٨٩٠) قال محققو المسند: حديث صحيح.

(٤) البزار (٩٩٠) «كشف» والطبراني (١١٨٨٠) وابن حبان (٣٥٤) قال محقق ابن حبان: إسناده صحيح، ويُنظَر: «إرواء الغليل» (٣/ ١٠).

(٥) «المسند» (٢٤٨٥٥) قال محققوه: إسناده قوي، ويُنظَر: «السلسلة الصحيحة» (١٨٢٩).

يكبروه في نهاية الشهر عند انقضاء عبادة الصيام، فقال: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ حيث وفقكم إلى صالح الأعمال وأداء الفرائض، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠] وقال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣] ولهذا شرع التكبير في عيد الفطر وعيد الأضحى، أي: عقب أداء فريضتي الصيام والحج.

ويسن التكبير في عيد الفطر من غروب شمس آخر يوم من رمضان إلى دخول الإمام في صلاة العيد، وفي عيد الأضحى من فجر يوم عرفة إلى آخر أيام التشريق الثلاثة، عقب الصلوات المفروضة، كما يسن في جميع أحواله وتنقلاته وتصرفاته.

وعساكم - أيها المسلمون - تكونوا من الشاكرين عند قيامكم بالفرائض وحفظ الحدود ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[(١)].

شَهْرُ رَمَضَانَ وَنُزُولُ القُرْآنِ

١٨٥- ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ[(٢)] هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ[(٣)] وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ(٣) وَلِتُكْمِلُوا[(٤)] الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ[(٥)] وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥)﴾

شهر رمضان هو شهر الصوم المفروض عليكم، نظرا لنزول القرآن فيه، وهو مشتمل على هدايتكم ومصالحكم الدينية والدنيوية، وفيه بيان الحق من الباطل والهدي من الضلال.

---

(١) ضمَّت فقرتيْ الرخصة للمريض والمسافر من الآيتين إلى بعضهما في التفسير لتناسب هذا مع الغرض من التفسير.

(٢) قرأ ابن كثير بنقل حركة الهمزة إلى الراء فينطق براء مفتوحة وبدون همز في كلمة القرآن (القران) وصلًا ووقفًا، وكذا حمزة عند الوقف، وقرأ الباقون كقراءة حفص (القرآن).

(٣) قرأ أبوجعفر بضم السين من (اليسر) و (العسر)، وسكَّنها الباقون.

(٤) قرأ شعبة ويعقوب (ولتكمّلوا) بفتح الكاف وتشديد الميم مضارع كمّل، وقرأ الباقون بسكون الكاف وتخفيف الميم مضارع أكمل.

(٥) أمال (هداكم) حمزة والكسائي وخلف، وقللها ورش بخلفه.

علة التسمية: سُمِّي بـ «رمضان»؛ لأنه يَرْمُض الذنوب، أي: يحرقها بالأعمال الصالحة وقت الصيام، وقد كان للشهور العربية أسماء قديمة، فلما أريد نقلها إلى الأسماء الحالية من اللغة القديمة سموها بالأزمنة التي وقعت فيها، فوافق هذا الشهر أيام رمْض الحر، فسمي رمضان[1].

﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ وفي نزول القرآن **خمسة مباحث:**

أولًا: بدء نزول القرآن: هذا بيان لفضل شهر رمضان عن غيره من الشهور، بأنه الشهر الذي اختصه الله تعالى بنزول القرآن فيه، في ليلة مباركة هي ليلة القدر منه، وكانت فريضة الصيام في هذا الشهر تكريمًا وتخليدًا لنزول القرآن الكريم فيه، وقد بدأ نزوله في شهر رمضان على رسول الله ﷺ مؤذنًا ببدء نزول الرسالة الخاتمة على أفضل البشر ﷺ

في الصحيحين عن عائشة ﵂ قالت: أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه، وهو تعبد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة ﵂ فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملَك فقال: اقرأ قال: «**ما أنا بقارئ**»، قال: «**فأخذني فغطني حتى بلغ مني الْجَهد، ثم أرسلني قال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني قال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال:** ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد ﵂ فقال: زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة: لقد خشيت على نفسي، وأخبرها الخبر، فقالت خديجة: كلا والله، ما يخزيك الله أبدًا؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتكْسِب المعدوم، وتَقري الضيف، وتُعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، ابن عم خديجة، وكان امرأ تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمِي، فقالت له خديجة

---

(١) «تفسير الخازن»، والقرطبي، و«زاد المسير»، وغيرها.

ﷺ: يابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ بخبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل على موسى عليه السلام، يا ليتنى فيها جذعًا، يا ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: **«أوَ مخرجيَّ هم؟»** قال: نعم، لم يأتِ رجل قَطُّ بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا[1].

ثانيًا: مطلع سورة العلق أول الآيات نزولًا: وقد لفتت الآيات الخمس من أول سورة العلق، - وهي أول ما نزل من القرآن الكريم - أنظار البشر إلى **أمرين هامين:**

أولهما: العلم والتعلم، وأن القرآن الكريم هو مصدر العلم ومنهج الحكم؛ لأنه من عند الله تعالى.

وثانيهما: مادة خلْق الإنسان المكلف بهذا القرآن، والمميز بالعلم والمعرفة، والاستدلال بذلك على وجود الخالق ﷻ.

فالقرآن وهو الصفحة المقروءة، والكون وهو الصفحة المرئية، هما أساس العلم والنظر.

والقلم هو أداة العلم وطريق الكتابة والقراءة، وعن طريق القلم والبحث والتأمل علَّم الله الإنسان ما لم يعلم، وفي هذا العلم مناط تكريمه وتفضيله وامتيازه على غيره من الكائنات.

ومصدر العلم ومصدر خلْق الإنسان هو الله سبحانه.

وهاتان أول حقيقتين نزل بهما الوحي على رسول الله ﷺ، وامتد نزول القرآن نحو ثلاثة وعشرين عامًا، ينزل منجمًا مفرقًا حسب الوقائع والحوادث والأحوال، أكمل الله تعالى فيها الدين، وأتم فيها النعمة على عباده، كان الوحي خلالها يصل الأرض بالسماء، ويربط البشر بالملأ الأعلى، وكان الصحابة يدركون حلاوة هذه الفترة، ويعرفون مذاقها، ويشعرون قيمتها.

قال ابن عباس: أُنزِل القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ في ليلة القدر من شهر

---

(١) الحديث في كتاب بدء الوحي في الصحيحين وغيرهما، يُنظَر: «اللؤلؤ والمرجان» فيما اتفق عليه الشيخان وغيرهما وهو في البخاري برقم (٣، ٢٣٩٢، ٤٩٥٥، ٦٩٨٢) وفي مسلم برقم ١٦٠ .

رمضان، فوُضِع في بيت العزة في سماء الدنيا، ثم نزل على محمد ﷺ نجومًا في ثلاث وعشرين سنة، فذلك قوله تعالى: ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥﴾[(١)].

ثالثًا: انقطاع الوحي بعد خاتم النبيين: ولما انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى انقطع الوحي، وفُقد هذا الاتصال وشعر الصحابة بالحزن العميق، والأسى البالغ، وانتابهم البكاء الشديد لانقطاع هذا المدد الإلهي بموت النبي ﷺ.

عن أنس رضي الله عنه قال: انطلق أبوبكر وعمر ﷺ بعد وفاة النبي ﷺ إلى أم أيمن يزورانها كما كان النبي ﷺ يزورها، فلما أتيا إليها بكت، فقالا: ما يبكيك؟ أما تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ قالت: نعم ولكني أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء، فهيجتْهُما على البكاء، فجعلا يبكيان معها[(٢)]، وكانت أم أيمن حاضنة رسول الله ﷺ.

رابعًا: الكتب الأخرى نزلت في رمضان: وشهر رمضان ليس ظرفًا لنزول القرآن الكريم فحسب، إن جميع الكتب السماوية نزلت فيه أيضًا.

عن واثلة بن الأسقع عن النبي ﷺ أنه قال: **«أنزلت صحف إبراهيم في ثلاث مضيْن من رمضان -وفي رواية في أول ليلة من رمضان- وأنزلت التوراة على موسى في ست ليال مضين من رمضان، وأنزل إنجيل عيسى في ثلاث عشرة ليلة مضت من رمضان، وأنزل زبور داود في ثماني عشرة ليلة مضت من رمضان، وأنزل الفرقان على محمد ﷺ في الرابعة والعشرين لستٍّ بقين بعدها»**[(٣)].

وقد نزل القرآن جملة واحدة في ليلة القدر من شهر رمضان إلى بيت العزة في السماء

---

(١) «تفسير الخازن» ص١١٤ وقد أخرجه الطبراني (١٢٣٨٢) والحاكم (٢/ ٢٢٢) وأخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٤٩٨) وابن الضريس ١١٧-١٢٠ .

(٢) أخرجه مسلم عن أنس برقم (٢٤٥٤).

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٨٥) و«الأوسط» (٣٧٤٠) وأحمد (١٦٩٨٤) عن واثلة بن الأسقع، وقد ضعفه محققوه، لأن عمران القطان، تفرّد به، قالوا: وهو ممن لا يحتمل تفرده، وبقية رجال الإسناد ثقات، وأخرجه البيهقي في «الشعب» (٢٢٤٨) وابن عساكر بسند حسن وابن أبي حاتم (١٦٤٩) وأورده الحافظ في الفتح، انظر: «الأحاديث الصحيحة» رقم (١٥٧٥) و«صحيح الجامع» رقم (١٥٠٩) و«الفتح الرباني لترتيب المسند» (١٨/ ٤٦) وأخرجه أبويعلى (٢١٩٠) عن جابر بن عبد الله.

الدنيا، ثم نُزِّل مفرقًا بحسب الوقائع على رسول الله ﷺ في ثلاثة وعشرين عامًا، وكان ابتداء نزوله عليه في ليلة القدر.

ويُحتمل أن تكون ليلة القدر في تلك السنة التي نزل فيها القرآن كانت ليلة أربع وعشرين.

وإذا كان القرآن قد نزل على ثلاث وعشرين سنة، فإن صحف إبراهيم والتوراة والزبور والإنجيل نزل كلٌّ منها على النبي الذي أُنزلت عليه جملة واحدة، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢]

خامسًا: ليلة القدر، ولنا فيها سبع وقفات:

الوقفة الأولى: هي الليلة المباركة:

كان ابتداء نزول القرآن في ليلة القدر، وجاء ذكرها في سورة القدر (مبهمًا) لا يُدرَى أي ليلة هي، وجاءت هذه الآية من سورة البقرة ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ لتبين أنها في شهر رمضان، وجاءت آية سورة الدخان؛ لتبين أنها هي الليلة المباركة التي يُفْرق فيها كل أمر حكيم ويبرم، حيث يقرر فيها أقدار الأفراد والأمم والشعوب للعام المقبل، ويوضع لهم فيها الأسس والموازين، فيفرق بين الخير والشر وبين الضر والنفع ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾﴾ [الدخان]

الوقفة الثانية: سبب التسمية:

١- **وتسمى ليلة القدر:** لأنه يقدر فيها وقائع السَّنَة المقبلة وتدبير أمور الخلق من الإحياء والإماتة، والشقاء والسعادة، والقحط والجدب والعزة والذلة... وما إلى ذلك.

٢- أو لأنها ليلة جليلة الشأن والقدر والشرف والرفعة، لاختصاصها بنزول القرآن فيها.

٣- أو لتنزل الملائكة وجبريل فيها؛ حيث ينْزلون بالمقادير في ليلة القدر من اللوح المحفوظ، فتظهر للملائكة بالنسبة للعام القادم، فهي ليلة سلام وأمن وأمان، ومغفرة للذنوب وستر للعيوب وعتق من النار، وتسليم من الملائكة على المؤمنين، ولا يصاب فيها أحد بسوء.

الوقفة الثالثة: تحديد وقتها

وليلة القدر هي في العشر الأواخر من رمضان، وفي ليالي الوتر منه أقرب، وفي ليلة السابع والعشرين أرجح، وعليه أقسم أُبي بن كعب ﷺ كما في صحيح مسلم.

وليلة السابع والعشرين لا تأتي في ليلة واحدة من العام الواحد في جميع بلدان العالم، فإن مطالع الهلال تختلف، لاسيما بين البلاد المختلفة الأطوال المترامية الأطراف، فهي إذًا تختلف من بلد لبلد، وعليه يحمل القول بكونها تنتقل من عام لعام، فقد تكون في عام ليلة إحدى وعشرين، وفي عام آخر ليلة ثلاث، أوسبع، أو تسع وعشرين وهكذا، وليلة السابع والعشرين في بلد قد تكون ليلة التاسع أو الثامن والعشرين في بلد آخر حسب اختلاف الرؤية، فهي إذًا تختلف من بلد لبلد ناء عنه، ومن عام لعام، وفي جميع الحالات تكون في العشر الأواخر، وهذا يشمل جميع الأزمنة والأمكنة.

ومما يؤكد أنها في العشر الأواخر: التماس النبي ﷺ لها بالاعتكاف والاجتهاد فيها بالعبادة وشد المئزر.

وكونها ليلة سبع وعشرين هو الغالب فيها وليس دائمًا، فقد تكون ليلة إحدى وعشرين كما جاء في الصحيحين أن النبي ﷺ رآها ليلة إحدى وعشرين، وأنه يسجد في ماء وطين، فلما كان صبيحة يومها سجد فعلًا في ماء وطين.

في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال عن ليلة القدر: «... **وقد أُريتُ هذه الليلة ثم أُنسيتُها، فابتغوها في العشر الآواخر، وابتغوها في كل وتر، وقد رأيتُني أسجد في ماء وطين**»، فاستهلت السماء في تلك الليلة، فأمطرت، فعكف المسجد في مصلَّى النبي ﷺ ليلة إحدى وعشرين، فبَصُرتْ عيْني رسول الله ﷺ ونظرتُ إليه انصرف من الصبح ووجهه ممتلئ طينًا وماء[1]

وجاء في لفظ مسلم عن أبي سعيد الخدري ﷺ أيضًا قال: مُطرنا ليلة إحدى وعشرين، فعكف المسجد في مُصلى رسول الله ﷺ فنظرت إليه وقد انصرف من صلاة الصبح،

(١) من حديث طويل في البخاري (٢٠١٨) وانظر: (٢٠١٦، ٦٦٩) وأخرجه مسلم (١١٦٧).

ووجهه مبتلٌّ طينًا وماءً[١]

وقد تكون ليلة القدر في ليلة أربع وعشرين كما في حديث واثلة بن الأسقع السابق ذكره وقد قيل: إن النبي ﷺ قد عَلِمَها، ثم أُنسيها لتجتهد الأمة في طلبها.

كما أخفى سبحانه اسمه الأعظم في كتابه ليُقرأ كله.

وساعة الإجابة في يوم الجمعة ليُدعى فيه كله.

وأخفى عُمْر الإنسان في الأيام ليسارع إليه بالتوبة.

وأخفى وقت قيام الساعة للعمل لها.

وأخفى الصلاة الوسطى في الصلوات للاجتهاد في طلبها.

وأخفى الولي الصالح من بين عباد الله ليجتهد الناس في طلب الولاية.

الوقفة الرابعة: العلامات التي تُعرف بها ليلة القدر

١- في حديث أُبَيِّ بن كعب رضي الله عنه قال: والله الذي لا إله إلا هو إنها لفي رمضان -يحلف ما يستثنى- ووالله إني لأعلم أي ليلة هي، هي الليلة التي أَمَرنا بها رسول الله ﷺ بقيامها، هي ليلة صبيحة سبع وعشرين، وأمارتها أن تطلع الشمس في صبيحة يومها بيضاء نقية لا شعاع لها[٢]؛ لأن أنوار الملائكة تتلاقى عند صعودها مع أشعة الشمس فتُحدث فيها بياض الضوء.

٢- وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: **«ليلة القدر ليلة طلقة، لا حارة ولا باردة، يصبح الشمس يومها حمراء ضعيفة»**[٣].

٣- وعن واثلة بن الأسقع أن النبي ﷺ قال: **«ليلة القدر ليلة بلْجة، لا حارة ولا باردة، لا يرمى فيها بنجم»**[٤].

---

(١) «صحيح مسلم» (١١٦٧) وأخرجه البخاري (٢٠٢٧، ٢٠١٨).

(٢) انظر: «صحيح مسلم» رقم (٧٦٢) باب الترغيب في قيام رمضان(١/ ٥٢٥) وانظر ما بعد الحديث (١١٦٩).

(٣) «صحيح ابن خزيمة» (٢١٩٢) ج٣ ص٢٣١ بتحقيق الأعظمي.

(٤) رواه الطبراني في «الكبير»، كما في «مجمع الزوائد» (٣/ ١٧٩) بإسناد حسن.

ومعناه: أنها ليلة مضيئة لا تُرْسَل فيها الشهب ولا يكون فيها شياطين، وهي ليلة ساكنة يهدأ فيها كل شيء، وليست ليلة القدر (جِرْم) يُحس، أو طاقة نور تُرى، كما يزعم بعض العامة، فلا يلزم أن يرى المسلم أو يحس شيئًا معينًا محسوسًا أو ملموسًا، بل قد يصادفها ويكون من أهلها وممن كتب له أجر إحيائها دون أن يشعر بذلك، وكل ما هو مطلوب من العبد منه أن يجتهد في ليالي العشر بمختلف أنواع الطاعة رجاء موافقتها.

ولا يزعم زاعم أن إحياء ليالي رمضان، أو العشر الأواخر منه، أو ليلة السابع والعشرين، في المسجد الحرام، يغنيه ذلك عن ترك صلاة فرض واحد، أو التهاون في سُنَّة من سنن الرواتب أو النوافل، أو يُجَرِّئه على ارتكاب شيء من المحرمات، بحجة أن عنده رصيدًا من الحسنات والعمل الصالح، بكثرة الصلاة في المسجد الحرام مثلًا، فإن هذا يثقل من ميزانه، ولكنه لا يغني عن التفريط في أداء الواجبات أو انتهاك المحرمات.

ولا يزعم زاعم أن قيام ليلة القدر يغنيه شيئًا إذا أصبح بعدها وقد انغمس في الشهوات والشبهات وأنواع الضلالات ولم يُقبِل على الله تعالى بقلبه تائبًا إليه.

الوقفة الخامسة: فضل ليلة القدر: بيَّن الله ﷻ أن مصادفة ليلة القدر بإحيائها بالطاعة وصنوف العبادة، أفضل عند الله تعالى من عبادة ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، فالعبادة فيها تعدل أكثر من ثلاث وثمانين عامًا، أي: ما يعادل فوق متوسط أعمار هذه الأمة، ومن قامها إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه.

فإذا صادفت هذه الليلة التعبد في المسجد الحرام، والصلاة فيه بمئة ألف صلاة فأي فضل هذا؟ وأي خير هذا؟ وهل هناك أجر أعظم من هذا؟ إذا أخلص العبد لله تعالى ولم يقترف معصية في المسجد الحرام، ولم يُرِد فيه بإلحاد بظلم، خشية مضاعفة السيئة -على القول بذلك- وخشية العذاب العظيم لمن يبيِّت النية على اقتراف الإثم في الحرم.

وقد قيل: إن احتكار الطعام والماء إلحاد فيه، فضلًا عن النظرة، والأذى الذي قد يلحق بالآخرين من جراء الزحام في الطواف والسعي والصلاة... إلخ مما يتطلب ضبط النفس والفطنة والكياسة، والتحفظ من المعاصي فضلًا عن إرادتها أو تعمدها.

وهذا الفضل أكثر نسبيًّا بالنسبة للمسجد النبوي على صاحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم

(فالصلاة فيه بألف صلاة) وليس هناك قول بمضاعفة السيئة فيه، والإنسان بصير بنفسه، ويعلم مزالق الشيطان معه، ومدى التحكم فيه، ومدى قُربه من الله تعالى وإخلاصه له.

روى مجاهد بإسناد فيه انقطاع أن رجلًا من بني إسرائيل حمل السلاح في سبيل الله ألف شهر، قال: فعجب المسلمون من ذلك، قال: فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾.

وقيل: إن الرجل كان يقوم الليل حتى يصبح، ويجاهد العدو بالنهار حتى يمسي[(١)].

فلما كانت أعمار هذه الأمة قصيرة، وعجب الناس من الأجر العظيم الذي يناله هذا الرجل لجهاده وعبادته مدة ألف شهر، أعطى الله سبحانه لأمة محمد ﷺ ليلة واحدة ينالون فيها من الأجر مثلما يناله هذا المجاهد في ألف شهر وأكثر.

ولله الحمد والمنة، وهو صاحب الفضل والجود، يعطيه من يشاء من عباده، وهو سبحانه أعلم ببواطن الأمور، وهو علام الغيوب.

الوقفة السادسة: التنازع في ليلة القدر: التنازع والخصام في ليلة القدر بين الناس، يكون سببًا في رفع الخير وزواله، وعدم نزول الرحمة والبركة، كما يكون النزاع والخصام سببًا في عدم قبول الصلاة، وعدم رفع العمل الصالح إلى رب العالمين، كما صحت الأحاديث أن ليلة القدر ظهرت للناس، ثم رُفِعت لما تلاحى رجلان فيها.

في البخاري عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: خرج النبي ﷺ ليخبرنا بليلة القدر، فتلاحى رجلان من المسلمين، فقال: «**خرجت لأخبركم بليلة القدر فتلاحى فلان وفلان فرفعت، وعسى أن يكون خيرًا لكم فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة**»، أي: في أوتارها[(٢)].

الوقفة السابعة: الطاعة في ليلة القدر: ومن العبادة فيها: المحافظة على الفرائض، والإكثار من نوافل الصلاة، ولاسيما التهجد والوتر والقنوت وإخراج زكاة المال والتجارة وغيرهما، وزكاة رمضان، والصدقة والبر، وحسن الخلق، وتلاوة القرآن، والعمرة،

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» للآية وانظر: تحقيق النص في حاشية زاد المسير لابن الجوزي.
(٢) البخاري (٢٠٢٣) وانظر: ٤٩ .

والاعتكاف في المسجد، وصلة الرحم، وبر الوالدين، وأن يكثر من دعاء: **«اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني»**[(١)].

قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾:أي أن هذا القرآن أنزله الله تعالى لهداية البشر جميعًا، ولكن الانتفاع بهذه الهداية يكون لمن كانت فطرته مستعدة لقبولها، وهم المؤمنون المتقون، والقرآن هو كتاب هذه الأمة إلى يوم القيامة، وهو الذي أخرجها من الظلمات إلى النور، فأنشأها هذه النشأة، وأبدلها بعد خوفها أمنًا، ومكَّن لها في الأرض، ووهبها مقوماتها التي صارت بها أمة، ولم تكن من قبل شيئًا، وهي بدون هذه المقومات ليست أمة، وليس لها مكان في الأرض، ولا ذكر في السماء، فلا أقل من شكر الله تعالى على نعمة هذا القرآن بالاستجابة إلى صوم الشهر الذي نزل فيه القرآن، فهو وثيقة النبوة الخاتمة، ولسان الدين الحنيف، وقانون الشريعة، وقاموس اللغة، ومنهاج الله للخلق، يُصْلِحُ الله به كل زمان ومكان، وهو ميثاق الله تعالى، ورباط ما بين السماء والأرض، فيه سعادتنا في الدنيا والآخرة.

وهذا القرآن هدى لقلوب من آمن به وصدَّقه واتبعه، فهو هادٍ للناس جميعًا إلى ما فيه كمالهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة؛ لما فيه من الإرشاد والإعجاز وإخراجهم من الضلال والظلمات، ففي القرآن خير الدنيا والآخرة، وأعدل الطرق وأصوبها، من تمسك به هُدي إلى صراط مستقيم، وهو عصمة ونجاة لمن اتبعه، فيه شفاء وعلاج للقلوب والأبدان، وهداية البشر للتي هي أقوم.

قوله تعالى: ﴿وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾، أي: أن في القرآن دلائل وحجج بينة واضحة جلية لمن تدبرها وفهمها، تُبين الحلال والحرام والأحكام، وتفرق بين الحق والباطل، والهدى المنافي للضلال، والرشد المخالف للغي، فالقرآن هو المنقذ من الضلال، والمخرج من الفتن، والهادي إلى صراط مستقيم.

---

(١) حديث صحيح عن عائشة ﵂ أخرجه الترمذي (٣٥١٣) وابن ماجه (٣٨٥٠) و«المسند» (٢٥٣٨٤) بإسناد صحيح ورجال ثقات. وسنن النسائي الكبرى (٧٦٦٥) ومن (١٠٦٤٢) إلى (١٠٦٤٧) و (١١٦٢٤).

وهو كما جاء في الأثر: (فيه نبأ من قبلكم، وخبر من بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، ونوره المبين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تشبع منه العلماء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يخلَقُ على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه. . . ، من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أُجِر، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم)(١).

ولنا **سبع وقفات** مع القرآن الكريم:

أولًا: رسول الله ﷺ والقرآن: كان رسول الله ﷺ كثير الحب للقرآن، كثير التلاوة له في رمضان وغيره، وكان يحب أن يسمعه من غيره، وكان ﷺ حَسَن التلاوة للقرآن، لا يعجل في تلاوته، بل يرتله بأجود ما يكون الترتيل؛ استجابة لأمر الله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤] وكان يقوم الليل الطويل متهجدًا بآياته.

وكان جبريل عليه السلام يُدارس النبي ﷺ القرآن في رمضان، يقرأ جبريل عليه السلام والنبي ﷺ يسمع، ويقرأ النبي ﷺ وجبريل يسمع، وكان هذا يحدث في كل رمضان مرة، فلما كان العام الذي قُبِض فيه النبي ﷺ عارضه جبريل القرآن مرتين، للتأكيد على كمال ضبطه ودقته في صورته الأخيرة التي كمل وتم نزول القرآن عليها مُرتَّب الآيات والسور.

فلا يُتصوَّر أن يكون الرسول ﷺ قد قرأ في هذه العرضة سورة النساء قبل سورة آل عمران على جبريل، مخالفًا ترتيب المصحف مثلًا، وصلاة النبي ﷺ بالنساء قبل آل عمران كانت قبل العرضة الأخيرة، فلا يُحتج بذلك.

ثانيًا: الحض على تلاوة القرآن: أُمر ﷺ بقراءة ما تيسر من القرآن في صلاة التهجد قال تعالى: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [المزمل: ٢٠]

وحثت آيات القرآن الكريم على الإكثار من التلاوة في رمضان وفي غيره، في الصلاة وخارجها، وعَدَّتْ ذلك تجارة رابحة لن تبور﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ

---

(١) ضعيف جدًا: أخرجه الترمذي عن علي، «سلسلة الأحاديث الضعيفة» رقم (١٧٧٦) و«ضعيف الجامع» رقم (٢٠٨٠) وهذا من ناحية السند، ولكن المعنى صحيح، وقد أثبتناه لصحة معناه لا على أنه حديث.

وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ [فاطر]

ومن شأن قراءة القرآن أن تَلِينَ له القلوب القاسية، فتُزيل الصدأ الذي ران عليها، وتُرَوِّح عن قلب المؤمن ساعة بعد ساعة، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر].

وحفظة القرآن وقارئوه قوم اصطفاهم رب العالمين وميزهم على اختلاف أحوالهم، من كان منهم ظالمًا لنفسه، ومن كان مقتصدًا أو سابقًا بالخيرات بإذن الله، وقد وَعد الجميع: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾.

وقد وصف الله سبحانه عباده المؤمنين بأن تلاوة القرآن تزيدهم إيمانًا إلى إيمانهم وتكسِب قلوبهم وجلًا وخشية، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]

وأثنى سبحانه على من تخشع قلوبهم لسماع القرآن فقال: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨]

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۩ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء].

وكما رغَّب القرآن الكريم في تلاوته، فإن سنة النبي ﷺ رغَّبت في ذلك بالأحاديث الكثيرة.

١- منها قوله ﷺ في حديث أبي أمامة: **«اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه»**[1].

٢- وقوله ﷺ فيما يرويه ابن مسعود ﷺ: **«من قرأ حرفًا من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول (الم) حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف»**[2].

٣- وقوله ﷺ فيما روته عائشة ﷺ: **«الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي**

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم عن أبي أمامة برقم (٨٠٤).

(٢) أخرجه الترمذي عن عبدالله بن مسعود، وهو حديث صحيح، انظر: «جامع الأصول» حديث رقم (٦٢٨٢) وهو في «صحيح سنن الترمذي» (٢٣٢٧) وفي «مشكاة المصابيح» (٢١٣٧).

يقرأ القرآن ويتعتع فيه وهو عليه شاق فله أجران»[١].

٤- وقوله ﷺ في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: **«مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأُترجة، ريحها طيب، وطعمها طيب»**[٢].

٥- وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارْتق، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»**[٣].

ثالثًا: هجر القرآن: وليس مطلوبًا من العبد أن يقرأ القرآن، أو يستمع إليه بصفة مستمرة، فله أن ينصرف عنه إلى شيء مباح إذا أصابه شيء من الملل، ولكن إذا لم يطق العبد الاستماع إلى القرآن أو تلاوته، ولم يصبر على ذلك وانصرف إلى اللهو وسماع الغناء ونحوه، فهو ممن هجر القرآن واستبدل الخبيث بالطيب، وهو ممن توعده الله تعالى بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ [الفرقان: ٣٠]

وممن قال الله فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ [لقمان: ٦]

وقال عنهم: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾﴾ [الجاثية]

وعن المصير الأخروي للمُعرِض عن آيات الله يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه]

---

(١) أخرجه الشيخان وأبو داود والترمذي عن عائشة ﵂، «جامع الأصول»، حديث رقم (٩٢٩٢) وهو في البخاري (٤٩٣٧) ومسلم (٧٩٨) وأبو داود (١٤٥٤) وابن ماجه (٣٧٧٩) والترمذي (٢٩٠٤) و«المسند» (٢٤٢١١) وابن حبان (٧٦٧).

(٢) من حديث طويل أخرجه الخمسة عن أبي موسى الأشعري، «جامع الأصول» ج٢ ص٤٥٣ وهو في البخاري (٥٠٢٠، ٧٥٦٠) ومسلم (٧٩٧).

(٣) أخرجه أبو داود (١٤٦٤) والترمذي (٢٩١٤) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٣٢٩) عن عبدالله بن عمر ﵁ بسند حسن، «جامع الأصول» ج٨ ص٥٠٢ وأخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ١٩٢) برقم (٦٧٩٩) صحيح لغيره، وإسناده حسن، كما قال محققوه، وابن حبان (٧٦٦) وابن أبي شيبة (١٠/ ٤٩٨).

ويكون هجر القرآن بترك تدبره، وترك العمل به، وترك التحاكم إليه، ونسيانه وعدم تعاهده ومراجعته، وبعدم امتثال الأوامر واجتناب النواهي.

رابعا: التكسب بالقرآن: وليحذر المسلم كل الحذر من اتخاذ القرآن وسيلة يتكسب بها، أو مهنة يحترفها، أو تجارة يَرْتزِق منها، وليحذر من حفظ القرآن بغية الجائزة أو الوظيفة أو التكسب أو الشهرة أو الرياء؛ فإن أول من تُسعَّر عليهم النار يوم القيامة ثلاثة، منهم: من قرأ القرآن ليقال قارئ، وكذلك المتصدق رياء، والمجاهد رياء، رزقنا الله الإخلاص والقبول وحسن العمل.

خامسًا: رمضان والقرآن: إنه لجدير بشهر الصيام أن يُتخذ شهرًا لتلاوة القرآن ودراسته وتدبره، وإقامة حروفه وحدوده ومعانيه، ويُستغنى به عما سواه، فمن شغله ذكر الله (وأفضله تلاوة القرآن) عن سؤال الله تعالى أعطاه الله سبحانه فوق ما يعطي السائلين.

وإذا كانت الحسنة بعشر أمثالها في غير رمضان؛ فإن بعض الأزمنة كشهر رمضان، وبعض الأمكنة كمكة المكرمة، يضاعف فيها الأجر ويزداد فيها الربح، فمن تقرب إلى الله في رمضان بخصلة من الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه، ومن أدى فيه فريضة كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه.

سادسًا: من آداب التلاوة: يُقبل قارئ القرآن الكريم بقلبه على كتاب الله تعالى، مخلصًا له النية، حاضر القلب بتدبر وفهْم وإمعانٍ وخشوع وخضوع، وهو على طهارة، مستقبل القبلة ما أمكنه ذلك، مبتعدًا عن الأماكن التي لا تليق بكتاب الله تعالى، مستعيذًا به سبحانه في بدء تلاوته، يرتل القرآن وفق أحكامه التجويدية، من غير إفراط ولا تفريط، ولا غُلُو ولا تنطع ولا تكلف ولا تعسف مع تحسين الصوت والترنم به، ومراعاة الوقف والابتداء، ومعاني الآيات، يسجد عند آية السجدة، ويسأل الله الرحمة، ويستعيذ بالله من النار عند ذكرها، ولابد له من التأدب بآداب القرآن: يمتثل أمره، ويجتنب نهيه، يحل حلاله ويحرم حرامه، ولا يضحك ولا يعبث، ولا ينظر إلى ما يلهيه ويصرفه عن القرآن الكريم(١).

---

(١) راجع بتوسع: «آداب التلاوة» للإمام النووي.

سابعًا: تعلم القرآن وتعليمه: خير الناس وأفضلهم مَنْ تعلم القرآن وعلَّمه، والقلب الذي ليس فيه شيء من القرآن كالبيت الخرب، وأهل القرآن هم أهل الله وخاصته.

ومن يتدارسون القرآن في بيوت الله ويتلُونه ويتعلمونه تُنزل عليهم السكينة، وتغشاهم الرحمة، وتحفهم الملائكة، ويذكرهم الله فيمن عنده[1].

وعن أبي ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«يا أبا ذر لأن تغدُو فتتعلم آية من كتاب الله، خير لك من أن تصلي مئة ركعة، ولأن تغدو فتُعلِّم بابًا من العلم عُمل به أوْ لم يُعْمل به خير من أن تصلي ألف ركعة»**[2].

وتعلُّم القرآن وتدبره احتسابًا لوجه الله تعالى، ثم العمل بما فيه والوقوف عند حدوده، يحقق للمسلم سعادتي الدنيا والآخرة، وهذه هي النعمة الحقيقية التي يُغبط عليها المسلم.

فاللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، ونور أبصارنا، وجلاء أحزاننا، وذهاب همومنا وغمومنا.

اللهم علِّمنا منه ما جهلنا، وذكِّرنا منه ما نُسِّينا، وارزقنا تلاوته آناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذي يُرضيك عنا، واجعلنا اللهم ممن يقيم حروفه ويحفظ حدوده، ولا تجعلنا ممن يقيم حروفه ويضيع حدوده.

هلال شهر رمضان: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾، أي: من كان منكم حاضرًا مقيمًا في بلده غير مسافر، حين دخول شهر رمضان، وهو صحيح البدن، فإنه يجب عليه حتمًا أن يصوم شهر رمضان.

وشهود شهر رمضان تعني أن يكون المسلم حاضرًا مقيمًا وقت رؤية هلال دخول الشهر.

ولنا في ثبوت رؤية الهلال خمس وقفات:

أولًا: ثبوت الهلال: يجوز أن يراد بكلمة ﴿شَهِدَ﴾ من قوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ﴾ معنى رأى، أي: من رأى منكم هلال رمضان فليصمه، و﴿مِنكُمْ﴾ يراد بها الأفراد ويراد بها الأمم، فيجب الصيام على كل من رأى الهلال، أي: على الأمة أو الجماعة

(١) هذه المعاني مقتبسة من أحاديث معروفة مشهورة.

(٢) رواه ابن ماجه وحسنه المنذري بإسناد حسن كما في «الترغيب والترهيب» (٢/٣٥٥).

التي رُؤي فيها الهلال، فلا يشترط أن يراه كل فرد منهم، فإذا رأى الهلال من تقوم برؤيته الحجة ويثبت بها الحكم، وجب الأخذ بها للجميع.

ومن المقرر شرعًا أن صيام رمضان يثبُت: برؤية الهلال ولو من عدل واحد، أو بإكمال شعبان ثلاثين يومًا.

كما أخرج الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غُمَّ عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يومًا»**[1].

والخطاب في (صوموا) عام يشمل الأمة كلها، ويثبت هلال شوال أيضًا بإكمال عدة رمضان ثلاثين يومًا، أو برؤية الهلال من اثنين ذوَيْ عذْلٍ عند جمهور أهل العلم، مع التدقيق في حال الشهود وسلامة حواسهم، وحدَّة نظرهم، وسلامة الأفق ومحل الهلال.

فالصيام يثبت برؤية عدل واحد، والإفطار يثبت برؤية عدلين على القول المختار.

قال علي وأبوهريرة وعائشة ﷺ: (لأن أصوم يومًا من شعبان أحب إليَّ من أن أُفْطِرَ يومًا من رمضان) ولأن الصوم يُحتاط له، لذا وجب الصوم بخبر الواحد ولا يجب الفطر إلا بشهادة اثنين.

ثانيًا: اختلاف المطالع:

١- جمهور العلماء على أنه لا عبرة باختلاف المطالع، وأنه إذا رأى الهلال أهل بلد، وجب الصوم على جميع البلاد، لعموم توجيه الأمر في حديث: **«صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته»** وعدم تقييد ذلك برؤيا معينة أو مطالع معينة، ولا بحدود جغرافية أو سياسية أو إقليمية.

٢- وذهب بعض أهل العلم إلى أنه يُعتبر لأهل كل بلد رؤيتهم، ولا يلزمهم رؤية غيرهم.

والدليل الوحيد في ذلك ما رواه كُلَيْب مولى ابن عباس، وكانت أم الفضل بَعثَته إلى معاوية بالشام، وقال: قدمتُ الشام فقضَيْتُ حاجتَها، واستهلَّ عليَّ هلال رمضان وأنا بالشام، فرأيت الهلال ليلة الجمعة، ثم قدمتُ المدينة في آخر الشهر، فسألني ابن عباس،

---

(١) الحديث في البخاري (١٩٠٩) ومسلم (١٠٨١) والنسائي في «السنن الكبرى» (٢٤٣٨-٢٤٤٦) و«المسند» (٩٣٧٦) وابن حبان (٣٤٤٢) وألفاظه متقاربة.

ثم ذكر الهلال، فقال: متى رأيتم الهلال؟ فقلت: رأيناه ليلة الجمعة، فقال: أنت رأيتَه؟ فقلت: نعم، ورآه الناس، وصاموا، وصام معاوية، فقال: لكنا رأيناه ليلة السبت، فلا نزال نصوم حتى نكمل ثلاثين أو نراه، فقلت: ألا تكتفي برؤية معاوية وصيامه، فقال: لا . . . هكذا أمر رسول الله ﷺ[1].

وهذا ليس نصًا قاله النبي ﷺ، بل هو أثر يرفعه ابن عباس ﷺ إلى النبي ﷺ في زمن معاوية (الأموي)

وفي حديث آخر: قال أبو البَختري: أهلَّنا رمضان ونحنُ بذات عِرْق، فأرسلنا رجلًا إلى ابن عباس فسأله؟ فقال ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله قد أمده لرؤيته، فإن أغمى عليكم فأكملوا العدة»**[2].

وفي رواية: **«إن الله مده للرؤية، فهو ليلة رأيتموه»**[3]، وهو يتحدث عمن لم يَرَوُا الهلال في ليلته الأولى، ولذا قال: **«لكننا لم يُغم علينا معشر المسلمين؛ إذ رآه عدول منا»**[4].

ومعنى هذا أن شهر رمضان يبتدئ برؤية هلاله، وينتهي برؤية هلال شوال، وكان رسول الله ﷺ لا يصوم حتى يَهِلَّ الشهر ويُرى.

والذي عليه الجمهور (الحنفية، والمالكية، والحنابلة) أنه متى ثبتت رؤية الهلال بقُطر من الأقطار وجب الصوم على سائر الأقطار، سواء أكان ذلك رؤي الهلال بالعين المجردة أم عن طريق المراصد والمجاهر أو الأقمار الصناعية أو أية أجهزة أو وسيلة من الوسائل التي يُتوصل بها إلى رؤية الهلال بالعين، سواء أكان ذلك بواسطة أم بغير واسطة، كما نرى الكتابة أو المسافة بواسطة النظارة، وهذه الوسائل المذكورة ونحوها من الأمور المستطاعة التي تَوَصَّل إليها البشر، فيكلف بها المسلم في ثبوت رؤية الهلال؛ لأنها في وُسعه وطاقته.

---

(١) أخرجه مسلم برقم (١٠٨٧) وأخرجه أيضًا أحمد والترمذي، ٦٩٧ وفي صحيح سنن الترمذي (٥٥٩) وفي صحيح سنن أبي داود (١٠٢١) وصحيح مسلم (١٠٨٧).

(٢) رواه مسلم برقم (١٠٨٨).

(٣) «جامع الأصول» (٦/ ٢٧٧) و«صحيح مسلم» (١٠٨٨).

(٤) يُنظَر: «سنن الترمذي» ٦٩٣ .

ثالثًا: القدر المشترك في رؤيا الهلال: ويمكن القول بوجوب الصيام على جميع المسلمين الذين تشترك بلادهم مع بلد الرؤية في جزء من الليل الجديد.

وعلى هذا فإن الهلال إذا رُؤي شرقًا، فإنه يلزم كل من كان غربًا أن يصوم، بخلاف ما إذا رُؤي الهلال غربًا فإنه لا يلزم من كان شرقًا أن يصوم.

ورؤية الهلال من الفلبين شرقًا إلى المغرب غربًا يصدق عليها الاشتراك في ليل واحد، فإنهما يشتركان في نحو ساعة وعشرين دقيقة من الليل، وهذا كافٍ للنية والسحور.

وإن حدث اعتدادُ بعض البلاد برؤيتها، ولم تأخذ برؤية البلد المجاور لها أو المشترك معها في جزء من الليل، فالأمر فيه سعة، في جواز الأخذ بالرأي المقابل لقول الجمهور، وفي هذا رحمة للأمة.

أما أهل البلاد التي لا تشارك بلد الرؤية في جزء من الليل الجديد، فإنهم يكونون في نهار آخر فلا يلزمهم الصوم، والاختلاف في رؤية الهلال لا يجاوز يومًا واحدًا مهما تباعدت البلدان، فإن زاد عن ذلك فهو بسبب طرق إثبات الرؤية وليس من الواقع.

أما الذين يعيشون في مناطق قريبة من القطبين، حيث تظهر الشمس بالليل ولا تكاد تختفي إلا ساعة أو ساعتين من أربع وعشرين ساعة، ويصعب رؤية القمر عندهم، فهؤلاء عليهم أن يقدرُوا الأيام والليالي بالمتوسط المعتدل قدر الطاقة الشمسية للصوم، أو يصوموا وفق أقرب البلاد المعتدلة إليهم.

رابعًا: حول الرؤية والحساب الفلكي: إن إثبات أول الشهور القمرية، كإثبات أوقات الصلوات الخمس، ناطها الشرع بما يسهل العلم به على البدو والحضر، وبالقياس على رؤية الهلال في بدء الأشهر القمرية، فإنه يلزم مؤذن الفجر ألا يؤذن إلا إذا رأى ضوءًا معترضًا جهة المشرق، وهو يختلف باختلاف الليالي.

وكما نأخذ بالحساب الفلكي في أوقات الصلوات فيمكن الاستعانة به في دخول الأشهر القمرية للدلالة على وقت الرؤية.

وميلاد القمر، معناه: وقوع القمر على خط طوليّ واحد مع الشمس، فالشمس والقمر يسيران في اتجاه الشرق بمقدار درجة واحدة كل ساعتين بالنسبة للقمر، وبمقدار درجة

واحدة فقط كل أربع وعشرين ساعة بالنسبة للشمس، مما يجعل القمر في سباق دائم مع الشمس، والقمر دائمًا هو السبَّاق بسبب حركته السريعة، فهو يلحق بالشمس مرة كل شهر، ويواصل تقدمه مخلفًا الشمس وراءه، فيَظْهر على هيئة هلال، وفق نظام محكم دقيق ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥] ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٢].

ورؤية الهلال تتطلب شرطين هما:

ألا يقل البُعد الزاوي بين الشمس والقمر عن ثماني درجات بعد الاقتران.

وألا تقل زاوية ارتفاع القمر عن الأفق عند غروب الشمس عن خمس درجات.

وولادة الهلال غير رؤيته؛ لأن الولادة معناها: أن يبدأ الابتعاد عن الشمس بعد أن يقترب منها إلى أقصى حد ممكن، فولادة الهلال لا تعني رؤيته.

ودخول شهر رمضان لا يحدد بولادة القمر، وإنما يحدد برؤية الهلال بالعين، وهو ما تعبدنا الله تعالى به في صيام الشهر، والقمر لا يكون له إلا هلال واحد في الشهر، ولا يهل مرتين؛ لأن الافتراق وهو التأخر عن الشمس، والاقتران بها، لايحصل في الشهر إلا مرة واحدة، والافتراق يعني ولادة الهلال، والرؤية لا تتحقق إلا بعد انفصال الهلال عن الشمس.

وإذا كان ولادة الشهر غير دخوله، فإنه لا بأس من تحديد الفَلَكِيِّين المسلمين لموعد ولادة الهلال، ومن ثَمَّ يخرج المعْنِيُّون بأمر الرؤية لمشاهدة الهلال، فيكون قد تم الاعتماد على الرؤية، ولم يخالف الحساب، ويتم الجمع بينهما، ولا يكون هناك اختلاف إذا صح كل منهما.

خامسًا: الفرق بين الرؤية وحساب التقويم: نحن نُمسك عن الطعام والشراب ونؤذِّن للفجر، اعتمادًا على الساعة والتقويم، دون أن نرى الفجر الصادق بأعيننا، ونُفْطِر آخر النهار ونُؤذن للمغرب دون أن نرى غروب الشمس بأعيننا؛ لأن الله تعالى قد أمرنا أن نصوم من الوقت الذي يطلع فيه الفجر حقيقة، ونُفْطر من الوقت الذي تغرب فيه الشمس حقيقة.

أما دخول الشهر فلم يحدد من الوقت الذي يولد فيه القمر حقيقة، بل من الوقت الذي

نراه بأعيننا، ومن هنا كان الاعتماد على الرؤية هو الأصل والأساس، ولا مانع من الاستعانة بالحساب في تحديد وقت الرؤية، ولا ينبغي الاعتماد على الحساب الفلكي وحده في إثبات دخول الهلال؛ لأن الإسلام قد عوَّل على الرؤية، ولأن الحساب يختلف من فَلَكِيٍّ لآخر في تحديد وقت ميلاد القمر، وفي مقدار مكثه.

وقد قرأتُ في هذا خلافًا بين فلكيٍّ من دولة الإمارات العربية، وآخر مغربيٍّ من الرباط.

قال الأول: إن هلال شهر رمضان عام ١٤١٦هـ سيولد يوم السبت ١٩٩٦/١/٢٠ الساعة ١٣,٤٤ظهرًا بتوقيت أبوظبي، وسيكون مكثه لمدة ٢٠ دقيقة غالبًا في مدينة الرباط و ٦ دقائق في مكة المكرمة، ومعنى ذلك أن رمضان يدخل يوم الأحد.

وقال الآخر: إن هذا يعني اقتران القمر بالشمس، وإن هذا الاقتران سيكون يوم السبت الساعة ١٢,١٥ بالتوقيت العالمي، أي: الساعة ١٦,٥١ بتوقيت أبوظبي، أي: بفارق يزيد على ثلاث ساعات. . .

قال: وحتى لو ذهبنا إلى أقاصي غرب الكرة الأرضية فإن المكث سيكون في اليوم نفسه بالنسبة لمدينة نيويورك الأمريكية ٣١ دقيقة، وفي لوس أنجلوس ٣٥ دقيقة.

قال: وستكون الرؤية ممتنعة تمامًا في جميع أنحاء العالم يوم السبت؛ لأن المكث إذا كان ينقص عن ٤٨ دقيقة فإن رؤية الهلال تكون عسيرة جدًّا إن لم تكن مستحيلة، وبالتالي فإن أول شهر رمضان سيكون يوم الاثنين ٢١/ ١/ ١٩٩٦م[(١)].

قلت:إن الفرق بين توقيت الرجلين مدة تزيد على ثلاث ساعات، وهذه المدة هي ضعف المدة التي يشترك فيها البلاد التي تقع على خط الطول مع البلد الذي يُرى فيها الهلال، فهي مدة تساوي يومين. وإذا كان الأمر كذلك فإنه لا ينبغي الاعتماد على الحساب الفلكي وحده في تحديد الرؤية، ويمكن اعتباره عاملًا مساعدًا للرؤية البصرية.

---

(١) جريدة الشرق الأوسط بتاريخ ٢٥ شعبان عام ١٤١٦هـ، ١/١/١٩٩٦م باختصار وتصرف.

الْحُكْمُ الرَّابِعُ مِنَ الأَحْكَامِ التَّشْرِيعِيَّةِ فِي السُّورَةِ:

الدُّعَاءُ بَيْنَ آيَاتِ الصِّيَامِ: أَحْكَامُهُ وَآدَابُهُ

١٨٦- ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ[1] إِذَا دَعَانِ[1] فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى[2] لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

أي: وإذا سألك - يا محمد- عبادي عن قربي وبُعدي منهم، فأنا معهم؛ أسمع دعاءهم، وأرى تضرعهم، وأعلم حالهم، أجيب دعاءهم، وأرى مكانهم، فليطيعوني فيما أمرتهم به ونهيتهم عنه، وليؤمنوا بي لعلهم يهتدون إلى مصالح دينهم ودنياهم.

أ - مناسبة الآية لما قبلها وما بعدها

جاءت هذه الآية الحاثة على الدعاء أثناء أحكام الصيام؛ لترشد الصائم أن يجتهد في دعاء الله تعالى لقبول الصيام منه، وكذا شَهر سائر الأعمال الصالحة، عند إفطاره في كل ليلة من ليالي الصيام، وعند إكماله لعدة صيام شهر رمضان بدخول شهر شوال.

وفي هذا الدعاء عوض للمسلم عن مشقة الصيام، وجزاء معجَّل له في الدنيا، على استجابته لله تعالى بترك الطعام والشراب والشهوة امتثالًا لأمره سبحانه.

وفي الآية بيان أن الله تعالى قريب من عباده الصائمين، يسمع دعاءهم، ويجيب سؤلهم، ويَعْلَم سرهم ونجواهم، فيغفر ذنوبهم، ويرفع شأنهم، وذلك لقربهم من ربهم، فكان مجيء آية الدعاء وسط آيات الصيام؛ لما بيّن الدعاء والصيام من رابطة القرب والإجابة، فالله تعالى قريب من عباده دائمًا.

وإذا جاء شهر رمضان كان الله تعالى أشدَّ قُربًا من عباده، وأكثر استجابةً ورحمةً لهم، فإذا كانت ساعة الإفطار اليومي، وإذا كان آخر الشهر كانت الإجابة والدعوة التي لا تُرد،

---

(١) قرأ ورش وأبوعمرو وجعفر بإثبات الياء وصلًا فقط في (الداع)، و (دعان) وقرأ يعقوب بإثبات الياء فيهما وصلًا ووقفًا، وقرأ قالون بحذف الياء في الحالين، وبإثباتها وصلًا، وقرأ الباقون بحذف الياء فيهما وصلًا ووقفًا تبعًا للرسم.

(٢) قرأ ورش بفتح ياء الإضافة وصلًا من (وليؤمنوا بي) والباقون بإسكانها.

وقد كان من هدْي النبي ﷺ إذا أفطر قوله: **«اللهمَّ لك صمت، وعلى رزقك أفطرت»** كما في حديث معاذ بن زهرة(١).

وجاء عن عمر ﷺ عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا أفطر قال: **«ذهب الظمأ وابتلت العروق، وثبت الأجر إن شاء الله»**(٢).

ب - من أسباب نزول الآية

١- ورد أن أعرابيًا قال: يا رسول الله، أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فسكت النبي ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾(٣).

٢- وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة فجعلنا لا نصعد شرفًا ولا نعلو شرفًا، ولا نهبط واديًا إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير، قال: فدنا منا فقال: **«أيها الناس أربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصمًّا ولا غائبًا إنما تدعون سميعًا بصيرًا، وإن الذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته»**(٤).

٣ - قال ابن عباس ﷺ: قال يهود المدينة: يا محمد كيف يسمع ربنا دعاءنا وأنت تزعم أن بيننا وبين السماء خمس مئة عام، وأن غلظ كل سماء مثل ذلك؟ فنزلت الآية(٥).

---

(١) رواه أبو داود برقم (٢٣٥٨) مرسلًا، قال الألباني: وله شواهد يقوى بها، «مشكاة المصابيح» حديث رقم (١٩٩٤) وانظر: تحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط على «زاد المعاد» ج٢ ص٥١ ومعاذ بن زهرة مرسل مقبول، وبقية رجاله ثقات وهو في مراسيله ٩٩ .

(٢) رواه أبو داود بإسناد حسن (٢٣٥٧) وهو في «مشكاة المصابيح» رقم (١٩٩٣) و«صحيح الجامع الصغير» برقم (٢٥٥٤) وأخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٢٩٩) قال الحافظ: حديث حسن.

(٣) «تفسير ابن كثير» للآية ج١ ص٢١٨ والطبري (٣/ ٢٢٣) وابن أبي حاتم (١٦٦٧) وأبوالشيخ في «العظمة» (١٩٠) وجاء ذلك من عدة طرق.

(٤) أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ٢٠٤) برقم (١٩٥٢٠) وأبو داود (١٥٢٦، ١٥٢٨) والترمذي (٣٣٦١، ٣٤٧٤) والنسائي (١٠١٨٨) وابن ماجه (٣٨٢٤) والبخاري برقم (٢٩٩٢، ٤٢٠٥، ٦٤٠٩) ومسلم (٢٧٠٤).

(٥) راجع: «زاد المسير» و«ابن كثير» و«الخازن» في تفسير الآية.

ج - **علاقة الصيام بالدعاء:** وفي شهر رمضان تفتح أبواب الجنة وتغلق أبواب النار، وتغلُّ الشياطين، ويكون الصائم قريبًا من ربه لاستجابته له سبحانه، فهو حري بالإجابة، فالصائمون أقرب استجابة من الله تعالى.

١- قال ﷺ فيما يرويه أبوهريرة رضي الله عنه: «**ثلاث دعوات مستجابات لاشك فيهن: دعوة الصائم، ودعوة المظلوم، ودعوة المسافر**» وفي رواية «**ودعوة الوالد على ولده**» دون ذكر الصائم[١].

٢- وقال ﷺ فيما يرويه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «**للصائم عند فطره دعوة مستجابة**»[٢]؛ فدعوة الصائم مستجابة وهى دعوة لا تُرد.

٣- فعن عن النعمان بن بشير رضي الله عنه: «**إن للصائم عند فطره دعوة ما ترد**»[٣].

٤- وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ثلاث دعوات لا ترد: دعوة الوالد لولده، ودعوة الصائم، ودعوة المسافر**»[٤].

٥- وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلا آتاه الله إياها، أو صرف عنه من السوء مثلها، ما لم يدعُ بإثم أو قطيعة رحم، فقال رجل من القوم: إذًا نُكثِر؟ قال: الله أكثر**»[٥].

ولذلك فقد كان عبدالله بن عمر رضي الله عنه يقول إذا أفطر: (اللهم إني أسألك برحمتك التي

---

(١) حديث صحيح أخرجه البيهقي عن أبي هريرة، «صحيح الجامع» رقم (٣٠٢٧) و«السلسلة الصحيحة» (٥٩٦) وهو في أبي داود (١٥٣٦) والترمذي (٣٤٤٨) وابن ماجه (٣٨٦٢) وقال الترمذي: حديث حسن.

(٢) رواه أبو داود والطيالسي كما في «تفسير ابن كثير» للآية، وانظر: «جامع الأصول» ج٤ رقم (٢١٠٣) من حديث أبي هريرة عند الترمذي وأبو داود بإسناد حسن كما قال محقق «جامع الأصول»: عبدالقادر الأرناؤوط وأخرجه البيهقي في «الشعب» (٣٩٠٧).

(٣) حديث صحيح عن النعمان بن بشير والبراء، انظر: «صحيح الجامع الصغير» رقم (٣٤٠١) وقد أخرجه ابن ماجه (١٧٥٣) وابن السُّنِّي (٤٨٢) عن عبد الله بن أبي مليكة عن عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٤) حديث صحيح أخرجه الحسن بن مردويه والضياء، «صحيح الجامع» رقم (٣٠٢٩) وهو عند الترمذي عن أبي هريرة برقم (٣٤٤٨، ٣٥٩٢) و«مسند الطيالسي» (٢٥١٧) وأبو داود (١٥٣٦) وابن ماجه (١٧٥٢، ٣٨٦٢).

(٥) «جامع الترمذي» برقم (٣٥٧٣) وقال: حسن صحيح، وصححه ابن حجر في الفتح (٩٦/١١) ورواه الحاكم عن أبي سعيد (٤٩٣/١) وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٨٢٧).

وسعت كل شئ أن تغفر لي)[١]. وفيما يلي **بعض أحكام الدعاء وآدابه:**

أولًا: الدعاء من أنواع العبادة:

الدعاء: هو الابتهال إلى الله تعالى بالسؤال، والرغبة فيما عنده من الخير، والتضرع إليه سبحانه في تحقيق المطلوب، وإدراك المأمول.

والدعاء: توجُّهٌ إلى مُصرِّف الكون ومدبر الأمر؛ لِيُزيل الغمة، ويَكْشِف الكُربة، ويحقق الأمنية.

فهو التجاء إلى الله تعالى، وفرار إليه، واستعانة بِقَوِيٍّ قادر، من عاجز ضعيف؛ ليطلب إلى نفسه خيرًا في آخرته أو دنياه.

والدعاء لا يقتصر على سؤال الله تعالى سعادَتَي الدنيا والآخرة، بل إنه في حد ذاته عبادة لله تعالى، فكما يتوجه العبد بسؤاله حاجاته إلى الله تعالى، يتوجه إليه بالدعاء من باب العبادة له جل شأنه، فليس الدعاء مقصورًا على طلب رفع الغمة وإزالة الكربة، أو جلب الخير أو النفع، بل هو أيضًا عبادة وقربى إلى الله ﷻ.

فهو دعاء عيادة، ودعاء مسألة، والقرب من الله تعالى نوعان أيضًا: قرب بعلمه من كل خلقه، وقرب ممن دعاه بالإجابة والمعونة والتوفيق.

والعبادة اسم (جامع لكل ما يحبه الله ورسوله)، وهي كثيرة متعددة، ومنها: الدعاء والنذر والذبح والاستغاثة والاستعانة والإنابة وغير ذلك.

وقد أطلق القرآن الكريم لفظ العبادة على الدعاء في مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ [غافر: ٦٠] أي: يستكبرون عن دعائي الذي هو عبادة لي.

في حديث النعمان بن بشير ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: **«الدعاء هو العبادة»**[٢].

---

(١) قال الحافظ: حديث حسن، وقال في «الزوائد»: إسناده صحيح وهو عن ابن مليكة.

(٢) أخرجه النسائي بإسناد صحيح في «السنن الكبرى» (١١٤٦٤)، وانظر: رواية أبي داود والترمذي في «جامع الأصول» ج٤ رقم (٢١٢٠) وهو في «الأدب المفرد» (٧١٤) وأبي داود (١٤٧٩) وابن ماجه (٣٨٢٨) والترمذي (٢٩٦٩) وانظر المسند (١٨٣٥٢) بإسناد صحيح ورجال ثقات وابن حبان ٨٩٠ .

ولذا: فلا يُتوجه بالدعاء لنبيٍّ، ولا لوليٍّ صالح؛ لأن العبادة لا تكون إلا لله تعالى، قال الله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢] ومن صرف شيئًا من هذه العبادات ونحوها لغير الله تعالى فقد كفر أو أشرك.

ثانيًا: لا واسطة بين الخالق والمخلوق فقد استجاب الله دعوة إبليس:

ولا ينبغي للمسلم أن يحتقر نفسه مهما كان عاصيًا، فيظُن أن الله تعالى لا يقبل منه الدعاء لِفَرْط معاصيه، فإنه سبحانه قد استجاب طلب إبليس وهو أشقى الخليقة، فقال تعالى في إجابته لطلبه البقاء في الدنيا: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥] ولكن ليس إلى وقت البعث حتى يتخطى الموت، وإنما ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ وهو فناء هذا العالم ونهايته، فعلى العبد مهما كان مسرفًا على نفسه بالمعاصي أن يلجأ إلى خالقه ومولاه، فهو أقرب إليه من عروقه التي تجري فيها دماؤه.

ولا يجوز له أن يعتقد أن بعض الموتى من أولياء الصالحين ونحوهم أقرب إلى الله تعالى منه، وأن دعاءهم مستجاب، فيتقرب إلى الله تعالى، كما كان أهل الجاهلية يتقربون إلى الله تعالى بآلهتهم ويقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] بل يتوجه إلى ربه مباشرة دون واسطة، فهو ليس أشقى من إبليس.

وأسباب نزول آية الدعاء التي نحن بصددها تدور حول أن الله تعالى قريب من عباده، يسمع دعاءهم إن دعوه سرًّا وإن دعوه جهرًا، فهو سبحانه يعلم السر والنجوى، ويعلم ما تخفي الصدور، وما يجيش في النفوس، ولا يحتاج سبحانه إلى المناداة بصوت عال، فهو أقرب إلى عبده من حبل الوريد، ولا يحتاج إلى مُبلِّغ عن العبد يرفع عنه الدعاء إلى مولاه، بل يدعو العبد ربه مباشرة، ولا يوسط في ذلك أحدًا بينه وبين ربه.

ولذلك: فإن جميع الآيات التي فيها ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ يأمر الله تعالى نبيه أن يقول في جوابها ﴿قُلْ﴾:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩]

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥]

وهكذا وعندما جاءت آية الدعاء لم يقل الله تعالى لنبيه ﴿قُلْ﴾ بل قال مباشرةً ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ لا تتوسط - أيها الرسول - بيني وبين خلقي ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ ولا أحتاج إلى أحد بيني وبينهم، فأنا أسمع دعاءهم، وأعلم سرهم ونجواهم.

وقبول دعوة الصائم، وعدم ردها وإجابتها، كل ذلك موقوف على التزام المسلم الصائم بمبادئ الشرع وأحكامه وآدابه وأخلاقه في شهر رمضان وغيره، فيكون الدعاء مظنة الإجابة والقبول، وتكون العلاقة بين الدعاء والصيام قائمة على الرابطة الإيمانية والعقيدة الصحيحة، فينشأ عن ذلك ثمرة الصيام وهي التقوى والدعاء بالرشد والهداية والقوة الصالحة، ومن ثَمَّ إجابة الدعاء.

ثالثًا: شرط قبول الدعاء: يشترط لقبول الدعاء وإجابته أن يكون المرء طيب المطعم والمشرب والملبس، تقوم أنفاسه التي يدعو بها على الحلال؛ فالله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا، وقد ذكر النبي ﷺ: «**الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء، يارب يارب، ومشربه حرام وملبسه حرام وغُذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك**»[1].

رابعًا: حاجة العبد إلى الدعاء في جميع الأحوال:

والعبد في حاجة دائمة إلى ربه سبحانه، يرفع إليه أكف الضراعة في كل حال: في السراء والضراء، والصحة والمرض، والفرح والحزن، والصباح والمساء، والأمن والخوف، والغنى والفقر، والعسر واليسر، والمنشط والمكره، والرخاء والشدة، **والعبد يدعو ربه:**

١- **تضرعًا وخفية:** يدعو ربه بصوت هادئ خافت فيكون أبلغ في التضرع والخشوع والإخلاص، قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥].

والتضرع: التذلل والمسكنة.

٢- **ويدعوه خوفًا وطمعًا:** أي: ويدعو ربه طمعًا في رحمته، وخوفًا من عقابه، وقد مدح الله سبحانه عباده الذين يرفعون أكف الضراعة إليه في الصباح والمساء خوفًا من عقابه وطمعًا في ثوابه، يقول سبحانه في وصف عباده الصالحين: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ

(١) أخرجه مسلم عن أبي هريرة ج٢ رقم (١٠١٥) والبخاري (٩١) في رفع اليدين.

ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة]

وقال جل وشأنه: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف]

٣- ويدعوه رغبًا ورهبًا: والمسلم يدعو ربه رغبة فيما عنده من الخير والفضل الذي يعود عليه في دنياه وأخراه، ورهبة منه سبحانه أن تحل به كارثة أو تنزل به عقوبة، قال تعالى في وصف أنبيائه ورسله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

٤- ويدعوه في الشدة والرخاء: أي: ويدعو ربه على كل حال، في العسر واليسر، والسراء والضراء، ومن شر الناس من يتعرف على الله تعالى في الشدة، وينسى ربه حال الرخاء، فيعرض عنه سبحانه، أو ينغمس في شهواته، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء].

وقال تعالى في وصف هذا النوع من الناس: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الروم].

فقد كان المشركون يلجؤون إلى الله تعالى عند الشدة، ويسألونه عند الضراء، اعتقادًا منهم أنه سبحانه كاشف الضر، مجيب المضطر، لا يقدر على ذلك إلا هو:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: ١٢].

٥- الإلحاح في الدعاء:

والإلحاح في الدعاء أفضل من السكوت، بل إن الإلحاح مطلوب ومرغوب فيه.

فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إنه من لم يسأل الله يغضب عليه**»[1].

---

(١) «سنن الترمذي» برقم (٣٦١٣) حسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٦٨٦) وفي صحيح سنن ابن ماجه (٣٨٢٧).

وإذا كان الخَلْق يغضبون من الإلحاح في المسألة، فإن الخالق سبحانه يحب الإلحاح في السؤال، وإظهار التذلل والخضوع إليه، ويكره الاستعجال الذي يؤدي إلى ترك الإلحاح، والله سبحانه يستحي أن يرد يد عبده خائبة.

خامسًا: الجزم في الدعاء والثقة بالإجابة:

على المسلم أن يدعو ربه وهو موقن بالإجابة، يعزم ولا يتردد، ولا يعلِّق الإجابة على المشيئة.

جاء في الحديث عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا دعا أحدكم فليعزم المسألة ولا يقولن: اللهمَّ إن شئت فأعطني فإنه لا مُسْتكْرِهَ له**»[1].

وادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة؛ فإن الله تعالى يجيب سؤالكم ويُلبي مطلبكم، مهما كان العبد ضعيفًا حقيرًا وضيعًا؛ فَرُب أشْعثَ أغْبر لو أقسم على الله لأبره.

سادسًا: من دواعي إجابة الدعاء

جاءت الأحاديث والآثار بقبول دعوة كل من: المظلوم، والمسافر، والوالد، والصائم حين يفطر، والإمام العادل، ودعوة المرء لأخيه في ظهر الغيب، والحاج، والمعتمر، والمريض، وكبير السن الصالح، والمحسَن إليه للمحسن، وحامل القرآن، وعند ختم القرآن، ودعوة المضطر، فهؤلاء وغيرهم ممن يرجى قبول دعائهم.

ولإجابة الدعاء بواعث وأسباب تجعله جديرًا بالإجابة، منها:

١- استقبال القبلة، ورفع اليدين بالدعاء، وافتتاحه بحمد الله تعالى والثناء عليه، وتمجيده، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ - وهو أمر هام قد يغفل عنه بعض الناس- ثم يدعو بأي ألفاظ، وأي أسلوب، وأية لهجة، ولا يستحي أن يدعو ربه بأي كلام يحضره خال من الإثم، فإن كان يحفظ جوامع الكلم المأثور فهو أفضل.

- عن فضالة بن عبيد أن النبي ﷺ سمع رجلًا يدعو في صلاته، ولم يمجد الله تعالى،

(١) في البخاري (٦٣٣٨، ٧٤٦٤) ومسلم (٢٦٧٨) وفي «الأدب المفرد» (٦٠٨، ٦٥٩) وأخرجه أحمد برقم (١١٩٨٠) بنحوه، وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وهو في النسائي عن أنس، وفي «صحيح الجامع الصغير» رقم (٥٤٥) و«جامع الأصول» ج٤ رقم (٢١٢٦).

ولم يصلِّ عليه، فقال ﷺ: «عَجل هذا المصلِّي» ثم علَّمهم رسول الله ﷺ ثم سمع رجلًا يصلي، فمجَّد الله وحمده، وصلى على النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «ادعُ تُجَب، سل تُعطَ»[1] أي: فأنت جدير بالإجابة بعد ذكرك لآداب الدعاء ودواعيه، ويُختم الدعاء بالصلاة على النبي ﷺ كذلك.

عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال: «كل دعاء محجوب حتى يُصلى على النبي» ﷺ[2].

وفي رواية: «حتى يصلى على النبي ﷺ وآل محمد»[3].

وبعض الناس يرفعون أيديهم بالحمد والصلاة على رسول الله ﷺ، ولا يدعون وهو عمل ناقص؛ إذ إنه أتى بالمقدمة ولم يدع ربه.

٢- ومن دواعي الإجابة: أن يدعو المسلم ربه بأسمائه الحسنى وصفاته العلا ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[4] [الأعراف: ١٨٠]

ومن ذلك اسم الله الأعظم الذي دعا به من عنده علم من الكتاب فأتى بعرش بلقيس في أقل من طرفة عين:

أ- عن بريدة الأسلمي ﷺ قال: سمع النبي ﷺ رجلًا يدعو وهو يقول: اللهمَّ إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله، لا إله إلا أنت الواحد الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، فقال: «والذي نفسي بيده، لقد سأل باسمه الأعظم الذي إذا

---

(١) «جامع الأصول» ج٤ رقم (٢١٢٠) وهو في النسائي (١٢٨٤) وأبي داود (١٤٨١) والترمذي (٣٤٧٦، ٣٤٧٧) وقال: حديث حسن صحيح، وبنحوه في المسند (٢٣٩٣٧) وإسناده صحيح ورجاله ثقات كما قال (محققوه)، وأخرجه البزار في مسنده: (٣٧٤٨) وابن خزيمة (٧١٠) وصححه الحاكم بموافقة الذهبي (١/ ٢٣٠).

(٢) «صحيح الجامع الصغير» رقم (٤٣٩٩، ٤٥٢٣) و«السلسلة الصحيحة» (٢٠٣٥) وقد رواه الديلمي في «مسند الفردوس» وهو حديث صحيح.

(٣) رواه الطبراني، ورجاله ثقات كما في الهيثمي في «مجمع الزوائد» ج١ ص١٦٠ .

(٤) انظر: حديثاً طويلًا في الصحيحين وغيرهما وأحاديث أخرى في «جامع الأصول»، وحديث رقم (٢١٤٥) وغيره.

دُعي به أجاب وإذا سئل به أعطى»[١].

ب- وسمع ﷺ رجلًا يدعو ربه قائلا **«يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم»** فقال: **«إنه دعا باسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب»**[٢].

ج - وعن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: **«اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين:** ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة] وفاتحة آل عمران ﴿الٓمٓ﴿١﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[٣] [آل عمران].

د- وفي حديث آخر عن القاسم قال: اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، في سور ثلاث: البقرة، وآل عمران، وطه[٤].

٣- وإذا وقع المسلم في شدة وكرب فإنه يدعو الله تعالى بأعماله الصالحة التي قدمها؛ كبِرِّ الوالدين، وصلة الرحم، وحفظ الأمانة، وإعطاء الأجير حقه قبل أن يجف عرقه، والتعفف عن الحرام، كحال الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار، فدعَوْا ربهم بأعمالهم الصالحة، ففرج الله عنهم كَرْبَهم وانكشف الغار عنهم[٥].

وهكذا المسلم يدعو ربه بما قدم من أعمال صالحة أن يزيل الله همه ويفرج كربه وييسر له طريق النفع والخير.

٤- ومن دواعي إجابة الدعاء أن يكون العبد حاضر القلب، مقبلًا على الله تعالى،

---

(١) انظر: الأحاديث الواردة في ذلك في «جامع الأصول» ج٢ حديث رقم (٢١٤٥) وهو في «صحيح سنن الترمذي» (٢٧٦٣) وبنحوه في المسند (١٣٥٧٠) حديث صحيح بإسناد قوي، وانظر (١٢٦١١)وفي صحيح سنن ابن ماجه (٣١١٢) وفي السنن (٣٨٥٨) من حديث بريدة الأسلمي .

(٢) «جامع الأصول» حديث رقم (٢١٤٣) وغيره.

(٣) «صحيح سنن الترمذي» (٢٧٦٤) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٣١٠٩) وفي السنن (٣٨٥٥) بإسناد حسن، وصحيح سنن أبي داود (١٣٤٣) والمشكاة (٢٩٩١).

(٤) حديث حسن في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٧٤٦) وفي سنن ابن ماجه (٣١١٠) وهو في السنن (٣٨٥٦).

(٥) حديث الثلاثة الذين آواهم الغار في الصحيحين عن عبد الله بن عمر، البخاري (٢٢١٥، ٥٩٧٤) ومسلم (٢٤٧٣).

موقنًا بالإجابة، غير غافل ولا لاهٍ ولا ساهٍ عمن يدعوه و لا مشتغل بغيره عنه.

٥- وألا يتكلَّف المسلم في دعائه، بل يدعو بما يحضره بأي لفظ كان، وبأي لغة يخاطب بها العبد ربه، ولا يستحي من ذلك، وإن دعا بما جاء في الكتاب والسُّنَّة، وقدم أمر الآخرة على الدنيا، وأشرك الناس معه في دعائه، فهو من هَدْي النبي ﷺ.

٦- ومن دواعي الإجابة أن يُلحَّ المسلم، ويكرر الدعاء، بخضوع وخشوع، رغبة ورهبة، فقرًا وتذللًا، وأن يكون صوته بين السر والجهر، وقد كان النبي ﷺ **«يعجبه أن يدعو الله ثلاثًا، ويستغفر ثلاثًا»** كما جاء في حديث ابن مسعود ﷺ[(١)].

٧- وألا يدعو بإثم ولا قطيعة رحم، ولا يدعو على مسلم، ولا على نفسه أو ولده أو أهله، بل إن النبي ﷺ دعا لثقيف وكانوا كفارًا فقال: **«اللهم اهدِ ثقيفًا وائت بهم مسلمين»**[(٢)] فأجاب الله دعاءه وأسلم ثقيف وأهل الطائف جميعًا.

٨- ويُستحَب الدعاء للمسلم بظهر الغيب، وقد أُمرنا بذلك في كثير من آيات الكتاب العزيز، كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠] وكما قال النبي ﷺ من حديث أبي الدرداء ﷺ: **«دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل، كلما دعا لأخيه بخير، قال الملك الموكل به: آمين، ولك بمثل»**[(٣)] أي: والملَك يرُدُّ عليه بمثل دعائه.

٩- ويُستحَب الدعاء لمن أسْدى إلى الإنسان معروفًا بأن يقول له: **«جزاك الله خيرًا»**.

ففي حديث أسامة بن زيد ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«من صنع إليه معروف فقال لفاعله: جزاك الله خيرًا، فقد أبلغ في الثناء»**[(٤)].

---

(١) في «سنن أبي داود» (١٥٢٤) وإسناده حسن، وفي المسند (٣٧٤٤،٣٧٦٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين و أبي يعلي (٢٧٧) والطبراني في الكبير (١٠٣١٧).

(٢) من حديث جابر في «المسند» (١٤٧٠٢) دون (وأت بهم مسلمين) بإسناد قوي على شرط مسلم وأخرجه الترمذي (٣٩٤٢) وقال: حسن صحيح غريب.

(٣) انظر: النص في «الأذكار النووية» ص٣٤٥ وهو في «صحيح مسلم» عن أبي الدرداء برقم (٢٧٣٢، ٢٧٣٣).

(٤) الترمذي (٢٠٣٥) قال الترمذي: هذا حديث حسن جيد غريب.

١٠- ويُستحَب طلب الدعاء من أهل الفضل، كأن يقول له: (لا تنسنا يا أخي من صالح دعائك، أو يقول: (أشركنا يا أخي في دعائك) وذلك أن عمر بن الخطاب استأذن النبي ﷺ في العمرة، فأذن له وقال: **«لا تنسنا يا أخي من دعائك، فقال عمر: كلمة ما يسرني أن لي بها الدنيا»**[١].

ولا يجوز للمسلم أن يدعو على نفسه، ولا على ولده ولا على خادمه، ولا على ماله؛ حتى لا يوافق ساعة إجابة.

وقد جاء النهي عن ذلك في حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على خدمكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة، نيل فيها عطاء، فيستجاب منكم»**[٢].

ومعنى: **«نيل فيها عطاء»** أي: حتى لا توافقوا ساعة إجابة ينال الطالب فيها ويُعطَى مطلوبه.

وفي حديث أم سلمة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: **«لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير»**[٣]

سابعًا: أوقات الإجابة: ولا يستبطئ المسلم الإجابة ويتعجل في طلبها وعليه أن يغتنم الأوقات الفاضلة: **«إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها»**[٤] **ومن هذه الأوقات:**

١- يوم عرفة: فهو أفضل الأيام لما فيه من وقوف الخلق -وهم يؤدون فريضة العمر- في صعيد واحد بين يدي ربهم، رافعين أصواتهم بالتلبية والذكر والدعاء في لباس الإحرام.

٢ - ويجاب الدعاء في شهر رمضان: فهو شهر القرآن والصيام، فيه تُصفَّد الشياطين وتغل، وتغْلَق فيه أبواب النار، وتفتح فيه أبواب الجنة، وتُهيئ فيه أسباب القبول بفتح أبواب السماء وأبواب الرحمة.

---

(١) أبو داود (١٤٩٨) والترمذي (٣٥٦٢) قال الترمذي: حديث حسن صحيح ولفظ الترمذي (أي أُخي أشركنا في دعائك ولا تنسنا).

(٢) أبو داود (١٥٣٢) بإسناد صحيح وفي «صحيح مسلم» (٣٠٠٩) بنحوه.

(٣) المسند (٢٦٥٤٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين وهو في مسلم (٩٢٠) وابن ماجه (١٤٥٤) وابن حبان (٧٠٤١).

(٤) حديث ضعيف عن محمد بن مسلمة في الطبراني الكبير والجامع الصغير (٣٢٩٨).

٣- ويجاب الدعاء ليلة القدر: فهي خير الليالي وأفضلها على الإطلاق.

٤- ووقت السحر من أوقات إجابة الدعاء: حيث ينزل ربنا في ثلث الليل الأخير ويقول فيما يرويه أبوهريرة ﷺ عن النبي ﷺ عن ربه ﷻ: «**من يدعونى فأستجيبُ له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له**»[1].

وهي ساعة القرب من الله تعالى حيث الصفاء والخلوة والنقاء والبعد عن الرياء والناس نيام.

٥ - ويوم الجمعة يجاب فيه الدعاء: فهو خير يوم طلعت عليه الشمس، وفيه تقوم الساعة، وفيه ساعة إجابة، والراجح أنها من بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس، لحديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «**إن في الجمعة ساعة إجابة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله ﷻ فيها خيرًا إلا أعطاه إياه، وهي بعد العصر**»[2].

٦ - ومن ذلك عشر ذي الحجة: فهي أيام مفضلة تشتمل على مناسك الحج، والعمل الصالح فيها، ومنه الدعاء، فهو مفضل فيها عن غيرها، ماعدا من خرج مجاهدًا بنفسه وماله ثم لم يرجع من ذلك بشيء.

٧ - والدعاء يستجاب أثناء السجود: فإن سجود العبد بين يدي ربه في الصلاة، فيه خشوع وخضوع، ووضع لأشرف بقعة فيه وهي الجبهة على الأرض، وهو محل إجابة الدعاء.

قال ﷺ فيما يرويه أبوهريرة ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا فيه من الدعاء**»[3].

والسجود من المواطن التي يجوز فيها الدعاء في الصلاة.

---

(١) البخاري (١١٤٥، ٧٤٩٤) ومسلم (١٦٨، ١٧٢، ٧٥٨) وأبو داود (١٣١٥، ٤٧٣٣) وابن ماجه (١٣٦٦) والترمذي (٤٤٦، ٩٤٩٨) و«المسند» (٧٥٠٩) وابن حبان (٩١٩) والنسائي في «الكبرى» (٢٠٧٧) وهذا لفظه، وانظر: طرق الحديث في «جامع الأصول» ج٤ حديث رقم (٢٠٩٧).

(٢) وللحديث صيغ أخرى، انظر: «صحيح الجامع» رقم (٢١١٦) وانظر: البخاري (٩٣٥، ٥٢٩٤، ٦٤٠٠) ومسلم (٨٥٢) و«المسند» (٧١٥١، ١٠٣٠٢) وابن ماجه (١١٣٧) وابن حبان (٢٧٧٣).

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة، «صحيح الجامع» رقم (١١٨٦) وهو في مسلم برقم ٤٨٢ .

ومن مواطنه فيها أيضًا عقب تكبيرة الإحرام، وفي الركوع، وعند الرفع منه، وفي نهاية التشهد، وفي القنوت، وإذا مر بآية رحمة أو عذاب حال قراءته[(١)].

٨ - **ومن مواطن إجابة الدعاء، عند الأذان والإقامة وبينهما:** حيث يرجى قبول الدعاء عقب الصلوات وعند الأذان والإقامة وما بينهما.

٩- **ويجاب الدعاء عند البكاء من خشية الله تعالى:** حال رقة القلب وانعطافه إلى الله تعالى، وإقباله عليه بتضرع وخشوع و إنابة وإخبات.

١٠ - **ويجاب الدعاء عند التحام الجيوش** في الحروب الإسلامية مع غير المسلمين لنشر الدعوة ودفع الصائل[(٢)] وعند الكرب والشدة.

١١ - **ويجاب الدعاء عند نزول الغيث** واستقبال المطر، حيث يغيث الله العباد والبلاد[(٣)].

ثامنًا: من أماكن الإجابة:

ودعاء الله تعالى يستجاب في كل مكان، لاسيما الأماكن المفضلة، ومنها: مكة المكرمة، والمدينة المنورة، وموقف عرفات، وبيوت الله في الأرض، ولاسيما المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال، وعند رؤية الكعبة، وبين الركن والمقام، وعند باب الملتزم.

تاسعًا: إجابة الدعاء له ثلاث صور

استجابة الله تعالى للدعاء، مرجوة حين يستجيب العباد لربهم بالطاعة والإنابة ويكونون من الراشدين، وعليهم أن يدعوه سبحانه ولا يستعجلوه في الإجابة:

١ - وقد تكون إجابة الدعاء في صورة غير ظاهرة للعبد، كأن يدفع الله عنه بلاء كان في الغيب ولا يعرفه، أو يبارك له في ماله أو ولده أو زرعه أو صحته أو علمه...

٢ - وقد تكون الإجابة معجلًا بها في الدنيا كما طلب، إن كانت مصلحته في ذلك.

٣ - وقد تكون إجابة الدعاء مؤجلة لصاحبها في الآخرة، إن كان هذا أنفع له.

---

(١) انظر: «فتح الباري» ج١١ ص١١١ و«زاد المعاد» ج١ ص٢٥٦ .

(٢) الصائل: المعتدي.

(٣) راجع: أدلة ذلك في «جامع الأصول» ج٤ رقم (٢٠٩٨) وما بعده.

أ- عن سلمان الفارسي ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«إن ربكم حييٌّ كريم، يستحي من عبده إذا رفع يديه أن يردهما صفرًا»**[(١)].

ب - وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«ما على وجه الأرض من مسلم يدعو الله ﷻ بدعوة إلا أتاه الله إياها أو كف عنه من الشر مثلها، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم»**[(٢)].

جـ - وعن أبي سعيد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«ما من مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال، إما أن يُعجِّل له دعوته، وإما أن يدَّخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها، قالوا: إذن نُكْثِر؟ قال: الله أكثر»**[(٣)].

عاشرًا: من أسباب عدم الإجابة: الاستعجال بالإجابة واستبطاؤها، وهلع النفس في ذلك، والتحسر على الدعاء، وكثرة المعاصي، وغفلة القلب، وقطيعة الرحم، وأكل الحرام، والدعاء بالشر والإثم، هذا وأمثاله يكون سببًا في عدم إجابة الدعاء.

في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: قد دعوت فلم يُستجب لي»**[(٤)].

وفي صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: **«لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم، ما لم يستعجل»**، قيل: يا رسول الله: وما

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٥٦) وأبو داود (١٤٤٨) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١٥٥، ١٠١٤) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٣١١٧) و«المسند» (٢٣٧١٤) وانظر: «مشكاة المصابيح» رقم (٢٢٤٤) وجامع الأصول حديث رقم (٢١١٨).

(٢) عبد الله بن أحمد في «المسند» (٢٢٧٨٥) قال محققو «المسند»: صحيح لغيره وأخرجه مسلم والترمذي كما في «جامع الأصول» برقم (٢١٣٣) ورقمه في الترمذي (٣٥٧٣) وقال: حسن غريب صحيح وهو في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٨٢٧) وأخرجه الحاكم (١/ ٤٩٣) عن أبي سعيد الخدري.

(٣) البخاري (٧١٠) والحاكم (١/ ٤٩٣) و«صحيح الأدب المفرد» (٥٤٧) و«المسند» (١١١٣٣) وابن أبي شيبة (٩٢١٩).

(٤) البخاري (٦٣٤٠) ومسلم (٢٧٣٥).

الاستعجال؟ قال: **«يقول: قد دعوت، وقد دعوت، فلم أر يستجيب لي، فيستحسر عند ذلك ويدَعُ الدعاء»**[(١)].

فمن دعا ربه بقلب حاضر ودعاء مشروع، ولا يوجد ما يمنع من إجابة الدعاء، كأكل الحرام ونحوه، فإن الله تعالى وعده بالإجابة، لا سيما إذا كان مستجيبًا لله تعالى، منقادًا لأوامره نواهيه.

حادي عشر: الدعاء والقَدَر: الدعاء لا يتعارض مع القضاء؛ فإن الدعاء يكون سببًا في رد البلاء، ووجود الرحمة، بحيث يكون رد البلاء معلقًا على الدعاء، وكلاهما واقع في عالم الوجود، فالله تعالى يقدر البلاء ويقدر سببه، وسبب رفعه.

والقضاء على نوعين مبرم ومعلق:

١- فإذا كان القضاء مبرمًا أي: نازلًا بالعبد لا محالة؛ فإن الدعاء لا يرفعه ويكون الدعاء في هذه الحالة عبادة لله تعالى، وسببًا في حصول الثواب والأجر، أو في إنزال لطف الله تعالى بالمدعو له عند نزول القضاء المبرم.

٢- أما القضاء المعلق، وهو الذي يتوقف رفعه على الدعاء، أو على صلة الرحم ونحوهما؛ فإن نزول القضاء أو رفعه يتوقف عليه في هذه الحالة؛ لأن الله تعالى خلق السبب والمسبب.

عن عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ قال: **«لا يغني حذر من قدر، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل، وإن البلاء لينزل فيلْقَاه الدعاء فيعْتلجان** - أي يتدافعان ويتصارعان- **إلى يوم القيامة»**[(٢)] فالقضاء المعلق يرده الدعاء لتوقفه عليه، وكون الدعاء سببًا لرده.

والقضاء المبرم لا يرده الدعاء وإنما يكون الدعاء في هذه الحالة سببًا في إنزال لطف

---

(١) «الأذكار النووية» ص٣٤٦ وهو في صحيح مسلم برقم (٢٧٣٥).

(٢) رواه الطبراني في «الأوسط» والبزار بنحوه وفيه زكريا بن منظور وثَّقه أحمد بن صالح المصري وضعَّفه الجمهور وبقية رجاله ثقات كما في «مجمع الزوائد» وانظر: «الترغيب والترهيب» ج٢ ص٤٨٢ وأخرجه الحاكم (١/ ٤٩٢) وصححه، قال الذهبي: زكريا مجمع على ضعفه، وقد حسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٧٣٩) و«مشكاة المصابيح» (٢٢٣٤).

الله تعالى بالعبد، وتحصل به العبادة والمثوبة، فالقضاء المعلق يرده الدعاء، أما القضاء المبرم فلا يرده شيء؛ لأنه نافذ لا محالة، وقد يكون الشيء المطلوب من القضاء المبرم فيكون الدعاء سببًا للطف الله بالعبد.

ومن هذا الباب قولهم: (اللهمَّ إني لا أسألك رد القضاء، بل أسألك اللطف فيه).

وقد دعا النبي ﷺ ربه في مواطن كثيرة، وأجمع السلف والخلف على نفع الدعاء، فلا تناقض إطلاقًا بين الدعاء وبين القضاء والقدر؛ لأن الدعاء ما هو إلا سبب من الأسباب التي تُقضَى ببركتها أمورٌ، وتتحقق آمالٌ، وتُدفع كروبٌ، وإن مثَل الدعاء كمثَل الدواء، ولذا فإنه لا يصح للمريض أن يترك التداوي اتكالًا على أن ما كتبه الله سيحدث، سواء تناول الدواء أو تركه، ولا يصح للمسلم أن يهجر الدعاء الذي هو مخ العبادة، اعتمادًا على أن ما قُدِّر سيكون؛ لأن العاقل من الناس هو الذي يتعاطى الأسباب بعزم وإخلاص، ويسلم أمره لله الواحد القهار .

عن سلمان ﷺ أن الرسول ﷺ قال: **«لا يرد القضاءَ إلا الدعاءُ، ولا يزيد في العمرِ إلا البِرُّ»**[1].

وجاء في رواية ثوبان ﷺ: **«لا يرد القدرَ إلا الدعاءُ، ولا يزيد في العمر إلا البِرُّ، وإن الرجل ليُحرَمُ الرزقَ بالذنب يصيبه»**[2].

ثاني عشر: الدعاء بعد الفريضة: المشروع للمسلم أن يأتي مباشرة عقب السلام من صلاة الفريضة بالأذكار الواردة عن رسول الله ﷺ في ذلك، كالاستغفار كما جاء في حديث ثوبان رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثًا وقال: **«اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام»**[3].

«اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد»[4].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢١٣٩) والحاكم وصححه السيوطي في الجامع الصغير (٩٩٦٨).

(٢) أخرجه الترمذي كما في «مشكاة المصابيح» رقم (٢٢٣٣) وهو في «صحيح سنن الترمذي» (٢٢٣٩) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٧٣) و«السلسلة الصحيحة» (١٥٤) والحاكم (١/ ٤٩٣) وابن أبي شيبة (١٠/ ٤٤١) وهو حديث حسن، وهو في المسند (٢٢٣٨٦، ٢٢٤١٣) وهو حديث حسن لغيره دون الفقرة الثالثة.

(٣) «صحيح مسلم» ٥٩١ .

(٤) من حديث أبي سعيد الخدري في «صحيح مسلم» (٤٧٧) وابن عباس (٤٧٨).

والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير وآية الكرسي. . .إلخ، وغير ذلك.

فالعبادة المطلوبة بعد الصلاة مباشرة هي هذا الذكر الوارد المعروف لدى كل مسلم، فإذا أتى بالدعاء في موضع هذه العبادة، فإن هذا يُعد مخالفة، ويجوز له بعد هذه الأذكار، أن يحمد الله تعالى ويصلي على رسول الله ﷺ ثم يدعو بما شاء، فيكون دعاؤه عقب الذكر عبادة بعد عبادة.

وليس له أن يدعو بعد الصلاة المفروضة مباشرة قبل قراءة الأذكار، ولا أن يظل الإمام مستقبل القبلة بعد الفريضة أو النافلة يدعو، والناس يرددُون عليه أو يؤمنون خلفه(١) كما يحدث في بعض بلاد المسلمين.

ثالث عشر: الدعاء بعد النافلة: ولما كانت صلاة النافلة لا يُشرع لها أذكار عقب الفراغ منها كالفريضة، فإن للمصلي أن يدعو الله تعالى بما شاء بعد السلام مباشرة.

وهذا هو المنقول عن رسول الله ﷺ، ولنا في رسول الله أسوة حسنة.

فالدعاء عبادة في كل وقت، ما لم يكن هذا الوقت مشغولًا بعبادة أخرى.

رابع عشر: رفع اليدين في الدعاء بعد الفريضة والنافلة(٢)

ثبت في البخاري وغيره أن النبي ﷺ كان يرفع يديه بالدعاء حتى يُرى بياض إبطيه.

وصح رفع اليدين بالدعاء في نحو ثلاثين موضعا من مّواطن الدعاء والعبادة في نحو مئة حديث.

غير أن النبي ﷺ كان يبالغ برفع اليدين في الاستسقاء، فيرفع يديه بالدعاء إلى حذو الوجه، وفي دعاء الاستسقاء خاصة يرفعهما إلى حذو المنكبين، وتكون رؤية بياض الإبطين في هذه الحالة أبلغ منها في غيره(٣).

فمنع رفع اليدين بالدعاء بعد الصلاة المفروضة هو صفة خاصة فيه، وليس أصل الرفع؛ لأن رفع اليدين من لوازم الدعاء، وتكون المبالغة أكثر في دعاء الاستسقاء.

---

(١) انظر: تفصيل ذلك بأدلته من كلام ابن القيم في «فتح الباري» ج١١ ص١١١ .

(٢) انظر في رفع اليدين للدعاء: رسالة لعبد الله بن إبراهيم القرعاوي.

(٣) انظر: «جامع الأصول» ج٤ حديث (٢١٠٦) وما بعده.

خامس عشر: مسح الوجه عقب الدعاء: وقد ورد مسح الوجه باليدين عقب الدعاء في أحاديث ضعيفة حسَّنها بعضهم؛ لتقوية بعضها لبعض.

في الترمذي وغيره عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: **«كان رسول الله ﷺ إذا رفع يديه في الدعاء لم يحطهما حتى يمسح بهما وجهه»**[١].

والحكمة في رفع اليدين أن السماء قبلة الدعاء، ومهبط الرزق والوحي والبركة، ومحل استحباب مسح الوجه بهما خارج الصلاة، أما فيها فلا يسن.

وكان النبي ﷺ يقرأ بالمعوذتين، ويمسح بيديه على جسده، ويؤخذ منه أنه لابأس بمسح الوجه باليدين بعد الدعاء في غير الصلاة.

عن عائشة ﷺ أن رسول الله ﷺ: كان إذا أخذ مضجعه نفث في يده، وقرأ بالمعوذات، ومسح بها جسده[٢].

وعن عائشة أيضًا أن النبي ﷺ: كان إذا آوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه، ثم نفث فيهما وقرأ فيهما ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ ثم مسح بهما رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات[٣].

الصِّيَامُ فِي مَرْحَلَتِهِ الأَخِيرَة

١٨٧- ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٔـٰنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾[٤]

لما فرض الله الصيام على عباده في باديء الأمر، حرّم عليهم الأكل والشرب والجماع إلى صلاة العشاء، أو إذا نام الإنسان قبل ذلك، فشق ذلك على المسلمين، فخفف الله

(١) قال ابن حجر في «بلوغ المرام»: له شواهد منها عند أبي داود من حديث ابن عباس برقم (١٤٨٥) ومجموعها يقضي بأنه حديث حسن، ويُنظَر: «الأذكار النووية» بتحقيق الأرناؤوط ص٣٤٤ وبنحوه في تحقيق «جامع الأصول» ج٢ حديث رقم (٢١١٠) وهو في الترمذي برقم (٣٣٨٦).

(٢) البخاري (٦٣١٩) ومسلم (٢١٩٢).

(٣) البخاري (٥٠١٧) ومسلم (٢١٩٢).

(٤) قرأ ورش وابن وردان بنقل حركة همزة (فالآن) إلى ما قبلها، والباقون بالتحقيق وعدم النقل.

عنهم بهذه الآية، بأن أباح لهم الأكل والشرب والجماع، حتى أذان الفجر، سواء أنام المسلم قبل ذلك أم لم ينم.

١- أسباب النزول

أ - أخرج البخاري وغيره عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: كان أصحاب النبي ﷺ إذا كان الرجل صائمًا فحضر الإفطار، فنام قبل أن يفطر، لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يُمسي، وإن قَيْسَ بنَ صِرْمَةَ الأنصاريَّ كان صائمًا، فلما حضر الإفطار أتى امرأته، فقال لها: أعندك طعام؟ قالت: لا، ولكن أنطلِق فأطْلُب لك، فغلبتْه عيناه، فجاءته امرأته، فلما رأته، قالت: خَيْبَةً لك، فلما انتصف النهار غُشِي عليه، فذكر ذلك للنبي ﷺ فنزلت الآية، ففرحوا فرحًا شديدًا[١].

ب- وفي حديث طويل أخرجه الإمام أحمد وغيره عن معاذ بن جبل ﷺ قال فيه: (وكانوا يأكلون ويشربون ويأتون النساء ما لم يناموا، فإذا ناموا امتنعوا)، ثم إن رجلًا من الأنصار يقال له: (قَيْسُ بْنُ صِرْمَةَ) كان يعمل صائمًا حتى أمسى، فجاء إلى أهله فصلى العشاء ثم نام فلم يأكل ولم يشرب حتى أصبح، فأصبح صائمًا فرآه رسول الله ﷺ وقد جهد جهدًا شديدًا، فقال: «**ما لي أراك قد جهدت جهدًا شديدًا؟**» قال: يا رسول الله، إني عملت أمس، فجئت حين جئت، فألقيت نفسي فنمت، فأصبحت حين أصبحت صائمًا، قال: وكان (عمر) قد أصاب من النساء بعد ما نام، فأتى النبي ﷺ فذكر له ذلك، فأنزل الله ﷻ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾[٢].

---

(١) انظر «صحيح البخاري» (١٩١٥) و(٤٥٠٨) مختصرًا وأبو داود (٢٣١٤) وفيه (صِرْمَةَ بْنَ قَيْسٍ) والترمذي (٢٩٦٨) وتفسير الطبري (٣/ ٤٩٥)، قال ابن حجر في الإصابة (٩/ ١١٨) وقيل: صرمة بن قيس، وقيل: قيس بن مالك، وقيل: قيس بن أنس، أبو صرمة، وفرّق بن حبان بين قيس بن مالك وقيس بن صرمة، فقال في كل منهما: له صحبة، وذكر ابن حجر هذه القصة في ترجمة كل منهم، واقتصرت كتب الحديث على ذكر أحدهم.

(٢) «تفسير ابن كثير»: (١/ ٢١٤) ط دار المعرفة بيروت والحديث في «المسند» (٥/ ٢٤٦) ورقمه في الطبعة المحققة عام ١٤٢١هـ مؤسسة الرسالة (٢٢١٢٤) رجاله ثقات رجال الشيخين غير المسعودي فقد روى له البخاري استشهادًا وأصحاب السنن وأخرجه الترمذي (٥٩١) وابن خزيمة والطيالسي (٥٦٦). وانظر: «سنن أبي داود» (٥٠٦) .

ج - وفي رواية عن عطاء بن أبي رباح، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان المسلمون قبل أن تنزل هذه الآية إذا صلوا العشاء الآخرة حَرُم عليهم الطعام والشراب والنساء حتى يفطروا، وإن عمر بن الخطاب أصاب أهله بعد صلاة العشاء.

وإن قَيْسَ بْنَ صِرْمَةَ الأنصاري غلبته عيناه بعد صلاة المغرب، فنام ولم يشبع من الطعام، ولم يستيقظ حتى صلى رسول الله ﷺ العشاء، فقام فأكل وشرب، فلما أصبح أتى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك فأنزل الله الآية[1].

د- قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان الناس على عهد رسول الله ﷺ إذا صَلَّوْا العَتَمَةَ - أي العشاء- حَرُم عليهم الطعام والشراب والنساء، وصاموا إلى القابلة، فاختان رجل نفسه، فجامع امرأته وقد صلى العشاء، ولم يُفْطر، فأراد الله أن يجعل ذلك تيسيرًا لمن بقى، ورُخصة ومنفعة فقال: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ الآية، فرخص لهم ويسر[2].

قال عبد الرحمن بن أبي ليلى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ نزلت في صرمة بن مالك، ونزل ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ﴾ في عمر بن الخطاب.

٢ - رَفعْ توهُّم مشابهة أهل الكتاب في الصيام

بيَّنَّا فيما سبق أن الطعام والشراب ومواقعة النساء كانت تحل للصائم، من أذان المغرب إلى صلاة العشاء أو ينام المسلم قبل صلاة العشاء، وكان هذا شأن أهل الكتاب.

وجاء في الأثر: أن المفطرات كانت تحل للصائم حتى صلاة العشاء، ثم يمسك عن الطعام والشراب ومجامعة النساء إلى مغرب اليوم التالي.

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ﷺ قال: إن المسلمين كانوا في شهر رمضان إذا صلوا العشاء، حرم عليهم النساء والطعام إلى مثلها من القابلة - أي سواء أكلوا أم لم يأكلوا في الفترة من المغرب إلى النوم أو إلى صلاة العشاء- ثم إن ناسًا من

---

(١) إسناده صحيح عن سعيد بن أبي عروة إلى أبي هريرة كما قال الشيخ أحمد شاكر في تحقيقه على «تفسير الطبري» (٣/ ٤٩٩).

(٢) «صحيح سنن أبي داود» (٢٠٢٨) والبيهقي (٤/ ٢٠١) وهو حديث حسن صحيح.

المسلمين أصابوا الطعام والنساء في رمضان بعد العشاء، منهم عمر بن الخطاب، فشكوْا ذلك إلى رسول الله فأنزل الله الآية[١].

وتبين الآثار أن ذلك كان في بدء فرض الصيام على المسلمين، أي: في المرحلة الأولى.

كما أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان الناس أول ما أسلموا إذا صام أحدهم يصوم يومه حتى إذا أمسى طعم من الطعام، حتى يُمسي من الليلة القابلة...[٢].

فعُلِم من هذا أن الصيام كان في مرحلته الأولى: من صلاة العشاء أو ينام الإنسان قبلها، وحتى غروب الشمس من اليوم التالي، وأن مدة الإفطار كانت مقصورة على ما بين أذان المغرب والعشاء أو النوم قبلها، وهذا تقرير للحالة التي بدأ بها المسلمون يصومون شهر رمضان لأول مرة في الأيام الأولى منه؛ حيث كان أهل الكتاب يفطرون فقط ما بين المغرب والعشاء، فظنوا أنهم كذلك، وقد حدث بذلك جهد ومشقة للمسلمين في الجوع وعدم إتيان نسائهم، فخفف الله عنهم بنزول هذه الآية، مبينًا لهم أن الصيام في مرحلته الأخيرة، من طلوع الفجر، إلى غروب الشمس، وأنه يحل لهم الطعام والشراب ومواقعة النساء طيلة الليل، من غروب الشمس إلى أذان الفجر الصادق؛ لئلا يجهدهم الجوع والعطش وهم في طلب أرزاقهم بالنهار، ولأن الرجل والمرأة كل منهما يخالط الآخر ويماسه ويضاجعه، فناسب أن يرخص لهم في المجامعة ليالي رمضان؛ لئلا يشق عليهم ذلك ويُحْرَجوا، وكان قد ترتب على ذلك أن الرجال لا يقربون النساء طيلة شهر رمضان.

وربما غلبت أحدهم شهوته فواقع أهله.

أخرج البخاري عن البراء بن عازب ﷺ قال: ولما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله، وكان رجال يختانون أنفسهم، فأنزل الله: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ﴾[٣].

(١) «تفسير الطبري» (٣/ ٢٣٦).

(٢) الطبري (٣/ ٢٣٧) وابن أبي حاتم (١٦٨٠، ١٦٨٤).

(٣) البخاري برقم (٤٥٠٨).

وفي هذا رحمة وتخفيف من الله ﷻ، ورفع للحرج عنهم، رفقًا بهم، ورخصةً لهم، وبيانًا لحل المباشرة والطعام والشراب ليلة الصيام من المغرب إلى الفجر، وبيانًا لمواعيد الصيام من الفجر إلى الغروب.

وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن هذه الآية ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ ناسخة للحكم السابق قبلها، وهو الإمساك عن المفطرات نهارًا ولا يقرب الصائم شيئًا منها بعد النوم قبل صلاة العشاء، أو إلى صلاة العشاء.

ويرى بعض العلماء أن الآية ترشد المسلمين إلى ما شرعه الله لهم في شهر رمضان من جواز الجماع ليلًا والأكل والشرب حتى الفجر؛ لترفع ما توهَّمه بعضهم من عدم جواز ذلك إذا ناموا بعد فطرهم، ويستشهدون على ذلك بحديث البراء السابق.

وقال أبو مسلم الأصفهاني: هذه الحرمة لم تكن في شرعنا، بل كانت في شرع النصارى قبلنا.

وقد فهم الصحابة بقاء هذا الحكم، فكانوا يمتنعون عن الأكل والوقاع بعد النوم، وبعد صلاة العشاء، فبيَّن الله تعالى أنه خفف هذا الحكم عن هذه الأمة، ولم يوجب عليهم ما أوجبه على النصارى، وأذن لهم في المحظور على الأمم السابقة[(١)].

ويؤيده ما أخرجه عبد بن حميد عن إبراهيم التيْمي قال: كان المسلمون في أول الإسلام يفعلون كما يفعل أهل الكتاب إذا نام أحدهم لم يَطْعَم حتى تكون القابلة، فنزلت: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾[(٢)].

وروى مسلم وغيره عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر**»[(٣)].

وفي الصحيحين وغيرهما عن أنس بن مالك عن زيد بن ثابت رضي الله عنهما قال:

---

(١) انظر: «تفسير آيات الأحكام» للشيخ / محمد علي السايس (١/ ٧٧).

(٢) «الدر المنثور» (٢/ ٢٧٧).

(٣) «صحيح مسلم» برقم (١٠٩٦) وأخرجه أبو داود (٢٣٤٣) والترمذي (٧٠٩) والنسائي (٢١٦٥) وابن أبي شيبة (٣/ ٨).

تسحرنا مع رسول الله ﷺ، ثم قمنا إلى الصلاة، قال أنس: قلت لزيد: كم كان بين الأذان والسحور؟ قال: قدر خمسين آية[١].

٣- الصيام من الفجر إلى المغرب هو التشريع القائم إلى يوم الساعة:

ثم بيَّن ﷻ حل وإباحة الأكل والشرب مع ما تقدم من الجماع في أي أوقات الليل شاء الصائم، إلى أن يتبين ضياء الصباح من سواد الليل، وعبر الله تعالى عن ذلك بظهور الخيط الأبيض من الخيط الأسود، فقال تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ ولم يكن الأذان آنذاك يُرفع بالمكبرات، وعبْر وسائل الإعلام المرئية والمسموعة.

ولم تكن الساعات التي تضبُط الوقت موجودة في الأماكن العامة والخاصة.

ولم يكن هناك وسائل للإعلام تَقْتُل أوقات الناس، وتُبدد طاقاتهم!! وتُضيِّع أوقاتهم.

ولم يكن هناك حساب فلكيٌّ علميٌّ دقيق يبين أوقات الصلاة بالدقيقة والثانية.

فأخذ بعض الناس بظاهر هذه الآية حين نزولها، وربما ربط بعضهم الخيط الأبيض والأسود في رجليه، وربما جعلهما تحت وسادته أو نحو ذلك؛ ليعلم بحاسة البصر طلوع الفجر الصادق.

أخرج البخاري وغيره عن سهل بن سعد ؓ قال: أُنزلت ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ ولم ينزل ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ وكان رجال إذا أرادُوا الصوم، ربط أحدهم في رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود، فلا يزال يأكل حتى يتبين رؤيتهما، فأنزل الله قوله: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ فعلموا أنما يعني: الليل والنهار[٢] أي: طلوع الفجر، وليس ظهور الخيط الأبيض من الأسود.

وفي الصحيحين وغيرهما عن عدي بن حاتم أنه لما نزلت الآية عَهِد إلى عقالين: أحدهما: أبيض، والآخر: أسود، قال: فجعلتُهما تحت وسادتي، فجعلت أنظر إليهما،

---

(١) البخاري برقم (١٩٢١) ومسلم برقم (١٠٩٧).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (١٩١٧، ٤٥١١) ومسلم (١٠٩١) و«النسائي في الكبرى» (١١٠٢٢) والطبراني (٥٧٩١).

فلما تبين لي الأبيض من الأسود أمسكت، فلما أصبحتُ غدوتُ على رسول الله ﷺ فأخبرته بالذي صنعت، فقال: **«إن وسادك إذًا لعريض، إنما ذلك بياض النهار من سواد الليل»**[1].

ومعنى: **«إن وسادك إذًا لعريض»**، أي: إذا كانت الوسادة تسع الخيطين: الأبيض والأسود، فيقتضي ذلك أن تكون الوسادة بعرض المشرق والمغرب.

وقد فَسَّرَتْ رواية البخاري هذا المعنى في لفظ: **«إنك لعريض القفا»**[2].

وفسرها بعضهم بأنه: إذا كان وساده عريضًا، فقفاه أيضًا عريض.

أو إنك لعريض القفا إن أبصرت الخيْطين، ويكنى بها عن البلادة.

ووجه تشبيه الليل والنهار بالخيطين: أن الصبح أول ما يتبين يبدو رفيعًا كالخيط، وبمقدار ما يظهر خيط الصبح ينقشع خيط من الليل أسود كذلك.

٤ - خمسة من أحكام الصيام

الأول: استحباب السحور: قال ابن كثير: في إباحته تعالى جواز الأكل والشرب إلى طلوع الفجر دليل على استحباب السحور؛ لأنه من باب الرخصة والأخذ بها مستحب، ولهذا وردت السُّنَّة الثابتة عن رسول الله ﷺ بالحث على السحور.

ففي الصحيحين وغيرها عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«تسحروا فإن في السحور بركة»**[3].

ويُستحَب تأخير السحور إلى وقت انفجار الفجر، كما جاء في الصحيحين: عن عبد الله ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«لا يمنعكم أذان بلال عن سَحورِكم فإنه ينادي بليل، فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم، فإنه لا يؤذِّن حتى يطلع الفجر»**[4].

---

(١) البخاري برقم (١٩١٦، ٤٥٠٩) ومسلم برقم (١٠٩٠) و«المسند» (٣٧٧/٤) برقم (١٩٣٧٥) وأبو داود (٢٣٤٩) والترمذي (٢٩٧٠، ٢٩٧١) وابن أبي شيبة (٢٨/٣) وسعيد بن منصور في التفسير (٢٧٧).

(٢) البخاري (٤٥١٠) والطبري (٢٥١/٣). وانظر صحيح مسلم (١٠٩٠).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (١٩٢٣) و«صحيح مسلم» برقم (١٠٩٥) والترمذي (٧٠٨) والنسائي (٢١٤٥) وابن أبي شيبة (٨/٣).

(٤) «صحيح البخاري» برقم (٦٢١، ١٩١٨) و«صحيح مسلم» برقم (٣٨٠، ١٠٩٢).

والمراد بأذان بلال: الآذان الأول الذي يكون قبل ساعة من وجوب الفجر، وهو الفجر الكاذب أي الذي يبدو بعده النهار شيئًا فشيئًا بخلاف الأول.

الثاني: تعجيل الفطر: وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ يقتضي الإفطار عند غروب الشمس، كما جاء في الصحيحين عن عمر ﷺ: «**إذا أقبل الليل من ها هنا وأدبر النهار من ها هنا فقد أفطر الصائم**»[1].

وقد نُهينا عن وصال الصوم بلا إفطار، فقد ثبت عن عائشة ﷺ قالت: نهى رسول الله ﷺ عن الوصال، رحمة لهم، فقالوا: إنك تواصل، قال: «**إني لست كهيئتكم، إني يطعمني ربي ويسقيني**»[2].

وأُمرنا بتعجيل الفطر عقب الغروب عن سهل بن سعد الساعدي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر**»[3].

وأُمرنا بتأخير السحور إلى الفجر، كما في الأحاديث السابقة وهذا كله من باب التيسير على الأمة والرحمة بها.

وتعجيل الفطر يكون عند سماع أذان المغرب، فلو أفطر المسلم دفعة واحدة بأن أكل الوجبة كاملة في حدود ربع الساعة، ثم صلى المغرب فلا بأس بهذا، لاسيما إنه كان صائمًا ونفسه تتوق إلى الطعام، والصلاة تُكْره بحضرة الطعام الذي يُشتهى.

وإن أفطر على تمرات ونحوها، ثم صلى المغرب وجاء فأكل طعامه بعد الصلاة فهذا هو السُّنَّة، وهذا ما كان يفعله رسول الله ﷺ يفطر على تمرات ويصلي ثم يأكل.

روى الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يفطر قبل أن يُصلي على رطبات، فإن لم تكن رطبات فتمرات، فإن لم تكن تمرات، حسا حسوات من

---

(١) البخاري برقم (١٩٥٤) ومسلم برقم (١١٠٠) وأبو داود (٢٣٥١) والترمذي (٦٩٨) والنسائي في «الكبرى» (٣٣١٠).

(٢) البخاري برقم (١٩٦٤) ومسلم برقم (١١٠٥) والنسائي في «السنن الكبرى» (٣٢٦٦).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (١٩٥٧) و«صحيح مسلم» برقم (١٠٩٨) والترمذي (٦٩٩) وابن أبي شيبة (٢/ ١٣) ومالك (١/ ٢٨٨) والشافعي (١/ ٤٧٨) «شفاء العي».

ماء[١] قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

الثالث: حكم مَنْ أخطأ في الإفطار أو السحور:

اختلف العلماء فيمن أكل أو شرب ظانًّا غروب الشمس، أو تسحر يظن عدم طلوع الفجر، فظهر خلاف ذلك، هل عليه القضاء أم لا؟

ذهب الجمهور - وهو ما عليه الأئمة الأربعة- إلى أن صيامه غير صحيح ويجب عليه القضاء؛ لأن المطلوب من الصائم التثبت قبل تناول الطعام، فإذا ظهر خلافه وجب القضاء.

قلت: ووسائل العصر الحديثة كأجهزة الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة والساعة والتقويم، ومكبرات الصوت، والقمر والنجوم، كلها لا تدع للصائم فرصة في عدم معرفة الوقت، وهي تصل إلى القاصي والداني، بل إنها تصل إلى الإنسان في عُقر داره وفي غرفة نومه، فلا يُعذر مقصر بتفريطه، ويجب عليه القضاء كما قال الجمهور.

وذهب أهل الظاهر، والحسن البصري إلى أن صومه صحيح ولا قضاء عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥].

وقوله ﷺ -فيما يرويه ابن عباس ﷺ: «**إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه**»[٢].

قالوا: وهو كالناسي لا يفسد صومه.

قلت: لا يستقيم قياس غير المتثبت على الناسي والمخطئ؛ لأن شكه أو ظنه بسبب التقصير والتفريط والتهاون[٣].

الرابع: بقاء الجنابة من الليل لا تنافي صحة الصوم:

مَنْ جامع أهله في آخر الليل ثم أذَّن عليه الفجر بعد فراغه من الجماع وقبل أن يغتسل، أو

(١) «سنن الترمذي» برقم (٦٩٥).

(٢) «صحيح سنن ابن ماجه» (١٦٦٤) وابن المنذر (١٨٥) وابن حبان (٧٢١٩) والحاكم (٢/ ١٩٨) والبيهقي في «السنن» (٧/ ٣٥٦) والدارقطني في سننه (٤/ ١٧٠) والطبراني في «الصغير» (١/ ٢٧٠) وقد جاء هذا الحديث من طرق عدة.

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» و«الخازن»، و«آيات الأحكام» للصابوني والشيخ السايس.

جامع في الليل قبل الفجر ونام ثم أصبح وهو جنب، أي: قبل أن يغتسل، فصيامه صحيح، فقد جعل سبحانه الفجر غاية لإباحة الجماع والطعام والشراب للصائم.

جاء في الصحيحين عن عائشة وأم سلمة ﵄ أن رسول الله ﷺ كان يدركه الفجر في رمضان وهو جنب من أهله، ثم يغتسل ويصوم[(١)].

وفي حديث أم سلمة رضي الله عنها في الصحيح: **«ثم لا يفطر ولا يقضي»**[(٢)].

وعن عائشة ﵂ أن رجلًا قال: يا رسول الله، إني أُصبح جنبًا وأنا أريد الصيام فقال النبي ﷺ: **«وأنا أُصبح جنبًا وأنا أُريد الصيام، فأغتسل وأصوم ذلك اليوم»** فقال الرجل: إنك لست مثلنا، قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فغضب، وقال: **«والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله، وأعلَمكُم بما أتقي»**[(٣)].

فالجنابة لا تأثير لها على الصوم ما دام الجماع قد انتهى قبل أذان الفجر، ويجب الاغتسال من أجل الصلاة.

قال ابن كثير: وهذا مذهب الأئمة الأربعة وجمهور العلماء سلفًا وخلفًا.

وقد سأل رجل النبي ﷺ كما في صحيح مسلم عن عائشة ﵂: فقال: تُدركني الصلاة وأنا جُنُب، فأصوم؟ فقال ﷺ: **«وأنا تُدركني الصلاة وأنا جنُب فأصوم»**[(٤)].

الخامس: هل يجب القضاء في صيام النفل؟

١- قال الأحناف بوجوب قضاء النافلة إذا أفسدها الصائم وأفطر لسبب من الأسباب؛ لأنه يلزمه تمام الصيام إلى الليل، ولأنه مأمور بعدم إبطال عمله.

ولأن النبي ﷺ أمر حفصة وعائشة أن تقضيا يومًا مكان يوم صامتاه نافلة وكانتا قد

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٩٢٥، ١٩٢٦) و«صحيح مسلم» برقم (١١٠٩) ومالك (١/ ٢٨٩) والنسائي في «الكبرى» (٢٩٣٣) وابن أبي شيبة (٣/ ٨٠).

(٢) «صحيح مسلم» (١١٠٩).

(٣) مسلم (١١١٠) وأبو داود (٢٣٨٩) والنسائي في «الكبرى» (٣٠٢٥) ومالك (١/ ٢٨٩) والشافعي في «شفاء العيّ» (٦٩١).

(٤) «صحيح مسلم» برقم (١١٠٩).

أفطرتا بسبب طعام أهدي إليهما وأعجبهما فأفطرتا وأكلتا منه.

٢- وقال الشافعية والحنابلة: ليس عليه قضاء؛ لأن من صام تطوعًا فإنه أمير نفسه، كما جاء في الحديث.

٣ - وذهب المالكية إلى أنه إن أبطله بنفسه فعليه القضاء، وإن طرأ عليه ما يفسده فلا قضاء عليه.

فالمسألة إذًا خلافية، ولعل تفصيل المالكية أرجح؛ لأن قطع الصيام بدون عذر يُعد عبثًا وملَلًا من الطاعة وإبطالًا للعمل الصالح، فإن كان هناك عذر مشروع اقتضى منه أن يفطر، فلا يلزمه القضاء للتفرقة بين الصوم الواجب والصوم المندوب.

والعذر المشروع هو الذي يبيح الإسلام الإفطار من أجله في صيام النافلة:

كقدوم ضيف، وإجهاد ومشقة، ورغبة جامحة في قضاء الوطر ونحو ذلك.

الْحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ الْخَامِسُ: أَحْكَامُ الاِعْتِكَافِ

﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾

أي لا تقربوا نساءكم حال اعتكافكم في بيوت الله، فإن الجماع يبطل الاعتكاف، وما حرمه الله عليكم في هذه الآيات، من الأكل والشرب والجماع بالنسبة للصائم، وما حرمه من إتيان النساء حال الاعتكاف، كل ذلك من حدود الله التي حدّها لعباده، فلا تقتربوا منها بشكل مباشر، ولا بوسيلة من الوسائل الموصلة إليها، وبالنسبة للنواهي يقول تعالى (فلا تقربوها) أما بالنسبة للأوامر فيقول سبحانه (فلا تعتدوها) أي لا تتجاوزونها، وبمثل هذا البيان، بين الله للناس آياته حتى لا يبقى لهم عذر ولا حجة، ويكون ذلك سببا لتقوى الله تعالى.

١- **تعريف الاعتكاف**: العكوف: هو الإقبال على الشيء وملازمته.

وتعريفه الشرعي: هو الاحتباس في المسجد على سبيل القربة.

وقال ابن حزم: هو الإقامة في المسجد بنية التقرب إلى الله تعالى ساعة فما فوقها ليلًا أو نهارًا.

٢- **حكمة مشروعيته وأدلته**: والاعتكاف من الشرائع القديمة، وفيه تقرب إلى الله تعالى بالمكث في المسجد، وحبْس للنفس على عبادة الله تعالى، وقطع للعلائق مع الخلائق، والاتصال بالخالق، وإخلاء للقلب من الشواغل عن ذكر الله تعالى، والتفرغ لعبادته سبحانه بالتفكر والذكر، وقراءة القرآن، والصلاة، والدعاء، والتوبة، والاستغفار؛ ففي الاعتكاف صلاح القلب، واستقامته على الطريق السوي، وقد شرع الاعتكاف للخلوة والانقطاع والإقبال على الله تعالى؛ كي يستبدل بحب الدنيا والإقبال عليها حب الله تعالى والإقبال عليه سبحانه.

٣- **حكم الاعتكاف**: أجمع العلماء على أنَّه سُنَّة، وتتأكد هذه السُّنَّة في المساجد في العشر الأواخر من شهر رمضان، فقدْ داوم عليه النبي ﷺ كل سنة تقربًا إلى الله تعالى، واعتكف معه أزواجه، واعتكفْن بعده.

والاعتكاف سُنَّة شبه معطلة تحتاج من الفقهاء والأئمة والمؤذنين ووجهاء الناس وأعيانهم أن يبدأ كل في مسجده بإحيائها؛ كي يقتدي بهم غيرهم. فهو آكد من العمرة في رمضان، ومع ذلك فالناس تهتم بها أكثر من الاعتكاف. وهو من السنن المهجورة غالبًا في أيامنا هذه، والناس يتهيبون مخالفة بعضهم، ومن أحيا سُنَّة فقد أمات بدعة، وله أجر السُّنَّة التي أحياها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيء.

ويمكن للمسلم أن يعتكف ويزاول عمله الذي لابد منه، فيخرج صباحًا إلى عمله ويعود منه إلى المسجد، فيجمع بين هذا وذاك، إن كان ولابد من العمل في هذا الوقت.

وكثير من المساجد في وقتنا الحاضر مهيأة بالفُرش والمرافق العامة، والمصاحف والمكتبات والطعام والشراب.

٤- متى يجب الاعتكاف؟

ويجب الاعتكاف بالنذر، فإذا ألزم الإنسان نفسه به وجب عليه أن يفي بما نذر.

في صحيح مسلم وغيره أن عمر ﷺ نذر في الجاهلية أن يعتكف ليلة في المسجد الحرام، فقال له النبي ﷺ: «**أوف بنذرك**»[1].

---

(١) من حديث عمر في «المسند» برقم (٢٥٥، ٤٧٠٥) والبخاري برقم (٢٠٤٢) ومسلم برقم (١٦٥٦) وأبي داود برقم (٣٣٢٥) وابن ماجه (١٧٧٢، ٢١٢٩) والترمذي (١٥٣٩) والنسائي (٣٣٣٥، ٤٧٤٣).

وفي الحديث المتفق على صحته عن عائشة ﵂ أن رسول الله ﷺ قال: **«من نذر أن يطيع الله تعالى فلْيُطعْه ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه»**[1].

ومن نذر الاعتكاف في المسجد الحرام لم يَجُزْ له الاعتكاف في غيره، وإن نذر الاعتكاف في غيره اعتكف فيه أو في المسجد الحرام.

خلاصة الحكم: فالاعتكاف إذن يكون مندوبًا إليه بمجرد نية الاعتكاف في أي وقت، ويكون سُنَّة مؤكدة في العشر الأواخر من رمضان، ويكون واجبًا بالنذر.

٥ - شروط الاعتكاف: ويشترط في المعتكف أن يكون مسلمًا عاقلًا مميزًا، ناويًا للاعتكاف، طاهرًا من الجنابة ومن الحيض والنفاس، وأن يكون الاعتكاف في مسجد.

واختُلف في اشتراط الصيام وتحديد المدة، ولعل الأرجح عدم اشتراطهما.

وجمهور العلماء على أنه يجوز الاعتكاف في كل مسجد من المساجد لعموم قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾. والمسجد الجامع أفضل، وذلك بالنسبة للرجل.

٦- اعتكاف المرأة:

والمرأة يجوز لها أن تعتكف في المسجد عند أمن الفتنة بشرط إذن زوجها إن كان لها زوج.

وقد صح أن أزواج النبي ﷺ اعتكفن في المسجد النبوي.

وإن حاضت المرأة بطل اعتكافها وخرجت من المسجد، فإن طهرت عادت وأكملت.

ويسن لها الاستتار بخباء في مكان لا يصلِّي فيه الرجال.

وجمهور العلماء على اشتراط الصوم له، واختار بعضهم جواز الاعتكاف بغير صوم في غير شهر رمضان، واختلافهم اجتهادي وليس عن نص.

وما ورد في ذلك من ضرورة اقتران الاعتكاف بالصوم، فهو محل نظر؛ لأن ما ورد في ذلك آثار لا تخلو من ضعف أو نكارة، ولا شك أنه مع الصيام أفضل، وقد اعتكف

---

(١) من حديث عائشة في «المسند» برقم (٢٤٠٧٥، ٢٤١٤١، ٢٥٨٧٧) والبخاري برقم (٦٦٩٦) وأبو داود (٣٢٨٩) والترمذي (١٥٢٦) وابن ماجه (٢١٢٦) وابن حبان (٤٣٨٧) والنسائي في «الكبرى» (٤٧٢٩، ٤٧٣٠، ٤٧٣١).

النبي ﷺ في شوال .

٧- **هل المدة شرط في الاعتكاف؟** يجوز للمسلم إذا جلس في المسجد فترة ما بين المغرب والعشاء مثلًا، أو بعد العشاء، أو العصر، أو الظهر، لمدة ساعة مثلًا، أو ساعة قبل الجمعة، أو أكثر أو أقل من ذلك، يجوز له أن ينوي الاعتكاف في هذه المدة، وله أجرها إن شاء الله تعالى، وهذا ما قاله الشافعي.

وقال الأحناف: أقله يوم وليلة. وقال مالك: عشرة أيام.

ويُستحَب للمعتكف الإكثار من ألوان الطاعات المختلفة، فرائضها ونوافلها، وعلى رأسها قراءة القرآن والسُّنَّة وفهم معانيهما وأحكامهما، والإكثار من صلاة النوافل، وأن يكثر من التفكر في آلاء الله تعالى، وفي حاله ومآله ودنياه وآخرته، وأن يجتنب ما لا يعنيه من الأقوال والأفعال، ومنها اللغو والمراء والجدال والسباب، وأن يلزم مكانه في المسجد لا يبرحه إلا لضرورة ثم يعود.

٨ - **متى يبدأ الاعتكاف؟ ومتى ينتهي؟** يبدأ الاعتكاف في عشر رمضان الأخيرة بأن يدخل المعتكف في المسجد قبل غروب شمس اليوم العشرين من شهر رمضان، ثم يدخل مكانه المخصوص به بعد صلاة فجر اليوم الحادي والعشرين من شهر رمضان كما جاء في الصحيحين من حديث عائشة ﷺ: أن النبي ﷺ صلى الفجر ودخل معتكفه[١].

وقال الأئمة الأربعة وغيرهم: يدخل المعتكِف معتكفه قبل غروب شمس الحادي والعشرين، وأوَّلوا الحديث السابق على أن المعتكف يدخل معتكفه، وينقطع عن الناس، ويختلي بنفسه بعد صلاة الصبح، لا أن ذلك وقت بدء الاعتكاف.

ويمكث المعتكف في المسجد إلى أن يخرج منه إلى صلاة العيد وهو المستحب، أو يخرج عند غروب شمس آخر يوم من رمضان.

وفي غير رمضان يبتدئ الاعتكاف متى شاء، وينهيه متى شاء، وله أن يعتكف يومًا أو يومين، أو أكثر أو أقل، فيدخُل متى شاء وينتهي متى شاء، طال الوقت أو قصر.

---

(١) البخاري (٤/ ٢٧٥) برقم (٢٠٣٣، ٢٠٤٥) ومسلم (٢/ ٨٣١) برقم (١١٧٢).

٩ - قضاء الاعتكاف: ومن شرع في الاعتكاف متطوعًا ثم قطعه استُحِبَّ له قضاؤه؛ لفعل النبي ﷺ حيث قضاهُ في شوال[(١)].

ومن دخل في الاعتكاف وهو ينوي مدة معينة، لا يحل له قطعها إلا لعذر موجب للخروج، وعليه القضاء، ولا يقطع العبادة بغير عذر إلا مَنْ مَلَّها أو كان عابثًا.

أما من نذر أن يعتكف، ثم شرع فيه وأفسده، وجب عليه قضاؤه.

١٠ - من أدلة مشروعية الاعتكاف:

قال تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦]

وقال: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]

وروى البخاري بسنده وغيره عن أبي هريرة ﷺ قال: «**كان النبي ﷺ يعتكف في كل رمضان عشرة أيام، فلما كان العام الذي قُبِض فيه اعتكف عشرين يومًا**»[(٢)].

وفي الصحيحين وغيرهما عن عائشة ﷺ «**أن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله ﷻ ثم اعتكف أزواجه من بعده**»[(٣)] وذلك لتحري ليلة القدر فيها.

١١ - ما يباح للمعتكف وما يكره له:

ويباح للمعتكف أن يأكل ويشرب في المسجد وينام فيه، مع المحافظة على نظافته وصيانته.

ويباح له الكلام المباح لحاجته أو محادثة غيره، من غير لغْو ولا مراء.

ويباح له ترجيل شعره، وتقليم أظافره ولُبس أحسن ثيابه والتطيب.

ويجوز له الخروج من المسجد لتوديع أهله كما ودَّع النبي ﷺ زوجه صفية وهو معتكف ثم عاد[(٤)].

---

(١) يُنظَر: البخاري (٢٠٣٣، ٢٠٤٥) ومسلم (١١٧٢) وأبو داود (٢٤٦٤) وابن ماجه (١٧٧١) والترمذي (٧٩١) والنسائي في «الكبرى» (٧٩٠، ٣٣٣١).

(٢) البخاري (٤٤٢٠، ٤٩٩٨) وأبو داود (٢٤٦٦) وابن ماجه (١٧٦٩) والنسائي في «الكبرى» (٣٣٢٩، ٧٩٣٨) والمسند (٨٤٣٥).

(٣) البخاري (٢٠٢٦) ومسلم (١١٧٢) وأبو داود (٢٤٢٦) والمسند (٢٤٦١٣) والنسائي في «الكبرى» (٣٣٢٢، ٣٣٢٤) وعن سعيد بن المسيب (٣٣٢٣).

(٤) يُنظَر: الحديث في البخاري برقم (٢٠٣٥، ٦٢١٩) و«صحيح مسلم» برقم (٢١٧٥) من حديث صفية رضي الله عنها.

كما يخرج المعتكف للعلاج، وأداء الشهادة، والتقاضي، ونحو ذلك.

ويكره للمعتكف فضول الكلام والنظر والاشتغال بما لا يُستحَب، وما يمكن الاستغناء عنه، وكل ما فيه إثم.

١٢ - ما يُبطل الاعتكاف

أ - يبطل الاعتكاف بمجامعة النساء ليلًا أو نهارًا: قال تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ أي: أنه يحرم على المعتكف -حرمة متفقًا عليها- مباشرة النساء مطلقًا مادام معتكفًا في مسجده.

ويبطل الاعتكاف بما يثير الجماع ودواعيه ومقدماته.

لأن حقيقة المباشرة: وضع البشرة على البشرة، فيعم كل ما يحقق المعنى.

ويقصر الأحناف المباشرة على الجماع فقط، فالمباشرة بغير شهوة عندهم لا تُفسد الاعتكاف؛ لأن عائشة ﵂ كانت ترجل شعر النبي ﷺ وهو معتكف.

ب- ويبطل الاعتكاف بالردة والخروج عن الإسلام، والعياذ بالله.

ج - ويبطل أيضًا بالحيض والنفاس بالنسبة للمرأة.

د - وينقص أجر الاعتكاف بالاشتغال بمحرَّم: كالغيبة، والنميمة، والكذب، والتجسس، والنظر المحرم، والقراءة الساقطة.

هـ - ويبطل الاعتكاف أيضًا بالخروج من المسجد لغير حاجة ولو قل، وبذهاب العقل بجنون أو سُكْر.

متى يجوز للمعتكف الخروج من معتكفه؟ والخروج من المسجد بالنسبة للمعتكف له أحوال:

أولها: الخروج لأمر لابد منه طبعًا أو شرعًا، كقضاء حاجة البول والغائط، والوضوء أو الغسل الواجب، والأكل والشرب، فهذا جائز -إذا لم يكن في المسجد حمام داخلي- ويُؤتى إليه بالمأكل والمشرب، وإذا لم يجد من يأتي له بالطعام والشراب في المسجد، فلا يُمنع من إحضاره بنفسه بقدر الضرورة.

ثانيها: أن يخرج لأمر فيه طاعة لا تجب عليه، كعيادة مريض وشهود جنازة ونحوهما،

ولا يفعل ذلك إلا أن يشترطه في ابتداء اعتكافه، وله أن يشترط الخروج لأداء عمله الرسمي، ثم يعود إلى معتكفه.

ثالثها: أن يخرج من المسجد لأمر يتنافى مع الاعتكاف؛ كالبيع والشراء ومباشرة أمور أهله، فليس له أن يفعل ذلك، سواء اشترط ذلك أم لم يشترط؛ لأنه يتنافى مع المقصود من الاعتكاف ويتناقض معه.

وإذا ذهب إلى منزله لحاجة ضرورية لا بدَّ له منها كإحضار الأكل، فلا يحل له أن يثبت فيه إلا بمقدار ما يفرغ من حاجته تلك، من قضاء الغائط أو الأكل أو الملبس ونحو ذلك، وليس له أن يُقبِّل امرأته، ولا أن يضمها إليه، ولا أن يشتغل بشيء سوى اعتكافه.

قال ابن عباس في تفسير الآية: هذا في المعتكف في المسجد قد حرم الله عليه في رمضان أو غيره أن ينكح النساء ليلًا أو نهارًا حتى يقضي اعتكافه.

وختمت أحكام الصيام بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أي: هذه الأحكام من الصيام والدعاء والاعتكاف حدود الله فلا تقتربوا منها، ولا تنتهكوا حرمتها، ولا تعتدوها؛ فإن من يقترب من الحد، وهو الحاجز الذي يفصل بين الحق والباطل، والحلال والحرام، والخير والشر، يوشك أن يقع فيه، وحدُّ الدار ما يمنع من الدخول فيها، ويُطلب البعد عن طرفها حتى لا يلج فيها، والإنسان لا يأمن نفسه في كل وقت، فأحرى به أن يبتعد عن المحظورات، وألا يقترب من الشهوات والشبهات، وبمثل هذا البيان الواضح، يبيِّن الله لكم معالم دينه، وأحكام شريعته لعلكم تتقون ما حُرِّم عليكم فلا تقعوا فيه، وتتقوا الله وتخشوه فتنجوا من العذاب.

والمعنى الإجمالي للآية: أن الآية الأولى تشير إلى أن الصيام كان في بادئ الأمر، يبدأ من صلاة العشاء، أي: أن مدة الإفطار التي يجوز للصائم فيها أن يأكل ويشرب ويأتي أهله، كانت فترة محددة من المغرب إلى العشاء.

وقد كان هذا ما عليه النصارى حين جاء الإسلام.

وقد ظن المسلمون أن هذا الحكم يسري عليهم، أي: أن الصائم إذا صلى العشاء أو

نام قليلًا فإنه **لا يجوز له** أن يأكل أو يشرب أو يأتي أهله.

ولما كانت مدة الإفطار قصيرة جدًّا، فقد تسبب هذا في وقوع الحرج والجهد لبعض المسلمين؛ حيث إن بعضهم كان يعمل في حقله أو مزرعته فيأتي مساء، وربما لا يكون الطعام معدًّا أو لا تسعِفُه الظروف أن يأكل في هذه الفترة الوجيزة من المغرب إلى العشاء فلا يأكل ويصبح صائمًا، فيترتب عليه مواصلة الصيام إلى مغرب اليوم التالي.

وقد حدث ذلك لرجل يدعى (قَيْس بن صِرْمة) فقد أصيب بالإعياء والإجهاد من جراء ذلك، فنام قبل أن يأكل شيئًا، وواصل صيامه، وعابت عليه زوجته أن أخذه النوم وكأنها كانت تريد منه ما يحدث بين الزوج وزوجه، وقد حدث مثل ذلك لبعض الصحابة، منهم: عمر بن الخطاب، وكعب بن مالك ﷺ؛ فأنزل الله هذه الآية ليرفع الحرج عن المسلمين، ويوسع عليهم الوقت الذي يجوز للصائم فيه أن يأكل ويشرب ويأتي أهله، وأن يمتد ذلك إلى أذان الفجر، فقال سبحانه: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ﴾ أي: يجوز ويباح أن يأتي الرجل أهله في ليالي الصيام ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾ ستر وحفظ لكم ﴿وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ﴾ ستر وحفظ لهن، وهنا كناية عن عدم المفارقة والتلاصق والتلاحم الشديد الذي يحدث بين الرجل والمرأة ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ بمخالفة ما حرم الله عليكم من مجامعة النساء بعد العشاء في ليالي رمضان في المدة السابقة؛ حيث وقع ذلك من بعضكم فأتى أهله بعد العشاء ﴿فَتَابَ﴾ الله ﴿عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْۖ﴾ ما حدث منكم فيما مضى، وشرع لكم بدءًا من نزول هذه الآية إتيان النساء في ليالي رمضان.

﴿فَٱلْـَٔـٰنَ﴾ بعد هذه الرخصة والتوسعة ﴿بَـٰشِرُوهُنَّ﴾ وَطْأً وقُبلة ولمسًا ونحو ذلك أي: يحل لكم أن تجامعوا نساءكم في شهر رمضان ليلًا قبل أذان الفجر ﴿وَٱبْتَغُوا۟﴾ أي: اطلبوا بهذه المباشرة وبهذا الجماع ﴿مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ﴾ من النسل والذرية والولد،والعفة، وهذا الشق من الآية يتناول جماع النساء في ليالي رمضان، ومما كتب الله لكم: التماس ليلة القدر وإحيائها بالطاعة.

ثم تحدثت الآية بعد ذلك عن وقت الإفطار فقال سبحانه: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ أي: استمروا في ذلك، لا إلى صلاة العشاء، وإنما إلى أذان الفجر حيث يظهر لكم النور الصادق المنتشر في الأفق من الفجر، ويتميز من ظلمة الليل ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ

﴿مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾ ولم يكن وقت نزول الآية مكبرات للصوت ترفع الأذان وتبلغه للناس، ولم توجد وسائل إعلام مختلفة يعرف من خلالها بدء الوقت ونهايته؛ كالإذاعة والتلفاز والصحف، ولم تكن هناك الساعات ولا التقاويم التي تحدد للناس لهم بالثانية والدقيقة وقت الأذان، فكان الناس يجتهدون في ذلك بترقب علامات ظهور الغروب وطلوع الفجر في الأفق حتى نزل القرآن الكريم؛ ليبين أنه يحل للصائم الطعام والشراب وإتيان النساء إلى أن يظهر بياض النهار من ظلام الليل، وهذا معنى تبيُّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود، أي: حتى يطلع الفجر الصادق، ويتبين النهار من ظلام الليل، ولكن بعض الصحابة أخذ بظاهر الآية فأتى بعضهم بخيط أبيض وخيط أسود وربطه في رجله، أو وضعه تحت وسادته، حتى يفرق بين الليل والنهار فيمتنع عن الطعام والشراب.

وجاء عدي بن حاتم بعقال أبيض وعقال أسود ووضعهما تحت وسادته، ولما بلغ النبي ﷺ ذلك بيَّن لهم أن المراد ظهور بياض النهار من سواد الليل بطلوع الفجر.

وكان أهل الكتاب لا يتسحرون لضيق الوقت، ولما رفع الإسلام الحرج عن المسلمين وامتد وقت الإفطار من المغرب إلى الفجر، شرع أكلة السحور.

ولذلك قال النبي ﷺ كما في صحيح مسلم عن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: **«فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر»**[(١)].

وفيه إشارة إلى أن أهل الكتاب كانوا لا يتسحرون، وأن فرق أو فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب وجبة السحور، ورغب النبي ﷺ فيها فقال فيما يرويه أنس ﷺ: **«تسحروا فإن في السحور بركة»**[(٢)].

وفي تأخير السحور إلى قرب أذان الفجر قال ﷺ فيما يرويه ابن عمر: **«إن بلالًا يؤذن بليل، فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم»**[(٣)].

---

(١) مسلم (١٠٩٦) وأبو داود (٢٣٤٣) والترمذي (٧٠٩) والنسائي (٢١٦٥) وابن أبي شيبة (٨/٣).

(٢) البخاري (١٩٢٣) ومسلم (١٠٩٥) والترمذي (٧٠٨) والنسائي (٢١٤٥).

(٣) البخاري (٦١٧، ٧٢٤٨) ومسلم (١٠، ٣٦-٣٨، ٩٢) والترمذي (٢٠٣) و«المسند» (٤٥٥١) وابن حبان (٣٤٦٩) والنسائي في «السنن الكبرى» (١٦١٣).

وكان عبد الله ابن أم مكتوم يؤذن الأذان الثاني، أي: عند ظهور الفجر الصادق، فإذا أذن الفجر الصادق وجب الامتناع عن شهوتي البطن والفرج فورًا دون انتظار لانتهاء الأذان.

وإذا أكل الصائم أو شرب ظنًّا منه أن الفجر لم يؤذِّن ثم تبين خلاف ذلك، وكذا لو أكل أو شرب عند غروب الشمس ظنًّا منه أنها قد غربت وتبين خلاف ذلك؛ فإنه يجب عليه القضاء في الحالتين كما عليه جمهور الفقهاء؛ لأنه يجب عليه أن يتثبَّت ويتأكد من وسائل الإعلام وغيرها قبل أن يفطر أو يمسك، ولا يُعذر الإنسان في هذا العصر بتقصيره ولا بتفريطه ولو كان في أقصى الشرق أو الغرب؛ لأن وسائل المعرفة ملء السمع والبصر، اللهم إلا إذا كان هناك ضرورة ملحة، كأن يحتاج إلى تناول جرعة من الدواء أو من الماء فإن له أن يأخذها في بدء الأذان أو في أثنائه حال استيقاظه فجأة من نومه، ولا ينبغي أن يكون هذا ديدنه وعادته، وإنما يجب عليه أن يمتثل أمر الله سبحانه بمجرد التكبير عند سماع الأذان فيبلع ما في فمه ولا يزيد عليه.

وتعجيل الفطر لا تحتاج إلى توصية، فالناس يعجلون الفطر عادة بمجرد أذان المغرب.

وإذا أكل مرة واحدة ثم صلى المغرب وأدركه مع الجماعة فلا حرج في ذلك؛ لأن الصلاة تُكره بحضرة الطعام الذي يشتهيه الإنسان.

وإن أفطر على تمرات وصلى المغرب، ثم تناول وجبة الإفطار فلا حرج أيضًا في ذلك، قال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾بالإمساك عن المفطرات إلى دخول الليل بغروب الشمس، أي: أن الصيام يبدأ من أذان الفجر إلى غروب الشمس.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ فهو استثناء من الآية، أي: أن المعتكف الصائم، وهو في بيت الله، في شهر رمضان أو في غيره، يحرم عليه أن يقرب امرأته ليلًا أونهارًا.

وتحريم الجماع نهارًا بالنسبة للصائم أمر عامٌّ يبطل به الصيام.

أما بالنسبة للمعتكف فلا يحل له أن يقرب النساء ليلًا ولا نهارًا بطبيعة الحال ويبطل الاعتكاف بذلك.

كما أنه لا ينبغي أن يحدث من المعتكف رفث أو لغو أو تقبيل ونحو ذلك مما يتعارض

مع سنة الاعتكاف، قال سبحانه: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ التي شرعها لكم، ففيها الحدود الفاصلة بين الحلال والحرام، إشارة إلى الصيام والدعاء والاعتكاف وغيرها من الأحكام الشرعية في الآيات: ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ لا تعتدوها ولا تنتهكوها ولا تخالفوها؛ حتى لا تقعوا فيها، فإن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ﴿كَذَٰلِكَ﴾ بمثل هذا البيان ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الله ويجتنبون محارمه.

أيها المسلمون: أخرجوا زكاة الفطر في نهاية شهر الصيام؛ فإن زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث، وجبر لما حدث في صيامه من الخلل والنقص، شأنها شأن صلاة النافلة بعد الفريضة، وهي طُعمةٌ للمساكين، وإغناءٌ لهم عن ذل السؤال في يوم العيد.

أيها المسلمون: تابعوا بين الحسنة والحسنة، والعمل الصالح، ولا تقطعوا الأعمال الصالحة بعد شهر رمضان، صوموا ستة من شوال، فقد بيَّن النبي ﷺ أن من صام رمضان ثم أتبعه بست من شوال فكأنما صام الدهر كله، واحرصوا على الصيام المستمر على مدار العام في عشر ذي الحجة، وفي الأشهر الحرم، وشهر الله المحرم، ويوم عاشوراء، وفي شهر شعبان، وفي يوم الإثنين والخميس، وفي الأيام الثلاثة البيض من كل شهر قمري، كل ذلك مسنون ومشروع على مدار العام.

لا تقطعوا صلاة التهجد؛ فإن صلاة التهجد مشروعة في رمضان وفي غير رمضان ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء]

وقد وصف الله سبحانه الذين يقومون من الليل ويصلون في وقت الأسحار بأنهم ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [السجدة]

ولم يسوِّ الإسلام بين من يغط في نوم عميق، وبين من يحيي ليله متعبدًا متهجدًا ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾؟ [الزمر: ٩] لا تقطعوا صلاة التهجد بعد شهر رمضان، فقد حافظتم على صلاة الفجر في شهر رمضان، فحافظوا عليها بعد شهر رمضان، واخرجوا بهذه الفائدة، واعلموا أن مما يعينكم على ذلك: النوم مبكرًا؛ فإن من سنة الإسلام النوم عقب صلاة العشاء، ولا ينبغي للمسلم أن يسهر إلا لضرورة ملحة، فيها نفع له أو للمسلمين، نفع أخروي أو دنيوي، بحيث لا يؤدى هذا العمل في النهار.

إن أجهزة الإعلام قد خربت علينا بيوتنا، وخربت علينا أبناءنا، وخربت علينا نفوسنا، وأصبح الناس في لهو مع هذه الأجهزة وينامون عن صلاة الفجر.

إن المسلم الذي يُعد نفسه للقيام لصلاة الفجر دائمًا يتعود النوم المبكر، وتكون صلاة الفجر عليه سهلة يسيرة، أما غيره فإنها تكون عليه كالجبل الأشم.

بعض الناس يقوم مذعورًا لأداء العمل، وإذا تأخر ربع ساعة أو خمس دقائق فإنه يخاف ويحزن!!

والذي يهتم بقيامه من النوم قبيل العمل بمقدار ما يتسع لملابسه وطعامه ونحو ذلك، ينبغي عليه أن يهتم من باب أولى بما خلقه الله من أجله، فالله تعالى لم يخلقه للعمل اليومي، وإن كان مطلوبًا منه هذا العمل فلابد له من السعي على المعاش، وإنما خلقه أساسًا للعبادة ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات].

الْحُكْمُ السَّادِسُ: الصِّيَامُ الْمُسْتَمِرُّ عَنْ أَكْلِ الْحَرَامِ

١٨٨- ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

هذه الآية لها ارتباط وثيق بآيات الصيام؛ فهي متممة ومكملة لها، فكأن الله ﷻ يقول لنا: إن الله تعالى قد أوجب عليكم صومًا من نوع آخر، وهو أنه قد حرم عليكم بصفة دائمة أكل أموال الناس، بأن يأكل بعضكم مال بعض، بأي لون من ألوان الباطل:

بالأيمان الفاجرة الكاذبة، بطريق التعدي والغصْب والنهب والسلب، بطريق اللهو والمقامرة، ووجوه الكسب غير المشروع، كالغناء والملاهي، والاتجار في الخمر والمخدرات، بطريق الرشوة والهدية التي تأخذ حكمها، وشهادة الزور، والظلم وخيانة الأمانات، والودائع ونحو ذلك.

﴿وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ﴾ أي: حرم عليكم أن تدفعوا الرشوة إلى القُضاة، أو ولاة الأمور، أو الموظفين.

وهذه الآية تشمل رشوة الحُكْم وشهادة الزور، وقد حرم الإسلام ذلك؛ لئلا تأكلوا عن

طريق التخاصم والتقاضي أموال طائفة من الناس ظلمًا وعدوانًا ﴿لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ ٱلنَّاسِ﴾ ظلمًا ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنكم على باطل وأنكم تأكلون محرمًا، فإذا صام المسلم عن الحلال في رمضان، فأولى به أن يصوم عن الحرام طيلة حياته.

عن أبي حُميد الساعدي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لا يحل لامرئ أن يأخذ مال أخيه بغير حقه، وذلك لما حرم الله مال المسلم على المسلم»**(١).

وقد يحتال الإنسان لأخذ مال أخيه بطريقة من الطرق كأن يكون ممن يُحسن صناعة الكلام وقيام البراهين الكاذبة:

في الصحيحين وغيرهما عن أم سلمة ﵂ أن رسول الله ﷺ قال: «إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إليَّ، ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له بنحو ما أسمع، فمن قضيتُ له بشيء من حق أخيه فإنما أقطع له قطعة من نار»(٢).

فلا تُخاصم ولا تُجادل وأنت تعلم أنك ظالم وكاذب، فإن وبال ذلك عظيم، وعقابه وخيم.

قيل: نزلت هذه الآية في الرجل يكون عليه مال، وليس عليه بينة، فيجحد المال ويخاصم إلى القضاة وهو يعرف الحق عليه، وأنه يأكل حرامًا.

وقيل: إن الآية نزلت في قضية عبدان الحضرمي وامرئ القيس، اختصما للنبي ﷺ في أرض فنزلت الآية.

والآية عامة، وفيها دليل على تحريم رشوة الحكام (القضاة) لاقتطاع حقوق الناس بغير حق والإعانة على ذلك فالآية تشمل:

١- تقديم الأموال رشوة للحكام؛ ليقضوا لهم بغير حقهم ظلمًا وعدوانًا، وبأكل أموال الناس بالإثم.

---

(١) «المسند» (٢٣٦٠٥) قال محققوه: إسناده صحيح. وأخرجه البزار في مسنده (٣٧١٧) بإسناد حسن، وابن حبان (٥٩٧٨) والبيهقي في الشعب (٥٤٩٣) وفي السنن (٦/ ١٠٠).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٢٤٥٨، ٢٦٧٩، ٦٩٦٧) و«صحيح مسلم» برقم (١٧١٣) ومالك (٢/ ٧١٩) والشافعي في «شفاء العيّ» (٦٢٨) وابن أبي شيبة (٧/ ٢٣٣).

٢- وتشمل رفع القضايا للحكام ارتكازًا على الحجة الداحضة، وما شابه ذلك من شهادة الزور والأيمان الكاذبة، واللحن في الحجة وبراعة الأسلوب، واللجاج في الخصومة عن طريق المحامين وغيرهم.

٣- وتشمل كذلك أخذ المال ظلمًا أو سرقة أو غصبًا ونهبًا ونحو ذلك.

٤- وتشمل أخذه من طريق محظور؛ كالقمار، وأجرة الغناء، وسائر الوجوه المحرمة.

والمال يطلق على العقارات الثابتة والمنقولة، ويطلق على المتاع كالأثاث ونحوه، ويطلق على الحيوانات والزروع والثمار، ويطلق على النقد أو العملة.

والإدلاء يكون ببذل الأموال أو بإلقاء الحجة، كمن يُرسل دلوه في البئر ليحصل على مطلوبه، هذا: ولما كان أكل أموال الناس، منه ما هو بحق، ومنه مما هو بباطل، فقد قيده الله تعالى بالباطل ليدخل فيه ما كان على وجه الغصب أو السرقة أو الخيانة في وديعة أو عارية، أو رشوة أو ظلم أو غش في البيع أو الشراء أو الإجارة، وكذا عقود الربا والقمار وأكل عرق الأجراء ونحو ذلك.

فاللَّهمَّ اكفنا بحلالك عن حرامك، وبطاعتك عن معصيتك، وبفضلك عمن سواك.

ومن حكمة الله سبحانه أن ختم آيات الصيام بآية عجيبة تبين أنه إذا كان المسلم قد امتنع في شهر رمضان عما هو حلال عليه في غير الصيام، فامتنع عن الطعام والشراب وعن إتيان أهله، وكل ذلك حلال عليه في غير نهار رمضان، وإذا كان المسلم قد تعود ذلك طيلة شهر كامل فامتنع عن ما أحله الله له في غير رمضان، فإنه يجب عليه أن يخرج بنتيجة عملية وهي أن يمتنع بصفة مستمرة وأن يصوم صيامًا دائمًا عن أكل الحرام، وعن التدخين والمخدرات والمسكرات، وعن أكل أموال الناس بالباطل.

لقد ختمت آيات الصيام بهذه الآية ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ لتبين أنه كما أن الله تعالى قد حرم عليكم الطعام والشراب في نهار رمضان، فقد حرم عليكم وأوجب عليكم صيامًا مستمرًّا أن لا تأكلوا أموال الناس: بالباطل، بالربا، بالسرقة، بالرشوة، بالظلم، بالمقامرة، بالغصب، بالنهب، والسلب، بالكسب غير المشروع، أو بالتجارة في المحرمات، أو بالعمل غير المشروع كمن يتخذ التلحين والعزف والأغاني **مهنة له**، ومن يتخذ

قراءة القرآن مهنة أو يتاجر في الدخان أو المسكرات، أو تدلوا بهذه الأموال فتعطونها إلى الحكام، أي: إلى القضاة ليحكموا لكم بالباطل، وتنصبوا محاميًا يقلب الحقائق ويغير الأمور، ويكون ألحن بحجته من خصمه، فيقضي القاضي بنحو ما يسمع، كما بيَّن النبي ﷺ في قوله: «**إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إليَّ، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض** -أي: أقدر على حسن الأسلوب- **فأقضي له بنحو ما أسمع، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فإنما أقطع له قطعة من النار**»[1]، وهو نوع من أكل أموال الناس بالباطل.

الأَهِلَّةُ مَوَاقِيتُ لِلْعِبَادَاتِ وَغَيْرِهَا

١٨٩- ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ[2] مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ[3] مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

ولأن شهر رمضان له توقيت معين من كل عام، ناسب ذلك ذكر بقية المواقيت، لإقامة النظام الإسلامي على أكمل وجه، وذكر الحج في الآية يشير إلى أن نزول هذه الآية كان متأخرًا عن آيات الصيام، أي: بعد فتح مكة وتشريع الحج، وسؤالهم عن الأهلة، سؤال عن سبب زيادتها ونقصانها واختلاف أحوالها، وليس سؤالًا عن ذواتها، وقد صرف الله تعالى أنظارهم إلى مافيه صلاحهم في دنياهم وأخراهم، ببيان حكمتها وفائدتها، وما يترتب عليها من معرفة أوقات العبادات والمعاملات والعدة للنساء وغير ذلك.

ومما ورد في سبب نزول ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾:

١- أن رسول الله ﷺ سئل عن زيادة الأهلة ونقصانها واختلاف أحوالها، لماذا خالف ربنا بين الأهلة وبين الشمس؟ فهي على حال لا تزيد ولا تنقص، ولكن الهلال يزيد وينقص، ويختفي ويحضر، فأنزل الله الآية جوابًا لهم عما سألوا[4].

---

(١) ينظر: حديث أم سلمة في البخاري (٢٤٥٨، ٧١٨٥) ومسلم (١٧١٣).

(٢) قرأ ورش وأبوعمرو وحفص وأبوجعفر ويعقوب (البُيوت) بضم الباء، حيث ما وقع في القرآن، وقرأ الباقون بكسر الباء للتخفيف ومجانسة الياء.

(٣) قرأ نافع وابن عامر (ولكنِ البرُّ) بكسر النون ورفع البر على أنها مبتدأ، و (لكن) لا عمل لها، وقرأ الباقون (ولكنّ البرَّ) بتشديد (لكن) ونصب (البر) على أنها اسم لكن.

(٤) قاله أبوجعفر الرازي: (٣/ ٥٥٣) بمعناه.

٢- وعن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«جعل الله الأهلة مواقيت للناس، فصوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإن غُمَّ عليكم فعدوا ثلاثين يومًا»**[١].

٣- وقيل: إن معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم، قالا: يا رسول الله، ما بال الهلال يبدو دقيقًا، ثم يزيد حتى يمتلئ نورًا، ثم لا يزال ينقص حتى يعود دقيقًا كما بدأ، ولا يكون على حال واحدة؟! فأنزل الله الآية[٢].

٤- وقال قتادة: سألوا النبي ﷺ: لِمَ جُعلت الأهلة؟ فأنزل الله ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ الآية. فجعلها لصوم المسلمين، ولإفطارهم، ولمناسكهم، وحَجهم، ولعدة نسائهم، ومَحِل دَيْنهم، والله أعلم بما يُصلح خلْقَه[٣].

٥- وورد مثل ذلك عن أبي العالية، ومجاهد، وابن عباس، وابن عمر[٤].

وكان أصحاب النبي ﷺ في المجتمع الإسلامي الجديد بالمدينة المنورة يتحرَّجون أن يفعلوا شيئًا، أو يقولوا شيئًا مما كانوا عليه في الجاهلية، قبل أن يتبيَّنُوا حُكْم الله تعالى فيه، فكانوا يسألون النبي ﷺ عن جميع شؤونهم وأقوالهم وأفعالهم قبل أن يُقْدموا عليها؛ ليستوْثقوا أنها من أحكام الإسلام، يسألونه عن الخمر، ويسألونه عن إتيان النساء وقت المحيض، ويسألونه عن النفقة في سبيل الله، ويسألونه عن اليتامى، ويسألونه عن الروح، ويسألونه عن ذي القرنين، ويسألونه عن الجبال، ويسألونه عن الساعة وغير ذلك.

ويلاحظ أن الله ﷻ لم يجبهم عن ماهية الهلال، أو عن وظيفته في المجموعة الشمسية، وإنما بين ﷻ على لسان رسوله ﷺ الحكمة والعلة في خلْق الأهلة؛ لأن سؤالهم عن أحوال الأهلة لا تفيدهم شيئًا، فبيَّن ﷻ أنها مواقيت للناس والحج، وخص الحج بالذكر لإبطال النسيء الذي كانوا يفعلونه من تأخير الأشهر الحرم عن موعدها.

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» بسند صحيح (١/ ٤٢٣) والبيهقي في «السنن» (٤/ ٢٠٤) وأصله في «الصحيحين»، انظر: «إرواء الغليل» (٩٠٣).

(٢) أخرجه ابن عساكر بسند ضعيف عن ابن عباس كما في «الدر المنثور» (٢/ ٣٠٥).

(٣) الطبري (٣/ ٢٨٠).

(٤) تنظر الآثار الواردة في ذلك في «الدر المنثور» (٢/ ٣٠٦).

والأهلة يَعْرِف الناس بها أوقات عباداتهم مثل: الصيام، والزكاة، والحج، ويعرفون مواعيد ديونهم ومعاملاتهم وعقودهم، وعدة المرأة وحيضها ونفاسها، وغير ذلك.

وسُمِّي الهلال هلالًا لرفع الناس أصواتهم عند رؤيته، والحج من الأزمنة التي تُعرف بالهلال.

ومما ورد في سبب نزول بقية الآية:

١- ما أخرجه البخاري وغيره عن البراء رضي الله عنه قال: كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره، فأنزل الله: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾[1].

٢- وفي الصحيحين وغيرهما عن البراء رضي الله عنه أيضًا قال: نزلت هذه الآية فينا، فكانت الأنصار إذا حجُّوا فجاءوا لم يدخلوا من قبل أبواب البيوت، فدخل رجل من قِبَلِ بابه فكأنه عُيِّر بذلك فنزلت[2].

٣- وورد أن رفاعة بن التابوت دخل من الباب وهو محرم فأنكروا عليه، فنزلت الآية.

٤- قال البراء: كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتَوا البيت من ظهره، فأنزل الله ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ﴾[3].

٥- وعن جابر رضي الله عنه قال: كانت قريش تُدعى الْحُمْس، وكانوا يدخلون من الأبواب في الإحرام، وكانت الأنصار وسائر العرب لا يدخلون من باب الإحرام، فبينما رسول الله ﷺ في بستان إذ خرج من بابه، وخرج معه قُطْبَةُ بنُ عامر الأنصاري، فقالوا: يا رسول الله، إن قُطْبَةَ بنَ عامر رجل فاجر، وإنه خرج معك من الباب، فقال له: «**ما حملك على ما صنعت؟**» قال: رأيتك فعلت، ففعلت كما فعلت، قال: «**إني رجل أحْمُس**» قال: فإن ديني دينك، فأنزل الله ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾[4]

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٥١٢) و«صحيح مسلم» برقم (٣٠٢٦).

(٢) يُنظَر: البخاري (١٨٠٣، ٤٥١٢) ومسلم (٣٠٢٦) والطيالسي (٧٥٢) والطبري (٣/ ٢٨٣) وابن أبي حاتم (١٧٠٩).

(٣) البخاري (٤٥١٢) والطبري (٣/ ٢٨٣).

(٤) ابن حاتم (١٧١٠) والحاكم (١/ ٤٨٣).

٦- وعن ابن عباس: أن رجالًا من أهل المدينة كانوا إذا خاف أحدهم من عدوه شيئًا أحرم فأمن، فإذا أحرم لم يلج من باب بيته، واتخذ نقبًا من ظهر بيته...[1].

وهذا ما كان عليه بعض أهل الجاهلية، وذلك أن الرجل من الحُمس، وهم: قريش، وخزاعة، وكنانة، وثقيف، وجُشم، وبنو نصر بن معاوية، ومدلج، وعَدوان، وعضْل، وبنو الحارث بن عبد مناة، وبنو عامر بن صعصعة، وكلهم من سكان مكة، ما عدا الأخير، والذي أدخلهم في الحمْس أن أمهم قرشية.

والحمْس: جمع أحمس، وهو المتشدد في الدين المغالي فيه، سُمُّوا حُمسًا من الحماسة؛ وهي الشدة، كان أحدهم إذا أحرم بالحج أو العمرة، فإنه لا يجعل بينه وبين السماء ظلًّا أو حاجزًا، فلا يستظل بمظلة، ولا يستظل بسقف بيت، ولا بسقف سيارة؛ مبالغة منهم في عدم تغطية الرأس.

وكانوا لا يقفون بعرفة، بل يقفون بمزدلفة، ويقولون: نحن أهل الله، فلا نخرج من الحرم.

وكان أحدهم بعد أدائه العمرة أو الحج، إذا أراد أن يرجع إلى بيته، فإنه لا يدخل البيت من بابه، وإنما يدخله من جدار خلفي، أو من نافذة، أو يتخذ سُلَّمًا يصعد منه، وكذلك إذا خرج لسفر، ثم بدا له أن يرجع فإنه لا يدخل البيت من بابه وإنما يتسوَّر من ظهره، ومثله إذا رجعوا من عيدهم، ونحو ذلك، ويعتبرون ذلك برًّا وتقوى يتقرب بها إلى الله سبحانه.

فأبطل الله ﷻ ما كان عليه أهل الجاهلية وبيَّن ﷻ أن هذا الأمر ليس من البر في شيء، فليس الخير ما تعودتم عليه في الجاهلية من دخول البيوت من ظهورها حين تُحرمون بالحج أو العمرة، ظانين أن ذلك قربة إلى الله تعالى، ولكن الخير في تقوى الله سبحانه وامتثال أمره واجتناب نهيه، وهذا معنى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ وادخلوا البيوت من أبوابها عند إحرامكم بالحج أو العمرة، واخشوا الله في كل أموركم؛ لتفوزوا برضاه، أما إتيان البيوت من ظهورها فلا برَّ لله فيه، فلا تعتقدوا حرمة إتيانها من أبوابها، فإن هذا لم يحرمه الله تعالى، والبر في طاعة الله وحده ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

ومعنى الآية: أن الله تعالى جعل ظهور الهلال من أول كل شهر علامات يعرف بها

---

(١) الطبري (٣/ ٢٨٧) وابن أبي حاتم (١٧١١).

الناس أوقات عباداتهم ومعاملاتهم، فهو يبدو ضعيفًا في أول الشهر، ثم يتزايد إلى نصفه إلى أن يكتمل، ثم يعود إلى النقصان، وهكذا ليعرف الناس أوقاتهم، ومنها وقت عبادة الحج، ولو كانت الحسابات بالسنة الشمسية لم يعرفه إلا القليل جدا من الناس وليس الخير في الغلو في الدين والتشدد فيه، فما شاد الدين أحد إلا غلبه، فينبغي سلوك أسهل الطرق التي تؤدي إلى المقصود.

ومن الغلو في الدين ما كان يفعله بعض الناس في الجاهلية من دخول البيوت من ظهورها حين يحرمون بالحج والعمرة، وهم يظنون أن هذا قربة إلى الله تعالى، ولكن الخير كل الخير في تقوى الله واجتناب معاصيه، فاتبعوا وامتثلوا وادخلوا البيوت من أبوابها عند إحرامكم بالحج والعمرة، وخافوا الله في كل أموركم؛ لتفوزوا بسعادة الدنيا والآخرة، فإن من اتقى الله تعالى فاز بالفلاح والنجاح، ومن لم يتق الله تعالى لم يكن له سبيل إلى الفلاح.

الْحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ السَّابِع: مَرَاحِلُ تَشْرِيعِ الْقِتَالِ فِي الْإِسْلَامِ ثَلَاثٌ

١٩٠- ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾

ولما بينت الآية السابقة أن الأهلة مواقيت للناس في عباداتهم ومعاملاتهم، ومنها الحج، ولما كان القتال محرمًا في الأشهر الحرم، وكان من المتوقع أن يغدر المشركون بالمسلمين وهم في طريقهم إلى عُمرة القضاء، لذا أذن الله للمسلمين بدفع هجوم العدو، حتى وإن كانوا مُحْرمين في الأشهر الحرم، وكان المشركون قد صدوا المسلمين عن البيت الحرام في عام الحديبية، ولأن هذه الآية تتعلق بقتال الدفاع في الأشهر الحرم فقد نزلت بعد آية الأهلة.

قال أبو العالية: هذه أول آية نزلت في القتال بالمدينة، فلما نزلت كان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتله، ويكف عن من كف عنه حتى نزلت سورة براءة[1].

وقد مر القتال في الإسلام بثلاث مراحل:

(١) ابن أبي حاتم (١٧١٩).

المرحلة الأولى: مجرد الإذن بالدفاع عن النفس

فقد أُمر رسول الله ﷺ في ابتداء الإسلام بالكف عن قتال المشركين حتى يدخل في دين الله من يدخل، وتظهر الجبهة المعارضة لانتشار الدعوة، وتقْوى شوكة الإسلام، فلما تم ذلك أُمر ﷺ بقتالهم.

وأول ما نزل من آيات القتال، مجرد الإذن به، وذلك في قوله سبحانه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠].

وقد كان النبي ﷺ مأمورًا قبل ذلك بالصبر، وبالعفو والصفح، وبأن يدفع السيئة بالحسنة، وأن يَكُفَّ عن قتال المشركين؛ حيث لم تقم الدولة الإسلامية بعدُ، ولم يتهيأ المسلمون لهذه المرحلة.

المرحلة الثانية: الأمر بالقتال

وكان ذلك بشروط ثلاثة تضمنتْها هذه الآية من سورة البقرة، وفيها ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ﴾ وما بعدها إذنٌ للمسلمين المحرمين بالقتال، إذا فوجئوا بالقتال بغيًا وعدوانًا من غيرهم بأن يقاتلوا العدو، ويردوا عدوانه وهذه الشروط الثلاثة هي:

الشرط الأول: أن يكون هذا القتال في سبيل إعلاء كلمة الله ﷻ لنصرة دين الله لإزالة العوائق أمام نشر الدعوة ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وفي هذا نهى عن القتال في الفتن التي تقع بين المسلمين داخل الدولة أو خارجها.

الشرط الثاني: قاتلوا الذين يقاتلونكم، ومن هم مستعدون لقتالكم، وأما الذين لا يقاتلونكم فلماذا تقاتلونهم؟ قاتلوا من أعد نفسه لقتالكم، أما من لم يُعِدّ نفسه للقتال فلا تقاتلوهم، قاتلوا من يعتدُوا عليكم أو يحولوا بينكم وبين دين الله، فقد جاء الأمر لرسول الله ﷺ بقتال من قاتله من الكفار والمشركين، ومسالمة المسالمين، وعدم قتال من لا يقاتل من المدنيين أوالنساء أو الصبيان وكبار السن والمجانين والرهبان ونحوهم ﴿ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ﴾.

الشرط الثالث: أن لا يبدؤوا غير المسلمين بالقتال، وإنما يردوا العدوان فحسب ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾ وأن يكون رد العدوان ليس من باب الحمية أو الرياء؛ وإنما لإعلاء كلمة

الله ونصرة دينه.

في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال ﷺ: **«من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»**[1].

أخلاق الاسلام في قتال العدو:

ولذلك فقد تضمنت هذه المرحلة الإذن بقتال من قاتل فحسب، وأن يكف عن من كف، المرأة التي لا تقاتِل، لا تقاتَل، أما إذا انضمت إلى صفوف المقاتلين، كما يحدث الآن في صفوف الصهاينة وغيرهم، حيث تقاتل إلى جوار الرجل، فإنها تُقاتَل.

وإذا كانت المرأة في بيتها، لا علاقة لها بالقتال، فإنها لا تقاتَل، الشيوخ الكبار لماذا تقاتلونهم؟ المرضى بأمراض أقعدتْهم، لا يُقاتَلون؛ لأنهم عجزة، الصبيان والأطفال والمعاقون لا يقاتِلونكم، فلا تقاتلوهم، أهل المتاجر في متاجرهم، وأهل المصانع في مصانعهم، والعمال والفلاحون الذين يعملون في حقولهم لا يقاتلونكم، فلا تعتدوا عليهم، ولا تقاتلوهم.

أهل العبادة من الرهبان، وأهل الصوامع، وسائر العُبَّاد في أماكن تعبدِهم لا تعتدوا عليهم، ولا تقاتلوهم، مع أنهم من أعدائكم، وكل هذا يدخل تحت قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾ فإن هذا من العدوان، ومجاوزة الحد في القتال: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]. ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١]. وعندما تردون العدوان لا تعتدوا على حقوق الإنسان، فلا تمثلوا بالقتلى، ولا تقتلوا الحيوانات، ولا تقطعوا الأشجار، ولا تهدموا البيوت ولا تحرقوها، لا تعتدوا على المصانع ولا على المرافق العامة ولا على مباني الدولة، ولا على سيارات الناس، ولا تخطفوا السفن ولا الطائرات، ولا تعتدوا على الممتلكات العامة أو الخاصة فإن هذا من الإفساد في الأرض.

وفي الصحيحين عن ابن عمر ﷺ قال: وُجدت امرأة في بعض مغازي النبي ﷺ

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢٨١٠، ٣١٢٦) و«صحيح مسلم» برقم (١٩٠٤).

مقتولة، فأنكر رسول الله ﷺ ونهى عن قتْل النساء والصبيان[١].

هذه تعاليم الإسلام أيها الإخوة، فما بالكم بما يفعله أعداؤكم من قتل المسلمين، وهم سُجَّد ركوع بين يدي الله ﷻ، ما بالكم بمن يهدمون البيوت على من فيها من النساء والأطفال والشيوخ؟ هذه تعاليم الإسلام إذا قيست بما يفعلونه بالمسلمين، فما أبعد البون!! إنهم يقتلون النساء والصبيان والشيوخ والعمال والعبَّاد، ويهلكون الحرث والنسل.

والله سبحانه ينهى عن قتال من ألقى السلام والتحية، ولا يحب المعتدين فكأنه سبحانه يقول لنا: لا تبدؤوهم بعدوان، ولا تتجاوزوا الحد، لا تمثلوا بمن قُتِل، لا تقطعوا منه عضوًا، أو تأكلوا كبدًا، ولا تسرقوا ماله، ولا تغلُّوا، ولا تحرقوا النخل، أو الشجر، وغير ذلك؛ فإن هذا من العدوان الذي نهى عنه رسول الله ﷺ.

كما في صحيح مسلم وغيره عن بريدة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمَّر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله تعالى ومن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال: اغزوا باسم الله وفي سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلُّوا ولا تعتدوا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا[٢].

ونهى عن ذلك أيضًا الخلفاء الراشدون، وهم يزوِّدون الجيش بالنصائح حين مقابلتهم لأعدائهم.

المرحلة الثالثة: هي قتال المشركين المقاتلين لنا كافة، وتعقبهم في كل زمان ومكان، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]

والآية واضحة في قتالهم كافة إذا قاتلوا كافة، فهي مشروطة بها. وقال سبحانه في تعقبهم حتى يتوبوا من شركهم: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [التوبة: ٥]

وقال جل شأنه في قتال أهل الكتاب حتى يدخلوا في الإسلام، أو تجري عليهم أحكام الإسلام وهم في بلاد المسلمين: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٣٠١٥) و«صحيح مسلم» برقم (١٧٤٤) وابن أبي شيبة (١٢/ ٣٨١).

(٢) «صحيح مسلم» برقم (١٧٣١) و«المسند» (٥/ ٣٢٥) برقم (٢٢٩٧٨) وأبو داود (٣٦١٢) وابن ماجه (٢٨٥٨) والترمذي (١٤٠٨) والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٥٣٢) و«شرح مشكل الآثار» للطحاوي (٣٥٧٢).

يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة]

وقال ﷻ في قتال من فتن الناس في دينهم وكان مصدرًا لصد الناس عن سبيل الله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]. قال تعالى:

١٩١- ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ(١) عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ(١) فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ(١) فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴿١٩١﴾﴾.

ثم أَمَرَ سبحانه بقتل مَن يُعثر عليه من المشركين في جزيرة العرب، وإن لم يكن في ساحة القتال؛ فقال سبحانه: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ أي: اقتلوا الكفار والمشركين حيث لقيتموهم وتمكنتم منهم في الحل والحرم، وحيث أدركتموهم وظفرتم بهم في أيِّ زمان ومكان، وفي هذا أمر بجهاد من قاتل من المشركين الوثنيين وتعقبهم في كل مكان من بلاد المسلمين، ثم أمر بإخراجهم؛ فقال سبحانه: ﴿وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أي: وأخرجوهم من المكان الذي أخرجوكم منه، وهو بلدكم مكة، فقد أخرجوكم إلى الحبشة مرتين، وأخرجوكم إلى المدينة.

أخرجوهم - أيها المسلمون - من أي بلد مسلم اعتدوا عليه في كل زمان ومكان، أخرجوهم من الديار التي احتلوها كما أخرجوكم من دياركم.

﴿وَٱلْفِتْنَةُ﴾ أي فتنة الناس بالشرك بالله، وبالصد عن سبيل الله، ومنع الناس من الدخول في الإسلام، أشد من مفسدة القتل، فقاتلوهم أيها المسلمون، لأن ابتلاء المؤمن في دينه حتى يرجع عنه إلى دين آخر بعد إسلامه أشد وأضر من أن يُقتل وهو مسلم متمسك بدينه، فَكُفْرهم وشركهم وصدهم عن الإسلام ﴿أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ أي: مِن قتلهم إياكم؛ لأن فتنتهم لكم في دينكم؛ بردتكم عن الإسلام، ومصادرة أموالكم وإخراجكم من أرضكم أشد قبحًا من القتل.

(١) قرأ حمزة والكسائي وخلف العاشر: (ولاتَقْتُلوهم عند المسجد الحرام حتى يَقْتُلوكم فيه فإن قَتَلوكم) بفتح الحرف الأول وسكون القاف وحذف الألف، من القتل في المواضع الثلاثة، وقرأ الباقون: (ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم) بفتح القاف وإثبات ألف بعدها، من القتال.

ومن ذلك اضطهاد المسلمين في كل مكان، لا سِيَّمَا الأقليات الإسلامية في غير بلاد المسلمين، وفتنة الناس عن دينهم بحملهم على الخروج من الإسلام، كما يحدث للأقليات المسلمة في مختلف أرجاء المعمورة، وفيها إعمال القتال، والقتل، والتعذيب، والاضطهاد، والتشريد، وحمل المسلمين على الارتداد والكفر والخروج من الإسلام، وكان هذا حال المسلمين في بدء الإسلام؛ لقلتهم وضعفهم، هذه الفتنة أشد وأعظم من القتل.

ولا تبدؤوهم بالقتال عند المسجد الحرام؛ تعظيمًا لحرماته، حتى يبدؤوكم بالقتال فيه؛ لأن الله ﷻ قد حرم القتال في الأشهر الحُرم، وعند المسجد الحرام، ويرجح أن المراد منطقة الحرم كله، فالأصل هو التحريم، ولكن الْحُرمات قصاص، فإن اعتدوا عليكم عند المسجد الحرام، فقابلوا الاعتداء بالْمِثْل، وإن اعتدوا عليكم في الشهر الحرام فقابلوا الاعتداء بالمثل، وإذا اعتدوا عليكم وأنتم محرمون فقابلوا الاعتداء بالمثل، وهذا معنى: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ﴾. وهذا الحكم مستمر حتى ينتهوا عن كفرهم فَيُسْلِمُوا فإن الله يتوب عليهم.

ثبت في الصحيح عن أبي شريح العدوى أن النبي ﷺ قال: «**إن مكة لم تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد بعدي، وإنما أُحلت لي ساعة من نهار، ثم عادت حرامًا إلى يوم القيامة**»(١).

فثبت بهذا تحريم القتال في منطقةِ الحرم إلا إذا كان دفعًا لقتالهم ﴿فَإِن قَٰتَلُوكُمْ﴾ أي: قتلوا بعضكم ﴿فَٱقْتُلُوهُمْ﴾ اقتلوا مَن تقدرون عليه منهم، وفي هذا إباحة قتل المحارب إذا قاتل في الحرم أو استولى عليه، فإن قاتلوكم عند المسجد الحرام فاقتلوهم فيه ﴿كَذَٰلِكَ﴾ و بمثل هذا الجزاء الرادع يكون ﴿جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

قال ابن عباس ﷺ: لما تَجَهَّزَ رسولُ الله ﷺ لعُمرة القضاء، خافوا ألا تَفِي قريش بما قالوا ويصدوهم عن البيت، وكره المسلمون قتالهم في الشهر الحرام، وفي منطقة الحرم، فأنزل الله الآية؛ لرفع الحرج عن قتال المشركين في الشهر الحرام وفي الحرم، وكان هذا قبل أن يُمنع المشركون من دخول الحرم وحدوده، فإن حدث مثل هذا في الشهر الحرام، أو عند المسجد الحرام فاقتلوهم.

---

(١) يُنْظَر: البخاري (١٠٤، ١٨٣٢، ٤٢٩٥) ومسلم (١٣٥٣، ١٣٥٤) عن أبي شريح العدوي.

وكان المشركون قد خرجوا لقتال المسلمين في شهر ذي القعدة عام الحديبية، فقيل لهم ذلك في عُمرة القضاء؛ أي: فاهتكوا حرمتهم كما هتكوا حرمتكم، فالحرمات قصاص، وقد نزل في عمرة القضاء: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٌۚ﴾ لما منع المشركون رسول الله ﷺ من الوصول إلى المسجد الحرام في شهر ذي القعدة سنة ست من الهجرة، فأدخله الله البيت الحرام في العام الذي يليه، واقتص له منهم، وهذا معنى: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ﴾(١) أي: فكما صدوه في الشهر الحرام أدخله الله الحرم في الشهر نفسه، أما الحرمات فهي حرمة الشهر الحرام، وحرمة البلد الحرام، وحرمة الإحرام، فهذه حرمات ثلاث.

ويؤخذ من الآية جواز قتل الجاني إذا لجأ إلى الحرم فارًّا من القصاص والعقوبة، كما روى مالك في الموطأ عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ دخل مكة عام الفتح، وعلى رأسه المغفر، فلما نزعه، جاء أبو بريزة فقال: إن ابن خطل التيمي متعلق بأستار الكعبة، فقال ﷺ: «**اقتلوه**»(٢) وكان قد أسلم ثم كفر، وتصدى لسب رسول الله ﷺ فأهدر الرسول دمه، فكان قتله حدًّا، والمسلم المجرم إذا لجأ إلى الحرم يُضيَّق عليه حتى يخرج منه.

وقال ﷺ لخالد بن الوليد ومن معه يوم الفتح: «**إن عرض لكم أحد من قريش فاحصدوهم حصدًا حتى توافوني على الصفا**»، فما عرض لهم أحد إلا أناموه، وأصيب مِن المشركين نحو اثني عشر رجلًا(٣). قال تعالى:

١٩٢- ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (١٩٢)﴾

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ عن قتالكم فلا تقاتلوهم، وإن انتهوْا وكفوا عن كفرهم وشركهم، وتابوا إلى الله ﷻ، ودَخلوا في الإسلام ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ لعباده ﴿رَّحِيمٞ﴾ بهم.

قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

ثم بيّن سبحانه الهدف من القتال، وأنه ليس المقصود منه سفك دماء غير المسلمين

---

(١) الأثر رقم (٣١٣٦) عن الضحاك في «تفسير الطبري».

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» برقم (١٨٤٦، ٣٠٤٤، ٥٨٠٨) وانظر «صحيح مسلم» (١٣٥٧).

(٣) «تفسير القاسمي» (٢/ ٤٧٦).

وأخذ أموالهم، وإنما المقصود أن يكون الدين لله فيظهره على سائر الشرائع، قال تعالى:

١٩٣- ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾

واستمروا - أيها المؤمنون - في قتال المشركين المعتدين حتى لا تكون فتنة للمسلمين عن دينهم وحتى تَعلوا كلمةُ الله، وحتى لا يُضطهد أحد من المسلمين في دينه؛ فيرتد عن الإسلام، أو يُحمل على الخروج من دين الله، وحتى يبقى الدين لله وحده، ولا يعبد معه غيره، فإن كفوا عن الكفر والقتال فكفوا عنهم ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ فإن هذا هو غاية القتال، فإذا حصل المقصود فلا قتل ولا قتال، فإن نقضوا العهد وخفروا الذمة فقد أصبحتم في حِل من عهدهم فلكم أن تقاتلوهم حتى لا تكون فتنة أخرى، وانتفاء الفتنة يكون إما بدخول المشركين في الإسلام وإما بقتلهم، فإن مشركي العرب ليس في حقهم إلا الإسلام أو السيف كما قال تعالى ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ [الفتح: ١٦].

أخرج البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: جاء رجلان إلى ابن عمر أيام فتنة ابن الزبير، فقالا: إن الناس صنعوا ما ترى، وأنت ابن عمر، وصاحب النبي ﷺ فما يمنعك أن تخرج، فقال: يمنعني أن الله حرم دم أخي، فقال: ألم يقل الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ فقال ابن عمر: قاتلنا مع رسول الله حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله.

قال ابن عمر: كان الإسلام قليلًا، فكان الرجل يفتن في دينه، إما قتلوه وإما عذبوه، حتى كثُر الإسلام فلم تكن فتنة[١].

وقد تحقَّقَ قطعُ دابر الفتنة بالقتال الذي دار بين المسلمين والمشركين في أكثر من عشرين غزوة قادها النبي ﷺ بنفسه، وأكثر من أربعين سرية بعث فيها أصحابه، وكان ثمار هذه المعارك أن انتصر الحق وزهق الباطل قبل أن يلتحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى.

(١) يُنْظَر: البخاري برقم (٤٥١٣، ٤٥١٤).

الْحُكْمُ الثَّامِنُ: الْقِتَالُ فِي الأَشْهُرِ الْحُرُمِ لِرَدِّ الْعُدْوانِ

١٩٤-﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤)﴾

ولما عزم المسلمون على عمرة القَضَاء سنة سبع من الهجرة وقع في نفوسهم ألا يفي المشركون بعهدهم؛ فيتعرَّضُوا لهم بالقتال عند دخولهم مكة، وهم في شهر حرام، فإن دافعوا عن أنفسهم يكونوا قد انتهكوا حرمة الشهر الحرام، فنزلت هذه الآية تقول لهم: وإن قاتلوكم في الأشهر الحرم، فالحرمات قصاص؛ أي: فقتالكم في الشهر الذي حرم الله القتال فيه جزاء لقتالهم لكم فيه.

قال الحسن: إن المشركين قالوا للنبي ﷺ حين اعتمر عمرة القضية: أَنُهِيتَ يا محمد عن القتال في الشهر الحرام؟ قال: نعم، فأرادوا قتالَه فيه، فأنزل الله تعالى يقول له: إن استحلوا قتالكم في الشهر الحرام فإن الله قد أباح لكم الدفاع عن أنفسكم ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ أي: يَستحلُّ قتالَهم فيه كما استحلوه بقتالكم فيه.

قال ابن جُرَيْج: قلت لعطاء: قول الله ﷻ ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ قال: هذا يوم الحديبية، صدوا رسول الله ﷺ عن البيت الحرام وكان معتمرًا، فدخل رسول الله ﷺ في السنة التي بعدها معتمرًا مكة، فعُمْرة في الشهر الحرام بعمرة في الشهر الحرام[1].

وكان المشركون قد افتخروا على النبي ﷺ حين صدوه عن البيت الحرام يوم الحديبية، فأدخله الله مكة في ذلك الشهر الذي ردوه فيه، وهو شهر ذو القعدة[2]. ويحتمل أن يكون المعنى: إنكم إن قاتلتموهم في الشهر الحرام فقد قاتلوكم فيه، وهم المعتدون، فليس عليكم في ذلك حرج، وعلى هذا فقوله تعالى:

﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ من باب عطف العام على الخاص، فكل من فعل جُرمًا في الشهر الحرام يُقتص منه فيه، فمن قاتل قُتل، ومن أخذ مال غيره أخذ ماله، وهكذا: فالقصاص

(١) الطبري (٣/ ٣٠٩) والنحاس في «ناسخه» ص (١١٤).

(٢) قاله أبو العالية والربيع وقتادة ومجاهد كما في «تفسير الطبري» (٣/ ٣٠٥، ٣/ ٣٠٧، ٣٢/ ٣٠٦) وابن أبي حاتم (١/ ٣٢٨).

من الظالم وعقوبته على ظلمه جزاء عادل، ولا حرج عليكم؛ لأنهم البادئون بالعدوان ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ بالمماثلة في مقابلة المعتدي، واتقوا الله في حرماته وحدوده فلا تتجاوزوها ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يقفون عند حدود الله ولا يتجاوزونها، وهو معهم بالعون والنصر والتأييد والتوفيق، وكان الله سبحانه قد أمر المسلمين وهم في مكة أن يقابلوا السيئة بمثلها أو يصبروا ويعفوا، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وأعز الله سلطانه أمر الله المسلمين أن ينتهوا في مظالمهم إلى سلطانهم، ولا يعتدي بعضهم على بعض فقال: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الإسراء: ٣٣] فينصُره السلطان حتى ينصفه من ظالمه، ومن انتصر لنفسه دون السلطان فهو عاصٍ مسرفٌ، قد عَمل بحمية الجاهلية، ولم يرض بحكم الله تعالى(١).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: لم يكن رسول الله ﷺ يغزو في الشهر الحرام إلا أن يُغْزَى أو يُغْزَوْا، فإذا حضرهُ أقام حتى ينسلخ(٢).

هذه الآيات كانت دعوةً إلى الجهاد بالنفس، والآية التالية دعوةٌ إلى الجهاد بالمال.

الْحُكْمُ التَّشْرِيعي التَّاسِعُ: الْجِهَادُ بالْمَالِ

١٩٥- ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾

ثم أمر الله سبحانه عباده بالجهاد بالمال بعد أن أمرهم بجهاد النفس، كما في صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من مات ولم يغزُ ولم يحدِّث نفسه بغزو مات على شُعبة من النفاق»**(٣).

وأمرهم بإخراج المال في الطرق الموصلة إلى الله تعالى، كالصدقة في سبيل الله، وأول ما يدخل في ذلك هو الإنفاق في الجهاد في سبيل الله، فهو فرض كالجهاد بالبدن،

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٣/ ٣١٠) وابن أبي حاتم (١٧٤٠) والبيهقي في «السنن» (٨/ ٦١).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (١٤٥٨٣، ١٤٧١٣) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، وأخرجه ابن جرير (٣/ ٦٤٨) والنحاس في «ناسخه» ص. ١٢١ والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٤٨٧٩).

(٣) «المسند» (٨٨٦٥) ومسلم (١٩١٠) وأبو داود (٢٥٠٢) والنسائي (٣٠٩٧) والحاكم (٢/ ٧٩) والبيهقي في «الشعب» (٤٢٢٣).

وفيه تقوية للمسلمين وإعزاز لدين الله، وفي ترك الإنفاق في سبيل الله، إبطال للجهاد وتسليط للأعداء، وإضرار بالنفس وإهلاكها.

وقال حذيفة في معنى الآية: هو ترك النفقة في سبيل الله مخافة العَيْلة[1].

وقد كان الجندي في وقت النبي ﷺ يُجهز نفسه، ويعُد عدته، ويحمل سلاحه، ويأخذ وسيلة مواصلاته، ويأخذ معه زاده، ولم تكن هناك مرتبات للجنود، ولم يكن هناك أسلحة للدولة، ولا وسائل مواصلات، ولا تتولى الدولة شؤونهم.

ولذلك جاءت الدَّعْوَة بالجهاد بالمال مقدمة على الجهاد بالنفس في كثير من الآيات، والجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة؛ بالنفس والمال واللسان، وجهاد المال يكون بالإنفاق في سبيل الله، وبشراء السلاح، وبشراء الزاد الذي يتزود به المجاهدون في كل زمان ومكان، لمن يقاتلون أعداءهم، وقوله سبحانه: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: لجهاد العدو، وفيه دعوة إلى الجهاد بالمال؛ لنصرة دين الله، ولنشر الدَّعْوَة، وتحرير المقدسات، والدفاع عن المستضعفين من المسلمين، وعدم إنفاق المال على التصنيع الحربي يؤدي إلى هلاك العباد واحتلال البلاد ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ بسبب عدم الإنفاق في سبيل الله، وترك ما أمره الله به، فإن ذلك يجعل العدو يتسلط علينا وينتهك حرماتنا وفي ذلك إلقاء بالنفس إلى التهلكة.

وكان بعض الصحابة قد هَمَّ أن يقيم في ماله؛ لإصلاحه وتنميته بعد أن أعز الله الإسلام وأهله، فنهاهم الله عن ذلك، وسماه إلقاءً بالنفس إلى التَّهلكة، وأمرهم بجهاد العدو بأموالهم وأنفسهم.

قال زيد بن أسلم: كان رجال يخرجون في بعوث يبعثها رسول الله ﷺ بغير نفقة، فإما أن يُقطع بهم وإما كانوا عيالًا، فأمرهم الله أن ينفقوا مما رزقهم الله ولا يلقوا بأيديهم إلى التهلكة، والتهلكة أن يَهْلِك رجال من الجوع والعطش ومن المشي، وقال لمن بيده فضل: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[2].

---

(١) سعيد بن منصور (٢٤٠٤) والطبري (٣/ ٣١٣) وابن أبي حاتم (١٧٤٤).

(٢) أبو يعلى وابن حبان (٥٧٠٩) والطبراني (٩٧٠) وفي «الأوسط» (٥٦٧١) والطبري (٣/ ٣١٥) وابن أبي حاتم (١٧٥٠).

وعن أسلم بن أبي عمران: أن رجلًا حمل على صف العدو من الروم حتى فرَّقه، فقال الناس: ألقى بنفسه في التهلكة، فقال أبو أيوب الأنصاري: نحن أعلم بهذه الآية، إنما نزلت فينا، وذكر أن الصحابة قاتلوا مع رسول الله ﷺ حتى أعز الله دينه، ودخل الناس في دين الله، ثم قالوا: لو أننا أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها وقعدنا عن الخروج في الغزو والجهاد بعد أن فشا الإسلام وظهر[(١)] فأنزل الله سبحانه يبين أن القعود عن الجهاد في سبيل الله إلقاء بالنفس إلى التهلكة، وأن من الجهاد إنفاق المال في سبيل الله، ومن التهلكة: الإقامة لإصلاح المال وجمْعه وتنميته والقعود عن الجهاد في سبيل الله، ولذا فإن أبا أيوب ﷺ ظل مجاهدًا في سبيل الله حتى دُفن بأرض الروم.

ويؤخذ منه أنه يجوز للفرد الواحد أن يقتحم صفوف الأعداء؛ ليفرقهم أو ينكل بهم، وهو ما يسمى بالعمل الفدائي الاستشهادي، ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لإعلاء كلمة الله وإعزاز دينه ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ بعدم الإنفاق في سبيل الله، والقعود عن الجهاد ولما كانت النفقة في سبيل الله نوعًا من أنواع الإحسان، أمر الله بالإحسان عمومًا فقال: ﴿وَأَحْسِنُوا﴾ في الإنفاق والطاعة ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ أهل الإخلاص والإحسان، وهذا يشمل جميع أنواع الإحسان لأنه لم يقيده بشيء فيدخل فيه الإحسان بالمال وبالعلم والشفاعة.

وفي البخاري وغيره عن ابن عباس وجماعة من التابعين في معنى الآية: لا تتركوا النفقة في سبيل الله، وتخافوا العَيْلة (أي: الفقر) وإن لم يكن إلا سهم أو مشقص فأت به، والمشقص: هو فصل السهم إذا كان طويلًا غير عريض، فإن كان عريضًا فهو المعيلة[(٢)].

وفسر بعض الصحابة الآية على أن المراد بها: القنوط واليأس من رحمة الله.

سئل البراء بن عازب: هو الرجل يلقى العدو فيقاتل حتى يقتل؟ قال: لا، ولكن هو

---

(١) تنظر: القصة في «صحيح سنن أبي داود» (٢١٣) و«سنن النسائي الكبرى» (١١٠٢٨، ١١٠٢٩) وابن أبي حاتم (١/ ٣٣٠) وابن حبان (٤٧١١) والطبراني (٤٠٦٠) و«المسند» ص٥٩٩ والترمذي (٢٩٧٢) و«المستدرك» (٢/ ٢٧٥) وفي «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٣٧٣) وفي السلسلة الصحيحة (١٣) وفي «تفسير الطبري» (٣/ ٣٢٣)، وفي سنن الترمذي (٣١٦٥).

(٢) «النهاية» لابن الأثير (٢/ ٤٩٠).

الرجل يذنب الذنب فيُلقي بيديه فيقول: لا يغفر الله لي أبدًا[١].

وقال النعمان بن بشير: كان الرجل يذنب الذنب، فيقول: لا يغفر الله لي، فأنزل الله الآية[٢].

وعن عبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث أنهم حاصروا دمشق، فأسرع رجل إلى العدو وحده، فعاب ذلك عليه المسلمون، ورفعوا حديثه إلى عمرو بن العاص، فأرسل إليه فرده، وقال: قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[٣]

وليس هناك ما يمنع من حمل الآية على هذه المعاني جميعًا.

الْحُكْمُ التَّشْرِيعِيُّ الْعَاشِرُ: الْحَجُّ وَأَحْكَامُهُ

١٩٦- ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ[٤] فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾

وبعد ذكر أحكام الصيام والجهاد، يأتي الحديث عن الحج، فيأمرنا سبحانه أن نتم الحج والعمرة، ويؤخذ من الأمر بإتمامهما:

١- وجوب الحج والعمرة وفرْضيّتهما.

٢- وجوب إتمام أركانهما وشروطهما وواجباتهما ولو كانا نفلًا.

٣- إتقانهما والإخلاص فيهما.

٤- عدم الخروج منهما بعد الإحرام حتى يُكْملهما، إلا بالحصر بمرض أو عدو أو حادث ونحو ذلك، فيذبح المحرم شاة ويَحْلِق أو يُقصِّر، ويحل من إحرامه، فإن لم يجد

---

(١) الطبري (٣/ ٣٢٠) وابن أبي حاتم (١٧٤٨) والحاكم (٢/ ٢٧٥) والبيهقي (٩/ ٤٥) وفي «الشعب» (٧٠٩٣).

(٢) ابن مردويه والطبراني في «الأوسط» (٥٦٧٢) والبيهقي في «الشعب» (٧٠٩٢).

(٣) ابن أبي حاتم (١٧٤٧).

(٤) قرأ أبو جعفر وأبو عمرو بخلف عنه بإبدال همزة (رأسه) ألفًا وصلًا ووقفًا وحمزة عند الوقف، والباقون بإثبات الهمزة ساكنة.

الهدْى صام عشرة أيام، ولا شيء عليه بعد ذلك.

وعلى المحرم أن يتقيد بمحظورات الإحرام حتى يوم النحر، ومن ساق الهدْى لا يتحلل من عمرته قبل يوم النحر، ومن أصابه أذى في رأسه كالقمل ونحوه فله أن يَحْلِق رأسه وهو محرم، وعليه فدية بصيام ثلاثة أيام أو إطعام ستة مساكين، أو ذبح شاة، على التخيير بينها، ومثله من خالف في محظور من محظورات الإحرام، بأن تطيب أو غطّى رأسه أو لَبِس مَخيطا أو قصَّ أظافره.

ومن تمتع بالعمرة إلى الحج، عليه هَدْى، وكذا القارن، والمفرد لا هدْى عليه، ومن لم يجد الهدْي صام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله، وأهل المسجد الحرام ممن هم داخل حدود الحرم، لا هدْى عليهم لأنهم لم يحصل لهم نُسكيْن في سفر واحد.

أعمال الحج والعمرة:

وللحج والعمرة أركان، لايصحان إلا بها، وواجبات يُجْبَرُ تركها بدم، أو صيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله إن لم يستطع، وله سنن ومستحبات.

(أ) وأركان الحج أربعة:

١- نية الإحرام بالحج. ٢- الوقوف بعرفة.

٣- طواف الإفاضة. ٤-السعي بين الصفا والمروة عند الجمهور.

وأركان العمرة ثلاثة:

١- نية الإحرام بالعمرة. ٢- الطواف. ٣- السعي.

(ب) وواجبات الحج ستة هي:

١- كون الإحرام من الميقات الذي يمر به الحاج أو المعتمر.

٢- المبيت بمنى ليالى التشريق.

٣- المبيت بمزدلفة عند أحمد وأبي حنيفة، وهو سنة عند الجمهور.

٤- رمي الجمار عند جمهور العلماء.

٥- الحلق أو التقصير، وهو ركن عند الشافعية.

٦- طواف الوداع عند الجمهور.

(ج) وواجبات العمرة اثنتان:

١- كون الإحرام بها من الميقات المحدد لمن هو خارج المواقيت أو من أدنى الحل كالتنعيم أو الجعرانة لمن هو داخل حدود الحرم.

٢- الحلق أو التقصير عند الجمهور، وليس للعمرة طواف وداع.

السنن والمستحبات: وللإحرام بالحج أو العمرة سنن مستحبة كالنظافة من الأظافر والشعر الداخلي وغيره والتطيب قبل الإحرام، وركعتي الطواف، والشرب من ماء زمزم، والدعاء فى مواطن الدعاء، كالدعاء في يوم عرفة، وعند باب الملتزم، وبعد رمي الجمرة الصغرى والوسطى، وغير ذلك.

والحاج أو المعتمر يأتيان بهذه الأعمال وفق شروطها وترتيبها ووقتها، ويعرف ما يبطُل حجه بتركه أو فعله، وما يُجبر منه بدم أو صيام أو صدقة وما لا يجبر، وما يُعفى عنه منها، وغير ذلك ليصح نسكه.

وهذه الآية تشتمل على **خمسة أحكام** هي:

إتمام النسك ، والإحصار ، وفدية الأذى، وحكم التمتع للحاضر و الباد وهو الخامس :

أولًا: إتمام النسك: الحج مما يُعرف بالأهلة، وقد أمرنا الله ﷻ إذا شرَع أحدُنا في الحج أو العمرة أن يتم حجه وعمرته ويؤديهما كاملين غير ناقصين، وأن لا يبطل عمله، وفيه دليل على وجوب العمرة كالحج، وإليه ذهب أحمد والشافعي في أصح قوليه، وعند مالك وأبي حنيفة أنها سنة، ومنزلة العمرة من الحج منزلة الزكاة من الصلاة، وتمام الحج والعمرة معناه أداؤهما وإقامتهما مع تمام المناسك الخاصة بهما.

عن يَعْلَى بن أمية قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ وهو بالجعرانَة، عليه جُبة وعليها خَلُوق (أي: طيب يتخذ من الزعفران) فقال: كيف تأمرني أن أصنع في عمرتي؟ فأُنزل على النبي ﷺ الوحي، فتستر بثوب، وكان يَعْلَى يقول: وددت أني أرى النبي ﷺ وقد أُنزل عليه الوحي، فقال عمر: أيَسُرك أن تنظر إلى النبي ﷺ وقد أُنزل عليه الوحي؟ فرفع عمر طرف

الثوب، فنظرت إليه له غطيط كغطيط البَكْر (أي: كالصوت الذي يخرج مع نفَس النائم، والبَكر هو الْفَتِيُّ من الإبل) فلما سُري عنه قال: **«أين السائل عن العمرة؟ اغسل عنك أثر الخَلُوق، واخلع عنك جُبتك، واصنع في عمرتك ما أنت صانع في حجك»**[١]

ومن أحرم بحج أو عمرة، فليس له أن يَحل حتى يُتمها، وتمام الحج يوم النحر إذا رمى جمرة العقبة وطاف بالبيت فقد حَل، وتمام العمرة إذا طاف بالبيت وبالصفا والمروة فقد حَل[٢].

قال ابن عباس: الحج والعمرة فريضتان على الناس كلهم، إلا أهْل مكة، فإن عمرتهم طوافُهم، فمن جعل بينه وبين الحرم بطْن وادٍ، فلا يدخل مكة إلا بإحرام[٣].

وقال عطاء: ليس على أهل مكة عمرة، إنما يعتمر من زار البيت ليطوف به، وأهل مكة يطوفون متى شاؤوا[٤].

قال ابن عمر ﷺ: الحج والعمرة فريضتان، .

وقال ابن عباس ﷺ: العمرة واجبة كوجوب الحج.

قال سبحانه: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ وتمام الحج يكون يوم النحر بعد رمي جمرة العقبة، وطواف الإفاضة والحلق أو التقصير.

وتمام العمرة يكون بعد الطواف والسعي والحلق أو التقصير.

ذلكم قول الله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ وقد اعتمر النبي ﷺ أربع مرات كلها في شهر ذي القعدة سنة ست، وسبع، وثمان، وعشر، مع حجة الوداع، ولم يحج النبي ﷺ غيرها.

ثانيا: الإحصار: ومما يستحب عند نية الإحرام للحج أو العمرة أن يَشترِط الحاج أو المعتمر ويقول: إن حبسني حابس فمحلي حيث حبستني.

ثبت في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل على ضُباعة بنت الزبير

---

(١) ينظر: «المسند» (١٧٩٤٨، ١٧٩٦٤، ١٧٩٦٥، ١٧٩٦٧) والبخاري (١٥٣٦، ١٧٨٩، ٤٩٨٥) ومسلم (١١٨٠) وأبو داود (١٨١٩-١٨٢٢) والترمذي (٨٣٥) والنسائي (٢٦٦٧، ٢٧٠٨، ٢٧٠٩).

(٢) قاله ابن عباس كما في «تفسير الطبري» (٣/ ٣٢٨).

(٣) ابن أبي شيبة (٤/ ٨٨) والحاكم (١/ ٤٧١).

(٤) ابن أبي شيبة (٤/ ٨٨).

بن عبد المطلب فقالت: يا رسول الله، إني أريد الحج وأنا شاكية، فقال: **«حجي واشترطي: أن محلي حيث حبستني»**[١].

والحابس هو الحاصر أو المانع الذي يحول دون تمام أداء النسك، بأن يسطو عليه عدو في الطريق يمنعه من الوصول إلى الحج، أو يحدث له مرض يُقعده ويحول بينه وبين الوصول إلى الحرم، أو يقع في حادث سيارة أو طائرة أو باخرة، أو يضل عن رفقائه، أو يفقد زاده، أو يموت مَحْرَم المرأة، ونحو ذلك من الموانع التي تحول بين المسلم وبين وصوله إلى الحرم، فإن منعه عن الذهاب لإتمام الحج أو العمرة بعد الإحرام بهما مانع، كالعدو أو المرض، وكان قد اشترط إن حبسه حابس فمحله حيث حُبس فلا شيء عليه، وإن لم يشترط فعليه الهدْي والقضاء.

وقد خص ابن عباس هذا الإحصار بحصار العدو فحسب، فقال ﷺ: لا حصر إلا حصر العدو، فالمراد عنده هو حصر العدو دون المرض؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾والأمن لا يكون إلا من خوف.

وقال غيره بعموم الحصر بعدو أو مرض أو غيرهما، فإن كان هذا الإحصار قبل أن يصل المحرم إلى الحرم، كما حدث لرسول الله ﷺ عام الحديبية، حيث خرج عليه الصلاة والسلام معتمرًا، ومنعه المشركون من الوصول إلى الحرم، فالواجب في هذه الحالة أن يذبح المحصر نسكًا: شاة أو سبع بقرة أو سبع بعيرٍ، ثم يتحلل من إحرامه بحلق الرأس أو تقصيره، وهذا النسك يُذبح في مكان الإحصار عند الجمهور، أو عند الحرم بأن يبعث بهديه إليه كما قال أبو حنيفة، ويَحِل من إحرامه بعد وصول خبر تمام الذبح إليه، ذلكم قول الله تعالى ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾.

قال مجاهد: أيما رجل اعترض له في حجه أو عمرته فإنه يَبْعثُ بهديه من حيث يُحبس، ولا يحلق رأسه ولا يحل حتى يوم النحر[٢].

وثبت في الصحيح عن حفصة ﷺ قالت: يا رسول الله ما شأن الناس حَلوا من العمرة،

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (٥٠٨٩) و«صحيح مسلم» برقم (١٢٠٧).

(٢) الأثر رقم (٣٢٢٧) في «تفسير الطبري».

ولم تحل أنت من عمرتك؟ فقال: «**إني لبدت رأسي، وقلدت هديي، فلا أحل حتى أنحر**»[١].

هذا هو حكم الإحصار بالمرض أو الخوف، أو أي سبب يمنعه من الوصول للحرم، وهو الأولى.

أما حضر العدو فيقال فيه (حوصر) أو حاصره العدو، ثم بين سبحانه ما يترتب على الإحصار فقال: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ﴾ إذا كنتم محصرين حتى ينحر المحصر هديه، ثم يحل من إحرامه، وقد يراد بالآية: لا تفعلوا شيئا من محظورات الإحرام كحلق الرأس (حتى يبلغ الهدي محله) يوم النحر.

وغير المحصر لا يذبح هديه إلا في الحرم في يوم العيد وأيام التشريق.

وعن ناجية بن جندب الأسلمي قال: أتيت النبي ﷺ حين صُد عن الهَدْي فقلت: يارسول الله، ابعث معي بالهدي فلننحره في الحرم، قال: «**كيف تصنع به**» قلت: آخذ به أودية، فلا يقدرون عليه، فانطلقت به حتى نحرته بالحرم[٢].

فدل هذا على أن النبي ﷺ نَحَر هدية في الحرم[٣].

قال ابن عمر ﷺ: خرجنا مع رسول الله ﷺ معتمرين، فحال كفار قريش دون البيت، فنحر رسول الله ﷺ بُدْنه وحلق رأسه[٤].

وقال ابن عباس ﷺ: أُحصر رسول الله ﷺ فحلق رأسه، وجامع نساءه، ونحر هدْيه، حتى اعتمر عامًا قابلًا»[٥].

ثالثًا: فدية الأذى: قد يحتاج المحرم إلى لبس المخيط، أو يحتاج إلى تغطية رأسه، وقد يكون المحرم مفردًا أو قارنًا وطالت به مدة الإحرام لشهر أو أكثر، فتتسخ رأسه وهو يخاف من تساقط الشعر ونحوه فلا يغسل رأسه مدة طويلة، فيصاب بقمْل أو قيح أو

---

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٥٦٦، ١٦٩٧، ١٧٢٥) و«صحيح مسلم» برقم (١٢٢٩).

(٢) الحديث رقم (٣٣٠٧) في «تفسير الطبري» (٤/ ٤٥).

(٣) ولا يعارض هذا حديث أنس بن مالك في «الموطأ» ص٣٦ وفي الطبري برقم (٣٢٣٨، ٣٢٨٨) فهو بغير إسناد.

(٤) البخاري برقم (١٦٣٩، ١٨١٢) ومسلم (١٢٣٠) والنسائي (٢٨٥٩) عن نافع.

(٥) البخاري (١٨٠٩).

دمامل في رأسه، وقد يمرض المحرم مرضًا يضطر معه إلى أن يحلق رأسه، بعد النية والدخول في النسك، فله في هذه الحالة أن يلبس الملابس العادية، أو يغطي رأسه أو يحلق شعره.

وعليه في كل الأحوال فدية يُخير فيها بين:

(أ) أن يصوم ثلاثة أيام.

(ب) أو صدقة يتصدق بها على ستة مساكين كل مسكين نصف صاع، أو وجبة طعام، أو قيمتها.

(ج) أو نسك، بأن يذبح شاة ونحوها عند الحرم.

وقد نزلت هذه الآية: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ في كعب بن عُجرة، وكان الْجَهد والأذى قد بلغ منه مبلغه، قال كعب: نزلَتْ فيَّ خاصة، وهى لكم عامة.

وعن عبد الله بن مَغْقِل قال: قعدتُ إلى كعب بن عجرة وهو في المسجد، فسألتُه عن هذه الآية: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ فقال كعب: نزلت في، كان بي أذى من رأسي، فحُمِلْتُ إلى النبي ﷺ والقمْلُ يتناثر على وجهي، فقال: **«ما كنتُ أرى أن الجَهْدَ بلغ منك ما أرى! أما تجد شاة؟»** فقلت: لا، قال: **«صم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع من طعام، واحلق رأسك»**، فنزلت هذه الآية فيَّ خاصة، وهي لكم عامة[١]

والمعنى: أنه يحلق رأسه، وعليه ذبح شاة، أو صيام ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين، كل مسكين نصف صاع، أيها شاء.

كما في رواية عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال لكعب: **«أَيُؤْذِيك دواب رأسك؟»** قال: نعم، قال: **«فاحلقه، وافتدِ؛ إما بصوم ثلاثة أيام، وإما أن تطعم ستة مساكين، أو نُسُك شاة»**[٢].

---

(١) الحديث برقم (٣٣٣٨) في الطبري، وهو في البخاري مع الفتح (٤/ ١٤) وفي صحيح البخاري عن كعب بن عُجرة برقم (١٨١٤، ١٨١٦، ٤٥١٧) وصحيح مسلم (١/ ٣٣٦) برقم (١٢٠١) والترمذي (٢٩٧٣) والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٠٣١) وابن حبان (٣٩٨٥) وابن أبي حاتم (١٧٨١) والبيهقي (٥/ ٥٥) وابن ماجه (٣٠٧٩) كلهم من طريق شُعبة وفي «المسند» (٤/ ٢٤٢).

(٢) الحديث برقم (٣٣٥٩) في «تفسير الطبري» (٤/ ٦٩) بإسناد صحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص وهذا لفظه، وهو في البخاري برقم (١٨١٤، ١٨١٧) ومسلم برقم (١٢٠١) عن عبد الرحمن بن أبي ليلى.

وفي لفظ آخر للحديث عن كعب بن عُجْرة قال: كنا مع رسول الله بالحديبية ونحن محرمون، وقد حصَرَنا المشركون، وكانت لي وَفْرَة، فجعلتِ الهوامَ تساقَط على رأسي، فمر بي النبي ﷺ فقال: **«أيؤذيك هوام رأسك؟»** قلت: نعم، فأمرني أن أحلق، قال: ونزلت هذه الآية، قال رسول الله ﷺ: **«صُمْ ثلاثة أيام، أو تصدق بفَرَق بيْن ستة، أوِ انسُكْ مما تيسر»**[(١)].

والنسك شاة تذبح في الحرم، والفَرَق نصف صاع من البر ونحوه.

رابعًا: التمتع: ثم ذكَرتِ الآيةُ حكمَ المتمتع الذي يعتمر ثم يحج في سفر واحد ، ولا يخرج من حدود الحرم في أشهر الحج ، فالتمتع هو أداء العمرة في أشهر الحج، ثم الإحرام بالحج في العام نفسه .

والمحصر، عليه أن يقضي حجه أو عمرته من العام الذي يليه، كما قضى النبي ﷺ العمرة التي مُنع منها عند الحديبية في العام السابع ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ أي: من الإحصار، وكنتم متمتعين بالعمرة إلى الحج، وأنتم في أمن وصحة ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۚ﴾ أي: فالمتمتع عليه أن يذبح هديًا؛ شاة أو سُبع بقرة، أو سبع بدنة، فمن لم يجد، ومن لم يستطع، فليصم ثلاثة أيام في الحج، بشرط أن يكون هذا الصيام يوم السابع والثامن والتاسع من ذي الحجة، أو من أول شهر ذي الحجة إلى يوم التاسع.

فإذا لم يتمكن الحاج من الصيام في هذه المدة؛ لسبب من الأسباب، أو كان لا يعلم أنه سيصوم، فله أن يقضي هذه الأيام الثلاثة في أيام التشريق، حيث يَحْرُم الصوم في يوم العيد، وهذا معنى يصوم ثلاثة أيام في الحج، وسبعة إذا رجع إلى أهله، يصومها في الطريق، أو في بلده بعد وصوله ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌۗ﴾.

خامسًا: ليس على أهل مكة تمتع: وهذا الهدي بالنسبة لغير أهل مكة، فإن أهل مكة لا يتمتعون؛ لأنهم مقيمون في مكة دائمًا، ولا هدْي عليهم ولا صيام عند العجز في الهدي

---

(١) «المسند» (١٨١٠١، ١٨١٢٨) والبخاري (١٨١٥) ومسلم (١٢٠١) والترمذي (٢٩٧٣، ٢٩٧٤) والطبراني (٢١٥-٢٤٠) و«صحيح سنن الترمذي» (٢٣٧٤).

﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ وهم أهل مكة؛ أي: ليس على أهل مكة وممن هم دون الميقات هدْي، فإنهم يحجون مفردين ولا يتمتعون ولا يقرنون، لأن التمتع معناه استباحة ما حُرِّم على المحرم بسبب الإحرام بعد انتهاء عُمرته إلى أن يُحرم بالحج، سواء طالت هذه المدة أو قصرت، وأهل مكة من داخل الحرم لا يلزمهم التمتع.

ووقت هذا التمتع يبدأ من أول شهر شوال إلى يوم التروية، فيحرم المسلم بالحج في اليوم الثامن من ذي الحجة ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ خافوه بامتثال أمره واجتناب نهيه ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن خالف أمره وارتكب ما نُهي عنه.

وهذه الآية أول ثماني آيات تحدثت عن حج بيت الله الحرام في سورة البقرة، وقد تناولت حُكم الإحصار في الحج، وحُكم فدية الأذى، وحُكم هدْي المتمتع بالعمرة إلى الحج.

مَوَاقِيتُ الْحَجِّ المَكَانِيَّةِ والزَّمَانِيَّةِ

١٩٧-﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ[(١)] فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ[(٢)]﴾

حرمة زمان الحج: الأشهر المعلومات هي شوال وذو القعدة وذو الحجة[(٣)] وقيل: شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة[(٤)]، وقد جعل الله ﷻ المدة التى تُؤدى فيها فريضة الحج من الأشهر الحرم، فهي أيام حاسمة محرمة، والمسلمون جميعًا فى الأشهر الحرم

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: (فلا رفثٌ ولا فسوقٌ ولاجدال في الحج) بالتنوين المرفوع في (رفث وفسوق) ونصب (جدال)، وقرأ أبو جعفر بالتنوين المرفوع في الثلاثة، وذلك على أن (لا) مهملة، وما بعدها مبتدأ، و(في الحج) خبر، وقرأ الباقون بالنصب في الكلمات الثلاث على أن (لا) نافية للجنس، وما بعدها اسمها، و(في الحج) خبرها.

(٢) لم يعدّ هذه الكلمة (يا أولى الألباب) آية، المصحف المدني الأول، والمصحف المكي، وعدّها غيرهما من المصاحف العثمانية آية.

(٣) ورد هذا عن عمر بن الخطاب وابنه عبد الله وغيرهما، كما في كتاب «الأم» للإمام الشافعي (٢/ ١٥٤) و«تفسير سعيد بن منصور» (٣٢٩) وابن أبي حاتم (١٨١٦) وغيرهم.

(٤) ورد هذا عن ابن عمر أيضًا وعبد الله بن الزبير وابن عباس كما في القسم الأول من الجزء الرابع لابن أبي شيبة ص٢١٨ والطبري (٣/ ٤٤٦) والحاكم (٢/ ٢٧٦).

-ومنها فترة الحج- كلهم محرمون فى كل بقعة من بقاع العالم يخصونها بمزيد من البعد عن المعاصي والذنوب؛ لقوله تعالى ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦]، وقد كان مما يتوارثه العرب عن ملة إبراهيم ﷺ تعظيم الأشهر الحرم؛ فيكفون فيها عن الظلم والعدوان على الأنفس والأعراض والأموال، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦].

وعن أبى بكرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«السنة اثنا عشر شهرًا، منها أربعة حرم؛ ثلاثة متواليات، ذو القعدة وذو الحجة ومحرم، ورجب (مُضر) الذي بين جمادى وشعبان»**(١) فالأشهر الثلاثة المتواليات توافق موسم الحج فيكثر فيها الحشود وترويج التجارة؛ ولذلك فإن تحريم القتال في هذه الأشهر أمر لازم لأمن الناس وسلامتهم لأداء فريضة الحج والعمرة.

وحرمةُ القتال فى الأشهر الحرم تخص القتال المشروع الذي يكون لإحقاق حقٍّ وإزهاق باطلٍ، فعلى الرغم من مشروعيته إلا أنه يروع أمن الناس ويعكر عليهم أداء المناسك، **ولذا**: فلا يُلجأ إليه إلا للضرورة.

أما القتال غير المشروع والذى يُقصد به العدوان والسلب والنهب فقد حرمه الاسلام في كل زمان ومكان.

قال ﷺ في حديث ابن عمر وجرير وأبي بكرة: **«فلا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض»**(٢).

والله ﷻ لم يوجب على المعتدَى عليه في الأشهر الحرم أن يقف مكتوف اليد، ولكنَّه جعل الحرمات قصاصًا، فمن انتهك أمن الناس في الشهر الحرام فمن حقهم أن ينتهكوا أمنه فيه، وأن يعتدوا عليه فيه بمثل ما اعتدى عليهم، قال تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ

---

(١) البخاري (٤٦٦٢).

(٢) من حديث أبي بكرة في البخاري (١٧٤١، ٧٠٧٧) ومسلم (٦٦)، عن ابن عمر وجرير.

وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٩٤] فحرمة الوقت الذي يقع فيه الحج، لا يخص أهل مكة بتحريم القتال فيه، وعدم ظلم النفس بالذنوب، وعدم ظلم الآخرين وانتهاك حرمته فيه فحسب، بل يشمل المسلمين في كل مكان، مَن أحرم منهم بالحج ومن لم يحرم.

وللإحرام بالحج أو العمرة أماكن محددة، حددها الشرع الحنيف، لا بد لمن يريد الإحرام بالحج أو العمرة ممن هو خارج حدود الحرم أن يحرم من هذه الأماكن، وهى محيطة بالحرم من جميع الجهات، من الشرق والغرب والشمال والجنوب، تسمى المواقيت المكانية، لا يتجاوزها المحرم إلا إذا أحرم من أحد هذه الأماكن التي حددها المصطفى ﷺ.

وأبعد هذه المواقيت عن الحرم، الميقات الشمالي، الذي هو ميقات أهل المدينة، ويليه ميقات أهل مصر والشام والمغرب، ثم الميقات الغربي، ثم بقية المواقيت وهي متساوية تقريبًا نحو ثمانين كيلو مترًا بينها وبين الحرم الشريف، عدا ميقات أهل المدينة وأهل مصر، ويضاف إلى ذلك معرفة الزمان الذي يُؤَدى فيه الحج.

وسوف نتكلم عن المواقيت المكانية أولًا ثم المواقيت الزمانية.

أولًا: أماكن الإحرام بالحج والعمرة: حدد الإسلام لدخول مكة المكرمة من جميع الجهات المحيطة بها أماكن معينة لا يجوز للمحرم بحج أو عمرة أن يتجاوزها دون أن يخلع فيها ملابسه العادية بعد أداء مقدمات الإحرام من النظافة والطهارة، ويلبس ملابس الإحرام، ثم ينوي النسك الذي يريده من هذا المكان المعين، ويلتزم من فوره بمحظورات الإحرام التي سنذكرها، فلا يرتكب مخالفة منها.

وهذه المواقيت حددها النبي ﷺ وجعلها لكل من يَمُر بها من أهلها أو من غير أهلها سواء مر بها برًّا أو بحرًا أو جوًّا.

وتحديد هذه المواقيت معجزة دالة على صدق محمد ﷺ فقد وقتّها النبي ﷺ حين وقتّها وكان أهلها ومَن يمرون بها لم يدخلوا في الإسلام بعد.

في هذه المواقيت بيان يُسْر الإسلام وسماحته، حيث لم يُلزم الناس كلهم الإحرام من مكان واحد، أو من حيث أحرم النبي ﷺ، وإليكم بيان هذه **المواقيت المكانية الخمسة**:

العدد	اسم الميقات	من يمرون عليه	الجهة	المسافة إلى مكة
١	آبار علي (ذو الحليفة)	أهل المدينة ومَن يمر عليه غيرهم	شمال	٤٣٠ كيلو مترًا
٢	رابغ (الجحفة)	مصر والشام والمغرب وغيرهم	غرب	٢٠١ كيلو مترًا
٣	وادي السَيل (قرن المنازل) ويُحاذيه (وادي محرم)	نجد، ومن يمر بها من غير أهلها	شرق	٨٠ كيلو مترًا
٤	ذاتُ عِرْق (بين تهامة ونجد)	العراق وإيران وغيرهما	شمال شرق	٨٠ كيلو مترًا
٥	يَلَمْلَمْ (جبل من تهامة)	اليمن والصين والهند وغيرهم	جنوب	٨٠ كيلو مترًا

حكم من تجاوز الميقات بغير إحرام:

من كان نيته الأصلية السفر للحج أو العمرة، وهو قبل هذه المواقيت، فإنه ينبغي عليه الإحرام من هذه المواقيت، ولو كان محاذيًا لها في الجو أو البحر، وإلا فعليه دم، أو الرجوع إلى الميقات والإحرام منه، فإن كان سفره لغرض آخر فتجاوز الميقات ثم عَنَّ له أن يحج أو يعتمر من داخل حدود الحرم فلْيُحرم من مكانه، كأهل البلد (مكة وما حولها) ممن هم دون المواقيت، فإن إحرامهم من حيث هم، وإحرام أهل مكة ومن كان فيها بالعمرة يكون من أدنى الحل: التنعيم أو الجعرانة.

ثانيًا: حدود المواقيت غير حدود الحرم:

وأماكن الإحرام هذه غير حدود الحرم، فالمحرم يلتزم فى ذاته بمحظورات الإحرام

حين يحرم من الميقات، أما حُرمة مكان الإحرام وهو مكة المكرمة، فإن لها حدودًا توجد عليها أعلامًا في الوقت الحاضر تميزها، وهي عبارة عن حجارة مرتفعة ذات شكل معين، وكان جبريل قد أخذ بيد إبراهيم عليهما السلام وأوقفه على حدود الحرم فنصب إبراهيم عليها علامات وهي: **حدود الحرم الخمسة:**

م	المكان	الجهة	المسافة بينه وبين مكة
١	التنعيم (المدينة)	شمال	٦ كيلو مترات
٢	الشميسي (الحديبية)	غرب	١٥ كيلو مترًا
٣	الجعرانة (نجد)	شرق	١٦ كيلو مترًا
٤	وادي نخلة (العراق)	شمال شرق	١٤ كيلو مترًا
٥	أضاه (نمرة)	جنوب	١٢ كيلو مترًا

ثالثًا: زمان الإحرام بالحج:

وكما أن للإحرام بالحج مكانًا معينًا لا يتجاوزه المسلم حتى يحرم منه، فإن هناك مواقيت زمانية هي زمان الحج؛ أي: الوقت الذي يحرم فيه المسلم بالحج.

هذا الميقات الزماني يبدأ من أول شهر شوال وذي القعدة إلى عشر من ذي الحجة، أو شهر ذي الحجة بكامله عند بعض أهل العلم، حيث تظهر ثمرة الخلاف في طواف الإفاضة، وجواز تأخيره على القول الثاني إلى نهاية الشهر، وحتى يتمكن الحاج أن يرجع إلى بلده بعد قضاء المناسك في أمن وأمان.

وهذا الميقات الزماني يشير إليه قول الله سبحانه: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ شوال وذو القعدة وذو الحجة أو عشر من ذي الحجة ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ فكل من ألزم نفسه وأحرم بالحج فنوى ولبى ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ بل عليه أن يكثر من

التلبية ويرفع صوته بها.

١- كما صح عن خلاد بن السائب عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أتاني جبريل فأمرني أن آمر أصحابي أن يرفعوا أصواتهم بالإهلال والتلبية، فإنها شعار الحج»**(١)

٢- وفي حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«أمرني جبريل برفع الصوت في الإهلال فإنه من شعار الحج»**(٢)

٣- وجاءت صيغة التلبية عن ابن عمر رضي الله عنهما أن تلبية رسول الله ﷺ: **«لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك)، وكان ابنُ عمر يزيد فيها: (لبيك وسعديك، والخير بيديك لبيك، والرغباء إليك والعمل)**(٣)

٤- ومن مات وهو محرم يُبعث يوم القيامة مُلبيًا؛ فعن ابن عباس ﷺ: أن رجُلًا أوْقصتْه راحلتُه وهو محرم فمات، فقال ﷺ: **«اغسلوه بماء وسدر، وكفنُوه في ثوْبيه، ولا تُخمرُوا وجهه ولا رأسَه، فإنه يُبعث يوم القيامة ملبيًا»**(٤)

٥- وذبح الهدْي في الحرم، ورفع الصوت بالتلبية من أفضل أعمال الحج؛ فعن أبي بكر الصديق ﷺ أن رسول الله ﷺ سئل: أي الأعمال أفضل؟ قال: **«العَج والثج»**(٥) والعج: رفع الصوت بالتلبية، والثج: سيلان دماء الهدْي والأضاحي(٦).

---

(١) «صحيح سنن أبي داود» (١٥٩٢) و«المسند» (١٦٥٥٧) بنحوه وإسناده صحيح ورجاله ثقات، كما قال محققوه، وأخرجه أبو داود (١٨١٤) والترمذي (٨٢٩) والنسائي (٢٧٥٢) وابن ماجه (٢٩٢٢) وابن خزيمة (٢٦٢٥) والحاكم (١/ ٤٥٠) ومثله عن زيد بن خالد الجهني في ابن ماجه وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وابن أبي شيبة وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٨٣٠).

(٢) مسند أحمد (٨٣١٤) وهو حديث صحيح ، كما قال محققوه ، وأخرجه ابن خزيمة (٢٦٣٠) والحاكم (٤٥٠/١) والبيهقي (٥/ ٤٢).

(٣) البخاري (١٥٤٩، ٥٩١٥) ومسلم (١١٨٤) وأبو داود (١٨١٢) والنسائي (٢٧٤٦-٢٧٤٩) وغيرهم.

(٤) البخاري (١٨٥٠، ١٨٥١) ومسلم (١٢٠٦).

(٥) صححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٥٠٠) وهو في الترمذي (٨٢٧) وابن ماجه (٢٩٢٤) وابن خزيمة (٢٦٣١) والحاكم (١/ ٤٥١).

(٦) «النهاية» لابن الأثير (١/ ٢٠٧) (٣/ ١٨٤).

والجهر بالتلبية يكون بالنسبة للرجال دون النساء، وإذا لَبى الحاج أو المعتمر فإن الحجر والشجر والمدر يُلَبي معه:

عن سهل بن سعد ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: **«ما من مُلَب يُلَبي إلا لَبى عن يمينه وشماله من حجر أو مدَر، حتى تنقطع الأرض من ههنا وههنا عن يمينه وشماله»**[1]

وهذه الألفاظ الثلاثة المذكورة في الآية التي معنا وهي: الرفث والفسوق والجدال هي محظورات الإحرام، ويدخل فيها كل محظور حظره الشرع على المحرم، ويتعين عليه أن يلتزم بهذه **المحظورات الثلاثة**:

المحظور الأول: هو الرفث: والرفث هو الجماع ومقدماته، من النظرة والكلمة الفاحشة المتعلقة بالنساء، والسماع المهيج للشهوة، واللمس والغمز واللمز، أو التقبيل والضم والمباشرة أو الخِطبة وعقد النكاح والزواج وغير ذلك مما يطلق عليه لفظ الرفث كما قال سبحانه ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ﴾ وهو يعني الجماع ومقدماته، فكذلك الحاج فإنه يَحْرُم عليه أن يفعل شيئًا من هذا الرفث، بالنسبة إلى امرأته، وهو محرم على غيرها في كل الأحوال، ويتأكد ذلك في الصيام والحج والحرم.

والذي ذهب إلى بيت الله الحرام ذهب ليكتسب أجرًا، لا ليكتسب وزرًا، ذهب ليمحوَ زلاتِه ومعاصيَه بحجه بيت الله الحرام.

ومن هنا فإن المحرم لا ينبغي له أن يصطحب في حجه امرأة لا تحل له من خادمة أو قريبة أو زميلة أو جارة أو معرفة أو زوجة أخيه أو أخت زوجته، وغير ذلك ممن لا تحل له شرعًا، فإنه لا يخلو الحال من النظرة، ومن الكلمة، ومن البسمة، ومن الملاطفة، ونحو ذلك، وهذا مما يكسب المرء الآثام، ومما يُنقص عليه أجره في حجه، وهو في رحلة إلى ربه، يقصد رضاه، ويبتغي ما عنده من أجر، فعليه أن ينخلع من هذه الشهوات، ومن حظوظ النفس والفسوق؛ لأنه ذاهب في رحلة إلى ربه جل وعلا.

---

(١) «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٣٦٣) والترمذي (٨٢٨) وابن ماجه (٢٩٢١) وابن خزيمة (٢٦٣٤) والحاكم (١/٤١٥).

والمحظور الثاني من محظورات الإحرام: هو الفسوق (المعاصي صغيرها وكبيرها) والفسوق: هو الخروج عن طاعة الله ﷻ، وهي كلمة عامة شاملة جامعة تشمل سائر المعاصي والذنوب التي يفعلها المسلم في الحج وخارج الحج، «**ومن حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه**»(١)

ومن الفسوق: السب والشتم وإيذاء الناس باللسان أو بالقول أو بالفعل، كما قال ﷺ من حديث ابن مسعود ﷺ: «**سباب المسلم فسوق وقتاله كفر**»(٢)

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في الآية: الرفث إتيان النساء، والتكلم بذلك للرجال والنساء إذا ذكروا ذلك بأفواههم، والفسوق إتيان معاصي الله في الحرم، والجدال السباب والمراء والخصومات(٣)

ومن الفسوق التنابز بالألقاب وذم الآخرين، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١١]

قال ابن عباس: الرفث الجماع، والفسوق المنابزة بالألقاب تقول لأخيك: يا ظالم، يا فاسق، والجدال أن تجادل صاحبَك حتى تغضبه(٤)

قالت أسماء بنت أبي بكر: خرجنا حُجاجًا مع رسول الله ﷺ وكان لنا بعير عليه الطعام والمتاع مع غلام لأبي بكر، فجلسنا ننتظره، فظهر الغلام يمشي وحده وليس معه البعير، فقال أبو بكر: أين بعيرك؟ قال: أضلني الليلة؛ أي: أنه فُقد منه، فقام أبو بكر يضربه ويقول: بعير واحد أضلك وأنت رجل؟ فما يزيد رسول الله ﷺ على أن يتبسم ويقول: «**انظروا إلى هذا المُحْرم ما يصنع!**»(٥).

---

(١) من حديث أبي هريرة في البخاري (١٥٢١، ١٨١٩، ١٨٢٠) ومسلم (١٣٥٠) والترمذي (٨١١) والنسائي (٢٦٢٦) وابن ماجه (٢٨٨٩).

(٢) البخاري (٤٨، ٦٠٤٤، ٧٠٧٦) ومسلم (٦٤).

(٣) الطبري (٣/ ٤٥٩) وابن أبي حاتم (١٨٢٢، ١٨٣٠).

(٤) الطبري (٣/ ٤٦٦) وابن أبي حاتم (١٨٢٤، ١٨٣١).

(٥) الحاكم (١/ ٤٥٣) مطولًا.

وقال طاوس: لا ينظر المحْرِم في المرآة، ولا يدعو على أحد وإن ظلمه[١].

ومن الفسوق: الإلحاد في الحرم؛ ومن الإلحاد: احتكار الطعام، واحتكار الماء، والمزاحمة عليه، وعلى الحمامات، واحتكار الخيام، والإضرار بالمسلمين في الطواف والسعي والجمرات، واحتكار المكان في الخيام بحجز الأماكن في منى قبل قدوم الحجاج، والاستئثار بأقربها إلى الجمرات، وغير ذلك مما يدخل في الإلحاد بالحرم، فهو فسق وخروج عن طاعة الله ﷻ.

ومن الفسوق: قتل صيد الحرم والتعرض له بالأذى، وقطع شجر الحرم الذي يخرج بنفسه، وقطع نباته أو التعرض له بالأذى، فكل ذلك مما حَرَّمه الشرع على المحرم في قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة: ٩٥] وفي ذلك تفريع وتفصيل وأحاديث لا يتسع لها المقام.

والمحظور الثالث: هو الجدال في الحج: لا جدال في مناسك الحج، ولا جدال في أعمال الحج، كأن يطلب الإنسان علة أو سببًا لكل ما يفعل، فيقول مثلًا: لماذا المبيت في منى؟ لماذا رمي الجمرات؟ لماذا الجلوس في عرفات؟ لماذا المبيت في مزدلفة؟ بأن يعترض على مناسك الحج وأعماله، ويريد أن يدرك العلة بعقله، ولا جدال في مناسك الحج، فهي عبادات تعبدَنا الله بها، سواء أدركنا حكمتها وعلتها أم لم ندرك.

والجدال أيضًا هو المراء والخصام والنقاش الذي يحمل المخاطب على الغضب، ومنه سب الخادم وشتمه، وسب الأهل وشتمهم، وأن ينْفعل الإنسان ويخرُج عن جادة الصواب إلى درجة الغضب، والحج يحتاج إلى رحابة صدر وسَعَة أفق، وحسن أخلاق، وبه تختبر معادن الناس في الحج.

وفي السفر على وجه العموم مشاق ومتاعب تثير الغضب والانفعال ما لم يتحلَّ المسلم بالصبر والحلم والأناة، ولا سِيَّمَا في الحج حيث يكون الازدحام بين المشاة وبين السيارات في والموانئ والمطارات، ويكون التسابق في المشاعر، والازدحام في الطواف، وفي السعي، وفي رمي الجمار، وعلى الماء، وفي الحمامات، وفي أماكن الإقامة

---

(١) ابن أبي شيبة (القسم الأول من الجزء الرابع) ص.١٠٢

بمنى وعرفات، وغير ذلك، وهذا مما يثير الحمية والغضب والعصبية عند بعض الناس، فيخرج المرء عن صوابه، ولا تتحمل أخلاقه، ويبدي كلاما خارجًا أو فعلًا خارجًا.

والذي يريده الإسلام من المسلم أن يتحلى بمكارم الأخلاق، وأن يكون واسع الصدر، واسع الأفق، يتحمل أخطاء الآخرين، وأن لا يعاملهم بالمثل، وأن لا يزاحمهم في الطواف وغيره وإن جَنَوْا عليه، وإن اقترفوا حُرمته.

وإن حدث له ضرر من غيره فإنه مطالب أن يتحمل، وأن لا يغضب، وأن لا يجادل ولا يماري، ويحاول أن يُفَوت الفرصة على مَن يضيع عليه ثواب الحج، أو ينقص من أجره، فلا جدال في الحج.

وهذه المحظورات الثلاثة: الرفث والفسوق والجدال، يجب اجتنابها في كل وقت، وفي الحج بصفة خاصة.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ فبعد أن نهاهم الله تعالى عن هذه الأمور القبيحة، أقوالها وأفعالها، أمرهم بفعل الأمور الجليلة، فيستبدلون بالرفث، الكلمة الطيبة، والخصلة الحسنة الصالحة، التي تخلو من إثارة الشهوة، ومن الإثم والمعصية، ويستبدلون الفسوق بطاعة الله ﷻ، ويستبدلون الغضب بالحلم و اللغو بتلاوة القرآن.

ولا يدخل في هذا المناقشة العلمية للبحث عن الحكم الشرعي، ومعرفة الصواب والدليل، فإن هذا لا يدخل في الجدال المذموم شريطة أن يكون بالحسنى، وتوخي معرفة الحق دون عصبية، وإنما بالتفاهم، والأخلاق الحسنة الحميدة.

وهذه المحظورات يمكن صياغتها مرة أخرى للتأكيد عليها تحت مسمى:

دواعي الشهوة والغضب والزينة والأمن.

فكما أن للوقت الذي يُؤدى فيه الحج حرمة عالمية، وللمكان الذي يُؤدى فيه الحج حرمة محلية، فإن المحرم الذي يريد أداء الحج أو العمرة عليه أن يلتزم بـ:

محظورات الإحرام وهي:

أولًا: دواعي الشهوة: فقد حرم الإسلام على المحرم كلَّ ما يتعلق بالشهوة ومقدماتها

مما يدخل تحت لفظ (الرفث) فالرفث هو الجماع ودواعيه القولية والفعلية وما يتعلق به من خِطبة وزواج، وعقد ونكاح، ودخول بالمعقود عليها، أما الوطء في الفرج فإنه يفسد الحج ويبطله إذا وقع قبل التحلل الأول، ويجب على مَن فعل ذلك القضاء ونحر بدنة، فإذا كان الوطء بعد التحلل الأول فإن الحج لا يبطل، وعليه ذبح شاة، فمن لم يجد صام ثلاثة أيام في الحج، وسبعة إذا رجع إلى أهله، وإن طاوعته زوجته أو كانت متسببة فعليها مثل زوجها، والوطء في العمرة فيه شاة.

وتَحْرُم المباشرة فيما دون الفرج، وهي تُنقص من شأن الحج وتجعله غير مبرور؛ لأنه لم يخلُ من الرفث والفسوق، فإن فَعَل وأنزل، فعليه بدنة ولا يفسد الحج، وإن لم يُنْزل، فعليه شاة.

ويحرم النظرة والكلام الفاحش المتعلق بالنساء، والتقبيل والتفكير في الشهوة ودواعيها، والهم بشيء من ذلك، كما يحرم السماع المهيج للشهوة، وهذا كله بالنسبة لمن أحلهن الله تعالى للمسلم في غير وقت الإحرام، فما بالك بمن سافر وغدا وراح أو طاف وسعى مع مَن لا تحل له، وارتكب النظرة والكلمة أو الهمسة واللمسة . . . إلخ.

عن عثمان بن عفان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«لا يَنْكِح المحرمُ ولا يُنكَح ولا يخطب»**[1].

وعن يزيد بن نُعَيم، أن رجلًا من جذام جامع امرأته وهما مُحْرمان؛ فسأل النبي ﷺ فقال: **«اقضيا نسكًا واهديا هديًا»** أي: أعيدا الحج واذبحا بدنة، وكل ذلك داخل تحت قوله تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ﴾.

ثانيًا: دواعي الغضب: يجب على المحرم أن يتجنب الجدال والمخاصمة بالباطل، لكونه يثير الشر ويوقع العداوة، وأن يصون لسانه عن الكلام الخارج الذي فيه إثم، وأن يتجنب إيذاء المسلمين بقول أو فعل، وعلى المسلم أن يتلافى ما يكدر الصفو من خصام أو نقاش أو جدال أو قتال أو سب أو التنابز بالألقاب، ومن ذلك المناقشة والمشادة حتى يُغضب الرجل صاحبه، ولا سِيَّمَا في وعثاء السفر وشدة الزحام وإلحاح الحاجة

---

(١) من حديث مسلم برقم (١٤٠٩) وأبي داود برقم (١٨٤١) والترمذي برقم (٨٤٠) وابن ماجه برقم (١٩٦٦) و«المسند» برقم (٤٠١) بإسناد صحيح على شرط مسلم ومالك (٣٤٨/١) و«السنن الكبرى» للنسائي (٣٨١١، ٥٣٩٠، ٥٣٩١) وابن حبان (٤١٢٣-٨١٣٩).

والضرورة، وعلى المسلم أن يعمل على المحبة وتوثيق المودة مع إخوانه، لا سِيَّمَا أثناء أداء المناسك وفي السفر، حيث يكون الإرهاق والمشقة، وهذا محكُّ اختبار النفوس والأخلاق.

ويحرم الفسوق في الحج، وهو اقتراف المعاصي والذنوب الكبيرة أو الصغيرة والخروج عن طاعة الله تعالى، ومنه محظورات الإحرام، ومنه التعرض لصيد الحرم وشجره ونباته، وكله داخل تحت قوله تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾.

وفي الصَّحِيحَيْنِ عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه»**(١)

وفي الحديث الصحيح عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»**(٢)

والنقاش في المسائل العلمية بغية الفائدة ومعرفة الحكم والدليل لا يعتبر من الجدال المنهي عنه؛ بل هو مطلوب في ضَوْءِ أدب الحوار وطلب الصواب، **«المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»**(٣) و**«الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»**(٤).

ثالثا: دواعي الترف والتزين: حرم الإسلام على المحرم أن يأخذ شيئًا من شعره أو أظافره أو أن يتطيب، ولا يلبس الرجل مخيطًا ولا يُغطي رأسه، ولا تنتقب المرأة، ولا تلبس البرقع ولا القفازين، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾.

وعن ابن عمر ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«لا تنتقب المحْرِمة ولا تلبس القفازين»**(٥).

وبيَّن ﷺ أن المحرم **«لا يلبس قميصًا ولا عمامة ولا سروالًا، ولا يمس طيبًا، ولا**

---

(١) البخاري (١٥٢١، ١٨١٩، ١٨٢٠) ومسلم (١٣٥٠).

(٢) البخاري (٤٨، ٦٠٤٤، ٧٠٧٦) ومسلم (٦٤).

(٣) من حديث عبد الله بن عمرو في البخاري (١٠، ٦٤، ٨٤، ٦٤٨٤) وفي «الأدب المفرد» (١١٤٤) وفي مسلم (٤٢) وأبي داود (٢٤٨١) و«المسند» (٦٥١٥) وابن حبان (١٩٦، ٤٠٠).

(٤) من حديث أبي هريرة في «الموطأ» (٣٤٦/١) والبخاري (١٧٧٣) ومسلم (١٣٤٩) والترمذي (٩٣٣) والنسائي (٦٢٢١) وابن ماجه (٢٨٨٨).

(٥) النسائي في «السنن الكبرى» (٣٦٣٩). ومن حديث طويل في المسند (٦٠٠٣) وإسناده صحيح على شرط الشيخين.

زعفرانًا ولا يلبس الخفين»[١] ومن فعل شيئًا من ذلك ناسيًا أو جاهلًا فلا شيء عليه.

ومن فعله متعمدًا فعليه إطعام ستة مساكين، أو صيام ثلاثة أيام، أو ذبح شاة، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾.

والمقصود من الحج: التذلل والانكسار والتقرب إلى الله تعالى بما يمكن من القربات، والتنزه عن اقتراف السيئات، وبذلك يكون الحج مبرورًا، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة

رابعًا: دواعي الأمن: حرم الإسلام على المحْرِم ألا يقطع شجرَ الحرم ولا نباته مما لم يزرعه الناس ولم يغرسوه، وألا يتعرض لقتل الصيد البري أو تنفيره من مكانه، كما يأمن الإنسان على نفسه، وكذا الطير والحيوان، وغير ذلك، وهذه الحرمة تتعلق بالمحْرم المتلبس بأداء النسك على وجه الخصوص، ويترتب عليها إثم وفدية.

والحُرمة تعم غير المحْرِم ممن هو في حدود الحرم، باعتبار أن حرمة مكة، وحرمة الشهر الحرام مطلوبة دائمًا من المسلم في موسم الحج وغيره.

وقد أحل الله تعالى للمحرم المقيم والمسافر أن يأكل من صيد البحر وطعامه دون صيد البر، قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ [المائدة: ٩٦] وما تفعلوا من خير في كل ما ذُكر يعلمه الله فيجازيكم ويثيبكم عليه خيرًا ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾. تزوّدوا لهذا السفر المبارك، بالاستغناء عن الخلق، والكفّ عما في أيدي الناس، وأكثروا من حمل الزاد لنفع الفقراء وإعانة المسافرين، أما الزاد الحقيقي المستمر نفعه لصاحبه في دنياه وأخراه، فهو الزاد الموصّل لدار القرار، مع النعيم الدائم الذي لا ينقطع، ثم أمر سبحانه بتقواه فقال: ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فإن تقوى الله تعالى أعظم ما تأمر به العقول السليمة، وتركها دليل الجهل وفساد الرأي.

---

(١) كما في حديث سالم عن أبيه في البخاري (٣٦٦، ٥٨٠٦) ومسلم (٢، ١١٧٧) وأبو داود (١٨٢٣) والنسائي في «الكبرى» (٣٦٣٣) وكما في حديث ابن عمر في البخاري (١٣٤) ومسلم (١١٧٧) وأبي داود (١٨٢٤) وابن ماجه (٢٩٢٩) والترمذي (٨٣٣).

تَصْحِيحُ مُخَالَفَاتِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ فِي مَنَاسِكِ الْحَجِّ

أولًا: التزود بغذاء البدن والروح: والآيات الثلاث التالية تصحح أوضاعًا كانت سائدة عند الناس قبل أن يُفرض الحج في الإسلام؛ ومن ذلك أن رجالًا من اليمن كانوا يحجون بيت الله الحرام، ولا يحملون معهم الزاد ولا النفقة ولا المتعة، يسافرون هكذا دون شيء، ويقولون: نحن متوكلون، نحج بيت الله فعليه أن يطعمنا.

وهذا كلام فيه جهل، وهو مناقض للسنن الكونية التي شرعها الله لعباده، من اعتبار السبب والمسبب، وأنه لا بدَّ للمسلم أن يأخذ بالأسباب.

وهؤلاء لا يأخذون معهم زادًا ولا مالًا ولا نفقة، ويقولون: نحن المتوكلون على الله، ثم يضطرون إلى سؤال الناس في الحج ، والله سبحانه أمر عباده إلى يوم القيامة أن يتزودوا وهم في رحلتهم إلى الحج ويتزودوا بما يقيم أبدانهم و ما يقيم أرواحهم، يتزودون بالمال، و يتزودون بالنفقة التي تكفيهم لحفظ أبدانهم ، و يتزودون بتقوى الله سبحانه، فهي زادهم الذي ينفعهم يوم لقاء رب العالمين، فخير الزاد تقوى الله سبحانه، فالإسلام يأمرهم بالزاد الأخروي، كما أمرهم بالزاد الدنيوي ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، ومن لم يتق الله فكأنه لا عقل له ولا يدرك عواقب الأمور.

قال ابن عباس: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن متوكلون، ثم يَقْدَمون فيسألون الناس، فأنزل الله الآية[1]

وقال ابن عباس: كان ناس يخرجون من أهليهم ليس معهم أَزْوِدة، يقولون: نحج بيت الله ولا يُطعمنا! فقال الله: تزودوا ما يكُف وجوهكم عن الناس[2]

وتقوى الله تعالى خير زاد للعبد، ففي الحديث عن أبي هريرة ﷺ قال: سُئل رسول الله ﷺ ما أكثر ما يُدخل الناس الجنة؟ قال: «**تقوى الله وحسن الخلُق**»، وسئل ما أكثر ما

---

(١) البخاري (١٥٢٣) وأبو داود (١٧٣٠) والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٧٩٠، ١١٠٣٣) وابن حبان (٢٦٩١) والبيهقي في «السنن» (٤/ ٣٣٢).

(٢) الطبري (٣/ ٤٩٨) وابن أبي حاتم (١٨٣٨).

يدخل الناس النار؟ قال: «**الأجوفان: الفم والفرج**»[١]

وعن أنس ﷺ قال: جاء رجل فقال: يا رسول الله، إني أريد سفرًا، فزَوِّدْني، فقال: «**زودك الله بالتقوى**» قال: زِدْني، قال: «**وغفر ذنبك**» قال: زدني، بأبي أنت وأمي، قال: «**(ويَسَّرَ لك الخير حيثما كنت**»[٢]

وعن أبي هريرة ﷺ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يريد سفرًا، فقال: أوصني، قال: «**أوصيك بتقوى الله، والتكبير على كل شرف**» أي: عند كل موضع مرتفع يشرف على ما حوله، فلما مضى قال: «**اللهم ازْوِ له الأرض، وهون عليه السفر**»[٣]

لَا مَانِعَ مِنَ الْكَسْبِ وَالتِّجَارَةِ فِي الْحَجِّ

١٩٨- ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾

إذا أراد الحاج أو المعتمر أن يتكسب كسبًا مشروعًا من حرفةٍ مًّا، أو يتاجر، وهو يؤدي أعمال الحج أو العمرة، فإنه لا مانع من ذلك، على أن تكون النية وأساس السفر والانتقال، لأداء الحج والعمرة، ويكون العمل تابعًا لذلك، حتى يُؤجر ويثاب، ولا تكون التجارة في الأيام التي تُؤدى فيها المناسك بالفعل؛ لأن لكل وقت عبادة لا تزاحمها عمل آخر ، وأعمال الحج لا تستغرق شهر شوال وذا القعدة وعشرًا من ذي الحجة، بل يكون جُلها في يوميْ التاسع والعاشر من ذي الحجة.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾[البقرة: ١٩٧، ١٩٨]

وقد نزلت هذه الآية في قوم كانوا يتاجرون في موسم الحج فخافوا أن يؤثِّر البيع والشراء عليهم وهم حُرُم، وقال تعالى في جواز ذلك:

---

(١) «المسند» (٩٦٩٦) بإسناد حسن، والبخاري في الأدب المفرد (٢٨٩، ٢٩٤) والترمذي (٢٠٠٤) وابن ماجه (٤٢٤٦) وابن حبان (٤٧٦) والحاكم (٤/ ٣٢٤) والبيهقي في «الشعب» (٤٩١٤) وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٩٧٧).

(٢) «صحيح سنن الترمذي» (٢٧٣٩) والحاكم (٢/ ٩٧).

(٣) «صحيح سنن الترمذي» (٢٧٤٠) والنسائي في «الكبرى» (١٠٣٣٩) وابن ماجه (٢٧٧١) والحاكم (١/ ٤٤٥).

﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٨] وابتغاء الفضل وشهود المنافع، يكون بالتجارة والكسب المباح، على ألا يُلهيه ذلك عن إخلاص النية والعبادة ومراعاة أداء المناسك، والخوف من الله تعالى، والتجرد لطاعته والاستعانة على ذلك بأمور الدنيا.

وقد لفت القرآن الكريم أنظار قوم كانوا يأتون إلى موسم الحج من غير زاد ويقولون: نحن متوكلون، نحج بيت ربنا أفلا يطعمنا؟! لفت أنظارَهم إلى أنه ينبغي عليهم أن يتزودوا بالنفقة ولا بأس عليهم من سلوك سُبُل مشروعة كالعمل والكسب أثناء الحج بالتجارة ونحوها ومنعهم من التكفف وسؤال الناس فى الحج.

طلب الرزق في الحج:

بعض الناس يَخْرُج للحج وعنده مهمة: مهمة عمل، طبيب يعالج، أو صيدلي يعطي الدواء، أو سائق يسوق، أو طباخ يطبخ، أو تاجر يتاجر بأمواله، أو في عرض من عروض التجارة، أو غير ذلك من الأعمال، هل هذه المهمات إذا قام بها المسلم وهو يحج بيت الله الحرام تتنافى أو تتعارض مع الحج؟

وقد سمَّى الله ذلك فضلًا منه سبحانه فقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: في موسم الحج، بالتجارة والربح، والحصول على رزق، وابتغاء عمل دنيوي، شريطة أن تكون نيته الأساس حج بيت الله الحرام، أو أداء العمرة، فلا يمنع أن يمارس الحاج هذه المهمة التي يزاولها إلى جوار القيام بالمناسك كالطواف والسعي وسائر أعمال الحج أو العمرة، فليس عليه إثم ولا حرج في ذلك، وسماه الإسلام ابتغاء فضل الله؛ أي: طلب رزق الله، والسعي على المعاش.

قال ابن عباس ﷺ: كانت عكاظ، ومجنة، وذو المجاز، أسواقًا في الجاهلية، فكانوا يَتّجِرُون فيها، فلما كان الإسلام تأثَّموا منها، فسألوا النبي ﷺ فأنزل الله الآية[١]

وكانت سوق عكاظ تُفتح في أول شهر ذي القعدة وتدوم عشرين يومًا، ويباع فيها

---

(١) الحديث عن سعيد بن الربيع الرازي، شيخ الطبري، في البخاري (٤/٢٤٨) مع الفتح وهو في «تفسير الطبري» برقم (٣٧٩١) ((٤/١٦٩) وهو في «صحيح البخاري» برقم (١٧٧٠، ٤٥١٩) وفي «تفسير سعيد بن منصور» (٣٥٠) وابن أبي حاتم (١٨٤٦) والبيهقي في «السنن» (٤/٣٣٣).

نفائس السلع، وتتفاخر فيها القبائل ويتبارى فيها الشعراء، وهي بين مكة والطائف، ثم يخرجون من عكاظ إلى مجَنة ثم ذي المجاز، ويظلُّون فيها إلى نهاية ذي القعدة.

﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ﴾ **وسميت كذلك:**

١- لأن أرض عرفات وُصفت لإبراهيم فلما رآها عرفها.

٢- وقيل: التقى آدم وحواء عليها فتعارفا.

٣- وقيل: علَّم جبريل إبراهيم مناسك الحج ثم قال له: عرفت؟ فسمي المكان بعرفات، وسمي اليوم عرفة.

٤- وقيل: إن إبراهيم لما رأى في منامه أن يذبح ابنه فلما أصبح أخذ يتروى؛ أي: يفكر، فسمي يوم التروية، ثم رآها مرة أخرى فعرف أنها من الله لا من الشيطان، فَسُمِّي اليوم بعرفات. والإفاضة من عرفات لا تكون إلا بعد الوقوف بها.

قوله تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾ سميت المزدلفة مشعرًا من الشعار؛ لأنه من معالم الحج، والوقوف بمزدلفة متأخر عن الوقوف بعرفة، ويكون ذلك بالمبيت بها ليلة النحر، وبعد صلاة الفجر يُكْثِر الحاج من الدعاء حتى يُسْفر جدا.

وفي الآية توجيه للمسلمين أن يُكثروا من ذكر الله سبحانه، وفي مقدمة ذلك صلاة المغرب والعشاء والفجر عند المشعر الحرام في مزدلفة، **وتسمى:**

١- (الجمع) لأن آدم اجتمع فيها بحواء، وازدلف إليها؛ أي: دنا منها.

٢- أو لأنها يُجمع فيها بين المغرب والعشاء.

٣- أو لأن الناس يزدلفون (أي: يتقربون) بالوقوف فيها إلى الله تعالى.

ومزدلفة تقع في الحرم، وقد قيدت بذلك في قوله تعالى (المشعر الحرام) أما عرفة فتقع في الحل، كما يفهم من تقييد المزدلفة بالمشعر الحرام.

أما (مِنَى) فسميت كذلك لِما يمُني؛ أي: يُصَب فيها من الدم.

ولما يُكْثر فيها من التلبية، ومن التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير، قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: اذكروا الله تعالى كما

منّ عليكم بالهداية بعد الضلال، وكما علمكم ما لم تكونوا تعلمون، وقد كنتم قبل القرآن وقبل الرسول ﷺ على ضلال في أقوالكم وأفعالكم، فهداكم الله تعالى بهذه الرسالة.

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: **«ما من يوم أكْثَر من أن يُعتِق الله فيه عبدًا من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة، فيقول: ما أراد هؤلاء»**(١)

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة، وأفضل قولي وقول الأنبياء قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، بيده الخير وهو على كل شيء قدير»**(٢)

ولا يُستحب صيام يوم عرفة للحجاج، فعن أم الفضل بنت الحارث أن ناسًا اختلفوا عندها يوم عرفة في صوم النبي ﷺ، فقال بعضهم: هو صائم، وقال بعضهم: ليس بصائم، فأرسلتْ إليه بقدَح لبن، وهو واقف على بعيره فشربه(٣)

وغير الحاج يُسن له صيام يوم عرفة، كما جاء عن أبي قتادة أن النبي ﷺ قال: **«صيام عرفة، إني أحتسبُ على الله أن يكفر السنة التي قبله، والسنة التي بعده»**(٤)

ثَانِيًا: التَّمَيُّزُ عَلَى النَّاسِ فِي الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ أَمْرٌ جَاهِلِيٌّ

١٩٩-﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾

أفيضوا من مزدلفة من حيث أفاض الناس، من لدن إبراهيم عليه السلام إلى الآن، والمقصود من هذه الإفاضة: رمي الجمار، وذبح الهدايا، والطواف والسعي، والمبيت بمنى ليالي التشريق، وفي نهاية المناسك يأمر سبحانه بالاستغفار والإكثار من ذكره تعالى.

لا فرق في ذلك بين صغير وكبير، ولا بين غني وفقير، ولا بين حاكم ومحكوم، في

---

(١) مسلم (١٣٤٨) والنسائي (٣٠٠٣) وابن ماجه (٣٠١٤) والحاكم (١/ ٤٦٤).

(٢) البيهقي في «الشعب» (٤٠٧٢) و«سنن البيهقي» (٥/ ١١٧) و«السلسلة الصحيحة» (١٥٠٣).

(٣) البخاري (١٦٥٨، ٥٦٣٦) ومسلم (١١٢٣) وأبو داود (٢٤٤١).

(٤) مسلم (١١٦٢) وابن أبي شيبة (٣/ ٩٦) وأبو داود (٣٤٢٥) والترمذي (٧٤٩) والنسائي في «السنن الكبرى» (٢٧٩٦، ٢٨١٣) وابن ماجه (١٧٣٠) والبيهقي (٤/ ٢٨٣).

أداء المناسك، ولا في أماكن الشعائر، فالكل يطوف بالبيت، والكل يسعى بين الصفا والمروة، والكل يرمي الجمرات، والكل يبيت في منى، ويقف في عرفات، على وجه المساواة، لا يتميز أحدهم على الآخر، ولا يختص أحدهم بمكان أوسع أو أمْيز دون الآخر، لا يُضَّيق على المحكوم من أجل الحاكم، ولا على الضعيف من أجل القوي، ولا يستأثر أهل مكة ومَن حولها بالأماكن المفضلة في المشاعر فيُحرَم منها مَنْ قَدِم من بلاد بعيدة، ولا يصح أن يختص فريق من الناس بالإفاضة من عرفة والمزدلفة دون غيرهم، والأصل في هذه التسوية قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ﴾ [الحج: ٢٥] أي: يستوي فيه مَن قَدِم من أقصى المعمورة بمن كان مقيمًا فيه.

روى البخاري وغيره عن عائشة رضي الله عنها قالت: كانت قريش ومن دان دِينَها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يُسمُّون الحمْس، وكان سائر العرب يقفون بعرفات، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه أن يأتي عرفات ثم يقف بها ثم يفيض منها، فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾[1]

وهذه التفرقة من شعائر الجاهلية، فلا يجوز - في كل وقت - لكائن مَن كان حاكمًا أو محكومًا، مهما كان شأنه، أن يجعل لنفسه ميزة على خلق الله في الحج أو في غيره.

لقد كانت قريش ومن تبعها يسمون أنفسهم بالحمس؛ أي: المتحمسون للحرم أكثر من غيرهم، يقولون: نحن أهل الله وسكانُ حرمه، فلا نقف مع الناس في عرفات، وكانوا يقفون في أدنى عرفات، قريبًا من مزدلفة، حتى إذا أفاضوا ونزلوا لا تكون الزحمة، ويترفعون عن الوقوف مع الناس.

وفي لفظ آخر: عن عائشة ﵂ قالت: كانت قريش ومَن على دينها -وهم الْحُمْس- يقفون بمزدلفة، يقولون: نحن قطين الله! (أي: سكان بيته لا نجاوز الحرم) وكان مَن سواهم يقفون بعرفة، فأنزل الله: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾[2]

والحُمْس مشركو قريش ومَن وُلِدوا من العرب مثل خزاعة وكنانة وبني عامر، وكان

---

(١) البخاري (٤٥٢٠) ومسلم (١٢١٩) وأبو داود (١٩١٠) والترمذي (٨٨٤) والنسائي (٣٠١٢).

(٢) «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٤٤٤) والبيهقي (٥/ ١١٣) وهو في البخاري (١٦٦٥) ومسلم (١٢١٩).

العرب كلهم يفيضون من عرفة إلا الحمْس، فكانوا يفيضون من مزدلفة إذا أصبحوا، ويقولون: نحن بنو إبراهيم، وولاة البيت، وقاطنو مكة، وساكنوها، وأهل الحرم، فليس لأحد من العرب حقٌّ كحقنا، ولا مثل منزلتنا، وابتدعوا أمورًا أخرى[١].

والله ﷻ نهاهم عن ذلك، ونهى مَن يصنع صنيعَهم إلى يوم القيامة، فقال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ أي: قفوا مع الناس في عرفات، وأفيضوا من عرفات كما يفيض غيركم ولا تفيضوا من مزدلفة ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ﴾ من مخالفتكم في الموقف في عرفات مع الناس، ومن تقصيركم في أعمال الحج ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وكلما فرغ العبد من عبادة استغفر الله تعالى عن التقصير وشكره على التوفيق، فيكون جديرا بالقبول والتوفيق.

وقد علمنا النبي ﷺ سيد الاستغفار، فيما رواه البخاري عن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: **«سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، ومن قالها في ليلة فمات في ليلته دخل الجنة، ومن قالها في يومه فمات دخل الجنة»**[٢].

وفي الصَّحِيحَيْنِ عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن أبا بكر رضي الله عنه قال: يا رسول الله، علمني دعاء أدعو به في صلاتي، فقال: قل: **«اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم»**[٣].

وفي صحيح مسلم عن ثوبان رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا فرغ من الصلاة يستغفر الله ثلاثًا[٤].

وفي الصَّحِيحَيْنِ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ ندب إلى التسبيح والتحميد والتكبير ثلاثًا وثلاثين، ثلاثًا وثلاثين[٥].

---

(١) يُنْظَرُ أثر عروة رقم (٣٨٣٢) وعبد الله بن أبي نجيح رقم (٣٨٤٠) من «تفسير الطبري».

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٦٣٠٦، ٦٣٢٣).

(٣) «صحيح البخاري» برقم (٨٣٤، ٧٣٧٨) و«صحيح مسلم» برقم (٢٧٠٤).

(٤) من حديث ثوبان في «صحيح مسلم» (٥٩١).

(٥) وذلك في حديث أبي هريرة في «صحيح مسلم» (٥٩٥) و«صحيح البخاري» (٦٣٢٩، ٨٤٣).

وأخرج الطبري بسنده عن العباس بن مرداس السلمي قال: قال رسول الله ﷺ: **«دعوت الله يوم عرفة أن يغفرَ لأمتي ذنوبها، فأجابني أنْ قد غفرت إلا ذنوبًا بينها وبين خلْقي، فأعدتُ الدعاء يومئذ، فلم أُجَب بشيء، فلما كان غداة المزدلفة قلت: يارب، إنك قادر أن تُعوض هذا المظلوم من ظلامته، وتغفر لهذا الظالم، فأجابني أنْ قد غفرت»** قال: فضحك رسول الله ﷺ قال: فقلت: يا رسول الله، رأيناك تضحك في يوم لم تضحك فيه! قال: **«ضحكت من عدو الله إبليس، لما سمع ما سمع، إذ هو يدعو بالويل والثبور، ويضع التراب على رأسه»**[١].

والوقوف بعرفة ركن الحج الأعظم لا يتم الحج إلا به، ومَن فاته الوقوف بعرفة فاته الحج.

وفي الصَّحِيحَيْنِ عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: دفع رسول الله ﷺ من عرفات، وأخَّر صلاة المغرب، حتى إذا كان بالشِّعب نزل فبال، ثم توضأ ولم يسبغ الوضوء، فقلت: الصلاة يا رسول الله، فقال: **«الصلاة أمامك»** ثم ركب، فلما جاء المزدلفة، نزل فتوضأ وأسبغ الوضوء، ثم أُقيمت الصلاة، فصلى المغرب، ثم أناخ كل إنسان بعيره في منزله، ثم أُقيمت العشاء، فصلى، ولم يصلِّ بينهما[٢].

وعرفة كلها موقف ومزدلفة كلها موقف:

في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«كل عرفة موقف، وكل منى منحر، وكل المزدلفة موقف، وكل فجاج مكة طريق ومنحر»**[٣].

وعن جابر أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: **«نحرتُ ههنا، ومِنَى كلها منحر، فانحروا في رحالكم، ووقفتُ ههنا، وعرفة كلها موقف، ووقفتُ ههنا، وجمْعٌ كلها موقف»**[٤] وبطن عُرَنَة ليس من عرفة، وبطن مُحَسِّر ليس من مزدلفة.

والحاج يلبي حتى يرمي جمرة العقبة:

وعن ابن عباس أن أسامة بن زيد كان ردفَ رسول الله ﷺ من عرفة إلى مزدلفة، ثم أردف

(١) «تفسير الطبري» (٤/ ١٩٢).

(٢) البخاري (١٣٩) وتنظر (١٨١، ١٥٤٣، ١٦٦٧) ومسلم (١٢٨٠).

(٣) «صحيح سنن أبي داود» (١٦٦٥) وابن ماجه (٣٠١٢).

(٤) «صحيح مسلم» (١٢١٨).

الفضل من المزدلفة إلى منى، فكلاهما قال: لم يزل النبي ﷺ يُلَبي حتى رمى جمرة العقبة»[١]

كيفية الصلاة في مزدلفة:

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: جمع رسول الله ﷺ بين المغرب والعشاء بجمْع، صلى المغرب ثلاثًا، والعشاء ركعتين بإقامة واحدة»[٢]

مَن يُرخص لهم في الإفاضة من مزدلفة بعد منتصف الليل:

وكان عبد الله بن عمر ﷺ يُقدم ضَعَفة أهله، فيقفون عند المشعر الحرام بالمزدلفة بليل، فيذكرون الله ما بدا لهم، ثم يدفعون قبل أن يقف الإمام، وقبل أن يدفع، فمنهم مَنْ يَقْدُمُ منىً لصلاة الفجر، ومنهم من يقدم بعد ذلك، فإذا قدموا رَمَوْا الجمرة، وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: أَرْخَصَ في أولئك رسول الله ﷺ[٣]

الإفاضة من مزدلفة بعد صلاة الفجر وقبل طلوع الشمس:

وعن عمرو بن ميمون قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه بِجَمْعٍ بعد ما صلى الصبح وقف فقال: إن المشركين كانوا لا يُفيضون حتى تطلع الشمس ويقولون: أَشْرِقْ ثَبير، وإن رسول الله خالفهم فأفاض قبل طلوع الشمس[٤]

وثبير اسم لأعظم جبال مكة على يسار الذاهب إلى منى، وقد عُرف هذا الجبل باسم رجل مدفون فيه اسمه ثبير، ومعنى (أَشْرِقْ ثَبِير) أي: لتطلع عليك الشمس وأنت عند جبل ثبير.

تمام النسك:

وقال النبي ﷺ لِعُرْوَة بن مُضَرِّسٍ: «**مَن صلى معنا هذه الصلاة (أي: المغرب والعشاء) في هذا المكان (أي: مزدلفة) ثم وقف هذا الموقف حتى يفيض الإمام، وكان وقف قبل**

---

(١) البخاري (١٥٤٣، ١٦٨٧) ومسلم (١٢٨٠، ١٢٨١) والنسائي في «السنن الكبرى» (٤٠٦١، ٤٠٨٨).

(٢) مسلم (١٢٨١) وأبو داود (١٩٢٩، ١٩٣٢) والترمذي (٨٨٧، ٨٨٨) والنسائي (٣٠٢٨، ٣٠٣٠).

(٣) البخاري (١٦٧٦) ومسلم (١٢٩٥).

(٤) في «المسند» (٨٤، ٢٠٠، ٣٨٥) بإسناد صحيح على شرط الشيخين والبخاري (١٦٨٤، ٣٨٣٨) وأبو داود (١٩٣٨) والترمذي (٨٩٦) والنسائي (٣٠٤٧) وابن ماجه (٣٠٢٢) والطيالسي (٦٣).

ذلك من عرفات ليلًا أو نهارًا، فقد تم نسكه وقضى تفثه»[١]

ثَالِثًا: الْحَجُّ لَيْسَ مَجَالًا لِلتَّفَاخُرِ

٢٠٠-﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ[٢] (٢٠٠)﴾

كان للعرب في الجاهلية أسواق، ليست أسواقًا للتجارة، وهي أسواق كلامية، يستمعون فيها إلى الأشعار، والكلام المنظوم والمنثور، يفتخرون في هذه الاجتماعات، بمحاسن آبائهم وأجدادهم، فَيَذْكُرونهم ويذكرون محاسنهم ومناقبهم، ولم تكن هناك صحف، ولا وسائل إعلامية، ولا إذاعات، ولا شبكة معلومات، فكانوا يجتمعون في هذه الأسواق ويتفاخرون بآبائهم وأجدادهم وأحسابهم، وأن فلانًا كان يُطعم الطعام، ويَدفع الدية، ونحو ذلك.

فكانوا إذا فرغوا من الحج يقفون في سوق من هذه الأسواق بين جبل مِنى من جهة العقبة إلى موضع مسجد الخيف، ويذكُرون محاسن آبائهم وأجدادهم، ويتباهون ويتفاخرون بذلك فأنزل الله سبحانه ينهى الناس عن مثل هذه الأمور، ينهاهم عن التفاخر بالأحساب والأنساب، والعصبية للعشيرة أو القبيلة؛ بقصد الشهرة والسمعة وغير ذلك، فإنه لا يفيد المرء إلا تقواه، وعمله الصالح، ولا يغني عنه من الله شيئًا أن يكون أبوه كذا وكذا.

أنزل الله سبحانه يأمر الذين أكرمهم الله بالإسلام أن يستبدلوا ذكر آبائهم وأحسابهم وأنسابهم بذكر الله ﷻ، وبين لهم أنه لا ينبغي أن يُذكر في هذه المشاعر إلا الله ﷻ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ﴾ أي: إذا فرغتم من أعمال الحج بعد طواف الإفاضة ورمي جمرة العقبة والحلق والذبح واستقررتم في منى لا تجلسون للتفاخر بالأحساب والأنساب، ولكن أكثروا من ذكر الله والثناء عليه، مثل ذكر مفاخر آبائكم وأعظمَ منه.

وكانوا يتفاخرون بمناقبهم ومآثرهم وفضائلهم، ويطلبون من الله أن يعطيَهم مثل ما

---

(١) بنحوه في «المسند» (١٦٢٠٨، ١٨٣٠٤) حديث صحيح رجاله ثقات، وأبو داود (١٩٥٠) والترمذي (٨٩١) والنسائي (٣٠٤١) وابن ماجه (٣٠١٦) والحاكم (١/ ٤٦٣) وقال: هذا حديث صحيح على شرط كافة أئمة الحديث، و«صحيح سنن أبي داود» (١٧٠٤). وابن خزيمة ٢٨٢٠ والحميدي ٩٠٠.

(٢) لم يعدّ هذه الكلمة (من خلاق) آية، المصحف المدني الأخير، وعدّها غيره آية.

أعطى آباءهم من المال والجاه، كان الرجل منهم يقوم فيقول: اللهم إن أبي كان عظيمَ القبة، عظيم الجفنة، كثير المال، فأعطني مثل ما أعطيته.

وقال ابن عباس: كان أهل الجاهلية يقفون بين مسجد منى وبين الجبل بعد فراغهم من الحج يذكرون فضائل آبائهم، فيقول الرجل منهم: إن فلانًا كان يُطعم الطعام ويحمل الديات، ليس لهم ذكر غير أفعال آبائهم فأنزل الله الآية[1]

والإسلام لا يطلب من المسلم في الآية أن يُشرك ذكر آبائه مع ذكر الله سبحانه، إنما يقول له: استبدل بذكر الآباء والثناء عليهم ذكر الله تعالى والثناء عليه ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ أي: أكثروا من ذِكْرِ الله تعالى والثناء عليه مثل ذكر مفاخر آبائكم وأعظم من ذلك.

فإذا دعوتَ اللهَ وسألتَه وأنت في هذه الأماكن وغيرها فلا تسأل الدنيا وحدها، لا تسأل الرزق والمرأة والولد والمنصب والجاه والمال، لا تسأل هذا وحده، بل اسأل ربك الدنيا والآخرة، اسأله الجنة، واسأله النظر إلى وجهه الكريم، واسأله أن ييسر لك الحساب يوم القيامة، واسأله أن يؤمنَك من الفزع الأكبر.

فمن الناس فريق همه الدنيا، لا يطلب إلا الصحة والمال والولد، وإذا دعا يدعو للدنيا وحدها، وإذا سعى يسعى للدنيا وحدها، ولا يمنع أن يسعى العبد للدنيا، أو يدعو للدنيا، وإنما لا يفردها بالطلب والدعاء، بل يجعل الآخرة أكبر همه، ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ أي: ليس له نصيب في الآخرة من دعائه ولا من الأجر عليه.

المُؤْمِنُ يَسْأَلُ رَبَّهُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ

٢٠١- ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ[2]﴾

---

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣٧٦٩) وابن أبي حاتم (١٨٧٠) والضياء المقدسي في «المختارة» (١٠٨) وانظر الآثار الواردة في ذلك في الدر المنثور (٢/ ٤٤٥-٤٤٧).

(٢) كلمة (عذاب النار) للمصحف المكي فيها خلاف بين عدّها آية وتركها، وعدها سائر المصاحف العثمانية آية، ومعهم المصحف المكي على الأرجح.

والمؤمن يسأل ربه في الدنيا مالًا وصحةً وجاهًا ونساءً، ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ أي: عفوًا ومغفرةً وجنةً والنظر إلى وجه الله الكريم، يطلب ما عند الله في أخراه من نعيم، ويطلب ما في الدنيا من متاع ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

وقد ورد أن النبي ﷺ كان يدعو بهذه الآية بين الركن والمقام في كل شوط من أشواط الطواف، وهذا الدعاء من أجمع الأدعية، ولهذا كان أكثر دعاء النبي ﷺ كما ثبت في الصَّحِيحَيْنِ عن أنس رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يقول: «**اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار**»[١] قال تعالى:

٢٠٢- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾

ثم بين سبحانه ما أعد للفريق الثاني من عُلُو المنزلة، وسُمُو الدرجات، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْۚ﴾ أي: أولئك الداعون بهذا الدعاء لهم ثواب عظيم بسبب ما كسبوه من الأعمال الصالحة ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ فهو سبحانه محصٍ أعمال العباد ومجازيهم بها، ومحاسبهم عليها في لمحة بصر.

عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ عاد رجلًا من المسلمين قد صار مثلَ الفرخ المنتُوف، فقال له رسول الله ﷺ: «**هل كنت تدعو الله بشيء؟**» قال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنتَ مُعاقبي في الآخرة فعجلْه لي في الدنيا، فقال رسول الله ﷺ «**سبحان الله! إذن لا تطيق ذلك ولا تستطيعه، فهلا قلت: ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار**» ودعا له فشفاه الله[٢]

وعن أنس أيضًا أن ثابتًا قال له: إن إخوانك يحبون أن تدعو لهم، فقال: اللهم آتنا في

---

(١) البخاري برقم (٤٥٢٢) عن أنس، وانظر (٦٣٨٩) ومسلم (٢٦٩٠) زيادة، والبغوي في شرح السنة (٧/ ١٢٨) من طريق الشافعي وابن حبان في صحيحه برقم (١٠٠١) من طريق يحيى القطان عن ابن جريج، والحديث في المسند (١١٩٨١) بإسناد صحيح على شرط الشيخين وأخرجه أبو داود (١٥١٩) والنسائي في الكبرى (١١٠٣٥) وفي عمل اليوم والليلة (١٠٥٦) وابن حبان (٩٤٠).

(٢) «المسند» (١٢٠٤٩، ١٤٠٦٧) والبخاري (٧٢٧، ٧٢٨) ومسلم (٢٦٨٨) والترمذي (٣٤٨٧) والنسائي في «الكبرى» (٧٥٠٦، ١٠٨٩٢) وابن أبي شيبة (١٠/ ٢٦١).

الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، فأعاد عليه، فقال: تريدون أن أشقُقَ لكم الأمور؟! إذا آتاكم الله في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، ووقاكم عذاب النار، فقد آتاكم الخير على الخير كله[١]

وفي هذه الآية دليل على أن الله تعالى يجيب دعوة كل داع، مسلمًا كان أو كافرًا أو فاسقًا، ولكن الإجابة ليست دليلًا على محبة العبد لربه وقُربه منه، إلا في مطالب الأخرة ومهمّات الدين.

ويدخل في حسنة الدنيا: الرزق الواسع والزوجة الصالحة، والولد البار، والعلم النافع، والعمل الصالح، وراحة البال.

ويدخل في حسنة الآخرة: النجاة من عذاب القبر، ومن عذاب النار، والحصول على رضى الله تعالى والفوز بالنعيم المقيم.

التَّكْبِيرُ وَرَمْيِ الْجِمَارِ

٢٠٣- ﴿۞ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣)﴾

ثم يأمرنا سبحانه بالإكثار من ذكر الله تعالى بالتهليل والتسبيح والتحميد والتكبير في الأيام المعدودات، وهي أيام التشريق الثلاثة بعد يوم العيد، ويقطع الحاج التلبية بعد رمي جمرة العقبة في يوم العيد ويبدأ التكبير، ويُكْثِر منه عند رمي الجمار وعند الذبح، ويُشرَع التكبير على وجه الخصوص من صباح يوم عرفة إلى آخر أيام التشريق، جهرًا في الأسواق، والطرقات، والبيوت، والمساجد، ومع كل مرتفع ومنخفض، وعقب رمي الجمار.

وذلك لأن أحكام المناسك تؤدَّى فيها، والناس فيها ضيوف على الله، ولذا فإنها لا تُصام، فللذكر فيها مزية ليست لغيرها.

وفي عيد الفطر من غروب شمس آخر يوم من رمضان إلى أن يدخل الإمام في صلاة العيد، وهذا ما يُسمى بالتكبير المطلق، أما التكبير المقيد فيكون عقب الصلوات في العيدين.

---

(١) البخاري (٦٣٣) و«صحيح الأدب المفرد» (٤٩٣) وابن أبي شيبة (١٠/٣٥٦) وابن أبي حاتم (١٨٨٦).

وكان ابن عمر ﷺ يكبر في منى فيسمع الناس تكبيره، ويكبرون بتكبيره حتى ترتج منى من التكبير، ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ هي أيام التشريق الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من شهر ذي الحجة، والأيام المعلومات هي عشر ذي الحجة، وقد جاء ذكرها في سورة الحج، ﴿فَمَن تَعَجَّلَ﴾ وخرج من منى قبل غروب شمس اليوم الثاني عشر بعد رمي الجمار ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ ولا حرج ولا ذنب ﴿وَمَن تَأَخَّرَ﴾ حتى رمى الجمار في اليوم الثالث عشر ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ وذلك ﴿لِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ الله في حَجه، والتأخر أفضل، والحرج منفي عن المتقدم والمتأخر، وفي ذلك تخفيف وتيسير من الله تعالى بإباحة كلا الأمرين ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ خافوه وراقبوه في أعمالكم، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ بعد موتكم للحساب والجزاء، فمن اتقاه وجد جزاء التقوى عنده، ومن لم يتقه فعقابه شديد وعذابه أليم.

١- في الصحيحين وغيرهما أن ابن عمر رضي الله عنهما كان يرمي الجمرات الدنيا بسبع حصيات، يكبر على إثْر كُل حصاة.

ثم يتقدم إلى بطن الوادي، فيقوم مستقبل القبلة، فيقوم طويلًا، ويدعو، ويرفع يديه، ثم يرمي الوُسطى.

ثم يأخذ بذات الشمال حتى إذا صار ببطن الوادي قام مستقبل القبلة، ثم يدعو ويرفع يديه، ويقوم طويلًا، ثم يرمي جمرة العقبة من بطن الوادي، ولا يقف عندها، ثم ينصرف ويقول: هكذا رأيت رسول الله ﷺ يفعله[(١)]

٢- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: أفاض رسول الله ﷺ من آخر يومه حين صلى الظهر، ثم رجع فمكث بمنى ليالي أيام التشريق، يرمي الجمرة إذا زالت الشمس، كل جمرة بسبع حصيات، يكَبر مع كل حصاة، ويقف عند الأولى وعند الثانية، فيطيل القيام ويتضرع، ثم يرمي الثالثة ولا يقف عندها[(٢)]

٣- وعن نُبيْشَة الهُذَلي قال: قال رسول الله ﷺ: **«أيام التشريق أيام أكل وشُرب وذكر لله تعالى»**[(٣)]

---

(١) البخاري (١٧٥١-١٧٥٣) والنسائي (٣٠٨٣) وابن ماجه (٣٠٣٢).

(٢) أخرجه الحاكم (١/ ٤٧٧).

(٣) مسلم (١١٤١١) والنسائي في «الكبرى» (٤١٨٢).

٤- وعن عبد الرحمن بن يَعْمَر الديْلمي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو واقف بعرفة وأتاه أناس من أهل مكة فقالوا: يا رسول الله، كيف الحج؟ فقال: «**الحجر عرفات، الحج عرفات، فمن أدرك ليلة جمْع قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك، أيام منى ثلاثة أيام، فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه، ثم أردف رجلًا خلفه ينادي بهن**»(١)

٥- وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان إذا قفل من غزوة أو حج أو عمرة يكبر على كل شَرَفٍ من الأرض ثلاث تكبيرات، ثم يقول: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، آيبون، تائبون، عابدون، ساجدون لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده**»(٢)

وَصْفٌ تَفْصِيلِيٌّ لِأَدَاءِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ

العلم قبل العمل: من يريد أن يعبد الله ﷻ فعليه أن يتعلم أولًا كيف يؤدي هذه العبادة؛ ليكون على بصيرة من أمره، وليعبد ربه بما شرع، فالعلم مقدم على العمل، ومن أجَلِّ العبادات وأعظمها حج بيت الله الحرام، وأداء العمرة، ومن يرد الحج أو العمرة ينبغي عليه أن يتعلم كيف يؤدي حجه وعمرته، فينبغي عليه وهو في الميقات قبل النية وقبل الدخول في الإحرام أن يحدد النُسك الذي يريده، هل يحج فقط؟ أو يحج ويعتمر؟ فيحدد النُّسك الذي يريده بقلبه، ويسمى الإفراد نُسكًا، والتمتع نُسكًا، والقران نُسكًا، ويقال لها: أنساك، أو المناسك الثلاثة.

أنواع النسك: الإفراد والتمتع والقران:

والمفرد: هو الذي يريد الحج وحده من غير أن يعتمر.

والمتمتع: هو الذي يعتمر أولًا، فيؤدي مناسك العمرة كاملة منفصلة عن الحج، ويخلع

(١) بنحوه في «صحيح سنن أبي داود» (١٧١٧) وهو في أبي داود (١٩٤٩) والترمذي (٢٩٧٥) والنسائي (٣٠١٦، ٣٠٤٤) وابن ماجه (٣٠١٥) وفي صحيح ابن ماجه (٢٤٤١) بتصحيح الألباني، وفي إرواء الغليل (١٠٦٤) والمشكاة (٢٧١٤) والحاكم (١/ ٤٦٤) والبيهقي (٥/ ١١٦).

(٢) البخاري (١٧٩٧، ٦٣٨٥) ومسلم (١٣٤٤) ومالك (١/ ٤٢١) وأبو داود (٢٧٧٠) والنسائي في «السنن الكبرى» (٤٢٤٣، ١٠٣٧٤).

ملابس الإحرام بعد الفراغ من العمرة، ويلبس ملابسه العادية، ويحل له كل شيء من أخذ الشعر أو الأظافر أو التطيب أو إتيان أهله، وغير ذلك من كل شيء كان قد حل له قبل أن يُحْرِم بالعمرة، سواء أطالت هذه المدة بأن كانت من أول شهر شوال إلى اليوم الثامن من ذي الحجة، أو قصرت، بأن كانت ساعة أو يومًا أو أكثر من ذلك أو أقل، إلى أن يُحْرِم بالحج في ضُحى ثامن ذي الحجة، فيكون قد تمتع بالحج والعمرة في سفر واحد.

والقارن: هو الذي يُقرن الحج مع العمرة في نسك واحد وعمل واحد وسفر واحد.

والقارن والمفرد: يبقى كل منهما على إحرامه، ولا يخلع ملابس الإحرام إلا بعد أن يؤدي اثنين من ثلاثة في يوم العيد أو بعده، وهذه الثلاثة هي: رمي جمرة العقبة، وطواف الإفاضة، والحلق أو التقصير، ثم يحل إحرامه.

الفرق بين المفرد والقارن: ولا فرق بين المفرد والقارن إلا في **أمرين**:

الأمر الأول: النية: فالمفرد ينوي حجًّا فقط، والقارن ينوي الحج والعمرة معًا.

والأمر الثاني: هو أن المفرد لا هدي عليه؛ لأنه حج فقط، أما القارن والمتمتع فعليهما ذبح؛ لأن كُلًّا منهما حج واعتمر في سفر واحد.

وما عدا ذلك فإن أعمال المفرد والقارن واحدة عند جمهور الفقهاء بطواف واحد وسعي واحد، وبطوافين وسعيين عند الأحناف، وكل منهما يبقى على إحرامه من أول النية إلى أن يؤدي اثنين من الثلاثة التي سبق ذكرها في يوم العيد أو أيام التشريق.

والإحرام بالحج بالنسبة للمتمتع يكون يوم الثامن من ذي الحجة، من منى أو من مكة، أو من أي مكان يحرم منه داخل حدود الحرم.

ولكل من الإفراد والقران والتمتع كيفية، على النحو التالي:

أولًا: المفرد: وهو الذي ينوي الإفراد بالحج وحده من الميقات، وله أن يذهب إلى مكة، فيطوف طواف القدوم وهو سنة، وله أن لا يذهب إليها فينزل رأسًا على عرفة أو على منى.

فإن نزل على منى أو عرفة فليس عليه طواف قدوم؛ لأن طواف القدوم سُنة لمن دخل المسجد الحرام، ولا علاقة له بأعمال الحج، فهو تحية البيت، ففي أيِّ وقت يصل فيه

المسلم إلى البيت يحييه بطواف القدوم، وهذا لم يذهب إلى البيت حتى يحييه، وإنما نزل على منى أو عرفة، فيسقط عنه طواف القدوم.

ثم يبيت المفرد في منى ليلة التاسع من ذي الحجة وما قبلها، ويذهب إلى عرفة ويبقى فيها إلى ما بعد غروب الشمس،ثم يدفع بعد نصف الليل أو يبيت في مزدلفة إلى ما بعد صلاة الفجر وقبل طلوع الشمس، ويعود إلى منى فيرْمي جمرة العقبة، ولا هدي عليه، ويحلق رأسه أو يُقَصرْ،ويستوعب الرأس كله في التقصير.

ثم يذهب إلى البيت ويطوف طواف الإفاضة، ويقال له: طواف الحج، أو طواف الزيارة، وكلها بمعنى واحد.

فإن كان لم يأت البيت عند قدومه إلى مكة، ونزل على منى أو عرفات رأسًا، فمعنى ذلك أنه لم يسبق له السعي، وشرْطُ السعي أن يكون بعد طواف، فإذا طاف للإفاضة، فإنه يسعى سعْي الحج بين الصفا والمروة سبعًا، الذهاب مرة والعودة مرة، وبهذا لا يبقى عليه إلا رمي الجمار في اليوم الحادي عشر، والثاني عشر إن تعجل، والثالث عشر إن تأخر.

فإن كان المفرد قد أتى الكعبة أول وصوله من الميقات و طاف طواف القدوم ؛ تحية للبيت، وهو طواف مسنون ومستحب، ثم بعد طواف القدوم له أن يسعى سعي الحج، فإذا سعى سعي الحج بعد طواف القدوم فليس عليه سعيٌ بعد ذلك ، وهذا أيضًا بالنسبة للقارن.

فالحكم واحد عند جمهور أهل العلم، فيقولون: على القارن طواف واحد وسعي واحد، إذا سعى بعد طواف القدوم لا يسعى بعد طواف الحج.

ثانيا: القارن: كالمفرد تمامًا في جميع أعماله عند جمهور أهل العلم ما عدا الأحناف، فإنهم يقولون: إن القارن عليه طوافان وسعيان.

والمفرد والقارن يبقى كل منهما على إحرامه متقيدًا بمحظورات الإحرام من أول الدخول في النسك إلى التحلل الأول، والفرق بينهما في النية والذبح، فالمفرد ينوي الإفراد، والقارن ينوي القران.

والقارن يذبح في يوم العيد أو في أيام التشريق، والمفرد لا ذبح عليه.

ثالثًا: المتمتع: وهو الذي تمتع بالعمرة إلى الحج، ويقال له متمتع **لأمرين**:

أحدهما: لأنه خلع ملابس الإحرام وانفك من محظوراته بعد أن أدى مناسك العمرة، وحل له كل شيء قد حرم عليه بالإحرام، مِن أخذ شعر أو ظفر، أو مس طيب وإتيان أهله، أو لبس المخيط وغير ذلك.

والآخر: لأنه أدى نسكين، وهُما الحج والعمرة في سفر واحد، فهو لم يأتِ للعمرة مرة وللحج مرة، وإنما أدى النسكين في سفر واحد.

هذا: والمتمتع ينوي من الميقات لبيك عمرة، والمفرد ينوي لبيك حجًّا، والقارن ينوي لبيك حجًّا وعمرة.

دخول العمرة في الحج: والعمرة تدخل أعمالها في أعمال الحج بالنسبة للقارن، كما قال النبي ﷺ: «**دخلت العمرة في الحج مرتين (لا، بل لأبدِ أبد)**»[1]ن ولفظ أبي داود «**دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة**»[2] أي: أن بينهما اندماجًا وتداخلًا، فالسعي يكفي للحج والعمرة، والطواف يكفي للحج والعمرة، هذا معنى دخول العُمرة في الحج؛ أي: دخلت أعمال العمرة في أعمال الحج، فالقارن يؤدي نُسكين في نُسك واحد.

أعمال المتمع: والمتمتع ينوي لبيك عمرة؛ لأنه سيؤدي العمرة أولًا، وفي يوم التروية وهو الثامن من ذي الحجة ينوي لبيك حجًّا، فقد نوى العمرة أولًا ثم نوى الحج ثانيًا، أو ينوي عند الميقات لبيك عمرةً متمتعًا بها إلى الحج، والأمر سواء، وله أن يشترط في النية ويقول: فإن حبسني حابس فمحلي حيث حبستني.

ويؤدي المتمتع أعمال العمرة منفصلة، فيطوف طواف العمرة، ويسقط عنه طواف القدوم؛ إذ ليس على المعتمر قدوم، سواء أكانت عمرة تمتع، أو عمرة مستقلة، كما يدخل المسلم المسجد ويجد صلاة الجماعة مقامة، فيتلبس بها ويدخل مع الجماعة ويسقط عنه تحية المسجد.

ومن يصلي السنة الراتبة التي قبل الفريضة كسنة الظهر أو سنة الصبح لا يطلب منه تحية

---

(١) من حديث جابر بن عبد الله في «صحيح مسلم» (١٢١٨).

(٢) سنن أبي داود (١٧٩٠) وصحيح سنن أبي داود (١٥٧٤).

مسجد؛ فصلاة السنة أسقطت عنه تحية المسجد، كذلك الشأن بالنسبة للمعتمر، يطوف طواف العمرة، وطواف العمرة هذا يُسقط طواف القدوم، ويسعى سعي العمرة، وبعد ذلك يقصر من شعره أو يحلق، وإن كانت المسافة قريبة نحو يوم أو يومين، فالأولى له التقصير كي يوفر شعره للحج حتى يحلقه، وإن كانت الأيام طويلة ينبُت فيها الشعر أسبوعًا أو أكثر، فله أن يحلق أولًا في العمرة ويحلق ثانيًا للحج، وبهذا تنتهي العمرة، فيخلع ملابس الإحرام.

وإن كان الوقت قصيرًا لا يسمح له أن يخلع ملابس إحرامه، فالتقصير بالأخذ من الشعْر قد أنهى العمرة، فإن غطى رأسه بعد ذلك بملابسه أو استراح بعض الوقت، فأكل أو صلى أو نام ونحو ذلك، فإنه يكون قد فَصَل بين العمرة والحج إن كان هذا في اليوم الثامن، ولا يلزمه أن يخلع ملابس الإحرام، إنما يفصل بينهما ولو ببضع دقائق.

ثم ينوي الحج من مكانه في حدود الحرم بعد أن يتوضأ أو يغتسِّل إن تيسر له ذلك قائلا لبيك اللهم حجًّا، ويذهب إلى منى إن كان في مكة، ثم إلى عرفات ،ثم إلى مزدلفة، ثم يعود إلى منى فيرمي جمرة العقبة ويذبح هدي التمتع ، ويحلق رأسه ، ويطوف طواف الإفاضة؛ أي: طواف الحج، ويسعى سعي الحج.

فالمتمتع يطوف مرتين، طوافًا للعمرة، وطوافًا للحج، ويسعى مرتين، سعيًا للعمرة، وسعيًا للحج.

وعليه في النهاية طواف الوداع، فهو واجب عند جمهور أهل العلم على الجميع في جميع الحالات، المفرد أو القارن أو المتمتع.

وإذا أخر الحاج طواف الإفاضة لعذر، كأن كان معه ضَعَفة، أو أطفال أو نساء، أو كانت أعداد الحجاج كبيرة والزحام كثير، أو كان الحر شديدًا أو أصابه الإعياء أو الكبر أو المرض، إلى آخر أيام التشريق؛ أي: بعد أن يفرغ من رمي الجمار، سواء تعجل أو تأجل فإن له ذلك عند جمهور أهل العلم.

فبعد نهاية الجمرات يأتي البيت، ويطوف طواف الإفاضة، ويسعى بعده سعي الحج، فإن ذهب إلى بلده مباشرةً فليس عليه طواف وداع؛ لأن طواف الإفاضة أغنى عنه، وإن سعى بعده؛ لأن السعي بعد طواف الإفاضة ليس فاصلًا يُطلب له طواف الوداع.

طواف الوداع: أما الذي يبيت في مكة أو يتاجر فيبيع ويشتري، أو يجلس يومًا أو أكثر، فإن عليه طواف الوداع، أما إن اشترى حاجته من الطريق لأكله وشربه وحاجته، فليس هذا بفاصل، وكذا إن استراح بعض الوقت وصلى، أو خلع ملابسه، أو هيأ أغراضه وركب السيارة.

وإن توقف به المسير لازدحام الطريق لا يلزمه أن ينزل ويطوف طواف الوداع بعد أن ركب للعودة.

وطواف الوداع حكمه واحد لا يختلف بالنسبة للمفرد أو القارن أو المتمتع، ولا يسقط إلا على أهل مكة لأنهم ليس عليهم طواف وداع، وكذا الحائض يسقط عنها للعذر، فإن خرج الحاج أو المعتمر من مكة دون أن يؤدي طواف الوداع، وكان ذلك قبل الوصول إلى الميقات فعليه أن يعود ليودع البيت.

فإن تُرك طواف الوداع لسبب قهري من مرض أو إغماء أو نحو ذلك، فإنه يُجبر بدم عند جمهور أهل العلم، وهو عند المالكية سُنة فلا شيء عليه.

إطلاق النسك: وبعض العوام لا يفهم معنى الإفراد أو القران أو التمتع فلا يستوعب ذلك، أو لا يستحضر النية عند الميقات بالنسبة لتحديد النسك، وفي مثل هذه الحالة إذا أطلق النية من الميقات ولم يحدد إفرادًا ولا قرانًا ولا تمتعًا، فنيته صحيحة، وحجه صحيح ينصرف إلى أيٍّ من المناسك الثلاثة؛ الإفراد أو التمتع أو القران، بعد معرفته أو تذكره لذلك.

أفضل الأنساك: ولا بدَّ للمسلم أن يعرف أنواع المناسك، وأي من الأنساك الثلاثة أفضل، وفي التفاضل بين أنواع المناسك كلام لأهل العلم.

فمن أخذ بقول النبي ﷺ في حديث جابر بن عبد الله ﷺ: «**لو استقبلت من أمري ما استدبرت لم أَسُقِ الهدْي وجعلْتُها عمرة**»[1]

قال: إن هذا هو آخر ما قال رسول الله ﷺ، وهو الأمر الذي تمناه، ولو أنه ﷺ عاد

(١) «صحيح مسلم» (١٢١٦، ١٢١٨) وأبو داود (١٩٠٥) والنسائي (٢٦٠٣، ٢٩٨٥) وابن ماجه (٣٠٧٤).

مرة ثانية فإنه سينوي عمرة، ويتمتع بها إلى الحج، فالأفضل إذن هو ما تمناه الرسول ﷺ وهو التمتع، وهذا قول الحنابلة، ومَن معهم.

والذين قالوا: إن القران هو الأفضل، قالوا: إن النبي ﷺ حج قارنًا، وبهذا قال الأحناف ومَن معهم، فقالوا: إن القران أفضل بالنسبة لمن يسوق الهدي معه كما فعل النبي ﷺ.

ومسألة سوْقُ الهدْي في وقتنا لا تكاد تكون موجودة، فلا يأتي أحد من أقطار العالم الإسلامي ومعه الهدي في سيارته أو بالطائرة، إلا مَن كان قريبًا من الحرم من أهل القرى والبوادي داخل المملكة العربية السعودية فإنه يمكن أن يأتِيَ به في سيارته أو يسوق الهدي معه، والذي يدفع قيمة الهدي لبنك التنمية الإسلامي أو غيره مما هو موكل بهذا لا أعتقد أنه يعتبر ممن ساق الهديْ معه، فهذه المسألة لا تنطَبقُ إلا على من هم حول الحرم في الوقت الحاضر .

ومسألة دفع قيمة الهدْي للبنك للتيسير على الحجاج من جهة؛ وليتم الانتفاع بلحوم الهدي من جهة أخرى، قد حَلتْ مشكلة كبيرة في منى من تكدس اللحوم ودفنها تحت التراب!

واختلف أهل العلم هل النبي ﷺ كان حجه مفردًا أو قارنًا أو متمتعًا؟ **في هذا كلام وأحاديث وردت**:

قال الأحناف والظاهرية: إنه ﷺ كان قارنًا، ففضلوا القران؛ لأنه فِعْلُ النبي ﷺ.

وقال الحنابلة: إن رسول الله ﷺ كان قارنًا، ولكنَّه تمنى التمتع، فالتمتع أفضل.

وقال الشافعية والمالكية: الإفراد أفضل، وقالوا: إن رسول الله ﷺ كان مفردًا، كما ورد في بعض الأحاديث، وقالوا أيضًا: إن المفرد يتفرغ لمناسك الحج والتعرف عليها مفردة، وهي عليه أيسر من التمتع والقران، والإفراد وهو الأصل، أيسر من أن يخلط معه العمرة، ويلتبس عليه الأمر، لا سِيَّمَا في حج الفريضة، وهو اختيار الشافعية.

وقالوا: إن التمتع والقران رخصة لمن قدم من سفر بعيد، فيرخص له أن يأتي بالتمتع أو القران؛ ليؤدي نُسكين في سفر واحد.

وقد أجمع أهل العلم على أن المسلم إذا حَجَّ مفردًا أو قارنًا أو متمتعًا فكل ذلك جائز، وليس فيه حرج، وإن كان بعضهم يُفضل بعض المناسك على بعض.

الْتِمَاسُ الْعِلَّةِ فِي أَعْمَالِ الْحَجِّ

١- لبيك حقًّا حقًّا، تعبدًا ورقًّا:

المسلم يعبد الله تعالى، فيمتثل أمره ويجتنب نهيه؛ خضوعًا وانقيادًا له سبحانه، وإن خَفيت علينا حكمةُ الأمر والنهي، والإسلام لا يطلب من المسلم أن يُلْغِيَ عقله، بل يأمره بالبحث والتأمل وإعمال الفكر والنظر:

﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١] ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ [الأعراف: ١٨٤] ولكن العقول متفاوتة والأفهام مختلفة، وما لا يدركه الإنسان اليوم قد يدركه غدًا، وما لا تفهم البشرية له علة فحكمته أكبر من عقولها، وقد تدركه بعد ذلك.

وعبادتنا لله تعالى لا تتوقف على فَهم العلة والسبب، فالعقل مخلوق، وكل مخلوق ناقص لا يدرك الكمال المطلق، ومن هنا: فإن كثيرًا من العبادات لا مجال للعقل فيها؛ لماذا كان الفجر ركعتين والمغرب ثلاثًا؟ لماذا كان الصيام فى رمضان ولم يكن فى محرم؟ لماذا أُمِرْنا بالمبيت فى منى ومزدلفة؟ ولماذا رمي الجمار وغيره؟ إنها أوامر إلهية، وعلينا الامتثال والطاعة، سواء أدركنا العلة أم لا، وعلينا الإذعان والتسليم والانقياد، طالما كان المأمور به أو المنهي عنه من أحكام الشرع القطعية، فإن أدرك الإنسان لها علة بعد ذلك فالحمد لله، وإلا فعليه الامتثال أو الاجتناب:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١)﴾ [النور]

وقال سبحانه: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [لقمان: ٢٢]

وقال جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦] وأحكام الحج من هذا القبيل.

وقد اجتهد بعض أهل العلم في التماس عِلَلٍ لها، وهم مأجورون على اجتهادهم، سواء صادفوا الحقيقة أو العلة أم جانبهم الصواب فيها، وبعض أعمال الحج مرتبط

بمناسبات معينة تدل على التسليم والانقياد والطاعة:

(أ) كما في قصة إبراهيم حين هَمَّ بذبح ولده؛ فامتثل الوالد والولد والأم، وتعَرَّض له الشيطان في ثلاثة مواطن، فرجَمَه إبراهيم، فأُمِرنا بالرجم في هذه الأماكن.

(ب) وكما في تَرْكِ إبراهيم لزوجه وابنه بواد غير ذي زرع، وسألتْهُ هاجر: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت ثقة بربها وتوكلًا عليه: إن الله لن يضيعنا.

(ج) ومِثْلُ سعي (هاجر) بين الصفا والمروة؛ بحثًا عن الماء لتنقذ وليدها.

(د) ومِثْلُ إظهار القوة للمشركين أثناء الطواف الأول بالرَّمَل فيه (أي: الإسراع في المشي مع تقارب الخطى) الذين قالوا عن المسلمين حين قدموا من المدينة بعد الهجرة: لقد أوهنتْهم حُمى يثرب، فقال ﷺ: **«أرُوهم أن بكم قوة»**[1].

فهذه مناسبات وقْتية، وقد زالت العلة، وظل النسك على ما هو عليه؛ لأن هذه الأمور ليست هي السبب في العبادة على وجه الحقيقة، وإن كان بينهما علاقة وسبب مباشر، فالأصل أن أعمال الحج وغيرها من العبادات مبنية على التسليم والانقياد.

وسوف نذكر شيئًا من اجتهاد العلماء في استنباط علل لأعمال الحج.

٢- التجرد من المخيط والمحيط:

إن المسلم إذا أحرم بالحج أو العمرة فإنه وافدٌ إلى الله تعالى، قادمٌ إلى رحابه، فعليه أن يتجرد من المخيط والمحيط من ثياب الدنيا، ويلبس ما يُذكِّره بالكفن عند الخروج من هذه الحياة، بما يشبه الحفاة العراة، يعلُوه الذل والانكسار، والتجرد من مُتَع الدنيا وشهوات النفس والهوى، إنه ذاهبٌ إلى ربه يجأر إليه سبحانه بالتلبية مجيبًا دعوة إبراهيم عليه الصلاة والسلام: (لبيك اللهم لبيك) (لبيك حقًّا حقًّا تعبدًا ورقًّا).

٣- الميقات والحرم: والدخول من الميقات دخول إلى حِمى الحرم، واقتراب من حدوده، فإن لكل مَلِكٍ حِمى، وهذا حِمَى حَرَمِ الله جَلَّ في علاه.

---

(١) ينظر: صحيح مسلم عن ابن عباس (١٢٦٦) كتاب الحج، باب استحباب الرمل، وصحيح البخاري (١٦٤٩)، (١٦٠٢) والجامع الصغير (١٢٥٣٢).

والمواقيت هي أماكن الإحرام، وهي محيطة بالحرم من كل جانب لجميع الخلق، وأبعدها عن الحرم يبلغ أربع مئة وثلاثين كيلو مترًا، وأدناها نحو يبلغ ثمانية كيلو مترات.

وللحرم حدود تحيط به من كل جانب، أبعدها عن الحرم يبلغ نحو ستة عشر كيلو مترًا وأدناها يبلغ نحو ستة كيلو مترات.

والحرم هو مكان التقاء المدعوِّين فى أحب بلاد الله إلى الله، وأحب البلاد إلى رسوله ﷺ حيث وُلد ونشأ وبُعث ﷺ وحيث وَطئت قدما إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

ويسأل الحاج والمعتمر ربه أن يزيد هذا البيت تعظيمًا وتشريفًا وتكريمًا ومهابةً وأمنًا وبرًّا، وكذلك مَنْ حجه واعتمره، ولْيستحضرِ المحْرِم عظمة الله تعالى حين يرى الكعبة، وعند مغادرته لها، ويسأل الله تعالى ألا يكون ذلك آخر العهد بها.

٤- **الطواف حول الكعبة**: وهي بضعة أمتار من الأرض الخالية طولًا وعرضًا وارتفاعًا، اختار الله هذه البقعة في محاذاة البيت المعمور في السماء السابعة؛ ليطوف حولها الإنسان كما تطوف الملائكة حول البيت المعمور، وليتجهوا إليها فى صلاتهم، ويشدوا إليها الرحل لأداء الركن الخامس، كأنهم يأتون إلى الله تعالى في بيته ويبايعونه على السمع والطاعة والتوبة والإنابة، وليتشبهوا بالملائكة فى الملأ الأعلى، وهم يطوفون بالبيت المعمور فى صفاء الروح، والنقاء من الذنوب، والتغلب على جانب الشهوة، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وليعلم المسلم وهو يطوف بالبيت أنه في صلاة، إلا أن الله تعالى أحل فيه الكلام.

٥- **استلام الحجر الأسود**: ويبدأ المسلم طوافه بالبيت، باستلام الحجر الأسود؛ مبايعة لله تعالى على الطاعة والعبادة والإذعان له جَلَّ شَأْنُهُ وإقامة ذكره، وهو (حَجَرٌ) به إطار من الفضة (قُطْرُه ثلاثون سنتيمترًا) وقد صح عن النبي ﷺ أن هذا (الحجر) ليس من حجارة الأرض، وإنما نزل من الجنة، وكان لونه أشد بياضًا من اللبن.

(أ) أخرج الترمذي بسند صحيح عن ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**نزل الحجر الأسود من الجنة، وهو أشد بياضًا من اللبن، فسودْته خطايا بني آدم**»[1]

---

(١) «صحيح سنن الترمذي» باختصار السند للشيخ ناصر الدين الألبانى حديث رقم (٦٩٥) وفي السنن (٨٧٧) وفي مشكاة المصابيح (٢٥٧٧)، والتعليق الرغيب (٢/ ١٢٣).

(ب) والحجر الأسود ينطق يوم القيامة، ويَشهد لكل مَن استلمه في الدنيا، فهو رمزٌ للمبايعة على التوحيد والإيمان.

وقد صح عن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«والله ليبعثَنه الله يوم القيامة، له عينان ليُبصر بهما، ولسان لينطق به، ويشهد على مَن استلمه بحق»**(١)

(ج) تقبيل الحجر: ومع أن الحجر الأسود حجر لا يضر ولا ينفع، فإنه يستحب للمسلم استلامه وتقبيله عند الطواف بالبيت، ولذلك فقد قبَّله النبي ﷺ، وقبَّله عمر ﷺ وقال: والله إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك، ثم بكى ﷺ حتى علا نشيجه(٢)

(د) وتقبيل الحجر الأسود مشروط بعدم إيذاء الطائفين وإلحاق الضرر بهم، وإلا فيكفيه أن يستلمه بيده ويقبل يده، أو يشير إلى الحجر بيده مع التكبير، أو يستلم من استلمه.

(هـ) وليس في تقبيل الحجر ولا في الطواف بالبيت الحرام شيء من الوثنية، كما يزعم أهل الضلال والإلحاد، وإنما هي معانٍ سامية تليق بجلال الله تعالى، وهي رموز لإقامة ذكر الله ﷻ.

(و) وإذا استلم المسلم الحجر الأسود، فكأنه يبايع الله تعالى ويعاهده على ترك الذنوب والآثام مادام حيًّا، مع اعتقاده بأنه حجر لا يضر ولا ينفع، فتقبيله واستلامه تعظيم لما عظم الله، واقتداء بما فعل رسول الله ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢] ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَـٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠].

٦. **التزام الملتزم**: وإذا التزم العبد باب الكعبة (الملتزم) وتعلق بأستارها في خشوع وضراعة واستكانة، وندم على ما فرط في حق الله وفي حقوق الناس، فهو كالمذنب

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير» ورجاله ثقات كما قال الهيثمي في «مجمع الزائد» ج٣ ص٢٤٣ وهو في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٣٨٢) و«مشكاة المصابيح» (٢٥٧٨).

(٢) ينظر: صحيح البخاري (١٥٩٧)، (١٦١٠) وصحيح مسلم (١٢٧٠) وصحيح أبي داود (١٦٤٩)، وأخرجه الترمذي عن عابس بن ربيعة عن عمر برقم (٦٨٣) وانظر: «صحيح الجامع الصغير» حديث رقم (٩٧٥) و«صحيح سنن ابن ماجه» (٢٣٨١) و«الروض النضير» (٧٢٣).

المتعلق بثياب مَن أذنب فى حقه، يطلب العفو والغفران من جانبه.

٧- **السعي**: فإذا سعى المسلم بين الصفا والمروة فهو يُظهر الحاجة إلى الله تعالى، والافتقار إليه سبحانه بالتذلل، وبذْل الْجُهد والكَد والسعي والنَّصَب فى هذه الحياة، والأخذ بالأسباب في طلب المعيشة والرزق، وفي ذلك تَشَبُّه بهاجَر وهي تسعى جاهدة بحثًا عن الماء لإنقاذ وليدها من الظمأ؛ لتمده بأسباب الحياة، وتهيئ له سبيل العيش، والنجاة من الهلاك، وليعلم المسلم أنه لا حرج ولا إثم عليه في السعي بين هذين الجبلين (الصفا والمروة)؛ لأن ذلك عبادة قديمة، ولا يؤثر عليها ما عرض لها في الجاهلية من وجود صنمي (إساف ونائلة) على الجبلين.

٨- **عرفات**: حين يقف الحاج بعرفات حيث يزدحم الخلائق على اختلاف الألوان واللغات، وترتفع الأصوات بالحاجات؛ يتذكر المسلم الموقف الأعظم يوم الحشر الأكبر، يوم القيامة حيث اجتماع الأمم مع الأنبياء، واقتفاء كل أمة نبيها وطلبها شفاعته، ويتحيرون في الصعيد الواحد بين الرد والقبول، فقد اجتمع الحجاج جميعًا مِن شتى أرجاء الدنيا فى صعيد واحد؛ ليلتقوا بربهم استجابة للدعوة الإلهية التي وُجهت إليهم بواسطة خليل الرحمن، ليحظَوْا منه سبحانه في ساحة الكرم والجود والإحسان والعطاء ومغفرة الذنوب وتفريج الكروب بالعفو والعافية والتجاوز عن الذنوب، والعودة من الموقف كيوم ولدتهم أمهاتهم، حيث يقول الله تعالى لملائكته في ذلك اليوم العظيم: **«انظروا إلى عبادي شعثًا غبرًا، جاؤوا من كل فج عميق يرجون رحمتي، ولم يروا عذابى، أشهدكم يا ملائكتي أني قد غفرت لهم»**[1]

والصحيح: أن الحج المبرور يَغفر الذنوب كلها عدا حقوق العباد، وعلى المسلم أن يحسن الظن بالله تعالى حين يفيض من عرفات فيعلم أن الله تعالى قد غفر له ذنبه، وستر له عيبه إن كان حجه صحيحًا مبرورًا خاليًا من الرفث والفسوق والجدال وكان من مال حلال.

٩- **مزدلفة**: بعد أن ينتهيَ الحجاج من الوقوف بعرفة، ينصرفون بعد غروب الشمس إلى

(١) يُنْظَر: حديث جابر في صحيح ابن حبان (٣٨٥٣) قال محققه: حديث صحيح، وهو في كشف الأستار للبزار (١١٢٨) وعند أبي يعلى (٢٠٩٠) وابن خزيمة (٢٨٤٠) ويُنْظَرُ: البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٠٦٨). و عن عبدالله بن عمرو في مسند أحمد (٧٠٨٩) إلى (غبرا) بإسناد لا بأس به وعن أبي هريرة (٨٠٤٧) حديث صحيح، أفاده محققو المسند.

مزدلفة؛ ليبيتوا ليلة العيد بالمشعر الحرام في فرح وبهجة وسرور، على ما أنعم الله عليهم به من إجابة الدعاء وقبول الرجاء والرجوع من حجهم كيوم ولدتهم أمهاتهم، والفوز برضا الله تعالى والجنة.

وقبل عودتهم إلى بيت خالقهم يَشْفُون صدورهم، ويُذْهبون غيظ قلوبهم، ويُعبرون عن توبتهم وعداوتهم للشيطان وقهرهم له وتغلُّبهم على نزغاته، كما تغلَّب عليه مِن قبلأبوهم إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام.

١٠- **الحلق**: أما الحلق أو التقصير فهو إلقاء للتفث، وإزالة للشعث، بعد هذه الرحلة المضْنية التي هي نوع من الجهاد، وقبل الإقبال على بيت الله الحرام لأداء طواف الإفاضة، وحضور الحفل المشهود في الوفد القادم إلى ساحة المولى سبحانه، بعد التخلص من كل أثر دنيوي ظاهر.

١١- **الهدي**: والذبح رمزٌ للتضحية والفداء، وإعلامٌ بشكر الله تعالى، وإظهارٌ للفرح والسرور، واقتداءٌ بخليل الرحمن حين نجح فى الابتلاء المبين، وفَدَى الله الغلام بذبح عظيم.

١٢- **أمن الْمُحْرِمِ والحرم**: إن المحرم بالحج أو العمرة يحظى بالأمن والأمان في زمان الحج ومكانه؛ حيث يجب وقف القتال وحقن الدماء، بل لا يجوز له أن يعتدي على نفسه أثناء الإحرام بأخذ شعر أو قص ظفر، ويمتد هذا الأمن إلى النبات والشجر والحيوان، فهو أمان فريد من نوعه شمل الإنسان على الأرض، والطير في الجو، والصيد فى البر، والنبات فى الأرض، وأُشْرِبَ المحرمَ روحَ السلام في كل شيء.

١٣- **وحدة الأمة**: والمحرمون وحدة واحدة في المشاعر والشعائر والهدف والعمل والقول، إنهم يؤمنون برب واحد، ورسول واحد، وكتاب واحد، ويطوفون ببيت واحد، ويتجهون لقبلة واحدة، ويؤدون جميعًا أعمالًا واحدة، لا فرق فيها بين لون ولون، ولا جنس وجنس، ولا لغة ولغة، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [المجادلة: ١٣] الكل في ساحة ملك الملوك، لا يمتاز أحدهم على غيره إلا بصالح عمله ونقاء سريرته.

حُرْمَةُ الْمَدِينَةِ وَفَضْلُهَا وَفَضْلُ الْمَوْتِ فِيهَا

(أ) وكما يَحرم صيدُ حرم مكة وشجره يحرم كذلك صيد حرم المدينة وشجره:

عن جابر بن عبد الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«إن إبراهيم حرَّم مكة، وإني حرمت المدينة ما بين لابتيْها»**(١)

وفي حديث علي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال عن المدينة: **«لا يختلى خلاها، ولا ينفر صيدها، ولا تلتقط لقطتها إلا لمن أشاد بها** (أي: عرفها) **ولا يصلح لرجل أن يحمل فيها السلاح لقتال، ولا يصلح أن تُقطع فيها شجرة إلا أن يعلف رجل بعيره»**(٢)

وحَرَمُ المدينة ما بين لابتيها (الحرة الشرقية والغربية) اثنا عشر ميلًا، وليس في قطع شجر الحرم المدني ولا في قتل صيده جزاء، وإنما فيه إثم وذنب، فالعقوبة فيه أُخروية.

(ب) فضل المدينة: المدينة قِبَّة الإسلام، ودار الإيمان، وأرض الهجرة، ومثوى الحلال والحرام، دعا لها النبي ﷺ بالبركة فيها وفي أرزاقها وأقواتها.

ومن صبر على الإقامة فيها كان النبي ﷺ له شفيعًا وشهيدًا، ومن أرادها بسوء أذابه الله كما يذوب الملح في الماء، والمدينة كالكير تنفي خبثها.

وفي الصحيح عن أبي هريرة ﷺ: **«إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأْرِزُ الحية إلى جُحْرها»**(٣)

(ج) فضل الموت في المدينة:

والموت في المدينة له فضل كبير حيث يفوز مَن دُفن فيها بشهادة النبي ﷺ وشفاعته، وقد دعا عمر ﷺ ربه أن يرزقه الله الشهادة، ويجعل موتَه في حرم رسوله ﷺ.

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ط سنة ١٤٠٠ هـ حديث رقم (٤٥٨) ج٢ ص٩٩٢ وفي ط بيت الأفكار الدولية برقم (١٣٦٢) وعن مروان بن الحكم برقم (١٣٦١) وعن رافع بن خديج برقم (١٣٦١).

(٢) أخرجه أبو داود، (٢٠٣٥) وهذا اللفظ له وهو في «صحيح سنن أبي داود» برقم (١٧٩٠) وفي المسند برقم (٢٩٦٢، ٣٢٥٣) عن ابن عباس بنحوه وإسناده صحيح على شرط الشيخين كما قال محققوه، وهو في مصنف عبدالرزاق (٩١٩٣).

(٣) البخاري (١٨٧٦) وفي مسلم (١٤٧) ورواه أحمد أيضًا في «المسند» برقم (١٤٤٠، ٧٨٤٦) وانظر: «صحيح الجامع الصغير» حديث رقم (١٥٨٥).

فاللهم ارزقنا الشهادة، واجعل موتنا في حرم رسولك ﷺ[١]

زيارة المسجد النبوي: أعمال الحج كلها تُؤَدَّى في مكة ومنى وعرفات، ولا عَلاقة لفريضة الحج أو العمرة بزيارة المدينة المنورة، مع ما للمدينة والمسجد النبوي الشريف من فضل عظيم.

والمسافة بين مكة والمدينة تقرب من خمس مئة كيلو مترًا.

وينبغي على الحجاج والعُمَّار أن يفرِّقوا بين الحج والعمرة والزيارة، وقد شاعت لدى العامة أحاديث ضعيفة وموضوعة في هذا المقام مثل: (من حج ولم يزرني فقد جفاني)، ومثل: (من زارني ميتًا فكأنما زارني حيًّا)، ومثل: (من زار قبري وجبت له شفاعتي)، ومثل: (مابين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة)؛ فترسَّب في أذهان العامة الربط بين الحج والزيارة.

ولأن القادم إلى الحج من بلاد بعيدة على قلة يده ، لا يتيسر له زيارة المسجد النبوي إلا في موسم الحج، فهو يتوجه إلى المدينة المنورة قبل الحج أو بعده، مع أن زيارة المسجد النبوي تُشرع في أيِّ وقت من العام، سواء في وقت الحج أو خلافه، وينبغي أن يَقصد الزائر حين يتوجه إلى المدينة المنورة أن يزور المسجد النبوي؛ لحصول الأجر الموعود به على الصلاة فيه، حيث إنه المسجد الثاني الذي يُشرع شد الرحل إليه.

في الحديث المتفق على صحته عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى»**[٢]

وهذا الحديث يتعلق بزيارة المسجد النبوي ولا علاقة له بزيارة قبر النبي ﷺ.

وعن أبي هريرة وابن عمر وميمونة وجابر ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة في سواه إلا المسجد الحرام»**[٣]

---

(١) راجع الأحاديث الواردة في ذلك في الصحيحين، وفي الترغيب والترهيب وغيرهما في فضل المدينة.

(٢) انظر: «صحيح الجامع الصغير» حديث رقم (٢٠٩) وهو عن أبي هريرة وابن عمر وأبي سعيد، في البخاري (١١٨٩) ومسلم (١٣٩٧) وأبو داود (٢٣٠٣) وابن ماجه (١٤٠٩) والمسند (٧١٩١) وابن حبان (١٦١٩).

(٣) أخرجه أحمد برقم (٤٤٦، ٧٢٥٣) وابن ماجه بإسناد صحيح برقم (١١٥٣، ١١٥٥) انظر: «صحيح الجامع الصغير» ج٤ رقم (٣٧٣٢) وهو في البخاري (١١٩٠) ومسلم (١٣٩٤) والترمذي (٣٢٥) وابن حبان (١٦٢١).

زيارة قبر النبي ﷺ:

زيارة القبور مشروعة بشكل عام لقول النبي ﷺ عن بريدة **«نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها»**[١] ولفظ لأحمد **«إني كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكر الآخرة»**.[٢]

فإذا وصل المسلم إلى المسجد النبوي فلْيصلِّ أولًا فيه صلاة فريضة أو نافلة، ثم يُسن له بعد ذلك زيارة قبر النبي ﷺ بأن يقف بخشوع وأدب وهدوء مستقبل القبر مستدبر القبلة، قائلًا:

السلام عليك يا رسول الله، ورحمة الله وبركاته، السلام عليك يا قائد الغر المحجلين، أشهد أنك عبد الله ورسوله، وأنك قد بلغت الرسالة، وأديت الأمانة، ونصحت الأمة، وجاهدت في الله حق جهاده . . . إلخ.

ويخفض صوتَه، ويتخير من الأدعية ما يشاء على ألا يأتي بألفاظ شركية أو يتمسح بالقبر، ونحو ذلك.

ثم ينتقل خطوة إلى اليمين، ويُسلِّم على أبي بكر الصديق ﷺ قائلًا: السلام عليك يا خليفة رسول الله، رضي الله عنك وجزاك عن أمة محمد خيرًا.

ويتنحَّى إلى اليمين قليلًا ويسلِّم على عمرَ الفاروق ﷺ.

وتحصل السنة بالسلام على النبي في أيِّ مكان حال الزحام؛ لقول النبي ﷺ: **«لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، ولا تجعلوا قبري عيدًا، وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم»**[٣]

ويستقبل القبلة بعد ذلك ويدعو لنفسه ولأحبابه ووالديه وإخوانه وجميع المسلمين.

ويستحب له الإكثار من الصلاة والعبادة في الروضة الشريفة، ويستحب له أن يتطهر

---

(١) من حديث بريدة في صحيح مسلم (٩٧٧) وفي المسند عن ابن مسعود (٤٣١٩).

(٢) عن بريدة برقم (٢٣٠٠٥)، حديث صحيح إسناده قوي، رجاله ثقات رجال الشيخين، غير عطاء الخراساني، فقد أخرج له مسلم متابعة، وهو صدوق لا بأس به، أفاده محققو المسند وعن على (١٢٣٦) و في معناه في مصنف عبدالرزاق (٦٧٠٨) عن على بلفظ قريب منه.

(٣) من حديث أبي هريرة في«سنن أبي داود» بإسناد حسن ورجاله ثقات، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» برقم (١٧٩٦).

ويأتي مسجد قباء فيصلي فيه ركعتين وله أجر عمرة، ويزور الرجال قبور الشهداء في أُحد، وأهل البقيع ﷺ أجمعين.

وفي حديث أبي هريرة أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: **«ما من أحد يُسلِّم عليَّ إلا ردَّ الله عليَّ روحي حتى أرد عليه السلام»**[1]. وقد حرّم الله على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء.

قال محمد بن المنكدر: رأيتُ جابرًا وهو يبكي عند قبر رسول الله ﷺ ويقول: ههنا تُسكب العَبَرات، سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة»**[2].

وهذه الآية (واذكروا الله) هي تتمة الكلام عن مناسك الحج في سورة البقرة، فالأولى للقارىء أن يبدأ تلاوته بالآية التالية (٢٠٤) لاختلاف السياق وتبايُن المعنى.

انتهى الجزء الأول من هذا التفسير بفضل الله تعالى، ويليه الجزء الثاني مبدوءًا بقوله ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ البقرة: ٢٠٤.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.



(١) أخرجه البيهقي برقم (١٥٨١) ويُنْظَر: «السلسلة الصحيحة» برقم (٢٢٦٦).

(٢) أخرجه البيهقي برقم (٤١٦٣) وأصل الحديث في البخاري (١٨٨٨) ومسلم (١٣٩١).

الآية	فهرس الموضوعات	الصفحة

فهرس الموضوعات